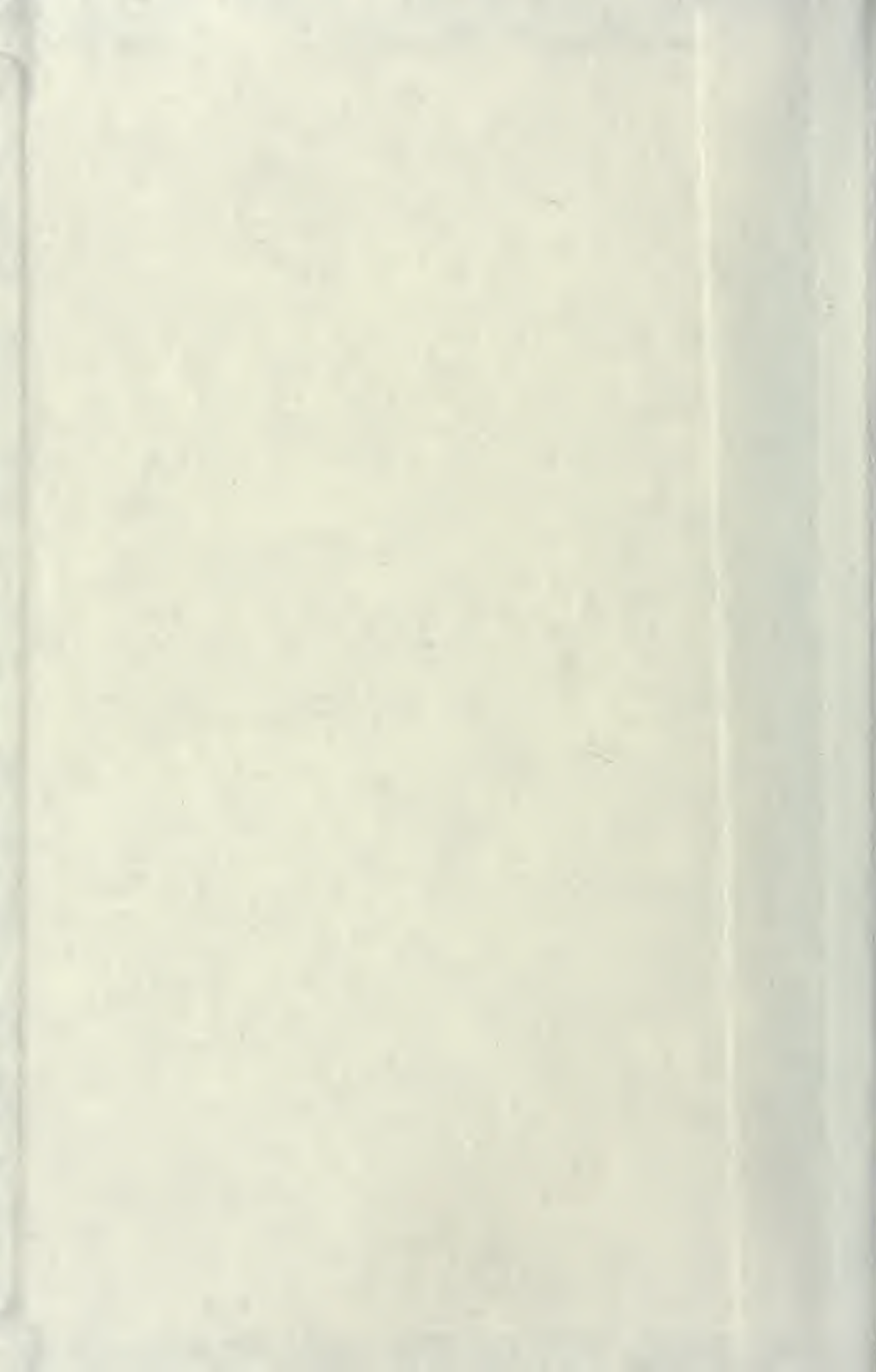
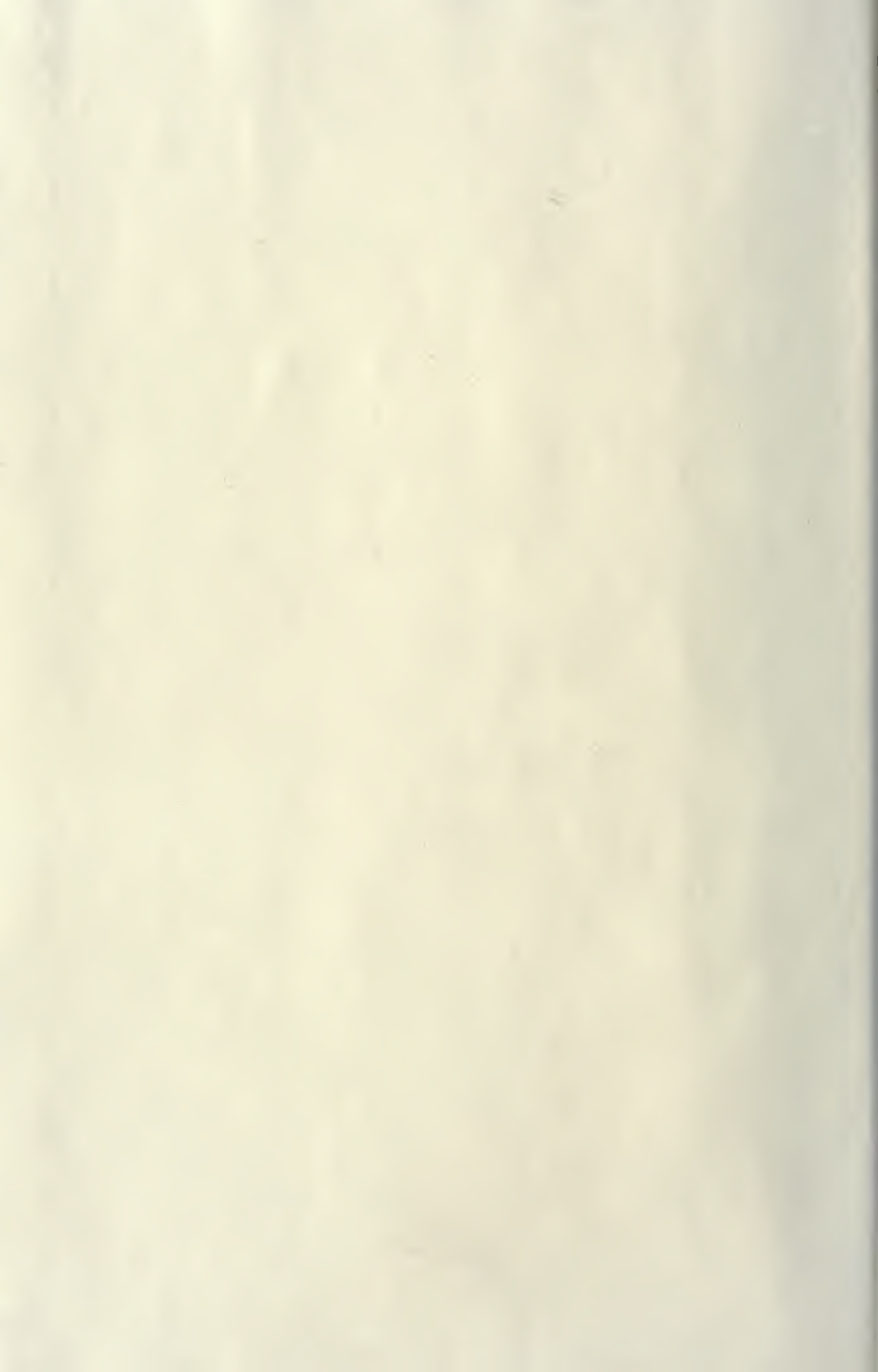


3 1761 03616 9530







- ٢٠٠ فصل في إبطال احتجاجهم بقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً)
- ٢٠٣ د في إبطال ما تمسكوا به من أن الخليل تمسك في إثبات الصانع بالدلائل الفلكية
- ٢٠٥ د في إبطال استدلالهم على علم النجوم بنهي النبي عليه السلام عن استقبال النيرين
- ٢١٤ د في إبطال استدلالهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر النجوم فأمسكوا
- ٢١٥ د في بيان سبب كراهية المنجمين للسفر والقمر في العقب
- ٢١٦ د في إبطال ما احتجوا به من نهى على رضى الله عنه عن السفر في محاق الشهر
- ٢١٨ د في إبطال احتجاجهم بحديث أبي الدرداء
- ٢١٩ د في إبطال ما نسبوه إلى الشافعي من حكمه بالنجوم
- ٢٢٦ د في إبطال قولهم أن هذا علم ما خلت عنه أمة من الأمم ولا ملة من الملل
- ٢٢٧ د وأما ماذكروه عن الفرس من اعتنائهم بطالع النطفة
- ٢٣٣ د في حديث يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب
- ٢٤٨ د الآن التقت حلقتا البطان وفيه الكلام على إبطال الطيرة
- ٢٥١ د فيما روى عن عمر أنه سأل رجلاً عن اسمه فقال جرة
- ٢٥٢ د وأما محبة النبي عليه الصلاة والسلام التيمن
- ٢٥٣ د في قوله صلى الله عليه وسلم الشؤم في ثلاث الحديث
- ٢٥٧ د وأما حديث دعوا ذميمة لدار سكنوها فرأوا فيها شراً
- ٢٥٨ د وأما قوله صلى الله عليه وسلم للذي سل سيفه يوم أحد الخ
- ٢٥٩ د وأما قوله صلى الله عليه وسلم واقد وقدت الحرب
- ٢٥٩ د وأما استقباله عليه الصلاة والسلام الجليلين الخ
- ٢٦٠ د وأما كراهية السلف أن يتبع الميت بشيء من النار
- ٢٦١ د وأما تلك الوقائع التي ذكروها بما يدل على وقوع ما نظير به
- ٢٦١ د وبما كان أهل الجاهلية يتطيرون به ويتشاءمون منه العطاس
- ٢٦٤ د في بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم لا يورد بمرض على مصح
- ٢٧٠ د في بيان ماورد من نهيه صلى الله عليه وسلم عن وطء الغيل
- ٢٧١ د في معنى قوله عليه الصلاة والسلام لمن قال له إني أعزل عن أمي سيأتها ما قدرها
- ٢٧٢ د في بيان ما روى من قوله صلى الله عليه وسلم فر من المجذوم فراك من الأسد

فهرس

الجزء الثاني من كتاب مفتاح دار السعادة

صحيفة

- | | |
|-----|---|
| ٢ | فصل في بيان حاجة الناس إلى الشريعة |
| ٣ | الشرائع كلها في أصولها وإن تمايزت متفقة |
| ١١ | وقد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين |
| ١٤ | وتحقيق هذا الكلام في مقامين |
| ١٦ | وأما المسئلة الثانية وهي ما تساوت مصلحته ومفسدته |
| ٣٢ | وهي ما سر بديع من أسرار الخلق والأمر |
| ٣٤ | وأما ما خلقه سبحانه فإنه أوجده لحكمة في إيجادها |
| ٣٧ | فهذه أقوى أدلة نفاة الحسن والقبح الذاتيين |
| ٤٢ | وإذ قد انتهينا في هذه المسئلة إلى هذا الموضع |
| ٤٤ | وقد سلم كثير من النفاة أن كون الحسن والقبح بمعنى الملائمة والمنافرة عقلي |
| ٦٢ | إذا علمت هذه المقدمة فالكلام على كلفة النفاة من وجوه |
| ٩٠ | والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية |
| ٩٠ | في اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين |
| ١٠٠ | وعكس هذا أنه لم تشترط المسكافة في علم ولا جهل |
| ١١٠ | وكذلك الكلام في الإيجاب في حق الله سواء الأقوال فيه كالأقوال في التحريم |
| ١١٢ | وقد ظهر بهذا بطلان قول طائفتين معا |
| ١١٨ | في قول الفلاسفة أن المقصود من الشرائع استكمال النفس قوى العلم والعمل |
| ١٢١ | في أن الفلاسفة ذكروا كمالات النفس الأربع إلا أنهم لم يبينوا متعلقها |
| ١٢٦ | ببحث في إبطال قول المنجمين أن في اتصالات الكواكب نظر سعد ونحوس |
| ١٤٨ | فصل في ذكر رسالة أبي القاسم عيسى بن علي في إبطال علم النجوم مع تعليقات للمصنف |
| ١٦٩ | فلنرجع إلى كلام صاحب الرسالة قال وزعموا أن القمر والزهرة مؤنثان |
| ١٨٥ | قال صاحب الرسالة ذكر طرف من احتجاجهم والاحتجاج عليهم |
| ١٩٤ | في إبطال ما احتج به المنجمون من الآيات القرآنية |
| ١٩٦ | في إبطال ما ذكره من تمسك إبراهيم الخليل عليه السلام بعلم النجوم |
| ١٩٨ | في إبطال احتجاجهم بقوله تعالى (خلق السموات والأرض أكبر) |

يجعله خالصاً لوجهه وأن يعيننا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه إنه قريب مجيب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

(كان في آخر الأصل ما نصه)

الكتاب المسمى بفتح السعادة وهو كتاب نفيس لا يمل الجليس وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا يوجد ذلك أسواه وفيه من البحوث ما يستقصى كل علم إلى فنه واسمه مطابق لمسماه ولفظه موافق لمعناه فإن فيه من الإفادة ما يحدد إلى دار السعادة وذلك على يد أفقر خلق الله المتوكل في جميع أحواله المعترف بالخطأ والزلل والمسيء في القول والعمل أحمد بن محمد الصعیدی المكي الحنبلي عفا الله عنه وكان تمام ذلك في ٢٢ رجب سنة ١٨٤١ وحسبنا الله ونعم الوكيل

أشرف على تصحيحه ومراجعته الأستاذ فكري أبو النصر من خريجي الأزهر الشريف

ما يتطير منه شيئاً قال ابن مسعود ما منا إلا من يعنى يتطير واسكن الله يذمبه بالتوكل وقد روى مرفوعاً والصواب عن ابن مسعود قوله فالطيرة إنما تصيب المتطير لشركه والخوف دائماً مع الشرك وإلا من دائماً مع التوحيد قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال في حاجته لقومه (وكيف أخاف ما أشركتم به ولا تخافون أنسكم أشركتم بالله ما ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) خذكم الله عز وجل بين الفريقين بحكم فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك هم الأمن وهم مهتدون) وقد صح عن رسول الله ﷺ تفسير الظلم فيها بالشرك وقال ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك أظلم عظيم) فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف ولذلك من خاف شيئاً غير الله ساط علىه وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه ولو خاف الله دونه ولم يخفه لكان عدم خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه وكذلك من رجا شيئاً غير الله حرم ما رجاه منه وكان رجاؤه غير الله من أقوى أسباب حرمانه فإذا رجا الله وحده كان توحيد رجاؤه أقوى أسباب الفوز بما رجاه أو بنظيره أو بما هو أنفع له منه والله الموفق للصواب وليسكن هذا آخر الكتاب وقد جلبت إليك فيه نقائس في مثلها يتنافس المتنافسون وجلبت عليك فيه عرائس إلى مثلهن بادر الخاطبون فإن شئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله وشدة الحاجة إليه وشرفه وأهله وعظم موقعه في الدارين وإن شئت اقتبست منه معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات جليات تلج القلوب بغير استئذان ومعرفة حكمته في خلقه وأمره وإن شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة وشدة الحاجة إليها ومعرفة جلالها وحكمتها وإن شئت اقتبست منه معرفة النبوة وشدة الحاجة إليها بل وضرورة الوجود إليها وإنه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلى العالم عنها وإن شئت اقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه العقول من تحسين الحسن وتجميل القبيح وإن ذلك أمر عقلي فطري بالأدلة والبراهين التي اشتمل عليها هذا الكتاب فلا توجد في غيره وإن شئت اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلاغ طرق الرد من نفس صناعتهم وعلمهم وإلزامهم بالإلزامات المفخمة التي لا جواب لهم عنها وإبداء تناقضهم في صناعتهم وفضائحهم وكذبهم على الخالق والأمر وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر والفرق بين صحيح ذلك وباطله ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر وإن شئت اقتبست منه أصولاً نافعة جامعة بما تسكمل به النفس البشرية وتعال بها سعادتها في معاشها ومعادها إلى غير ذلك من الفوائد التي ما كان منها صواباً فمن الله وحده هو المان به وما كان منها من خطأ فمن مؤلفه ومن الشيطان والله برى منه ورسوله والله سبحانه المستول والمرغوب إليه المأمول أن

الاصطلاحات الحادثة وسبقت معانيها إلى قلبه فلم يعرف سواها فيسمع كلام الشارع فيجمله على ما ألفه من الاصطلاح فيقع بسبب ذلك في الفهم عن الشارع ما لم يرد به بكلامه ويقع من الخلل في نظره ومناظرته ما يقع وهذا من أعظم أسباب الغلط عليه مع قلة البضاعة من معرفة نصوصه فإذا اجتمعت هذه الأمور مع نوع فساد في التصور أو القصد أوهما ما شئت من خبط وغلط واشكالات واشتمالات وضرب كلامه ببعضه ببعض وإثبات ما نفاه ونفى ما أثبتته والله المستعان .

فصل

وأما قضية المجذوم فلا ريب أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فر من المجذوم فرارك من الأسد وأرسل إلى ذلك المجذوم انا قد بايعتك فارجع وأخذ بيد مجذوم فوضعها في القصة وقال كل ثقة بالله وتوكلا عليه ولا تنافى بين هذه الآثار ومن أحاط علماً بما قدمناه تبين له وجهها وأن غاية ذلك أن مخالطة المجذوم من أسباب العدوى وهذا السبب يعارضه أسباب آخر تمنع اقتضاه فمن أقواها التوكل على الله والثقة به فإنه يمنع تأثير ذلك السبب المكروه ولكن لا يقدر كل واحد من الأمة على هذا فأرشدهم إلى بجانبه سبب المكروه والفرار والبعد منه ولذلك أرسل إلى ذلك المجذوم الآخر بالبيعة تشريعاً منه للفرار من أسباب الأذى والمكروه وأن لا يتعرض العبد لأسباب البلاء ثم وضع يده معه في القصة فإنما هو سبب التوكل على الله والثقة به الذي هو من أعظم الأسباب التي يدفع بها المكروه والمجذور تعليمها منه للأمة دفع الأسباب المكروهة بما هو أقوى منها وإعلاماً بأن الضرر والنفع بيد الله عز وجل فإن شاء أن يضر عبده ضره وإن شاء أن يصرف عنه الضر صرفه بل إن شاء أن ينفعه بما هو من أسباب الضرر ويضره بما هو من أسباب النفع فعل ليتبين العباد أنه وحده الضار النافع وأن أسباب الضرر والنفع بيديه وهو الذي جعلها أسباباً وإن شاء خلع منها سببيتها وإن شاء جعل ما تقتضيه بخلاف المعهود منها ليعلم أنه الفاعل المختار وأنه لا يضر شيء ولا ينفع إلا بإذنه وأن التوكل عليه والثقة به تحيل الأسباب المكروهة إلى خلاف موجباتها وتبين مرتبتها وأنها محال لمجارى مشيئة الله وحكمته وأنه سبحانه هو الذي يضرها وينفع ليس إياها ولا لها من الأمر شيء وأن الأمر كله لله وأنها إنما ينال ضررها من علق قلبه بها ووقف عندها وتطير بما يتطير به منها فذلك الذي يصيبه مكروه الطيرة والطيرة سبب للمكروه على المنطير فإذا توكل على الله ووثق به واستعان به لم يصدئه التطير عن حاجته وقال اللهم لا طيرك إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسئآت إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك فإنه لا يضره

من الشباب وأرباب الشهوة التي لا يكسرها إلا موافقة نسايتهم فرأى أن هذه المصلحة أرجح من مفسدة سد الذريعة فنظر ورأى الامتين اللتين هما من أكثر الأمم وأشدّها بأسا يفعلونه ولا يتقونه مع قوتهم وشدتهم فأمسك عن النهي عنه فلا تعارض إذا بين الحديثين ولا ناسخ منهما ولا منسوخ والله أعلم بمراد رسوله.

فصل

ويشبه هذا قوله ﷺ للذي قال له إن لي أمة وأنا أكره أن تحبل وإني أعزل عنها فقال سيأتيها ما قدر لها فليس بين هذه الأحاديث تعارض فإنه ﷺ لم يقل أن الولد يخلق من غير ماء الواطئ بل أخبر أنه سيأتيها ما قدر لها ولو عزل فإنه إذا قدر خلق الولد قدر سبق الماء والواطئ لا يشعر بل يخرج منه ماء يمازج ماء المرأة لا يشعر به يكون سبباً في خلق الولد ولهذا قال ليس من كل الماء يكون الولد فلو خرج منه نقطة لا يحس بها لجعلها الله مادة للولد.. قلت مادة الولد ليست مقصورة على وقوع الماء بجملته في الرحم بل إذا قدر الله خلق الولد من الماء فلو وضع على صخرة لخلق منه الولد كيف والذي يعزل في الغالب إنما يلقى ماءه قريباً من الفرج وذلك إنما يكون غالباً عند ما يحس بالإزال وكثيراً ما ينزل بعض الماء ولا يشعر به فينزل خارج الفرج ولا شعور له بما ينزل في الفرج ولا بما خالط ماء المرأة منه وبالجملة فليس سبب خلق الولد مقصوراً على الإزال التام في الفرج ولقد حدثني غير واحد ممن أثق به أن امرأته حملت مع عزله عنها الرضاع وغيره ورأيت بعض أولادهم ضعيفاً ضئيلاً فصولات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض فلا اختلاف والإشكال والاشتباه إنما هو في الأفهام إلا فيما خرج من بين شفقتي من الكلام والواجب على كل مؤمن أن يسأل ما أشكل عليه إلا أصدق قائل ويعلم أن فوق كل ذي علم عليم وأنه لو اعترض على ذي صناعة أو علم من العلوم التي استنبطتها معاول الأفكار ولم يحط علماً بتلك الصناعة والعلم لا ندري على نفسه وأضحك صاحب تلك الصناعة والعلم على عقله والنبي صلى الله عليه وسلم يذكر المقتضى في موضع والممانع في موضع آخر ويثبت الشيء وينفي مثله في الصورة وعكسه في الحقيقة ولا يحيط أكثر الناس بمجموع نصوصه علماً ويسمع النص ولا يسمع شرطه ولا موانع مقتضاه ولا تخصيصه ولا ينتبه للفرق بين ما أثبتته ونفاه فينشأ من ذلك في حقه من الإشكالات ما ينشأ وينضاف هذا إلى عدم معرفة الخاص بخطابه ومجاري كلامه وينضاف إلى ذلك تنزيل كلامه على الاصطلاحات التي أحدثها أرباب العلوم من الأصوليين والفقهاء وعلم أحوال القلوب وغيرهم فإن لكل من هؤلاء الاصطلاحات حادثة في مخاطباتهم وتصانيفهم فيجىء من قد ألف تلك

نفى الشفاعة الشريكية التي كانوا يعتقدونها وأمثالهم من المشركين وهي شفاعة الوسائط لهم عند الله في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم بذواتها وأنفسها بدون توقف ذلك على إذن الله ومرضاه لمن شاء أن يشفع فيه الشافع فهذه الشفاعة التي أبطلها الله سبحانه ونفاها وهي أصل الشرك كله وقاعدته التي عليها بناؤه وأخيمته التي يرجع إليها وأثبت سبحانه الشفاعة التي لا تكون إلا بإذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع قوله وعمله وهي الشفاعة التي تنال بتجريد التوحيد كما قال ﷺ أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه والشفاعة الأولى هي الشفاعة التي ظنوا المشركون وجعلوا الشرك وسيلة لإلها فالمقامات ثلاثة . . أحدها تجريد التوحيد وإثبات الأسباب وهذا هو الذي جاءت به الشرائع وهو مطابق للواقع في نفس الأمر . . والثاني الشرك في الأسباب بالمعبود كما هو حال المشركين على اختلاف أصنافهم . . والثالث إنكار الأسباب بالسكينة محافظة من منكرها على التوحيد فالمنحرفون طرفان مذمومان إما قاذح في التوحيد بالأسباب وإما منكر الأسباب بالتوحيد والحق غير ذلك وهو إثبات التوحيد والأسباب وربط أحدهما بالآخر فالأسباب محل حكمه الديني والكوني والحكماني عليها يجريان بل عليها يترتب الأمر والنهي والثواب والعقاب ورضى الرب وسخطه ولعنته وكرامته والتوحيد تجريد الربوبية والإلهية عن كل شرك فإنكار الأسباب لإنكار الحكمة والشرك بها قدح في توحيده وإثباته والتعلق بالسبب والتوكل عليه والثقة به والخوف منه والرجاء له وحده هو محض التوحيد والمعرفة تفرق بين ما أثبتته الرسول وبين ما نفاه وبين ما أبطله وبين ما اعتبره فهذا لون وهذا لون والله الموفق للصواب .

فصل

ويشبه هذا ما روى عنه صلى الله عليه وسلم من نفيه عن وطء الغيل وهو وطء المرأة إذا كانت ترضع وإنه يشبه قتل الولد سرا وأنه يدرك الفارس فيد عثره وقوله في حديث آخر لقد هممت أن أنهي عنه ثم رأيت فارس والروم يفعلونه ولا يضر ذلك أولادهم شيئاً وقد قيل أن أحد الحديثين منسوخ بالآخر وإن لم تعلم عين الناسخ منها من المنسوخ لعدم علمنا بالتاريخ وقيل وهو أحسن أن النفي والإثبات لم يتواردا على محل واحد فإنه ﷺ أخبر في أحد الجانبيين أنه يفعل في الوليد مثل ما يفعل من يصرع الفارس عن فرسه كما أنه يدعثره ويصرعه وذلك يوجب نوع أذى ولكنه ليس بقتل للولد وإهلاك له وإن كان قد يترتب عليه نوع أذى للطفل فأرشدني إلى تركه ولم ينه عنه بل قال علام يفعل أحدكم ذلك ولم يقل لا تفعلوه فلم يجيء عنه ﷺ لفظ واحد بالنهي عنه ثم عزم على النهي سدا للزريعة الأذى الذي ينال الرضيع فرأى أن سد هذه الزريعة لا يقاوم المفسدة التي تترتب على الإمساك عن وطء النساء مدة الرضاع ولا سيما

الله عليه وسلم بما يتضمن إبطال الدعوى وهو قوله فن أعدى الأول وهذا أصح من حديث
أبي عطية المتقدم وحينئذ فيرجع إلى مسلك التلقيح المذكور آنفاً أو ما قبله من المسالك وعندى
فى الحديثين مسلك آخر يتضمن إثبات الأسباب والحكم ونفى ما كانوا عليه من الشرك
واعتقاد الباطل ووقوع النفي والإثبات على وجهه فإن العوام كانوا يثبتون العدوى على
مذهبهم من الشرك الباطل كما يقوله المنجمون من تأثير الكواكب فى هذا العالم وسعودها
ونحوسها كما تقدم الكلام عليهم ولو قالوا أنها أسباب أو أجزاء أسباب إذا شاء الله صرف
مقتضياتها بمشيئته وإرادته وحكمته وأنها مسخرة بأمره لما خلقت له وأنها فى ذلك بمنزلة سائر
الأسباب التى ربط بها مسبباتها وجعل لها أسباباً آخر تعارضها وتمانعها وتمنع اقتضاءها لما
جعلت أسباباً له وإنها لاتقضى مسبباتها إلا بإذنه ومشيئته وإرادته ليس لها من ذاتها ضرر
ولا نفع ولا تأثير البتة إن هى إلا خلق مسخر مصرف مربوب لاتتحرك إلا بإذن خالقها
ومشيئته وغايتها أنها جزء سبب ليست سبباً تاماً فمسيبتيها من جنس سببية وطء الوالد فى حصول
الولد فإنه جزء واحد من أجزاء كثيرة من الأسباب التى خلق الله بها الجنين وكسبية شق
الأرض وإلقاء البذر فإنه جزء يسير من جملة الأسباب التى يكون الله بها الثبات وهكذا جملة
أسباب العالم من الغذاء والرواء والعافية والسقم وغير ذلك وأن الله سبحانه جعل من ذلك
سبباً ما يشاء ويبطل السببية عما يشاء ويخلق من الأسباب المعارضة له ما يحول بينه وبين مقتضاه
فهم لو أثبتوا العدوى على هذا الوجه لما أنكر عليهم كما أن ذلك ثابت فى الداء والدواء وقد
تداوى النبي ﷺ وأمر بالتداوى وأخبر أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء إلا الهرم فأعلمنا
أنه خالق أسباب الداء وأسباب الدواء المعارضة المقاومة لها وأمرنا بدفع تلك الأسباب
المسكرة بهذه الأسباب وعلى هذا قيام مصالح الدارين بل الخلق والأمر مبنى على هذه القاعدة
فإن تعطيل الأسباب وإخراجها عن أن تكون أسباباً تعطيل للشرع ومصالح الدنيا والاعتماد
عليها والركون إليها واعتقاد أن المسببات بها وحدها وأنها أسباب تامة شرك بالخالق عز وجل
وجهل به وخروج عن حقيقة التوحيد وإثبات مسيبيتها على الوجه الذى خلقها الله عليه وجعلها
له إثبات للخلق والأمر للشرع والقدر للسبب والمشيئة للتوحيد والحكمة فالشارع يثبت هذا
ولا ينفقه وينفى ما عليه المشركون من اعتقادهم فى ذلك ويشبه هذا نفيه سبحانه وتعالى
الشفاعة فى قوله (وانقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ
منها عدل) وفى الآية الأخرى (ولا تنفعها شفاعة) وفى قوله (من قبل أن يأتى يوم لا بيع
فيه ولا خلة ولا شفاعة) وإثباتها فى قوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقوله (من ذا الذى
يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) فإنه سبحانه

يسلكها الناس لكانوا أولى به منه وأسبق إليه لأن أسباب ما ينال بالفكر والكتابة والحساب والنظر والصناعات بأيديهم فهذا من أقوى براهين نبوته وآيات صدقه وإن هذا الذى جاء به لا صنع للبشر فيه البتة ولا هو مما ينال بسعى وكسب وفكر ونظر إن هو إلا وحى يوحى عليه شديد القوى الذى يعلم السر فى السموات والأرض أنزله عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول قالوا فهكذا إخباره عن عدم العدوى لإخبار عن ظنه كإخباره عن عدم تأثير التلقيح لا سيما وأحد البابين قريب من الآخر بل هو فى النوع واحد فإن اتصال الذكر بالأنثى وتأثره به كاتصال المعدى بالمعدى وتأثره به ولا ريب أن كليهما من أمور الدنيا لا مما يتعلق به حكم من الشرع فليس الإخبار به كالإخبار عن الله سبحانه وصفاته وأسمائه وأحكامه قالوا فلما تبين له ﷺ من أمر الدنيا الذى أجرى الله سبحانه عاداته به ارتباط هذه الأسباب بعضها ببعض وتأثير التلقيح فى صلاح الثمار وتأثير إيراد الممرض على المصح أقرهم على تأييد النخل ونهاهم أن يورد ممرض على مصح قالوا وإن سمي هذا نسخاً بهذا الاعتبار فلا مشاحة فى التسمية إذا ظهر المعنى ولهذا قال أبو سلمة بن عبد الرحمن فلا أدري أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين بالآخر يعنى بحديثه بالحديثين فجوز أبو سلمة النسخ فى ذلك مع أنه خبر وهو بما ذكرنا من الاعتبار وهذا المسلك حسن لولا أنه قد اجتمع الفصلان فى حديث واحد كما فى موطأ مالك أنه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن ابن عطية أن رسول الله ﷺ قال لا عدوى ولا صفر ولا يحل الممرض على المصح ولا يحل المصح حيث شاء قالوا وما ذاك يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ إنه أذى وقد يجاب عن هذا بجوابين : أحدهما أن الحديث لا يثبت لوجهين : أحدهما إرساله والثانى أن ابن عطية هذا ويقال أبو عطية مجهول لا يعرف إلا فى هذا الحديث . . . الجواب الثانى قوله فيه لا عدوى نهى لا نبي أى لا يعدى الممرض المصح بحلولة عليه ويدل على ذلك ما رواه أبو عمر النمرى حدثنا خلف بن القاسم حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد حدثنا أبو هشام الرفاعى حدثنا البشر بن عمر الزهرانى قال قال مالك أنه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن أبى عطية أو ابن عطية شك بشر عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لا طيرة ولا هامة ولا يعدى سقيم صحيحاً ولا يحل المصح حيث شاء فى هذا النهى كالأنبات للعدوى والنهى عن أسبابها ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى فقال لا عدوى ولا طيرة ولا هامة وإنما خرج الحديث النهى عن العدوى لا نفىها وهذا أيضاً حسن لولا حديث ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ فمن أعدى الأول فهذا الحديث قد فهم منه السامع النفي وأقره عليه ﷺ ولهذا استشكل نفىه وأورد ما أورده فأجابه صلى

فيعجب به وهو لا يبشر به ولا يردده وفي بعض الحديث أن رسول الله ﷺ كان يعجب بالأترج ويعجبه الحمام الأحمر وتعجبه الفاغية وهو نور الحناء وهذا مثل إعجابه بالإسم الحسن والفأل الحسن وعلى حسب هذا كانت كراهية الإسم القبيح كبنى النار وبنى حراق وأشباه هذا انتهى كلامه وقد سلك أبو عمر بن عبد البر في هذا الحديث نحواً من مسلك أبي محمد بن قتيبة فقال أما قوله ﷺ لا عدوى فهو نهى أن يقول أحد إن شيئاً يعدى شيئاً وإخبار أن شيئاً لا يعدى شيئاً فكأنه لا يعدى شيء شيئاً يقول لا يصيب أحد من أحد شيئاً من خلق أو فعل أو داء أو مرض وكانت العرب تقول في جاهليتها في مثل هذا أنه إذا اتصل شيء من ذلك بشيء أعده فأخبرهم رسول الله ﷺ أن قولهم واعتقادهم في ذلك ليس كذلك ونهى عن ذلك القول إعلاماً منه بأنما اعتقد ذلك من اعتقد منهم كان باطلاً قال وأما الممرض فالذى لبله مراض والمصح الذى لبله صحاح وروى ابن وهب عن ابن لبيعة عن أبي الزبير عن جابر قال يكره أن يدخل المريض على الصحيح منها وليس به إلا قول الناس وحماية للقلب مما يستبق إليه من الإفهام ويقع فيه من التطير والتشاؤم بذلك وقد قال أبو عبيد قولا قريباً من ذلك فقال في قوله في هذا الحديث أنه إذا أبى إيراد الممرض على المصح فقال معنى الأذى عندي المأثم يعنى أن المورد يأثم بأذاه من أورد عليه وتعرضه للتشاؤم والتطير وقد سلك بعضهم مسلكاً آخر فقال ما يخبر به النبي ﷺ نوعان : أحدهما يخبر به عن الوحي فهذا خبر مطابق لخبره من جميع الوجوه ذهناً وخارجاً وهو الخبر المعصوم والثاني ما يخبر به عن ظنه من أمور الدنيا التي هم أعلم بها منه فهذا ليس في رتبة النوع الأول ولا تثبت له أحكامه وقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة بذلك تفريقاً بين النوعين فإنه لما سمع أصواتهم في النخل يؤبرونها وهو التلقيح قال ما هذا فأخبروه بأنهم يلقحونها فقال ما أرى لو تركتموه يضره شيئاً فتركوه فجاء شيصاً فقال إنما أخبرتكم عن ظني وأنتم أعلم بأمر دنياكم ولكن ما أخبرتكم عن الله والحديث صحيح مشهور وهو من أدلة نبوته وأعلامها فإن من خفي عليه مثل هذا من أمر الدنيا وما أجرى الله به عادته فيها ثم جاء من العلوم التي لا يمكن البشر أن يطلع عليها البتة إلا بوحي من الله فأخبر عما كان وما يكون وما هو كائن من لدن خلق العالم إلى أن استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وعن غيب السموات والأرض وعن كل سبب دقيق أو جليل تنال به سعادة الدارين وكل سبب دقيق أو جليل تنال به شقاوة الدارين وعن مصالح الدنيا والآخرة وأسبابهما مع كون معرفتهم بالدنيا وأمورها وأسباب حصولها ووجوه تمامها أكثر من معرفته كما أنهم أعرف بالحساب والهندسة والصناعات والفلاحة وعمارة الأرض والكتابة فلو كان ما جاء به مما ينال بالتعلم والتفكير والتطير والطرق التي

عكرمة بن عمار عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنا نزلنا داراً فكثرت فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحولنا عنها إلى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها عددنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذروها وهي ذميمة . قال أبو محمد وهذا ليس ينقض الحديث الأول ولا الحديث الأول ينقض هذا وإنما أمرهم بالتحول منها لأنهم كانوا مقيمين فيها على استئصال لظلمها واستمحاء لما نالهم فيها فأمرهم بالتحول وقد جعل الله في غرائز الناس وتركيبهم استئصال ما نالهم السوء فيه وإن كان لا سبب له في ذلك وحب من جرى على يده الخير لهم وإن لم يردم به وبغض من جرى على يده الشر لهم وإن لم يردم به وكيف يتطير ﷺ والطيرة من الحبث وكان كثير من الجاهلية لا يرونها شيئاً ويمدحون من كذب بهائم أنشد ما ذكرنا من الآيات سالفاً ثم قال حدثنا إسحق بن راهويه أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أبي أمية قال قال رسول الله ﷺ ثلاث لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد قيل فما المخرج منهن قال إذا تطيرت فلا ترجع وإذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ هذه الألفاظ أو نحوها حدثني أبو حاتم قال حدثنا الأصمعي عن سعيد بن سالم عن أبيه أنه كان يعجب بمن يصدق بالطيرة ويعيبها أشد العيب وقال فرقت لنا ناقة وأنا بالطائف فركبت في أثرها فلقيني هانيء بن عبيد من بني وائل وهو مسرع وهو يقول . الشرع يلقي مطالع الإلكم . ثم لقيني آخر من الحى وهو يقول .

ولئن بغيت لهم بغاة ما البغاة بواجدين

ثم دفعنا إلى غلام قد وقع في صغره في نار فأحرقته فقبض وجهه وفسد فقلت له هل ذكرت من ناقة فارق قال ههنا أهل بيت من الأعراب فانظر فنظرت فإذا هي عندهم وقد نتجت فأخذناها وولدها قال أبو محمد الفارق التي ضلت ففارق صواحبا وقال عكرمة كنا جلوساً عند ابن عباس فر طائر يصيح فقال رجل خير خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر وكان رسول الله ﷺ يستحب الإسم الحسن والفأل الصالح حدثني الرياشي حدثنا الأصمعي قال سألت ابن عون عن الفأل فقال هو أن يكون مريضاً فيسمع ياسلم أو يكون باغياً فيسمع يا واجد وهذا أيضاً مما جعل في غرائز الناس وتركيبهم استجوابه والانس به وكما جعل على الألسنة من التحية بالسلام والمد في الأصب والتبشير بالخير وكما يقال أنعم وأسلم وأنعم صباحاً وكما تقول الفرس عش ألف نوروز والسامع لهذا يعلم أنه لا يقدم ولا يؤخر ولا يزيد ولا ينقص ولكن جعل في الطباع محبة الخير والارتياح للبشرى والمنظر الآنيق والوجه الحسن والإسم الخفيف وقد يمر الرجل بالروضة المنورة فتسره وهي لا تنفعه وبالماء الصافي

الجنام تشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومؤاكلته وكذا المرأة تكون تحت المجذوم فتضاجعه في شعار واحد فيوصل إليها الأذى وربما جذمت وكذلك ولده ينزعون في الكبر إليه وكذلك من به سل ودق وتعب والأطباء تأمر أن لا يجالس المجذوم ولا المسلول ولا يريدون بذلك معنى العدوى وإنما يريدون به معنى تغير الرائحة وأنها قد تسقم من أطال اشتامها والأطباء أبعد الناس من الإيثار بيمين وشؤم وكذلك النقبة تكون بالبعير وهو جرب رطب فإذا خالط الإبل أو حاكها أووى في مباركها أوصل إليها بالماء الذي يسيل منه والنظف نحواً مما به فهذا هو المعنى الذي قال رسول الله ﷺ لا يورد ذو عاهة على مصح كره أن يخالط المصاب الصحيح فيناله من نطفه وحكمته نحو مما به . . قال وقد ذهب قوم إلى أنه أراد بذلك أن لا يظن أن الذي نال إبله من ذوات العاهة فيأثم وليس لهذا عندى وجه إلا الذي خبرتكم به عيانا . . وأما الجنس الآخر من العدوى فهو الطاعون ينزل ببيلد فيخرج منه خوف العدوى . . حدثني سهل بن محمد قال حدثني الأصمعي عن بعض المصريين أنه هرب من الطاعون فركب حمرا ومضى بأهله نحو حلوان فسمع حاديا يحدو خلفه وهو يقول :

لن يسبق الله على حمار ولا على ذى هيعة مطار

أو يأتى الحنف على مقدار قد يصبح الله أمام السارى

وقد قال رسول الله ﷺ إذا كان بالبلد الذى أتم فيه فلا تخرجوا منه وقال إن كان ببيلد فلا تدخلوه يريد بقوله لا تخرجوا من البلد إذا كان فيه كأ نكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم من الله ويريد إن كان ببيلد فلا تدخلوه فإن مقامكم فى الموضع الذى لا طاعون فيه أسكن لأنفسكم وأطيب لمعيشتكم ومن ذلك المرأة تعرف بالشؤم والدار فينال الرجل مكروه أو جائحة فيقول أعدتني بشؤمها فهذا هو العدوى الذى قال فيه رسول الله ﷺ لا عدوى فأما الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال الشؤم فى المرأة والدار والدابة فإن هذا الحديث يتوهم فيه الغلط على أبى هريرة وأنه سمع فيه شيئا من رسول الله ﷺ فلم يعه . . حدثني محمد بن القطعي حدثنا عبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن أبى حسان الأعرج أن رجلين دخلا على عائشة فقبالا إن أبا هريرة رضى الله عنه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال إنما الطيرة فى المرأة والدار والدابة فطارت شققا ثم قالت كذب والذى أنزل الفرقان على أبى القاسم من حدث بهذا عن رسول الله ﷺ إنما قال رسول الله ﷺ كان أهل الجاهلية يقولون إن الطيرة فى الدابة والمرأة والدار ثم قرأت (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) حدثني أبى قال حدثني أحمد بن الحليل حدثنا موسى بن مسعود النهدي عن

فصل

وأما قوله صلى الله عليه وسلم لا يورد ممرض على مصح فالممرض الذى إبله مراض والمصح الذى إبله صحاح وقد ظن بعض الناس أن هذا معارض لقوله لا عدوى ولا طيرة وقال لعزل أحد الحديشين نسخ الآخر وأورد الحارث بن أبى ذئاب وهو ابن عم أبى هريرة رضى الله عنه عليه جمعه بين الروايتين وظنهما متعارضتين فروى ابن هريرة عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال كان أبو هريرة يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى ثم حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يورد ممرض على مصح قال فقال الحارث بن أبى ذئاب وهو ابن عم أبى هريرة قد كنت أسمعك يا أبا هريرة تحدثنا حديثا آخر قد سكت عنه كنت تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى فأبى أبو هريرة أن يحدث بذلك وقال لا يورد ممرض على مصح فما رآه الحارث فى ذلك حتى غضب أبو هريرة ورطن بالحبشية ثم قال للحارث أندري ماقلت قال لا قال لى أقول أبيت أبيت فلا أدري أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر . . قلت قد انفق مع أبى هريرة سعد بن أبى وقاص وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك وعمر بن سلم على روايتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله لا عدوى وحديث أبى هريرة محفوظ عنه بلا شك من رواية أوثق أصحابه وأحفظهم أبى سلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن سيرين وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة والحارث بن أبى ذئاب ولم يتفرد أبو هريرة بروايته عن النبي صلى الله عليه وسلم بل رواه معه من الصحابة من ذكرناه وقوله لا يورد ممرض على مصح صحيح أيضا ثابت عنه صلى الله عليه وسلم فالحديثان صحيحان ولا نسخ ولا تعارض بينهما بحمد الله بل كل منهما له وجه وقد طعن أعداء السنة فى أهل الحديث وقالوا يروون الأحاديث التى ينقض بعضها بعضا ثم يصححونها والأحاديث التى تخالف العقل فانتدب أنصار السنة للرد عليهم ونفى التعارض عن الأحاديث الصحيحة وبيان موافقتها للعقل قال أبو محمد بن قتيبة فى كتاب يختلف الحديث له قالوا حديثان متناقضان قالوا رويتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا عدوى ولا طيرة وأنه قيل له أن النعقة تقع بمشفر البعير فتجرب لذلك الإبل فقال فما أعدى الأول هذا أو معناه ثم رويتم فى خلاف ذلك لا يورد ذو عاهة على مصح وفر من المجذوم فرارك من الأسد وأناه رجل مجذوم ليبياعه ببيعة الإسلام فأرسل إليه البيعة وأمره بالانصراف ولم يأذن له وقال الشؤم فى المرأة والدار والدابة قالوا وهذا كله مختلف لا يشبه بعضه بعضا . . قال أبو محمد ونحن نقول أنه ليس فى هذا اختلاف ولاكل واحد معنى فى وقت وموضع فإذا وضع موضعه زال الاختلاف . . والعدوى جنسان أحدهما عدوى الجذام فإن

الجاهلية كانوا يعتقدون فيه أنه داء ويكره أحدكم أن يعطس ويود أنه لم يصدر منه لما في ذلك من الشؤم وكان العاطس يحبس نفسه عن العطاس ويمتنع من ذلك جهده من سوء اعتقاد جهالهم فيه ولذلك والله أعلم بنوا لفظه على بناء الأدوية كالزكام والسعال والدوار والسهم وغيرها فاعلموا أنه ليس بداء ولا كسنة أمر يحبه الله وهو نعمة منه يستوجب عليها من عبده أن يحمده عليها وفي الحديث المرفوع أن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب والعطاس ريح مخنقة تخرج وتفتح السد من الكبد وهو دليل جيد المريض مؤذن بانفراج بعض علته وفي بعض الأمراض يستعمل ما يعطس العليل ويجعل نوعاً من العلاج ومعينا عليه هذا قدر زائد على ما أحبه الشارع من ذلك وأمر بحمد الله عليه وبالدعاء لمن صدر منه وحمد الله عليه ولهذا فالله أعلم يقال شتمته إذا قال له يرحمك الله وسمته بالمعجمة وبالمهملة وبهما روى الحديث فأما التسميت بالمهملة فهو تفعيل من السميت الذي يراد به حسن الهيئة والوقار فيقال لفلان سميت حسن فعني سميت العطاس وقرته وأكرمته وتأدبت معه بأدب الله ورسوله في الدعاء له لا بأخلاق أهل الجاهلية من الدعاء عليه والتطير به والتشاؤم منه وقيل سمته دعا له أن يعيده الله إلى سمته قبل العطاس من السكون والوقار وطمأنينة الأعضاء فإن في العطاس من انزعاج الأعضاء واضطرابها ما يخرج العطاس عن سمته فإذا قال له السامع يرحمك الله فقد دعا له أن يعيده إلى سمته وهيئته وأما التسميت بالمعجمة فقالت طائفة منهم ابن السكيت وغيره أنه بمعنى التسميت وأنهما لغتان ذكر ذلك في كتاب القلب والإبدال ولم يذكر أيهما الأصل ولا أيهما البدل وقال أبو علي الفارسي المهملة هي الأصل في الكسيلة والمعجمة بدل واحتج بأن العطاس إذا عطس انتفش وتغير شكل وجهه فإذا دعا له فكأنه أعاده إلى سمته وهيأته وقال تلميذه ابن جنى لو جعل جاعل الشين المعجمة أصلاً وأخذه من الشوامت وهي القوائم لكان وجهها صحيحاً وذلك أن القوائم هي التي تحمل الفرس ونحوه وبهما عصمته وهي قوامه فكأنه إذا دعا له فقد أنهضه وثبت أمره وأحكم دعائمه وأنشد للناطقة . طوع الشامت من خوف ومن صرد . وقالت طائفة منهم ابن الأعرابي يقال مرضت العليل أي قتت عليه ليزول مرضه ومثله قذيت عينه أزلت قذاها فكأنه لما دعا له بالرحمة قد قصد إزالة الشامة عنه وينشد في ذلك :

ما كان ضر الممرضى يحفونه لو كان مرض منعما من أمرضا
وإلى هذا ذهب ثعلب . . والمقصود أن التطير من العطاس من فعل الجاهلية الذي أبطله الإسلام وأخبر النبي ﷺ أن الله يحب العطاس كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا نثأب أحدكم فليستره ما استطاع فإنه إذا فتح فاه فقال آه آه ضحك منه الشيطان .

والسوانح قال رؤبة بن العجاج يصف فلاة : قطعتها ولا أهاب العطاسا . وقال أمرؤ القيس :
وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل شديد مشيد الجنب فعم المنطق

أراد أنه كان ينتبه للصيد قبل أن ينتبه الناس من نومهم ليلا يسمع عطاسا فيتشام بعطاسه وكانوا
إذا عطس من يحبونه قالوا له عمرا وشبا با وإذا عطس من يبغضونه قالوا له وريا وقحبا والورى
كالرمي داء يصيب الكبد فيفسدها والقحاب كالسعال وزنا ومعنى فكان الرجل إذا سمع عطاسا يتشام
به يقول بكلامي إني أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بكلامي وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد
كما حكى عن بعض الملوك أن سامرا له عطس عطسة شديدة فراعته فغضب الملك فقال سميره والله ما تعمدت
ذلك ولكن هذا عطاسي فقال والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك فقال أخرجني
إلى الناس لعل أجد من يشهد لي فأخرجه وقد وكل به الأعوان فوجد رجلا فقال
يا سيدى نشدتك بالله إن كنت سمعت عطاسي يوماً فلعنك تشهد لي به عند الملك فقال نعم
أنا أشهد لك فنهض معه وقال يا أيها الملك أنا أشهد أن هذا الرجل عطس يوماً فطار ضرس
من أضراسه فقال له الملك عد إلى حديثك ومجلسك فلما جاء الله سبحانه بالإسلام وأبطل
برسوله ﷺ ما كان عليه الجاهلية من الضلالة نهى أمته عن التشاؤم والتطير وشرع لهم أن
يجعلوا مكان الدعاء على العاطس بالمكروه الدعاء له بالرحمة كما أمر العائن أن يدعو بالتبريك
للبيع ولما كان الدعاء على العاطس نوعا من الظلم والبغى جعل الدعاء له بلفظ الرحمة المنافي
للظلم وأمر العاطس عمران يدعو لسامعه ويشتمه بالمغفرة والهداية وإصلاح البال فيقول
يغفر الله لنا ولكم أو يهديكم الله ويصلح بالكم فأما الدعاء بالهداية فلما أن اهتدى إلى طاعة
الرسول ورغب عما كان عليه أهل الجاهلية فدعا له أن يثبتته الله عليها ويهديه إياها وكذلك
الدعاء بإصلاح البال وهي حكمة جامعة لإصلاح شأنه كله وهي من باب الجزاء على دعائه لأخيه
بالرحمة فناسب أن يجازيه بالدعاء له بإصلاح البال وأما الدعاء بالمغفرة فجاء بلفظ يشمل
العاطس والمشتم كقوله يغفر الله لنا ولكم ليستحصل من مجموع دعوى العاطس والمشتم
له بالمغفرة والرحمة لهما معا فصولات الله وسلامه على المبعوث بإصلاح الدنيا والآخرة ولأجل
هذا والله أعلم لم يؤمر بتشتميت من لم يحمد الله فإن الدعاء له بالرحمة نعمة فلا يستحقها من لم
يحمد الله ويشكره على هذه النعمة ويتأسى بأبيه آدم فإنه لما نفخت فيه الروح إلى الخياشيم
عطس فألمه ربه تبارك وتعالى أن نطق بحمده فقال الحمد لله فقال الله سبحانه برحمتك الله
يا آدم فصارت تلك سنة العطاس فمن لم يحمد الله لم يستحق هذه الدعوة ولما سبقت هذه الكلمة
لآدم قبل أن يصيبه ما أصابه كان مآله إلى الرحمة وكان ما جرى عارضا وزال فإن الرحمة
سبقت العقوبة وغلبت الغضب . . وأيضا فإنما أمر العاطس بالتحميد عند العطاس لأن

تدبوعوه بالنار فتهيجوا بها خواطر الناس وتبعثوا ظنونهم بالتطير والنار والمذاب والله أعلم .

فصل

وأما تلك الوقائع التي ذكروها مما يدل على وقوع ما تطير به من تطير فنعلم وهاهنا أضعافا وأضعاف أضعافها ولستنا ننكر موافقة القضاء والقدر لهذه الأسباب وغيرها كثيرا موافقة حزر الحازرين وظنون الظانين وزجر الزاجرين للقدر أحيانا مما لا يذكره أحد ومن الأسباب التي توجب وقوع المكروه الطيرة كما تقدم وإن الطيرة على من تطير ولكن نصب الله سبحانه لها أسبابا يدفع بها موجبها وضررها من التوكل عليه وحسن الظن به وإعراض قلبه عن الطيرة وعدم التفاته إليها وخوفه منها وثقته بالله عز وجل ولستنا ننكر أن هذه الأمور ظنون وتخمين وحسد وخرص وما كان هذا سبيله فيصيب تارة ويخطئ تارات وليس كل ما تطير به المنتطرون وتشاءوا به وقع جميعه وصدق بل أكثره كاذب وصادقه نادر والناس في هذا المقام إنما يعولون وينقلون ماصح ووقع ويعتنون به فيرى كثيرا والكاذب منه أكثر من أن ينقل قال ابن قتيبة من شأن النفوس حفظ الصواب للعجب به والاستغراب وتناسى الخطأ قال ومن ذا الذي يتحدث أنه سأل منجما فأخطأ وإنما الذي يتحدث به وينقل أنه سأل فأصاب والصواب في مسألة إذا كان بين أمرين قد يقع المعتبر والطفل فضلا عن أولى العقل وقد تقدم من بطلان الطيرة وكذبها ما فيه كفاية وقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تستحب أن تزوج المرأة أو يبنى بها في شوال وتقول ما تزوجني رسول الله ﷺ إلا في شوال فأى نسائه كان أحظى عنده مني مع تطير الناس بالنكاح في شوال وهذا فعل أولى العزم والقوة من المؤمنين الذين صح توكلهم على الله واطمأننت قلوبهم إلى ربهم ووثقوا به وعلوا إن ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنهم إن يصيبهم إلأما كتب الله لهم وأنهم ما أصابهم من مصيبة إلأا وهى في كتاب من قبل أن يخلقهم ويوجدكم وعلوا أنه لا بد أن يصيروا إلى ما كتبه وقدره ولا بد أن يجرى عليهم وإن تطيرهم لا يرد قضاءه وقدره عنهم بل قد يكون تطيرهم من أعظم الأسباب التي يجرى عليهم بها القضاء والقدر فيعينون على أنفسهم وقد جرى لهم القضاء والقدر بأن نفوسهم هى سبب إصابة المكروه لهم فطأثرهم معهم وأما المتوكلون على الله المفوضون إليه العالمون به وبأمره فنفسهم أشرف من ذلك وهمهم أعلى وثقتهم بالله وحسن ظنهم به عدة لهم وقوة وجنة مما يتطير به المنتطرون ويتشام به المتشائمون عالمون أنه لا طير إلا طيره ولا خير إلا خيره ولا إله غيره ألله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

فصل

وبما كان أهل الجاهلية يتطرون به ويتشامون منه العطاس كما يتشامون بالبوارح

للمسمى المناسب لها كالصخر والحجر وإذا تابعت حركة المسمى تابعوا بين حركة اللفظ كال دوران والغليان والنزوان وإذا تكررت الحركة كرروا اللفظ كلفل فل وزلزل ودكدك وصرصر وإذا اكتنز المسمى وتجمعت أجزاؤه جعلوا في إسمه من الضم الدال على الجمع والاكتناز ما يناسب المسمى كالبحتر للقصير المجتمع الخلق وإذا طال جعلوا في المسمى من الفتح الدال على الامتداد نظير ما في المعنى كالعشيق للطويل ونظائر ذلك أكثر من أن تستوعب وإنما أشرنا إليها أدنى إشارة وهذا هو الذي أراده من قال بين الإسم والمسمى مناسبة فلم يفهم عنه بعض المتأخرين مراده فأخذ يشنع عليه بأنه لا تناسب طبعيا بينهما وأستدل على إنكار ذلك بما لا طائل تحته فإن عاقلا لا يقول أن التناسب الذي بين الإسم والمسمى كالتناسب الذي بين العلة والمعلول وإنما هو ترجيح وأولية تقتضى اختصاص الإسم بمسماه وقد يتخلف عنه اقتضاؤها كثيراً والمقصود أن هذه المناسبة تنضم إلى ما جعل الله في طبائع الناس وغرائزهم من النفرة بين الإسم القبيح المكروه وكراهته وتطير أكرههم به وذلك يوجب عدم ملابسته ومجاوزته إلى غيره فهذا أصل هذا الباب .

فصل

وأما كراهية السلف أن يتبع الميت بشيء من النار أو أن يدخل القبر شيء مسته النار وقول عائشة رضي الله عنها لا يكون آخر زاده أن يتبعوه بالنار فيجوز أن يكون كراهتهم لذلك مخافة الأحداث لما لم يكن في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله من سلم فكيف وذلك مما يبيح الطيرة به والظنون الردية بالميت وقد قال غير واحد من السلف منهم عبد الملك بن حبيب وغيره إنما كرهوا ذلك تفاؤلا بالنار في هذا المقام أن يتبعه . . وذكر ابن حبيب وغيره أن النبي ﷺ أراد أن يصلي على جنازة فجاءت امرأة ومعهما بخر فما زال يصيح بها حتى توارت بأجام المدينة . . قال بعض أهل العلم وليس خوفهم من ذلك على الميت لكن على الأحياء المحبولين على الطيرة لئلا تحدثهم أنفسهم بالميت أنه من أهل النار لما رأوا من النار التي تتبعه في أول أيامه من الآخرة ولا سيما في مكان يراد منهم فيه كثرة الاجتهاد للميت بالدعاء فإذا لم يبق له زاد غيره فيظنون أن تلك النار من بقايا زاده إلى الآخرة فتسوء ظنونهم به وتنفر عن رحمته قلوبهم في مكان هم فيه شهداء الله كما جاء في الحديث الصحيح لما أمر على النبي ﷺ بجنازة فأنثوا عليها خيراً فقال وجبت فقالوا ما وجبت قال وجبت له الجنة أتم شهداء الله في الأرض من أنثيت عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أنثيت عليه شراً وجبت له النار . . وفي أثر آخر إذا أردتم أن تعلموا ما للميت عند الله فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء فقالت عائشة رضي الله عنها لا يكون آخر زاده من الثناء والدعاء أن

ستنسل ويقع القتال ولهذا أخبرهم أنه رأى في منامه أنه يقرأ النحل وعلم أن ذلك شهادة من قتل من أصحابه . . الثالث أن الوحي الذي كان يعرف به رسول الله ﷺ الحوادث والنوازل كان مغنياً له عن الإشارات والعلامات والأمارات وما في معناها مما يحتاج إليه غيره . وأما من يأتيه خبر السماء صباحاً ومساءً فأخبره بقوله أرى السيوف اليوم ستنسل لم يكن عن تلك الأمانة وإنما وقع الإخبار به عقيبها والشئ بالشئ يذكر .

فصل

وأما ما احتج به ونسبه إلى قوله ﷺ وقدت الحرب لما رأى واقف بن عبد الله الحضرمي والحضرمي حضرت الحرب فكذب عليه ﷺ وإنما قال ذلك أعداؤه من اليهود فتطيروا بذلك وتفاءلوا به فكانت الطيرة عليهم ووقدت الحرب عليهم .

فصل

وأما استنباله ﷺ الجبلين في طريقه وهما مسلح ومخزي وترك المرور بينهما وعدله ذات اليمين فليس هذا أيضاً من الطيرة وإنما هو من العدول عما يؤذى النفوس ويشوش القلوب إلى ما هو بخلافه كالعدول عن الإسم القبيح وتغييره بأحسن منه وقد تقدم تقرير ذلك بما فيه كفاية وأيضاً فإن الأماكن فيها الميمون المبارك والمشؤم المذموم فاطلع رسول الله ﷺ على شؤم ذلك المكان وأنه مكان سوء فجاوزه إلى غيره كما جاوز الوادي الذي ناموا فيه عن الصبح إلى غيره وقال هذا مكان حضرنا فيه الشيطان والشیطان يحب الأمكنة المذمومة وينتابها وأيضاً فلما كان المرور بين ذينك الجبلين قد يشوش القلب على أنا نقول في ذلك قولاً كلياً نبين به سر هذا الباب بحول الله وعونه وتوفيقه . . إعلم أن بين الأسماء ومسمياتها ارتباطاً قدره العزيز القادر وألهمه نفوس العباد وجعله في قلوبهم بحيث لا تنصرف عنه وليس هذا الارتباط هو ارتباط العلة بمعلولها ولا ارتباط المقتضى بالموجب لمقتضاه وموجبه بل ارتباط تناسب وتساكل اقتضاه حكمة الحكيم فقل أن ترى اسماً قبيحاً إلا وبين مسماه وبينه رابط من القبح وكذلك إذا تأملت الإسم الثقيل الذي تنفر عنه الأسماع وتنبو عنه الطباع فإنك تجد مسماه يقارب أو يلم أن يطابق ولهذا من المشهور على ألسنة الناس أن الألقاب تنزل من السماء فلا تسكاد تجد الإسم الشنيع القبيح إلا على مسمى يناسبه وفي ذلك قول القائل .

وقل أن أبصرت عينك ذا لقب إلا ومعناه أن فسرت في لقبه ولهذا كثيراً ما تجد أيضاً في أسماء الأجناس والواضع له عناية بمطابقة الألفاظ للبعاني ومناسبتها لها فيجعل الحروف الهوائية الخفيفة لمسمى مشاكل لها كالهواء والحروف الشديدة

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاها ذميمة وقد ذكر هذا الحديث غير مالك من رواية أنس أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إنا نزلنا داراً فكشّر فيها عدداً وكشّرت فيها أموالنا ثم تحولنا إلى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها عدداً فقال رسول الله ﷺ وذكره فليس هذا من الطيرة المنهى عنها وإنما أمرهم ﷺ بالتحول عنها عند ما وقع في قلوبهم منها لمصلحتين ومنفعتين إحداهما مفارقتهم لمكان هم له مستثقلون ومنه مستوحشون لما لحقهم فيه ونالهم ليتعجلوا الراحة مما داخلهم من الجزع في ذلك المكان والحزن والهلل لأن الله عز وجل قد جعل في غرائز الناس وتركيبتهم استئصال ما نالهم الشر فيه وإن كان لا سبب له في ذلك وحب ما جرى لهم على يديه الخير وإن لم يردهم به فأمرهم بالتحول مما كرهوه لأن الله عز وجل بعثه رحمة ولم يبعثه عذاباً وأرسله ميسراً ولم يرسله معسراً فكيف يأمرهم بالمقام في مكان قد أحزنهم المقام به واستوحشوا عنده لكثرة من فقدوه فيه لغير منفعة ولا طاعة ولا مزيد تقوى وهدى فلا سيما وطول مقامهم فيها بعد ما وصل إلى قلوبهم منها ما وصل قد يبعثهم ويدعوهم إلى التشاؤم والتظير فيوقعهم ذلك في أمرين عظيمين أحدهما مقاربة الشرك والثاني حلول مكروه أحزنهم بسبب الطيرة التي إنما تلحق المتظير فخامهم ﷺ بكال رأفته ورحمته من هذين المكروهين بمفارقة تلك الدار والاستبدال بها من غير ضرر يلحقهم بذلك في دنيا ولا نقص في دين وهو ﷺ حين فهم عنهم في سؤالهم ما أرادوه من التعرف عن حال رحلتهم عنها هل ذلك لهم ضار مؤد إلى الطيرة قال دعاها ذميمة وهذا بمنزلة الخارج من أرض بها الطاعون غير فار منه ولو منع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم المصائب والمحن فيها وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد في الرحلة للزم ذلك أن كل من ضاق عليه رزق في بلد أن لا ينتقل منه إلى بلد آخر ومن قلت فائدة صناعته أن لا ينتقل عنها إلى غيرها .

فصل

وأما قول النبي ﷺ للذي سل سيفه يوم أحد ثم سيفك فإني أرى السيوف تستنسل اليوم فهذه القصة لم يكن الرجل قد سل فيها السيف ولكن الفرس لوح بذنبه فسل السيف ولم يرد صاحبه سلّه هكذا في القصة ولا ريب أن الحرب تقوم بالخيول والسيوف ولما لوح الفرس بذنبه فاستل السيف قال النبي ﷺ إني أرى السيوف تستنسل اليوم فهذا له يحمل من ثلاثة محامل . . أحدها أن النبي ﷺ أخبر عن ظن ظنه في ذلك ولم يجعل هذا دليلاً تماماً في كل واقعة تشبه هذه وإذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أحد أتباع رسول الله ﷺ ورجل من أمته كان إذا قال أظن كذا أو أرى كذا خرج الأمر كما ظنه وحسبه فكيف الظن برسول الله ﷺ . . الثاني أن النبي ﷺ كان قد علم قبل مخرجه أن السيوف

في حقه . . وقالت طائفة أخرى معنى الحديث إخباره ﷺ عن الأسباب المثيرة للطيرة الكائنة في الغرائز يعني أن المثير للطيرة في غرائز الناس هي هذه الثلاثة فأخبرنا بهذا لناخذ الحذر منها فقال الشؤم في الدار والمرأة والفرس أي أن الحوادث التي تسكر مع هذه الأشياء والمصائب التي تتوالى عندها تدعو الناس إلى التشاؤم بها فقال الشؤم فيها أي أن الله قد يقدره فيها على قوم دون قوم يخاطبهم ﷺ بذلك لما استقر عندهم منه ﷺ من إبطال الطيرة وإنكار العدوى ولذلك لم يستفهموا في ذلك عن معنى ما أراه ﷺ كما تقدم فهم في قوله لا يورد الممرض على المصح فقالوا عنده وما ذاك يا رسول الله فأخبرهم أنه خاف في ذلك الأذى الذي يدخله الممرض على المصح لا العدوى لأنه ﷺ أمر بالتوادر وإدخال السرور بين المؤمنين وحسن التجاوز ونهى عن التقاطع والتباغض والأذى فمن اعتقد أن رسول الله ﷺ نسب الطيرة والشؤم إلى شيء من الأشياء على سبيل أنه مؤثر بذلك دون الله فقد أعظم القرية على الله وعلى رسوله وضل ضلالاً بعيداً والنبي ﷺ ابتدأهم بنفي الطيرة والعدوى ثم قال الشؤم في ثلاث قطعاً لتوهم الطيرة المنقبة في الثلاثة التي أخبر أن الشؤم يكون فيها فقال لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاثة فابتدأهم بالمؤخر من الخبر تعجيلاً لهم بالأخبار بفساد العدوى والطيرة المتهمة من قوله الشؤم في ثلاثة وبالجملة فأخبره ﷺ بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها وإنما غاية إن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانا مشؤمة على من قاربها وسكنها وأعيانا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر وهذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولداً مباركا يريان الخير على وجهه ويعطى غيرهما ولداً مشؤماً ندلاً يريان الشر على وجهه وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها فكذلك الدار والمرأة والفرس والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ويقضى سعادة من قاربها وحصول الأمن له والبركة ويخلق بعض ذلك نحو ما يتنحس بها من قاربها وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بتسبباتها المتضادة والمختلفة فكما خلق المسك وغيره من حامل الأرواح الطيبة ولذ بها من قاربها من الناس وخلق ضدها وجعلها سبباً لا يذاء من قاربها من الناس والفرق بين هذين النوعين يدرك بالحس فكذلك في الديار والنساء والخيل فهذا لون والطيرة الشركية لون آخر .

فصل

وأما الأثر الذي ذكره مالك عن يحيى بن سعيد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله دار سكنناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال النبي

يتم قضاؤه وقدره فتوصف المرأة بالشؤم لذلك وكذلك الفرس وإن لم يكن شيء من ذلك فعل ولا تأخير .. وقال ابن القاسم سئل مالك عن الشؤم في الفرس والدار فقال إن ذلك كذب فيما نرى كم من دار قد سكنها ناس فملكوا ثم سكنها آخرون فملكوا قال فهذا تفسيره فيما نرى والله أعلم .. وقالت طائفة أخرى شؤم الدار بجاورة جوار السوء وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها في سبيل الله وشؤم المرأة أن لا تكد وتكون سيئة الخلق .. وقالت طائفة أخرى منهم الخطائي هذا مستثنى من الطيرة أي الطيرة منهى عنها إلا أن يكون له دار يكره سكنها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع والطلاق ونحوه ولا يقيم على الكراهة والتأذي به فإنه شؤم وقد سلك هذا المسلك أبو محمد بن قتيبة في كتاب مشكل الحديث له لما ذكر أن بعض الملاحدة اعترض بحديث هذه الثلاثة .. وقالت طائفة أخرى الشؤم في هذه الثلاثة إنما يلحق من تشام بها وتطير بها فيكون شؤمها عليه ومن توكل على الله ولم يتشام ولم يتطير لم تكن مشؤمة عليه قالوا ويدل عليه حديث أنس الطيرة على من تطير وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاؤمه سببا لحلول المكروه به كما يجعل الثقة والتوكل عليه وإفراذه بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر المتطير به وسر هذا أن الطائر إنما تتضمن الشرك بالله تعالى والخوف من غيره وعدم التوكل عليه والثقة به كان صاحبها غرضا لسهام الشر والبلاء فيتسرع نفوذها فيه لأنه لم يتدبر من التوحيد والتوكل بحجة واقية وكل من خاف شيئا غير الله سلط عليه كما أن من أحب مع الله غيره عذب به ومن رجا مع الله غيره خذل من جهته وهذه أمور تجربتها تكفي عن أداتها والنفس لا بد أن تتطير واسكن المؤمن القوى الايمان يدفع موجب تطيره بالتوكل على الله فإن من توكل على الله وحده كفاه من غيره قال تعالى ﴿ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ ولهذا قال ابن مسعود وما منا إلا يعني من يقارب التطير واسكن الله يذبه بالتوكل ومن هذا قول زباني بن سيار :

أطار الطير إذ سرنا زياد لتخبرنا وما فيها خير
أقام كان لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على تطير وهو الشبور
بل شيء يوافق بعض شيء أحيائنا وباطله كثير

قالوا فالشؤم الذي في الدار والمرأة والفرس قد يكون مخصوصا بمن تشام بها وتطير وأما من توكل على الله وخافه وحده ولم يتطير ولم يتشام فإن الفرس والمرأة والدار لا يكون شؤما

فنعول وبالله التوفيق هذا الحديث قد روى على وجهين أحدهما بالجزم والثاني بالشرط فأما الأول فرواه مالك عن ابن شهاب عن سالم وحزرة بن عبد الله بن عمر عن أبيهما أن رسول الله ﷺ قال الشؤم في الدار والمرأة والفرس متفق عليه وفي لفظ في الصحيحين عنه لا عدوى ولا ضفر ولا طيرة وإنما الشؤم في ثلاثة المرأة والفرس والدار وأما الثاني ففي الصحيحين أيضا عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ إن كان في المرأة والفرس والممسكن يعني الشؤم وقال البخاري إن كان في شيء وفي صحيح مسلم عن جابر مرفوعا إن كان في شيء ففي الربع والخادم والفرس وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا إن يكن من الشؤم شيء. حقا ففي الفرس والمسكن والمرأة وروى زهير بن معاوية عن عتبة بن حميد قال حدثني عبيد الله بن أبي بكر أنه سمع أنساً يقول قال رسول الله ﷺ لا طيرة والطيرة على من تطير وإن يكن في شيء. ففي المرأة والدار والفرس ذكره أبو عمر . . وقالت طائفة أخرى لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة بل علقه على الشرط فقال إن يكن الشؤم في شيء ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من مفردهما فقد يصدق التلازم بين المستحيلين قالوا وأهل الوهم وقع من ذلك وهو أن الراوى غلط وقال الشؤم في ثلاثة وإنما الحديث إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة قالوا وقد اختلف على ابن عمر والروايتان صحيحتان عنه قالوا وبهذا يزول الإشكال ويتبين وجه الصواب . . وقالت طائفة أخرى إضافة رسول ﷺ الشؤم إلى هذه الثلاثة مجاز واتساع أى قد يحصل مقارنا لها وعندها لا أنها هي في أنفسها بما يوجب الشؤم قالوا وقد يكون الدار قد قضى الله عز وجل عليها أن يميت فيها خلقا من عباده كما يقدر ذلك في البلد الذى ينزل الطاعون به وفي المسكن الذى يكثر الوباء به فيضاف ذلك إلى المسكن مجازا والله خلقه عنده وقدره فيه كما يخلق الموت عند قتل القاتل والشبع والرى عند أكل الأكل وشرب الشارب فالدار التى يهلك بها أكثر ساكنيها توصف بالشؤم لأن الله عز وجل قد قصها بكثرة من قبض فيها فمن كتب الله عليه الموت في تلك الدار حسن إليه سكنها وحركة إياها حتى يقبض روحه في المسكن الذى كتب له كما ساق الرجل من بلد إلى بلد للأثر والبقعة التى قضى أنه يكون مدفنه بها . . قالوا وكذلك ما يوصف من طول أعمار بعض أهل البلدان ليس ذلك من أجل صحة هواء ولا طيب تربة ولا طبع يزداد به الأجل وينقص بفواته وإنما الله سبحانه قد خلق ذلك المسكن وقضى أن يسكنه أطول خلقه أعمارا فيسوقهم إليه ويجمعهم فيه ويحببه إليهم قالوا وإذا كان هذا على ما وصفنا في الدور والبقاع جاز مثله في النساء والخيل فتكون المرأة قد قدر الله عليها أن تزوج عددا من الرجال ويموتون معها فلا بد من انفاذ قضائه وقدره حتى أن الرجل ليقدم عليها من بعد علمه بكثرة من مات عنها لوجه من الطمع يقوده إليها حتى

تنفى الطيرة ولا تعتقد منها شيئاً حتى قالت لنسوة كن. يكرهن البناء بأزواجهن فى شوال
ما تزوجنى رسول الله ﷺ إلا فى شوال وما دخل بى إلا فى شوال فمن كان احطى مئى
عنده وكان تستحب أن يدخلن على أزواجهن فى شوال قال أبو عمر وقولها فى أبى هريرة
كذب فإن العرب تقول كذبت بمعنى غلطت فيما قدرت وأوهمت فيما قلت ولم تظن حقاً
ونحو هذا وذلك معروف من كلامهم موجود فى أشعارهم كثيراً قال أبو طالب :

كذبتى وييت الله نترك مكة ونظعن الا أمركم فى بلابل
كذبتى وييت الله نبرى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال شاعر من همدان :

كذبتى وييت الله لا تأخذونه مراغمة مادام للسيف قائم

وقال زفر بن الحارث العبسى :

أنى الحق إما بمحدل وابن بمحدل فيجى وأما ابن الزبير فيقتل
كذبتى وييت الله لا تقتلونه ولما يكن أمر أغر بمجمل

قال ألا ترى أن هذا ليس من باب الكذب الذى هو ضد الصدق وإنما هو من باب
الغلط وظن ما ليس بصحيح وذلك أن قريشا زعموا أنهم يخرجون بنى هاشم من مكة أن لم
يتروا جوار محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم أبو طالب كذبتى أى غلطتم فيما قلتم وظننتم
وكذلك معنى قول الهمداني والعبسى وهذا مشهور فى كلام العرب قلت ومن هذا قول سعيد
ابن جبير كذب جابر بن زيد يعنى فى قوله الطلاق بيد السيد أى أخطأ ومن هذا قول عبادة
ابن الصامت كذب أبو محمد لما قال الوتر واجب أى أخطأ وفى الصحيح أن النبى صلى الله
عليه وسلم قال كذب أبو السنا بل لما أفتى أن الحامل المتوفى عنها زوجها لا تنزوج حتى
تم لها أربعة أشهر وعشراً ولو وضعت وهذا كثير والمقصود أن عائشة رضى الله عنها
ردت هذا الحديث وأنكرته وخطأت قائله ولكن قول عائشة هذا مرجوح ولها رضى
الله عنها اجتهاد فى رد بعض الأحاديث الصحيحة خالفها فيه غيرها من الصحابة وهى رضى
الله عنها لما ظنت أن هذا الحديث يقتضى إثبات الطيرة التى هى من الشرك لم يسعها غير تكذيبه
ورده ولكن الذين رووه عن لا يمكن رد روايتهم ولم ينفرد بهذا أبو هريرة وحده ولو انفرد
به فهو حافظ الأمة على الإطلاق وكلما رواه عن النبى ﷺ فهو صحيح بل قد رواه عن النبى
ﷺ عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسهل بن سعد الساعدى وجابر بن عبد الله
الأنصارى وأحاديثهم فى الصحيح فالحق أن الواجب بيان معنى الحديث ومباينته للطيرة الشركية

أن يباشر الأفعال التي هي من باب الكرامة باليمين كالأكل والشرب وال أخذ والعطاء وضدها بالشمال كالاستنجاء وامساك الذكر وإزالة التجاسة فإن كان الفعل مشتركاً بين العضوين بدأ باليمين في أفعال التكريم وأما كنهه كالوضوء ودخول المسجد وبالشمال في ضد ذلك كدخول الخلاء والخروج من المسجد ونحوه والله تعالى فضل بعض مخلوقاته على بعض وفضل بعض جوارح الإنسان وأعضائه على بعض ففضل العين على السكب والوجه على الرجل وكذلك فضل اليد اليمين على اليسار وخلق خلقه صنفين سعداء وجعلهم أصحاب اليمين وأشقياء وجعلهم أصحاب الشمال وقال النبي صلى الله عليه وسلم المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم لما أسرى به رأى آدم في سماء الدنيا وإذا عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة فإذا نظر قبل يمينه عنه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا آدم وهذه الاسودة هن يمينه ويساره بنوه فأهل اليمين أهل السعادة من ذريته وأهل اليسار أهل الشقاوة وفي المسند عن عائشة قالت كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمين لطهوره وطعامه وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذى وفي المسند أيضاً وسنن أبي داود عن حفصة بنت عمر زوج النبي صلى الله عليه وسلم كأن يجعل يمينه لطعامه ويجعل شماله لما سوى ذلك وقال أحمد كانت يمينه لطعامه وطهوره وصلاته وشأنه وكانت شماله لما سوى ذلك .

فصل

وأما قوله صلى الله عليه وسلم الشؤم في ثلاث الحديث فهو حديث صحيح من رواية ابن عمر وسهل بن سعد ومعاوية بن حكيم وقد روى أن أم سلمة كانت تزيد السيف يعني في حديث الزهري عن حمزة وسالم عن أبيهما في الشؤم وقد اختلف الناس في هذا الحديث وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تنكر أن يسكون من كلام النبي ﷺ وتقول إنما حكاها رسول الله ﷺ عن أهل الجاهلية وأقوالهم فذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم عن سعيد عن قتادة عن أبي حسان أن رجلين دخلا على عائشة وقالوا إن أبا هريرة يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما الطيرة في المرأة والدار والذابة فطارت شقة منها في السماء وشقة في الأرض ثم قالت كذب والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم من حدث عنه بهذا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول كان أهل الجاهلية يقولون إن الطيرة في المرأة والدار والذابة ثم قرأت عائشة (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) قال أبو عمر وكانت عائشة

لأظنه كذا إلا كان كما قال وكان يقول الشيء ويشير به فينزل القرآن بموافقة فإذا نزل الأمر الدين بموافقة قوله فكذلك وقوع الأمر الكوني التقدرى موافقا لقوله في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول قد كان في الأمم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي أحد منهم فعمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ابن وهب تفسير محدثون ملهون وفي صحيح البخارى عن أنى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يعلمون من غير أن يكونوا أنبياء فان يكن في أمتي منهم أحد فعمر وفي الصحيحين عن عمر رضى الله عنه قال وافقت رضى في ثلاث في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر وفي صحيح البخارى عن أنس قال قال عمر وافقتى الله في ثلاث أو وافقتى رضى في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وبلغنى معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت ان انتهيتن أو ليمدكن الله رسوله خيرا منكن حتى أتيت إحدى نسائه فقالت يا عمر أمانى رسول الله ما يعظ نسائه حتى تعظن أنت فأنزل الله عز وجل (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) الآية . وفي الصحيحين أنه لما قام صلى الله عليه وسلم ليصلى على عبد الله بن أبى بن أبى سلول رأس المنافقين قام عمر فأخذ ثوبه وقال يا رسول الله أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خيرنى الله فقال (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيد على السبعين وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) فترك الصلاة عليهم فاذا كانت هذه موافقة عمر لربه في شرعه ودينه وينطق بالشئ فيمكن هو المأمور المشروع فكذلك لا يبعد موافقة له تعالى في قضائه وقدره ينطق بالشئ فيمكن هو المقضى المقدر فهذا لون والطيرة لون وكذلك جرى له تطهير مع رجل آخر سأله عن اسمه فقال ظالم فقال ابن من قال ابن سارق قال تظلم أنت ويسرق أبوك وذكر المدائنى عن أبى صفرة وهو أبو المهلب أنه ابتاع سلعة بتأخير من رجل من بنى سعد فأراد أن يشهد عليه فقال له ما اسمك قال ظالم قال ابن من ؟ قال ابن سراق قال لا والله لا يكون عليك شئ أبدا .

فصل

وأما محبة النبي صلى الله عليه وسلم التيمن في تنعله وترجله وطهوره وشأنه كله فليس هذا من باب الفأل ولا التطير بالشمال فى شئ . واسكن تفضيل البين على الشمال فكان يعجبه

قال كانوا يكرهون أن يسمى الرجل غلامه عبد الله مخافة أن ذلك يعتقه وروى مغيرة عن أبي معشر عن إبراهيم أنه كره أن يسمى مملوكه عبد وعبيد الله وعبد الملك وعبد الرحمن وأشباهه مخافة العتق قال بعض أهل العلم كراهتهم لذلك نظير ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم من تسمية المالك برباح ونافع وأفلح لأن ذلك كان منه صلى الله عليه وسلم حذراً من أن يقال أهاهنا نافع فيقال لا أو أثم أفلح فيقال لا أو بركة أو يسار أو رباح فيقال لا ومعلوم إن السائل عن إنسان اسمه أفلح أو نافع أو رباح هل هو في مكان كذا إنما مسئلة تلك عن مسمى شخص من أشخاص بني آدم سمي باسم جعل عليه دليلاً يعرف به إذا ذكر إذا كانت الأسماء العوارى المفرقة بين الأشخاص المتشابهة إنما هي أدلة المسمين بها لا مسئلة عن شخص صفته النفع والفلاح والبركة وذلك من كراهته صلى الله عليه وسلم نظير كراهته تسمية تلك المرأة برة فحول اسمها جويرية وتحويله اسم أرض كان اسمها عفرة فردها خضرة ونحو ذلك كثير ومعلوم أن تحويله ما حول من هذه الأسماء عما كان عليه لم يكن لأن التسمية بما كان المسمى به منهم مسمى قبل تحويله ذلك كان حرام التسمية ولكن كان ذلك منه وعلى وجه الاستحباب واختيار الأحسن على الذي هو دونه في الحسن إذ كان لا شيء في القبيح من الأسماء إلا وفي الجليل الحسن منها مثله من الدلالة على المسمى به مع تخير الأحسن بفضل الحسن والجمال من غير مؤنة تلزم صاحبه بسبب التسمية وكذلك كراهة من كره تسمية مملوكه عبد الله وعبد الرحمن إنما كانت كراهة ذلك حذراً أن يوجب ذلك له العتق ولا شك أن جميع بني آدم عبيد الله أحرارهم وعبيدهم وصفهم بذلك واصف أولم يصقهم ولكن الذين كرهوا التسمية بذلك صرفوا هذه الأسماء عن رقيقهم لئلا يقع اللبس على السامع بذلك من أسمائهم فيظن أنهم أحرار إذ كان استعمال أكثر الناس التسمية بهذه الأسماء في الأحرار فتنجبوا ذلك إلى ما يزيل اللبس عنهم من أسماء المالك والله أعلم .

فصل

وأما الأثر الذي ذكره مالك عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لرجل ما اسمك قال جمرة الحديث إلى آخره فالجواب عنه أنه ليس بحمد الله فيه شيء من الطيرة وحاشا أمير المؤمنين رضى الله عنه من ذلك وكيف يتطير وهو يعلم أن الطيرة شرك من الجبت وهو القائل في حديث اللقحة ما تقدم ولكن وجه ذلك والله أعلم أن هذا القول كان منه مبالغة في الإنكار عليه لاجتماع أسماء النار والحريق في اسمه واسم أبيه وجده وقبيلته وداره ومسكنه فوافق قوله أذهب فقد احترق منزك قدراً ولعل قوله كان السبب وكثيراً ما يجري مثل هذا لمن هو دون عمر بكثير فكيف بالمحدث الملمم الذي ما قال شيء أتى

بعد عنها فلم يقل شيئاً ثم قبض ولم ينه عن ذلك ثم أراد عمر رضى الله عنه أن ينهى عن ذلك
ثم تركه ورأيت لبعضهم في الفرق بين الفأل والطيرة كلاماً ما ذكره بلفظه قال أماما روى أن
النبي ﷺ كان يتفأل ولا يتطير فهما وإن كان معناه واحد في الاستدلال فبينهما افتراق لأن
الفأل إبانة والتطير استدلال والإبانة أكثر وأشهر وأوضح وأفصح لأن من كان في قلبه وخيمه
شيء فسمع قائلاً يقول أقبل الخير وامض بسلام أو أبشر أو نحو ذلك فقد اكتفى بما سمع
من الاستدلال والذي يرى طائراً يصيح أو ينوح فليس معه إلا الاستدلال على اليمن بالسائح
والشؤم بالبارح وهذا أمر قد يكون وقد لا يكون وذلك الفأل في الأعم يكون وقال آخرون
إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتطير أى لم يكن يسند الأمور السكينة من الخير والشر إلى
الطير كما يفعل السكينة وقال آخرون إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا جلس مع أصحابه
فتكلم أحدهم بخير أو سمع من تكلم حصهم عليه وعرفهم به ومعلوم أنه لا بد لطائر أن يمر
سائحاً أو بارحاً أو قعيداً أو ناطحاً فلا يوقفهم عليه ولا يعرفهم به إذ ذلك من فعل السكينة
وكان الحديث المروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يتفأل ولا يتطير من هذا المعنى وقد
أغنى الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأخباره بإرسال جبريل إليه بما يحدثه سبحانه من الاستدلال
على أحداثه بالأشياء التي ينظر فيها غيره تفرقة منه سبحانه بين النبوة وغيرها فإن قيل فهذا الذي
نزل بهذين الرجلين وهما السائب وحزن هل كان من أجل اسميهما أم من جهة غير الاسم قيل
قد يظن من لا ينعم النظر أن الذي نزل بهما هو من جهة اسميهما ويصح بذلك أمر الطيرة
وتأثيرها ولو كان ذلك كما ظنوه لوجب أن ينزل بجميع من تسمى باسميهما من أول الدهر
ولم كان اقتضاء الاسم لذلك كإقتضاء النار الإحراق والماء التبريد ونحوه ولكن يحمل ذلك
والله أعلم على أن الأمرين الجارين عليهما قد تقدم في أم الكتاب كما تقدم لهما أيضاً أن
يتسميا باسميهما إلى أن يختار لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهما فيرغبون عن
اختياره ويتخلفون عن استجابته فيعاقبا بما قد سبق لهما عقوبة تطابق اسميهما ليكون ذلك
زاجراً لمن سواهما وقد يكون خوفه صلى الله عليه وسلم على أهل الأسماء المكروهة أيضاً
من مثل هذه الحوادث إذ قد تنزل بالإنسان بلا مشيئة بما في اسمه فيظن هو أو جميع من
بلغه أن ذلك كان من أجل اسمه عاد عليه بشؤمه فيعصى الله عز وجل وقد كره قوم من
الصحابة والتابعين أن يسموا عبيد الله أو عبد الرحمن أو عبد الملك ونحو ذلك مخافة
أن يعتقهم ذلك قال سعيد بن جبير كنت عند ابن عباس سنة لا أكله ولا أعرفه ولا يعرفني
حتى أتاه يوماً كتاب من امرأة من أهل العراق فدعا غلامه فجعل يسكني عن عبيد الله
وعبد الله وأشباهم ويدعو يا غرق يا وثاب وروى أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم

عليه ولهذا والله أعلم غير كثير أ من الأسماء القيحية بأحسن منها وغير أسماء حسنة إلى غيرها خشيعة الطيرة والتأذى عند نقيها والخروج من عند المسمى أو انضمامها تزكية النفس ونحوها فالأول كتغيره اسم الحباب بن المنذر بعبد الرحمن وقال الحباب اسم الشيطان وغير أبامرة إلى أبي حلوة وغير أبالمعاصي إلى مطيع وغير عاصية بحميلة وغير اسم بني الشيطان إلى بني عبد الله وغير اسم أصرم إلى اسم زرة وغير اسم حزن جد سعيد بن المسيب إلى سهل فأبى قبول ذلك فلزمه مسمى اسمه من الحزونة له ولذريته . . وقال أبو داود وغير النبي ﷺ اسم العاص وعزير وعقلة والشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب فسماه هشاما وسمى حرباً سلبا وسمى المضطجع المنبعث وأرضا اسمها عفرة سماها خضرة وشعب الضلالة سماه شعب الهدى وبنو الزينة سماهم بني الرشدة وسمى بني مغوية بني رشدة قال أبو داود تركت أسانيدھا للاختصار . . وقال مسروق لقيت عمر فقال من أنت فقلت مسروق بن الأجدع فقال عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول الأجدع شيطان وأما الثاني ففي صحيح مسلم عن سمرة قال قال رسول الله ﷺ لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحاً ولا نجيحاً ولا أفلاح فإنك تقول اثم هو فيقال لا وغير اسم برة زينب وكره أن يقال خرج من عند برة وأما الثالث فككتغيره أباالحكم بأبي شريح وتغيره أيضاً برة زينب وقال لا تزكوا أنفسكم فروى مسلم في صحيحه عن محمد ابن عمرو بن عطاء أن زينب بنت أبي سلمة سألت ما سميت بنتك قال سميتها برة فقالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم وسميت برة فقال النبي ﷺ لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم فقالوا ما نسميها قال سموها زينب ومن هذا ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أضع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى ملك الأملاك لا مالك إلا الله قال مسفيان بن عيينة مثل شاهان شاه وذكر ابن وهب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بغلام فقال ما سميت هذا قالوا السائب فقال لا تسموه السائب ولكن سموه عبد الله قال فغلبوا على اسمه فلم يمت حتى ذهب عقله فإن قيل فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلام اسمه رباح وكان لأبي أيوب غلام اسمه أفلاح لعبد الله بن عمر غلام اسمه زباح قيل هذا النهي من النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على وجه العزيمة والحتم ولكن كان على جهة الكراهة والدليل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده حزن أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له ما اسمك قال حزن فقال أنت سهل قال لا غير اسما سمانيه أبي فلم ينكر عليه النبي ﷺ ولا أخبره أن ذلك معصية بل سكنت عنه وكذلك لما غير اسم السائب فأبوا تغييره لم ينكر عليهم وأيضاً فروى مسلم في صحيحه عن حديث أبي الزبير عن جابر قال أراد النبي ﷺ أن ينهى أن يسمى بيهلى وبركة وأفلاح ويسار ونافع ونحو ذلك ثم رأيته سكنت

برد أمرنا وصلح ثم قال ممن قال من أسلم قال لأبي بكر سلمنا ثم قال ممن قال من بنى سهم قال
خرج سهمنا قال أحمد بن زهير قال لنا أبو عمار سمعت أوسا يحدث هذا الحديث بعد ذلك
عن أخيه سهل بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن بريدة فأعدت ثلاثا من حديثك قال سهل أخى
والذى يكشف أمر حديث اللقمة مازاده ابن وهب فى جامعه الحديث فقال بعد أن ذكره
فقام عمر بن الخطاب فقال أنكم يارسول الله أم أصمت قال بل أصمت وأخبرك بما أردت
ظننت يا عمر أنها طيرة ولا طير إلا طيره ولا خير إلا خيره ولكن أحب الفأل الحسن
فزال بذلك تعلق المتطيرين ووضح أمر الحديث واخذ الله رب العالمين . . ويمكن أن يكون
هذا منه ﷺ على سبيل التأديب لآمته لئلا يتسموا بالآسماء القبيحة وليبادر من أسلم منهم
وله اسم قبيح إلى إبداله بغيره من غير إيجاب منه ولا إلزام ولكن لوجهين من الاستحباب :
أحدهما اتقاهم عن مذاهب آبائهم ومقاصد سلفهم الفاسدة القبيحة التى يحزن بها بعضهم
بعضا عند سماعها وموافاة أهلها ومخالطتهم ومفاجأتهم لما يبقى فى ذلك من آثار الطيرة
الكامنة فى الغريزة فإن سلم العبد منها وجاهد نفسه عليها عند لقيا صاحبها وسماعه لاسم أخيه
لم يسلم من السكند وحزن القلب وقد يؤدى ذلك إلى البغضاء وإلى ضرب من النفرة والتفرقة
كالصديق يدعوه الصديق القبيح الاسم فقد يتمنى خاطره أنه لم يصحبه ولا رآه ولا سمع اسمه
حتى إذا طمع به ودعاه ذو الاسم الحسن ابتهج إليه وأقبل عليه وسر بصياحه ودعائه له
لراحة قلبه إلى حسن اسمه فقد يدعوا البعيد من قلبه ويبعد الصديق من نفسه من أجل اسمه
فكيف به إذا رآه من يومه وعبرله تعبير السوء من اشتقاق اسمه كيف يعود متمنيا لفقده فى رقاده
متكرها للقاءه متطيرا لرؤيته وهذا ضد التوادد والتراحم والتوالف الذى قصد الشارع ربطه
بين المؤمنين فكره ﷺ لآمته مقامها على حالة يؤذى بها بعضهم بعضا لغير عذر ولا فائدة
تعود عليهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ويؤدى هذا إلى التقاطع والتنافر مع أنه ﷺ
قد نذبههم واستحب لهم إدخال أحدهم السرور على أخيه المسلم ما استطاع ودفع الأذى
والمسكروه عنه فقال لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم
وقد أمرهم يوم الجمعة بالغسل والطيب عند اجتماعهم لئلا يؤذى بعضهم بعضا برائحته التى
انما يتجشمها ساعة للاجتماع ثم يفرقا ومنع أكل الثوم والبصل من دخول المسجد لأجل
تأذى الناس والملائكة به ومنع الاثنين أن يتناجيا دون صاحبهما خشية تأذيه وحزنه
ومنع أحدهم أن يأكل متاع أخيه لاعبا لأن ذلك يؤذيه ومعلوم أن ضرر الاسم القبيح
على كثير منهم أشد عليه عند همه وخروجه من منزله ورؤية صاحبه فى منامه ودعائه
من برائحة الثوم والبصل وهذا من كمال رافته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين وعزة ماعتنوا

وحاله ويبقى هدفا لسهام الطيرة ويساق إليه من كل أوب وبقيض له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه وكم هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة فأين هذا من العال الصالح السار للقلوب المؤيد للأمال الفاتح باب الرجاء المسكن للخوف الرابط للجأش الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه والاستبشار المقوى لأمله السار لنفسه فهذا ضد الطيرة فالعال يفضى بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد والطيرة تفضى بصاحبه إلى المعصية والشرك فلهذا استحب صلى الله عليه وسلم الفأل وأبطل الطيرة وأما حديث اللقحة ومنع النبي صلى الله عليه وسلم حربا ومرة من حلها وأذنه ليعيش في حلها فليس هذا بحمد الله في شيء من الطيرة لأنه محال أن ينهى عن شيء ويبطله ثم يتعاطاه هو وقد أعاده الله سبحانه من ذلك قال أبو عمر ليس هذا عندي من باب الطيرة لأنه محال أن ينهى عن شيء ويفعله وإنما هو من طلب الفأل الحسن وقد كان أخبرهم عن أفتح الأسماء أنه حرب ومرة فأكد ذلك حتى لا يتسمى بها أحد ثم ساق من طريق ابن ربيعة عن جعفر بن ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن عامر اليحصبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام حارث يحرق لأبنائه وهمام بهم بالخير وكان يكره الاسم القبيح لأنه كان يتفال بالحسن من الأشياء ثم ساق من طريق ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن عبد الرحمن بن جبير عن يعيش الغفاري قال دعا النبي صلى الله عليه وسلم يوما بناقة فقال من يحلبها فقام رجل فقال أنا فقال ما اسمك قال مرة قال أقعد ثم قام آخر فقال ما اسمك قال جمرة قال أقعد ثم قام رجل فقال ما اسمك قال يعيش قال احلبها وروى حماد بن سلمة عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا توجه لحاجة يحب أن يسمع يا نعيم يا راشد يا مبارك وقد روى من حديث بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء ولكن كان إذا سأل عن اسم الرجل فكان حسنا روى البشارة في وجهه وإن كان سيئا روى ذلك في وجهه وإذا سأل عن اسم الأرض وكان حسنا روى ذلك فيه . . قلت الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا هشام عن قتادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتطير من شيء ولكنه إذا أراد أن يأتي أرضا سأل عن اسمها فإن كان حسنا روى ذلك في وجهه وكان إذا بعث رجلا سأل عن اسمه فإن كان حسن الإسم روى البشر في وجهه وإن كان قبيحا روى ذلك في وجهه وقال أبو عمر حدثنا عبد الوارث حدثنا قاسم حدثنا أحمد بن زهير بن حسين بن حريث ابن عبد الله بن بريدة عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتطير ولكن كان يتفال فركب بريدة في سبعين راكبا من أهل بيته من بني أسلم فتلقى النبي صلى الله عليه وسلم ليلا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من أنت قال أنا بريدة فالتفت إلى أبي بكر قال يا أبا بكر

فيسمون اللديغ ساليا باسم السلامة وتطيرا من اسم السقم ويسمون العطشان ناهلا أى سينهل والنهل الشرب تفاؤلا باسم الرى ويسمون القلاة مفازة أى منجاة تفاؤلا بالفوز والنجاة ولم يسموها مهلكة لأجل الطيرة وكانت لهم مذاهب فى تسمية أولادهم فمنهم من سموه بأسماء تفاؤلا بالظفر على أعدائهم نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وعارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق ومنهم من تفاول بالسلام كتسميتهم بسلام وثابت ونحوه ومنهم من تفاول بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك ومنهم من قصد لتسميته بأسماء السباع ترهيبا لأعدائهم نحو أسد وليث وذئب وضرغام وشبل ونحوها ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلا بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل ومنهم من كان يخرج من منزله وأمراته تمنخص فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه كائنا ما كان من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبي أو حشيش أو غيره وكان القوم على ذلك إلى أن جاء الله بالإسلام ومحمد رسول الله ﷺ ففرق به بين الهدى والضلال والقى والرشاد وبين الحسن والقبيح والمحجوب والمكروه والضرار والنافع والحق والباطل فذكره الطيرة وأبطلها واستحب الفأل وحده فقال لا طيرة وخيرها الفأل قالوا وما الفأل قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم وقال عبد الله بن عباس لا طيرة وإكثنه فآل والفأل المرسل يسار وسالم ونحوه من الإسم يعرض لك على غير ميعاد وسئل بعض العلماء عن الفأل فقال أن تسمع وأنت قد أضللت بعيرا أو شيئا يا واجد أو أنت خائف يا سالم وقال الأصمعي سألت ابن عون عن الفأل فقال أن يكون مريضا فيسمع يا سالم وأخبرك عن نفسى بقضية من ذلك وهى أنى أضللت بعض الأولاد يوم التروية بمكة وكان طفلا فجهدت فى طلبه والنداء عليه فى سائر الركب إلى وقت يوم الثامن فلم أقدر له على خبر فأيست منه فقال لى إنسان إن هذا عجز اركب وادخل الآن إلى مكة فطلبه فيها فركبت فرما فما هو إلا أن استقبلت جماعة يتحدثون فى سواد الليل فى الطريق وأحدهم يقول ضاع له شيء فلقية فلا أدري انقضاء كلبته كان أسرع أم وجدانى الطفل مع بعض أهل مكة فى محلة عرفته بصوته فقله ﷺ ولا طيرة وخيرها الفأل ينفي عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أو شركة ويخلص الفأل منها وفى الفرقان بينهما فائدة كبيرة وهى أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرنى أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك بل وجهه وبرى من التوكل على الله وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله والتطير مما يراه أو يسمعه وذلك قاطع له عن مقام إياك نعبد وإياك نستعين وأعبده وتوكل عليه وعليه توكلت وإليه أنيب فيصير قلبه متملقا بغير الله عبادة وتوكلا فيفسد عليه قلبه وإيمانه

في التمهيد من حديث المقرئ عن أبي طهيرة حدثنا ابن هبيرة عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال من أرجعته الطيرة من حاجته فقد أشرك قال وما كفارة ذلك يا رسول الله قال أن يقول أحدهم اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ثم يمضي لحاجته . . . وذكر ابن وهب قال أخبرني أسامة بن زيد قال سمعت نافع بن جبير ابن مطعم يقول سأل كعب الأحبار عبد الله بن عمر هل تنطير فقال نعم قال فكيف تقول إذا تنطيرت قال أقول اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا رب غيرك ولا قوة إلا بك فقال كعب إنه أفقه العرب والله إنها لك كذلك في التوراة وهذا الذي جعله الله سبحانه في طباع الناس وغرائزهم من الإعجاب بالآسماء الحسنة والألفاظ المحبوبة وهو نظير ما جعل في غرائزهم من الإعجاب بالمناظر الأنيقة والرياض المنورة والمياه الصافية والأنوان الحسنة والروائح الطيبة والمطاعم المستلذة وذلك أمر لا يمكن دفعه ولا يجمد القلب عنه انصرافاً فهو ينفع المؤمن ويسر نفسه وينشطها ولا يضرها في إيمانها وتوحيدها وأخبر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة أن الفأل من الطيرة وهو خيرها فقال لا طيرة وخيرها الفأل فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خيرها ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر ونظير هذا منعه من الرقاء بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم تكن شركاً لما فيها من المنفعة الخالية عن المفسدة وقد اعتاص هذا الفرقان على أفهام كثير ممن غلط عن معرفة الحق والدين حجاباً وغلظ عنه طبعه وكشف عنه فهمه فقال السامع إذا سمع مثلاً بإشارة أو أبشر أو لا تخف أو يانجيج ونحوه وسمع ضد ذلك فأما أن يوجب الأمر أن ما يشاء كلهما وأما أن لا يوجب شيئاً فأما أن يوجب أحدهما دون الآخر فلا وجه له وهذا من عمى عن الهدى وصم عن سماعه وإنما تحصل الهداية من ألفاظ رسول الله ﷺ وتشرق ألفاظها في صدر من تلقاها بالتصديق والقبول فأذن عن لها بالسمع والطاعة وقابلها بالرضى والتسليم وعلم أنها منبع الهدى ومعين الحق ونحن بحمد الله نوضح لمن اشتبه ذلك عليه فرقان ما بينهما وفائدة الفأل ومضرة الطيرة فنقول . . . الفأل والطيرة وإن كان مأخذهما سواء ومجتاهما واحداً فإنهما يختلفان بالمقاصد ويفترقان بالمذاهب فما كان محبوباً مستحسننا تفاءلوا به وسموه الفأل وأحبوه ورضوه وما كان مكروهاً قبيحاً منفراً تشاءموا به وكروهوه وتنطيروا منه وسموه طيرة تعرقه بين الأمرين وتفصيلاً بين الوجهين ومثل بعض الحكماء فقيلاً له ما بالكم تكرهون الطيرة وتحبون الفأل فقال لنا في الفأل عاجل البشرى وإن قصر عن الأمل ونسكه الطيرة لما يلزم قلوبنا من الوجع وهذا الفرقان حسن جداً وأحسن منه ما قاله ابن الرومي في ذلك الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثنان وقد كانت العرب تقلب الأسماء تنطيراً وتفاءلاً

على ساقه ولولا الأمر لما تميز القدر ولا تبينت مراتبه وتصاريفه فالقدر مظهر للأمر والأمر تفصيل له والله سبحانه له الخلق والأمر فلا يكون إلا خالقا آمراً فأمره تصريف لقدره وقدره منفذ لأمره ومن أبصر هذا حق البصر وانفتحت له عين قلبه تبين له سر ارتباط الأسباب بمسبباتها وجريانها فيها وأن القدح فيها وإبطالها لإبطال للأمر وتبين له أن كمال التوحيد بإثبات الأسباب لا أن إثباتها نقض للتوحيد كما زعم منكروها حيث جعلوا لإبطالها من لوازم التوحيد فجئوا على التوحيد والشرع والتزموا تكذيب الحس والعقل ووقعوا في أنواع من المكابرة سلطت عليهم أعداد الشريعة وأوجبت لهم إن أساؤا بها الظن وتنقصوها وزعموا أنها خطائية وإفناعية وجدلية لإبرهانية فمعظم الخطب وتفاهم الأمر واشتدت البلية بالمطائفتين وقد قيل أن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل ونحن بحمد الله نبين الأمر في ذلك ونوضح أيضاً ما يتبين به تصديق كل من الأمرين الآخر وشهادته له وتزكيتة له وتبين ارتباط كل من الأمرين بالآخر وعدم انفكاكه عنه فنقول وبالله التوفيق . . . أما ما ذكرتم من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل الحسن فلا ريب في ثبوت ذلك عنه وقد ورد في ذلك بإبطال الطيرة كما في الصحيحين من حديث الزهري عن عبيد بن عبيد الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا طيرة وخيرها الفأل قالوا وما الفأل يا رسول الله قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم فابتدأهم النبي ﷺ بإزالة الشبهة وإبطال الطيرة لئلا يتوهموا عليه في إعجابه بالفأل الصالح وليس في الإعجاب بالفأل ومحبة شيء من الشرك بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يلائمها ويوافقها مما ينفعها كما أخبرهم أنه حبيب إليه من الدنيا النساء والطيب . . . وفي بعض الآثار أنه ﷺ كان يعجبه الفاغية وهي نور الحناء وكان يحب الحلواء والعسل وكان يحب الشراب البارد الحلو ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمتع إليه ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبة وميل نفوسهم إليه وكذلك جعل فيها الإرتياح والاستبشار والسرور باسم السلام والفلاح والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر والغنم والربح والطيب ونيل الأمنية والفرح والغوث والعز والغنى وأمثالها فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس وانشرح لها الصدر وقوى بها القلب وإذا سمعت أصدادها أو جملها ضد هذه الحال فأحزنها ذلك وأثار لها خوفاً وطيرةً وانكاشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه فأورث لها ذلك ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفة للشرك كما ذكره أبو عمر

وكذبهم فآمنوا بهم وصدقوهم وتركوهم من العبودية وكانت وسطا في القدر بين الجبرية الذين ينفون أن يكون للعبد فعل أو كسب أو اختيار البتة بل هو مجبور متهور لا اختيار له ولا فعل وبين القدرية النفاة الذين يجعلونه مستقلا بفعله ولا يدخل فعله تحت مقدور الرب تعالى ولا هو واقع بمشيئة الله تعالى وقدرته فأنبتوا له فعلا وكسبا واختيارا حقيقة وهو متعلق الأمر والنهي والثواب والعقاب وهو مع ذلك واقع بقدره الله ومشيئته فما شاء الله من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن ولا يتحرك ذرة إلا بمشيئته وإرادته والعباد أضعف وأعجز أن يفعلوا ما لم يشأه الله لا قوة له ولا قدرة عليه وكذلك هم وسط في المطاعم والمشارب بين اليهود الذين حرمت عليهم الطيبات عقوبة لهم وبين النصارى الذين يستحلون الخبائث فأحل الله لهذه الأمة الوسط الطيبات وحرم عليهم الخبائث وكذلك لا تجد أهل الحق دائما إلا وسطا بين طرفي الباطل وأهل السنة وسط في النحل كما أن المسلمين وسط في الملل وكذلك مانحن فيه من هذا الباب فإنهم وسط بين النفاة الذين ينفون الأسباب جملة ويمنعون ارتباطها بالمسببات وتأثيرها بها ويسدون هذا الباب بالكلية ويضطربون فيما ورد من ذلك فيقابلون بالكذب منه ما يمكنهم تكذيبه ويحيلون على الاتفاق والمصادفة مالا قبل لهم بدفعه من غير أن يكون لشيء من هذه الأمور مدخل في التأثير أو تعلق بالسببية البتة وربما يقولون أن أكثر ذلك مجرد خيالات وأوهام في النفوس تفعل عنها النفوس كأنفعال أرباب الخيالات والأمراض والأوهام وليس عندهم وراء ذلك شيء وهذا مسلك نفاة الأسباب وارتباط المسببات بها وهذا جواب كثير من المتكلمين والمسلك الثاني مسلك المثبتين لهذه الأمور المعتقدين لها الداهيين إليها وهي عندهم أقوى من الأسباب الحسية أو في درجتها ولا يلتفتون إلى قدح قاذح فيها والقدح فيها عندهم من جنس القدح في الحسيات والضروريات ونحن لانسلك سبيل هؤلاء ولا سبيل هؤلاء بل نسللك سبيل التوسط والإحصاف ونجانب طريق الجور والانحراف فلا نبطل الشرع بالقدر ولا نكذب بالقدر لأجل الشرع بل نؤمن بالمقدور ونصدق الشرع فنؤمن بقضاء الله وقدره وشرعه وأمره ولا نعارض بينهما فنبتل الأسباب المقدورة أو نقدح في الشريعة المنزلة كما فعله الطائفتان المنحرفتان فأحدهما بطلت ما قدره الله من الأسباب بما فهمته من الشرع وهذا من تقصيرها في الشرع والقدر والأخرى توصلت إلى القدح في الشرع وإبطاله بما تشاهده من تأثير الأسباب وارتباطها بمسبباتها لما ظنت أن الشرع نفاها وكذبت بالشارع فاطاقتان جانبتان على الشرع لكن الموفقون المهديون آمنوا بقدر الله وشرعه ولم يعارضوا أحدهما بالآخر بل صدق كل منهما الآخر عندهم وقرره فكان الأمر تفصيلا للقدر وكاشفا عنه وحاكما عليه والقدر أصل الأمر ومنفذ له وشاهد له ومصدق له فلو لا القدر لما وجد الأمر ولا تحقق ولا قام

مصح . . وفي موطن ما لك أنه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن أبي عطية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا عدوى ولا هام ولا صفر ولا يحل للمريض على المصح ولا يحل للمصح حيث شاء قالوا يا رسول الله وما ذاك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أذى . . وقال ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال كان أبو هريرة رضي الله عنه يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنه لا عدوى وحديثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يورد مريض على مصح الحديث ثم صمت أبو هريرة بعد ذلك عن قوله لا عدوى وأقام أن لا يورد مريض على مصح الحديث قال فقال الحارث بن أبي ذئاب وهو ابن عم أبي هريرة قد كنت أسمعك يا أبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديثنا آخر قد سكنت عنه كنت تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى فأبى أبو هريرة أن يحدث ذلك وقال لا يورد مريض على مصح فأراه الحارث في ذلك حتى غضب أبو هريرة ورطن بالحشية فقال للحارث أنت ترى ماذا قلت قال لا قال أبو هريرة إني أقول أبيت أبيت قال أبو سلمة فلعمرى لقد كان أبو هريرة يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا عدوى فلا أدري أنسى أبو هريرة أو نسي أحد القولين الآخر قالوا هذا النهى عن إيراد المريض على المصح إنما هو من أجل الطيرة التي تلحق المصح . . وقال مسدد حدثنا يحيى بن هشام عن يحيى بن أبي كثير عن الحضرمي بن لاحق عن سعيد بن المسيب قال سألت سعد بن مالك عن الطيرة فأنهتني وقال من حدثك فذكره أن أحدثه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا عدوى ولا طيرة ولا هامة وإن كانت الطيرة في شيء ففي الفرس والمرأة والدار فإذا كان الطاعون بأرض وأتم بها فلا تفروا . . وفي صحيح مسلم عن الشريد بن سويد قال كان في وفد ثقيفة رجل مجذوم فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم إنا قد بايعناك فأرجع وفي حديث آخر فر من المجذوم فرارك من الأسد .

فصل

الآن التقت حلقتا البطان وتداعى نزال الفريقان نعم وهما أضعاف أضاعف ما ذكرتم وأضعاف أضعافه وللناس ههنا مسلكان عليهما يعتمد المتكلمون في هذا الباب لا ترتضيهما بل نسلك مسلك العدل والتوسط بين طرفي الأفراط والتفريط فدين الله بين الغالي فيه والجاهل فيه والوادي بين الجاهل والهادي بين الضالين وقد جعل الله هذه الأمة هي الأمة الوسط في جميع أبواب الدين فإذا انحرف غيرها من الأمم إلى أحد الطرفين كانت هي في الوسط كما كانت وسطا في باب أسماء الرب تعالى وصفاته بين الجهمية والمعتلة والمشبهة الممثلة وكان وسطا في باب الإيمان بالرسول بين من عبدتهم وأشركهم بالله كالنصارى وبين من قتلهم

يحيى بن خالد قال حج رجلان فقيل لهما ههنا امرأة تزجر قال فأتيها فسلأها فقال أحدهما ما نضم فقال أنتك لتسألني عن رجل مقتول فقال هو والله الذي سألت عنه صاحبي فقالت هو كما قلت فسلأها عن تفسير ذلك فقالت أما رأيتهما الجارية التي مرت ومعها ديك مشدود الرجلين حين سألتني الأول قال لا بلى قالت فلذلك قلت أنه محبوس مقيد قالت ورأيت الجارية حين رجعت وسألتني أنت والدبك مذبح فقلت مقتول . . وذكر المدافني أن أهل بيت من العجم كانوا إذا غاب الرجل عن أهله ولم يأتهم خبره أربع حجج زوجوا امرأته فتزوج منهم رجل جارية وغاب أربع حجج لا يأتهم فأرادوا تزويج الجارية وكانت مشغوفة به فقالت دعوني سنة أخرى فأبوا عليها وأتوا زاجراً لهم فخرج الزاجر ومعه تلميذ له فتلقاهم قوم يحملون ميتاً ويد الميت على صدره فقال الزاجر لتلميذه مات الرجل قال مامات ألا ترى يد الميت على صدره يخبر أنه هو الميت والرجل صحيح فرجما فأخبرا الحاكم أنه لم يمت فأمر بتأجيلها سنة فجاء زوجها بعد شهر . . وذكر ابن قتيبة عن إبراهيم بن عبد الله قال دخلت على رجل ضرير زاجر من العرب وقد خبأت سحابة عنوان من كتان فقلت أخبرني بما خبأت لك فنظر قليلاً ثم قال هو من نبات المساء فقلت زدني في الشرح قال هو قطعة من كتان قال فسلأته عن ذلك فقال سألتني عن الخيء فوقعت يدي على الحصر فقلت إنه من نبات الماء قال فقلت زدني فقال وصاح صائح من جانب الدار فقضيت بالسواد وبأنه صغير للتصغير ثم نظرت فلم يكن ذلك أولى بأن يكون قطعة من كتان قال وسألته عن مقرضين في يدي قد أدخلت أصبعي في حلقتهما فقال في يدك خاتم من حديد وذكر ابن عيينة عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يرمى الجرة فجاءته حصاة فأصابت جبهته فقصدت منه عرقاً فقال رجل من بني لُب أشعر أمير المؤمنين ورب الكعبة لا يقوم هذا المقام أبداً فقتل بعد ذلك وثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشؤم في الدار والمرأة والفرس وفي لفظ فيهما لا عدوى ولا صفر ولا طيرة وإنما الشؤم في ثلاثة المرأة والفرس والدار وفي لفظ آخر فيهما إن يكن الشؤم في شيء حقاً ففي الفرس والمسكن والمرأة وفي بعض طرق البخاري والداية بدل الفرس وفي الصحيحين أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كان في المرأة والفرس والمسكن يعني الشؤم . . وقال البخاري إن كان في شيء وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن كان في شيء ففي الربع والخادم والفرس . . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يورد ممرض على

وإن كان غلامك فقد ذهب الراعى قال فبلغه بعد ذلك ذهاب الغنم وقتل الراعى ... وذكر عن العكلى أنه خرج في تسعة نفر هو عاشرهم ليصيدوا الطريق فرأى غرابا واقعا فوق بانه فقال يا قوم أنكم تصابون في سفركم هذا فازدجروا وأطيعوني وارجعوا فأبوا عليه فأخذ قوسه وانصرف وقتلت التسعة فأنشد يقول :

رأيت غرابا واقعا فوق بانه ينشش أعلى ريشه ويطايره
فقلت غراب اغتراب من النوى وبانه بين من حبيب تجاوره
فما أعيف العكلى لا ددره وازجره للطير لاعز ناصره

... وذكر عن كثير عزة أنه خرج يريد مصر وكانت بها عزة فلقية أعرابي من نهد فقال أين تريد قال أريد عزة بمصر قال ما رأيت في وجهك قال رأيت غرابا ساقطا فوق بانه ينتف ريشه فقال ماتت عزة فأنتهى ومضى فوافى مصر والناس منصرفون من جنازتها فأنشأ يقول :

فأما غراب فاغتراب وغربة وبان فبين من حبيب تعاشره

... وذكر عنه أيضا أنه هوى امرأة من قومه بعد عزة يقال لها أم الحويرث وكانت فاتكة الجمال كثيرة المال فقالت له أخرج فأصب مالا وأنزوجك فخرج إلى اليمن وكان عليها رجل من بنى مخزوم فلما كان ببعض الطريق عرض له قوط والقوط الجماعة من الأطباء فمضى ثم عرض له غراب ينعب ويفحص التراب على رأسه فأتى كثير حيا من الأزدي ثم من بنى لهب وهم من أزجر العرب وفيهم شيخ قد سقط حاجباه على عينيه فقص عليه ما عرض له فقال إن كنت صادقا لقد ماتت هذه المرأة أو تزوجت رجلا من بنى كعب فآغتم كثيرا لذلك وسقى بطنه فكان ذلك سبب موته وقال في ذلك :

تيممت لهما أبتغى العلم عندهم وقد رد علم العائفين إلى لهب
فيممت شيئا منهم ذو أمانة بصيرا بزجر الطير منعنى الصلب
فقلت له ماذا ترى في سوانح وضوت غراب يفحص الأرض بالترب
فقال جرى الطير السنيح بينها ونادى غراب بالفراق وبالسلب
فان لا تكن ماتت فقد حال دونها سواك حليل باطن من بنى كعب

وقال رجل من بنى أسد تزوجت ابنة عم لي فخرجت أريدها فلقيني شيء كالكلب مدليا لسانه في شق فقلت أخفت ورب الكعبة فأتيت القوم فلم أصل إليها وناقرنى أهلها فخرجت عنهم فمكثت ثلاثة أيام ثم بدا لي فيهم فخرجت نحوهم فلقيت كلبة تنطف أطباؤها لبنا فقلت أدركت ورب الكعبة فدخلت بأهلي وحملت منى بغلام ثم آخر حتى ولدت أولادا ... وذكر عن

بجؤجؤه فقال أبشروا ألا ترون أنه يخبركم أن قد اطمانت بكم الدار فكان كذلك . . وذكر المدائني قال خرج رجل من لذب و لطم عيافة في حاجة له ومعه سقاء من ابن فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ ليشرب فإذا الغراب ينعب فأناخ راحلته ومضى فلما أجهده العطش أناخ ليشرب فنعب الغراب فأناخ راحلته ثم الثالثة نعب الغراب وتمرغ في التراب فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخيم ثم مضى فإذا غراب على سدره فصاح به فوقع على سلمة فصاح به فوقع على صخرة فانتهى إليه فإذا تحت الصخرة كنز فلما رجع إلى أبيه قال له ما صنعت قال سرت صدر يوم ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينعب قال أثره وإلا لست بابني قال أثره ثم أنخت لأشرب فنعب الغراب وتمرغ في التراب قال أضرب السقاء وإلا لست بابني قال فعلت فإذا أسود ضخيم قال ثم مه قال ثم رأيت غرابا واقفا على سدره قال أطره وإلا لست بابني قال أطره فوقع على سلمة قال أطره وإلا لست بابني قال فوقع على صخرة قال أخبرني بما وجدت فأخبرته . . وذكر أيضا أن أعرابيا أضل ذوداً له وخادماً فخرج في طلبهما إذ اشتدت عليه الشمس وحى النهار فمر برجل يحلب ناقة قال أظنه من بني أسد فسأله عن ضالته قال أدن فأشرب من اللبن وأدلك على ضالك قال فاشرب ثم قال ما سمعت حين خرجت قال بكاء الصبيان ونباح الكلاب وصراخ الديكة ونغاء الشاء قال ينهك عن الغدو ثم مه قال ثم ارتفع النهار فعرض لى ذئب قال كسوب ذو ظفر ثم مه قال ثم عرضت لى نعامة قال ذات ريش واسمها حسن هل تركت فى أهلك مريضاً يعاد قال نعم قال ارجع إلى أهلك فذودك وخادملك عندهم فرجع فوجدهم . . وذكر أبو خالد التيمي قال كنت أخذ الإبل بضمان فأرعاها فى ظهر البصرة فطردت فخرجت أقفو أثرها حتى انتهيت إلى القادسية فاخططت على الآثار فقلت لو دخلت الكوفة فتخسست عنها فأنتيت السكناسة فإذا الناس مجتمعون على عراف اليمامة فوقفت ثم قلت له حاجتى فقال بعيدة أشطان الهوى جمع مثلها على العاجز الباغى الغبى ذو تكاليف وترجمن قال فوجدتها فى الشام مع ابن عم لى فصالحات أصحابها عنها وقال المدائني كان بالسواد زاجر يقال له مهر فأخبر به بعض العمال فجعل يكذب زجره ثم أرسل إليه فلما أتاه قال إني قد بعثت بغنم إلى مكان كذا وكذا فانظر هل وصلت أم لم تصل وقد عرف للعامل قبل ذلك أن بينهما وبين الكلاء رحلة فقال لغلामه أخرج فانظر أى شئ تسمع قال وكان العامل قد أمر غلامه أن يكن فى ناحية الدار ويصيح صياح ابن آوى فخرج غلام الزاجر ليسمع وصاح غلام العامل فرجع إلى الزاجر غلامه وأخبره بما سمع فقال للعامل قد ذهبت عنك وقطع عليها الطريق فاستيقنت قال فضحك العامل وقال قد جاءنى خبرها أنها وصلت والصائح الذى صاح غلامى قال إن كان الصائح الذى الصاح ابن آوى فقد ذهبت

حتى غابت عنا ثم رجعت ومضى واحد فقال لنا أبو جعفر والله لا نرجع جميعاً فأت مولى
أبي جعفر وأمر بعض الأمراء جارية له تغني فاندفعت تقول :
هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرأته
فقال ويلك غني غير هذا فغنت

هذا مقام مطرد هدمت منازل ودوره
فقال ويلك غني غير هذا فقالت والله ياسيدي ما أعتد إلا ما يسرك ويسبق إلى لساني
ماترى ثم غنت

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم
فقال ما أرى أمري إلا قريباً فسمع قائلاً يقول قضى الأمر الذي فيه تستفتيان وقد ذكر
في حرب بني تغلب أن تيم اللات أرسل بنيه في طلب مال له فلما أمسى سمع صوت الريح فقال
لامرأته أنظري من أين نشأ السحاب ومن أين نشأت الريح فأخبرته أن الريح طالع من وجه السحاب
فقال والله إنى لأرى ريحاً تهد هذه الصخرة وتمحق الأثر فلما دخل عليه بنوه قال لهم ما لقيتم قالوا
سرنا من عندك فلما بلغنا غصن شعشين إذا بعفر جاثمات على دعص من رمل فقال أمشرك أم
مغربات قالوا مغربات قال فإريكم ناطح أم دابر أم بارح أم سانح فقالوا ناطح فقال لنفسه يا تيم اللات
دعص الشعشين والشعث الشيخ الكبير وأنت شعش بنى بكر وجواثم بدعص وريح ناطح نطحت
فبرحت قال ثم ماذا قالوا ثم رأينا ذئباً قد دلح لسانه من فيه وهو يطحر وشعره عليه فقال ذلك
حران نأثر ذو لسان عدول حامى الظهر همه سفك الدماء وهو أرقم الأرقام يعنى مهلهل قال ثم
ماذا قالوا ثم رأينا ريحاً وسحاباً قال فهل مطر تم قالوا بلى قال بريق قالوا قد كان ذلك
فقال أماء سائل فقالوا نعم فقال ذلك دم سائل ومرهفات قال ثم مه قالوا ثم طلعت قلعة
الضعفاء ثم تصوبنا من تل فاران قال فكنتم سواء أو مترادفين قالوا بل سواء قال فما سماؤكم
قالوا خبا قال فإريكم قالوا ناطح قال فما فعل الجيش الذين لقيتم قالوا نجونا منه هرباً وجد القوم
في أثرنا قال ثم مه قالوا ثم رأينا عقاباً منقضة على عقاب فتشابكا وهويا إلى الأرض قال ذلك
جمع رام جمعاً فهو لاقية قال ثم مه قالوا ثم رأينا سبعاً على سبع ينهشه وبه بقية لم يمت فقال
ذرونى أما والله أنها لقبيلة مصروعة مأكولة مقتولة من بنى وائل بعد عز وامتناع . .
وذكروا أن تيم اللات هذا مر يوماً بجمل أجرب وعليه ثلاث غرايب فقال لبنيه ستقفون
على مقتولا فكان كما قال وقتل عن قريب وكذلك قول علقمة في مسيره مع أصحابه وقد
مروا في الليل بشيخ فان فقال لقيتم شيخاً كبيراً فأنا يغالب الدهر والدهر يغالبه يخبركم أنكم
ستلقون قوماً فيهم ضعف ووهن ثم لقي سبعاً فقال دلاج لا يغلب ثم رأى غراباً ينقض

حضرت الحرب ولما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر استقبل في طريقه جبيلين فسأل
 تنهما فمالوا اسم أحدهما مسلح والآخر مخزى. وأهلها بنو النار وبنو محراق فذكره المرور
 عليهما وتركهما على يساره وسلك ذات النبين وعرض عبد الله بن جعفر مالا له على معاوية
 يقال له الدعان وقال له اشتره منى فقال له معاوية هذا مال يقول دعنى ولما نزل الحسین بن
 على بكر بلاء قال ما اسم هذا الموضع قالوا كربلاء قال كرب وبلاء ولما خرج عبد الله بن الزبير
 من المدينة إلى مكة أنشده أحد أخويه

وكل بنى أم سيمسون ليلة ولم يبق من أغنامهم غير واحد
 فقال له عبد الله ما أردت إلى هذا قال لم أتعمد له قال هو أشد على وقد كره السلف ومن بعدهم
 أن يتبع الميت بنار إلى قبره من حجر أو غيره وفي معناه الشمع قالت عائشة لا تجعلوا آخر
 زاده أن تتبعوه بالنار ولما بايع طلحة بن عبيد الله على بن أبي طالب وكان أول من بايع قال
 رجل أول يد بايعته يد شلاء لا يتم هذا الأمر له ولما بعث على رضى الله عنه معقل بن قيس
 الرباحى من المدائن فى ثلاثة آلاف وأمره أن يأخذ على الموصل ويأتى نصيبين ورأس عين حتى
 يأتى الرقة فيقيم بها فسار معقل حتى نزل الحديثة فبينما هو ذات يوم جالسا إذ نظر إلى كبشين
 يتناطحان حتى جاء رجلان فأخذ كل منهما كبشاً فذهب به فقال شداد بن أبي ربيعة الخثعمى
 ستصرفون من وجهكم هذا لا تغلبون ولا تغلبون لا فراق الكبشين سليمان فكان كذلك ولما
 بعث معاوية فى شأن حجر بن عدى وأصحابه كان الذى جاءهم أعور يقال له هذبة وكانوا
 ثلاثة عشر رجلا مع حجر فنظر إليه رجل منهم فقال إن صدق الفأل قتل نصفنا لأن الرسول
 أعور فلما قتلوا سبعة وفى رسول ثان ينهى عن قتلهم فكفوا عن الباقيين وقال عوانة بن
 الحكم لما دعا ابن الزبير إلى نفسه قام عبد الله بن مطيع ليبايع فقبض عبد الله بن الزبير يده
 وقال اعبيد الله بن أبي طالب قم فبايع فقال عبد الله قم يا مصعب فبايع فقام فبايع فتفاهل
 الناس وقالوا أبى أن يبايع ابن مطيع وبايع مصعبا ليكون فى أمره صعوبة أو شر فكان
 كذلك . . وقال سلمة بن محارب نزل الحجاج فى محاربة لابن الأشعث ديرة قررة ونزل عبد الرحمن
 ابن الأشعث ديرة الجاهم فقال الحجاج استقر الأمر فى يدي وتجمجم به أمره والله لأقتله
 وقال عمرو بن مروان السكلى حدثني مروان بن يسار عن سلمة مولى يزيد بن الوليد قال
 كنت مع يزيد بن الوليد بناحية القريتين قبل خروجه على الوليد بن يزيد ونحن ننذاكر
 أمره إذ عرض لنا ذئب هناك فتناول يزيد قوسه فرمى الذئب فأصاب حلقه فقال قتلت الوليد
 ورب السكة فكان كإفقال وقال داود بن عيسى بن محمد بن على خرج أبى وأبو جعفر غازيين
 فى بلاد الروم ومعه غلام له ومع أبى جعفر مولى فسنحت له أربعة أظب ثم مضت تخالطنا

روى عن النبي ﷺ أنه كان يستحب الفأل في الصحيحين من حديث أنس وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا طيرة وخيرها الفأل وفي لفظ وأصدقها الفأل وفي لفظ وكان يعجبه الفأل وفي لفظ مسلم ويعجبنى الفأل الصالح أى الكلمة الحسنة وقال إذا أردتم إلى بريد فأجعلوه حسن الاسم حسن الوجه وروى عن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للقة تحلب من يحلب هذه فقام رجل فقال النبي ﷺ ما إسمك فقال الرجل مرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم إجلس ثم قال من يحلب هذه فقام رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما إسمك فقال الرجل حرب فقال له النبي ﷺ إجلس ثم قال من يحلب هذه فقام رجل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما إسمك فقال الرجل يعش فقال له النبي ﷺ يعش احلب فحلب زاد ابن وهب في جامعه في هذا الحديث فقام عمر بن الخطاب فقال أنكم يارسول الله أم أصمت قال بل أصمت وأخبرك بما أردت ظننت يا عمر أنها طيرة ولا طير إلا طيره ولا خير إلا خيره ولكن أحب الفأل وفي جامع ابن وهب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بغلام فقال ما سميت هذا الغلام فقالوا السائب فقال لا تسموه السائب ولكن عبد الله قال فغلبوا على اسمه فلم يمت حتى ذهب عقله وفي صحيح البخارى من رواية الزهري عن سعيد ابن المسيب عن أبيه أن أباه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما إسمك قال حزن قال أنت سهل قال لا أغير اسما سماه أبي قال ابن المسيب فما زالت الحزونة فينا بعد وروى مالك عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال لرجل ما إسمك قال جرة قال ابن من قال ابن شهاب فقال ممن قال من الحرقة قال أين مسكنك قال بحرة النار قال بأيها قال بذات لظى فقال له عمر أدرك أهلك فقد احترقوا فكان كما قال عمر وفي غير رواية مالك هذه القصة عن مجاهد عن الشعبي قال جاء رجل من جهينة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له ما إسمك قال شهاب قال ابن من قال ابن جرة قال ابن من قال ابن ضرام قال ممن قال من الحرقة قال وأين منزلك قال بحرة النار قال ويحك أدرك منزلك أو أهلك فقد احترقوا قال فأنام فألفاهم قد احترق أماتهم وقالت عائشة كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن ما استطاع في تنعله وترجله وضوئه وفي شأنه كله وفي صحيح البخارى عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال الثوم في ثلاث في المرأة والدار والدابة وفي الصحيح أيضاً من حديث سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال إن كان في الفرس والمرأة والمسكن معنى الثوم وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد قال جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله دار سكنناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوها ذميمة ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد فرسا قد لوح بذنبيه ورجل قد استل سيفه فقال له شمس سيفك فأنى أرى التيوف ستسل اليوم وكذلك قوله لما رمى واقد ابن عبد الله عمر بن الحضرمى فقتله فقال واقد وقدت الحرب وعامر عمرت الحرب وابن الحضرمى

على مكانتها قال أبو عبيدة في الغريب أراد لا تزجروها ولا تلتفتوا إليها أقروها على مواضعها التي جعلها الله لها ولا تعدوا ذلك إلى غيره أي أنها لا تضر ولا تنفع وقال غيره المعنى أقروها على أمكنتها فانهم كانوا في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرا أو أمرا من الأمور أثار الطير من أوكارها لينظر أي وجه تسلك وإلى أي ناحية تطير فان خرجت ذات اليمين خرج لسفره ومضى لأمره وإن أخذت ذات الشمال رجع ولم يمس فأمرهم أن يقروها في أمكنتها وأبطل فعلهم ذلك ونهاهم عنه كما أبطل الاستقسام بالأزلام . . وقال ابن جرير معنى ذلك أقروا الطير التي تزجرونها في مواضعها الممكنة فيها التي هي لها مستقر وامضوا لأمركم فإن زجركم إياها غير مجد عليكم نفعا ولا دافع عنكم ضررا . . وقال آخرون هذا تصحيف من الرواة وخطأ منهم ولا يعرف المكنات إلا أسماء البيض الضباب دون غيرها . . قال الجوهري المكن البيض الضب قال ومكن الضباب طعام العرب لا تشبهه نفوس العجم وفي الحديث أقروا على الطير مكانها بالضم والفتح قال أبو زياد السكابي وغيره إنا لا نعرف للطير مكنات فأما المكنات فانما هي الضباب قال أبو عبيد ويجوز في السلام وإن كان المكن الضباب في أن يجعل للطير تشبيها بذلك كقولهم مشافر الحبش وإنما المشافر الإبل وكقول زهير يصف الأسد * له لبد أظفاره لم تقلم * وإنما له مخالب قال هؤلاء فلعن الراوى سمع أقر الطير في وكناتها بالواو ولأن وكنات الطير عشا وحيث تسقط عليه من الشجر وتأوى إليه وفي أثر آخر ثلاث من كن فيه لم ينل الدرجات العلى من تسكن أو استقسم أو رجع من سفر من طيرة وقد رفع هذا الحديث فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله قطع بأحسن الطيرة من قبل استقرارها وبادر خواطرها من قبل استمكانها قال عكرمة كنا جلوسا عند ابن عباس فر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال له ابن عباس لا خير ولا شر مبادرة بالإنكار عليه أثلا يعتقد له تأثيرا في الخير أو الشر وخرج طاووس مع صاحب له في سفر فصاح غراب فقال الرجل خير فقال طاووس وأى خير عنده والله لا تصحبني وقيل لكعب هل تتطير فقال نعم فقل له فكيف تقول إذا تطيرت قال أقول اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا رب غيرك ولا قوة إلا بك وكان بعض السلف يقول عند ذلك طير الله لا طيرك وصياح الله لا صياحك ومساء الله لا مساءك وقال ابن عبد الحكم لما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة قال مزاحم فنظرت فإذا القمر في الدبران فسكرت أن أقول له فقلت ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة قال فنظر عمر فإذا هو في الدبران فقال كأنك أردت أن تعلمني أن القمر في الدبران يامزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر واسكننا نخرج بالله الواحد القهار . . فان قيل فما تقولون فيما

السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون زاد مسلم وحده ولا يرقون فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول هذه الزيادة وهم من الراوى لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم ولا يرقون لأن الراقى محسن إلى أخيه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الرقى فقال من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه وقال لا بأس بالرقى ما لم يكن شركاً والفرق بين الراقى والمسترق أن المسترق سائل مسقط ملتفت إلى غير الله بقلبه والراقى محسن نافع . قلت والنبي صلى الله عليه وسلم لا يجعل ترك الإحسان المأذون فيه سبباً للسبق إلى الجنان وهذا بخلاف ترك الاسترقاء فإنه توكل على الله ورغبة عن سؤال غيره ورضاء بما قضاه وهذا شيء وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا طيرة وأحب الفال الصالح ونحوه من حديث أنس وهذا يحتمل أن يكون نفيًا وأن يكون نهيًا أى لا تطيروا ولكن قوله في الحديث ولا عدوى ولا صفر ولا هامة يدل على أن المراد النفى وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيتها والنفى في هذا أبلغ من النهى لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهى إنما يدل على المنع منه . . وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث سفیان عن سلبة عن عيسى بن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيرة شرك وما منا ولكن الله يذهب بالتوكل وهذه اللفظة وما منا إلى آخره مدرجة في الحديث ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم كذلك قاله بعض الحفاظ وهو الصواب فإن الطيرة نوع من الشرك كما هو في أثر مرفوع من رده الطيرة فقد قارن الشرك وفي أثر آخر من أرجعته الطيرة من حاجة فقد أشرك قالوا وما كفارة ذلك قال أن يقول أحدكم اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك . . وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أنه قال يارسول الله ومنا أناس يتطيرون فقال ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنه فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصدنه لا ما رآه وسمعه فأوضح صلى الله عليه وسلم لأمته الأمر وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله وأنزل بها كتابه وخلق لأجلها السموات والأرض وعمر الدارين الجنة والنار فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه والنار دار الشرك ولو أزمه وموجباته فقطع صلى الله عليه وسلم علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقى فيها علقه منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهله البتة . . وفي الحديث المعروف أقروا الطير

وعدوا نكم فطائر الباغى الظالم معه وهو عند الله كإفال تعالى (وإن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) (لوفقهوا وفهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضى الطيرة فإنه كله خير محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه وحكمة لا عبث فيها ورحمة لا جور فيها فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة وليس فيما آتيتهم به لوفقهوا ما يوجب تطيرهم بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصباثهم التي يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم ويحتمل أن يكون المعنى طائرهم معكم أى راجع عليكم فالطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم وهذا من باب القصاص فى الكلام مثل قوله فى الحديث أخذنا فالك من فيك ونظيره قول النبى ﷺ إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم فعلى هذا معنى طائرهم معكم أى نصيبكم طيرتهم التي تطيرتم بها لأنهم اعتقدوا الشؤم فيها ولا شؤم فيها البتة فقبل لهم الشؤم منهم وهو نازل بكم فتأملوه وهذا يشبه قوله تعالى (وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال) قيل جزاء مكروهم عنده ففكر بهم كما مكروا برسله ومكروه تعالى بهم إنما كان بسبب مكروهم فهو مكروهم عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم فكذلك طيرتهم عادت عليهم وحلت بهم وسمى جزاء المكر مكرا وجزاء الكيد كيدا تنذيرا على أن الجزاء من جنس العمل ولما ذكر سبحانه أن ما أصابهم من حسنة وسيئة أى نعمة ومحنة فالكل منه تعالى بقضائه وقدره فكأنهم قالوا فما بالك أنت تصيبك الحسنات والسيئات كما تصيبنا فذكر سبحانه أن ما أصابه من حسنة فمن الله من بها عليه وأنعم بها عليه وما أصابه من سيئة فمن نفسه أى بسبب من قبله أى لا لنقص ما جاء به ولا لشر فيه ولا لشؤم يقتضى أن تصيبه السيئة بل بسبب من نفسه ومن قبله وقد قيل فى قوله تعالى (طائرهم عند الله بل أنتم قوم تغتفون) أن طائرهم ههنا هو السبب الذى يجىء فيه خيرهم وشرهم فهو عند الله وحده وهو وقدره وقسمه إن شاء رزقكم وعافاكم وإن شاء حرمكم وابتلاككم ومن هذا قالوا طائر الله لا طائر كلبى قدر الله الغالب الذى يأتى بالحسنات ويصرف السيئات ومنه اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك وعلى هذا فالمعنى بطائرهم نصيبكم وحظكم الذى يطيركم ومن فسرهم بالعمل فالمعنى طائرهم الذى طار عنكم من أعمالكم وبهذين القولين فسر معنى قوله تعالى (وكل لإنسان أزمانه طائره فى عنقه) وأنه ما طار عنه من عمله أو صار لازما له مما قضى الله عليه وقدر عليه وكتب له من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة .

فصل

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى وصف

وكذلك حكى الله سبحانه عن قوم فرعون فقال (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله) حتى إذا أصابهم الخصب والسمة والعافية قالوا لنا هذه أى نحن الجديرون الحقيقة به ونحن أهله وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا هذا بسبب موسى وأصحابه أصبنا بشؤمهم ونقض علينا غبارهم كما يقوله المتطير لمن يتطير به فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده كما قال تعالى عن أعداء رسوله ﷺ (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطير عن أعدائه وأجاب سبحانه عن تطيرهم بموسى وقومه بأن طائرهم عند الله لا بسبب موسى وأجاب عن تطير أعداء رسول الله ﷺ بقوله (قل كل من عند الله) وأجاب عن الرسل بقوله (ألا طائركم معكم) وأما قوله (ألا إنما طائركم عند الله) فقال ابن عباس طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم وفى رواية شؤمهم عند الله ومن قبله أى إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله وقال أيضا أن الأرزاق والأقدار تتبعكم وهذا كقوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائرته فى عنقه ونخرج) أى ما يطير له من الخير والشر فهو لازم له فى عنقه والعرب تقول جرى له الطائر بكذا من الخير والشر قال أبو عبيدة الطائر عندهم الحظ وهو الذى تسميه العامة البخت يقولون هذا يطير لفلان أى يحصل له قلت ومنه الحديث فطار لنا عثمان بن مظعون أى أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم وفى حديث رويفع ابن ثابت حتى أن أحدا لم يطير له النصل والريش وللآخر القدح أى يحصل له بالشركة فى الغنيمة وقيل فى قوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائرته فى عنقه) أن الطائر ههنا هو العمل قاله الفراء وهو يتضمن الرد على نفاة القدر وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن لأنها محل الطوق الذى يطوقه الإنسان فى عنقه فلا يستطيع فكاه من هذا يقال لئثم هذا فى عنقك وافعل كذا وإثمه فى عنقى والعرب تقول طوقها طوق الحمامة وهذا ربة فى رقبته وعن الحسن بن آدم لتنظر لك صحيفة إذا بعثت قلدها فى عنقك فخصوا العنق بذلك لأنه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التعاليق فيها كثير كما خصت الأيدي بالذكر فى نحو بما كسبت أيديكم بما قدمت يداك ونحوه وقيل المعنى أن الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار وهو الذى أصابهم فى الدنيا وقيل المعنى أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم الممكث عنده الذى يجرى عليه ما يسوؤهم ويعاقبون عليهم بعد موتهم بما وعدهم الله ولا طائر أشأم من هذا وقيل حظهم ونصيبهم وهذا لا يناقض قول الرسل طائركم معكم أى حظكم وما نالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل بغيركم

أبواب الوسواس فيما يسمعه ويراها ويعطاه ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه وينسكد عليه عيشه فإذا سمع سفر جلا أو أهدى إليه تطير به وقال سفر وجلاء وإذا رأى ياسميناً أو سمع اسمه تطير به وقال يأس ومين وإذا رأى سوسنة أو سمعها قال سوء يبقى سنه وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به وتشاءم بيومه . . ويحكى عن بعض الولاة أنه خرج في بعض الأيام لبعض مهماته فاستقبله رجل أعور فتطير به وأمر به إلى الحبس فلما رجع من مهمه ولم يلق شراً أمر باطلاقه فقال له سألتك بالله ما كان جرى الذي حبستني لأجله فقال له الوالى أن يكن لك عندنا جرم ولكن تطيرت بك لما رأيتك فقال فما أصبت في يومك برؤيتي فقال ما لم ألق إلا خيراً فقال أيها الأمير أنا خرجت من منزلى فرأيتك فلقيت في يومى الشر والحبس وأنت رأيتنى فلقيت في يومك الخير والسرور فمن أشأمننا والطيرة بمن كانت فاستحيا منه الوالى ووصله . . وقال أبو القاسم الزجاجى لم أر أشد تطيراً من ابن الرومى الشاعر وكان قد تجاوز الحد في ذلك فعاتبته يوماً على ذلك . . فقال يا أبا القاسم فقال لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثنان . . وهذا جواب من استحسنت علمه فعبجز عنها وهو أيضاً بمنزلة من قد غلبته الوسواس في الطهارة فلا يلتفت إلى علم ولا إلى ناصح وهذه حال من تقطعت به أسباب التوكل وتقلص عنه لباسه بل تهرى منه ومن كان هسكذا فالبلايا إليه أسرع والمصائب به أعلق والحنن له ألزم بمنزلة صاحب الدمى والقرحة الذى يهدى إلى قرحته كل مؤذ وكل مصادم فلا يكاد يصد من جسده أو يصاب غيرها والمتطير متعب القلب منسكد الصدر كاسف البال سيء الخلق يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه أشد الناس خوفاً وأنسكدهم عيشاً وأضيق الناس صدرأ وأحزنهم قلباً كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه وكما قد حرم نفسه بذلك من حظ ومنعها من رزق وقطع عليها من فائدة ويعكفك من ذلك قصة النابغة مع زياد بن سيار الفزارى حين تجهز إلى الغزو فلما أراد الرحيل نظر النابغة إلى جرادة قد سقطت عليه فقال جرادة تجرد وذات ألوان عزيز من خرج من هذا الوجه ونفذ زياد لوجهه ولم يتطير فلما رجع زياد سالما غانما أنشأ يقول .

تخير طيرة فيها زياد ليخبره وما فيها خبير
أقام كان لقمان بن عاد أشار له بحسبته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير

ولم يحك الله التطير إلا عن أعداء الرسل كما قالوا لرسلمهم (انا تطيرنا بكم لأن لم تنتهوا لنزجنكم وليسكنكم منا عذاب أليم قالوا طائرتم معكم أن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون)

فيا يتفألون به مدحوه وداوموا عليه وإن عطبوا فيه تركوه وذموه ومنهم من أنكرها
بعقله وأبطل تأثيرها بنظره وذم من اغتربها واعتمد عليها وتوهم تأثيرها فمنهم الرقشي
حيث يقول :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الالاشائم كالآيا من والآيا من كالأشائم
وكذاك لاخير ولا شر على أحد بدائم
لا يمنعك من بغا الخير تعقاد التمام
قد خط ذلك في السطو والأوليات القدائم

وقال جهم الهذلي :

ألم تر أن العانفين وإن جرت لك الطير عما في غد عميان
يظنان ظنا مرة يخطيانه وأخرى على بعض الذي يصفان
قضى الله أن لا يعلم الغيب غيره ففي أي أمر الله يمتريان

وقال آخر :

وما أنا بمن يزجر الطير همه أطار غراب أم تعرض ثعلب
ولا الساخحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

وقال آخر يمدح منكرها :

وليس بهياب إذا شد رحله يقول عدائي اليوم واق وحاتم
ولكنه يمضى على ذاك مقدما إذا حاد عن تلك الهنات الختارم

يعنى بالواق الصرد وبالختارم سموه حاتما لأنه كان عندهم يحتم بالفراق والختارم
العاجز الضعيف الرأى المتطير . . وقد شفى النبي صلى الله عليه وسلم أمته في الطيرة حيث
سئل عنها فقال ذاك شيء يحدهم فلا يصدنه وفي أثر آخر إذا تطيرت فلا ترجع أي امض
لما قصدت له ولا يصدنك عنه الطيرة . . واعلم أن التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف
وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئا لم يضره البتة ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه
اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك اللهم لا بأتى بالحسنات إلا أنت
ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك فالطيرة باب من الشرك والقاء
الشیطان وتخويفه ووسوسته يسكب ويعظم شأنها على من اتبعها نفسه واشغل بها وأكثر
العناية بها وتذهب وتضمحل عن لم يلتفت إليها ولا أتى إليها باله ولا شغل بها نفسه وفكره
واعلم أن من كان معنيا بها قاتلا بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره وتفتحت له

هذه محبوس ثم لما سلمتاني في الثانية نظرت فإذا هو قد أفرغ من القربة فقلت يخلص ويصيب تارة ويخطيء تارة . . ومن هذا أخذ بعضهم الجواب عن التفاؤل بالأيام فإذا رأى أحد رؤيا مثلاً يوم أحد أو ابتداء فيه امرأ قال حدة وقوة وإن كان يوم الجمعة قال اجتماع وألفة وإن كل يوم سبت قال قطع وفرقة . ومن هذا استدلال المسئول بالمسكن الذي يضع السائل يده عليه من جسده وقت السؤال فإن وضع يده على رأسه فهو رئيسه وكبيره والرجلين قوامه والأنف بناء مرتفع أو تل أو نحوه والفم بئر عذبة اللحية أشجار وزروع وعلى هذا النحو من ذلك ما حكى عن المهدي أنه رأى رؤيا وأنسيما فأصبح مغتماً بها فدل على رجل كان يعرف الزجر والفأل وكان حاذقاً به واسمه خويلد فلما دخل عليه أخبره بالذي أراد له فقال له يا أمير المؤمنين صاحب الزجر والفأل ينظر إلى الحركة وأخطار الناس فغضب المهدي وقال سمحاً الله أحدكم يذكر بعلم ولا يدري ما هو ومسح يده على رأسه ووجهه وضرب بها على فخذه فقال له أخبرك برؤياك يا أمير المؤمنين قال هات قال رأيت كأنك صعدت جبلاً فقال المهدي لله أبوك يا سحار صدقت قال ما أنا بساحر يا أمير المؤمنين غير أنك مسحت بيدك على رأسك فزجرت لك وعلمت أن الرأس ليس فوقه أحد إلا السماء فأولته بالجبل ثم نزلت بيدك إلى جبهتك فزجرت لك بنزولك إلى أرض ملساء فيها عيمان مالحتان ثم انحدرت إلى سفح الجبل فلقيت رجلاً من نخذك قریش لأن أمير المؤمنين مسح بعد ذلك بيده على فخذه فعلمت أن الرجل الذي لقيه من قرابته قال صدقت وأمر له بمال وأمر أن لا يحجب عنه . . ومن ذلك هؤلاء أصحاب الطير السائح والبارح والقميد والناطح وأصل هذا أنهم كانوا يزجرون الطير والوحش ويشيرونها فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سائحاً وما تياسر منها سموه بارحاً وما استقبلهم منها فهو الناطح وما جاءهم من خلفهم سموه القميد فمن العرب من يتشام بالبارح ويتبرك بالسائح ومنهم من يرى خلاف ذلك قال المدائني سألت روبة بن العجاج ما السائح قال ما ولاك ميامنه قال قلت فما البارح قال ما ولاك مياسره قال والذي يحیی من قدامك فهو الناطح والتطيح والذي يحیی من خلفك فهو القاعد والقميد وقال المفضل الضبي البارح ما يأتيك عن اليمين يريد يسارك والسائح ما يأتيك عن اليسار فيمر على اليمين وإنما اختلفوا في مراتبها ومذاهبها لأنها خاوطر وحدوس وتخمينات لأصل لها فمن تبرك بشيء مدحه ومن تشام به ذمه ومن اشتهر بإحسان الزجر عندهم ووجوهه حتى قصده الناس بالسؤال عن حوادثهم وما ألموه من أعمالهم سموه عانفا وعرافا وقد كان في العرب جماعة يعرفون بذلك كعراف اليمامة والأبليق الأسيدى والأجلح وعروة بن يزيد وغيرهم فكانوا يحكمون بذلك ويعملون به ويتقدمون ويتأخرون في جميع ما يتقبلون فيه ويتصرفون في حال الأمن والخوف والسعة والضيق والحرب والسلام فان أنجحوا

إلا الله ولا ريب أن الطالع يتغير بذلك تغيراً عظيماً لا يمكن ضبطه وقد اعترفوا هم بهذا وأن سبب هذا التفاوت يحيل أحكامهم واعترفوا بأنه لا سبيل إلى الاحتراز من ذلك فأى وثوق لعاقل بهذا العلم بعد هذا كله وقد بينا أن غاية هذا لوصح وسلم من الخلل جميعه ولا سبيل إليه لكان جزء السبب والعلة والحكم لا يضاف إلى جزء سببه ثم لو كان سببياً تاماً فصوارفه وموانعه لا تدخل تحت الضبط البتة والحكم إنما يضاف إلى وجود سببه التام وانتفاء مانعه وهذه الأسباب والموانع مما لا تدخل تحت حصر ولا ضبط إلا لمن أحصى كل شيء عدداً وأحاط بكل شيء علماً لا إله إلا هو علام الغيوب فلو ساعدناهم على صحة أصول هذا العلم وقواعده لكانت أحكامهم باطلة وهي أحكام بلا علم لما ذكرناه من تعذر الإحاطة بمجموع الأسباب وانتفاء الموانع ولهذا كثيراً ما يجمعون على حكم من أحكامهم الكاذبة فيقع الأمر بخلافه كما تقدم .. وأما تلك الحكايات المتضمنة لإصابتهم في بعض الأحوال فليس بأكثر من الحكايات عن أصحاب الكشف والفأل وزجر والطائر والضرب بالحصى والطرق والعيافة والكهانة والخط والحسد وغيرها من علوم الجاهلية وأعنى بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل كالفلاسفة والمنجمين والكهانة وجاهلية العرب الذين كانوا قبل النبي ﷺ فإن هذه كانت علوماً لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل ومن هؤلاء من يزعم أنه يأخذ من الحروف علم المسكان ولهم في ذلك تصانيف وكتب حتى يقولون إذا أردت معرفة ما في رؤيا السائل من خير أو شر فخذ أول حرف من كلامه الذي يكلمك به وفسر رؤياه على معنى ذلك الحرف فإن كان أول ما نطق به باء فـرؤياه خير لأن الباء من البهاء والخير ألتراها في البر والبركة وبلوغ الآمال والبقاء والبخارة والبيان والبخت فإذا كان أول حرف من كلامه باء فاعلم أنه قد عين ما أباه وبشره من الخيرات وإن كان أول كلامه تاء فقد بشر بالتمام والسكال وإن كان ثاء فبشره بالآثاء والمتاع لقوله تعالى هم أحسن أناثاً ورتباً ثم قالوا فعليك بهذه الأحرف الثلاثة فليس شيء يخلو منها ويجاوزها وإذا تأملت جهل هؤلاء رأيته شديداً فكيف حكموا على الباء بالبهاء والبركة دون البأس والبغي والبين والبلاء والبوار والبعد وكيف حكموا على الثاء بالآثاء دون الثقل والثلب ونحوه وكذلك استدلاله بأول ما يقع بصره عليه كما حكى عن أبي معشر أنه وقف هو وصاحب له على واحد من هؤلاء وكانا سائرين في خلاص محبوس فسأله فقال أنتما في طلب خلاص مسجون فعجبا من ذلك فقال له أبو معشر هل يخلص أم لا فقالا تذهبان تلتقيانه قد خاض فوجدنا الأمر كما قال فاستدعاه أبو معشر وأكرمه وتلف له في السؤال عن كيفية علم ذلك فقال نحن نأخذ الفأل بالعين والنظر فينظر أحدنا إلى الأرض ثم يرفع رأسه فأول شيء يقع نظره عليه يكون الحكم به فلما سألتاني كان أول ما رأيت ماء في قرية فقلت

معتنون بأمره وهذا لا يدل على صحته فهذا السحر لم يزل في العالم من يشتغل به ويتطلبه أعظم من اشتغاله بالنجوم وطلبه لها بكثير وتأثيره في الناس مما لا ينكر أنفكان هذا دليلاً على صحته وهذه الأصنام لم تزل تعبد في الأرض من قبل نوح وإلى الآن ولها الهيكل المبنية والسدنة ولها الجيوش التي تقايل عنها وتحارب لها وتختار القتل والسبي وعقوبة الله تعالى ولا تنتهى عنها أفيدل هذا على صحة عبادتها وإن عبادها على الحق ومن العجب قوله لو كان هذا العلم فاسداً لاستحال أطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه وليس في القرية أبلغ من هذا ولا في البهتان أترى هذا الرجل ما وقف على تأليف لأحد من أهل المشرق والمغرب في إبطال هذا العلم والرد على أهله فقد رأينا نحن وغيرنا ما يزيد على مائة مصنف في الرد على أهله وإبطال أقوالهم وهذه كتبهم بأيدي الناس وكثير منها للفلاسفة الذين يعظمهم هؤلاء ويرون أنهم خلاصة العالم كالفارابي وابن سينا وأبي البركات الأوحى وغيرهم وقد حكينا كلامهم وأما الردود في ضمن الكتب حين يرد على أهل المقالات فأكثر من أن تذكر وأعلم أن تزيدي على عدة الآلف تجد في كل كتاب منها الرد على هؤلاء وإبطال مذهبهم ونسبتهم إلى الكذب والزرقي ولو أن مقابلاً قابله وقال لو كان هذا العلم صحيحاً لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب على رده وإبطاله لكان قوله من جنس قوله ولكن أهل المشرق فيهم هذا وهذا كما يشهد به الحس والتواريخ القديمة والحديثة ولقد رأينا من الردود القديمة قبل قيام الإسلام على هؤلاء ما يدل على أن العقلاء لم يزالوا يشهدون عليهم بالجهل وفساد المذهب وينسبونهم إلى دعاوى الكاذبة والآراء الباطلة التي ليس مع أصحابها إلا القول بلا علم.

فصل

وأما ما ذكره في أمر الطالع عن الفرس وأنهم كانوا يعتنون بطالع مسقط النظفة وهو طالع الأصل ثم يحكم بموجبه حتى يحكم بعدد الساعات التي يمكثها الولد في بطن أمه فهذا من الكذب والبهت ومن أراد أن يختبر كذبه فليجربه فإن تجربة مثل هذا ليست بمشقة ولا عمرة ثم إن هذا الواطى لا علم له ولا لأحد أن الولد إنما يخلق من أول وطئه الذي أنزل فيه دون ما بعده وإن فرض أنه أمسك عن وطئها بعد المرة الأولى وحبسها بحيث يتيقن أن غيره لم يقر بها وهذا في غاية الندرة لم يمكن المنجم أن يعلم أحوال ذلك المولود ولا تفاصيل أمره البتة ومدعى ذلك مجاهر بالكذب والبهت وقد اعترف القوم بأن طالع الولادة مستعار لا يفيد شيئاً لأن الولد لا يحدث في ذلك الوقت وإنما ينتقل من مكان إلى مكان وقد اعترفوا بأن ضبطه متعسر جداً بل متعذر فإن في اللحظة الواحدة من اللحظات تتغير نصبة الفلك تغيراً لا يضبط ولا يحصى.

فإن الذي أعطيتني قليل فإذا أخذ منه قال اعلم أنه لا بد لك من الاتصال بهذا الشخص على كل حال إلا أني أرى قد عمل لك عمل وعقد لك عقد وأنت في هم وغم من ذلك فإن شئت عملت لك كتابا نافعا يكون لك حرزا من كل ما تخافه وتحذره ولا يزال يقتل له في الذروة والقرب حتى يستكتبه الحرز وكذب هذه الطائفة وجهلها وزرقها يغني شهرته عند الخاصة والعامة عن تكليف إرادة وكلها كان المنجم أكذب وبالزرق أعرف كان على الجهال أروج .

فصل

وأما قوله إن هذا علم ما خلت عنه ملة من الملل ولا أمة من الأمم ولا يعرف تاريخ من التواريخ القديمة والحديثة إلا وكان أهل ذلك الزمان مشتغلين بهذا العلم ومعوّلين عليه في معرفة المصالح ولو كان هذا العلم فاسداً بالكيفية لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب عليه فانظر ما في هذا الكلام من الكذب والبهت والافتراء على العالم من أول بنائه إلى آخره فإن آدم وأولاده كانوا برآء من ذلك وأتمتكم معترفون بأن أول من عرف منه الكلام في هذا العلم وتلقيت عنه أصوله وأوضاعه هو إدريس النبي ﷺ وكان بعد بناء هذا العالم بزمان طويل هذا لو ثبت ذلك عن إدريس فكيف وهو من الكذب الذي ليس مع صاحبه إلا مجرد القول بلا علم والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ليس من الفرية والبهت أن ينسب هذا العلم إلى أمة موسى في زمانه ويعدهوه بأنهم كانوا معولهم في مصالحهم على هذا العلم وكذلك أمة عيسى وأمة يونس والذين كانوا مع نوح ونجوا معه في السفينة وحسبك بهذا الكذب والافتراء على تلك الأمة المضبوط أمرها المحفوظ فعلها فهل كان النبي ﷺ وأصحابه يعولون على هذا العلم ويعتمدون عليه في مصالحهم أو قرن التابعين بفعله أو قرن تابعي التابعين وهذه هي خيار قرون العالم على الإطلاق كما أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس وهم أعلم الأمم وأعرفها وأكثر كتباً وتصانيف وأعلها شأناً وأكملها في كل خير ورشد وصلاح كما ثبت في المسند وغيره عن النبي ﷺ أنه قال أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله فهل رأيت خيار قرون هذه الأمة والموفقين من خلفائهم وملوكها وساداتها وكبرائهم معولين على هذا العلم أو معتمدين عليه في مصالحهم وهذه سيرهم ما بعدهما من قدم ولا يتأتى الكذب عليهم هذا وقد أعطوا من التأييد والنصر والظفر بعدوهم والاستيلاء على ممالك العالم ما لم يظفر به أحد من المعولين على أحكام النجوم بل لا تجد المنجمين إلا ذمة لهم لولا اعتصامهم بحبل منهم لقطعت حبال أعناقهم ولا تجد المعولين على هذا العلم إلا مخصوصين بالخذلان والحرمان وهذا لأنهم حق عليهم قوله تعالى (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) قال أبو قلابة هي لكل مفتر من هذا الألة مة إلى يوم القيامة نعم لا ننكر أن هذا العلم له طلبة مشغولون به

برجك الأسد وهو سهم العداوة والحسد وما عاداك أحد قط وأفلح بل يظفرك الله به وينصرك عليه نعم وهو برج نارى والنار من النور والنور فيه البهجة والسرور ابشر فأنت طويل العمر لا تموت فى هذا الوقت عمرك من الستين إلى السبعين إلى الثمانين إلى التسعين بيت كسبك كذا وكذا وأرى حاجة مهمة قد خرجت عن يدك نعم بغير مرادك وأنت فى غالب أحوالك الخارج عن يدك أكثر من الداخل فيها بالله صدقت أم لا فيقول والله صحيح والأمر كما قلت ولكن أحمد الله كلما بقى عليك من القطع أربعة أشهر وعشرة أيام وتخرج من نحسك وتدخل فى برج سعادتك وتنجو ويخلف الله عليك بالخيرات والبركات ولا بد لك الساعة من رزق يأتىك الله به ويفرح به أهلك وعيلتك وتصلح حالك ويستقيم سعدك . .

الثالث يا أخى من برجك الميزان وهو بيت الإخوان سعدك يا أخى منهم منقوص وحظك منهم منجوس غالب من أوليته منهم خيرا جازاك بالشر وغالب من قلت فيه الخير منهم يقول فيك الشر بالله أما الأمر هكذا وذلك يا أخى أنك خفيف الدم كل من رآك مال إليك وأنس بك وأنت محسود تحسد فى مالك وفى عافيتك وفى أهلك وأولادك وكل ما عمله بيدك ولكن العين لا تؤثر فيك لأن كل من برجه الأسد لا بد أن يكون له فى رأسه أو جسده علامة مثل شجرة أو ضربة بين أكتافه أو فى ساقه وما هو بعيد أن فى جسده شامة أو فى جسمك ثمة وهذا هو الذى يدفع عنك العين وأنت لا تدري . . الرابع من بروجك العقرب وهو بيت الآباء أراك كنت قليل السعد بين أبويك ومع هذا فكان أكثر ميلهم وإشفاقهم مع غيرك هم عليك وكان حظك منهم ناقصا ولهم تطلع إلى كدك وكسبك . . الخامس من بروجك الفوس وهو بيت البنين أراك قليلا ما يعيش لك أولاد تدفهم كلهم ثم تموت أنت بعدهم بل سوف يكون لك ولد يشد الله به عضدك ويقوى أمرك وتنال من جمته راحة وخيرا وربما تكون سعادتك على يديه . . السادس من بروجك الجدى وهو برج أمراضك وأعلالك يا أخى أمراضك وأسقامك كثيرة وأكثرها فى رأسك وربما يكون فى أجنابك وهى أمراض قوية طوال الله يعافينا وإياك وكنت فى صغرك لا ترقد فى السرير إلا بعد جهد جهيد وعهدى بك الآن لا ترقد فى فراشك إلا بعد شدة نعم وأكثر أمراضك فى الصيف والخريف . . السابع من بروجك الدلو وهو بيت الفراش وأرى فراشك خاليا أتم زوجة فإن قال نعم قال لا بد لك من فراقها عن قريب إما بموت وإما بطلاق فإن المريخ منك فى بيت الفراش وإن قال لا قال عجيب والله لقد أبصرت فى الطبائع أن فراشك فارغ وأرى روحا ناظرة إليك بعين الألفة والمحبة خطورك وخطوره عليك وأرى لك من قبله منفعة ولك به اتصال وفرح أبين لك على أى سبب يكون اجتماعكما نعم فإن قال له نعم قال هات (١٥ - مفتاح ٢)

الدنيا والآخرة وأن أهله لهم أوفر نصيب من قوله (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) وأهل هذا العلم أذل الناس في الدنيا لا يمكن أحداً منهم أن يأكل رزقه بهذا العلم إلا بأعظم ذل وعزيمهم لا بد أن يتعبد وينضوى إلى مكاس أو ديوان أو وال يكون تحت ظله وفي كنفه وسائرهم على الطرقات وفي كسر الحوانيت مدسسين صيدهم كل ناقص العقل والإيمان والدين من صبي أو امرأة أو حمار في سلاح آدمي أو ذباب طمع لو لاح له في عبادة الأصنام والشمس والقمر والنجوم لكان أول العابدين ورأس مالهم الكذب والزرق وأخذ أحوال السائل منه ومن فلتات لسانه وهيشته وإعراضه فيخبرونه بما يناسب ذلك من الأحوال فيمنفعل عقله لهم ويقول لقد أعطى هؤلاء عطاء لم يعطه غيرهم وتراهم في الغالب يقصد أحدهم قرية أو دكاناً منزوياً عن الطريق ويصلي فيه للصيد وينصب الشرك فإذا لاح له بدوى أو حبشى أو تركياني فإنه يتبرك بطلعته ويقول اجلس حتى أبين لك ما يقتضيه نجمك وطالعك وبيت مالك وبيت فراشك وبيت أفراحك وهمومك وكم بقى عليك من القطع نعم ما اسمك واسم أمك وأبيك فإذا قال له اسمه واسم أبويه أخرج له الاضطراب أو الكرة النحاس وقال كيف قلت اسمك فإذا أخبره ثانية قال وكيف قلت اسم الوالدة طول الله عمرها فإذا قال درجت إلى رحمة الله تعالى قال مامات من خلف مثلك ثم يحسب ويقول فلانة تسعة وتزيد عليها تسعة تسقط منها خمسة يبقى منها أربعة أقعد واسمع يا أخى لى أرى عليك حججاً مكتوبة ووثائق ولا بد لك من الوقوف بين يدى ولى أمر إما حاكم وإما وال وأرى دماً خارجاً عنك ما أنت من أهله وأرى ناساً قد اجتمعوا حولك وإن كان شكل ذلك الرجل شكل من هو من أرباب التهم قال وأرى خشباً ينصب ومسامير تضرب وجنايات تؤخذ نعم يا أخى برجك بالأسد وهو نارى مذكر أخذت منه نطاح مقدام بطل نجمك الزهرة أنت قليل البخت عند الناس مكفور الإحسان مقصود بالأذى قل إن صاحبت أحداً فأثمرت لك صحبته خيراً نعم يا أخى أسعد أيامك يوم الجمعة وخير كسبك كد يدك اعلم أنه لا بد لك من أسفار وغربة وركوب أهوال واقتحام أخطار وأمور عظام أبينها لك إن شاء الله هات لا تبخل على نفسك حظ يدك في جيبك حل الكيس ولا يزال يلكره ويجذبه ويطمعه حتى يستخرج ما تسمح به نفسه فان رأى منه تباطباً قال عجل قبل خروج هذه الساعة السعيدة فانها ساعة مباركة أما سمعت قول نبيك يسروا ولا تعسروا فإذا حاز ما أخذه قال له زدنى فان أمورك كثيرة وتحتاج إلى تعب وفكر وحساب طويل فإذا تم له ما يأخذه منه بقى هو من جوارى فكال له من جراب الكذب ما أمكنه ولا يبالى أكذبه أم صدقه ثم يقول له يا أخى

الأعور والأحول والأعرج والأحجب والأشقر والكوسج وكل من به عاهة في بدنه وكل ناقص الخلق فاحذروه فإنه صاحب لؤم ومعاملته حسرة وقال مرة أخرى فإنهم أصحاب خب . . . وقال الربيع دخلنا على الشافعي عنده وفاته أنا والبويطي والمزني ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم قال فنظر إلينا الشافعي ساعة فأطال ثم التفت فقال أما أنت يا أبا يعقوب فستموت في حديد يعني البويطي وأما أنت يا مزني فسيكون لك بمصر هنات وهنات وتندركن زمانا تكون أقيس أهل ذلك الزمان وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك وأما أنت ياربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب قم يا أبا يعقوب فتسلم الحلقة قال الربيع فكان كما قال . . . وقال الربيع مارأيت أفطن من الشافعي لقد سمى رجلا بمن يصحبه فوصف كل واحد منهم بصفة ما أخطأ فيها فذكر المزني والبويطي وفلانا فقال ليفعلن فلان كذا وفلان كذا وليصحين فلان السلطان وليقلدن القضاء وقال لهم يوما وقد اجتمعوا ما فيكم أنفع من هذا وأوما إلى لأنه أمثلكم بأخيه وذكر صفاتا غير هذه قال فلما مات الشافعي صار كل منهم إلى ما ذكر فيه ما أخطأ في شيء من ذلك . . . وقال حرمة لما وقع الشافعي في الموت خرجنا من عنده فقلت لأبي يا أبة كل فراسة كانت للشافعي أخذناها يدا بيد إلا قوله يقتلني أشقر وهاهو في السياق فوافينا عبد الله بن عبد الحكم ويوسف ابن عمرو فقلنا إلى أين قالوا إلى الشافعي فما بلغنا المنزل حتى أدركنا الصراخ عليه قلنا مه مالكم قالوا مات الشافعي فقال أئى من غمضه قالوا يوسف بن عمرو وكان أزرق وهذه الآثار وغيرها ذكرها ابن أبي حاتم والحاكم في مصنفيهما في مناقب الشافعي وهى اللاتقة بجلالاته ومنصبه لا ما باعده الله منه من أكاذيب المنجمين وهذياناتهم والله أعلم وأما ما احتج به من أن فرعون كان يذبح أبناء بنى إسرائيل ويستحي نساءهم لأن المفسرين قالوا كان ذلك بأن المنجمين أخبروه بأنه سيجيء في بنى إسرائيل مولود يكون هلاكه على يديه فأكثر المفسرين إنما أحالوا ذلك على خبر الكهان . . . وروى بعضهم أن قومه أخبروه بأن بنى إسرائيل يزعمون أنه يولد منهم مولود يكون هلاكك على يديه وهاتان الروايتان هما الدائران في كتب المفسرين وأما هذه الرواية أن المنجمين قالوا له ذلك فغايبتها أنها من أخبار أهل الكتاب وقد خالفها غيرها من الروايات فكيف يسوغ التسلك بها في الأمر العظيم وفي أخبار الكهان ما هو أعجب من ذلك فقد أخبروا بظهور خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره وذلك موجود في دلائل النبوة ونحن لا ننكر علم تقدمه المعرفة بأسباب مفضية إليه تختلف قوى الناس في ادراكها وتحصلها وإنما كلامنا معكم في أصول علم الأحكام وبيان فسادها وكذب أكثر الأحكام التي يسندونها إليها وبيان أن ضرر هذا العلم لو كان حقا أعظم من نفعه في

إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ثم لما كان انصرافي مررت في طريقى
 برجل وهو محتب بفناء داره أزرق العين ناقة الجبهة سقاط فقلت له هل من منزل قال نعم
 قال الشافعى وهذا النعت أخيب ما يكون في الفراسة فأنزلىنى فرأيت أكرم رجل بعث إلى
 بعشاء وطيب وعلف لدوائى وفراش وحلاف وجعلت أتقلب الليل أجمع ما أصنع بهذه
 المكتب فلما أصبحت قلت للغلام أسرج فأسرج فركبت ومزرت عليه وقلت له إذا قدمت
 مكة ومررت بنى طوى فاسأل عن منزل محمد بن إدريس الشافعى فقال لى الرجل أموالا
 لا يملك أنا قلت لا قال فهل كانت لك عندي نعمة قلت لا قال فأين ما تكلفت لك البارحة
 قلت وما هو قال اشتريت لك طعاما بدرهمين وأدما بكذا وعطراً بثلاثة دراهم وعلفا لدوابك
 بدرهمين وكرى الفرائش واللحاف درهمان قال قلت يا غلام فهل بقى شيء قال كرى المنزل
 فأنى وسمعت عليك وضيققت على نفسى فغبطت نفسى بتلك المكتب فقلت له بعد ذلك هل بقى
 شيء قال امض أخراك الله فما رأيت شرا منك . وقال الربيع اشتريت للشافعى طيبا
 بدينار فقال لى بمن اشتريته فقلت من ذلك الأشقر الأزرق فقال أشقر أزرق أذهب فردده .
 وقال الربيع مر أخى فى صحن الجامع فدعانى الشافعى فقال لى يا ربيع أنظر إلى الذى يمشى
 هذا أخوك قلت نعم أصلحك الله قال اذهب ولم يكن رآه قبل ذلك . قال قتيبة بن سعيد
 رأيت محمد بن الحسن والشافعى قاعدين بفناء الكعبة فرجل فقال أحدهما لصاحبه تعال
 نركز على هذا المار أى حرفة معه فقال أحدهما هذا خياط وقال الآخر هذا نجار فبعثا إليه
 فسألاه فقال كنت خياطا واليوم أنجر أو كنت نجارا واليوم أخط . وقال الربيع سمعت
 الشافعى وقدم عليه رجل من أهل صنعاء فلما رآه قال له من أهل صنعاء قال نعم قال فخذاد
 أنت قال نعم . وقال كنت عند الشافعى إذ أتاه رجل فقال له الشافعى أنساج أنت قال
 عندي أجراء . وقال كئنا عند الشافعى إذا مر به رجل فقال الشافعى لا يخلو هذا أن يكون
 حائكا أو نجارا قال فدعونه فقال ما صنعتك فقال نجار فقلنا أو غير ذلك قال عندي غلمان
 يعملون الثياب . وقال حرمة سمعت الشافعى يقول احذروا من كل ذى عاهة فى بدنه فإنه
 شيطان قال حرمة قلت من أولئك قال الأعرج والأحوال والأشل وغيره . وقال اشتفى
 الشافعى يوما عنبا أبيض فأمرنى فاشتريت له منه بدرهم فلما رآه استجاده فقال لى يا أبا محمد
 بمن اشتريت هذا فسميت له البائع ففتحى الطبق من بين يديه وقال لى رده عليه واشتر لى
 من غيره فقلت له وما شأنه فقال ألم أنك أن تصحب الأزرق الأشقر فإنه لا ينبج فكيف
 آكل من شيء اشتريته لى بمن أنهى عن صحبته قال الربيع فرددت العنب على البائع واعتذرت
 إليه بكلام حسن واشتريت له عنبا من غيره . وقال حرمة سمعت الشافعى يقول احذروا

مدته فأت فأحرق الشافعي بعد ذلك تلك الكتب وما عاود النظر في شيء منها وهذا الإسناد رجاله ثقات لكن الشأن فيمن حدث أبا الوليد بهذه الحكاية عن الحسن بن سفيان أو فيمن حدث بها الحسن عن حرمة وهذه الحكاية لو صحت لوجب أن تثني الخناصر على هذا العلم وتشدد به الأيدي لا أن تحرق كتبه ويهان غاية الإهانة ويحمل طعمة للنار وهذا لا يفعل إلا بكتب المحال والباطل. ثم إنه ليس في العالم طالع للولادة يقتضي هذا كله كما سنذكره عن قريب إن شاء الله تعالى والطالع عند المنجمين طالعان طالع مسقط النطفة وهو الطالع الأصلي وهذا لا سبيل إلا العلم به إلا في أندر النادر الذي لا يقتضيه الوجود والثاني طالع الولادة وهم معترفون أنه لا يدل على أحوال الولد وجزئيات أمره لأنه انتقال الولد من مكان إلى مكان وإنما أخذوه بدلا من الطالع الأصلي لما تعذر عليهم اعتباره وهذه الحكاية ليس فيها أخذ واحد من الطالعين لأن فيها الحكم على المولود قبل خروجه من غير اعتبار طالع الأصل والمنجم يقطع بأن الحكم على هذا الولد لا سبيل إليه وليس في صناعة النجوم ما يوجب الحكم عليه والحالة هذه وهذا يدل على أن هذه الحكاية كذب مختلق على الشافعي على هذا الوجه وكذلك الحكاية الثالثة وهي ما رواه الحاكم أيضا أنبأني عبد الرحمن بن الحسن القاضي أن زكريا بن يحيى الساجي حدثهم أخبرني أحمد بن محمد بن بنت الشافعي قال سمعت أبي يقول كان الشافعي وهو حدث ينظر في النجوم وما نظر في شيء إلا فاق فيه مجلس يوما وامرأة تكد لحسب فقال تكد جارية عوراء على فرجها خال أسود وتموت إلى كذا وكذا فولدت فكان كما قال فجعل على نفسه ألا ينظر فيه أبدا وأمر هذه الحكاية كالتى قبلها فإن ابن بنت الشافعي لم يلق الشافعي ولا رآه والشأن فيمن حدثه بهذا عنه والذي عندي في هذا أن الناقل إن أحسن به الظن فإنه غلط على الشافعي والشافعي كان من أفرس الناس وكان قد قرأ كتب الفراسة وكانت له فيها اليد الطولى فحكم في هذه القضية وأمثالها بالفراسة فأصاب الحكم فظن الناقل أن الحكم كان يستند إلى قضايا النجوم وأحكامها وقد برأ الله من هو دون الشافعي من ذلك الهديان فكيف بمثل الشافعي رحمه الله في عقله وعلمه ومعرفة حتى يروج عليه هذيان المنجمين الذي لا يروج إلا على جاهل ضعيف العقل وتزييه الشافعي رحمه الله عن هذا هو الذي ينبغي أن يكون من مناقبه فأما أن يذكر في مناقبه أنه كان منجما يرى القول بأحكام النجوم وتصحيحها فهذا فعل من يذم بما يظنه مدحا وإذا كان الشافعي شديد الإنكار على المتكلمين مزريا بهم وكان حكمه فيهم أن يضربوا بالحديد ويطاف بهم في القبائل فماذا رأيه في المنجمين وهو أجل وأعلم من أن يحكم بهذا الحكم على أهل الحق ومن قضاياهم في الصدق ينتهي إلى الحد الذي ذكر في هذه الحكاية فذكر عبد الرحمن بن أبي حاتم والحاكم وغيرهما عن الحميدي قال قال الشافعي خرجت

سأله فيها عن العلوم ومعرفة بها إلى أن قال كيف عليك بالنجوم قال أعرف الفلك الدائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائى والنارى وما كانت العرب تسميه الأنواء ومنازل النيران والشمس والقمر والاستقامة والرجوع والنحوس والسمود وهيأتها وطبائعها وما استدل به من برى وبحرى وأستدل فى أوقات علاتى وأعرف ما مضى من الأوقات فى كل ممسى ومصبح وظعن فى أسفارى قال فكيف عليك بالطب قال أعرف ما قالت الروم مثل ارسطاطا ليس ومهراريس وفرفوريس وجالينوس وبقراط واسد فليس بلغاتهم وما نقل من أطباء العرب وفلاسفة الهند ونمقته علماء الفرس مثل حاماسف وشاهمرو وبهم ردويوز جهر ثم ساق العلوم على هذا النحو فى حكاية طويلة يعلم من له علم بالمنقولات أنها كذب مختلق وافك مفترى على الشافعى والبلاء فيها من عند محمد بن عبد الله البلوى هذا فانه كذاب وضاع وهو الذى وضع رحلة الشافعى وذكر فيها مناظرته لأبى يوسف بحضرة الرشيد ولم ير الشافعى أبى يوسف ولا اجتمع به قط وإنما دخل بغداد بعد موته ثم إن فى سياق الحكاية ما يدل من له عقل على أنها كذب مفترى فان الشافعى لم يعرف لغير هؤلاء اليونان البتة حتى يقول لى أعرف ما قالوه بلغاتهم وأيضا فان هذه الحكاية أن محمد بن الحسن وشى بالشافعى إلى الرشيد وأراد قتله وتعظيم محمد الشافعى ومحبة له وتعظيم الشافعى له وثناؤه عليه هو المعروف وهو يدفع هذا الكذب وأيضا فان الشافعى رحمه الله لم يكن يعرف علم الطب اليونانى بل كان عنده من طب العرب طرف حفظ عنه فى منشور كلامه بعضه كنهيه عن أكل الباذنجان بالليل وأكل البيض المصلوق بالليل وكان يقول عجبا لمن يتعشى ببيض وينام كيف يعيش وكان يقول عجبا لمن يخرج من الحمام ولا يأكل كيف يعيش وكان يقول عجبا لمن يحتجم ثم يأكل كيف يعيش يعنى عقب الحجامة وكان يقول احذر أن تشرب لهؤلاء الأطباء دواء ولا تعرفه وكان يقول لا تسكن ببلدة ليس فيها عالم ينبئك عن دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك وكان يقول لم أر شيئا أنفع للوباء من التفسج يدهن به ويشرب إلى أمثال هذه الكلمات التى حفظت عنه فأما أنه كان يعلم طب اليونان والروم والهند والفرس بلغاتها فهذا بهت وكذب عليه قد أعاده الله عن دعواه وبالجملة فن له علم بالمنقولات لا يستريب فى كذب هذه الحكاية عليه ولولا طولها لسقمها ليتبين أثر الصنعة والوضع عليها . . وأما الحكاية الثانية فقال الحاكم أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرمة قال كان الشافعى يديم النظر فى كتب النجوم وكان له صديق وعنده وجارية قد حملت فقال إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوما ويكون فى نحر الولد الأيسر خال أسود ويعيش أربعة وعشرين يوما ثم يموت فجاءت به على النعت الذى وصف وانقضت

عاملا بها في حركاته وسكناته وأسفاره كما هو المعروف من المشركين وأتباعهم سبحانه
هذا بهتان عظيم . . وأما قوله أنه جاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم لأنه عاش
حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل بيت وتفرقوا عنه في الأرض فكان يقيم لحفاه خبرهم
عليه فأكرمه الله تعالى بهذا العلم فكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب
فيفقف على حاله فليس هذا بيدع من بهت المنجمين والملاحدة وإفكهم وافتراءهم على
آدم وقد علموا بالمثل السائر هنا : إذا كذبت فابعد شاهدك .

فصل

وأما ما نسبته إلى الشافعي من حكمه بالنجوم على عمر ذلك المولود فلقد نسب الشافعي
إلى هذا العلم وحكمه فيه بأحكام لمعجز عن مثلها أئمة المنجمين وأظن الذي غره في ذلك أبو
عبد الله الحاكم فإنه صنف في مناقب الشافعي كتابا كبيرا وذكر علومه في أبواب وقال الباب
الرابع والعشرون في معرفته تسيير السكواكب من علم النجوم وذكر فيه حكايات عن الشافعي
تدل على تصحيحه لأحكام النجوم وكان هذا الكتاب وقع للرازي فتصرف فيه وزاد ونقص
وصنف مناقب الشافعي من هذا الكتاب على أن في كتاب الحاكم من الفوائد والآثار ما لم
يلم به الرازي والذي غر الحاكم من هذه الحكايات تساهله في إسنادها ونحن نفيها ونبين حالها
ليتبين أن نسبة ذلك إلى الشافعي كذب عليه وأن الصحيح عنه من ذلك ما كانت العرب
تعرفه من علم المنازل والاهتداء بالنجوم في الطرقات وهذا هو الثابت الصحيح عنه بأصح
إسناد إليه قال الحاكم حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا الربيع بن سليمان قال قال الشافعي
قال الله عز وجل (هو الذي جعل لكم السمك النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) وقال
(وعلامات وبالنجم هم يهتدون) كانت العلامات جبالا يعرفون مواضعها من الأرض
وشمساً وقرراً ونجماً يعرفون من الفلك ورياحاً يعرفون صفاتها في الهواء تدل على قصد
البيت الحرام وأما الحكايات التي ذكرت عنه في أحكام النجوم فثلاث حكايات إحداها قال
الحاكم قرئ على أبي يعلى حمزة بن محمد العلوي وأكثر ظني أني حضرته حدثنا أبو إسحاق
إبراهيم بن محمد بن العباس الأزدي في آخرين قالوا حدثنا محمد بن أبي يعقوب الجوال
الدينوري حدثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثني خالي عمارة بن زيد قال كنت صديقا لمحمد
ابن الحسن فدخلت معه يوما على هرون الرشيد فساءله ثم أني سمعت محمد بن الحسن وهو
يقول إن محمد بن أدریس يزعم أن للخلافة أهلا قال فاستشاط هرون من قوله
غضبا ثم قال علي به فلما مثل بين يديه أطرق ساعة ثم رفع رأسه إليه فقال إيها قال الشافعي
ما إيها يا أمير المؤمنين أنت الداعي وأنا المدعو وأنت السائل وأنا المجيب فذكر حكاية طويلة

نذكره فله من تقدمه المعرفة ما يليق به وللخيال والهام من ذلك عجائب وكذلك الثعلب وغيره فعلم أن هذا أمر عام للانسان والحيوان أعطى من تقدمه المعرفة بحسبه وأسباب هذه التقدمه تختص بالأمم الذين لم يتقيدوا بالشرائع لهم اعتبار عظيم بهذا وكذلك من قل التفاته واعتناؤه بما جاءت به الرسل فإنه يشتد التفاته ويكثر نظره واعتناؤه بذلك وأما أتباع الرسل فقد أغناهم الله بما جاءت به الرسل من العلوم النافعة والأعمال الصالحة عن هذا كله فلا يعتنون به ولا يجعلونه من مطالبهم المهمة لأن ما يطلبونه أعلى وأجل من هذا ومع هذا فلمهم منه أوفر نصيب بحسب متابعتهم الرسل من القراءة الصادقة والمنامات الصالحة والصحيحة والكشوفات المطابقة وغيرها وهمهم لا تنق عند شيء من ذلك بل هي طامحة نحو كشف ما جاء به الرسل من الهدى ودين الحق في كل مسألة وهذا أعظم الكشوف وأجله وأفعه في الدارين مع كشف عيوب النفس وآفات الأعمال وأما الكشف الجزئي عما أكل فلان وعما أحدثه في داره وعما يجري له في غده ونحو ذلك فهذا مما لا يعبا به من علت همته ولا يلتفت إياه ولا يعده شيئا على أنه مشترك بين المؤمن والكافر فلعباد الأصنام والمجوس والصابئة والفلاسفة والنصارى من ذلك شيء كثير وذلك لا ينفعهم عند الله ولا يخلصهم من عذابه وهؤلاء الكهان وعبيد الجن والسمرة لهم من ذلك أمور معروفة وهم أكفر الخلق فغاية هذا المنجم اليهودي الذي أخبر ابن عباس بما أخبره أن يكون واحداً من هؤلاء فنكان ماذا وهل يقف عند هذا إلا اللهم الدنيئة السفلية التي لانهضة لها إلى الله والدار الآخرة لما يرى لها بذلك من التمييز عن الهمج الرعاع من بنى آدم

فصل

وأما احتجاجة بحديث أبي الدرداء لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا وما طائر يقلب جناحيه إلا وقد ذكر لنا منه علما فهذا حق وصدق وهو من أعظم الأدلة على إبطال قولكم وتكذيبكم فيما تدعونه من علم أحكام النجوم فإنه صلى الله عليه وسلم ذكرهم على كل شيء حتى الخزاة ذكرهم من علم كل طائر وكل حيوان وكل مافي هذا العالم ولم يذكرهم من علم أحكام النجوم شيئا البتة وهو صلى الله عليه وسلم أجل من هذا وأعظم وقد صانه الله سبحانه عن ذلك وإنما الذي ذكركم بهذه الأحكام المشركون عباد الأصنام والكواكب مثل بطليموس وبنكلوساوطمطم صاحب الدرج وهؤلاء مشركون عباد أصنام وكذلك أتباعهم أفلا يستحي رجل أن يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المقام نعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أمته من تكذيبكم وكفركم ومعادتكم والبراءة منكم والإخبار بأنكم وما تعبدون من دون الله حصص جهنم أنتم لها واردون ما يعرفه من عرف ما جاء به من أمته والبهت والفريه والكذب على الله ورسوله . هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحد من أهل بيته مثبثا لأحكام النجوم

ابنه إلى تمام ذكر القصة فهذه الحكاية إن صحت فهي من جنس أخبار الحكماء بشيء من
المفنيات وقد أخبر ابن صياد النبي ﷺ بما خبا له في ضميره فقال له أنت من إخوان الحكماء
وعلم تقدمه المعرفة لا تختص بما ذكره المنجمون بل له عدة أسباب يصيب ويخطئ ويصدق
الحكم معها ويكذب منها الحكاية ومنها المنامات ومنها الفأل والزجر ومنها السناخ والبارح
ومنها الكف ومنها ضرب الحصى ومنها الحظ في الأرض ومنها الكشف المستندة إلى
الرياضة ومنها الفراسة ومنها الجزاية ومنها علم الحروف وخواصها إلى غير ذلك من الأمور
التي ينال بها جزء يسير من علم الحكماء وهذا نظير الأسباب التي يستدل بها الطبيب والفلاح
والطبايعي على أمور غيبية بما تقتضيه تلك الأدلة مثال الطبيب إذا رأى الجرح مستديرا حكم
بأنه عسر البرء وإذا رآه مستطيلا حكم بأنه أسرع برء وكذلك علامات البحارين وغيرها
ومن تأمل ما ذكره بقراط في علامم الموت رأى العجائب وهي علامات صحيحة مجربة
وكذلك ما علم به الربان في أمور تحدث في البحر والريح بعلامات تدل على ذلك من
طلوع كوكب أو غروبه أو علامات أخرى فيقول يقطع مطر أو يحدث ريح كذا وكذا
أو يضطرب البحر في مكان كذا ووقت كذا فيقع ما يحكم به وكذلك الفلاح يرى علامات
فيقول هذه الشجرة يصيبها كذا وتيبس في وقت كذا وهذه الشجرة لا تحمل العام وهذه تحمل
وهذا النبات يصيبه كذا وكذا لما يرى من علامات يختص هو بمعرفة ما بل هذا أمر لا يختص
بالإنسان بل كثير من الحيوان يعرف أوقات المطر والصحو والبرد وغيره كما ذكره الناس
في كتب الحيوان والفرس الرديء الخلق إذا رأى اللجام من بعيد نفر وجزع وعرض من
يريد أن يلجمه علما منه بما يكون بعد اللجام وهذه النملة إذا خزنت الحب في بيوتها كسرت
بنصفين علما بأنها نبتت إذا كان صحيحا وأنه إذا انكسر لا ينبت فإذا خزنت الكسفرة
كسرتها بأربعة أرباع علما بأنها تنبت إذا كسرت بنصفين وهذا السنور يدفن أذاه
ويغطيه بالتراب علما منه بأن الفأر تهرب من رائحته فيفوته الصيد ويشمه أولا فان
وجد رائحته شديدة غطاه بحيث يوارى الرائحة والجرم وإلا اكتفى بأيسر التغطية
وهذا الأسد إذا مشى في لين سحب ذنبه على آثار رجله ليغطها علما منه بأن المار يرى
مواطئ رجله ويديه وإذا ألف السنور المنزل منع غيره من السنانير الدخول إلى ذلك
المنزل وحاربهم أشد محاربة وهم من جنسه علما منه بأن أربابه ربما استحسنوه وقدموه
عليه أو شاركوا بينهما في المطعم وإن أخذ شيئا مما يحزبه أصحاب المنزل عنه هرب علما
بما يكون إليه منهم من الضرب فإذا ضربوه تملقهم أشد التلق وتمسح بهم واطع أقدامهم علما
منه بما يحصل له الملق من العفو والإحسان وهذا في الحيوان البهيم أكثر من أن

أنه إن خرج كسر عسكره وقتل أو أسرفين الله للمسلمين كذبهم بذلك الفتح الجليل ولواستقصينا أمثال هذه الوقائع لطال الأمر جدا ومن أراد أن يعلم كذبهم قطعا فليبتدىء سفر أو اختيارا أو بناء أو غيره والقمر في العقرب ولينتوكل على الله وليسافر فانه يرى ما يغبطه ويسره ومن أبين الكذب والبهت الكذب على الحس والواقع وهذا الذى كرهوه وحذروا منه لو كان الواقع شاهداً به لكان الناس لا يختارون ولا يسافرون ولا يبتدون شيئا البتة والقمر في العقرب وكان عليهم بهذا وتجربتهم له معلوما بالضرورة فكيف والأمر بالعكس وأيضاً فيقال له قد يكون القمر في العقرب وتجمعه السعد وهما المشتري والزهرة مثلاً ويكون رب بيت السفر وبيت الطالع وبيت السفر أيضاً مسعودات فهلا قلتم ان السفر حينئذ يكون صالحاً لاجتماع هذه السعدوات في البرج المنقلب واجتماعها يكسبها قوة بل قال قضاؤكم يكون القمر في العقرب مسعوداً إن جامع السعد بل قالوا إن السعد أيضاً تنتحس فيه فإذا حل السعد العقرب انتحست فيه ولذلك قلتم إن الشمس إذا حلت ضعفت فيه أيضاً جداً وإن كان معه السعدان أعنى المشتري والزهرة فلو قلب عليكم هذا الاستدلال وقيل إذا حلت السعدوات في هذا البرج قوى فعلها وتضاف بعضها مع بعض فقوى السعد واجتماعها ولم يقوى البرج على انحسارها وقوة زحل والمريخ النحسين على هذا البرج لا يستلزم انحسار هذه السعدوات بل إن سعادتها تؤثر في نحسها كمن من جنس قولكم ومن هنا قال أبو نصر الفارابي واعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت السعد نحساً والنحس سعداً والحرار بارداً وعكسه لكانت أحكامك من جنس أحكامهم تصيب وتخطئ .

فصل

وأما ما احتج به من الأثر عن علي أن رجلاً أتاه فقال إني أريد السفر وكان ذلك في محاق الشهر فقال أتريد أن يمحق الله تجارتك استقبل هلال الشهر بالخروج فهذا لا يعلم ثبوته عن علي والكذابون كثيراً ما ينفقون سلمهم الباطلة بنسبتها إلى علي وأهل بيته كأصحاب القرعة والجفر والبطاقة والهفت والسكبان والملاحم وغيرها فلا يدري ما كذب علي أهل البيت إلا الله سبحانه ثم لو صح هذا عن علي رضي الله عنه لم يكن فيه تعرض لثبوت أحكام النجوم بوجه ولا ريب أن استقبال الأسفار والأفعال في أوائل النهار والشهر والعام لها مزية والنبي ﷺ قد قال اللهم بارك لأمتي في بكرها وكان صخر الغامدي راوى الحديث إذا بعث تجارة له بعثها في أول النهار فأثرني وكثر ماله ونسبة أول النهار نسبة أول الشهر إليه وأول العام إليه فالأوائل مزية القوة وأول النهار والشمس بمنزلة شبابه وآخره بمنزلة شيخوخته وهذا أمر معلوم بالتجربة وحكمة الله تقتضيه . . وأما ما ذكره عن اليهودي الذى أخبر ابن عباس بما أخبره من موت

ولا لأبي بكر ولا لعمر منجم بل أخرج ثقة بالله وتوكلا على الله وتكذيبا لقولك فما سافر بعد رسول الله ﷺ سفرة أبرك منها قتل الخوارج وكفى المسلمين شرهم ورجع مؤيدا منصورا فائزا ببشارة النبي صلى الله عليه وسلم لمن قتلهم حيث يقول شر قتلى تحت أديم السماء خير قتيل من قتلوه وفي لفظ طوبى لمن قتلهم وفي لفظ تقتلهم أولى الطائفتين بالحق وفي لفظ أن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وقال على لأصحابه لولا أن تتكلموا لحدثكم بما لكم عند الله في قتلهم فكان هذا الظفر ببركة خلاف ذلك المنجم وتكذيبه والثقة بالله رب النجوم والاعتماد عليه وهذه سنة الله فيمن لم يلتفت إلى النجوم ولا إلى علمها حركاته وسكناته وأسفاره وإقامته كما أن سنته نكبة من كان منقادا لأربابها عاملا بما يحكمون له به وفي التجارب من هذا ما يكفي اللبيب المؤمن والله الموفق .

فصل

والذى أوجب للمنجمين كراهية السفر والقمر في العقرب أنهم قالوا السفر أمر يراد خير من الخيرات فإذا كان الوصول إلى ذلك الأمر أسرع كان أجود فينبغي على هذا أن يكون القمر في برج منقلب والعقرب برج ثابت والثوابت عندهم تدل على الأمور البطيئة . . قالوا وأيضاً البرج للمريخ والمريخ عندهم نحس أكبر والنحس ينحس الحظوظ على أصحابها فينبغي أن يكون القمر في برج سعد لأن السعد ينفع والنحس يضر وأيضاً فإن هذا البرج هو برج هبوط القمر وإذا كان الكوكب في هبوطه لا يلتصق لصاحبه ما يريد ويقصده بل يكون وبالاً عليه لأن الكوكب الهابط عندهم كالمنكس وأيضاً فإن القمر عندهم رب تاسع العقرب وإذا كان رب التاسع منحوساً فالسفر مكروه لأن التاسع منسوب إلى السفر وبالجملة فإن العقرب عندهم شر البروج والقمر على الإطلاق قالوا فلذلك ينبغى الحذر من السفر والقمر في العقرب قالوا فمن كره السفر إذ ذاك فأنما يكرهه بعلمه وعقله وأمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه أعقل أهل زمانه وأعلمهم فهو أولى بكراهته وليس ذلك مخصوصاً عندهم بالسفر وحده بل يكرهون جميع الابتداآت والاختيارات والقمر في العقرب ولما كان القمر أسرع السكواكب حركة فهو أولى أن يكون دليلاً على الأمور المنقلبة والسفر أمر منقلب والعقرب برج ثابت غير منقلب والتجربة والواقع من أكبر شاهد على تكذيبهم في هذا الحكم فكم ممن سافر وتزوج وابتدأ واختار والقمر في العقرب وتم له مراده على أكمل ما كان يؤمله ولا يزال الناس يمشون الأسفار والابتداآت والاختيارات في كل وقت والقمر في العقرب وغيره ويحمدون عواقب أسفارهم كما أنشأ أمير المؤمنين على رضي الله عنه سفر جهاده للخوارج والقمر في العقرب وأنشأ المعتصم سفر فتح عمورية وجهاد أعداء الله والقمر في العقرب وقد أجمع الكذابون

وأيست من لفظ رسول الله ﷺ على أن ههنا مسلكا بعيد المأخذ لطيف المنزع يتقبله العقل السليم والفطرة السليمة وهو أن كسوف الشمس والقمر وجب لهما من الخشوع والخضوع بانمحاء نورهما وانقطاعه عن هذا العالم ما يكون فيه سلطانهما وبهاؤهما وذلك يوجب لا محالة لهما من الخشوع والخضوع لرب العالمين وعظمته وجلاله ما يكون سببا لتجلى الرب تبارك وتعالى لهما ولا يستنكرون أن يكون تجلى الله سبحانه وتعالى لهما في وقت معين كما يدنو من أهل الموقف عشية عرفة وكما ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند مضي نصف الليل فيحدث لهما ذلك التجلي خشوعا آخر ليس هو الكسوف ولم يقل النبي ﷺ أن الله إذا تجلى لهما انكسفا ولكن اللفظة فإذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له ولفظ الإمام أحمد في الحديث إذا بدا الله لشيء من خلقه خشع له فهنا خشوعان خشوع أوجبه كسوفهما بذهاب ضوءهما وانمحاءه فتجلى الله سبحانه لهما فحدث لهما عند تجليه تعالى خشوع آخر سبب التجلي كما حدث للجيل إذ تجلى تبارك وتعالى له أن صار دكا وساخ في الأرض وهذا غاية الخشوع لكن الرب تبارك وتعالى ثبتهما لتجليه عناية بخلقه لانتظام مصالحهم بهما ولو شاء سبحانه لثبت الجيل لتجليه كما ثبتهما ولكن أرى كليمة موسى أن الجيل العظيم لم يطق الثبات له فكيف تطيق أنت الثبات للرؤية التي سألها .

فصل

وأما استدلاله بحديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا فهذا الحديث لو ثبت لكان حجة عليه لا له إذ لو كان علم الأحكام النجومية حقا لا باطلا لم ينه عنه النبي ﷺ ولا أمر بالإمسك عنه فإنه لا ينهى عن الكلام في الحق بل هذا يدل على أن الخائض فيه خائض فيما لا علم له به وأنه لا ينبغي له أن يخوض فيه ويقول على الله ما لا يعلم فأين في هذا الحديث ما يدل على صحة علم أحكام النجوم . . وأما أحاديث النهي عن السفر والقمر في العقرب فصحيح من كلام المنجمين وأما رسول رب العالمين فبريء عن نسب إليه هذا الحديث وأمثاله ولكن إذا بهد الإنسان عن نور النبوة واشتدت غربته عما جاء به الرسول جوز عقله مثل هذا كما يجوز عقل المشركين يقول النبي ﷺ لو حسن أحدكم ظنه بمحجر نفعه وهذا ونحوه من كلام عباد الأصنام الذين حسنوا ظنهم بالأحجار فساقهم حسن ظنهم إلى دار البوار . . وأما الرواية عن علي أنه نهى عن السفر والقمر في العقرب فن الكذب على علي رضي الله عنه والمشهور عنه خلاف ذلك وعكسه وأنه أراد الخروج لحرب الخوارج فاعترضه منجم فقال يا أمير المؤمنين لا تخرج فقال لا شيء قال إن القمر في العقرب فإن خرجت أصبت وهزم عسكريك فقال علي رضي الله عنه ما كان لرسول الله ﷺ

بما يكون سببها اصلاح الامة في معاشها ومعادها وأما أسباب الكسوف وحسابه والنظر في ذلك فانه من العلم الذي لا يضر الجهل به ولا ينفع النفع العلم بما جاءت به الرسل وبين علوم هؤلاء فكيف نصنع بالحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيت ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة فكيف يلائم هذا ما قاله هؤلاء في الكسوف.. قيل وأي مناقضة بينهما وليس فيه إلا نفي تأثير الكسوف في الموت والحياة على أحد القولين أو نفي تأثير النيرين بموت أحد أو حياته على القول الآخر وليس فيه تعرض لإبطال حساب الكسوف وإلا الأخبار بأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وأمر النبي صلى الله عليه وسلم به من العتاقة والصلاة والدعاء والصدقة كأمره بالصلوات عند الفجر والغروب والزوال مع تضمن ذلك دفع موجب الكسوف الذي جعله الله سبحانه سببا له فشرع النبي صلى الله عليه وسلم للامة عند انعقاد هذا السبب ما هو أنفع لهم وأجدى عليهم في دنياهم وآخرهم من اشتغالهم بعلم الهيئته وشأن الكسوف وأسبابه فإن قيل فما تصنعون بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه والإمام أحمد والنسائي من حديث النعمان بن بشير قال انكسفت الشمس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فخرج فرعا يجر ثوبه حتى أتى المسجد فلم يزل يصلي حتى انجلت ثم قال إن ناسا يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء وليس كذلك أن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له.. قيل قد قال أبو حامد الغزالي أن هذه الزيادة لم يصح ثقلها فيجب تكذيب قائلها وإنما المروى ما ذكرنا يعني الحديث الذي ليست هذه الزيادة فيه قال ولو كان صحيحا لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية فكيف من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تنبئ في الوضوح إلى هذا الحد وأعظم فانخرج به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع فيسهل عليه طريق إبطال الشرع وإن كان شرطه أمثال ذلك وليس الأمر في هذه الزيادة كما قاله أبو حامد فإن إسناده لا مطعن فيه قال ابن ماجه حدثنا محمد بن المثنى وأحمد بن ثابت وحميد بن الحسن قالوا حدثنا عبد الوهاب قال حدثنا خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير فذكره هؤلاء كلهم ثقات حفاظ لكن لعل هذه اللفظة مدرجة في الحديث من كلام بعض الرواة ولهذا لا توجد في سائر أحاديث الكسوف فقد رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم بضعة عشر صحابيا، عائشة أم المؤمنين وأسماء بنت أبي بكر وعلى بن أبي طالب وأبي بن كعب وأبو هريرة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله في حديثه وسيرة بن جندب وقيصة الهلالي وعبد الرحمن بن سمرة فلم يذكر أحد منهم هذه اللفظة التي ذكرت في حديث النعمان بن بشير فمن ههنا نخاف أن تكون أدرجت في الحديث إدراجا

مؤدية إلى معرفة الله ورسله والتصديق بها مستلزمة للكفر بالله وجحد ما جاءت به رسله وهذا لا يصدق به إلا من عرف ما عند هؤلاء وعرف ما جاءت به الرسل ووازن بين الأمرين حينئذ يظهر له التفاوت وأما من قلدهم وأحسن ظنه بهم ولم يعرف حقيقة ما جاءت به الرسل فليس هذا عشه بل هو في أودية هائم حيران ينقاد لكل حيران .

يغدو من العلم في ثوبين من طمع معلمين بحرمان وخذلان

والطائفة الثانية رأت مقابلة هؤلاء برد كل ماقالوه من حق وباطل وظنوا أن من ضرورة تصديق الرسل رد ما عليه هؤلاء بالعقل الضروري وعلوا مقدماته بالحق فنأزعوهم فيه وتعرضوا لإبطاله بمقدمات جدلية لا تغني من الحق شيئاً وليتهم مع هذه الجناية العظيمة لم يضيفوا ذلك إلى الرسل بل زعموا أن الرسل جاؤا وبما يقولونه فساء ظن أولئك الملاحدة بالرسل وظنوا أنهم هم أعلم وأعرف منهم ومن حسن ظنه بالرسل قال أنهم لم يخف عليهم ما نقوله ولكن خاطبوهم بما تحتمله عقولهم من الخطاب الجمهوري النافع للجمهور وأما الحقائق فكسبتموها عنهم والذي سلطهم على ذلك جحد هؤلاء لحقهم ومكابرتهم إياهم على ما لا يمكن المكابرة عليه ، وهو معلوم لهم بالضرورة كمكابرتهم إياهم في كون الأفلاك كروية الشكل والأرض كذلك وأن نور القمر مستفاد من نور الشمس وإن الكسوف القمري عبارة عن انحناء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث أنه يقتبس نوره منها والأرض كرة والسماء محيطة بهما من الجوانب فإذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس كما قد مناه وكسبوا لهم أن الكسوف الشمسي معناه وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس عند اجتماعهما في العقدين على دقيقة واحدة وكسبوا لهم بتأثير الأسباب المحسوسة في مسدباتها وإثبات القوى والطبائع والأفعال وانفعالات ما تقوم عليه الأدلة العقلية والبراهين اليقينية فيخوض هؤلاء معهم في إبطاله فيغيرهم ذلك بكفرهم وإلحادهم والوصية لأصحابهم بالتسك بهم عليه فإذا قال لهم هؤلاء هذا الذي تذكرونه على خلاف الشرع والمصير إليه كفر وتكذيب الرسل لم يستريبوا في ذلك ولم يلحقهم فيه شك ولكنهم يستريبون بالشرع وتنقص مرتبة الرسل من قلوبهم وضرر الدين وما جاءت به الرسل هؤلاء من أعظم الضرر وهو كضرره بأولئك الملاحدة فهما ضرران على الدين ضرر من يظعن فيه وضرر من ينصره بغير طريقه وقد قيل إن العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل فإن الصديق الجاهل يضرك من حيث يقدر أنه ينفعك والشأن كل الشأن أن تجعل العاقل صديقك ولا تجعله عدوك وتغريه بمحاربة الدين وأهله . فإن قلت فقد أطلت في شأن الكسوف وأسبابه ووجئت بما شئت به من البيان الذي لم يشهدله الشرع بالصحة ولم يشهدله بالبطلان بل جاء الشرع بما هو أهم منه وأجل فائدة من الأمر عند الكسوفين

والجواب عنه إنما يعسر على إدراكه لأن من لم يحصل الرياضيات ولم يحكم المنطقيات وتمده علوم قدسقلتها أذهان الأولين وأحكمها أفكار المتقدمين فالفاضل كل الفاضل من يفهم كلامهم . .
وأما الاعتراض عليهم وإبطال فاسد أصولهم فعندهم من المحال الذي لا يصدق به وهذا من خداع الشيطان وتبليسه بغروره لهؤلاء الجهال مقلدى أهل الضلال كما ليس على أئمتهم وسلفهم بأن أوهمهم أن كل ما نالوه بأفكارهم فهو صواب كما ظهرت إصابتهم في الرياضيات وبعض الطبيعيات فركب من ضلال هؤلاء وجهل أتباعهم ما اشتدت به البلية وعظمت لأجله الرزية وضرب لأجله العالم وجحد ما جاءت به الرسل وكفر بالله وصفاته وأفعاله ولم يعلم هؤلاء أن الرجل يكون إماما في الحساب وهو أجهل خلق الله بالطب والهيئة والمنطق ويكون رأسا في الطب ويكون من أجهل الخلق بالحساب والهيئة ويكون مقدما في الهندسة وليس له علم بشيء من قضايا الطب وهذه علوم متقاربة والعبد بينها وبين علوم الرسل التي جاءت بها عن الله أعظم من العبد بين بعضها وبعض فاذا كان الرجل إماما في هذه العلوم ولم يعلم بأى شيء جاءت به الرسل ولا تحلى بعلوم الإسلام فهو كالعمى بالنسبة إلى علومهم بل أبعد منه وهل يلزم من معرفة الرجل هيئة الأفلاك والطب والهندسة والحساب أن يكون عارفا بالآلهيات وأحوال النفوس البشرية وصفادتها ومعادها وسعادتها وشقاوتها وهل هذا إلا بمنزلة من يظن أن الرجل إذا كان عالما بأحوال الأبنية وأوضاعها ووزن الأنهار والقنى والقنطرة كان عالما بالله وأسمائه وصفاته وما ينبغي له وما يستحيل عليه فعلم هؤلاء بمنزلة هذه العلوم التي هي نتائج الأفكار والتجارب فما لها وأعلوم الأنبياء التي يتلقونها عن الله بوسائط الملائكة هذا وإن تعلق الرياضيات التي هي نظر في نوعي الحكم المتصل والمنفصل والمنطقيات التي هي نظر في المعقولات الثمانية ونسبة بعضها إلى بعض بالكلية والجزئية والسلب والإيجاب وغير ذلك بمعرفة رب العالمين وأسمائه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه وما جاءت به رسله وثوابه وعقابه ومن الخدع الإبلسية قول الجهال أن فهم هذه الأمور موقوف على فهم هذه القضايا العقلية وهذا هو عين الجهل والحق وهو بمنزلة قول القائل لا يعرف حدوث الرمانة من لم يعرف عدد حباتها وكيفية تركيبها وطبعها ولا يعرف حدوث العين من لم يعرف عدد طبقاتها وتشريحها وما فيها من التركيب ولا يعرف حدوث هذا البيت من لم يعرف عدد لبناته وأخشابه وطبائنها ومقاديرها وغير ذلك من الكلام الذي يضحك منه كل عاقل وينادى على جهل قائله وحقه بل العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ودينه لا يحتاج إلى شيء من ذلك ولا يتوقف عليه وآيات الله التي دعا عباده إلى النظر فيها دالة عليه بأول النظر دلالة يشترك فيها كل سليم العقل والحاسة وأما أدلة هؤلاء خيالات وهمية وشبه عسرة المدرك بعيدة التحصيل متناقضة الأصول غير

العبادات والله تعالى في أيام دهره أوقات يحدث فيها ما يشاء من البلاء والنعماء ويقضى من الأسباب بما يدفع موجب تلك الأسباب لمن قام به أو يقلله أو يخففه فن فزع إلى تلك الأسباب أو بعضها اندفع عنه الشر الذي جعل الله الكسوف سبباً له أو بعضه ولهذا قل ما يسلم أطراف الأرض حيث يخفى الإيمان وما جاءت به الرسل فيها من شر عظيم يحصل بسبب الكسوف وتسلم منه إلا ما كن التي يظهر فيها نور النبوة والقيام بما جاءت به الرسل أو يقل فيها جداً ولما كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ قام فزعا مسرعاً يجر رداءه ونادى في الناس الصلاة جامعة وخطبهم بتلك الخطبة البليغة وأخبر أنه لم ير كيومه ذلك في الخير والشر وأمرهم عند حصول مثل تلك الحالة بالعتاقة والصدقة والصلاة والتوبة فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وبأمره وشأنه وتعريفه أمور مخلوقاته وتدييره وأنصحهم الأمة ومن دعاهم إلى ما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما فيه هلاكهم في معاشهم ومعادهم ولقد خفي ما جاءت به الرسل على طائفتين هلك بسببهما من شاء الله ونجا من شرهما من سبقت له العناية من الله إحدى الطائفتين وقفت مع ما شاهده وعلمته من أمور هذه الأسباب والمسببات وإحالة الأمر عليها وظنت أنه ليس لها شيء فسكفرت بما جاءت به الرسل ووجدت المبدأ والمعاد والتوحيد والشبوات وغيرها ما انتهى إليه علومها ووقفت عنده أقدامها من العلم بظاهر من المخلوقات وأحوالها وجاء ناس جهال رأوهم قد أصابوا في بعضها أو كثير منها فقالوا كل ما قاله هؤلاء فهو صواب لما ظهر لنا من صوابهم وانضاف إلى ذلك أن أولئك لما وقفوا على الصواب فيما أدتهم إليه أفكارهم من الرياضيات وبعض الطبيعيات وثقوا بعقولهم وفرحوا بما عندهم من العلم وظنوا أن سائر ما خدمته أفكارهم من العلم بالله وشأنه وعظمته هو كما أوقعهم عليه فكروهم وحكمه حكم ما شهد به الحس من الطبيعيات والرياضيات فتفاقم الشر وعظمت المصيبة ووجد الله وصفاته وخلقه للعالم وإعادته له ووجد كلامه ورسله ودينه ورأى كثير من هؤلاء أنهم هم خواص النوع الإنساني وأهل الألباب وأن ما عداهم هم القشور وأن الرسل إنما قاموا بسياساتهم لئلا يكونوا كالبهايم فهم بمنزلة قيم المارستان وأما أهل العقول والرياضيات والأفكار فلا يحتاجون إلى الرسل بل هم يعلمون الرسل ما يصنعونه للدعوة الإنسانية كما تجدد في كتبهم وينبغي للرسول أن يفعل كذا وكذا والمقصود أن هؤلاء لما أوقفهم أفكارهم على العلم بما خفي على كثير من أسرار المخلوقات وطبائعها وأسبابها ذهبوا بأفكارهم وعقولهم وتجاوزوا ما جاءت به الرسل وظنوا أن إصابتهم في الجميع سواء وصار المقلد لهم في كفرهم إذا خطر له إشكال على مذهبه أو دهمه ما لا حيلة له في دفعه من تناقضهم وفساد أصولهم يحسن الظن بهم ويقول لاشك أن علومهم مشتملة على حكمة .

العين فالخطوط الشعاعية أقصر وأقرب تلاقيا فلذلك يختلف قطع القمر غلط الظل في أوقات الكسوفات والموضع الذي يقطعه القمر من الظل يسمونه فلك الجوزهر وإذا عرف قطر الظل وعرف مقدار قطر نصف القمر وجمع بينهما ونصف ذلك وعرف عرض القمر إن كان له عرض فإن كان العرض مساويا لنصف مجموع القطرين فإن القمر يماس دائرة الظل ولا ينكسف وإن كان العرض أقل من نصف مجموعهما فإنه ينكسف فينظر إن كان مساويا لنصف قطر الظل انكسف من القمر مثل نصف صفحته وإن كان العرض أقل من نصف قطر الظل فينقص العرض من نصف قطر الظل فإن كان الباقي مثل قطر القمر انكسف كله ولا يكون له مكث وإذا لم يكن له عرض انكسف كله ويمكث زمانا أكثر وأطول ما يمتد زمان الكسوف القمري أربع ساعات وأما زمان الكسوف الشمسي فلا يزيد على ساعتين وكسوف القمر يختلف باختلاف أوضاع المساكن إذ الكسوف عارض في جهة وهو عبوره في ظلام ظل الأرض بخلاف كسوف الشمس وإنما يختلف الوقت فقط بأن يكون في بعض المساكن على مضى ساعة من الليل وفي بعضها على مضى نصف ساعة وقد يطلع منكسفا في بعض المساكن وينكسف بعد الطلوع في بعضها وقد لا يرى منكسقا أصلا إذا كانت الشمس فوق الأرض حالة الاستقبال ويرى الخسوف في القمر أبداً يكون من طرفه الشرق إذ هو الذاهب إلى الاستقبال نحو المشرق والدخول في الظل بحركته ثم ينحرف قليلا قليلا إلى الشمال أو الجنوب في بدء انجلائه أيضا من طرفه الشرق وأما في الشمس فبدء الكسوف من طرفها الغربي إذ الكسوف لها يأتي إليها من ناحية الغرب وكذلك الانجلاء أيضا من الطرف الغربي لكن بانحراف منه إلى الشمال والجنوب وإنما ذكرنا هذا الفصل ولم يكن من غرضنا لأن كثيراً من هؤلاء الأحكاميين يوهون على الجهال بأمر الكسوف ويوهونهم أن قضاياهم وأحكامهم النجومية من السعد والنحس والظفر والغلبة وغيرها هي من جنس الحكم بالكسوف فيصدق بذلك الأغمار والرعا ولا يعلمون أن الكسوف يعلم بحساب سير النيرين في منازلهما وذلك أمر قد أجرى الله تعالى العادة المطردة به كما أجراها في الأبدار والسرار والهلل فمن علم ما ذكرناه في هذا الفصل علم وقت الكسوف ودوامه ومقداره وسببه . . وأما أنه يقتضي من التأثيرات في الخير والشر والسعد والنحس والإماتة والإحياء وكذا وكذا بما يحكم به المنجمون فقول على الله وعلى خلقه بما لا يعلمون نعم لا ننكر أن الله سبحانه يحدث عند الكسوفين من أفضيته وأقداره ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم ويجعل الكسوف سبباً لذلك ولهذا أمر النبي ﷺ عند الكسوف بالفرع إلى ما ذكر الله والصلاة والعاقبة والصدقة والصيام لأن هذه الأشياء تدفع موجب الكسوف الذي جعله الله سبباً لما جعله فلولاً انعقاد سبب التخويف لما أمر بدفع موجب هذه

أصغر من جرم الشمس بكثير فينبعث ظلها ويرتفع في الهواء على شكل مخروط قاعدته قريبة من تدوير الأرض ثم لا يزال ينخرط تدويره حتى يبدق ويتلاشى لأن قطر الشمس لما كان أعظم من قطر الأرض فالخطوط الشعاعية المارة من جوانب الشمس إلى جوانب الأرض تكون متلاقية لامتوازية فإذا مرت على الاستقامة إلى الأرض انقذفت على جوانبها فالتقت للاحالة إلى نقطة فينحصر ظل الأرض في سطح مخروط فيكون مخروطا للاحالة قاعدته حيث ينبعث من الأرض ورأسه عند نقطة تلاقي الخطوط ولو كان قطر الأرض مساويا لقطر الشمس لكانت الخطوط الشعاعية تخرج إليها على التوازي فيكون الظل متساوي الغلط إلى أن ينتهى إلى محيط العالم ولو كان قطر الشمس أصغر من قطر الأرض لكانت الخطوط تخرج على التلاقى في جهة الشمس وأوسعها عند قطر الأرض وأكان الظل يزداد غلظا كلما بعد عن الأرض إلى أن ينتهى إلى محيط العالم ويلزم من ذلك أن ينخسف القمر في كل استقبال والوجود بخلافه ولما ثبت أن ظل الأرض مخروطى الشكل وقد وقع في الجهة المقابلة لجهة الشمس فيكون نقطة رأسه في سطح فلك البروج للاحالة ويدور بدوران الشمس مسامتا للنقطة المقابلة لموضع الشمس وهذا الظل الذى يكون فوق الأرض هو الليل فإن كانت الشمس فوق الأرض كان الظل تحت الأرض بالنسبة إلينا ونحن في ضياء الشمس وذلك النهار والزمان الذى يوازي دوام الظل فوق الأرض هو زمان الليل فاذا اتفق مرور القمر على محاذة نقطتى الرأس والذنب حالة الاستقبال يقع في مخروط الظل للاحالة لأن الخط الخارج من مركز العالم المار بمركز الشمس ثم بمركز القمر من الجانب الآخر ينطبق على سهم مخروط الظل فيقع القمر في وسط المخروط فينخسف كله ضرورة لأن الأرض تمنعه من قبول ضياء الشمس فيبقى القمر على جوهره الأصلي فان كان للقمر عرض ينحرف عن سهم المخروط ببق الضوء فيه بقدره وطبعه وقد يقع كله في المخروط ولكن يمر في جانب منه وقد يقع بعضه في المخروط ويبقى بعضه خارجا وربما يماس مخروط للظل ولا يقع من جرمه شيء وإنما يختلف هذا باختلاف بعده من الخط الخارج من مركز العالم المار بمركز الشمس المطابق لسهم المخروط حتى إذا عظم عرضه بأن لا يبقى بينه وبين إحدى نقطتى الرأس والذنب أكثر من ثلاثة عشر دقيقة لا يماس المخروط أصلا وإذا وقع في جانب منه قل مكثه وربما لم يكن له مكث أصلا وإنما يعرف ذلك بتقديم معرفة قطر الظل وقطر القمر يختلف باختلاف أبعاده عن الأرض وكذلك قطر الظل أيضا يختلف باختلاف أبعاد الشمس عن الأرض فإن الشمس متى قربت من الأرض كان ظل الأرض دقيقا قصيرا وإذا بعدت عنها كان ظل الأرض طويلا غليظا لأنها متى بعدت عن الأرض يرى قطرها أصغر وأقرب تلاقيا منها وكلما كان أعظم مقدارا في رأى

ولا يكون الكسوف الشمس لبت لأن قاعدة المخروط المتصل بالشمس مساو لقطرها فـ كما
ابتدأ القمر بالحركة بعد تمام الموازاة بينه وبين الشمس تحرك المخروط وابتدأت الشمس
بالإسفار إلا أن كسوف الشمس يختلف باختلاف أوضاع المساكن حتى أنه يرى في بعضها
ولا يرى في بعضها ويرى في بعضها أقل وفي بعضها أكثر بسبب اختلاف المنظر إذا الكاسف
ليس عارضاً في جرم الشمس يستوى فيه النظر من جميع الأماكن بل الكاسف شيء متوسط
بينها وبين الأبصار وهو قريب منها والمحجوب عنها بعيد فيختلف المتوسط باختلاف
مواضع الناظرين وكذلك يختلف كسوف الشمس في مباديها وعند انجلائها في كمية
ما ينكسف منها وفي زمان كسوفها الذي هو من أول البدو إلى وسط الكسوف ومن
وسط الكسوف إلى آخر الانجلاء . . فإن قيل فجرم القمر أصغر من جرم الشمس فكيف
فكيف يحجب عنا كل الشمس . . قيل إنما يحجب عنا جرم الشمس لقربه منا وبعدها عنا
لأن الشيتين المختلفين في الصغر والكبر إذا قرب الصغير من الكبير يرى من أطراف
الكبير أكثر ما يرى منها مع بعد الأصغر عنه وكلما بعد الأصغر عنه وازداد قربه من
الناظر تناقص ما يرى من أطراف الأكبر إلى أن ينتهي إلى حد لا يرى من الأكبر
شيء والحس شاهد بذلك . . وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين
الشمس حتى يصير القمر مموعاً من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الأرض
في عمره لأن القمر لا ضوء له أبداً وأنه يكتسب الضوء من الشمس . . وهل هذا الاكتساب
خاص بالقمر أم يشاركه فيه سائر الكواكب ففيه قولان لأرباب الهيئة : أحدهما أن
الشمس وحدها هي المضيئة بذاتها وغيرها من الكواكب مستضيئة بضيائها على سبيل العرض
كما عرف ذلك في القمر . . والقول الثاني أن القمر مخصوص بالكسوة دون سائر الكواكب
وغیره من الكواكب مضيئة بذاتها كالشمس . . ورد هؤلاء على أرباب القول الأول بأن
الكواكب لو استفادت أضواءها من الشمس لاختلف مقادير تلك الأضواء فيما كان تحت فلك
الشمس منها بسبب القرب والبعد من الشمس كما في القمر فإنه يختلف ضوءه بحسب قربه وبعده
من الشمس . . والذي حمل أرباب القول الأول عليه ما وجدوه من تعلق حركات الكواكب
بحركات الشمس وظنوا أن ضوءها من ضيائها وليس الغرض استيفاء الحجاج من الجانبين
وما لكل قول وعليه والمقصود ذكر سبب الخسوف القمري ولما كانت الأرض جسماً
كثيفاً فإذا أشرقت الشمس على جانب منها فإنه يقع لها ظل في الجهة الأخرى لأن كل ذي
ظل يقع في الجهة المقابلة للجرم المضيء فتي أشرقت عليها من ناحية الشرق وقعت أظلالها في
ناحية الغرب وإذا وقعت عليها من ناحية الغرب مالت أظلالها إلى ناحية المشرق والأرض

أن اسم الله مكتوب عليهما ومنهم من قال لأن نورهما من نور الله ومنهم من قال إن التنكب عن استقبالهما واستدبارهما أبلغ في التستر وعدم ظهور الفرجين وبكل حال فما لهذا ولا أحكام النجوم فإن كان هذا دالا على دعواكم فدلالة النهي عن استقبال الكعبة بذلك أقوى وأولى وأما استدلاله بأن النبي ﷺ قال يوم موت ولده إبراهيم إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة وهذا الحديث صحيح وهو من أعظم الحجج على بطلان قولكم فإنه ﷺ أخبر أنهما آيتان من آيات الله وآيات الله لا يحصيها إلا الله فالملطر والنبات والحيوان والليل والنهار والبر والبحر والجبال والشجر وسائر المخلوقات آياته تعالى الدلالة عليه وهي في القرآن أكثر من أن نذكرها ههنا فهما آيتان لربان ولا إلهان ولا ينفعان ولا يضران ولا لهما تصرف في أنفسهما وذواتهما البتة فضلا عن إعطائهما كل ما في العالم من خير وشر وصلاح وفساد بل كل ما فيه من ذراته وأجزائه وكمياته وجزئياته له تعالى الله عن قول المفتريين المشركين علوا كبيرا . ، وفي قوله ﷺ لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته قولان . . أحدهما أن موت الميت وحياته لا يكون سببا في انكسافهما كما كان يقوله كثير من جهال العرب وغيرهم عند الانكساف إن ذلك لموت عظيم أولولادة عظيم فأبطل النبي ﷺ ذلك وأخبر أن موت الميت وحياته لا يؤثر في كسوفهما البتة . ، والثاني أنه لا يحصل عن انكسافهما موت ولا حياة فلا يكون انكسافهما سببا لموت ميت ولا حياة حي وإنما ذلك تخويف من الله لعباده أجرى العادة بحصوله في أوقات معلومه بالحساب كطولوع الهلال وإبداره وسراره . . فأما سبب كسوف الشمس فهو توسط القمر بين جرم الشمس وبين أبصارنا فإن القمر عندهم جسم كثيف مظلم وفلكه دون فلك الشمس فإذا كان على مسامته لأحدى نقطتي الرأس أو الذنب أو قريبا منهما حالة الاجتماع من تحت الشمس حال بينهما وبين نور الشمس كسحابة تمر تحتها إلى أن يتجاوزها من الجانب الآخر فإن لم يكن للقمر عرض ستر عنا نور كل الشمس وإن كان له عرض فبقدر ما يوجهه عرضه وذلك أن الخروط الشعاعية تخرج من بصر الناظر إلى المرقى على شكل مخروط رأسه عند نقطة البصر وقاعدته عند جرم المرقى فإن وجهنا أبصارنا إلى جرم الشمس حالة كسوفها فإنه ينتهي إلى القمر أولا مخروط الشعاع فإذا توهمنا نفوذه منه إلى الشمس وقع جرم الشمس في وسط المخروط وإن لم يكن للقمر عرض انكسف كل الشمس وإن كان للقمر عرض فبقدر ما يوجهه عرضه ينحرف جرم الشمس عن مخروط الشعاع ولا يقع كله فيه فينكسف بعضه ويبقى الباقي على ضيائه وذلك إذا كان العرض المرقى أقل من نصف مجموع قطر الشمس والقمر حتى إذا ساوى العرض المرقى نصف مجموع القطرين كان صفحة القمر تماس مخروط الشعاع فلا ينكسف

وأُمرت بمعنى أنا أفعل كما يفعل الله فأكون رباً مثله فقال له إبراهيم فان كنت صادقاً فافعل مثل فعله في طلوع الشمس فلماذا أطلعها من جهة فأطلعها أنت من جهة أخرى ثم تأمل ما في ضمن هذه المناظرة من حسن الاستدلال بأفعال الرب المشهودة المحسوسة التي تستلزم وجوده وكال قدرته ومشيتته وعلمه ووحدانيته من الإحياء والإماتة المشهودين الذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده وإتيانه تعالى بالشمس من المشرق لا يقدر أحد سواه على ذلك وهذا برهان لا يقبل المعارضة بوجه وإنما لبس عدو الله وأوهم الحاضرين أنه قادر من الإحياء والإماتة على ما هو مماثل لمقدور الرب تعالى فقال له إبراهيم فان كان الأمر كما زعمت فأرتني قدرتك على الإتيان بالشمس من المغرب لتكون ماثله لقدرة الله على الإتيان بها من المشرق فأين الانتقال في هذا الاستدلال والمناظرة بل هذا من أحسن ما يكون من المناظرة والدليل الثاني مكمل لمعنى الدليل الأول ومبين له ومقرر لتضمن الدليلين أفعال الرب الدالة عليه وعلى وحدانيته وانفراده بالربوبية والإلهية كما لا تقدر أنت ولا غير الله على مثلها ولما علم عدو الله صحة ذلك وأن من هذا شأنه على كل شيء قد ير لا يعجزه شيء ولا يستصعب عليه مرادخاف أن يقول لإبراهيم فسل ربك أن يأتي بها من مغربها فيفعل ذلك فيظهر لاتباعه بطلان دعواه وكذبه وأنه لا يصلح للربوبية فبهت وأمسك وفي هذه المناظرة نسكتة لطيفة جداً وهي أن شرك العالم إنما هو مسند إلى عبادة السكواكب والقبور ثم صورت الأصنام على صورها كما تقدم فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لافي حال حياته ولا بعد موته فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه لإحياء وإماتة ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على صورته ويعبد من دونه وكذلك السكواكب أظهرها وأكبرها للحس . هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة لا تصرف لها في نفسها بوجه ما بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتتقاد لأمره ومشيتته فهي مربوبة مسخرة مدبرة لا إله يعبد من دون الله .

فصل

وأما استدلاله بأن النبي ﷺ نهى عن قضاة الحاجة عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما فكأنه والله أعلم لما رأى بعض الفقهاء قد قالوا ذلك في كتبهم في آداب التخلي ولا تستقبل الشمس والقمر ظن أنهم إنما قالوا ذلك لنهي النبي ﷺ عنه فاحتج بالحديث وهذا من أبطال الباطل فان النبي ﷺ لم ينقل عنه ذلك في كلمة واحدة لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مرسل ولا متصل وليس لهذه المسألة أصل في الشرع والذين ذكروها من الفقهاء منهم من قال العلة

أربعة نفرأ فأدخلهم بيتاً فلا يطعمون ولا يسقون حتى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فهاشا وتركك الإثنين فماتا فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه ومملكه على أن يفعل ذلك قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر وقال إن هذا إنسان مجنون فأخرجوه ألا ترون أنه من جنونه اجترأ على آلهتكم فكسرها وأن النار لم تأكله وخشى أن يفتضح في قومه وكان يزعم أنه رب فأمر بإبراهيم فأخرج وقال مجاهد أحيى فلا أقتل وأميت من قتلت وقال ابن جريج أتى برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر فقال أنا أحيى وأميت فأميت من قتلت وأحيى فلا أقتل وقال ابن إسحاق ذكر لنا والله أعلم أن نمرود قال لإبراهيم أرأيت إلهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيرها ما هي قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال نمرود أنا أحيى وأميت فقال له إبراهيم كيف تحيي وتميت قال آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي فاقتل أحدهما فأكون قدأتمته وأعفو عن الآخر فأتته فأكون قد أحييته فقال له إبراهيم عند ذلك فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب أعرف أنه كما تقول فبهت عند ذلك نمرود ولم يرجع إليه شيئاً وعرف أنه لا يطيق ذلك فهذا كلام السلف في هذه المناظرة وكذلك سائر المفسرين بعدهم لم يقل أحد منهم قط أن معنى الآية أن هذا الإحياء والإماتة حاصل مني ومن كل أحد فإن الرجل قد يكون منه الحدوث بواسطة تمزيج الطبائع ونحر يك الأجرام الفلكية بل ينقطع بأن هذا لم يخطر بقلب المشرك المناظر البتة ولا كان هذا مراده فلا يحل تفسير كلام الله بمثل هذه الأباطيل ونسأل الله أن يعيذنا من القول عليه بما لم نعلم فانه أعظم المحرمات على الإطلاق وأشدّها إثماً وقد ظن جماعة من الأصوليين وأرباب الجدل أن إبراهيم انتقل مع المشرك من حجة إلى حجة ولم يجبه عن قوله أنا أحيى وأميت قالوا وكان يمكنه أن يتم معه الحجة الأولى بأن يقول مرادى بالإحياء إحياء الميت وإيجاد الحياة فيه لا استبقاؤه على حياته وكان يمكنه تميمها بمعارضته في نفسها بأن يقول فاحي من أمت وقلت ان كنت صادقاً ولكن انتقل إلى حجة أوضح من الأولى فقال إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فانتقطع المشرك المعطل وليس الأمر كما ذكره ولا هذا انتقال بل هذا مطالبة له بموجب دعواه الإلهية والدليل الذي استدل به إبراهيم قد تم وثبت موجبها فلما ادعى الكافر أنه يفعل كما يفعل الله فيكون إلهاً مع الله طالبه إبراهيم بموجب دعواه مطالبة تتضمن بطلانها فقال إن كنت أنت رباً كما تزعم فتحي وتميت كما يحيي ربي ويميت فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فتصاع لقدرته وتستخيره ومشيته فإن كنت أنت رباً فأت بها من المغرب وتأمل قول الكافر أنا أحيى وأميت ولم يقل أنا الذي أحيى

الذوات من حيث هي ذوات إما أن تكون وجوداً أو عدماً فإن كانت وجوداً فهي بجعل الجاعل وإن كانت عدماً فالعدم كاسمه لا يتعلق بجعل الجاعل .

فصل

وأما قوله إن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان اعتماده في إثبات الصانع على الدلائل الفلكية كما قرره فيقال من العجب ذكركم تحليل الرحمن في هذا المقام وهو أعظم عدو لعباد الكواكب والأصنام التي اتخذت على صورها وهم أعداؤه الذين ألقوه في النار حتى جعلها الله عليه برداً وسلاماً وهو صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق براة منهم وأما ذلك التقرير الذي قرره الرازي في المناظرة بينه وبين الملك المعطل فما لم يخطر بقلب إبراهيم ولا بقلب المشرك ولا يدل اللفظ عليها البتة وتلك المناظرة التي ذكرها الرازي تشبه أن تكون مناظرة بين فيلسوف ومتكلم فكيف يسوغ أن يقال أنها هي المرادة من كلام الله تعالى فيكذب على الله وعلى خليفه وعلى المشرك المعطل وإبراهيم أعلم بالله ووحدانيته وصفاته من أن يوحى إليه بهذه المناظرة ونحن نذكر كلام أئمة التفسير في ذلك ليفهم معنى المناظرة ومادل عليه القرآن من تقريرها قل ابن جرير معنى الآية ألم تر يا محمد إني الذي حاج إبراهيم في ربه حين قال له إبراهيم ربني الذي يحبي ويميت يعني بذلك ربني الذي بيده الحياة والموت يحبي من يشاء ويميت من أراد بعد الإحياء قال أنا أفعل ذلك فأحيي وأميت أستحي من أردت قتله فلا أقتله فيكون ذلك مني إحياء له وذلك عند العرب يسمى إحياء كما قال تعالى (ومن أحياءها فكأنما أحياء الناس جميعاً) واقتل آخر فيكون ذلك مني إماتة له قال إبراهيم له إني الله الذي يأتي بالشمس من مشرقها فإن كنت صادقاً إنك آله فأت بها من مغربها قال الله عز وجل (فهبت الذي كفر) يعني انقطع وبطلت حجته ثم ذكر من قال ذلك من السلف فروى عن قتادة ذكر لنا أنه دعا برجلين فقتل أحدهما واستحيى الآخر وقال أنا أحيي هذا وأميت هذا قال إبراهيم عند ذلك فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب وعن مجاهد أنا أحيي وأميت أقتل من شئت وأستحي من شئت أدعه حياً فلا أقتله وقال ابن وهب حدثني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن الجبار قال لإبراهيم أنا أحيي وأميت إن شئت قتلتك وأن استحييتك فقال إبراهيم إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فهبت الذي كفر وقال الربيع لما قال إبراهيم ربني الذي يحبي ويميت قال هو يعني نمرود فأنا أحيي وأميت فدعا برجلين فاستحيى أحدهما وقتل الآخر وقال أنا أحيي وأميت أي أستحي من شئت فقال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق وقال السدي لما خرج إبراهيم من النار أدخله على الملك ولم يكن قبل ذلك دخل عليه فكلمه وقال له من ربك قال ربني الذي يحبي ويميت قال نمرود أنا أحيي وأميت أنا آخذ

أن أظلم الظلم هو الشرك ومخلوقات الرب تعالى كلها شاهدة له بأنه الله الذى لا إله إلا هو وإن كل معبود باطل سواه وكل مخلوق شاهد بهذا الحق إمام شهادة نطق وإمام شهادة حال وإن ظهر بفعله وقوله خلافها كالشرك الذى يشهد حال خلقه وإبداعه وصنعه لخالقه وفاعله أنه الله الذى لا إله إلا هو وإن عبد غيره وزعم أن له شريكاً فشاهد حاله مكذب له مبطل لشهادة فعله وقاله . . وأما قوله أنه لا يمكن أن يقال المراد أنه خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم إلى آخر كلامه . . فيقال له إذا كانت دلالتها على صانعها أمراً ثابتاً لها لذواتها وذواتها إنما وجدت بإيجاده وتكوينه كانت دلالتها بسبب فعل الفاعل المختار لها ولكن هذا بناء منه على أصل فاسد يكرره في كتبه وهو أن الذوات ليست بمجمولة ولا تتعلق بفعل الفاعل وهذا بما أنكره عليه أهل العلم والإيمان وقالوا إن كونها ذواتاً وإن وجودها وأوصافها وكل ما ينسب إليها هو بفعل الفاعل فكونها ذواتاً وما يتبع ذلك من دلالتها على الصانع كله يجعل الجاعل فهو الذى جعل الذوات والصفات وثبوت دلالتها لذاتها لا تنفى أن تكون يجعل الجاعل فإنه لما جعلها على هذه الصفة مستلزمة لدلالتها عليه كانت دلالتها عليه بفعله . . فإن قيل لو قدر عدم الجاعل لها لم يرتفع كونها ذواتاً ولو كانت ذواتاً بفعله لارتفع كونها ذواتاً بتقدير ارتفاعه . . قيل ما تعنى بكونها ذواتاً وماهيات أتعنى به تحقق ذلك في الخارج أو في الذهن أو أعم منها فإن عنيت الأول فلا ريب في بطلان كونها ذوات وماهيات على تقدير ارتفاع الجاعل وإن عنيت الثاني فالصور الذهنية مجمولة له أيضاً لأنه هو الذى علم فأوجد الخلاق الذهنية في العلم كما أنه الذى خلق فأوجد الحقائق الذهنية في العين فهو الأكرم الذى خلق وعلم فما في الذهن بتعليمه وما في الخارج بخلقه وإن عنيت القدر المشترك بين الخارج والذهن وهو مسمى كونها ذوات وماهيات بقطع النظر عن تقييده بالذهن أو الخارج قيل لك هذه ليست بشيء البتة فإن الشيء إنما يكون شيئاً في الخارج أو في الذهن والعلم وما ليس له حقيقة خارجية ولا ذهنية فليس بشيء بل هو عدم صرف ولا ريب أن عدم ليس بفعل فاعل ولا جعل جاعل . . فإن قيل هي لا تنفك عن أحد الوجودين إما الذهن وإما الخارجى ولكن نحن أخذناها مجردة عن الوجودين ونظرنا إليها من هذه الحيثية وهذا الاعتبار ثم حكمنا عليها بقطع النظر عن تقيدها بذهن أو خارج . . قيل الحكم عليها بشيء ما يستلزم تصورها ليكن الحكم عليها وتصورها مع أخذها مجردة عن الوجود والذهن محال فإن قيل مسلم إن ذلك محال ولكن إذا أخذناه مع وجودها الذهني أو الخارجى فهنا أمران حقيقة وماهيتها والثاني وجودها الذهني أو الخارجى فنحن أخذناها موجودة وحكمتها عليها مجردة فالحكم على جزء هذا المأخوذ المتصور . . قيل هذا القدر المأخوذ عدم محض كما تقدم والعدم لا يكون يجعل جاعل ونسكتة المسألة أن

الشفلى مترتبة على تأثير الكواكب والروحانيات التى هى مدبرات الكواكب وإن كان فى اتصالاتها نظر سعد ونحس وجب أن يكون فى آثارها حسن وقبح فى الخلق والأخلاق والعقول الإنسانية متساوية فى النوع فوجب أن يدركها كل عقل سليم ولا يتوقف إدراكها على من هو مثل ذلك العاقل فى النوع ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم إلى آخر كلامكم المتضمن خلق السموات والأرض بغير أمر ولا نهى ولا ثواب ولا عقاب وهذا هو الباطل الذى نفاه الله سبحانه عن نفسه وأخبر أنه ظن أعدائه الكافرين ولهذا اتفق المفسرون على أن الحق الذى خلقت به السموات والأرض هو الأمر والنهى وما يترتب عليهما من الثواب والعقاب فمن جحد ذلك وجحد رسالة الرسل وكفر بالمعاد وأحال حوادث العالم على حركات الكواكب فقد زعم أن خلق السموات والأرض أبطل الباطل وأن العالم خلق عبثاً وترك سدى وخلى هملاً وغاية ما خلق له أن يكون متمتعاً باللذات الحسية كالهائم فى هذه المدة القصيرة جداً ثم يفارق الوجود وتحدث حركات الكواكب أشخاصاً مثله هكذا أبداً فأى باطل أبطل من هذا وأى عبث فوق هذا أخسبتم أنما خلقناكم عبثاً وإنسكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم والحق الذى خلقت به السموات والأرض وما بينهما هو إلهية الرب المتضمنة لكمال حكمته وملكوته وأمره ونهيه المتضمن لشريعته وثوابه وعقابه المتضمن لعدله وفضله ولقائه فالخلق الذى وجد به العالم كون الله سبحانه هو الإله الحق المعبود والأمر الناهى المتصرف فى الممالك بالأمر والنهى وذلك يستلزم إرسال الرسل وإكرام من استجاب لهم وتامم الإنعام عليه وإهانة من كفر بهم وكذبهم واختصاصه بالشقاء والهلاك وذلك معقود بكامل حكمة الرب تعالى وقدرته وعلمه وعدله وتامم ربوبيته وتصرفه وانفراده بالإلهية وجريان المخلوقات على موجب حكمته وإلهيته وملكوته التام وأنه أهل أن يعبد ويطاع وأنه أولى من أكرم أحبابه وأوليائه بالإكرام الذى يليق بعظمته وغناه وجوده وأهان أعداءه المعرضين عنه الجاحدين له المشركين به المسوين بينه وبين الكواكب والأوثان والأصنام فى العبادة بالإهانة التى تليق بعظمته وجلاله وشدة بأسه فهو الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول لا إله إلا هو إليه المصير وهو ذو الرحمة الواسعة الذى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ألا أنه الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين وهو سبحانه خلق العالم العلوى والسفلى بسبب الحق ولأجل الحق وضمنه الحق فبالحق كان وللحق كان وعلى الحق اشتمل والحق هو توحيد عبادته وحده لا شريك له وموجب ذلك ومقتضاه وقام بعدله الذى هو الحق وعلى الحق اشتمل فما خلق الله شيئاً إلا بالحق وللحق ونفس خلقه له حق وهو شاهد من شواهد الحق فإن أحق الحق هو التوحيد كما

الجواهر وإنما أحدث تأليفها وتركيبها فقط وإن كان أحداثها بجواهره سابقاً متقدماً قبل ذلك وأما الآن فإنما تحدث الأعراض من الاجتماع والإفراق والحركة والسكون فقط وهي الآن كون عندهم وكذلك المعاد فإنه سبحانه يفرق أجزاء العالم وهو أعدامه ثم يؤلفها ويجمعها وهو المعاد وهؤلاء احتاجوا إلى أن يستدلوا على كون عين الإنسان وجواهره مخلوقة إذ المشاهد عندهم بالحس دائماً هو حدوث أعراض في تلك الجواهر من التأليف الخالص وزعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب والمطر والزرع والثمار والحيوان فإنما يحدث فيه أعراضاً وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفرقها وزعموا أن أحداً لا يعلم حدوث عين من الأعيان بالمشاهدة ولا بضرورة العقل وإنما يعلم ذلك بالاستدلال وجمهور العقلاء من الطوائف يخالفون هؤلاء ويقولون الرب لا يزال يحدث الأعيان كما دل على ذلك الحس والعقل والقرآن فإن الأجسام الحادثة بالمشاهدة ذواتها وأجزاؤها حادثة بعينها لم تكن جواهر مفرقة فاجتمعت ومن قال غير ذلك فقد كابر الحس والعقل فإن كون الإنسان والحيوان مخلوقاً محدثاً كائناتاً بعد إن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس وكل أحد يعلم أنه حدث في بطن أمه بعد إن لم يكن وإن عينه حدثت كما قال الله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) وليس هذا عندهم بما يستدل عليه بل يستدل به كما هي طريقة القرآن فإنه جعل حدوث الإنسان وخلقه دليلاً لا مدلولاً عليه . . وقولهم إن الحادث أعراض فقط وأنه مركب من الجواهر المفردة قولان باطلان بل يعلم حدوث عين الإنسان وذاته وبطلان الجواهر الفرد ولو كان القول بالجواهر صحيحاً لم يكن معلوماً إلا بأدلة خفية دقيقة فلا يكون من أصول الدين بل ولا مقدمة فيها فطريقتهم تتضمن جحد المعلوم وهو حدوث الأعيان الحادثة وذواتها وإثبات ما ليس بمعلوم بل هو باطل وهو إثبات الجواهر الفرد وليس هذا موضع استقصاء هذه المسئلة والمقصود الكلام على قوله إن الاستدلال بحصول الحياة في بنية الحيوان على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الأجرام الفلكية وهو مبنى على هذا الأصل الفاسد .

فصل

وأما استدلاله بقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) فعجب من العجب فإن هذا من أقوى الأدلة وأبينها على بطلان قول المنجمين والذهرية الذين يستندون بجميع ما في العالم من الخير والشر إلى النجوم وحركاتها واتصالاتها ويزعمون أن ما تأتي به من الخير والشر فعن تعريف الرسل والأنبياء وكذلك ما تعطيه من السعود والنحوس وهذا هو السبب الذي سقنا الكلام لأجله معهم لما حكينا قولهم أنه لما كانت الموجودات في العالم

والبقعة فكيف يسمح لعاقل عقله أن يسوى بينهما ويجعل الدلالة من هذا كالدلالة من الآخر والله سبحانه إنما يذكر من مخلوقاته للدلالة عليه أشرفها وأظهرها للحس والعقل وأبينها دلالة وأعجبها صنعة كالسما والارض والشمس والقمر والليل والنهار والنجوم والجبال والسحاب والمطر وغير ذلك من آياته ولا يدعو عباده إلى التفكر في القمل والبراغيث والبعوض والبق والكلاب والحشرات ونحوها وإنما يذكر ما يذكر من ذلك في سياق ضرب الأمثال مبالغة في الاحتقار والضعف كقوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) فهنا لم يذكر الذباب في سياق الدلالة على إثبات الصانع تعالى وكذلك قوله (أن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) وكذلك قوله (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) فتأمل ذكر هذه المخلوقات الحقيرة في أى سياق وذكر المخلوقات العظيمة في أى سياق . . وأما قول من قال من المتكلمين المتكلمين أن دلالة حصول الحياة في الأبدان الحيوانية أقوى من دلالة السموات والارض على وجود الصانع تعالى فبناء هذا القائل على الأصل الفاسد وهو إثبات الجوهر الفرد وإن تأثير الصانع تعالى في خلق العالم العلوى والسفلى هو تركيب تلك الجواهر وتأليفها هذا التأليف الخاص والتركيب جنسه مقدور للبشر وغيرهم وأما الأحداث والاختراع فلا يقدر عليه إلا الله والقول بالجواهر الفرد وبناء المبدأ والمعاد عليه مما هو من أصول المتكلمين الفاسدة التي نازعهم فيها جمهور العقلاء قالوا وخلق الله تعالى وإحداثه لما يحدثه من أجسام العالم هو لإحداث لأجزائها وذواتها لا مجرد تركيب الجواهر منفردة ثم قد فرغ من خلقها وصنعه وإبداعه الآن إنما هو في تأليفها وتركيبها وهذا من أقوال أهل البدع التي ابتدعوها في الإسلام وبنوا عليها المعاد وحدوث العالم فسلطوا عليهم أعداء الإسلام ولم يمكنهم كسرهم لما بنوا المبدأ والمعاد على أمر وهمي خيالي وظنوا أنه لا يتم لهم القول بحدوث العالم وإعادة الأجسام إلا به وأقام منازعهم حججا كثيرة جدا على بطلان القول بالجواهر واعترفواهم بقوة كثير منها وصحته فأوقع ذلك شكاً لكثير منهم في أمر المبدأ والمعاد لبنائه على شفا جرف هار وأما أئمة الإسلام وخول النظر فلم يعتمدوا على هذه الطريقة وهي عندهم أضعف وأوهى من أن يبنوا عليها شيئا من الدين فضلا عن حدوث العالم وإعادة الأجسام وإنما اعتمدوا على الطرق التي أرشد الله سبحانه إليها في كتابه وهي حدوث ذات الحيوان والنبات وخلق نفس العالم العلوى والسفلى وحدوث السحاب والمطر والرياح وغيرها من الأجسام التي يشاهد حدوثها بذواتها لا مجرد حدوث تأليفها وتركيبها فعند القائلين بالجواهر لا يشهد أن الله أحدث في هذا العالم شيئا من

في علم النجوم من معاريض الأفعال كما كان قوله فعله كبيرهم هذا وقوله إني سقيم وقوله عن امرأته سارة هذه أختي من معاريض المقال ليتوصل بها إلى غرضه من كسر الأصنام كما توصل بتعريضه بقوله هذه أختي إلى خلاصها من يد الفاجر ولما غلظ فهم هذا عن كثير من الناس وكشفت طباعهم عن إدراكه ظنوا أن نظره في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام وعلم أن نجمة وطالعه يقضى عليه بالسقم وحاشا لله أن يظن ذلك بخليفه صلى الله تعالى عليه وسلم أو بأحد من أتباعه وهذا من جنس معاريض يوسف الصديق صلى الله تعالى عليه وسلم حين تفتيش أوعمة أخيه عن الصاع فإن المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أنه ليس فيها وآخر وعاء أخيه مع علمه أنه فيها تعريضا بأنه لا يعرف في أى وعاء هى ونفيا للهمة عنه بأنه لو كان عالما في أى الأوعية هى لبادر إليها ولم يكلف نفسه تعب التفتيش لغيرها فلماذا نظر الخليل صلى الله تعالى عليه وسلم في النجوم نظر تورية وتعريض محض ينفي به عنه تهمة قومه ويتوصل به إلى كيد أصنامهم .

فصل

وأما الاستدلال بقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وأن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ففي غاية الفساد فإن المراد من الخلق ههنا الفعل لأنفس المفعول وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد أى أن الذى خلق السموات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقا جديدا ونظير هذا في قوله في سورة يس (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) أى مثل هؤلاء المشركين فهذا استدلال يشمل القدرة للنوعين وأنها صالحة لهما فلا يجوز أن يثبت تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر فكذلك قوله (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) أى من لم تعجز قدرته عن خلق العالم العلوى والسفلى كيف يعجز عن خلق الناس خلقا جديدا بعد ما أماتهم ولا تعرض في هذا لأحكام النجوم بوجه قط ولالتأثير السكواكب وأما قوله تعالى (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) فلا ريب أن خلق السموات والأرض من أعظم الأدلة على وجود فاطرهما وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالربوبية والوحدانية ومن سوى بين ذلك وبين البقرة وجعل العبرة والدلالة والعلم بوجود الرب الخالق البارئ المصور منهما سواء فقد كابر والله سبحانه إنما يدعو عباده على النظر والفكر في مخلوقاته العظام لظهور أثر الدلالة فيها وبديع عجائب الصنعة والحكمة فيها واتساع مجال الفكر والنظر في أرجائها وإلا

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولكن أين الآية والدلالة في خلق العالم العلوى والسفلى إلى خالق القملة والبرغوث

الله وسلامه عليهم وصدقهم فيما جاؤا به وعرف مسعى رسول الله وعرف مرسله وهل كان لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عدو مثل هؤلاء المنجمين الصابئين وحر إن كانت دار ملكوتهم والخليل أعدى عدو لهم وهم المشركون حقا والأصنام التي كانوا يعبدونها كانت صوراً وتمائيل للكواكب وكانوا يتخذون لها هياكل وهى بيوت العبادات لسكر كوكب منها هيكلكم فيه أصنام تناسبه فكانت عبادتهم للأصنام وتعظيمهم لها تعظيماً منهم للكواكب التي وضعوا الأصنام عليها وعبادة لها وهذا أقوى السببين في الشرك الواقع في العالم وهو الشرك بالنجوم وتعظيمها واعتقاد أنها أحياء ناطقة ولها روحانيات تنزل على عابديها ومخاطبيها فصوروا لها الصور الأرضية ثم جعلوا عبادتها وتعظيمها ذريعة إلى عبادة تلك الكواكب واستئزال روحانياتها وكانت الشياطين تنزل عليهم وتخطبهم وتكلمهم وترهبهم من العجائب ما يدعونه إلى بذل نفوسهم وأولادهم وأموالهم لتلك الأصنام والتقرب إليها وكان مبدأ هذا الشرك تعظيم الكواكب وظن السعود والنحوس وحصول الخير والشرك في العالم منها وهذا هو شرك خواص المشركين وأرباب النظر منهم وهو شرك قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام . . والسبب الثاني عبادة القبور والإشراك بالأموات وهو شرك قوم نوح عليه الصلاة والسلام وهو أول شرك طرق العالم وفنته أعم وأهل الإبتلاء به أكثر وهم جمهور أهل الإشراك وكثيراً ما يجتمع السببان في حق المشرك يكون مقابرياً نجومياً قال تعالى عن قوم نوح (وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) . . قال البخاري في صحيحه قال ابن عباس كان هؤلاء رجلاً صالحين من قوم نوح فلما هلكت أوحى الشياطين إلى قومهم أن انصبوا على مجالسهم التي كانوا يجلسون عليها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبت ولهذا لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ونهى عن الصلاة إلى القبور وقال اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد وقال اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك وأخبر أن هؤلاء شرار الخلق عند الله يوم القيامة وهؤلاء هم أعداء نوح كما أن المشركين بالنجوم أعداء إبراهيم فنوح عاداه المشركون بالقبور وإبراهيم عاداه المشركون بالنجوم والطائفتان صوروا الأصنام على صور معبوديهم ثم عبدوها وإنما بعثت الرسل بمحق الشرك من الأرض ومحق أهله وقطع أسبابه وهدم بيوته ومحاربة أهله فكيف يظن بإمام الحنفاء وشيخ الأنبياء و خليل رب الأرض والسماء أنه كان يتعاطى علم النجوم ويأخذ منه أحكام الحوادث سبحانه هذا بهتان عظيم وإنما كانت النظرة التي نظرها

منازل حق عاد كالعرجون القديم) نخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس وإن كانت مقدرة المنازل لظهور ذلك للحس في القمر وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل منزل منزل ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم وأبعد من الغلط وأصح للضبط من الحساب الشمسي ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي ولهذا قال تعالى في القمر (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) ولم يقل ذلك في الشمس ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزواه في منازل لا على حساب الشمس وسيرها حكمة من الله ورحمة وحفظاً لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب وتعذر الغلط والخطأ فيه فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب فهذا الذي أخبرنا تعالى به من شأن المنازل وسير القمر فيها وجعل الشمس سراجاً وضياء يبصر به الحيوان ولولا ذلك لم يبصر الحيوان فأين هذا مما يدعيه الكذابون من علم الأحكام التي كذبها أضعاف صدقها .

فصل

وأما ما ذكره عن إبراهيم خليل الرحمن أنه تمسك بعلم النجوم حين قال إني سقيم فمن الكذب والافتراء على خليل الرحمن عليه السلام فإنه ليس في الآية أكثر من أنه نظر نظرة في النجوم ثم قال لهم إني سقيم فمن ظن من هذا أن علم أحكام النجوم من علم الأنبياء وأنهم كانوا يراعونه ويعانونه فقد كذب على الأنبياء ونسبهم إلى ما لا يليق وهو من جنس من نسبهم إلى الكهانة والسحر وزعم أن تلقيهم الغيب من جنس تلقى غيرهم وإن كانوا فوقهم في ذلك أكمل نفوسهم وقوة استعدادها وقبولها أفيض العلويات عليها وهؤلاء لم يعرفوا الأنبياء ولا آمنوا بهم وإنما هم عندهم بمنزلة أصحاب الرياضات الذين خصوا بقوة الإدراك وزكاة النفوس وزكاة الأخلاق ونصبوا أنفسهم لإصلاح الناس وضبط أمورهم ولا ريب أن هؤلاء أبعد الخلق عن الأنبياء وأتباعهم ومعرفة مرسلمهم وما أرسلهم به هؤلاء في شأن والرسول في شأن آخر بل هم ضدهم في علومهم وأعمالهم وهدىهم وإرادتهم وطرائقهم ومعادهم وفي شأنهم كله ولهذا نجد أتباع هؤلاء ضد أتباع الرسول في العلوم والأعمال والهدى والإرادات ومتى بعث الله رسولا يعانى التنجيم والزجرات والطلسمات والأوقاف والتدخين والبخورات ومعرفة القرانات والحكم على الكواكب بالسعود والنحوس والحرارة والبرودة والذكورة والأنوثة وهل هذه إلا صنائع المشركين وعلومهم وهل بعثت الرسول إلا بالإنكار على هؤلاء ومحققهم وبحق علومهم وأعمالهم من الأرض وهل للرسول أعداء بالذات إلا هؤلاء ومن سلك سبيلهم وهذا معلوم بالاضطرار لكل من آمن بالرسول صلوات

الاعمار والأرزاق والآجال والصنائع والعلوم والمعارف والصور الحيوانية والنباتية والمعدنية وسائر ما في هذا العالم من الخير والشر وأما قوله (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سرجا وقرا منيرا) فهو تعظيم وثناء منه تعالى على نفسه بجعل هذه البروج والشمس والقمر فى السماء وقد اختلف فى البروج المذكورة فى هذه الآية فأكثر السلف على أنها القصور أو الكواكب العظام . . قال ابن المنذر فى تفسيره حدثنا موسى حدثنا شجاع حدثنا ابن إدريس عن أبيه عن عطية جعل فى السماء بروجا قال قصورا فيها حرس . . حدثنا موسى حدثنا أبو بكر حدثنا أبو معاوية ووكيع عن اسماعيل عن يحيى بن رافع قال قصورا فى السماء . . حدثنا موسى حدثنا أبو بكر حدثنا وكيع عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال النجوم يعنى بروجا وكذلك قال عكرمة . . حدثنا أبو أحمد حدثنا يعلى حدثنا إسماعيل عن أبي صالح تبارك الذى جعل فى السماء بروجا قال النجوم الكبار وهذا موافق لمعنى اللفظة فى اللغة فإن العرب تسمى البناء المرتفع برجا قال تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) . . وقال الأختل :

كانها برج روى يشيده بأن يحض وأجر وأحجار

قال الأعشى كان أصحاب عبد الله يقرؤها (تبارك الذى جعل فى السماء قصورا) وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى أنها البروج الإثني عشر التى تنقسم عليها المنازل كل برج منزلتان وثلاث وهذه المنازل الثمانية والعشرون يبدو منها للناس أربعة عشر منزلا أبدا ويخفى منها أربعة عشر منزلا كما أن البروج يظهر منها أبدا ستة ويخفى ستة والعرب تسمى أربعة عشر منزلا منها شامية وأربعة عشر يمانية فأول الشامية السرطان وآخرها السماء الأعزل وأول اليمانية الغفر وآخرها الرشا إذا طلع منها نزل من المشرق غاب رقبته من المغرب وهو الخامس عشر وبها تنقسم فصول السنة الأربع فلربيع منها الحمل والثور والجوزاء ومنازلها الشرطين والبطين والثريا والدبران والبقعة والهنعة والذراع وللصيف منها السرطان والأسد والسنبلة ومنازلها الثرة والطرف والجمبة والزبرة والصرقة والعواء والسمك وللخريف منها الميزان والعقرب والقوس ومنازلها الغفر والزبان والأكليل والقلب والشولة والتعائم والبلدة والشتاء منها الجدى والدلو والحوت ومنازلها سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعد وسعد الأخبية والفرع المقدم ويسمى الأول والفرع المؤخر ويسمى الثانى والرشا ولما كان زول القمر فى هذه المنازل معلوما بالعيان والمشاهدة ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية قال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل) وقال تعالى (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه

بأنها النجوم تفسير المنجمين ومن سلك سبيلهم وأما وصفه تعالى بعض الأيام بأنها أيام نحس كقوله (فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات) فلا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياماً نحسات عليهم لأن النحس أصابهم فيها وإن كانت أيام خير لا وليائه المؤمنين فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين وهذا كيوم القيامة فإنه عسير على الكافرين يوم نحس لهم يسير على المؤمنين يوم سعد لهم قال مجاهد أيام نحسات مشائيم وقال الضحاك معناه شديد أى شديد البرد حتى كان البرد عذاباً لهم قال أبو علي وأنشد الأصمعي في النحس بمعنى البرد .

كان سلافة عرضت بنحس يحيل شفيفها الماء الزلالا
وقال ابن عباس نحسات متابعات وكذلك قوله (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر) وكان اليوم نحسا عليهم لإرسال العذاب عليهم أى لا يقطع عنهم كما تطلع مصائب الدنيا عن أهلها بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين للرسل ومستمر صفة للنحس لا لليوم ومن ظن أنه صفة لليوم وأنه كان يوم أربعاء آخر الشهر وأن هذا اليوم نحس أبداً فقد غلط واخطأ فهم القرآن فإن اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه وكلمة الله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم وإن كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه كما يقع ذلك في غيره من الأيام فسهود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين فالللكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحساً على العالم فأما أن يقتضى الكوكب كونه نحساً لطائفة سعداً لطائفة فهذا هو المحال .

فصل

وأما الاستدلال بالآيات الدالة على أن الله سبحانه وضع حركات هذه الأجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم بقوله (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق ذلك إلا بالحق) وقوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقرا منيراً) الآية فمن أطرف الاستدلال فإين فى هذه الآيات ما يدل على ما يدعيه المنجمون من كذبهم وبهتانهم وإفترانهم ولو كان الأمر كما يدعيه هؤلاء الكذابون لكانت الدلالة والعبرة فيه أعظم من مجرد الضياء والنور والحساب ولكان الأليق ذكر ما تقتضيه من السعد والنحس وتعطيه من السعادة والشقاوة وتبهم من

عليه لأن مفسر الضمير يكتفى فيه بذلك وهو من أنواع البلاغة والايجاز فان كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية وان كان المراد الكواكب وهو قول الأكثرين فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والابداع فانه لا ينبغي أن تكون الإلهية إلا له وحده كما انه وحده المتفرد بخلقها وابداعها وما تضمنته من الآيات والعجائب فالإقسام بها أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والذهرية ونوعى المعطلة كما تقدم وكذلك قوله والنجم الثاقب على أن فيه قولين آخرين غير القول الذى ذكره . . أحدهما انه الثريا وهذا قول ابن زيد حكاه عنه أبو الفرج بن الجوزى وعنه رواية ثانية انه زحل - حكاهما عنه ابن عطية . . والثانى انه الجدى حكاه ابن عطية عن ابن عباس وقول آخر حكاه أبو الفرج بن الجوزى عن على بن أحمد النيسابورى أنه جنس النجوم وأما قوله تعالى (فالمدبرات أمراً) فلم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا العلماء بانفسير انها النجوم وهذه الروايات عنهم فقال ابن عباس هي الملائكة قال عطاء وكلت بأمر عرفهم الله العمل بها وقال عبد الرحمن بن سابط يدبر أمور الدنيا أربعة جبريل وهو موكل بالوحى والجنود وميكائيل وهو موكل بالقطر والنبات وملك الموت وهو موكل بقبض الأنفس واسرافيل وهو ينزل بالأمر عليهم وقيل جبريل للوحى واسرافيل للصور وقال ابن قتيبة فالمدبرات أمراً الملائكة تنزل بالحلل والحرام ولم يذكر المتوسعون فى نقل أقوال المفسرين كابن الجوزى والماوردى وابن عطية غير الملائكة حتى قال ابن عطية ولا أحفظ خلافاً انها الملائكة هذا مع توسعه فى النقل وزيادته فيه على أبى الفرج وغيره حتى انه لينفرد بأقوال لا يحكيها غيره فتفسير المدبرات بالنجوم كذب على الله وعلى المفسرين وكذلك المقسمات أمراً لم يقل أحد من أهل التفسير العالمين به انها النجوم بل قالوا هي الملائكة التى تقسم أمر الملكوت باذن ربها من الأرزاق والآجال والخلق فى الأرحام وأمر الرياح والجمال قال ابن عطية لأن كل هذا إنما هو بملائكة تخدمه فالآية تتضمن جميع الملائكة لأنهم كلهم فى أمور مختلفة قال أبو الطيفيل عامر بن وائلة كان على بن ابى طالب علم المنبر فقال لا تسألون عن آية من كتاب الله وسنة ماضية إلا قلت لكم فقام إليه ابن الكواء فسأله عن الذاريات ذرواً فالحملات وقرأ فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً فقال الذاريات الرياح والحاملات السحاب والجاريات السفن والمقسمات الملائكة ثم قال سل سؤال تعلم ولا تسأل سؤال تعنت وكذلك قال أبو الفرج ولم يذكر فيه خلافاً فى المقسمات أمراً يعنى الملائكة تقسم الأمور على ما أمر الله به قال ابن السائب المقسمات أربعة جبريل وهو صاحب الوحى والغلبة يعنى العقوبة على أعداء الرسل وميكائيل وهو صاحب الرزق والرحمة وإسرافيل وهو صاحب الصور والوح وعزرائيل وهو قابض الأرواح فتفسير الآية (١٣ - مفتاح ٢)

ذلك منها وعائنه وتلك الروحانية هي الشياطين تنزلت عليهم وخاطبتهم وقضت حوائجهم ثم لما رام هذا الفعل من تستر منهم بالإسلام ولم يمكنه أن يبني لها بيتا يعبد فيها كتب لها دعوات وتبسيحات وأذكاراً سماها هياكل ثم من اشتد تستره وخوفه أخرجها في قالب حروف وكلمات لا تفهم لئلا يبادر إنكارها وردّها ومن لم يخف منهم صرح بتلك الدعوات والتبسيحات والأذكار بلسان من يخاطبه بالفارسية والعربية وغيرها فلما أنكر عليه أهل الإيمان قال إنما ذكرت هذا معرفة لهذا العلم وإحاطة به لا اعتقاداً له ولا ترغيباً فيه وقد وصف ذلك العلم وقرره أتم تقرير وحمله هدية إلى ملكه فأنا به عليه جملة من الذهب يقال انه ألف دينار وصار ذلك الكتاب إماماً لأهل هذا الفن اليه يلجئون وعليه يعولون وبه يحتجون ويقولون شهرة مصنفه وجلالته وعلمه وفضله لا تنكر ولا تجحد وفي هذا الكتاب من مخاطبة الشمس والقمر والكواكب بالمخاطبات التي لا يليق إلا بالله عز وجل ولا ينبغي لأحد سواه ومن الخضوع والذل والعبادة التي لم يكن عباد الأصنام يبلغونها من آلهتهم فبالله أتجمل قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس) دليلاً على هذا ومقدمة له في أول الكتاب فان كان الإقسام بها دليلاً على تأثيراتها في العالم كما يقولون فينبغي أن يكون سائر ما أقسم به كذلك وان لم يكن القسم دليلاً بطل الاستدلال به وأما قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) ففيها قولان . . أحدهما أنها النجوم المعروفة وعلى هذا ففي مواقعها أقوال أحدها انه إنكسارها وانتشارها يوم القيامة وهذا قول الحسن والمنجمون يكذبون بهذا ولا يقرون به . . والثاني مواقعها منازلها قاله عطاء وقتادة . . والثالث انه مغاربها . . والرابع انه مواقعها عند طلوعها وغروبها حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة . . والخامس أن مواقعها مواضعها من السماء وهذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة حكاه ابن عطية عنه فيحتمل أن يكونا واحداً وأن يكونا قولين . . السادس أن مواقعها انقضاءها أثر العفريت وقت الرجوم حكاه ابن عطية أيضاً ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأول . . والقول الثاني أن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة قال ابن عطية ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله (انه لقرآن كريم في كتاب مكنون) وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل ومن لا يتأول هذا التأويل يقول إن الضمير يعود على القرآن وان لم يتقدم ذكره لشهرة الأمر ووضوح المعنى كقوله تعالى حتى توارت بالحجاب وكل من عليها فان وغير ذلك قلت ويؤيد القول الأول انه أعاد الضمير بلفظ الأفراد والتذكير ومواقع النجوم جميع فلو كان الضمير عائداً عليها لقال انها لقرآن كريم إلا أن يقال مواقع النجوم دل على القرآن فأعاد الضمير

مستقيمة تعطيلها عن صانعها أو تعطيل صانعها عن نعوت جلاله وأوصاف كاله وعن أفعاله فأقسامه بها أكبر دليل على فساد قول نوعي المعطلة والمشركين الذين جعلوها آلهة تعبد مع دلائل الحدوث والعبودية والتسخير والافتقار عليها وأنهم أدلة على بارئها وفاطرها وعلى وحدانيته وأنه لا تنبغي الربوبية والإلهية لها بوجه ما بل لا تنبغي إلا لمن فطرها وبرأها كما قال القائل :

تأمل سطور الكائنات فإنها إلى الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألاكل شيء ما خلا الله باطل
وقال آخر :

فوا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده جاحد
ولله في كل تحريك وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلم يكن لإقسامه بها سبحانه مقررأ بذلك علم الأحكام النجومية كما يقوله الكاذبون المفترون بل مقررأ الكمالات ربوبيته ووحدانيته وتفرد بالخلق والابداع وكمال حكمته وعلمه وعظمته وهذا نظير لإخباره سبحانه عن خلقها وعن حكمة خالقها بقوله (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) وقوله (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) وقوله (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) وقوله (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقوله (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وهؤلاء المشركون يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيما يسجدون لها ويتذللون لها ويسبحونها تسابيح معروفة في كتبهم ودعوات لا ينبغي أن يدعى بها إلا خالقها وفاطرها وحده . . ويقول بعضهم في كتاب مصحف الشمس مصحف القمر مصحف زحل مصحف عطارد وبعضهم يقول تسبيحة الشمس تسبيحة القمر تسبيحة عطارد تسبيحة زحل ولا يتحاشى من ذلك وبعضهم يقول دعوة الشمس دعوة القمر دعوة عطارد دعوة زحل وبعضهم يقول هيكل الشمس والقمر وعطارد وأصله أن الهيكل هو البيت المبنى للعبادة وكان الصابئون يبنون لكل كوكب من هذه الكواكب هيكلًا ويصرون فيه ذلك الكوكب ويتخذونه لعبادته وتعظيمه ودعائه ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم فتخططهم وتغضي حوائجهم وشاهدوا

رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وبين ما يعلم بالاضطرار أنه خطأ في تأويل كلام الله ومعرفة مراده ولا يروج ما ذكره إلا على مفرط في الجهل بدين الرسل وما جاؤوا به أو مقلد لأهل الباطل والمحال من المنجمين وأفأويلهم فإن جمع بين الأمرين شرب كلامه شرباً ونحن بحمد الله وموعنته وتأيدته نبين بطلان استدلاله واحتجاجه فنقول أما الاستدلال بقوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس فإن أكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى وهذا القول قد قاله جماعة من المفسرين وأنها الكواكب الخمسة زحل وعطارد والمشتري والمريخ والزهرة وروى عن علي واختاره ابن مقاتل وابن قتيبة قالوا وسماها خنسا لأنها في سيرها تتقدم إلى جهة المشرق ثم تخنس أي تتأخر وكنوسها إستنارها في مغربها كما تسكنس الظباء وتغر من الوحوش إلى أن تأوى إلى كناسها وهي أكنستها وتسمى هذه الكواكب المتحيرة لأنها تسير مستقيمة وتسير راجعة وقيل كنوسها بالنسبة إلى الناظر وهو إستنارها تحت شعاع الشمس وقيل هي النجوم كلها وهو اختيار أبي عبيدة وقال الحسن وقتادة وعلى هذا القول فيكون باعتبار أحوالها الثلاثة من طلوعها وغروبها وما بينهما فهي خنس عند أول الطلوع لأن النجم منها يرى كأنه يبدو ويخنس وتسكنس عند غروبها تشبهاً بالظباء التي تأوى إلى كناسها وهي جوار ما بين طلوعها وغروبها خنس عند الطلوع جوار بعده كنس عند الغروب وهذا كله بالنسبة إلى أفق كل بلد تسكون لها فيه الأحوال الثلاثة وقال عبد الله بن مسعود هي بقر الوحش وهي رواية عن ابن عباس واختاره سعيد بن جبير وقيل وهو أضعف الأقوال الملائكة حكاه المروزي في تفسيره فإن كان المراد بعض هذه الأقوال غير ما حكاه الرازي فلا حجة له وإن كان المراد ما حكاه فغايتة أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أقسم بها كما أقسم بالليل والنهار والضحى والوالد والفجر وليال عشر والشفع والوتر والسماء والأرض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والنفس والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات وما نصره وما لا نصره من كل غائب عما وحاضره بما فيه التنبيه على كمال ربوبيته وعزته وحكمته وقدرته وتدبيره وتنوع مخلوقاته الدالة عليه المرشدة إليه بما تضمنته من عجائب الصنعة وبديع الخلقة وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له وأنه الكامل في علمه وقدرته ومشيته وحكمته وربوبيته ومملكته وأنها مسخرة مذلة منقادة لأمره مطيعة لمراده منها في الإقسام بها تعظيم لخالقها تبارك وتعالى وتنزيهه له عما نسب إليه أعداؤه الجاحدون المعطلون لربوبيته وقدرته ومشيته ووحدانيته وإن من هذه عبيده وعماليكه وخلقه وصنعه وإبداعه فكيف يتجحد ربوبيته وإلهيته وكيف تذكر صفات كماله ونعوت جلاله وكيف يسوغ لذى حس سليم وفطرة

في معرفة المصالح ولو كان هذا العلم فاسدا بالكلية لاستحال أطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه . . وقال بطليموس في بعض كتبه بعض الناس يعيبون هذا العلم وذلك العيب إنما حصل من وجوه . . الأول عجزهم عن معرفة حقيقة موضع الكواكب بدقتها ومراتبها وذلك أن الآلات الرصدية لا تنفك عن مساعدات لا يفي بضبطها الحس لأجل قلتها في الآلات الرصدية لكنها وإن قلت هذه الآلات إلا أنها في الأجرام الفلكية كثيرة فإذا تباعدت الأرصاد حصل بسبب تلك المساعدات تفاوت عظيم في مواضع الكواكب . . الثاني أن هذا العلم علم مبنى على معرفة الدلائل الفلكية وتلك الدلائل لا تحصل إلا بتمزيجات أحوال الكواكب وهي كثيرة جدا ثم أنها مع كثرتها قد تكون متعارضة ولا بد فيها من الترجيح وحينئذ يصعب على أكثر الأفهام الإحاطة بتلك التزيجات الكثيرة وبعد الإحاطة بها فإنه يصعب الترجيحات الجيدة فلهذا السبب لا يتفق من يحيط بهذا العلم كما ينبغي إلا الفرد بعد الفرد ثم أن الجهال يظهرون من أنفسهم كونهم عارفين بهذا العلم فإذا حكموا وأخطوا ظن الناس أن ذلك بسبب أن هذا العلم ضعيف . . الثالث أن هذا العلم لا يفي بإدراك الجزئيات على وجه التفصيل الباهر فن حكم على هذا الوجه فقد يقع في الخطأ فل هذه الأسباب الثلاثة توجهت المطاعن إلى هذا العلم وحكي أن الأكاسرة كان إذا أراد أحدهم طلب الولد أمر بإحضار المنجم ثم كان ذلك الملك يخلو بامرأته فساعة ما يقع الماء في الرحم يأمر خادما على الباب بضرب طستا يكون في يده فإذا سمع المنجم طنين الطاست أخذ الطالع وحكم عليه حتى يخبر بعدد الساعات التي يمسيك في بطن أمه ثم أنه كان يأخذ الطالع أيضا عند الولادة مرة أخرى ويحكم فلاجرم كانت أحكامهم كاملة قوية لأن الطالع الحقيقي هو طالع مسقط النطفة فإن حدوث الولد إنما يكون في ذلك الوقت فأما طالع الولادة فهو طالع مستعار لأن الولد لا يحدث في ذلك الوقت وإنما ينتقل من مكان إلى مكان آخر وروى أن في عهد أردشير بن بابك أنه قال في العهد الذي كتبه لولده لولا اليقين بالبوار الذي على رأس ألف سنة لسمكت أكتب لكم كتابا إن تمسكتم به إن تضلوا أبدا وعنى بالبوار ما أخبره المنجمون من أنه يزول ملكهم عند رأس ألف سنة من ملك كستاسم والمراد منه زوال دواتهم وظهور دولة الإسلام وروى أنه دخل المفضل ابن سهل على المأمون في اليوم الذي قتل فيه وأخبره أنه يقتل في هذا اليوم بين الماء والنار وأنهكر المأمون ذلك عليه وقوى قلبه ثم اتفق أنه دخل الحمام فقتل في الحمام وكان الأمر كما أخبر ثم قال واعلم أن التجارب في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية . . قلت فهذا أقصى ما قرره الرازي كلام هؤلاء ومذهبهم ولقد نثر الكنانة ونفض الجعبة واستفرغ الوسع وبذل الجهد وروح وبهرج وقعقع وفرقع وجميع ولا ترى طحنا وجمع بين ما يعلم بالاضطرار أنه كذب على

الله عليه وسلم انه نهى عند قضاء الحاجة عن استقبال الشمس والقمر واستدراهما ومنها انه لما مات ولده ابراهيم انكسفت الشمس ثم إن الناس قالوا انما انكسفت لموت ابراهيم فقال ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة ومنها ما روى ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا ومن الناس من يروى انه صلى الله عليه وسلم قال لا تسافروا والقمر في العقرب ومنهم من يروى ذلك عن علي رضي الله عنه وان كان المحدثون لا يقبلونه . . وأما الآثار فكثيرة منها أن رجلا أتاه فقال له اني أريد الخروج في تجارة وكان ذلك في محاق الشهر فقال تريد أن يمحى الله تجارتك استقبل هلال الشهر بالخروج وعن عكرمة أن يهوديا منجما قال له ابن عباس ويحك تخبر الناس بما لا تدري فقال اليهودي ان لك ابنا وهو في المكتب ويحى غدا محموم ويموت في اليوم العاشر منه قال ابن العباس ومتى تموت أنت قال في رأس السنة ثم قال لابن عباس قال لآتموت أنت حتى تعمى ثم جاء ابن ابن عباس وهو محموم ومات في العاشر ومات اليهودي في رأس السنة ولم يمت ابن عباس رضي الله عنه حتى ذهب بصره وعن الشعبي رضي الله عنه قال قال أبو الدرداء والله لقد فارقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا ولا طائر يطير بجناحيه إلا ونحن ندعى فيه علما وليست السكواكب موكلة بالفساد والصالح والمكن فيها دليل بعض الحوادث عرف ذلك بالتجربة وجاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل البيت وتفرقوا عنه في الأرض وكان يغتم لحفاء خبرهم عليه فأكرمه الله تعالى بهذا العلم وكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب فيقف على حاله وعن ميمون بن مهران أنه قال إياكم والتكذيب بالنجوم فإنه علم من علم النبوة عنه أيضا أنه قال ثلاث ارفضوهن لاتنازعوا أهل القدر ولا تذكروا أصحاب نبيكم إلا بخير وإياكم والتكذيب بالنجوم فإنه من علم النبوة وروى أن الشافعي كان عالما بالنجوم وجاء لبعض جيرانه ولد فحسب له الشافعي أن هذا الولد ينبغي أن يكون على العضو الغلافي منه خال صفته كذا وكذا فوجد الأمر كما قال وأيضا أنه تعالى حكى عن فرعون أنه كان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحي نساءهم والمفسرون قالوا إن ذلك إنما كان لأن المنجمين أخبروه بأنه سيجي ولد من بني إسرائيل ويكون هلاكة على يده وهذه الرواية ذكرها محمد بن اسحاق وغيره وهذا يدل على اعتراف الناس قديما وحديثا بعلم النجوم . . وأما المعقول فهو أن هذا علم ما خلقت عنه ملة من الملل ولا أمة من الأمم ولا يعرف تاريخ من التواريخ القديمة والحديثة إلا وكان أهل ذلك الزمان مشغولين بهذا العلم ومهولين عليه

الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لأن كونها دالة على الافتقار إلى الصانع أمر ثابت لها لذاتها لأن كل متحيز فهو محدث وكل محدث فانه مفتقر إلى الفاعل فثبت أن دلالة التحيزات على وجود الفاعل أمر ثابت لها لذواتها وأعيانها وما كان كذلك لم يكن سبب الفعل والجملة فلم يمكن حمل قوله (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) على هذا الوجه فوجب حمله على الوجه الذي ذكرناه : النوع السادس روى أن عمر بن الخطاب كان يقرأ كتاب المجسطى على استاذة فدخل عليهم واحد من أجلاف المتفقهة فقال لهم ماذا تقرأون فقال عمر بن الخطاب نحن في تفسير آية من كتاب الله (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) فنحن ننظر كيف خلق السماء وكيف بناها وكيف صانها عن الفروج : النوع السابع أن إبراهيم عليه السلام لما استدلل على اثبات الصانع تعالى بقوله (ربى الذى يحى ويميت) قال له نمرود أتدعى انه يحيى ويميت بواسطة الطبائع والعناصر أو لا بواسطة هذه الأشياء فان ادعيت الأول فلذلك بما لا تجده البتة لأن كل ما يحدث فى هذا العالم فانما يحدث بواسطة أحوال العناصر الأربعة والحركات الفلكية وإذا ادعيت الثانى فمثل هذا الإحياء والإماتة حاصل منى ومن كل أحد فان الرجل قد يكون سببا لحدوث الولد لكن بواسطة تمزيج الطبائع وتحريك الاجرام الفلكية ولذلك قد نمت بهذه الوسائط وهذا هو المراد من قوله تعالى حكاية عن الخصم أنا أحى وأميت ثم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أجاب عن هذا السؤال بقوله فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب يعنى هب أنه سبحانه انما يحدث حوادث هذا العالم بواسطة الحركات الفلكية لكنه تعالى هو المبدى للحركات الفلكية لأن تلك الحركات لا بد لها من سبب ولا سبب لها سوى قدرة الله تعالى فثبت أن حوادث هذا العالم وان سلمنا أنها انما حصلت بواسطة الحركات الفلكية لكنه لما كان المدبر لتلك الحركات الفلكية هو الله تعالى كان الكل منه بخلاف الواحد منا فاننا وان قدرنا على الإحياء والإماتة بواسطة الطبائع وحركات الأفلاك الا أن حركات الأفلاك ليست منا بدليل أنا لا نقدر على على تحريكها على خلاف التحريك الإلهى وظهر الفرق وهذا هو المراد من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب يعنى هب أن هذه الحوادث فى هذا العالم حصلت بحركة الشمس من المشرق إلا أن هذه الحركات من الله لأن كل جسم متحرك فلا بد له من محرك وذلك المحرك لست أنت ولا أنا فلم لانحركها من المغرب فثبت أن اعتماد إبراهيم الخليل عليه السلام فى معرفة ثبوت الصانع على الدلائل الفلكية وانه مانازع الخصم فى كون هذه الحوادث السفلية مرتبطة بالحركات الفلكية واعلم انك إذا عرفت نهج الكلام فى هذا الباب علمت أن القرآن مملوء من تعظيم الاجرام الفلكية وتشريف الكرات الكوكبية : وأما الأخبار فكثيرة منها ما روى عن النبي صلى

الأصنام وليس يحتاج أحد إلى معرفة أصحح هو أم سقيم من النجوم لأن ذلك يوجد حساً ويعلم ضرورة ولا يحتاج فيه إلى استدلال وبحث . . قلت قد احتج لهم بغير هذه الحجج فنذكرها ونبين بطلان استدلالهم بها وبينان الباطل منها . . قال أبو عبد الله الرازي اعلم أن المثبتين لهذا العلم احتجوا من كتاب الله بآيات . . احداها الآيات الدالة على تعظيم هذه الكواكب فمنها قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس) وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى ومنها قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) ولأنه لقسم لو تعلمون عظيم) وقد صرح تعالى بتعظيم هذا القسم وذلك يدل على غاية جلاله مواقع النجوم ونهاية شرفها ومنها قوله تعالى (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) قال ابن عباس الثاقب هو زحل لأنه يشقب بنوره سمك السموات السبع ومنها أنه تعالى بين إضيقته بكون هذه الكواكب تحت تدبيره وتسخيرها فقال (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) . . النوع الثاني الآيات الدالة على أن لها تأثيراً في هذا العالم كقوله تعالى (فالمدبرات أمراً) وقوله (فالملقحات أمراً) قال بعضهم المراد هذه الكواكب . . النوع الثالث الآيات الدالة على أنه تعالى وضع حركات هذه الاجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم فقال (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق) وقال (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) . . النوع الرابع انه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام انه تمسك بعلوم النجوم فقال (فظننظر نفرة فى النجوم فقال لى سقيم) . . النوع الخامس انه قال (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولا يكون المراد من هذا كبر الجثة لأن كل أحد يعلم ذلك فوجب أن يكون المراد كبر القدر والشرف وقال تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً) ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لأن هذا القدر حاصل فى تركيب البقرة والبموضة وفى حصول الحياة فى بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الاجرام الفلكية على وجود الصانع لأن الحياة لا يقدر عليها أحد إلا الله أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله فلما كان هذا النوع من الحكمة حاصل فى غير الافلاك ثم انه تعالى خصها بهذا التشريف وهو قوله (ربنا ما خلقت هذا باطلاً) علمنا أن له تعالى فى تخليقها أسراراً عالية وحكما بالغة تنقاصر عقول البشر عن إدراكها ويقرب من هذه الآية قوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ولا يمكن أن يكون المراد انه تعالى خلقها على وجه يمكن

الطالع ومدبر الفلك وما حواه ومسخر الكواكب ومجريها على ما يشاء سبحانه أن جعلكم كالذمة بل أذل منهم تحت قهر عبيده وجعل سهام سعادتهم من كل خير وعلم ورياسة وجاه أوفر من سهامكم وبيوت شرفهم في هذا العالم أعمر من بيوتكم بل خرب بيوتكم بأيديهم فلا ينعمر منها بيت إلا بالانضمام إليهم والانتفاء إلى شريعتهم وملةهم وهذا شأن العزيز الحكيم في الكذابين عليه قال تعالى (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) قال أبو قلابة هي لكل مفتر من هذه الأمة يوم القيامة وهذه المحاورة التي جرت بين أصحاب هذا المجمع هي غاية ما يمكن النجوى أن يقوله ولا يصل إلى ذلك المبرزون منهم ومع هذا فقد رأيت حاصلها ومضمونها ولعلمهم لو علموا أن هذه الكلمات تعتمد من جماعتهم وتتصل بأهل الإيمان لم ينطقوا منها ببنت شفة ويأبى الله إلا أن يفضح المفترى الكذاب وينطقه بما يبين باطله .

فصل

قال صاحب الرسالة ذكر جمل من احتجاجهم والاحتجاج عليهم من أوكد ما يستدلون به على أن الكواكب تفعل في هذا العالم أولها دلالة على ما يحدث فيه أنهم امتحنوا عدة مواليد صححوا طوالها وجماعة مسائل راعوها فوجدوا القضية في جميع ذلك صادقة فدلهم ذلك على أن الأصول التي عملوا عليها صحيحة فيقال لهم إذا كان ما ندعونه من هذا دليلا على صحة الأحكام فما الفضل بينكم وبين من قال الدليل على بطلان الأحكام أن امتحنوا مواليد صححنا طوالها ومسائل تفقدنا أحوالها فوجدنا جميعها باطلا ولم يصح الحكم في شيء منها . . فان قالوا إنما يكون هذا لجواز الغلط على المنجم الذي عملها . . قيل لكم فما تنكرون من أن يكون صدق المنجم في حكمه باتفاق وتخمين كالخراج الزوج والفرد وصدق الحزر في الوزن والكيل والذرع والعدد وإذا كانت الدلالة على صحة مقالتهكم صدقكم في بعض أحكامكم فالدلالة على بطلانها كذبكم في بعضها . . فان قالوا ليس ما قلناه بتخمين لانا إنما نحكمكم بالدلالة على بطلانها كذبكم في بعضها . . قيل لهم لسننا نشك في أنكم تتبعون ما في الكتب وتقلدون من تقدمكم وما يقع من الصدق فإنما يقع بحسب الاتفاق والذي حصلتم عليه هو الحدس والتخمين بحسب ما في الكتب . . وما يستدل به من ينسب إلى الإسلام منهم على تصحيح دلالة النجوم قوله تعالى (فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم) ولا حجة في هذا البتة لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما قال هذا ليدفع به قومه عن نفسه ألا ترى أنه عز وجل قال بعد (فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون) فبين تبارك وتعالى أنه إنما قال ذلك ليدفعهم به لما كان عزم عليه من أمر

في الجبل أو ناقص العقل والدين وهؤلاء المذكورون في هذه المحاور لما صحوا واخلأ بعضهم ببعض ولم يمكنهم أن يعتمدوا من التلبس والكذب والزرق مع بعضهم بعضا ما يعتمدونه مع غيرهم تكلموا بما عندهم في ذلك من الاعتراف بالجهل وأن الأمر إنما هو حدس وظن وزرق وأن أحوال العالم العلوى أجل وأعظم من أن تدخل تحت معارفهم وتكال بقفز ان عقولهم وأن جهلهم بذلك يوجب ولا بد جهلهم بالاحكام وأنهم لا وثوق لهم بشئ مما فيه لجواز تشكل الفلك بشكل يقتضى بطلان جميع الأحكام وتشكله بشكل يكون بطلانها وصحتها بالنسبة إليه على السواء وليس لهم علم بانتفاء هذا الشكل ولا بوقت حصوله فإنه ليس جاريا على قانون مضبوط ولا على حساب معروف ومع هذا فكيف ينبغي لعاقل الوثوق بشئ من علم أحكامهم وهذه شهادة فضلائهم وأئمتهم ولو أن خصومهم الذين لا يشاركونهم في صناعتهم قالوا هذا القول لم يكن مقبولا كقبوله منهم والحمد لله الذى أشهد أهل العلم والإيمان جهل هؤلاء وحيرتهم وضلالهم وكذبهم وافترتهم بشهادتهم على نفوسهم وعلى صناعاتهم وإن استفاد كل ذى علم بعمله وكل ذى صناعة بصناعته أعظم من استفادتهم بعلمهم وأن أحدا منهم لا يمكنه أن يعيش إلا في كنف من لم يحط من هذا العلم بشئ. وتحت ظل من هو أجمل الناس ومن العجب قوتهم أن طالع أحد المملكين المتغالبين قد يكون مقتضيا أن لا يصيب منجمه في تلك الحرب وطالع المنجم يقتضى خطأه في ذلك الحكم وطالع خصمه ومنجمه بالصد فليعجب ذى اللب من هذا الهذيان وتهافته فإذا كان الطالع مقتضيا أن لا يصيب المنجم في تلك الحرب وقد أعطى الحساب والحكم حقه عند أرباب الفن بحيث يشهد كل واحد منهم أن الحكم ماحكم به أفليس هذا من أبين الدلائل على بطلان الوثوق بالطالع وأن الحكم به حكم بغير علم وحكم بما يجوز كذبه فما في الوجود أعجب من هذا الطالع الصادق الكاذب المصيب الخطيء. وأعجب من هذا أن الطالع بعينه يكون قد حكم به لظفر عدو هذا عليه منجمه فوافق القضاء والقدر ذلك الطالع وذلك الحكم فيكون أحد المنجمين قد أصاب للملك طالعا وحكما والآخر قد أخطأ للملك وقد خرجا بطالع واحد وأعجب من هذا كله تشكل الفلك بشكل وحصول طالع سعد فيه باتفاق ملاكم فيحدث معه من علو كبة من لا يعبؤون به ولا يعدونه وظهور أمرهم واستيلائهم على المملكة والرئاسة والعز والحياة ولهجومهم بدمكم وعيبكم وإبداء جهلكم وزندقتكم وإلحادكم محتاجون أن تنضوا إليهم وتعتصموا بجهلهم وتترسوا بهم وتقولون لهم بالسنتكم ما تنطوى قلوبكم على خلافه مما لو أظهرتموه أكنتم حصائد سيوفهم كما صرتم حصائد أسنتهم فأى سعد في هذا الطالع لعمري أم أى خير فيه وليت شعري كيف لم يوجب لكم هذا الطالع بارقة من سعادة أو لانحأ من عز وقبول ولكن هذه حكمه رب

لأنها بشرية صارت إلهية وجسمية استحالت روحانية وطينية انقلبت نورية ومركب عاد
بسيط وجزء استحال كلا وهذا أمر قلما يهتدى إليه ويتنبه عليه . . وقال آخر وهو أبو سلمان
المنظمتي وقد سأله أبو حيان تليذه عن هذه الأجوبة وما فيها من حق وباطل أن ههنا أنفسنا
خبثثة وعقولاً ردية ومعارف خسيسة لا يجوز لأربابها أن ينشقوا ريح الحكمة أو يتناولوا
إلى غرائب الفلسفة والنهى ورد من أجلهم وهو حق فأما النفوس التى قوتها الحكمة وبلغتها
العلم وعدتها الفضائل وعقدتها الحقائق وذخرها الخيرات وعاداتها المسكارم ومهمتها المعالى
فإن النهى لم يوجه إليها والعقب لم يوقع عليها وكيف يكون ذلك وقد بان بما تكرر من القول
أن فائدة هذا العلم أجل غائدة وثمرته أجل ثمرة ونتيجته أشرف نتيجة فليكن هذا كله كافا
عن سوء الظن وكافيا لك فيما وقع فيه القول وطال بين هؤلاء السادة الجاهجة فى العلم
والفهم والبيان والنصح انتهت الحكاية فليتأمل من أنعم الله عليه بالعقل والعلم والإيمان
وصانه عن تقليد هؤلاء وأمثالهم من أهل الحيرة والضلال ما فى هذه المحاورة وما انطوت
عليه من اعترافهم بغاية علمهم ومستقر أقدامهم فيه وما حكموا به على أنفسهم من مقتضى
حكمة الله فيهم أن يسلمهم ثمرات علوم الناس وقوائدها وأن يكسوهم لباس الخيبة وقهر الناس
لهم وإذلالهم لإياهم وأن يجعل نصيب كل أحد من العلم والسعادة فوق نصيبهم وأن يجعل
رزقهم من أبواب الكذب والظن والزرق وهو أخبث مكاسب العالم ومكسب البقايا وأرباب
المواخير خير من مكاسب هؤلاء لأنهم كسبوها بذنوب وشهوات وهؤلاء اكتسبوا
ما اكتسبوه بالكذب على الله وادعاء ما يعلمون هم فيه كذب أنفسهم . . والعجب من
شهادتهم على أنفسهم أن حكمة الله سبحانه اقتضت ذلك فيهم لتعاطيهم مشاركته فى غيبه
والاطلاع على أسرار مملكته وتعميدهم طور العبودية التى هى سمتهم إلى طور الربوبية الذى
لم يجعل لأحد سبيلا إليه فاقتضت حكمة العزيز الحكيم إن عاملهم بنقيض قصودهم وعكس
مراداتهم وجعل كل واحد فوقهم فى كل ملة ورعى الناس باللسان العام والخاص لهم بأنهم
أكذب الناس فإنهم هم الزنادقة الدهرية أعداء الرسل وسوس المال وأن طالعهم على من
حسن الظن بهم وتقييد بأحكامهم فى حركاته وسكناته وتديبره شر طالع والملك والولاية
المسوس بهم أذل ملك وأقله ومن له شيء من تجارب الأمم وأخبار الدول والوزراء وغيرهم
فَعنده من العلم بهذا ما ليس عند غيره ولهذا الملوك والخلفاء والوزراء الذين لهم قبول فى العالم
وضيت ولسان صدق هم أعداء هؤلاء الزنادقة كالمصور والرشيدي والمهدى وكخلفاء بنى أمية
وكل ملوك المؤمنين فى الإسلام قديما وحديثا كانوا أشد الناس إبعادا لهؤلاء عن أبوابهم ولم تقم
لهم سوق فى عهدهم إلا عند أشباههم ونظرائهم من كل منافق متستر بالإسلام أو جاهل مفرط

يثبت على كل وجه فصل ولم ين ذلك قال لأن صحتها وبطلانها يتعلقان بآثار الفلك وقد يقتضى شكل الفلك في زمان أن لا يصح منها شيء وأن غيصر على دقائقها وبلغ إلى أعماقها وقد يزول ذلك الشكل في وقت آخر إلى أن يكثر الصواب فيها والخطأ ويتقاربان ومتى وقف الأمر على هذا الحد لم يثبت على قضاء ولم يوثق بجواب .. وقال آخر أن الله تعالى وتقدس اخترع هذا العالم وزينه ورتبه وحسنه ووشحه ونظمه وهذبه وقومه وأظهر عليه البهجة وأبطن في أثنائه الحكمة وحقه بما اضطر العقول إلى تصفحه ومعرفة وحشاه بكل ما حاش النفوس إلى علمه وتعليمه والتعجب من أعاجيبه وأمتع الأرواح بمحاسنه وأودعه أمورا واستحزنه أسراراً ثم حرك الأبواب عليها حتى استشارتها ولقطتها وأحببها وعشقتها ودارت عليها لأنها عرفت بها ربها وخلقتها وإلهها وواضعها وصانعها وحافظها وكافلها ثم أنه تعالى مزج بعض ما فيه ببعض وركب بعضه على بعض ونسج بعضه في بعض وأمد بعضه من بعض وأحال بعضه إلى بعض بوسائط من أشخاص وأجناس وطبائع وأنفس وعلوم وعقول وتصرف في ملكه بقدرته وجوده وحكمته لا معيب الفضل ولا معدوم الاختيار ولا مردود الحكمة ولا مجرود الذات ولا محدود الصفات سبحانه وهو مع هذا كله لم يستفد شيئاً ولم ينتفع بشيء بل استفاد منه كل شيء وانتفع به كل شيء وبلغ غايته كل شيء بحسب مادته المتقادة وصورته المعتادة ولم يثبت بشيء وثبت به كل شيء فهو الفاعل القادر الجواد الواهب والمنيل المفضل والاول السابق فلما كان الباحث عن العالم العلوى يتصفح سكانه ومعرفة آثاره ومواقفه وأسراره متعرضاً لأن يكون مثبتاً ما لبارئته مناسبا لربه بهذا الوجه المعروف استحال أن يستفيد بعلمه كما استحال أن يستفيد خالقه بفعله لمن يقصد لصوبه وحكمه لزمه كليته بدت منه وصفته عادت عليه وهذه حال إذا فطن لها وأشرف ببصيرة ناقبة عليها وتحقق بحقيقتها وترقى للخبرة بسنى ما فيها علم اضطراراً عقلياً أنها أجل وأعلى وأنفس وأسمى وأدوم وأبقى من جميع فوائد سابق العلوم التى حازها أولئك العاملون لأن علم أولئك فوائد علومهم فيما حفظ عليهم حد الإنسان وخلقه وعادته وخلقه وشهوته وراحته في اجتلاب نفع ودفع ضرر ونقصت رتبهم عن مشابته ومناسبته والتشبه بخاصته والتحلي بحليته ولذلك جبر الله نقصهم فى علمهم بفوائد نالوها ومنافع خبروها فأما من أراد معرفة هذه الخفايا والأسرار من هذه الاجرام والأنوار على ما هيأت له ونظمت عليه فهو حرى جدير أن يعرى من جميع ما وجده صاحب كل علم فى علمه من المرافق والمنافع ويفرد بالحكم من رتبها على ما هى عليه غير مستفيد بذلك فائدة ولا جدوى وهذه لطيفة شريفة متى وقف عليها حق الوقوف وتقبلت حق التقبل كان المدرك لها أجمل من كل فائت وإن عز

مربوطة بالفلسكيات عنها تحدث ومن جهتها تنبعث فإن في عرضها مالا يستحق أن ينسب إلى شيء منها إلا على وجه التقريب ومثال ذلك ملك له سلطان واسع ونعمة جمة فهو يفر دكل أحد بما هو لائق به وبما هو ناهض فيه فيولى بيت المال مثلاً خازناً أميناً كافياً شهماً يفرق على يده ويخرج على يده ثم إن هذا الملك قد يضع في هذه الخزانة شيئاً لا علم للخازن به وقد يخرج منها شيئاً لا يقف الخازن عليه ويكون هذا منه دليلاً على ماله واستبداده وتصرفه وقدرته . . وقال آخر لما كان صاحب علم النجوم يريد أن يقف على أحداث الزمان ومستقبل الوقت من خير وشر وخصب وجذب وسعادة ونحس ولالية وعزل ومقام وسفر وغم وفرح وفقر ويسار ومحبة وبغض وجدة وعدم ووجدان وعافية وسقم وإلقة وشتات وكساد ونفاق وإصابة وإخفاق وحياة ومات وهو إنسان ناقص في الأصل لأن نقصانه بالطبع وكاله بالعرض وجمع هذه الحال المحوطة بالنسخ المعروفة بالظن قد بارى بارئه ونازع ربه وتتبع غيبه وتحلل حكمه وعارض ماله فخرمه الله فائدة هذا العلم وحرفه عن الانتفاع به والاستثمار من شجرته وإضافه إلى من لا يحيط بشيء منه ولا يخل بشيء فيه ونظمه في باب القسر والقهر وجعل غاية سعيه فيه الخيبة ونهاية علمه به الخيرة وسلط عليه في صناعته الظن والحدس والحيلة والزرق والكذب والختل ولو شئت لذكرت لك من ذلك صدراً وهو مثبت في الكتب ومنشور في المجالس ومتداول بين الناس فلذلك وأشابهه حظ رتبته ورده على عقبيه ليعلم أنه لا يعلم إلا ما علم وأنه ليس له أن يتخطى بما علم على ما جهل فإن الله سبحانه لا شريك له في غيبه ولا وزير له في ربوبيته وأنه يؤنس بالعلم ليطاع ويعبد ويوحش بالجهل ليفزع إليه ويقصد عز ربنا وجل إلهاً وتقدير مشاراً إليه وتعالى معتمداً عليه . . وقال آخر وهو العروضي قد يقوى هذا العلم في بعض الدهر حتى يشغف به ويدان بتعلمه بقوة مساوية وشكل فلسفي فيكثر الاستنباط والبحث وتشتد العناية والفكر فتغلب الإصابة حتى يزول الخطأ وقد يضعف هذا العلم في بعض الدهر فيكثر الخطأ فيه بشكل آخر يقتضي ذلك حتى يسقط النظر فيه ويحرم البحث عنه ويكون الدين حاضر الطالب والحكم به وقد يعتدل الأمر في دهر آخر حتى يسكون الخطأ في قدر ذلك الصواب والصواب في قدر الخطأ وتكون الدواعي والصوارف متكافئة ويكون الدين لا يحث عليه كل الحث ولا يحظر على طالبه كل الحظر قال وهذا إذا صح تعلق الأمر كله بما يتصل بهذا العالم السفلي من ذلك العالم العلوي فإذا الصواب والخطأ محمولان على القوى المثبتة والأنوار الشائعة والآثار الذائنة والعلل الموجبة والأسباب المتوافية. وقال آخر وهو البوشنجاني أيها القوم اختصروا الكلام وقرّبوا البقية فإن الإطالة مصدرة عن الفائدة مضلة للفهم والفتنة هل تصح الأحكام . . فقال غلام زحل ليس عن هذا جواب

وخاصته في أهبة ذلك واعداد الآلة فإذا تكامل ذلك له أصبح للصيد وتقاب في البيداء وصمم على ما يلوح له وأمعن وراءه وركض خلفه جواده ونهى من معه أن يتبعه حتى إذا غل في تلك الفجاج الخاوية والمدارج المتناثية وتباعد عن متن الجادة ووضح المحجة صادف أنسانا فوقف وحاوره وفأوضه فوجده حصينا محصلا يتفدقهما فقال له أفيك خير فقال نعم وهل الخير إلا في وعندى وإلا معنى الق إلى ما بدالك وخلفي وذلك فقال له إن الواقف عليك المكلم لك منك هذا الإقليم فلا ترع وأهد أفتال السعادة قيصتني لك والجد أطلعك على فيقول له الملك أني أريد أن أطلعك لأرب في نفسي وأبلغ بك إن بلغت لى ذلك أريد أن تكون عينا لى وصاحبيا لى نصوحا وأطوى سرى عن سلخ فؤادك فضلا عن غيره فإذا بلغ منه التوثقة والتوكيد ألقى إليه ما يأمره به ويحثه على السعى فيه وأزاح عله في جميع ما يتعلق المراد به ثم ثنى عنان دابته إلى وجهه عسكره وأولياته والحق بهم فقضى وطره ثم عاد إلى سريرته وليس عند أحد من رهطه وبطانته وغاشيته وخاصته وعامته علم بما قد أسره إلى ذلك الإنسان فيبينما الناس على مكانهم وغفلاتهم إذ أصبحوا ذات يوم في حادث عظيم وخطب جسيم وشأن هائل فكل يقول ذلك عند ذلك ما أعجب هذا من فعل هذا متى تهيأ هذا هذا صاحب البريد ليس عنده منه أثر هذا صاحب المعوة وهو عن الخبر بمعزل وهذا الوزير الأكبر وهو متحير وهذا القاضي وهو متفكر وهذا حاجبه وهو ذاهل وكلهم عن الأمر الذى دهم غافل وقد قضى الملك مآربه وأدرك حاجته وطلب بغيته ونال غرضه فلذلك ينظر المنجم إلى زحل والمشتري والمريخ والشمس والقمر وعطارد والزهرة وإلى البروج وطبائعها والرأس والذنب وتقاطعها والهيلاج والسكامداه وإلى جميع مادانى هذا وقاربه وكان له فيه نتيجة وثمرة فيحسب ويمزج ويرسم فينقلب عليه أشياء كثيرة من سائر السكواكب التى لها حركات بطيئة وآثار مطوية فينبعث فيما أهمله وأغفله وأضرب عنه لم يتسع له ما يملك عليه حسه وعقله وفكره ورويته حتى لا يدري من أين أتى ومن أين دهمى وكيف انفرج عليه الأمر وأنسد دونه المطلب وفات المطلوب وعزب عنه الرأى هذا ولا خطأ له في الحساب ولا نقص في قصد الحق وهذا كى يلاذ بالله وحده في الأمور كلها ويعلم أنه مالك الدهور ومدير الخلاق وصاحب الدواعى والعلائق والقائم على كل نفس والحاضر عند كل نفس وأنه إذا شاء نفع وإذا شاء ضر وإذا شاء عافا وإذا شاء أسقم وإذا شاء أغنى وإذا شاء أفقر وإذا شاء أحميا وإذا شاء أمات وأنه كاشف الكربات مغيث ذوى اللهفات قاضى الحاجات مجيب الدعوات ليس فوق يده يد وهو الأحمد الصمد على الأبد والسرمد . وقال آخر هذه الأمور وإن كانت منورطة بهذه العلويات

وتوكلهم على الله هوأ ولعباً . . فقال آخر وهذا يتضح بمثال وليكن المثال أن ملكاً في زمانك
وبلاك واسع الملك عظيم الشأن بعيد الصيت سابغ الهيمية معروف بالحكمة مشهوراً بالحزم
يضع الخير في مواضعه ويوقع الشر في مواقعه عنده جزاء كل سيئة وثواب كل حسنة قد
رتب إريده أصلح الأولياء له وكذلك نصب لجباية أمواله أقوم الناس بها وكذلك ولى
عمارة أرضه أنهض الناس بها وشرف آخر بكتابتة وآخر بوزارته وآخر بنبأته فإذا نظرت
إلى ملكه وجدته مؤزراً بسداد الرأي ومحمود التدبير وأولياؤه حواليه وحاشيته بين يديه وكل
يخف إلى ما هو منوط به ويستقصى طاقته ويبدل فيه والملك يأمر وينهى ويصدر ويورد
ويشيب ويعاقب وقد علم صغير أوليائه وكبيرهم ووضع رعاياه وشريفهم ونبه الناس
وخاملهم أن الأمر الذى يتعلق بكذا وكذا صدر من الملك إلى كاتبه لأنه من جنس الكتابة
وعلاقتها وما يدخل في شرائطها ووثائقها والأمر الآخر صدر إلى صاحب بریده لأنه من
أحكام البريد وقنونه والأمر الآخر ألقى إلى صاحب المعونة لأنه من جنس ما هو مرتب
له منسوب من أجله والحديث الآخر صدر إلى القاضى لأنه من باب الدين والحكم والفصل
وكل هذا مسلم إلى الملك لا يفئات عليه فى شيء منه ولا يستبد بشيء منه فإلاحوال على هذا
كلها جارية على أصولها وقواعدها فى مجاريها لا يرد شيء منها إلى غير شكله ولا يرتقى
إلى غير طبقته فلو وقف رجل له من الحزم نصيب ومن اليقظة قسط على هذا الملك الجسم
وتصفح أبوابه باباً باباً وحالا حالا وتخلل بيتاً بيتاً ورفع سجفاً سجفاً لا يمكنه أن يعلم بما
يشمره له هذا النظر وميزه له هذا القياس وأوقعه عليه هذا الحدس ما سيفعله هذا الملك غداً
وما يتقدم به إلى شهر وما يكاد يكون منه إلى سنة وستين لأنه يعانى الاحوال ويقايس
بينها ويلتقط ألفاظ الملك ولحظاته وإشارات وحركاته ويقول فى بعضها رأيت الملك يفعل
كذا وكذا ويفعل كذا وكذا وهذا يدل على كذا وكذا وإنما جراه هذه الجرأة على هذا الحكم
والبت أنه قد ملك لحظ الملك ولفظه وحركته وسكونه وتعريضه وتصريحه وجده وهزله
وشكله وسجيته وتجده واسترساله ووجوهه ونشاطه وانقباضه وانبطاطه وغضبه ورضاه
ثم هجس فى نفس هذا الملك هاجس وخطر بباله خاطر فقال أريد أن أعمل عملاً وأوثر
أثراً وأحدث حالاً لا يقف عليها أوليائى ولا المطيعون لى ولا المختصون بقولى ولا
المتعلقون بحبالى ولا أحد من أعدائى المتتبعين لأمرى والمحصين لأنفاسى ولا أدرى كيف افتتحه
ولا اقترحه لأنى متى تقدمت فى ذلك إلى كل من يلوذنى ويطوف بناحتى كان الأمر فى ذلك
نظير جميع أمورى وهذا هو الفساد الذى يلزمنى تجنبه ويجب على التيقظ فيه فيقدح له
الفكر الثاقب أنه ينبغي أن يتأهب للصيد ذات يوم فيتقدم بذلك ويذيعه فيأخذ أصحابه

آخر قد يغفل مع هذا كله المنجم اعتبار حركات كثيرة من اجرام مختلفة لانه يعجز عن نظمها وتقويمها ومزجها وتسييرها وتفصيل أحوالها وتحصيل خواصها مع بعد حركة بعضها وقرب حركة بعضها وبعثها وسرعتها وتوسطها والتفاف صورها والتباس تقاطعها وتداخل أشكالها ومن الحكمة في هذا الإغفال أن الله تقدس اسمه يتم بذلك القدر المقفل والقليل الذي لا يؤبه والكثير الذي لا يحاول البحث عنه أمر ولم يكن في حسيان الخلق ولا فيما أعملوا فيه القياس والتقدير والتوهم ولهذا يحكم هذا الحاذق في صناعته لهذا الملك وهذا الماهر في عمله لهذا الملك ثم يلتقيان فتكون الدائرة على أحدهما مع شدة الوقاع وصدق المصاع هذا وقد حكم له بالظفر والغلب . . وقال آخر وهو البوشنجاني إنما يؤتى أحد الحاكمين لأحد السائلين لا من جهة غلط يكون في الحساب ولا من قلة مهارة في العمل ولكن يكون في طالع أن لا يصيب في ذلك الحكم ويكون في طالع الملك أن لا يصيب منجمه في تلك الحرب فتقتضى حاله وحال صاحبه يحول بينه وبين الصواب ويكون الآخر مع صحة حسابه وحسن إدراكه قد وجب في طالع نفسه وطالع صاحبه ضد ذلك فيقع الأمر الواجب ويبطل الآخر الذي ليس بواجب وقد كان المنجمان من جهة العلم والحساب أعطيا للصناعة حقها وفيما ما عليهما ووفقا موقفا واحداً على غير مزية بينة ولا علة قائمة . . قال آخر ولولا هذه البقية المندفنة والغاية المستترة التي استأثر الله بها لكان لا يعرض هذا الخطأ مع صحة الحساب ودقة النظر وشدة الفوص وتوفى المطلوب ومع غلبة الهوى والميل إلى المحكوم له وهذه البقية دائرة في أمور هذا الخلق فاضلهم وناقصهم ومتوسطهم في دقيقتها وجليلها وصعبها ومن كان له في نفسه باعث على التصفح والنظر والبحث والاعتبار وقف على ما أومأت إليه وسلم وبحكمة جليلة ضرب الله دون هذا العلم بالاسداد وطوى حقائقه عن أكثر العباد وذلك أن العلم بما سيكون ويحدث ويستقبل علم حلو عند النفس وله موقع عند العقل فلا أحد إلا وهو يتخفى أن يعلم الغيب ويطلع عليه ويدرك ماسوف يكون في غد ويجد سبيلا إليه ولو ذل السبيل إلى هذا الفن لرأيت الناس يهرعون إليه ولا يؤثرون شيئا آخر عليه لحلاوة هذا العلم عند الروح واصوقه بالنفس وغرام كل أحد به وقتنة كل إنسان فيه فبنعمة من الله لم يفتح هذا الباب ولم يكشف دونه الغطاء حتى يرتقى كل أحد روضه ويلزم حده ويرغب فيما هو أجدى عليه وأنفع له إما عاجلا وإما آجلا فطوى الله عن الخلق حقائق الغيب ونشر لهم نبأاً منه وشيئا يسيرا يتعلمون به لئلا يكون هذا العلم محروصا عليه كسائر العلوم ولا يكون مانعا من غيره قال فلولا هذه البقية التي فضحت الكاملين وأعجزت القادرين لكان تعجب الخلق من غرائب الأحداث وعجائب الصروف وطرائف الأحوال عبثاً وسفها

قبل عينك ماتخفى عليك خفيه ومكنونه تذلل الله تقدس اسمه فيما استبان لك معلومه ووضح عندك مظلونه ثم قال أعلم أن العلم به حق ولكن الإصابة بعيدة وليس كل بعيد محالا ولا كل قريب صوابا ولا كل صواب معروفا ولا كل محال موصوفا وإنما كان العلم حقا والاجتهاد فيه مبلغا والقياس فيه صوابا وبذل السعى دونه محمودا لاستقبال هذا العالم السفلي بذلك العالم العلوي واتصال هذه الأجسام القابلة بتلك الأجسام الفاعلة واستحالة هذه الصور بحركات تلك المحركات المشاكلة بالوحدة وإذا صح هذا الاتصال والتشاكك وهذه الحبال والروابط صح التأثير من العلوي وقبول التأثير من السفلي بالمواضع الشعاعية وبالمنسليات الشكلية والأحوال الخفية والجلية وإذا صح التأثير من المؤثر وقبوله من القابل صح الاعتبار واستتب القياس وصدق الرصد وثبت الإلalf واستحكمت العادة وانكشفت الحدود وانشأت العمل وتعاضدت الشواهد وصار الصواب غامرا والخطأ مغمورا والعلم جوهرأ راسخا والظن عرضا زائلا . . فقل هل تصح الأحكام أم لا فقال الأحكام لا تصح بأسرها ولا تبطل من أصلها وذلك سبب يتبين إذا أنعم النظر وبسط الإصغاء وصمد نحو الفائدة بغير متابعة الهوى وإيثار التعصب ثم قال الأمور الموجودة على ضربين ضرب له الوجود الحق وضرب له الوجود ولكن ليس الوجود الحق فأما الأمور الموجودة بالحق فقد أعطت الأخرى نسبة من جهة الوجود الحق وأما الأمور الموجودة لا بالحق فقد أعطت الأخرى نسبة من جهة الوجود وارتجعت منها حقيقية ذلك فالحكم بالاعتبار الفاحص عن هذه الأسرار إن أصاب فبسبب الوجود الذي هو هذا العالم السفلي من ذلك العالم العلوي وإن أخطأ فبأفات هذا العالم السفلي من ذلك العالم العلوي والإصابة في هذه الأمور السيمالة المتبدلة عرض والإصابة في أمور الفلك جوهر وقد يكون هناك ما هو كالخطأ ولكن بالعرض لا بالذات كما يكون ههنا لا هو بالصواب والحق ولكن بالعرض لا بالذات فلهذا صح بعض الأحكام وبطل بعضها وما يكون شاهدا لهذا أن هذا العالم السفلي مع تبدله في كل حالة واستحالاته في كل طرف ولمح متقبل لذلك العالم العلوي يتحرك شوقا إلى كماله وعشقا لجماله وطلبا للتشبه به وتحقيقا بكل ما أمكن من شكله فهو بحق التقبل معط هذا العالم السفلي ما يكون به مشابها للعالم العلوي وبهذا التقبل يقبل الإنسان الناقص الكامل ويقبل الكامل من البشر الملك ويقبل الملك الباري جل وعز . . قال آخر وإنما وجب هذا التقبل والتشبه لأن وجود هذا العالم وجود متهافت مستحيل لا صورة له ثابتة ولا شكل دائم ولا هيئة معروفة وكان من هذا الوجه فقيرا إلى ما يمدد ويشده فأما مسحه فهو موجود وثابت مقابل لذلك العالم الموجود الثابت وإنما عرض ما عرض لأن أحدهما مؤثر والآخر قابل فبحق هذه المرتبة ما وجد التواصل . . وقال (١٢ - مفتاح ٢)

حكم أصاب وإذا أصاب حقق وإذا حقق جزم وإذا جزم حتم فإنه لا يستطيع البتة قلب شيء عن شيء ولا صرف شيء عن شيء ولا تبعيد حال قد دنت ولا نفي خلة قد كتبت ولا رفع سعادة قد حمت وأظلت أعنى أن امرأ لا يقدر على أن يحمل الإقامة سفرا ولا الهزيمة ظفرا ولا العقد حلا ولا الإبرام نقضا ولا اليأس رجاء ولا الإخفاق دركا ولا العدو صديقا ولا الولي عدوا ولا البعيد قريبا ولا القريب بعيدا فكان العالم به الحاذق المنتهى في خفياته بعد هذا التعب والنصب وبعد هذا السكد والدأب وبعده هذه السكفة الشديدة والمعرفة الغليظة هو ملتزم بالمقدار مستجد لما يأتي به الليل والنهار وعادت حاله مع علمه الكثير إلى حال الجاهل بهذا العلم الذي انقياده كانقياده واعتباره كاعتباره ولعل توكل الجاهل أحسن من توكل العالم به ورضاه في الخير المشتبه ونجاته من الشر المتقى أقوى وأصح من رجاء هذا المدل بزيجه وحسابه وتقويمه واسطرلابه ولهذا لما لقي أبو الحسين النورى مانيا المنجم قال له أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل وأنت ترجو المشتري وأنا أعبد رب المشتري وأنت تعدو بالإشارة وأنا أعدو بالاستخارة فكلم بيننا وهذا أبو شروان وكان من الملوك الأفاضل كان لا يرفع بالانجوم رأسا فقيل له في ذلك فقال صوابه يشبه الحدس وخطأه شديد على النفس فتى أفضى هذا الفاضل التحرير والحاذق البصير إلى هذا الحد والغاية كان علمه عاريا من الثمرة خاليا من الفائدة حائلا عن النتيجة بلا عائدة ولا مرجوع وإن أمراً أوله على ماقررناه وآخره على ماذكرناه لحرى أن لا يشغل الزمان به ولا يوهب العمر له ولا يعار لهم والسكد ولا يعاج عليه بوجه ولا سبب هذا ان كانت الأحكام صخيخة مدركة محققة ومصابة ملحقة معروفة محصلة ولم يكن المذهب على ما زعم أرباب الكلام والذين يابون تأثير هذه الاجرام العالية في الاجسام السافلة وينفون الوسائط بينهما والوصائل ويدفعون الفواعل والقوابل تم السؤال . . فأجاب كل من هؤلاء بما سنع له فقال قائل منهم عن هذا السؤال الممول جوابان . . أحدهما هو زجر عن النظر فيه لئلا يكون هذا الإنسان مع ضعف تجربته واضطراب غريزته وضعف بنيته علا على ربه شريكا له في غيبه متكبرا على عباده ظاناً بأنه فيما يأتي من شأنه قائم بجده وقدرته وحوله وقوته وتشميره وتقليصه وتهجيريه وتقريبه فإن هذا النمط يحجز الإنسان عن الخشوع الخائفة والإذعان لربه ويبعده عن التسليم لمديره ويحول بينه وبين طرح الكاهل بين يدي من هو أملك له وأولى به . . وأما الجواب الآخر فهو بشرى عظيمة على نعمة جسيمة لمن حصل له هذا العلم وذلك سرلو اطلع عليه وغيب لو وصل إليه لكان ما يجده الإنسان فيه من الروح والراحة والخير في العاجلة والآجلة تكفيه مؤنة هذا الخطب الفادح وتغنيه عن تجشم هذا السكد الكادح فاجعل أيها المنكر لشرف هذا العلم

معرفة بطبائعها قد أخذها عن الأخبار المتواترة التي تقدمته وإن لم يعلم طبائعها في نفس جواهرها لكن يعلم قواها التي تفعل بها كالعلم بقوة الشمس أنها تسخن وكالعلم بقوة القمر أنها ترطب وكذلك يعلم أمر قوى سائر الكواكب وكان قويا على معرفة أمثال سائر هذه الأشياء لا على المذهب الطبيعي فقط لكن يمكنه أيضا أن يعلم بجودة الحدس خواص الحال التي تكون من امتزاج جميع ذلك . . قال الشارح وبطليموس يرى أن علم الأحكام إنما يلحق على جهة الحدس لا على جهة اليقين قلت وكذلك صرح أرسطاطاليس في أول كتابه السماع الطبيعي أنه لا سبيل إلى اليقين بمعرفة تأثير الكواكب فقال لما كانت حال العلم واليقين في جميع السبل التي لها مبادئ أو أسباب أو استقصاءات إنما يلزم من قبل المعرفة بهذه فإذا لم تعرف الكواكب على أي وجه تفعل هذه الأفاعيل أعني بذاتها أو بطريق العرض ولم تعرف ماهيتها وذواتها لم تكن معرفتنا بالشئ أنه يفعل على جهة اليقين . . وهذا ثابت ابن قرة وهو هو عندهم يقول في كتاب ترتيب العلم وأما علم القضاء من النجوم فقد اختلف فيه أهله اختلافا شديداً وخرج فيه قوم إلى ادعاء مالا يصح ولا يصدق بما لا اتصال له بالأمور الطبيعية حتى ادعوا في ذلك ما هو من علم الغيب ومع هذا فلم يوجد منه إلى زماننا هذا قريب من التمام كما وجد غيره هذا لفظه مع حسن ظنه به وعدله في العلوم . . وهذا أبو نصر الفارابي يقول واعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت السعد نحساً والنحس سعدا والحر بارداً والبارد حاراً والذكر أنثى والأنثى ذكراً ثم حكمت لكأنك أحكامك من جنس أحكامهم تصيب تارة وتخطئ تارة . . وهذا أبو علي بن سينا قد أتى في آخر كتابه الشفاء في رد هذا العلم وإبطاله بما هو موجود فيه وقرأت بخط رزق الله المنجم وكان من زعمائهم في كتاب المقاييس لأبي حيان التوحيدي مناظرة دارت بين جماعة من فضلائهم جمع جمعهم بعض المجالس فذكرتها مختصرة مما لا يتعلق بها بل ذكرت مقاصدها . . قال أبو حيان هذه مقايضة دارت في مجلس أبي سليمان محمد بن ظاهر بن بهرام السجستاني وعنده أبو زكريا الصيمري والبوشنجاني أبو الفتح وأبو محمد العروضي وأبو محمد المقدسي والقوطبي وغلाम زحل وكل واحد من هؤلاء إمام في شأنه فرد في صناعته فقيلاً في المجلس لم خلا علم النجوم من الفائدة والثمرة وليس علم من العلوم كذلك فإن الطب ليس على هذه الحال ثم ذكرت قائلته والمنفعة به وكذلك الحساب والنحو والهندسة والصنائع ذكرت وذكرت منافعها وثمراتها ثم قال السائل وليس علم النجوم كذلك فإن صاحبه إذا استقصى وبلغ الحد الأقصى في معرفه الكواكب وتحصيل سيرها واقترائها ورجوعها ومقابلتها وتربيعها وتثليثها وتسديسها وضروب مزاجها في مواضعها من بروجها وأشكالها ومطالعها ومعاطفها ومغاربها ومشارقها ومذاهبها حتى إذا

الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ونبين مع ذلك بطلان ما يدعونه من علم أحكام النجوم وأنها هي المدبرة لهذا العالم المسعدة المشقية المحيية المميتة المعطية للعلوم والأعمال والأرزاق والآجال وإن نظرتم في هذا العالم موجب لكم من علم الغيب ما انفردتم به عن سائر الناس وليس في طوائف الناس أقل علما بالغيب منكم بل أنتم أجهل الناس بالغيب على الإطلاق ومن اعتبر حال حذقاتكم وعلماكم واعتمادكم على ملاحم مركبة من إخبارات بعض الكهان ومنامات وفراسات وقصص متوارثة عن أهل الكتاب وغيرهم ومن ج ذلك بتجارب حصلت مع اقترانات نجومية واتصالات كوكبية يعلم بالحساب حصولها في وقت معين فقضيتكم بحصول تلك الآثار أو نظيرها عندها إلى أمثال ذلك من أسباب علم تقدمه المعرفة التي قد جرب الناس منها مثل ما جربتم فصدقت تارة وكذبت تارة فغاية الحركات النجومية والاتصالات الكوكبية أن تكون كالعلل والأسباب المشاهدة التي تأثيراتها موقوفة على انضمام أمور أخرى إليها وارتفاع موانع تمنعها تأثيرها فهي أجزاء أسباب غير مستقلة ولا موجبة هذا لو أقسم على تأثيرها دليلا فكيف وليس معكم إلا الدعاوى وتقليد بعضكم بعضا واعتراف حذقاتكم بأن الذي يجهل من بقية الأسباب المؤثرة ومن الموانع الصارقة أعظم من المعلوم منها بأضعاف مضاعفة لا يدخل تحت الوهم فكيف يستقيم لعقل الحكم بعد هذا وهل يكون في العالم أكذب منه . . قال صاحب الرسالة وإذا كان الفلك متى تشكل شكلا مادل إن كان في مولد مصرى على أنه يتزوج أخته فذلك سنة كانت لهم وعادة وإن كان في مولد غيره لم يدل على ذلك ونحن نجد أهل مصر في وقتنا هذا قد زالوا عن تلك العادة وتركوا تلك السنة بدخولهم في الإسلام والنصرانية واستعمالهم أحكامهما فيجب أن تسقط هذه الدلالة من مواليدهم لزوالهم عن تلك العادة أو تكون الدلالة توجب ذلك في مولد كل أحد منهم ومن غيرهم أو تسقط الدلالة وتبطل بزوال أهل مصر عما كانوا عليه وكذلك جمهور أهل فارس وأى ذلك كان فهو دال على قبيح المناقضة وشدة المغالطة وقد رأيت وجههم بطليموس يقول في كتابه المعروف بالأربعة فيحدث كذا وكذا توهمنا أنه يكون كذا وكذا قلت الذى صرح به بطليموس إن علم أحكام النجوم بعد استقصاء معرفة ما ينفى معرفته إنما هو على جهة الحدس لا العلم واليقين فمن ذلك قوله هذا وبالجملة فإن جميع علم حال هذا العنصر إنما يستقيم أن يلحق على جهة الظن والحدس لا على جهة اليقين وخاصة منه ما كان مركبا من أشياء كثيرة غير متشابهة قال شارح كلامه وإنما ذهب إلى ذلك لأن الأفعال التي تصدر عن الكواكب إنما هي بطريق العرض وإنما لا تفعل بذواتها شيئا والدليل على ذلك قوله في الباب الثانى من كتاب الأربعة وإذا كان الإنسان قد استقصى معرفة حركة جميع الكواكب والشمس والقمر حتى أنه لا يذهب عليه شئ من المواضع والأوقات التي تحدث لها فيها الأشكال وكانت عنده

واختلاف العادات والسنن . . قال ويجب على من نظر في هذه الأشياء على المذهب الطبيعي أن يتثبت أبدأ بالأسباب الأولى الصحيحة لئلا يغلط بسبب اشتباه المواليد فيقول مثلاً أن المولود في بلاد الحبش يكون أبيض اللون سبط الشعر وأن المولود في بلاد الروم أسود اللون جعد الشعر أو يغلط أيضاً في السنن والعادات التي يخص بها بعض الأمم في الباء فيقول مثلاً أن الرجل من أهل انطاكية يتزوج بأخته وكان الواجب أن ينسب ذلك الفارسي وفي الجملة ينبغي أن يعلم أولاً حالات القضاء السكلى ثم يأخذ حالات القضاء الجزئي ليعلم منها الأمر في الزيادة والنقصان وكذلك يجب ضرورة أن يقدم في قسمة الأزمان أصناف الأسنان الزمانية وموافقتها لكل واحد من الأحداث وأن يتفقد أمرها لئلا يغلط في وقت من الأوقات في الأعراض العامة البسيطة التي ينظر فيها في المواليد فيقول أن الطفل يباشر الأعمال أو يتزوج أو يفعل شيئاً من الأشياء التي يفعلها من هو أتم سناً منه وأن الشيخ الفاني يولد له أو يفعل شيئاً من أفعال الأحداث وهذا ونحوه يدل على أن الأمور وغيرها إنما هي بحسب اختلاف العوائد والسنن والبلاد وخواص الأنفس واختلاف الأسنان والأغذية وقواها أيضاً بما فيها تأثير قوى وكذا الهواء والتربة واللباس وغيرها كل هذه لها تأثير في الأخلاق والأعمال وأكبرها العوائد والمربا والمنشأ فإحالة هذه الأمور على السكاك والطالع والمقارنة والمفارقة والمناظر من أبين الجهل ولهذا اضطرب إمام المنجمين ومعلمهم إلى مراعات هذه الأمور وأخبر أن الحاكم بدون معرفتها والتثبت بها يكون مخطئاً وحينئذ فالطالع المعتبر المؤثر إنما هو طالع العوائد والسنن والبلاد وخواص هيآت النفوس الإنسانية وقوى أغذية أبدانها وهوائها وتربتها وغير ذلك مما هو مشاهد بالعيان تأثيره في ذلك أفليس من أبين الجهل الأعراض عن هذه الأسباب والحوالة على حركات النجوم واجتماعها وافتراقها ومقابلتها في تربع أو تثليث أو تسديس مما لو صح إمكان غايته أن يكون جزء سبب من الأسباب التي تقتضى هذه الآثار ثم إن لها من المقارنات والمفارقات والصوارف والعوارض ما لا يحصى المنجم القليل من عشر معشاره أفليس الحكم بمجرد معرفة جزء من أجزاء السبب بالظن والحدس والتقليد لمن حسن ظنه به حكم كاذب ولهذا كذب المنجم أضعاف أضعاف صدقه بكثير حتى صدق أن بعض الزرايين وأصحاب الكشف وأرباب الفراسة والجزائين أكثر من صدق هؤلاء بكثير وما ذاك إلا لأن المجهول من جمل الأسباب وما يعارضها ويمنع تأثيرها أكثر من المعلوم منها فكيف لا يقع الكذب والخطأ بل لا يكاد يقع الصدق والصواب إلا على سبيل التصادف ونحن لا نشكر ارتباط المسببات بأسبابها كما ارتكبه كثير من المتكلمين وكابروا العيان ومجدوا الحقائق كما أنا لا نرضى بهذه انات الأحكاميين ومحالهم بل تثبت

لانتناقض فيه بل هو حق واجب قالوا إذا أردنا أن نعرف حال سقراط مثلاً من حيث هو إنسان أليس ينظر إلى ما يخص الحيوان والإنسان السكلى وإذا أردنا أن نعرف حاله من حيث هو أب أن ننظر إلى المضاف وما يلحقه وإذا أردنا أن نعرف حاله من حيث هو عالم ننظر إلى الكيفية وما يخصها والأول جوهر والباقي اعراض وسقراط واحد ونعرف أحواله من مواضع مختلفة متباينة مرة يكون جوهرًا ومرة عرضًا فكذلك إذا أردنا أن نعرف حاله من مولده نظرنا إلى الطالع وربه وإذا أردنا أن نعرف حاله من مولد أبيه نظرنا إلى العاشر والشمس وكذلك إذا أردنا أن نعرف حاله من مولد ابنه نظرنا إلى موضع آخر وليس ذلك متناقضًا كما أن الأول ليس متناقضًا فيقال هذا تنبيه فاسد واعتبار باطل فإننا نظرنا في طالع الأب لنستدل به على حال الولد ونظرنا في الطالع لتستدلوا به على حال الأب هو استدلال على شيء واحد وحكم عليه بسبب لا يقتضيه ولا يفارقه فأين هذا من تعرف إنسانية سقراط وأبوته وعدالته وعلمه مثلاً وطبيعته فإن هذه أحوال مختلفة لها أدلة وأسباب مختلفة فنظيرها أن نعرف حال الولد من جهة سعادته ومحبته وصحته وسقمه من طالع وحاله من جهة ما يناسبه من الأغذية والأدوية من مزاجه وحاله من جهة أفعاله ورئاسته من أخلاقه كالحياء والصبر والبذل وحاله من جهة اعتدال مزاجه من اعتدال أعضائه وتركيبه وصورته فهذه أحوال بحسب اختلاف أسبابها فأين هذا من أخذ حال الولد وعمره وسعادته وشقاوته من طالع أبيه وبالعكس فالتة يعين العقلاء على تلييسكم ومخالصكم ويثبت عليهم ما وهبهم من العقول التي رغبتم بها ورغبوا بها عن مثل ما أنتم عليه . . قال وزعم بطليموس أن الفلك إذا كان على شكل ما ذكره في مولد ما وكانت الكواكب في مواضع ذكرها وجب أن يكون الولد أبيض اللون سبطاً وإن وجد مولود في بلاد الحبشة والفلك متشكل على ذلك الشكل والكواكب في المواضع التي ذكرها لم يمس ذلك الحكم عليه ومضى على المولود إن كان من الصقالية أو من قرب مزاجه من مزاجهم وزعم أن الفلك إذا كان على شكل ما ذكره في مولد ما وكانت الكواكب في مواضع ذكرها فإن صاحب الولد يتزوج أخته إن كان مصرياً فإن لم يكن مصرياً لم يتزوجها وزعم أن الفلك إذا كان على شكل آخر ذكره في مولد من المواليد وكانت الكواكب في موضع بينهما تزوج الولد بأمه إن كان فارسياً وإن لم يكن فارسياً لم يتزوجها . . وهذه مناقضة شنيعة لأنه ذكر علة ومعلولاً يوجد بوجودها وترفع بارتفاعها ثم ذكر أنها توجد من غير أن يوجد معلولها . . قلت أرباب هذا الفن يقولون لا بد من معرفة الأصول التي يحكم عليها لئلا يغلط الحاكم ويذهب كلامه إن لم يعرف الأصول وهي الجنس والشريعة والأخلاق والعادات مما يحتاج المنجم أن يحصلها ثم يحكم عليها وكذلك قال بطليموس أنه يجب على المنجم النظر في صور الأبدان وخواص حالات الأنفس -

إن غيبة الربان سبب غرق السفينة وهو الذى كان حضوره سبب سلامتها فتأمل هذا الكلام وقابل بينه وبين كلامهم فى فعل القمر الامور المتضادة يظهر لك تلبيس القوم وجهلهم فان نظر ذلك يوجب بطلان هذه الطبايع والكيفيات عند انقطاع تعلق القمر بهذا العالم كما بطل عمل السفينة وجريها عند غيبة الربان عنها انقطاع تعلقه بها فلم يكن الربان هو سبب الغرق الذى هو ضد السلامة كما كان القمر سببا للتلبس الذى هو ضد الرطوبة وللحرارة التى هى ضد البرودة وإنما كانت أسباب الغرق غيبة أحد الأسباب التى كان الربان يمنع فعلها فلما غاب عنها عمل ذلك السبب عمله فغرقت وهذا أوضح من أن يحتاج إلى تقرير ولكن الأذهان التى قد اعتادت قبول المحالات قد يحتاج فى علاجها إلى ما لا يحتاج اليه غيرها وبالله التوفيق . . قال صاحب الرسالة وقالوا فى معرفة أحوال أمهات المدن أن ذلك يعلم من المواضع التى فيها الشمس والقمر فى أول ابتنائها ومواضع الاوتاد فهو خاصة وتد الطالع كما يفعل فى المواليد فان لم يتوقف على الزمان الذى بنيت فيه فليُنظر إلى موضع وسط السماء فى مواليد الولاة والملوك الذين كانوا فى ذلك الزمان الذى بنيت فيه تلك المدن . . قلت ونظير هذا من هذيانهم قولهم إنا نعرف أحوال الأب من مولد الابن إذا لم يعرف مولد الأب قالوا ان هذا الموضع تالى فى المرتبة للطالع وهو أخص المواضع بالطالع كما أن الأب أخص الأشياء بالابن فكذلك أخص الأشياء بالملك بملكته فوضع وسط سمائه يدل على مدينته وأحوالها وكل عاقل يعلم بطلان هذه الدلالة وفسادها وأنه لا ارتباط بين طالع المدينة وطالع السلطان كما لا ارتباط بين طالع ولادة الابن وطالع ولادة أبيه وإنما هذه تشبيهات بعيدة ومناسبات فى غاية البعد . . قال صاحب الرسالة وقالوا فى معرفة حال الوالدين إن الشمس وزحل يشاكلان الآباء بالطبع ولست أدري كيف تعقل دلالة شئ ليس بما يتوالد بطبعه على شئ من طريق التوالد لأن الأب انما يكون أبا باضافته إلى ابنه والابن انما يكون ابنا باضافته إلى أبيه وانهم يستدلون على حال الأولاد بالقمر والزهرة والمشتري وإن أحوال الأب تعرف من مواليد ابنه بأن يقام موضع الكوكب الدال عليه وهو الشمس أو زحل مقام الطالع ويستدل على حال الابن من مولد أبيه بأن يقام موضع الكوكب الدال عليه وهو أحد الكواكب الثلاثة القمر والمشتري والزهرة مقام الطالع وقد يكون الانسان فى أكثر الأوقات أبا فيكون الشمس وزحل يدل عليه من مولد ابنه وله فى نفسه مولد لا محالة ويمكن أن يكون رب طالع مولده كوكبا غير الكوكبين الدالين على حاله من مولد أبيه وابنه فيكون حاله يعرف من ثلاثة كواكب وثلاثة بروج مختلفة الاشكال والطبايع وتناقض هذا القول بين لمستهمله فضلا عن متوهمه . . قلت قد قالوا فى الجواب عن هذا أنه

ومنذ وقت انتصافه الأول في الضوء إلى وقت الامتلاء يكون فاعلا للحرارة ومنذ وقت الامتلاء إلى وقت الانتصاف الثاني في الضوء يكون فاعلا لليبس ومنذ وقت الانتصاف إلى الوقت الذي يخفى فيه ويفارق الشمس يكون فاعلا للبرودة وأي شيء أقبح من هذا ولا سيما وقد أعطى قائله أن القمر رطب وأنه يفعل بطبعه لا باختياره وكيف أن يفعل شيء واحد بطبعه الأشياء المتضادة مرة في الدهر فضلا عن أن يفعلها في كل شهر وهل القول بأن شيئا واحداً يفعل بطبعه في الأشياء الترتيب في وقت يفعل بطبعه التجفيف في آخر ويفعل الاسخان في وقت ويفعل التبريد في آخر إلا كالقول بأن شيئا واحداً تتقلب عينه وقتا بعد وقت . . قلت قد قالوا إن الشمس لما كانت تفعل هذه الأفعال بحسب صعودها وهبوطها في فلكها فإنها إذا كانت من خمسة عشر درجة من الحوت إلى خمسة عشر من الجوزاء فعلت الترتيب وهوزمان الربيع وكذلك من خمسة عشر درجة من القوس إلى خمسة عشر من الحوت تفعل التبريد وهوزمان الشتاء وهذا دورها في الفلك مرة في العام والقمر يدور في شهر واحد صارت نسبة دور القمر في الفلك كنسبة دور الشمس فيه فكانت نسبة الشهر إلى القمر كنسبة السنة إلى الشمس فالشهر يجمع الفصول الأربعة كما تجمع السنة وما تفعله الشمس في كل تسعين يوما وكسر يفعله القمر في سبعة أيام وكسر قالوا فأخر الشهر شبيه بالشتاء وأوله شبيه بالربيع والربع الثاني من الشهر شبيه بالصيف والربع الثالث منه شبيه بالخريف فهذا غاية ما قرروا به هذا الحكم . قالوا وأما كون الشيء الواحد سببا للضدين فقد قضا أرسطاطاليس في كتاب السماع الطبيعي على جوازه والجواب عن هذا أن الشمس ليست هي السبب الفاعل لهذه الطبائع المختلفة وإنما قربها وبعدها وارتفاعها وانخفاضها أثر في سخونة الهواء وتبريده وفي تحلل البخارات وتكاثفها فيحدث بذلك في الحيوان والنبات والهواء هذه الطبائع والسكيفيات والشمس جزء السبب كما قررناه وأما القمر فلا يؤثر قرب ولا بعده وامتلاؤه ونقصانه في الهواء كما تؤثر الشمس فلو كان ذلك كذلك لكان كل شهر من شهور العام يجمع الفصول الأربعة بطابعها وتأثيراتها وأحكامها وهذا شيء يدفعه الحس فضلا عن النظر والمعقول وقياس القمر على الشمس في ذلك من أفسد القياس فإن الفارق بينهما في الصفة والحركة والتأثير أكثر من الجامع فالحكم على القمر بأنه يحدث الطبائع الأربعة قياسا على الشمس والجامع بينهما قطعه للفلك في كل شهر كما نقطعه في سنة لا يعتمد عليه من له خبرة بطرق الأدلة وصناعة البرهان . . وأما قولكم أن أرسطاطاليس نص في كتابه على أن الواحد قد يكون سببا للضدين فنحن نذكر كلامه بعينه في كتابه ونبين ما فيه . . قال في المقالة الثانية وأيضاً فإن الواحد قد يكون سببا للضدين فإن الشيء الذي يحضوره يكون أمر من الأمور فغيبته قد تكون سببا لضده فيقال في ذلك

وكان تركهم لهذه المقاتلة خيراً لهم منها فانهم لا للتوحيد والإسلام نصر ولا لأعدائه كسروا والله المستعان وعليه التكلان .

فصل

فلنرجع إلى كلام صاحب الرسالة . . قال زعموا أن القمر والزهرة مؤنثان وإن الشمس وزحل والمشتري والمريخ مذكرة وإن عطارد ذكر أنثى مشارك للجنسين جميعاً وإن سائر الكواكب تذكر وتؤنث بسبب الأشكال التي تكون لها بالقياس إلى الشمس وذلك أنها إذا كانت مشرقة متقدمة للشمس فهي مذكرة وإن كانت مغربة تابعة كانت مؤنثة وإن ذلك أيضاً يكون بالقياس إلى أشكالها إلى الأفق وذلك أنها إذا كانت في الأشكال التي من المشرق إلى وسط السماء مما تحت الأرض فهي مذكرة لأنها إذا كانت شرقية فهي من ناحية مهب الصبا وإذا كانت في الربعين الباقيين فهي مؤنثة لأنها في ناحية مهب الدبور وإذا كان هذا هكذا صارت الكواكب التي يقال إنها مؤنثة مذكرة والتي يقال أنها مذكرة مؤنثة وصارت طباعها مستحيلة بل تصير أعيانها تنقلب وأن القمر والزهرة مؤنثتان والكواكب الخمسة الباقية مذكرة على الوضع الأول فإن تقدم القمر والزهرة الشمس وكانا شرقيين صاروا مذكرين وإن تأخرت الكواكب الخمسة وكانت مغربة تابعة كانت مؤنثة على الموضوع الثاني ويصير عطارد ذكراً إذا شرق أنثى إذا غرب وذكرنا أنثى إذا لم يكن بأحد هاتين الصفتين . . قلت وقد أجاب بعض فضلائهم عن هذا الإلزام فقال ليس ذلك بممكن لأننا قد نقول إن الأدكن أبيض إذا قسناه إلى الأسود ونقول إنه أسود إذا قسناه إلى الأبيض وهو شيء واحد بعينه مرة يكون أسود ومرة يكون أبيض وهو في نفسه لا أسود ولا أبيض وكذلك الكواكب يقال إنها ذكران وإناث بالقياس إلى الأشكال أعنى الجهات والجهات إلى الرياح والرياح إلى الكيفيات لأنها ذكران وإناث وهذا تلبس منه فإن الأدكن فيه شائبة البياض والسواد فلذلك صدق عليه اسمها لأن الكيفيتين محسوستان فيه فتكيفية بهما أوجب أن يقال عليه الاسمان وأما تقسيم الكواكب إلى الذكور والإناث فهي قسمة وضعت فيها تمييز كل نوع عن الآخر بحقيقته وطبيعته وقلتم البروج تنقسم إلى ذكور وإناث قسمة تميز فيها قسم عن قسم لأن حقيقتها مركبة من طبيعتين ذكورية وأنثوية بحيث يصدقان على كل برج برج فنظير ما ذكرتم من الأدكن أن يكون كل برج ذكراً وأنثى فإين أحد البابين من الآخر لولا التلبس والمحال وأيضاً فانتقسامها إلى الذكور والإناث انقسام بحسب الطبيعة والتأثير والتأثر الذي هو الفعل والانفعال وما كان كذلك لم تنقلب حقيقته وطبيعته بحسب الموضوع والقرب والبعد . . قال صاحب الرسالة وزعموا أن القمر منذ الوقت الذي يهل فيه إلى وقت انتصافه الأول في الضوء يكون فاعلاً الرطوبة خاصة

ما هو في الآخر ثم إن الزمان انقلب بحلول الشمس فيه وهو يبقى دهره منقلبا مع خروج الشمس منه وحلولها فيه أتراها تختلف فيه أترأ أو تحيل منه طباعاً وتبقى تلك الاستحالة إلى أن تعود فتجددها ولم لا يقول قائل أن السرطان حار يابس لأن الشمس إذا نزلت اشتد حر الزمان وما يجانس هذا عما لا يلزم لاهو ولا ضده ما في الفلك اختلاف معرفة الطبيعي إلا بما فيه من الكواكب ومواضعها وهو واحد متشابه الجوهر والطبع وهذه أقوال قالها قائلها فقبليها قابل ونقلها ناقل فحسن بها ظن السامع واغتر بها من لا خبرة له ولا قدرة له على النظر ثم حكم بحسبها الحاكمون بجحد وردى وسلب وإيجاب وسعد ونحوس فصاف بعضه موافقة الوجود فصدق فاغتر به المعترون ولم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيسكذبون بل عذروا وقالوا هو منجم ما هو نبي حتى يصدق في كل ما يقول واعتدروا له بأن العلم أوسع من أن يحيط به ولو أحاط به لصدق في كل شيء. ولعمري الله أنه لو أحاط به علما صادقا لصدق والشأن أن يحيط به على الحقيقة لا على أن يفرض فرضاً ويتوهم وهماً فينقله إلى الوجود ويثبت في الموجود وينسب إليه ويقيس عليه والذي يصح منه ويلتفت إليه العقلاء هي أشياء غير هذه الخرافات التي لا أصل لها مما حصل بتوقيف أو تجربة حقيقية كالأقنانات والانتقالات والمقابلة من جملة الانصالات فانها المقارنة من جهة أن تلك غاية القرب وهذه غاية البعد ومركوكب من المتحيرة تحت كوكب من الثابتة وما يفرض للمتحيرة من رجوع واستقامة ورجوع في شمال وانخفاض في جنوب وغير ذلك وكأني أريد أن اختصر الكلام هنا وأوفق إشارتك وأعمل بحسب اختيارك رسالة في ذلك أذكر ما قيل فيها من علم أحكام النجوم من أصول حقيقية أو مجازية أو وهمية أو غلطية وفروع نتائج أنتجت عن تلك الأصول وأذكر الجائز من ذلك والممتع والقريب والبعيد فلا أورد علم الأحكام من كل وجه كما رده من جهله ولا أقبل فيه كل قول كما قبله من لم يعقله بل أوضح موضع القبول والرد في المقبول وموضع التوقف والتجوز والذي من المنجم والذي من التنجيم والذي منهما وأوضح لك أنه لو أمكن الإنسان أن يحيط بشكل كل ما في الفلك علما لأحاط علما بكل ما يحويه الفلك لأن منه مبادئ الأسباب لكنه لا يمكن ويبعد عن الإمكان بعدا عظيما والبعض الممكن منه لا يهدي إلى بعض الحكم لأن البعض الآخر المجهول قد يناقض المعلوم في حكمه ويبطل ما يوجبه فنسبة المعلوم إلى المجهول من الأحكام كنسبة المعلوم إلى المجهول من الأسباب وكفى بذلك بعدا انتهى كلامه . ولو ذهبنا نذكر من رد عليهم من عقلاء الفلاسفة والطباةعيين والرياضيين اطال ذلك جداً هذا غير رد المتكلمين عليهم فإننا لا نقنع به ولا نرضى أكثره فإن فيه من المكابرات والمنوع الفاسدة والسؤالات الباردة والتطويل الذي ليس تحته تحصيل ما يضييع الزمان في غير شيء.

يقول الطبيعي بتقطع الفلك وقسمته كما قسمه المنجمون قسمة وهمية إلى بروج ودرج ودقائق وذلك جائز للتوهم كجواز غيره غير واجب في الوجود ولا حاصل ونقلوا ذلك التوهم الجائز إلى الوجود الواجب في أحكامهم وكان الأصل فيه على زعمهم حركة الشمس في الأيام والشهور فخلعوا منها قسمة وهمية وجعلوها حيث حكموا كالحاصلة الوجودية المتميزة بحدود وخطوط كأن الشمس بحركتها من وقت إلى وقت مثله خطت في السماء خطوطاً وأقامت فيها جذرانا وحدوداً وغرست في أجزائها طباعاً معتبراً بنفي فتبقى به القسمة إلى تلك البروج والدرج مع جواز الشمس عنها وليس في جوهر الفلك اختلاف يتميز موضع منه عن موضع سوى الكواكب والكواكب تتحرك عن أماكنها فتبقى الأمكنة على التشابه فما يتميز درجة عن درجة ويبقى اختلافها بعد حركة المتحرك في سمتها فكيف يقيس الطبيعي على هذه الأصول وينتج منها نتائج ويحكم بحسبها أحكاماً فكيف أن يقول بالحدود التي تجعل خمس درجات من برج الكوكب وستة لآخر وأربعة لآخر ويختلف فيها المصريون والبابليون ويصدق الحكم مع الاختلاف وأرباب البيوسات كأنها أملاك بنيت بصكوك وحكام الأسد للشمس والسرطان للقمر وإذا نظر الناظر وجد الأسد أسداً من جهة كواكب شكلوها بشكل الأسد ثم انتقلت عن مواضعها التي كان بها أسداً كأن الملك بنيت للشمس مع انتقال الساكن وكذلك السرطان للقمر هذا من ظواهر الصناعة وما لا يمارى فيه ومن طالع الأسد فالشمس كوكبه وربة بيته ومن الدقائق في الحقائق النجومية المذكورة والمؤنثة والمظلمة والنيرة والزائدة في السعادة ودرج الآثار من جهة أنها أجزاء الفلك التي قطعوها وما انقطعت مع انتقال أن الكوكب ينظر إلى الكوكب من ستين درجة نظر تسديس لأنه سدس الفلك ولا ينظر إليه من خمسين ولا سبعين وقد كان قبل الستين بخمس درج وهو أقرب من ستين وبعدها بخمس درج وهو أبعد من الستين لا ينظر فليت شعري ماهو هذا النظر أترى الكوكب يظهر للكوكب ثم يحتجب عنه أو شعاعه يختلط بشعاعه عند حد لا يختلط به قبله ولا بعده وكذلك التربع من الربع الذي هو تسعون درجة والتثلث من الثالث الذي هو مائة وعشرون فلم لا يكون التخمس من الخمس والتسبيع من السبع والتعشير من العشر والجل حار يابس من البروج النارية والثور بارد يابس من الأرضية والجوزاء حارة رطبة من الهوائية والسرطان بارد رطب من المائية ما قال الطبيعي قط هذا ولا يقول به وإذا احتجوا وقاسوا كانت مبادئ قياساتهم أن الحمل منقلب لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع والثور ثابت لأنه إذا نزلت الشمس فيه يثبت الربيع على ربيعته والحق أنه لا انقلاب في الحمل ولا نبات في الثور بل هو في كل يوم غير

وعمره ورزقه وشقاوته وسعادته وحسنه وقبحه وأخلاقه وحذقه وبلادته وجهله وعلمه بل ونزول الأمطار واختلاف أنواع الشجر والنبات في الشكل واللون والطعوم والروائح والمقادير بل انقسام الحيوان إلى الطير وأصنافه والبحرى وأنواعه والبرى وأقسامه وأشكال هذه الحيوانات واختلاف صورها وأنواعها وأفعالها وأخلاقها ومنافعها بل وتكون المعادن المنطبعة كالحديد والرصاص والنيحاس والذهب والفضة بل وغير المنطبعة كالملح والقار والزئبق والنفط والزئبق بل العداوة الواقعة بين الذئب والغنم والحيات والسباع وبني آدم والصداقة والعداوة بين أفراد النوع الواحد سيما بين ذكوره وإناثه وبالجملة فالأرزاق والآجال والعز والذل والرفعة والخفض والغناء والفقر والإحياء والإماتة والمنع والإعطاء والضر النفع والهدى والضلال والتوفيق الخذلان وجميع ما في العالم والأشخاص وأفعالها وقواها وصفاتها وهياتها والمعطى له هذه واتصالاتها وانفصالاتها واتصالاتها بنقط وانفصالاتها عن نقط ومقارنتها ومفارقتها ومسامتها ومباينتها فهي المعطية لهذا كله المدبرة الفاعلة فهي الآلهة والأرباب على الحقيقة وما تحتها عبيد خاضعون لها ناظرون إليها فهذا كما أنه الكافر الذي خرجوا به عن جميع الملل وعن جملة شرائع الأنبياء ولم يمكنهم أن يقيموا بين أرباب الملل إلا بالتستر بهم ومنافقتهم والتزيي بزيمهم ظاهرا وإلا فقتل هؤلاء من الأمر الضروري في كل ملة لأنهم سوسها وأعداؤها فهو من الهذيان الذي أضحكوا به العقلاء على عقولهم حتى رد عليهم من لا يؤمن بالله واليوم الآخر من الفلاسفة كالفارابي وابن سينا وغيرهما من عقلاء الفلاسفة وسخروا منهم واستضعفوا عقولهم ونسبوه إلى الزرق والزينة والتلبس وقد رد عليهم أفضل المتأخرين من فلاسفة الإسلام أبو البركات البغدادى في كتاب التعيير له فقال وأما أحكام النجوم فإنه لا يتعلق به منه أكثر من قولهم بغير دليل بحر السكواكب وبردها ورطوبتها ويوبستها واعتدالها كما يقولون بأن زحل منها بارد يابس والمريخ حار يابس والمشتري معتدل والاعتدال خير والافراط شر وينتجون من ذلك أن الخير يوجب سعادة والشر يوجب منحة وما جانس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تنتجهم مقدماتهم في أنظارهم وإنما الذى أنتجته هو أن السماء والسماءويات فعالة فيما تحويه وتشتمل عليه وتحرك حوله فعلا على الإطلاق لم يحصل له من العلم الطبيعى حد ولا تقدير والقائلون به ادعوا حصوله من التوقيف والتجربة والقياس منهما كما ادعى أهل الكيمياء وإلا فتي يقول صاحب العلم الطبيعى بحسب أنظاره التى سبقت أن المشتري سعيد والمريخ نحس والمريخ حار يابس وزحل بارد يابس والحار والبارد من الملبوسات ومادله على هذا المس كما يستدل بلبس الملبوسات فإن ذلك ما ظهر للنحس كما ظهر في الشمس حيث تسخن الأرض بشعاعها وإن كان في السماء بيان شيء من طبائع الاضداد فالأولى أن تكون كلها حارة لأن كواكبها كلها منيرة ومتى

الموضع فعند ذلك ينتهى منتهاه فإذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع ابتداء المد من تحت الأرض ولا يزال زائدا إلى أن يصل القمر إلى وتد الأرض حينئذ ينتهى المد منتهاه ثم يبتدىء الجزر ثانيا ويرجع الماء كما كان وسكان البحر كلهم رأوا في البحر انتفاخاً وهيجان رياح عاصفة وأمواج شديدة علوا أنه ابتداء المد فإذا ذهب الانتفاخ وقلت الأمواج والرياح علوا أنه وقت الجزر وأما أصحاب الشطوط والسواحل فانهم يجدون عندهم في وقت المد للساء حركة من أسفله إلى أعلاه فإذا رجع الماء ونزل فذلك وقت الجزر وكذلك أيام بحرانات الأمراض بحسب زيادة القمر ونقصانه منطبقه عليها وكذلك الأخلاط التي في بدن الإنسان مادام القمر آخذاً في الزيادة فانها تكون أزيد ويكون ظاهر البدن أكثر رطوبة وحسناً فإذا نقص ضوء القمر صارت الأخلاط في غور البدن والعروق وازداد ظاهر البدن يبساً وكذلك ألبان الحيوانات تنزايد من أول الشهر إلى نصفه فإذا أخذ القمر في النقصان نقصت غزارتها وكذلك أدمغة الحيوانات في أول الشهر أزيد منها في نصفه الأخير وإن حدث في أجواف الطيور بيض في النصف الأول من الشهر كان بياضه أكثر من بياض الحادث في نصفه الثاني وكذلك الإنسان إذا نام أو قعد في ضوء القمر حدث في بدنه الإسترخاء والكسل وهاج عليه الزكام والصداع وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة تحت ضوء القمر تغيرت طعمها وتعفنت وكذلك السمك في البحار والآجام الجارية توجد من أول الشهر إلى وقت الامتلاء أكثر وخروجها من قعور البحار والآجام أظهر ومن بعد الامتلاء إلى الاجتماع فانها تدخل قعور البحار والآجام الذي يظهر من سمين السمك فالنصف الأول أكثر من الذي يظهر في الثاني منه وكذلك حرشة الأرض يسكون خروجها من أبحررتها في النصف الأول من الشهر أكثر من خروجها في النصف الثاني وأصحاب الغراس يزعمون أن الأشجار والغروس إذا غرست والقمر زائد الضوء كان نشوها وكماها وإسراعها في النبات أحمد من التي تغرس في محاقه وذهاب نوره وكذلك تكون الرياحين والبقول والأعشاب من الاجتماع إلى الامتلاء أزيد نشوا وأكثر نمواً وفي النصف الثاني بالصد من ذلك وكذلك القثاء والقرع والخيار والبطيخ ينمو نمواً بالغاً عند ازدياد الضوء وأما في وسط الشهر عند حصول الإمتلاء فهناك يعظم النوحى يظهر التفاوت للحس في الليلة الواحدة وكذلك الينابيع تزداد في النصف الأول من الشهر وتنقص في النصف الثاني إلى غير ذلك من الوجوه التي تؤثر فيها الشمس والقمر في هذا العالم فنحن لم ندفعكم عن هذه التأثيرات وإضعافها إنما الذي أنكره عليكم العقلاء من أهل الملل وغيرهم أن جملة الحوادث في هذا العالم خيرها وشرها وصالحها وفسادها وجميع أشخاصه وأنواعه وصوره وقواه ومدد بقاء أشخاصه وجميع أحوالها العارضة لها وتكون الجنين ومدة لبثه في بطن أمه وخروجه إلى الدنيا

سيرت.. حتى بلغ.. علمت نفس ما أحضرت، وفي الجماعة أبو الوفاء بن عقيل فقال له قائل
 ياسيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب وزوج النفوس بقرنائها للشواب والعقاب فما
 الحكمة في هدم الأبنية وتسيير الجبال ودك الأرض وفطر السماء ونثر النجوم وتخريب هذا
 العالم وتكوير شمس وخسف قمره فقال ابن عقيل على البديهة إنما بنى لهم هذه الدار للسكنى
 والتمتع وجعلها وما فيها للاعتبار والتفكير والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر فلما
 انقضت مدة السكنى وأجلاهم عن الدار وخربها لا انتقال الساكن منها فأراد أن يعلمهم بأن
 في إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال وإبداء ذلك الصنع العظيم بياناً لسكمال قدرته
 ونهاية حكمته وعظمته ربوبيته وعز جلاله وعظم شأنه وتكذيباً لأهل الإلحاد وزنادقة
 المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا
 كاذبين فإذا رأوا أن منار آلهتهم قد انهدم وأن معبوداتهم قد انتثرت والأفلاك التي زعموا
 أنها وما حوتها هي الأرباب المستولية على هذا العالم قد تشققت وانفطرت ظهرت حينئذ
 فضاحهم وتبين كذبهم وظهر أن العالم مربوب يحدث مدبر له رب يصرفه كيف يشاء
 تكذيباً للملاحدة الفلاسفة القائلين بقدمه فحكم الله من حكمة في هدم هذه الدار ودلالة على
 عظيم قدرته وعزته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها
 لمشيئته فتبارك الله رب العالمين ونحن لا ننكر ولا ندفع أن الزرع والنبات لا ينمو ولا ينشأ
 إلا في المواضع التي تطلع عليها الشمس ونحن نعلم أيضاً أن وجود بعض النبات في بعض
 البلاد لا سبب له الاختلاف البلدان في الحر والبرد الذي سببه حركة الشمس وتقاربها في قربها
 وبعدها من ذلك البلد وأيضاً فإن النخل ينبت في البلاد الحارة ولا ينبت في البلاد الباردة وشجر
 الموز لا ينبت في البلاد الباردة وكذلك ينبت في البلاد الجنوبية أشجار وفواكه وحشائش
 لا يعرف شيء منها في جانب الشمال وبالعكس وكذلك الحيوانات يختلف تكوينها بحسب اختلاف
 حرارة البلاد وبرودتها فإن النسر والقيط يكونان بأرض الهند ولا يكونان في سائر الأقاليم
 التي هي دونها في الحرارة وكذلك غزال المسك والكر كند وغير ذلك وكذلك لا ندفع
 تأثير القمر في وقت امتلائه في الرطوبات حتى في جزر البحار ومدها فإن منها ما يأخذ في
 الازدياد من حين يفارق القمر الشمس إلى وقت الامتلاء ثم إنه يأخذ في الانقاص ولا
 يزال نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر حتى ينتهي إلى غاية نقصانه عند حصول الحاق
 ومن البحار ما يحصل فيه المد والجزر في كل يوم وليلة مع طلوع القمر وغروبه وذلك
 موجود في بحر فارس وبحر الهند وكذلك بحر الصين وكيفية أنه إذا بلغ القمر مشرقاً من
 مشارق البحر ابتداء البحر بالمد ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر إلى وسط السماء ذلك

بعدها عن الأرض فهنا وإن حصلت مسامحة مفيدة لمزيد السخونة لكن حصل أيضا البعد المقلل للسخونة فحصل الاعتدال من بعض الوجوه وفي الجانب الجنوبي وإن حصل مزيد القرب من الأرض لكن لم يحصل هناك مسامحة للمساكن المعمورة لخط الاعتدال في الجانبين بهذه الطريق وصار أهل الإقليم الثالث والرابع أفضل الناس صورا وأخلاقا .. وأما الإقليم الخامس فإن سخونة الهواء هناك أقل من الاعتدال بمقدار يسير فلا جرم صار في جزء البرد وصارت طبائع أهله أقل نضيجا من طبائع أهل الإقليم الرابع إلا أن بعدهم عن الاعتدال قليل .. وأما أهل الإقليم السادس والسابع فإن أهلها محرورون ولغلبة البرد والرطوبة عليهم يشتد بياض ألوانهم وزرقة عيونهم وأما المواضع التي تقرب من أن يكون الخط فيها فوق الرأس فهناك لا يصل تسخين الشمس إليها فلا جرم عظم البرد فيها ولم يكن هناك حيوان البتة وهذا كله يدل على أن الشمس جزء السبب وأن الهواء جزء السبب والأرض جزء وانعكاس الشعاع جزء وقبول المتفاعلات جزء بمجموع ذلك سبب واحد قدره العليم القدير وأجرى عليه نظام العالم وقدر سبحانه أشياء أخر لا يعرفها هؤلاء الجهال ولا عندهم منها خبر من تدبير الملائكة وحرركاتهم وطاعة استقصات العالم ومواده لهم وتصريفهم تلك المواد بحسب ما رسم لهم من التقدير الإلهي والأمر الرباني ثم قدر تعالى أشياء أخر تمنع هذه الأسباب عند التصادم وتدافعها وتظهر موجبها ومقتضاها ليظهر عليها أثر القهر والتسخير والعبودية وأنها مصرفة مدبرة بتصرف قاهر قادر كيف يشاء ليدل عباده على أنه هو وحده الفعال لما يريد المدبر الخلقه كيف يشاء وأن كل ما في المملوكة الإلهية طوع قدرته وتحت مشيئته وأنه ليس شيء يستقل وحده بالفعل إلا الله وكل ما سواه لا يفعل شيئا إلا بمشارك ومعاون وله ما يعاونه ويمانه ويسلبه تأثيره فتارة يسلب سبحانه النار إحراقها ويجعلها بردا كما جعلها على خليله بردا وسلاما وتارة يمسك بين أجزاء الماء فلا يتلاقى كما فعل بالبحر لموسى وقومه وتارة يشق الأجرام السماوية كما شق القمر لخاتم أنبيائه ورسله وفتح السماء لمصعده وعروجه وتارة يقلب الجناد حيوانا كما قلب عصاموسى ثعبانا وتارة يغير هذا النظام ويطلع الشمس من مغربها كما أخبر به أصدق خلقه عنه فإذا أتى الوقت المعلوم فشق السموات وفطرها ونثر الكواكب على وجه الأرض ونسف جبال العالم ودكها مع الأرض وكثر شمس العالم وقره ورأى ذلك الخلائق عيانا ظهر للخلائق كلهم صدقه وصدق رسله وعموم قدرته وكما لها وأن العالم بأسره منقاد لمشيئته طوع قدرته لا يستعصى عليه انفعاله لما يشاؤه ويريده منه وعلم الذين كفروا وكذبوا رسله من الفلاسفة والمنجمين والمشركين والسفهاء الذين سموا أنفسهم الحكماء أنهم كانوا كاذبين .. واجتمع جماعة من الكبراء والفضلاء يوما فقرأ قارىء إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال

الثاني والسادس والخامس ويقبل الخراب فيها وأما الإقليم الرابع فإنه أكثر الأقاليم عمارة وأقلها خرابا بالفصل الوسط على الأطراف بسبب اعتدال المزاج وهو الذي انتشرت فيه دعوة الإسلام وضرب الدين بجرانه فيه وظهر فيه أعظم من ظهوره في سائر الأقاليم ولهذا قال النبي ﷺ زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيلبلغ ملك أمتي مازوى لي منها، فكان انتشار دعوته ﷺ في أعدل الأرض ولذلك انتشرت شرقا وغربا أكثر من انتشارها جنوبا وشمالا ولهذا زويت له فأرى مشارقها ومغاربها وبشر أمته بانتشار مملكتهما في هذين الربعين فإنهما أعدل الأرض وأهلها أكمل الناس خلقا وخلقا فظهر الكمال له في الكتاب والدين والأصحاب والشرعية والبلاد والممالك صلوات الله وسلامه عليه فإن قيل فقد فضلت الإقليم الرابع على سائر الأقاليم مع أن شيئا من الأدوية لا تتولد فيه الادواء ضعيفا وإنما تكون الأدوية في سائر الأقاليم قيل هذا من أدل الدلائل على فضله عليها لأن طبيعة الدواء لا تكون معتدلة إذ لو حصل فيها الاعتدال لكان غذاء لا دواء والطبيعة الخارجة عن الاعتدال لاتحدث إلافي المساكن الخارجة عن الاعتدال وكذلك حال الشمس في المواضع التي تسامتها فوضع حضيضها وغاية قربها من الأرض في البراري الجنوبية تكون تلك الأماكن مخرقة نارية لايتكون فيها حيوان البتة ولذلك والله أعلم كان أكثر البخار من الجانب الجنوبي دون الشمالي لأن الشمس إذا كانت في حضيضها كانت أقرب إلى الأرض وإذا كانت في أوجها كانت أبعد وعند قربها من الأرض يعظم تسخينها والسخونة جاذبة للرطوبات وإذا انجذبت الرطوبات إلى الجانب الجنوبي انكشف الجانب الشمالي ضرورة وصار مستقرا للحيوان الأرضي والجنوبي أعظم الجانبين رطوبة وأكثرها مياها ومقرا للحيون المائي وأما المواضع المسامتة لأوج الشمس في الشمال فهي غير مخرقة بل معتدلة لبعده الشمس من الأرض وسبب التفاوت القليل الحاصل بين أقرب قرب الشمس من الأرض وأبعد بعدها منها صار الجنوبي مخرقا والجانب الشمالي معتدلا فلو كانت الشمس حاصلة في فلك الكواكب لقسد هذا العالم من شدة البرد ولو فرضنا أنها انحدرت إلى فلك القمر لأحرقت هذا العالم فاقتضت حكمة العزيز العليم الحكيم أن وضع الشمس وسط الكواكب السبعة وجعل حركتها المعتدلة وقربها المعتدل - بيا لاعتدال هذا العالم وجعل قربها وبعدها وارتفاعها وانخفاضها سببا لفصوله التي هي نظام مصالحه فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين . . وأهل الإقليم الأول لأجل قربهم من الموضع المحاذي لحضيض الشمس كانت سخونة هوائهم شديدة ولا جرم كانوا أشد سواها من مكان خط الاستواء . . وأهل الإقليم الثاني سخونة هوائهم ألطف فكانوا سمر الألوان . . والإقليم الثالث والرابع أعدل الأقاليم مزاجا بسبب اعتدال الهواء بسبب تعديل ارتفاع الشمس لا تكون في أبعد

فيختلف حال الهواء وأحوال الأبخرة في تكاثفها وبرودتها وتلطفها وحرارتها فتختلف التأثيرات باختلاف هذه الأسباب والسبب جزء الشمس في ذلك والأرض جزء والمقابلة الموجبة لانعكاس الأشعة جزء والمحل القابل للتأثير والانفعال جزء ونحن لانستكر أن قوة البرد بسبب بعد الشمس عن سمت رؤسنا وقوة الحر بسبب قرب الشمس من سمت رؤسنا ولا ننكر أن الشمس إذا طلعت فإن الحيوان ناطقه وبهيمة يخرج من مكانه وأكثته وتظهر القوة والحركة فيهم ثم مادامت الشمس صاعدة في الربع الشرقي فحركات الحيوان في الازدياد والقوة والاستكمال فإذا مالت الشمس عن وسط السماء أخذت حركات الحيوان وقواهم في الضعف وتستمر هذه الحال إلى غروب الشمس ثم كلما ازداد نور الشمس عن هذا العالم بعدا ازداد الضعف والفتور في حركة الحيوان وهدأت الاجساد ورجعت الحيوانات إلى مكانها فإذا طلعت الشمس رجعوا إلى الحالة الأولى ولا ننكر أيضا ارتباط فصول العالم الأربعة بحركات الشمس وحلولها في أبراجها ولا ننكر أن السودان لما كان مسكنهم خط الاستواء إلى محاذة ممر رأس السرطان وكانت الشمس تمر على رؤسهم في السنة إما مرة وإما مرتين تسودت أبدانهم وجمعدت شعورهم وقلت رطوباتهم فسامت أخلاقهم وضعفت عقولهم وأما الذين مساكنهم أقرب إلى محاذة ممر السرطان فالسواد فيهم أقل وطبائعهم أعدل وأخلاقهم أحسن وأجسامهم ألطف كأهل الهند واليمن وبعض أهل الغرب وعكس هؤلاء الذين مساكنهم على ممر رأس السرطان إلى محاذة نبات نعش الكبرى فهؤلاء لأنجل أن الشمس لا تسامت رؤسهم ولا تبعد عنهم أيضاً بعداً كثيراً لم يعرض لهم حر شديد ولا برد شديد قالوا إنهم متوسطة أجسامهم معتدلة وأخلاقهم فاضلة كأهل الشام والعراق وخراسان وفارس والصين ثم من كان من هؤلاء أميل إلى ناحية الجنوب كان أتم في الذكاء والفهم ومن كان منهم يميل إلى ناحية الشرق فهم أقوى نفوساً وأشد ذكورة ومن كان يميل إلى ناحية الغرب غلب عليه اللين والرزانة ومن تأمل هذا حق التأمل وسافر بفكره في أقطار العالم علم حكمة الله في نشره مذهب أهل العراق وما فيه من اللين وما شاكله في أهل المشرق ومذهب أهل المدينة وما فيه من الشدة والقوة في أهل المغرب وأما من كانت مساكنهم محاذية لنبات نعش وهم الصقالبة والروم فإنهم لكثرة بعدهم عن مسامحة الشمس صار البرد غالباً عليهم والرطوبة الفضلية فيهم لانه ليس من الحرارة هناك ما ينشفها وينضجها فلذلك صارت ألوانهم بيضاء وشعورهم سبعة شقراء وأبدانهم رخصة وطبائعهم مائلة إلى البرودة وأذهانهم جامدة وكل واحد من هذين الطرفين وهما الإقليم الأول والسابع يقل فيه العمران وينقطع بعضه عن بعض لأنجل غلبة اليبس ثم لاتزال العمارة تزداد في الإقليم

(١١ — مفتاح ٢)

كانت صفته أكثر مما في الزهرة كانت سخونته أكثر من سخونة الزهرة وكان في غاية الاعتدال وأما القمر فهو أبيض وفيه كمودة فيباضه يدل على البرد وأما عطارد فانا نرى عليه الألوان مختلفة فربما رأيناه أخضر وربما رأيناه أغبر وربما رأيناه على خلاف هذين اللونين وذلك في أوقات مختلفة مع كونه من الأفق على ارتفاع واحد فلا جرم قلنا إنه لـكونه قابلاً للألوان المختلفة يجب أن يكون له طبائع مختلفة إلا أنا لما وجدنا في الغالب عليه الغبرة الأرضية قلنا طبيعته أميل إلى الأرض واليبس . . وهذا التقرير باطل من وجوه عديدة أحدها أن المشاركة في بعض الصفات لا تقتضي المشاركة في الماهية والطبيعة ولا في صفة أخرى . . الوجه الثاني أن الدلالة بمجرد اللون على الطبيعة ضعيفة جداً فإن النورة والنوشار والزرنيخ والزئبق المصعد والكبريت في غاية البياض مع أن طبائعها في غاية الحرارة . . الثالث أن ألوان الكواكب ليست كما ذكرتم فزحل رصاصي اللون وهذا مخالف للغبرة والسواد الخالص وأما المشتري فلا بد أن بياضه أكثر من صفته فيلزم على قولكم أن برده أكثر من حره وهم ينكرون ذلك وأما الزهرة فلا صفرة فيها البتة بل الزرقة ظاهرة في أمرها فيلزم أن تكون خالصة البرد وأما المريخ فإن كان حره لشبهه بالنار في لونه فهذه المشابهة في الشمس والنار أتم فيلزم أن تكون حرارة الشمس وسخونتها أقوى من حرارة المريخ وهم لا يقولون ذلك وأما عطارد فانا وإن رأيناه مختلف اللون في الأوقات المختلفة إلا أن السبب فيه أنا لانراه إلا إذا كان قريباً من الأفق وحينئذ يكون بيننا وبينه بخارات مختلفة فلا جرم إن اختلف لونه لهذا السبب وأما القمر فقد قال زعيمكم المؤخر أبو معشر أنه لا ينسب لونه إلى البياض إلا من عدم الحس البصري فبين بطلان قولكم في طبائع الكواكب وتناقضه واختلافه . ولما علم بعض فضلائكم فساد قولكم في طبائع الكواكب وإن العقل يشهد بتكذيبه صدف عنه وأنكره وقال إنما نشير بهذه القوى والطبائع إلى ما يحدث عن كل واحد من الأجرام السماوية وينفعل بها من الكائنات الفاسدات لا أنها بطبائعها تفعل ذلك بل يحدث عنها ما يكون حاراً أو بارداً أو رطباً أو يابساً كما يقال إن الحركة تسخن والصوم يجفف لا على أنها تفعل ذلك بطبائعها بل بما يحدث عنها فبطليموس قال إن القمر مرطب والشمس تسخن بحسب ما يحدث عنهما وتنفعل المنفعلات بتلك القوى لا بأن طبائعها مكيفات فقال نحن لم ننازعكم في تأثير الشمس والقمر في هذا العالم بالرطوبة والبرودة واليبوسة وتوابعها وتأثيرها في أبدان الحيوان والنبات والمكن هما جزء من السبب المؤثر وليس بمؤثر تام فإن تأثير الشمس مثلاً إنما كان بواسطة الهواء وقبوله للسخونة والحرارة بانعكاس شعاع الشمس عليه عند مقابلتها لجرم الأرض ويختلف هذا القبول عند قرب الشمس من الأرض وبعدها

فلك القمر حتى يترطب فلك الأفلاك . . فان قلتم فلك القمر عائق عن ذلك . . قلنا وكرة
 الأثير حائلة بين عالمنا هذا وبين فلك القمر فكيف جوزتم وصول البخارات الأرضية إلى
 فلك القمر وفي مشابهة لون المريخ للون النار مما يقتضى تأثيره الاحراق والتجفيف وهل
 في الهذيان أعجب من هذا فان أرادوا النار البسيطة فانها لا لون لها وإن أرادوا النار الحادثة
 فهي بحسب مادتها التي توجب حرمتها وصفرتها وبياضها وأما كون الشمس تحته فهذا لا يقتضى
 تأثيرها فيه واعطاؤه قوة التجفيف والاحراق فان الشمس لو أثرت فيه ذلك واعطته إياه
 لسكانت الشمس بهذا التأثير والاعطاء للزهرة أولى لأن كرتها فوق كرة الزهرة ونسبتها إلى
 كرة الزهرة كنسبتها إلى كرة المريخ فهلا كانت قوة الزهرة التجفيف والاحراق بل تأثير
 الشمس فيما تحتها أولى من تأثيرها فيما فوقها . . قال صاحب الرسالة وإن الكواكب الثابتة
 التي في الدب الأكبر قوتها كقوة المريخ وهذا غلط عظيم لأن لون هذه الكواكب غير مشبه
 للون النار وليست الكوكبة التي فيها الشمس موضوعة تحتها بل الكوكبة التي فيها زحل موضوعة
 تحتها فهي بأن يكون حالها مشبهاً لحال زحل أولى لأنها فوقه وبعدها عن الشمس وعن
 حرارات الأرض أكثر من بعده . . قلت والعجب من هؤلاء يعلمون قول مقدمهم
 بطليموس أن طبائع الاجرام السماوية واحدة ثم يحكمون على بعضها بالحرارة وعلى بعضها
 بالبرودة وكذلك بالرطوبة واليبوسة . . قال وزعموا أن عطارد معتدل في التجفيف
 والترطيب لأنه لا يبعد في وقت من الأوقات عن حر الشمس بعدا كثيراً ولا وضعه فوق
 كرة القمر وإن الكواكب الثابتة التي في الجاني حالها شبيهة بحاله وليس يوجد لها من السبيين
 اللذين دلا على طبيعة عطارد شيئاً بل الدور يوجد لها ضد ذلك وهو أنها بعيدة من الشمس
 في أكثر الأوقات وإن فلكها أبعد أفلاك الكواكب من كرة القمر . . وقالوا إن الكواكب
 التي من النماذج (١) تشبه حال عطارد وزحل في بعض الأوقات وتشبه حال المشترى والمريخ
 في بعضها . . قلت وقد استدلل فضلائكم على اختلاف طبائع الكواكب باختلاف ألوانها
 فقالوا زحل لونه الغبرة والكمودة فحكمنا بأنه على طبع السوداء وهو البارد واليدين فان
 السوداء لها من الألوان الغبرة وأما المريخ فانه يشبه لونه لون النار فلا جرم قلنا طبعه حار
 يابس وأما الشمس فهي حارة يابسة لوجهين : أحدهما أن لونها يشبه لون الحرة الثاني أنا نعلم
 بالتدبير أنها مسخرة للأجسام منشفة للرطوبات وأما الزهرة فإننا نرى لونها كالمركب من البياض
 والصفرة ثم إن البياض يدل على طبيعة البلغم الذي هو البارد والرطوبة والصفرة تدل على الحرارة
 ولما كان بياض الزهرة أكثر من صفرتها حكمنا عليها بأن بردها ورطوبتها أكثر وأما المشترى فلما

ولنما يناله واحد من الناس ولا يلزم أن يكون في آباءه ملك ولا يكون ابن ملك فما بال طالع الملك المشترك بين عدة أولاد خص هذا وحده حتى أن أكثركم ينظر بنهم بطليموس إلى جنس المولود وما يصلح له فيحكم على ابن الملك بالملك وعلى ابن الحجام بالحجامة فإن كان طالعهما واحداً حكم بتقديم ابن الحجام في رئاسة صناعته وكونه كمالهم ومعلوم أن الحس والوجود أكبر المسكذبين لكم في هذه الأحكام فما أكثر من نال الملك وليس هو من أبناء الملوك البتة ولا كان طالعاه يقتضى ذلك وحرمة من يقتضيه طالعاه بزعمكم من أبوه ملك وكذلك الكلام في غير الملك من الطالع الذى يقتضى كون المولود حكماً عالماً أو حاذقاً في صناعته كما قد أخلف وحصل العلم والحكمة والتقدم في الصناعة لغير أرباب ذلك الطالع وفى ذلك أبين تكذيب لكم وإبطال لقولكم والله المستعان . . قال صاحب الرسالة وأبعد من ذلك قولهم أن الكواكب المنتحيرة أجل من الثوابت وأبين تأثيراً في العالم وإن كل واحد من الكواكب الثابتة يفعل فعلاً واحداً لا يزول عنه من غير أن ينحس أو يسعد وإن عطارد هو من الكواكب المنتحيرة ليس له طبع يعرف وأنه نحس إذا قارن النحوس وسعد إذا قارن السعود . . ومن ذلك قولهم أن قوة القمر الترطيب وإن العلة في ذلك قرب فلـكـه من الأرض وقبوله البخارات الرطبة التى ترتفع إليه منها وإن قوة زحل أن يبرد ويخفف تجفيفاً يسيراً وإن علة ذلك بعده عن حرارة الشمس وعن البخارات الرطبة التى ترتفع من الأرض وإن قوة المريخ مجففة محرقة لمشاكلته لونه للون النار ولقربه من الشمس لأن الكرة التى فيها الشمس موضوعة تحته . . قلت فليستأمل العاقل ما في هذا الكلام من ضروب المحال وما للفلك ووصول البخارات الأرضية إليه وهل في قوة البخارات تصاعدها إلى سطح الفلك مع البعد المفرط والبخار إذا ارتفع فغاية ارتفاعه كارتفاع السحاب لا يتعداه وهل تتأثر العلويات بطبائع السفليات وتتكيف بكيفياتها وتنفعل عنها . . وما يدل على فساد ذلك أيضاً أن القمر لو كان مترطباً من البخارات وجب أن تزداد رطوبته في كل يوم لأنه دائم القبول للبخارات ولا يقولون ذلك . . وإن التزمه منهم مكابر وقال كل يوم يزداد رطوبة . . قلت له فما تفكر أن تكون دلالة زحل والمريخ على النحوس تزايد وتكون دلالاته على النحوس في اليوم أكثر من دلالاته في الأمس ولو فتح عليكم هذا الباب فلعل السعد ينقلب نحساً وبالعكس وهذا يرفع الأمان عن أصول هذا العلم . . وأيضاً فإذا جوزتم انفعال الفلكيات عن أجزاء هذا العالم السفلى لزمكم تجويز فساد هذه الكواكب من هذه الأجرام العنصرية ولزمكم تجويز أن ترتفع إلى القمر من الأدخنة ما يوجب جفافه وبلوغه في اليبس الغاية وأيضاً فإذا جوزتم ذلك فلم لا تجوزون نفوذ تلك البخارات إلى ما وراء

بتركب الأجسام من الهوى والصورة لم يقولوا أن أحدهما متميز عن الآخر كما زعمتم ذلك في أجزاء الفلك بل عندهم الهوى والصورة قد اتحدوا وصارا شيئاً واحداً فلاشارة الحسية إلى أحدهما هي بعينها اشارة إلى الآخر وأنتم جمعتم الجزء المذكور من القلب مباينا للجزء الأثنى منه بالوضع والحقيقة والإشارة إلى أحدهما غير الإشارة إلى الآخر . وللكلام مع أصحاب الهوى مقام آخر ليس هذا موضعه فإن دعوى تركب الجسم منهما دعوى فاسدة من وجوه كثيرة وليس يصح شيء منه غير الهوى الصناعية كالخشب السرير والطبيعة كالمنى للولود وهي المادة الصناعية والطبيعية وما سوى ذلك نخيال ومحال والله المستعان . . عدنا إلى كلام صاحب الرسالة . . قال ومن ذلك زعمهم أنه إن انفق مولود ابن ملك وابن حجام في البلد والوقت والطالع والدرجة وكانت سائر دلالات السعادة موجودة في مولديهما وجب أن يكون من ابن الملك ملك جليل سائس مدبر ومن ابن الحجام حجام حاذق وهذا يخرج النجوم عن أن تكون تدل على ما يتحدد من حال الانسان ويجعلها تدل على حذقه وصناعة أبيه وتقصره فيها . . قلت وما يوضح فساد قولهم في ذلك أن بطليموس جعل الكواكب الدالة على الصناعات ثلاثة المريخ والزهرة وعطارد وقال لأن الصناعات العملية تحتاج إلى ثلاثة أشياء ضرورية أحدها المعرفة والثاني الآلة والثالث الطاقة في الكف ليخرج المعلول المصنوع حسنا والآلة للمريخ التي يشير إليها يكون على الأكثر إما حديد وإما مصاحبة للحديد ولذلك يقولون صورته صورة شاب بيميناه سيف مسلول ويسراه رأس سنان وهو راكب أسدا وثيابه حمراء تلهب وآخرون منهم يقولون على رأسه بيضة ويسراه طبرزين وعليه خرقة حمراء وهو راكب فرسا أشهب والمعرفة لعطارد ولذلك يقولون صورته صورة شاب بيميناه حبة ويسراه لوح يقرأه وعلى رأسه تاج وثيابه ملوثة بالتراويق والنقوش وماشاكل ذلك للزهرة ولذلك يقولون صورتها صورة امرأة حسنة بين يديها مدق تضرب به وهي راكبة على جمل ومنهم من يقول امرأة جالسة مرخاة الشعر ذوائبها يسراها وباليمنى مرآة تنظر فيها نظيفة الثوب وعليها طوق واسورة وخلاخل وأما الشمس والقمر فهما الدالان على الملك فالشمس صورتها صورة رجل بيده اليمنى عصا يتوكأ عليها وباليمنى جزر راكب عجلة تجرها أربعة نمور ومنهم من يقول صورتها صورة رجل جالس قابض على أربعة أعنة أفراس ووجهه كالطبق يلهب نارا قالوا ودلائل الملك ليست بأعيانها هي دلائل الصناعات ودلائل الصناعات هي دلالات الملك بل قد يجوز أن يدل على رياسة ما إلا أن الملك أخص من الرياسة ولكل واحد من الكواكب على الاطلاق دلالة على رياسة مافي معنى من المعاني . . فيقال أرايتم ان حصلت أدلة الملك في طالع مولود ليس من الملك في شيء بل أكثر المولودين لا ينالون الملك البتة

الرجل قال والحال هذه العلة يكون طمعت النساء من قبل الطباع في نقص الأهله أكثر لأن تلك الأيام
أبرد من سائر أيام الشهر وهى أرطب أيضا لنقص الأهله وقلة الحرارة والشمس تصير الصيف
والشتاء في كل سنة فأما القمر فيفعل ذلك في كل شهر فتأمل كلام الرجل فإنه لم يتعرض ليكون
القمر ذكر ولا أنثى ولا أحال على ذلك وإنما أحال على الأمور الطبيعية في الكائنات الفاسدات
وبين تأثير النيرين في الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة وجعل لذلك تأثيرا في الإذكار والإيناث
لأن النجوم والطوالع ومع أن كلامه أقرب إلى العقول من كلام المنجمين فهو باطل من وجوه كثيرة
معلومة بالحس والعقل وإخبار الأنبياء فان الإذكار والإيناث لا يقوم عليه دليل ولا يستند إلى
أمر طبيعي وإنما هو مجرد مشيئة الخالق البارئ المصور الذي يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن
يشاء الذكور ويزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم بقدير الذي أعطى كل شيء
خلقه ثم هدى وكذا هو قرين الأجل والرزق والسعادة والشقاوة حيث يستأذن الملك الموكل
بالمولود ربه وخالقه فيقول يارب أذكر أم أنثى سعيد أم شقى فما الرزق فما الأجل فيقضى الله
ما يشاء ويكتب الملك. ولاستقصاء الكلام في هذه المسألة موضع هو أليق بها من هذا وقد
أشبعنا الكلام فيها في كتاب الروح والنفس وأحوالها وشقاوتها وسعادتها ومقرها بعد الموت
والمقصود الكلام على أقوال الأحكاميين من أصحاب النجوم وبيان تهاافتها وانها إلى المحالات
والتخيلات أقرب منها إلى العلوم والحقائق . . وأما قول المنتصر لكم ان الشمس إذا كانت
مسامة الرؤوس كان الحر واليبس وهما من طبيعة الذكور وإذا كان القمر مسامة للرؤوس
كان البرد والرطوبة وهما من طبيعة الاناث فيقال هذا لا يدل على تأنيث القمر وتذكير الشمس
بوجه من الوجوه فان البرد والرطوبة يكونان أيضا بسبب بعد الشمس من المسامة وميلها عن
الرؤوس وحصولها في البروج الشمالية سواء كان القمر مسامتا أو غير مسامت فينبغى على
قولكم أن يكون سبب هذا البرد أنثى وهذا لا يقوله عاقل بل الأسباب الطبيعية من برد الهواء
وتسكافته وتأثير الشمس في تحليل الأبخرة التي تكون منها الحرارة بسبب بعدها عن الرؤوس
وليس سبب ذلك أنثى اقتضته وفعله فقد جمعتم إلى جهلكم بالطبيعة والكذب على الخلق
القول الباطل على الله وعلى خلقه وليس العجب إلا بمن يدعى شيئا من العقل والمعرفة كيف
ينقاد له عقله بالاصغاء إلى محالاتكم وهذا يائسكم ولكن كل مجنون مهيب ولما تكايس من
تكايس منكم في أمر الهوى وزعم أنها أنثى وان الصورة ذكر وان الجسم الواحد مشتمل
على الذكر والأنثى أضحك عقلاء الفلاسفة عليه فان زعيمهم ومعلمهم الأول قد نص في كتاب
الحيوان له على أن الهوى في الجسم كالذكر . . وان قلتم فهذا يشهد لقولنا أيضا لانها ان كانت
عنده كالذكر فالصورة أنثى فصار الجسم الواحد بعضه ذكر وبعضه أنثى . . قلنا القائلون

لحاق العلامة اه في شيء من ذلك فعلى هذا الوجه وقع التذكير والتأنيث في أعضاء الحيوان وأما قسمتكم البروج وأجزاء الفلك إلى مذكر ومؤنث فليست بهذا الاعتبار بل باعتبار الفعل والانفعال والحرارة والرطوبة فتشبيهه أحد البابين بالآخر تلبيس وجهل وأما تركيب الجسم من الهوى والصورة فأكثر العقلاء نفوه وقالوا هو شيء واحد متصل متوارد عليه الاتصال والانفصال كما يتوارد عليه غيرهما من الأغراض فيقبلها ولا يلزم من قبول الاتصال والانفصال أن يكون هناك شيء آخر غير الجسمية يقبل به ذلك والذين قالو بتركيبه منها لم يقل أحد منهم أصلاً أنه مركب من ذكر وأنثى والصورة مؤنثة في اللفظ لافي الطبيعة واضحا على عقولهم السخيفة . . وأما دلالة الشمس على الأب وهو مذكر ودلالة القمر على الأم وهى أنثى فلو سلمت لكم هذه الدلالة كيف يلزم منها تذكير مادل على الذكر وتأنيث ما يدل على الأنثى وأين الارتباط العقلي بين الدليل والمدلول في ذلك كيف ودلالة الشمس على الأب والقمر على الأم مبنى على تلك الدعاوى الباطلة التي ليس لها مستند إليه إلا خيالات وأوهام لا يرضاها العقلاء . . وأما ما حكوه عن ارسطو فنقل محرف ونحن نذكر نصه في الكتاب المذكور فإن لنا به نسخة مصححة قد اعتنى بها قال في المقالة الثامنة عشر بعد أن تكلم في علة الإذكار والإيناث وذكر قول من قال أن سبب الإذكار حرارة الرحم وسبب الإيناث برودته وأبطل هذا بأن الرحم مشتمل على الذكر والأنثى معاً في الإنسان وفي كل حيوان يلد قال فقد كان ينبغي على قول هذا القائل أن يكون التوأمين إما ذكراً وإما أنثيين وأبطله بوجوه أخرى وهذا رأى أنبذ فليس وذكر قول ديمقراطيس أن ذلك ليس لأجل حرارة الرحم وبرودته بل بحسب الماء الذي يخرج من الذكر وطبيعته في الحرارة والبرودة وجعل قوة الإذكار والإيناث تابعة لماء الذكر وذكر قول طائفة أخرى أن خروج الماء من الناحية اليمنى من البدن هي علة الإذكار وخروجه من الناحية اليسرى هي علة الإيناث قال إن الناحية اليمنى من الجسد أسخن من الناحية اليسرى وأنضج وأدفأ من غيرها ورجع قول ديمقراطيس بالنسبة إلى هذه الآراء ثم قال فقد بينا العلة التي من أجلها يخلق في الرحم ذكر وأنثى والأغراض التي تعرض تشهد لما بيننا أن الأحداث يلدون الإناث أكثر من الشباب والمتشبهون يلدون إناثاً أيضاً أكثر من الشباب لأن الحرارة التي في الأحداث ليست بتامة بعد الحرارة التي في الشيوخ ناقصة والأجسام الرطبة التي خلقتها شبيهة بخلقة بعض النساء تلد إناثاً أكثر ثم قال فإذا كانت الرياح شمالاً كان الولد ذكراً وإذا كانت جنوباً كان المولود أنثى لأن الأجساد إذا هبت الجنوب كانت رطبة وكذلك يكون الزرع أكثر وكلما كثرت الزرع يكون الطبخ غير نضج ولحال هذه العلة يكون زرع الذكورية ويكون دم طمئ النساء من قبل الطباع عند خروجه أرطب أيضاً قلت ومراده بالزرع الماء الذي يكون من

سدس قسمه بنصفين فنسب النصف الاول إلى الاثنى والآخر إلى الذكر كما عمل بالبرج الذكر حتى أتى على البروج كلها . . وأما دوروسوس فله هذيان آخر فانه يقسم البروج كلها كل برج ثمانية وخمسين دقيقة ومائة وخمسين ثانية ثم ينظر فان كان البرج ذكراً أعطى القسمة الأولى للذكر ثم الثانية للأثنى إلى أن يأتي على الأقسام كلها وإن البرج أنثى أعطى القسمة الأولى للذكر إلى أن يأتي على الأقسام كلها ولو قدر أن جاهلاً آخر تفن في هذه الأوضاع وقلبها وتكلم عليها لكان من جنس كلامهم ولم يكن عندهم من البرهان ما يردون به قوله بل إن رأوه قد أصاب في بعض أحكامه لا في أكثرها أحسنوا به الظن وتقلدوا قوله وجعلوه قدوة لهم وهذا شأن الباطل . . عدنا إلى كلام عيسى في رسالته قالواختلفوا في الحدود فزعم أهل مصر أنها تؤخذ من أرباب البيوت وزعم السكلاينيون أنها تؤخذ من مدبر المثلثات وإذا كان اختلاف الذين يعتقدون بهم في أصولهم هذا الاختلاف وليس هم ممن يطالب بالبرهان ولا يعتقد الشيء حتى يصح على البحث والقياس فيعرفون مع من الحق من رؤسائهم وفي أي قول هو من أقوالهم فيعملون به وإنما طريقتهم التسليم لما وجدوه في الكتب المنقولة من لسان إلى لسان فكيف يجوز لهم أن يتفردوا باعتقاد قول من هذه الأقوال وينصرفوا عما سواه إلا على طريق الشهوة والتخمين والله المستعان.

(ذكر بعض ما يستبشع من أقوالهم ويستدل به على مناقضتهم)

من ذلك زعمهم أن الفلك جسم واحد وطبيعة واحدة وأنه شيء واحد وليس بأشياء مختلفة ثم زعموا بعد ذلك أن بعضه ذكر وبعضه أنثى ولا دلالة لهم على ذلك ولا برهان ولا وجدنا جسماً واحداً في الشاهد بعضه ذكر وبعضه أنثى قلت قد رام بعض المبلسين من فضلائهم تصحيح هذا الهذيان فقال ليس يستحيل أن يكون جسم واحد بعضه أنثى وبعضه ذكر كالرجل مثلاً فإن العين والأذن واليد والرجل منه مؤنثة والرأس والصلاب والصدر والظهر منه ذكر وأيضاً فإن الجسم مركب من الهيمولي والصورة والهيمولي مذكرة والصورة مؤنثة وأيضاً لما وجد المنجمون الشمس تدل على الآباء والأب ذكر والقمر يدل على الأم وهي أنثى قالوا إن الشمس ذكر والقمر أنثى قالوا وقد قال أرسطو في كتاب الحيوان طمط المرأة يقل في نقصان الشهر وكذلك قال بعض الناس أن القمر أنثى قالوا وأيضاً فالشمس إذا كانت قريباً من سمت الرأس كان الحر واليبس وهما من طبيعة الذكورية والقمر إذا كان يقرب من سمت الرأس بالليل كان البرد والرطوبة وهما من طبيعة الأنثى فليعجب العاقل اللبيب من هذه الخرافات . . فأما أعضاء الإنسان الذكور والأنثى فذلك أمر راجع إلى مجرد اللفظ والحق علامة التأنيث في تصغيره ووصفه وخبره وعود الضمير عليه بلفظ التأنيث وجمعه جمع المؤنث وليس ذلك عائد إلى طبيعة العضو ومزاجه فنظير هذا قول النحاة الشمس مؤنثة للحاق العلامة لها في تصغيرها فنقول شمسية وفي الخبر عنها نحو الشمس طالعة والقمر مذكر لعدم

يحفظ طبيعته أعني ينقسم دائماً الى فرد والزوج لا يحفظ طبيعته أعني ينقسم مرة الى الأفراد
ومرة الى الأزواج كما يعرض ذلك للآتي فانها تد مرة مثلها ومرة ذكر أخالفا لها ومرة ذكرين
ومرة أنثيين ومرة ذكرا وأنثى وفساد هذا والعلم بفساد عقل صاحبه ونظره مغن لذى اللب
عن تطلب دليل فسادة قال المنتصر وانما جمعوا للبرج الآتي بل برج الذكر فلان الطبيعة
هكذا ألف الإعداد واحدا فردا وآخر زوجا هكذا بالغاما بلغ هذه القسمة عندهم هي
قسمة ذاتية للبروج ولها قسمة ثانية بالعرض وهي أنهم يبدؤن من الطالع الى الثاني عشر فيأخذون
واحدا ذكرا وهو الأول وآخر أنثى وهو ما يليه وهذه تختلف بحسب اختلاف الطالع والقسمة
الأولى انما كانت ذاتية لأن الابتداء لها برأس الحمل وهو موضع تقاطع الدائرتين اللتين
هما فلك البروج ومعدل النهار وأما الليل للقسمة فإنه لا يبقى على حال واحدة لأنه ماخوذ
من الجزء المماس لأفق البلد وهو دائما يتغير بحركته مع الشكل وحصول الاجزاء كلها
واحدا بعد آخر على الافق دورة واحدة وأما قسمة الفلك أرباعا فإنهم قالوا اذا خرج
خط من أفق المشرق الى أفق المغرب وخط من وتد الأرض الى وسط السماء انقسمت
البروج أربعة أقسام كل قسم ثلاثة بروج على طبيعة واحدة ابتداء كل قسم من طرف
قطر الى طرف القطر الذي يليه وأطراف هذين القطرين تسمى أوتاد العالم والقسم الأول
من وتد المشرق الى وتد العاشر ذكر شرقي مخفف سريع ومن وتد العاشر الى وتد الغارب
مؤنث جنوبي محرق وسط ومن ذيل الغارب الى وتد الرابع ذكر مقبل رطب غربي بطيء ومن
تد الرابع الى وتد الطالع مؤنث دليل مبرد شمالي وسط وهذه القسمة مخالفة لتلك القسمتين
لان هذه قسمة البروج بأربعة أقسام متساوية كل ثلاثة بروج منها تسعين درجة لها طبيعة
تخصها مع أن الفلك شيء واحد وطبيعة واحدة وقسمته الى الدرج والبروج قسمة وهمية
بحسب الوضع فكيف اختلف طبائعها وأحكامها وتأثيراتها واختلفت بالذكورية والانوثة..
ثم إن بعض الأوائل منهم لم يقتصر على ذلك بل ابتدأ بالدرجة الأولى من الحمل فنسبها الى
الذكورية والثانية الى الانوثة هكذا الى آخر الحوت ولا ريب أن الهذيان لازم لمن قال
بقسمة البروج الى ذكر وأنثى وقال الذكر طبيعة الفرد والأنثى طبيعة الزوج فان هذا بعينه
لازم لهم في درجات البرج الواحد وكان هذا القائل تصور لزومه لأولئك فالتزمه . . وأما
بطليموس فله هذيان آخر فانه ابتدأ بأول درجة كل برج ذكر فنسب منها الى تمام اثني عشر
درجة وبضعا الى الذكورية ومنه الى تمام خمس وعشرين درجة الى الانوثة ثم قسم باقي البرج
بالنصفين فنسب النصف الأول الى الذكر والنصف الآخر الى الأنثى وعلى هذه القسمة ابتدأ
بالبروج الأنثى فنسب الثلث ونصف السدس الى الانوثة ومثلها بعده الى الذكورية وبقي

فلذلك يجب عنده أن يؤخذ العدد أبدا من الشمس الى القمر لتبقى تلك النسبة وهى البعد بين كل واحد من النيرين طالعه محفوظ فهذا قول آخر غير قول أولئك وللفرس مذهب آخر وهو أنهم قالوا لما كانت الشمس لها نوبة النهار والقمر له نوبة الليل وكان سهم السعادة بالنهار يؤخذ من الشمس الى القمر وجب أن يعكس ذلك بالليل لأن نسبة النهار الى الشمس مثل نسبة الليل الى القمر وكل واحد من النيرين ينوب واحدا من الزمانين فيأخذون منهم السعادة بالليل من القمر الى الشمس وبالنهار بالعكس وزعموا أن كلام بطليموس إنما يدل على هذا لأنه قال وإن أخذنا من الشمس الى القمر الى خلاف تأليف البروج وألفيته بالعكس كان موافقا للأول فقالوا يجب أن يعكس الأمر بالليل فهذا اختلاف المنجمين على بطليموس يقتض بعضه بعضا وليس بأيدي الطائفة برهان يرجحون به قولا على قول (أن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يبغي من الحق شيئا. فأعرض من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلى الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) قالوا واختلفوا فرتبت طائفة منهم البروج المذكورة والمؤنثة من البرج الطالع فعدوا واحدا مذكرا وآخر مؤنثا وصيروا الابتداء بالمذكر وقسمت طائفة أخرى البروج أربعة أجزاء وجعلوا البروج المذكورة هى اثني من الطالع إلى وسط السماء والتي يقابلها من الغرب إلى وتد الأرض وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين قلت ومن هذيانهم في هذا الذي أضحكوا به عليهم العقلاء أنهم جعلوا البروج قسمين حار المزاج وبارد المزاج وجعلوا الحار منها ذكرا والبارد أنثى وابتدؤوا بالحل وصيروه ذكرا حارا ثم الذى بعده مؤنثا باردا ثم هكذا إلى آخرها فصارت ستة ذكورا وستة أنثانا وليست على الأوائل واحد ذكر وثلاثة آخر أنثى يخالف له في الطبيعة والذكورية والأنوثة مع أن قسمة الفلك إلى البروج قسمة فرضية وضعية فهل في أنواع هذيان الهاذين أعجب من هذا ولما رأى من به رمق من عقل منهم تهافت هذا الكلام وسخرية العقلاء منه رام تقريبه بغاية جهده وحذقه فقال إنما ابتدأ بالذكر دون الأنثى لأن الذكر أشرف من الأنثى لأنه فاعل والأنثى منفعة فاعجبوا يامعشر العقلاء وأسألوا الله أن لا يخسف بعقولكم كما خسف بعقول هؤلاء لهذا الهذيان افترى في البروج ناكحا ومنكوحا يكون المنكوح منها منفعلا لنا كحه بالذكورية والأنوثة تابعة لهذا الفعل والانفعال فيها قال وأيضا فالذكورية بسبب الانفراد وازواج فيها فان الأفراد ذكور والأزواج إناث وهذا أعجب من الأول أن الذكر ينضم إلى الذكر فيصير المضموم إليه أنثى فتبا للمصنف ليكم والمجوز عقله صدقكم وإصابتكم وأما أنتم فقد أشهد الله سبحانه عقلاء عباده وأنباهم مقدار عقولكم وسخافتها فله الحمد والمنة قال هذا المنتصر لهم وانما جعلوا الأفراد للذكور والأزواج للأنثى لأن الفرد

ولأنما تختلف دلالتها على السعد والنحوس وإن لم تكن في أنفسها مختلفة واختلفوا فقال قوم إنها تؤثر في الأبدان والأنفس جميعا وقال الباكون بل في الأبدان دون الأنفس قلت أكثر المنجمين على القول بأنها تسعد وتنحس غيرها وأما الفرقة التي قالت هي دالة على السعد والنحس فقولهم وإن كان أقرب إلى التوحيد من قول الأكثرين منهم فهو أيضا قول مضطرب متناقض فإن الدلالة الحسية لا تختلف ولا تتناقض وهذا قول من يقول منهم إن الفلك طبيعة مخالفة لطبيعة الاستقصات السكائنة الفاسدة وأنها لاحارة ولا باردة ولا يابسة ولا رطبة ولا تسعد ولا نحس فيها وإنما يدل بعض أجزائها على الخير وبعضها على الشر وارتباط الخير والشر والسعد والنحس بهما ارتباط المدلولات بأدلتها لارتباط المعلومات بعلمها ولأريب أن قائل هذا أعقل وأقرب من أصحاب القول بالافتضاء الطبيعي والعلية وأما القول بتأثيرها في الأبدان والأنفس فهو قول بطليموس وشيعته وأكثر الأوائل من المنجمين وهؤلاء لهم قولان أحدهما أنها تفعل في الأنفس بالذات وفي الأبدان بالعرض لأن الأبدان تفعل عن الأنفس والثاني أنها هي سبب جميع ما في عالم الكون والفساد وفعلها في ذلك كله بالذات وكأنه لا خلاف بين الطائفتين فإن الذين قالوا فعلها في النفوس لا يضيفون أفعال الأبدان إلى غيرها بذاتها بل بوسائط قال واختلف رؤسؤهم بطليموس ودورسوس والطيقوس وريسمس وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل في الحدود وغيرها وتضادوا في المواضع التي يأخذون منها دليلهم فبعضهم يفلرب بيت الطالع وبعضهم يقول بالدليل المستولى على الحظوظ واختلفوا فزعم بطليموس أنهم يعلم منهم السعادة بأن يأخذ أبدا العدد الذي يحصل من موضع الشمس إلى موضع القمر ويتبدى من الطالع فيرصد منه مثل ذلك العدد ويأخذ إلى الجهة التي تتلو من البروج فيكون قد عرف موضع السهم وزعم غيره أنه يعد من الشمس ثم يتبدى من الطالع فيعد مثل ذلك إلى الجهة المتقدمة من البروج قلت وزعم آخرون أن بطليموس يرى أن جميع ما يكون ويفسد إنما يعرف دليله من موضع التقاء النيرين إما الاجتماع وإما الامتلاء لأن هذين الكوكبين عنده مثل الرئيسين العظيمين أحدهما يثمر إصاحبه وهو القمر وهما سببا جميع ما يحدث في عالم الكون والفساد وأن الكواكب الجارية والثابتة منهما بمنزلة الجنود والعسكر من السلطان فإذا أراد النظر في أمر من الأمور فإن كان بعد الاجتماع أو عنده فانه يأخذ الدليل عليه من الكوكب المستولى على جزء الاجتماع وجزئ الشمس والقمر في الحال وشاركه مع الشمس بالنسبة إلى الطالع وإذا كان بعد الامتلاء أو عنده فانه ينظر أى النيرين كان فوق الأرض عند الامتلاء وينظر إلى الكوكب المستولى على ذلك الجزء وجزء النير الذى كان بعد الشمس من الطالع كبعد القمر من سهم السعادة

مقنع وهذه هي الطرق التي تثبت بها الموجودات وتعلم بها حقائق الأشياء لا طريق لها هنا غيرها ولا شيء لأحكام النجوم منها وأنا ابتدئ الآن بوصف جملة من اختلافهم في الأصول التي يبنون عليها أمرهم ويفرغون عنها أحكامهم وأذكر المستبشع من أقوالهم وقضاياهم وظاهر مناقضاتهم ثم آتى بطرف من احتجاجهم والاحتجاج عليهم والله الموفق للصواب بفضلته . . . ذكر اختلافهم في الأصول زعموا جميعاً أن الخير والشر والإعطاء والمنع وما أشبه ذلك يكون في العالم بالكواكب وبحسب السعد منها والنحوس وعلى حسب كونها من البروج الموافقة والمنافرة لها وعلى حسب نظر بعضها إلى بعض من التسديس والتربيع والتثليث والمقابلة وعلى حسب محاسبة بعضها بعضاً وعلى حسب كونها في شرفها وهبوطها ووبالها ثم اختلفوا على أى وجه يكون ذلك فزعم قوم منهم أن فعلها بطبائعها وزعم آخرون أن ذلك ليس فعلاً لها لكنها تدل عليه بطبائعها . قلت وزعم آخرون أنها تفعل في البعض بالعرض وفي البعض بالذات قال وزعم آخرون أنها تفعل بالاختيار لا بالطبع إلا أن السعد منها لا يختار إلا الخير والنحس منها لا يختار إلا الشر وهذا بعينه نفى للاختيار فان حقيقة القادر المختار القدرة على فعل أى الضدين شاء وترك أيهما شاء . قلت ليس هذا بشيء فانه لا يلزم من كون المختار مقصود الاختيار على نوع واحد سلب اختياره ولكن الذى يبطل هذا أنهم يقولون إن الكوكب النحس سعد في برج كذا وفي بيت كذا وإذا كان الناظر إليه من النجوم كذا وكذا وكذلك الكوكب السعد ويقولون إنها تفعل بالذات خيراً وبالعرض شراً وبالعكس وقد يقولون أنها تختار في زمان خلاف ما تختار في زمان آخر وقد تتفق كلها أو أكثرها على إشار الخير فيكون في العالم في ذلك الوقت على الأكثر الخير والنفع والحسن قالوا كما كان في زمن بهمن وفي أيام أنوشروان وبضد ذلك أيضاً فيقال إذا كانت مختارة وقد تتفق على إرادة الخير وعلى إرادة الخير والشر بطل دلالة حصولها في البروج المعينة ودلالة نظر بعضها إلى بعض بتسديس أو تربيع أو تثليث أو مقابلة لأن هذا شأن من يقع فعله إلا عن وجه واحد في وقت معين على شروط معينة ولا ريب أن هذا ينفي الاختيار فكيف يصح قولكم بذلك وجمعكم بين هاتين القضيتين أعنى جواز اختيارها في زمان خلاف ما تختاره في زمان آخر وجواز اتفاقها على الخير واتفاقها على الشر من غير ضابط ولا دليل يدلكم عليه ثم تحكمون بتلك الأحكام مستندين فيها إلى حركاتها الخصوصية وأوضاعها ونسبة بعضها إلى بعض وهل هذا الاضحاك للعقلاء قال وزعم آخرون أنها لا تفعل باختيار بل تدل باختيار وهذا كلام لا يعقل معناه إلا أنى ذكرته لما كان مقولاً واختلفوا فقالت فرقة من الكواكب ماهو سعد ومنها ماهو نحس وهي تسعد غيرها وتنحسها وقالت فرقة هي في أنفسها طبيعة واحدة

عونا على ما قرب منه وتوفيقا لما أزلف لديه إنه قريب مجيب فعال لما يريد لست مستعملا للتحامل على من أثبت تأثير الكواكب في هذا العالم وترك لإنصافهم كما فعل قوم ردوا عليهم فإنهم دفعوه عن أن يكون لها تأثير البتة غير وجود الضياء في المواضع التي تطلع فيها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه وما جرى هذا المجرى بل أسلم لهم أنها تؤثر تأثيرا ما يجري على الأمر الطبيعي مثل أن يكون البلد القليل العرض مزاجه يميل عن الاعتدال إلى الحر واليبس وكذلك مزاج أهله ضعيف وألوانهم سود وصفر كالنوبة والحبشة وأن يبدون البلد الكثير العرض مزاجه يميل عن الاعتدال إلى البرد والرطوبة وكذلك مزاج أهله وأجسامهم عble وألوانهم بيض وشعورهم شقر مثل الترك والصقالبة ومثل أن يكون النبات ينمو ويقوى ويتكامل وينضج ثمرة بالشمس والقمر فإن أهل الصحراء ومن يعانها يجمعون على أن الشتاء تطول وتغلظ بالقمر وقد شاهدت غير شجرة كبيرة حاملة من التين والتوت وغيرهما فاقابل الشمس منها أسرع نضج الثمر السكائن فيه وما خفي منها عنها بقي ثمرة فجأ وتأخر إدراكه ومثال ذلك ما شاهد من حال الريحان الذي يقال له اللينوفر وحال الخبازي وورق الخطمي والأديون وأشياء كثيرة من النبات فإننا نراه يتحرك وينفتح مع طلوع الشمس ويضعف إذا غابت لأن هذه أمور محسوسة وليس الكلام في هذا التأثير كيف هو وعلى أي سبيل يقع فما يليق بفرضنا ههنا فلذلك أدعاه فأما ما يزعمونه فيما عدا هذا من أن النجوم توجب أن يعيش فلان كذا كذا سنة وكذا كذا شهراً وينتهون في التحديد إلى جزء من ساعة وأن يدل على تقليد رجل بعينه الملك وتقليد آخر بعينه الوزارة وطول مدة كل واحد منهما في الولاية وقصرها وما فعله الإنسان وما يفعله في منزله وما يضمه في قلبه وما هو متوجه فيه من حاجاته وما هو في بطن الحامل والسارق ومن هو المسروق وما هو وأين هو وكميته وكيفيته وما يجب بالكسوف وما يحدث معه والختار من الأعمال في كل يوم بحسب اتصال القمر بالكواكب من أن يكون هذا اليوم صالحاً للقاء الملوك والرؤساء وأصحاب السيوف وهذا يوم محمود للقاء الكتاب والوزراء وهذا اليوم محمود للقاء القضاة وهذا اليوم محمود لأمر النساء وهذا اليوم محمود لشرب الدواء والفصد والحجامة وهذا اليوم محمود للعب الشطرنج والنرد وغير ذلك فمحال أن يكون معلوما من طريق الحس وليس نص من كتاب الله بل قد نص الله سبحانه وتعالى فيه على بطلانه بقوله تبارك وتعالى (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل قد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من أتى عرفاً أو كاهناً أو منجماً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ولاهاهنا ضرورة تدعو إلى القول به ولا هو أول في المعقول ولا يأتون عليه ببرهان ولا دليل

الرصد الممتحن المأمون في البروج درجات ومن الرصد الحاكي دقائق وسلك في الأحكام طرقاً غير الطرق المعهودة منه اليوم وزعم أن عليها المعول وأن طرق من تقدمه ليست بشيء ولو حدث في هذا العصر من يشبه من تقدمه لرأينا اختلافاً آخر ولكن هذه الصناعة قد ماتت ولم يبق بأيدي المنتسبين إليها إلا تقليد هؤلاء الضلال فيما فهموه من كلامهم الباطل وما لم يفهموه منه فقد يظنون أنه صحيح ولكن أفهامهم نبت عنه وهذا شأن جميع أهل الضلال مع رؤسائهم ومتبوعينهم فجهال النصارى إذا ناظرهم الموحد في تثليثهم وتناقضه وتكاذبه قالوا الجواب على التقييس والتقييس يقول الجواب على المطران والمطران يحيل الجواب على البترك والبترك على الأسقف والأسقف على الباب والباب على الثلاثمائة والثمانية عشر أصحاب الجمع الذين اجتمعوا في عهد قسطنطين ووضعوا للنصارى هذا التثليث والشرك المناقض للعقول والأديان ولعلمهم عند الله أحسن حالاً من أكثر القائلين بأحكام النجوم الكافرين برب العالمين وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر .

فصل

ورأيت لبعض فضلائهم وهو أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى رسالة بليغة في الرد عليهم وإبداء تناقضهم كتبها لما بصره الله رشده وأراه بطلان ما عليه هؤلاء الضلال الجاهل كتبها نصيحة لبعض إخوانه فأحببت أن أورها بلفظها وإن تضمنت بعض الطول والتكرار وأتعقب بعض كلامه بتقرير ما يحتاج إلى تقرير وسؤال يورد عليه ويطن به على كلامه ثم بالجواب عنه ليكون قوة للبسترشد وبياناً للتشجير ونبصرة للمهتدي ونصيحة لأخواني المسلمين وهذا أولها .

(بسم الله الرحمن الرحيم) عصمك الله من قبول المحالات واعتقاد ما لم تقسم عليه الدلالات وضاعف لك الحسنات وكفأك المهمات بمنه ورحمته كنت أدام الله توفيقك وتسديك ذكرت لي إهتمامك بما قد لُهج به وجوه أهل زماننا من النظر في الأحكام النجوم وتصديق كل ما يأتى من ادعى أنه عارف بهامن علم الغيب الذى تفرد الله سبحانه وتعالى به ولم يجعله لأحد من الأنبياء والمسلمين ولا ملائكته المقربين ولا عباده الصالحين من معرفة طويل الأعمار وقصيرها وحديد العواقب وذميمها وسائر ما يتجدد ويحدث ويتخوف ويتمنى وسألني أن أعمل كتاباً أذكر فيه بعض ما وقع من اختلافهم في أصول الأحكام الدالة على فهمهم فحسب اعتقادهم وما يستدل به من طريق النظر والقياس على ضعف مذهبهم وأخص ذلك واخصره وقربه بحسب الوسع والطاقة فوعدتك بذلك وقد ضمنته كتابي هذا والله أسأل

جزئياته بحجج على سبيل النظر والجدل فظن أنها برهان لجهله بطريق البرهان وطبيعته خصل
من كلام هذا تجهيل أصحاب الأحكام كما حصل في كلام الصوفي تمكذيب أصحاب الإرساد
وهذان رجلان من عظمائهم وزعمائهم ثم حدثت جماعة أخرى منهم المنجم المعروف بالفكرى
منجم الحاكم بالديار المصرية وكان قد انتهت إليه رياسة هذا العلم وكان قد قرأ على من قرأ على
العاصمى فوضع هو وأصحابه رسدا آخر وهو الرصد الحاكمى وخالف فيه أصحاب الرصد الممتحن
في أشياء وعلى ذلك التفاوت بنو الزيج الحاكمى وكان الحاكم قد أمرهم أن يحذوا على فعل المأمون فأمر
أن يجتمعوا عنده فاجتمع المنجمون ورئيسهم الفكرى فوضعوا الذيج الحاكمى وخالفوا أصحاب
الرصد المأمونى ومالوا أتباعهم إلى الرصد الحاكمى ولو اتفق بعد ذلك رصد آخر لسلط
أصحابه في خلاف من تقدمهم مسلك أوائلهم هذا ومستندهم ومعولهم الحس والحساب
وهما هما لا يقبلان التغليب فالظن بما يدعونه من علم الأحكام الذى مبناه على هواجس
الظنون وخيالات الأوهام ثم حدثت جماعة أخرى منهم أبو الريحان البيرونى مؤلف
كتاب التفهيم إلى صناعة التنجيم جمع فيه بين الهندسة والحساب والهيئة والأحكام وكان
بعد كوشيار بنحو من أربعين سنة خالف من تقدمه وأتى من مناقضتهم والرد عليهم بما
هو دال على فساد الصناعة فى نفسها وختم كتابه بقوله فى الحجب والضمير ما أكثر
افتضاح المنجمين فيه وما أكثر إصابة الراصدين فيه بما يستعملون من كلامه وقت السؤال
ويروونه بأديا من آثار وأفعال على السائل وقال وعند البلوغ إلى هذا الموضع من صناعة
التنجيم كفاية ومن تعدها فقد عرض نفسه وصناعته لما بلغت إليه الآن من السخرية
والاستهزاء فقد جهلها المتفقهون فيها فضلا عن المنتسبين إليها لإنتهى كلامه . ثم حدثت
جماعة أخرى منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أمية الأندلسى الشاعر المنجم
الطبيب الأديب وكان بعد البيرونى بنحو من ثمانين عاما ودخل مصر وأقام بها نحو عامين
ولما كان بالغرب توفيت والدته الأمين على بن عيسى صاحب المهديّة وكان قد وافق موتها
أخبار المنجمين بذلك قبل وقوعه فعمل أمية قصيدة يرثيها وهى من مستحسن شعره
فقال فيها .

وراعك قول للمنجم موهم ومن يعتقد زرق المنجم يوهم
فواعجباً يهذى المنجم دهره ويكذب لإفك قول المنجم

وكان المذكور رأسا فى الصناعة وقد اعترف بأن المنجم كذاب صاحب زرق وهذيان ثم
حدثت طائفة أخرى بالغرب منهم أبو اسحق الزرقال وأصحابه وهو بعد أبى الصلت بنحو
من مائة عام وقد خالف الأوائل والأواخر فى الصناعتين والرصدية والأحكامية فأسقط من

وأجزل ثوابه وبين في هذا الكتاب من أغاليط أتباع الرصد الثاني أموراً كثيرة لعطارد المنجم ومحمد بن جابر التبانى وعلى بن عيسى الحرانى فقال في مقدمة كتابه ولما رأيت هؤلاء القوم مع ذكركم في الآفاق وتقدمهم في الصناعة واقتداء الناس بهم واشتغالهم بمؤلفاتهم قد تبع كل واحد منهم من تقدمه من غير تأمل لخطئه وصوابه بالعيان والنظروا أو هموا الناس بالرصد حتى ظن كل من نظر في مؤلفاتهم أن ذلك عن معرفة بالكواكب ومواضعها إلى أن قال ومعوهم على آلات مصورة من عمل من لا يعرف الكواكب بأعيانها وإنما عولوا على ما وجدوه في الكتب من أطوالها وعروضها فرسموها في الكرة من غير معرفة خطها وصوابها ثم قال وزادوا أيضاً على أطوال الكواكب أطوالاً كثيرة وعلى عروضها دقائق يسيرة ونقصوا منها أو هموا بذلك أنهم رصدوا الكل وأنهم وجدوا بين أرصادهم وأوضاع بطليموس من الخلاف في أطوالها وعروضها القدر الذى خالفوا به سوى الزيادة التى وجدوها من حركاتها في المدة التى بينهم وبينه من السنين من غير أن عرفوا الكواكب بأعيانها وله تواليف أخر مشحونة ببيان أغاليطهم وإيضاح أكاذيبهم وتجاليطهم وشهد عليهم بأنهم تارة قلدوا في الأقوال النجومية وتارة قلدوا فيما وجدوه من الصور الكوكبية فهم مقلدون في القول والعمل ليس مع القوم بصيرة وشهد عليهم بأنهم بموهون مدلسون بل كاذبون مفترقون من جهة أنهم زادوا دقائق ما بين زمانهم وزمان بطليموس وأوهموا بها أنهم رصدوا مارصده من قبلهم ففترقوا على ما لم يعثروا عليه ثم حدثت جماعة أخرى منهم الكوشيار بن ياسر بن الديلمى ومن تأليفه الزيجات والجامع والمجمل في الأحكام وهو عندهم نهاية في الفن وكان بعد الصوفى بنحو ثلاثين عاماً وذكر في مقدمة كتابه المجمل أنى جمعت في هذا الكتاب من أصول صناعة النجوم والطريق إلى التصرف فيها ما ظننته كافياً في معناه مغنياً عما سواه وأكثر الأمر فيما أخذت به أقرب طريق عزوته إلى القياس وأوضح سبيل سلكته إلى الصواب إذ هى صناعة غير مبرهنة وللخواطر والظنون مجال بلا نهاية صواب ومجال إلى أن ذكر علم الأحكام فقال فيه ولا سبيل للبرهان عليه ولا هو مدرك بكليته نعم ولا بأكثره لأن الشيء الذى يستعمل فيه هذا العلم أشخاص الناس وجميع ما دون الفلك القمرى مطبوع على الانتقال والتغير ولا يثبت على حال واحدة فى أكثر الأمور ولا للإنسان بكامل القوة من الخدس بخواص الأحوال التى تكون من امتزاجات الكواكب فبلغ من الصعوبة وتعسر الوقوف عليه إلى أن دفعه بعض الناس وظنوا أنه شيء لا يدركه أحد البتة وأكثر المنفردين بالعلم الأول يعنى علم الهيئة ينكرون هذا العلم ويحسدون منفعتيه ويقولون هو شيء يقع بالإتفاق وليس عليه برهان إلى أن قال ومن المنفردين بالعلم الثانى يعنى علم الأحكام من يأتى على

فلا تنطلق أصبعه به فقلت ياسيدي هذا عطارد والزهرة قد عملا عملهما فأمره أمير المؤمنين فأظهر ما أدهاه منهما وكان ذلك ضرب من الطلسمات فما زال به المأمون أيا ما كثيرة حتى أقر وتبرأ من دعوى النبوة ووصف الحيلة التي احتالها في الخاتم والقلم فوهب له المأمون ألف دينار وصرفه فلقيناه بعد ذلك فإذا هو أعلم الناس بعلم النجوم ومن أكبر أصحاب عبد الله القشيري وهو الذي عمل طلسم الخنافس في دور بغداد قال أبو معشر لو كنت في القوم ذكرت أشياء خفيت عليهم كنت أقول الدعوى باطلة من أصلها إذ البرج منقلب وهو الجدى والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والكوكبان الناظران إلى الطالع في برج كذاب وهو العقرب فتأمل كيف اختلفت أحكامهم مع اتحاد الطالع وكل منهم يمكنه تصحيح حكمه بشبهة من جنس شبهة الآخر فلو اتفق أن أدعى رجل صادق في ذلك الوقت والطالع دعوى ألم يكن ادعائه ممكنًا غير مستحيل ودعواه صحيحة في نفسها أم تقولون إنه لا يمكن أن يدعى أحد في ذلك الوقت والطالع دعوى صحيحة البتة ومن المعلوم لجميع العقلاء أنه يمكن إذ ذاك دعوتين من رجل محق ومبطل بذلك الطالع بعينه فما أسخف عقل من ارتبط بهذا الهذيان وبني عليه جميع حوادث الزمان وليس بيد القوم إلا ما اعترف به فاضلهم وزعيمهم أبو معشر . . وقال شاذان في الكتاب المذكور أيضا قلت لأبي معشر الذنب بارد يابس فلم قلت له يدل على التأنيت فقال هكذا قالوا قلت فقد قالوا إنه ليس بصادق اليبس لكنه بارد فنظر لي فقال كل الأعراض الغائبة توهم لا يكون شيء منها يقينا وإنما يكون توهم أقوى من توهم . . ومن تأمل أحوال القوم علم أن مامعهم إلا زرق وتفرس يصيبون معها ويخطئون . . قال شاذان في كتابه المذكور كان الرازي الثنوي الذي بالهند يكتب أبا العشر ويهاديه فأنفذ لأبي معشر مولدًا لابن مالك سرنديب طالعه الجوزاء والشمس والقمر في الجدى والقمر خارج عن الشعاع وعطارد في الدلو والمشتري في الحمل وزحل في السرطان راجع في بحران الرجوع فحكم له أبو معشر بأنه يعيش دور زحل الأوسط فقلت سبحانه الله جاءه راجع في بحران الرجوع في بيت ساقط عن الأوتاد لا يعطيه إلا الدور الأصغر ويحتاج أن يسقط منه الخمسين وجعلت أنكر عليه ذلك وأخوفه أن تسقط منزلته عند أهل تلك البلاد إلى أن ذكر محاورة طويلة انتهت بهما إلى أن أبا معشر أخذ ذلك من عادات أهل الهند في طول الأعمار . . وقال شاذان في مسألة سئل عنها ما أنتم إلا زرايين ثم حدثت بعد هؤلاء جماعة منهم أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن عبد المعروف بالصوفي وكان بعد أبي معشر بنحو من سبعين عاما فذكر أنه قد عثر من غلط الأواخر بعد الأوائل على أشياء كثيرة وصنف كتابا في معرفة الثوابت وحمله إلى عضد الدولة بن بويه فاستحسنه (١٠ — مفتاح ٢)

المفترون أنه طالع سعد لا يرى به في الدار مكروها فقطعت يده ونكبت في آثاره أقبح نكبة
نكبتها وزير قبله وقتلى المنجمين أكثر من أن يحصيههم إلا الله عز وجل . . (الوجه التاسع
عشر) إن هؤلاء القوم قد أقروا على أنفسهم وشهادة بعضهم على بعض بفساد أصول هذا
العلم وأساسه فقد كان أوائلهم من الأقدمين وكبار رصدهم من عهد بطليموس وطيموحارس
وما نالوا سدد حكموا في الكواكب الثابتة بمقدار واتفقوا أنه صحيح الاعتبار وأقام الأمر
على ذلك فوق سبع مائة عام والناس ليس بأيديهم سوى تقليد ما حتى كان في عهد المأمون فاتفق
من رصدهم وحكامهم علماء الفريقيين مثل خالد بن عبد الملك المروزي وحسن صاحب الزيج
المأموني ومحمد بن الجهم ويحيى بن أبي منصور على أنهم امتحنوا رصد الأوائيل فوجدوا
غالطين فيما رصده فرصدواهم رصداً لأنفسهم وحرروه وسموه الرصد الممتحن وجعلوه مبدأ
ثانياً بعد ذلك الزمن كان لأوائيلهم إجماع على صحة رصدهم ول هؤلاء إجماع على خطأهم فيه
فتضمن ذلك إجماع الأواخر على الأوائيل أنهم كانوا غالطين وإقرار الأواخر على أنفسهم
أنهم كانوا بالأعمال به مخطئين ثم حدثت طائفة أخرى منهم كبيرهم وزعيمهم أبو معشر محمد
ابن جعفر وكان بعد الرصد الممتحن بنحو من ستين عاماً فرد عليهم وبين خطأهم كذا ذكر أبو سعيد
ابن شاذان بن بحر المنجم في كتاب أسرار النجوم قال قال أبو معشر أخبرني محمد بن موسى المنجم
الحليس وليس بالحوارزمي قال حدثني يحيى بن أبي منصور أو قال حدثني محمد بن محمد الحليس
قال دخلت على المأمون وعنده جماعة المنجمين وعنده رجل قد تنبأ وقد دعا القضاة والفقهاء
ولم يحضروا بعد ونحن لانعلم فقال لي ولما حضر من المنجمين اذهبوا فخذوا الطالع لدعوى
رجل في شيء يدعيه وعرفوني بما يدل عليه الفلك من صدقه وكذبه ولم يعلننا المأمون أنه متنبئ
فجئنا إلى ناحية من القصر وأحكنا أمر الطالع وصورناه فوق الشمس والقمر في دققة الطالع
والطالع الجدى والمشتري في السنبلة ينظر إليه والزهرة وعطارد في المقرب ينظر إليه فقال كل
من حضر من المنجمين هذا الرجل صحيح لا كذب فيه قال يحيى وأنا ساكت فقال لي المأمون
قل فقلت هو في طلب تصحيحه وله حجة زهرية وعطاردية وتصحيح ما يدعيه لا يتم له
فقال من أين قلت فقلت لأن صحة الدعوى من المشتري وهو ينظر إليه زحل موافقة
إلا أنه كاره لهذا البرج ولا يتم له التصديق ولا التصحيح والذي قالوه إنما هو من حجة
عطاردية وزهرية وذلك يكون من جنس التحسين والتزيق والخذاع عن غير حقيقة فقال
لله درك ثم قال تدرون ما يدعي هذا الرجل قلنا لا قال هذا يدعي النبوة فقلت يا أمير
المؤمنين ومعه شيء يحتاج به فسأله فقال نعم معي خاتم ذو قصين ألبسه فلا يتغير مني شيء
ويلبسه غيري فلا يتالك من الضحك حتى ينزعه ومعى قلم شامى أكتب به ويأخذه غيري

أن من وضع خبراً باطلاً في ذلك الوقت أن الطالع المذكور يصححه أو يقولوا لا يمكن أحداً أن يكذب في ذلك الوقت وقد أورد أبو معشر المنجم هذا السؤال في كتاب الأسرار له وأجاب عنه أن الأخبار تختلف فإن ورد خبر مكروه من أسباب الشر والجور والأفعال المنسوبة إلى طبائع النحوس والطالع في القمر منصرف عن سعد فالخبر باطل وإن ورد خبر محبوب ومن أسباب الخير والعدل والأفعال المنسوبة إلى طبائع السعود وفي الطالع سعد والقمر منصرف عن سعد فالخبر حق قال وزحل لا يدل في كل حال على الكذب بل يدل على وجود العوائق عما يوقع ذلك الخبر - لكن البلاء المريع أو الذنب إذا استوليا على الأوتاد وعلى القمر أو عطارد فإنهما يدلان على الكذب والبطلان ثم قال وعلى كل حال فالقمر في العقرب والبروج الكاذبة تنذر بكذب في نفس الخبر أو زيادة أو نقصان وفي الحمل والبروج الصادقة تدل على صدق فيه واستواء وفي السرطان والبروج المنقلبة لا تدل على انقلاب الخبر إلى باطل ولا كنهه قد ينقلب فيصير أقوى مما هو عليه الآن إلا أن ينظر إليه نحس فيفسده ويطله ثم قال واعرف صدق الخبر من سهم الغيب إذا شككت فيه فإن كان سليماً من المريع والذنب وينظر إليه صاحبه أو القمر أو الشمس نظر صلاح فهو حق هذا منتهى كلامه في الجواب وهو كما تراه متضمن أن عند هذه الاتصالات التي ذكرها يكون الخبر صحيحاً صدقاً وعند تلك الاتصالات الأخر تكون منكرة بالكذب فيقال لهؤلاء الكذابين المفتريين المبلسين أيستحيل عندكم معاشرة المنجمين أن يضع أحدكم خبراً كاذباً عند تلك الاتصالات أم ذلك واقع في دائرة الإمكان بل هو موجود في الخارج وكذلك يستحيل أن يصدق مخبر عند الاتصالات الأخر أو يبعد صدق العالم عندها ويكون كذبهم إذ ذاك أكثر منه في غير ذلك الوقت وهل في الهوس أبلغ من هذا ولو تتبعنا أحكامهم وقضايهم الكاذبة التي وقع الأمر بخلافها لقيام منها عدة أسفار . . وأما نكبات من تقييد بعلم أحكام النجوم في أفعاله وسفره ودخوله البلد وخروجه منه واختياره الطالع لعمارة الدار والبناء بالأهل وغير ذلك فعند الخاصة والعامة منهم عبر يكفى العاقل بعضها في تكذيب هؤلاء القوم ومعرفة لاقتراثهم على الله وأقضيته وأقداره بل لا يكاد يعرف أحد تقييد النجوم في ما يأتيه ويذره إلا نكب أقبح نكبة وأشنعها مقابلة له بنقيض قصده وموافات النحوس له من حيث ظن أنه يفوز بسعده فهذه سمة الله في عباده التي لا تبدل وعادته التي لا تحول إن من اطمان إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق يدبره أجرى الله له بسببه أو من جهته خلاف ما علق به آماله وانظر ما كان أقوى تعلق بني برمك بالنجوم حق في ساعات أكلهم وركوبهم وعامة أفعالهم وكيف كانت نكبتهم الشنيعة وانظر حال أبي علي ابن مقلة الوزير وتعظيمه لأحكام النجوم ومراعاته لها أشد المراعات ودخوله داراً بناها بطالع زعم الكذابون

قالوا يرى عجب فيه فقلت لهم
 في منقضى السبعة الأيام منه أتى
 وأتممت فيه عواء النجوم على
 والشعريان فكل منهما شعرت
 وصح عن قمر الأفلاك أنهم
 غطاؤهم رد في وجهي عطاردهم
 وقد بدت زهرة الإسلام زاهرة
 وأجملت حمرة المريخ حكمهم
 ولم يك المشتري تقضى سمعاده
 وقبل منقلب الأبراج ذو قدر
 كم حامل نائر في الثور أو حمل
 ولم يدر فلك إلا لذى ملك
 حتى غدا نغر دمياط وقد حكموا
 يفتر عن صبح إيمان به جدلا
 ومد كفاله التوحيد فانقبضت
 وتلك حرب صليب عودها فقصت
 وأطلق القول بالتأذين إذ خرست

بالنهر بعد إياس تبصروا عجبا
 ما يأت في مقتضاه السبعة الشهبا
 عواء ذئب من الكفار قد حربا
 بأن للحق فيهم سيف من غلبا
 ما فيهم غير مقهور وقد نشبا
 إلى الذي منهم ماشاء قد سلبا
 قد أظلمت فوقهم من دونها سحبا
 ففسرت بدم فيهم لمن خضبا
 إلا إلى المشتري نفسا بما طلبا
 فعاد منه ميان النفع منقلبا
 أجاز فيهم على جوزاتهم حربا
 يدير جيشا عليهم عسكريا نجما
 أن لا يرى باسم مستجما شذبا
 وكان في ليل كفر بات مكتنبا
 رجل من الشر في تأخير هربا
 أن لا يعود صليب بعد منتصبا
 له نواقيس جرجيس فما احتسبا

وَمَا اتفق عليه المنجمون أن الإنسان إذا أراد أن يستجيب الله دعاءه جعل الرأس في
 وسط السماء مع المشتري أو شطر منه مقبل والقمر متصلا به أو منصرفا عنه متصل
 بصاحب الطالع أو صاحب الطالع متصل بالمشتري ناظر إلى الرأس نظرة مودة فهناك
 لا يشكون أن الإجابة حاصلة قالوا وكانت ملوك اليونان يلزمون ذلك فيحمدون عقباه
 والعاقلة إذا تأمل هذا الهديان لم يحتج في علمه ببطلانه ومحاله إلى فكر ونظر فإن رب
 السموات والأرض سبحانه لا يتأثر بحركات النجوم بل يتقدس ويتعالى عن ذلك
 فيا للعقول التي أضحت عليها العقلاء من المؤمنين والكفار ماهذه الانصالات حتى
 تكون على وجوب اجابة الله من أقوى الدلالات . وما عليه المنجمون متفقون أو
 كالمتفقين أن الخبز إذا ورد في وقت أو بادنا منه (١) الوجوه والقمر وعطارده في بروج
 نوابت والقمر منصرف عن السعود فالخبز ليس بباطل والباطل مثل هذا فانه يلزمهم

توران شاه ابن أيوب بن شاذى سنة خمس وسبعين وخمسة ثم والها نجر الدين قراجا ابن عبد الله سنة تسع وثمانين ثم والها سعد الدين سودكين بن عبد الله سنة خمس وستائة انخرمت هذه القاعدة أصلاً وبطل قولهم فرعاً وأصلاً حتى قال بعض شعراء ذلك العصر عند موت الأمير فخر الدين :

وقضى طلوع الثغر عند مماته ان المنجم كاذب لا يصدق
لو كان فيه لايموت مؤمر أودى وفخر الدين حتى يرزق

ومن ذلك اجتماعهم في سنة خمس وعشرة وستائة لما نزل الفرنج على دمياط على انهم لابد أن يغلبوا على البلاد فيتملكوها بأرض مصر من رقاب العباد وانهم لا تدور عليهم الدائرة إلا إذا قام قائم الزمان وظهر براياته الخافقة ذلك الأوان فكذب الله ظنهم وأتى من لطفه الخفى ما لم يكن في حساب ورد الفرنج بعد القتل الذريع فيهم والأسر على العقاب وكان المنجمون قد أجمعوا في أمر هذه الواقعة على نحو ما أجمع عليه من قبلهم في شأن عمورية وانفق أن كان مبدأ هذا الفتح في سابع رجب سنة ثمان عشرة وستائة ومبدأ ذلك الفتح في سابع رجب أيضاً سنة ثلاث وعشرين ومائتين قال الفاضل العلامة محمد بن عبد الله بن محمود الحسيني ولما كذب الله هؤلاء القوم فيما ادعوه نسجت على منوال أبي تمام في قصيدته البائية المكسورة فعملت بائية مفتوحة وهي :

الحمد لله حمداً يبلغ الأربا	نقضى به من حقوق الله ما وجبا
حمداً يزيد إذا التعمى تزيد به	أخراه أولاه تعطي ضعف ما وهبا
لا يياس المرء من روح الإله فكلم	من راح في مستهل كان قد صعبا
فكم مشى بك مكروه ركضت به	من غير علم إلى ما تشتهى خبيبا
وكم تقطع دون المشتهى سبب	وكان منك لأعلى المنتهى سبباً
لا ينبغي لك في مكروه حادثة	أن تبغى لك في غير الرضا طلباً
لله في الخلق تدبير يفوت مدى	أسرار حكمته أحكام من حسبا
ابغ النجاء إذا ما ذو النجامة في	زور من القول يقضى كل ما قربا
وذو الأراجيز مما قد يقول فدع	فما أراجيز شيء كان قد كتبنا
ما كان لله في ديوان قدرته	من كاتب بحدوس الظن إذ كتبنا
لا يعلم الغيب إلا الله خالقنا	لأعالم غيره عجباً ولا عربا
لا شيء أجهل من يدعى ثقة	بحدسه وتروى فيما يرى ربنا
قد يجهل المرء ما في بيته نظراً	فكيف عنه بما في غيبه احتجبنا
قد كذب الله قول القائلين غداً	إذا أتى رجب لم تحمدوا رجبا

الجلبل على عادته وانفرد بنفسه منقطعاً عن موكله وقد استعد له قوم بسكاكين تقطر منها
 المنايا فقطعوه هنالك للوقت والحين ثم أعدموا جسده فلم يعلم لها خبر فن هذا يقول أتباعه
 الملاحدة انه غائب منتظر وأظهرت قدرة الرب القاهر تبارك اسمه وتعالى جده تكذيب
 قول تلك الطائفة المفترين ووقوع الأمر بضد ما حكموا به لهلك من هلك عن بينة ويحيى من
 حى عن بينة وإن الله لسميع عليم فظهر من كذبهم وجهلهم بتغيير دولته فى خروج أبى ركة
 وفى هذا الحين فهذا فى مبدئها وهذا فى ختامها قبل بعد ذلك وثوق للعاقل بالنجوم وأحكامها
 كلا لعمر الله ليس بها وثوق وإنما غاية أهلها الاعتماد على رازق ومرزوق فأما إصابة الفسكرى
 بظفر الأسطول فإنما كان بتحليل دبره على أهل صور لا بالطالع فكانت الغلبة له عليهم
 بالتحليل الذى دبره ساعة القتال لا بما ذكره من حكم الطالع قبل تلك الحال وأما إصابة السكندر
 فليس من النجوم فى شىء ومعرفة مواضع السكندر علم متداول بين الناس وفيه كتب مصنفة
 معروفة بأيدي أرباب هذا الفن وفيها خطأ كثير وصواب قد دل الواقع عليه . . ومن ذلك
 اتفاقهم سنة اثنين وثمانين وخمسائة على خروج ربح سوداء تسكون فى سائر أقطار الأرض
 عامة فتهلك كل من على ظهرها إلا من اتخذ لنفسه مغارة فى الجبال بسبب أن السكواكب كانت
 بزعمهم ان اجتمعت فى برج الميزان وهو برج هوائى لا يختلف فيه منهم اثنان كما اجتمعت
 فى برج الحوت زمن نوح وهو عندهم برج مائى لحصل الطوفان المائى قالوا وكذا اجتماعها
 فى البرج الميزانى يوجب طوفاناً هوائياً ودخل ذلك فى قلوب الرعاع من الناس فاتخذوا المغارات
 استدفاعاً لما أنذرهم به السكندابون من الله رب العالمين مسخر الرياح ومدبر السكواكب ثم لما
 كان ذلك الوقت الذى حدوده والأجل الذى عدوه قل هبوب الرياح عن عاداتها حتى أطم الناس
 ذلك ورأوا من السكرب بقلة هبوب الرياح ما هو خلاف المعتاد فظهر كذبهم للخاص والعام
 وكانوا قد دبروا فى قصة هذه الرياح التى ذكروها بأن عزوها إلى على رضى الله عنه وضمنوها
 جزء بمضمون هذه الرياح وذكروا قصة طويلة فى آخرها أن الراوى عن على رضى الله عنه
 قال له لقد صدقنى المنجمون فيما حكيت عنك وقالوا إنه تجتمع السكواكب فى برج الميزان
 كما اجتمعت فى برج الحوت على عهد نوح وأحدثت الفرق فقلت له يا أمير المؤمنين كم
 تقيم هذه الرياح على وجه الأرض قال ثلاثة أيام وليالها وتسكون قوتها من نصف الليل
 إلى نصف النهار عن اليوم الثانى وانظر إلى اتفاقهم على أن السكواكب إذا اجتمعت فى
 برج الميزان حصل هذا الطوفان الهوائى واتفاقهم على اجتماعها فيه فى ذلك الوقت ولم
 يقع ذلك الطوفان . . ومن ذلك اتفاقهم فى الدولة الصلاحية بحكم زحل والدالى أن
 مدينة الإسكندرية لا يموت فيها من الغز والفلما مات بها الملك المعظم شمس الدولة

في رجب سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وكان مبدأ خروجه في رجب سنة خمس وتسعين فظهر كذب المنجمين وكان هذا الفكري قد استولى على الحاكم فإنه اتفقت له معه قضيتان أمالناه إليه . . لإحداهما أن الحاكم عزم على إرسال أسطول إلى مدينة صور لحاربهم فسأله الفكري أن يكون تديره إليه ليخرجه في طالع يختاره وتكون العهدة إن لم يظهر عليه وانفق ظهور الأسطول . . الثانية أنه ذكر أن بساحل بركة رميس مسجداً قديماً وأن تحته كنزاً عظيماً وسأله أن يتولى هو هدمه فإن ظهر الكنز وإلا بناءه هو من ماله وأودعه السجن فاتفق إصابة الكنز فطاش المغرور بذلك فلما حكم عليه الفكري بتغيير دولته وقضى المنجمون بمثل قضائه فوقع للحاكم أن يغير أوضاع المملكة والدولة ليكون ذلك هو مقتضى الحكم النجومي فصار يأمر في يومه بخلاف كل ما يأمر به في أمسه فأمر بسب الصحابة رضوان الله عليهم على رؤس المنابر والمساجد ثم أمر بقطع سبهم وعقوبة من سبهم وأمر بقطع شجرة الزرجون من الأرض وأوجب القتل على من شرب الخمر وأمر بغرس هذه الشجرة وأباح شرب الخمر وأهمل الناس نهب الجانب الغربي من القاهرة وقتلت فيه جماعة ثم ضبط الأمر حتى أمر أن لا تغلق الحوانيت ليلاً ولا نهاراً وأمر مناديه ينادى من عدم له ما يساوي درهماً أخذ من بيت المال عنه درهمين بعد أن يخلف على ما عدمه أو يعضده شهادة رجلين حتى تحيل الناس في ستر حوائثهم بالجر يد لئلا تدخلها الكلاب ثم عمد إلى كل متول في دولته ولأية فعزله وقتل وزيره الحسن بن عماد كل ذلك ليكون قول أهل النجوم أن دولته تتغير واقعاً على هذا الضرب من التغيير فلما كان من أمر أبي ركونة ما تقدم ذكره ساء ظنه بعلم النجامة فأمر بقتل منجمه الفكري وأطلق في المنجمين العيب والذم وكان قد جمع بين المنجمين بالديار المصرية واستدعا غيرهم وأمرهم أن يرصدوا له رصداً يعتمد عليه فصارت الطوائف النجومية إلى هذا الرصد يتحاضرون وإن تضمن بعض خلاف الرصد المأمورى ووضعوا له الذبح المسمى بالحاكمي وكان هذا الفكري قد أخذ علم النجامة عن أخذه عن العاصمي فسير أوقات الحاكم وساعاته ووافقه على ذلك المنجمون فلما قتله لم يزل أثر التنجيم عن نفسه لشرف النفس على التطلع إلى الحوادث قبل وقوعها وكان بعد يتولع بهذا العلم ويجمع أصحابه فحكموا له في جملة أحكامهم بركوب الحمار على كل حال وألزموه أن يتعاهد الجبل المقطم في أكثر الأيام وينفرد وحده بخطاب زحل بما علوه إياه من الكلام ويتعاهد فعل ما وضعوه له من البخورات والأعزام وحكموا بأنه مادام على ذلك وهو يركب الحمار فهو سالم النفس عن كل إيذاء فلزم ما أشاروا به عليه وأذن الله العزيز العليم رب الكواكب ومستخرها ومدبرها أن هلاكه كان في ذلك الجبل على ذلك الحمار فإنه خرج بحماره إلى ذلك

العربية والعجمية فلما ملكها أسد الدين شيركوه بن شادى ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومع ذلك المصريون قائمون بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف توهم الجهال أن ما قال المنجمون من قبل حقاً لتبديل اللسان وحال الدعوة مستقبلي فلبارد صلاح الدين الدعوة إلى بنى العباس انكشف الأمر وزال الالتباس وظهر كذب المنجمين والحمد لله رب العالمين وكانت المدة بين وضع الأساس وانقراض دولة الملاحدة منها نحو مائة وثلاثة وتسعين عاماً فنقض انقطاع دولتهم على المنجمين أحكامهم وخرب ديارهم وأهتك أستارهم وكشف أسرارهم وأجرى الله سبحانه تكذيبهم والطعن عليهم على لسان الخاص والعام حتى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الرصادين إلى وضع الأساس وليس هذا من بهت القوم ووقاحتهم ببعيد فانه لو كان كذلك لرأى الحاضرون تبديل البناء وتغييره فانه لو دخلهم شك في تقديم أو تأخير أو سبق بما دون الدقيقة في التعذر لما سألوا بذلك مع المقتضى التام والطاعة الظاهرة والاحتياط الذى لا مزيد فوقه وليس في تبديله حجر أو تحويله برفعه ووضعه كبير أمر على البنائين ولا مشقه وقرائن الأحوال في إقامة دولة بتقريرها وإنشاء قاعدة بتحريرها شاهدة بأن الغفلة عن مثل هذا الخطب الجسمي ما لا يسامح بها البتة وبالله العجب كيف لم يظهر سبق البنائين للرصدين إلا بعد انقراض دولة الملاحدة وأما مدة بقاء دولتهم فكان البناء مقارناً للطالع المرصود فهل في البهت فوق هذا .. ومن ذلك اتفاقهم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم على أنها السنة التى ينقضى فيها بمصر دولة العبيدين هذا مع اتفاق أولئك على أن دعوتهم لا تنقطع من القاهرة وذلك عند خروج الوليد بن هشام المعروف بأبى ركة الأموى وحكم الطالع له بأنه هو القاطع لدعوة العبيدين وأنه لا بد أن يستولى على الديار المصرية ويأخذ الحاكم أسيراً ولم يبق بمصر منجم إلا حكم بذلك وأكبرهم المعروف الفسرى منجم الحاكم وكان أبو ركة قد ملك بركة وأعمالها وكثرت جموعه وقويت شوكمته وخرجت إليه جيوش الحاكم من مصر فعادت مغلوبة فلم يشك الناس في حذق المنجمين وكان من تدبير الحاكم أن دعا خواص رجاله وأمرهم أن يعملوا بما رآه من احتياله وهو أن يسكتوا أبا ركة بأنهم على مذهبه وأنهم ماثلون عن الدعوة الحاكية وراغبون في الدعوة الوليدية الأموية وأطمعوه بكل ما أوهموه به أنهم صادقون وله مناصحون فلما وثق بما قالوه وخفى عليه ما احتالوه زحف بعساكره حتى نزل موسيم على ثلاثة فراسخ من مصر فخرجت إليه العسكر الحاكية فهزمته فتحقق أنها كانت خديعة فهرب وقتل خلق كثير من عسكره وطلب فأخذ أسيراً ودخل به القاهرة على جمل مشهور ثم أمر الحاكم بقتله بعد ما أحضر بين يديه مغلولاً بقل من حديد وذلك

وهي نحو من سبعين بيتا أجزى على كل بيت منها بالف درهم . . ومن ذلك اتفاقهم سنة اثنتين وتسعين ومائتين في قصة القرامطة على أن المكنى بالله إن خرج لمقاتلتهم كان هو المغلوب الملزوم وكان المسلمون قد لقوا منهم على توالى الأيام شرا عظيما وخطباً جسيما فأنهم قتلوا النساء والأطفال واستباحوا الحرم والأموال وهدمو المساجد وربطوا فيها خيولهم ودوابهم وقصدوا وفد الله وزوار بيته فأوقعوا فيهم القتل الذريع والفعل الشنيع وأباحوا محارم الله وعطلوا شرائعه فعزم المكنى على الخروج إليهم بنفسه فجمع وزيره القاسم بن عبيد الله من قدر عليه من المنجمين وفيهم زعيمهم أبو الحسن العاصمي وكلهم أوجب عليه بأن يشير على الخليفة أن لا يخرج فإنه إن خرج لم يرجع وبخروجه تزول دولته وبهذه تشهد النجوم التي يقضى بها طالع مولده وأخافوا الوزير من الهلاك إن خرج معه وقد كان المكنى أمر الوزير بالخروج معه فلم يجد بداً من متابعتها فخرج وفي قلبه ما فيه وأقام المكنى بالركة حتى أخذ أعداء الله جميعا وسيقت جموعهم بكأس السيف نجيعاً ثم جاء الخبر من مصر بموت خمارويه بن أحمد بن طولون وكانوا به يستطيعون فأرسل المكنى من تسلمها واستحضر القواد المصرية إلى حضرته ثم لما عاد أمر القاسم بن عبيد الله الوزير بإحضار رئيس المنجمين وصفحه الصفع الكشير بعد أن وقفه ووبخه على عظيم كذبه وافتراءه وتبرأ منه ومن كل من يقول برأيه . . قال أبو حيان التوحيدى في كتاب الاتباع والمؤانسة وقد ذكر هذه القصة. فهذا وما أشبهه من الافتراء والكذب لو ظهر ونشر وعير أهله به ووقفوا عليه وزجروا عن الدعوى المشرقة على الغيب لكان مقمعة لمن يطلق لسانه بالاطلاع على ما لا يكونوا في غد وقطعاً لاستنهم وكفا لدعواهم وتأديبا لصغيرهم وكبيرهم . . ومن ذلك اتفاقهم سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة عندما أراد القائد جوهر العزيز بناء مدينة القاهرة وقد كان سبق مولاه الملقب بالمعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لما أمره المعز بدخولها بالدعوة وأمره إذا دخلها أن يبنى بها مدينة عظيمة تكون نجوم طالعتها في غاية الاستقامة ويكون بطالع الكوكب القاهر وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله فجمع القائد جوهر المنجمين بها وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويحكمه وأمر البنائين أن لا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضمهوه وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتى يوافقوا تلك الساعة التي اتفقت عليها أروصاد أولئك الجماعة فوضعت الأساسات على ذلك في الوقت الحاضر وسموها بالقاهرة إشارة بزعمهم الكاذب إلى الكوكب القاهر واتفقوا كلهم بأن الوقت الذي بنيت فيه يقضى بدوام جدهم وسعادتهم ودولتهم وأن الدعوة لا تخرج فيها عن الفاطمية وإن تداءت ألسنها

كنا نلعب به فضربني إلى الأرض وقعد على صدري وقال والله أني قاتلك ولا يقتلك أحد
غيري ان شاء الله وأنا من استثنائه بالمشيئة خائف فذهب به منجمه إلى ماقرره المنجمون
له من قوة نجمه وأن هذا وهم منه وحكم النجوم يقضى على وهمه فحقق الله سبحانه ذلك
الوهم وأبطل حكم الطالع والنجم . . ومن ذلك اتفاقهم عند ماتم بناء بغداد سنة ست
وأربعين ومائة أن طالعا يقضى بأنه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى هب الشعراء به
المنصور حتى قال بعض شعرائه :

يهنيك منها بلدة تقضى لنا أن المات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها أن لا يرى فيها يموت أمام

وأكد هذا الهذيان في نفوس العوام موت المنصور بطريق مكية ثم المهدي بما سبذان ثم الهادي
بمساباذ ثم الرشيد بطوس فلما قتل بها المأمون الأمين بشارع باب الأنبار انخرم الأصل
الباطل الذي أصوله وظهر الزور الذي لفقوه حتى رجع إلى الحق الأول فقال :
كذب المنجم في مقالته التي نطقت به كذبا على بغداد
قتل الأمين بها لعمري يقضى تكذيبهم في سائر الحسين

ثم مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكشفي والناصر
وغير هؤلاء . . ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين في قصة عمورية أن المعتصم إن
خرج لفتحها كانت عليه الدائرة وأن النصر لعدوه فرزقه الله التوفيق في مخالفتهم ففتح الله
على يديه ما كان مغلقا وأصبح كذبهم وخرصهم بعد أن كان موهوما عند العامة محققا ففتح
عمورية وما والاها من كل حصن وقلعة وكان ذلك من أعظم الفتوحات الممدودة وفي ذلك
الفتح قام أبو تمام الطائي منشدا له على رؤس الأشهاد .

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
والعلم في شهب الأرماع لأمعه بين الخمسين لافي السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زخرف منها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست ببيع إذا عدت ولا غرب
عجائباً زعموا الأيام تجعله عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهيا مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلباً أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة مدار في فلك منها وفي قطب
لو ثبتت قط أمرا قبل موقعه لم يخف ماحل بالآوثان والصلب

أن ذلك الوضع بجملة فاته وما عاد ولا كنهه عاد اتصال واحد من تلك الاتصالات وكما عاد ذلك الاتصال المعين فإنه يعود ذلك الأثر بعينه لا لأجل سائر الاتصالات فثبت أن الرجوع في هذا الباب إلى التجربة غير متعذر وهذا الاعتذار في غاية الفساد والمكابرة لأن تخلف ذلك الأثر عن ذلك الإتصال العائد أكثر من اقترانه به والتجربة شاهدة بذلك كما قد اشتهر بين العقلاء أن المنجمين إذا أجمعوا على شيء من الأحكام لم يكذبوا ويقع ونحن نذكر طرفاً من ذلك فنقول في . (الوجه الثامن عشر) لما نظر حذاقكم وفضلاؤكم سنة سبع وثلاثين عام صفين من مخرج على رضى الله عنه من الكوفة إلى محاربة أهل الشام اتفقوا على أنه يقتل ويقتل جيشه فظهر كذبهم وانتصر جيشه على أهل الشام ولم يقدرُوا على التخلص منهم إلا بالحيلة التي وضعوها من نشر المصاحف على الرماح والدعاء إلى مافيها وقد قيل إن الاتفاق منهم إنما كان في حرب المؤمنين للخوارج فانهم اتفقوا على أنه من خرج في ذلك الطالع قتل وهزم جيشه فان القمر كان إذ ذاك في العقرب فخالفهم على وقال بل نخرج ثقة بالله وتوكلاً عليه وتكذيباً لقول المنجم فما غزا غزاة بعد رسول الله ﷺ أتم منها قتل عدوه وأيده الله عليهم بالنصر والظهور بهم ورجع مؤيداً منصوراً مأجوراً والقصة معروفة في السير والتواريخ . . . وكذلك اتفاق ملائكتكم في سنة سبع وستين على غلبة عبيد الله بن زياد للمختار بن أبي عبيد وأنه لا بد أن يقتله أو يأسره فصار إليه في نحو من ثمانين ألف مقاتل فلقبه إبراهيم بن الأشتر صاحب المختار بأرض نصيبين وهو فيما دون سبعة آلاف مقاتل فانهم أصحاب ابن زياد بعد أن قتل منهم خلق لا يحصيهم إلا الله حتى أنه قيل إنهم قتل منهم ثلاثة وسبعون ألفاً ولم يقتل من أصحاب ابن الأشتر سوى عدد لا يبلغون مائة وفيهم يقول الشاعر:

برزوا نحوم بسبعة آلاف ان يهم عجائب

فتعشوا منهم بسبعين ألفاً أو يزيدون قبل وقت العشاء

فجراك ابن مالك وأبا اسحق ق عنا الإله خير جزاء

يريد بابن مالك إبراهيم بن مالك بن الأشتر وأبو اسحق كنية المختار وقتل ابن الأشتر عبيد الله بن زياد في المعركة ولم يعلم به حتى إذا هل الليل قال لأصحابه لقد ضربت على شاطئ هذا النهر رجلاً فرجع إلى سبقي وفيه رائحة المسك ورأيت إقداماً وجرأة فصرعته فذهبت رجلاه قبل المشرق ويدها قبل المغرب فانظروا فأنوه بالنيران فإذا هو عبيد الله بن زياد ذكر ذلك المبرد في الكامل فانظر حكمة الله من انعكاس ما قال الكاذبون المنجمون وقيل لما علم عبيد الله بن زياد أن أمر القتال قد تيسر وسأل منجمه عن قوة نجمه ونجم ابن الأشتر وقال والله اني لأعلم أنه ليس بشيء إلا أني كنت أنا وهو صغيران وقعت بيني وبينه خصومة بسبب حمام

المنجم وقال من أيهما يقتضى الطالع خروجي؟ فإذا قال له المنجم من الشرق أمكنه تكذيبه والخروج من الغرب وبالعس وكذلك السفر في يوم واحد وابتداء البناء وغيره في يوم يعينه له المنجم ويحكم باقتضاء الطالع له من غير تقدم عنه ولا تأخر فإنه يمكنه تكذيبه في ذلك أجمع. فإن قلتم إن المنجم إذا أخبره بما يفعله ويختاره يصير ذلك داعياً له إلى أن يخالفه في قوله ويكذبه بالطريق إلى علم صدقه أن يحكم ذلك المنجم على معين ويكتبه في كتاب ويخفيه أو يذكره لإنسان آخر ويخفيه عن صاحب الواقعة فهنا يظهر صدق المنجم. قلت هذا العذر من أسقط الأعذار لأن النجوم لو كانت كما تزعمون دالة على جميع الكائنات الواقعة في هذا العالم لعرف المنجم ذلك الذي يستقر عليه اختياره على كل حال شاء تكذيبه أو لم يشأ فلما لم يكن الأمر كذلك سقط القول بصحة هذا العذر. . فإن قيل الأشخاص الفلكية مؤثرات والسفلية قوابل ويجوز أن تختلف الأحوال الصادرة عن الفاعل بسبب اختلاف القوابل وإذا كان كذلك فبأن الدلائل الفلكية دلت على أنه إنما يختار الخروج من الباب الفلاني لأن كون الإنسان مشغولاً بتكذيب المنجم حالة حاصلة في النفس مانعة من ظهور ذلك الأثر الذي تقتضيه الموجبات الفلكية فهذا الأمر لم يحصل الأمر على وفق حكم المنجم. . قيل إذا اقتضت الموجبات الفلكية أثراً امتنع أن يحصل في النفس ما يضاده لأن تلك الإرادة والميول والعزوم الواقعة في النفس هي عندكم من موجبات الآثار الفلكية فيمتنع أن تكون مضادة لموجبها لاسيما والمنجم يحكم بأنه إنما يقتضى النجوم أن يريد الإنسان كذا وكذا وليس حكمه أن الطالع يقتضى كذا وكذا إلا أن يريد الإنسان خلافه هذا ما لا يقوله أحد منكم فعلم بطلان هذا الاعتذار. . (الوجه السابع عشر) أنه لا سبيل إلى معرفة طبائع البروج وطبائع الكواكب وامتزاجاتها إلا بالتجربة وأقل ما لا بد منه في التجربة أن يحصل ذلك الشيء على حالة واحدة مرتين إلا أن الكواكب لا يمكن تحصيل ذلك فيها لأنه إذا حصل كوكب معين في موضع معين في الفلك وكانت سائر الكواكب متصلة به على وضع مخصوص وشكل مخصوص فإن ذلك الوضع المعين بحسب الدرجة والدقيقة لا يعود إلا بعد ألف من السنين وعمر الإنسان الواحد لا يفي بذلك بل عمل البشر لا يفي به والتواريخ التي تضبط هذه المدة بما لا يمكن وصولها إلى الإنسان فثبت أنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذه الأحوال من جهة التجربة البتة ولا ينفعكم اعتذار من اعتذر عنكم بأنه لا حاجة في التجربة إلى ما ذكرتم لأننا إذا شاهدنا حادثاً معيناً في وقت مخصوص فلا شك أنه قد تحصل في الفلك اتصالات الكواكب المختلفة في ذلك الوقت فلو قدرنا عود ذلك الوضع الفلكي بتمامه على تلك الحال ألف مرة يعلم أن المؤثر في ذلك الحادث هل بمجموع الاتصالات أو اتصال معين منها فإذا علمنا

الذى ينفصل الولد من بطن أمه إلى أن يأخذ المنجم الاسطرلاب ويأخذ الارتراف يكون الفلك قد تحرك مثل كل الأرض كذا ألف مرة وإذا كان الأمر كذلك فالجزء الذى يأخذه المنجم بالاسطرلاب ليس الجزء الطالع فى الحقيقة وإذا كانت الأجزاء الفلكية مختلفة فى الطبيعة والماهية علينا أن أخذ الطوالع محال وقد اعترف فضلائكم بهذا وقالوا إن الأمر وإن كان كذلك إلا أن التجربة قد دلت على أن هذا الطالع الذى تعذر على الإنسان تحصيله يدل على كثير من مقدمة المعرفة مع ما فيه من الخلل الكثير الذى ذكرتم فوجب أن لا يهمل وهذا خطأ بين فإن التجارب التى دلت على كذب ذلك وبطلانه ووقوع الأمر بخلافه أضعاف أضعاف التجربة التى دلت على صدقه كما سنذكر قطرة من بحره عن قريب إن شاء الله ولهذا قال أبو نصر الفارابى واءلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت الحار بارداً والبارد حاراً والسعد نحساً والنحس سعداً والذكر أنثى والأنثى ذكراً ثم حكمت لكأنك أحكامك من جنس أحكامهم نصيب تارة وتخطئ تارات وهى معهم إلا الحسد والتخمين والظنون الكاذبة . . . ولقد حكى أن امرأة أنت منجماً فاعطته درهما فأخذ طالها وحكم وقال الطالع يخبر بكذا فقالت لم يكن شئ من ذلك ثم أخذ الطالع وقال يخبر بكذا فأنكرته حتى قال إنه ليدل على قطع فى بيت المال فقالت الآن صدقت وهو الدرهم الذى دفعته اليك . (الوجه الخامس عشر) أن الأجسام لا تتفعل من غيرها إلا بواسطة الماسة وهذه الكواكب لا ماسة لها بأعضائها وأبدانها وأرواحها فيمتنع كونها فاعلة فيها . . . أقصى ما فى الباب أن يقال إنها وإن لم تكن ماسة لأعضائها إلا أن شعاعها يصل إلى أجسامها فيقال لا ريب أن تأثير الشعاع إنما يكون بالتسخين عند المسامته أو بالتبريد عند الانحراف عن المسامته فهذا بعد تصحيحه يقتضى أن لا يكون لهذه الكواكب تأثير فى هذا العالم إلا على سبيل التسخين والتبريد فأما أن تعطى العلوم والأخلاق والحجة والبغضاء والموالة والمعاداة والعفة والحريه والنذالة والخبث والمسكر والخديعة فذلك خارج عن معقول العقلاء وهو من حماقات الأحكاميين وجهالاتهم فإن قيل التأثير بالتسخين والتبريد يوجب اختلاف أمزجة الأبدان واختلاف أمزجة الأبدان يوجب اختلاف أفعال النفس قيل فنحن نرى التسخين يقتضى حرارة وحدة فى المزاج يفعل بها هذا غاية الخير والأفعال الحميدة وهذا غاية الشر والأفعال الخبيثة والشعاع قد سخن مركبها فما الموجب لانفعال نفسيهما عن هذا التسخين هذا الانفعال المتباعد المتناقض وأيضا فما الموجب لاختلاف القوابل وتأثير الكواكب فيها بطبعه وتسخينه وتبريده فكيف اختلفت القوابل هذا الاختلاف العظيم وهى مستندة إلى تأثير واحد . (الوجه السادس عشر) أن رجلاً لو جلس فى دار لها بابان شرقى وغربى فسأل

ذلك الطريق كثيرا جدا وأن يكون سلامة البصر غالبة جدا إذا عرفت هذا . . فنقول مثال العميان عند الأحكاميين الذين لا يعرفون أحكام النجوم وهم الأكثرون من الخلاق ومثال البصراء عندهم هم أهل هذا العمل وهم الأقلون ومثال الطريق الذي حصلت فيه الآثار العميقة المهلكة الزمان الذي يمضى على الخلق أجمعين ومثال تلك الآثار المصائب الزمانية والحن والبلايا فلو كان هذا العلم صحيحا لوجب أن يكون فوز المنجمين بالغنى والسلامة والنعيم أتم فوز وسلامتهم فوق كل سلامة ومعلوم أن الأمر بالعكس والغالب كون المنجمين ومن شمع منهم وعمل بقولهم في الأدبار والنحس والحرمات والواقع أبين شاهد بذلك ولو ذهبنا نذكر الوقائع التي شوهدت من ذلك واشتملت عليها التواريخ ازادت على ألوف عديدة فلا نجد أحدا راعى هذا العلم وتقيده به في حركاته واختياراته إلا وكانت عاقبته قريبا إلى أدبار ونكابة وبلايا لا يصاب بها سواه ومن كثر خبره بأحوال الناس فإنه يعرف من ذلك مالا يعرف غيره . . (الوجه الثاني عشر) أنا نشاهد عالما كثيرا يقتلون في ساعة واحدة في حرب وخلقوا يعرفون في ساعة واحدة مع القطع باختلاف طوع العهم واقتضاها عندكم أحوالا مختلفة ولو كان للطوالع تأثير في هذا لامتنع عند اختلافها الاشتراك في ذلك . . ولا ينفعكم جواب من انتصر لكم بأن الطوالع قد يكون بعضها أقوى من بعض ولعل طالع الوقت أقوى من طالع الأصل وكان الحكم له فإن طالع الوقت لعله اقتضى هلاكاً أو غرقاً عاماً وهو أقوى من طالع الأصل فكان التأثير له . . لانا نقول هذا بعينه يبطل عليكم طالع المولود والأصل ويحيل القول بتأثيره واعتباره جملة فإن الطوالع بعده مختلفة كثيرة وأصل بعضها أو أكثرها أقوى منه فيكون الحكم بموجبه باطلاً إذ لا أمان لكم من اقتضاء الطوالع بعده ما اقتضاه وحينئذ فلا يفيد اعتباره شيئاً . . (الوجه الثالث عشر) أنا نرى الجيشين العظيمين والحزبين المتقابلين يقتتلان ويخضعان وقد أخذ طالع الوقت لكل منهما ومع هذا فالمنصور والغالب أحدهم مع أن الطالع واحد ولا ينفعكم في هذا جواب من انتصر لكم بأنه لا مانع من القول بجهة الأخذ للطالع في الحساب والحكم فإنه لو أخذ لهما أى طالع كان لم يكن الغالب إلا أحدهم حتى لو كان الطالع قطعاً لا يتصور فيه الغلط لم يكن بد من كون أحدهما غالباً والآء مغلوباً وهذا يبطل مذهب الأحكام بلاريب . . (الوجه الرابع عشر) أن الأجز المفترضة في الفلك إما أن تكون متشابهة في الطبيعة والماهية أو مختلفة فيها فإن كانت متساوية كان الجزء الذي هو الطالع مساوياً لساائر الأجزاء وحكم سائر الأجزاء واحداً وإن كانت الأجزاء مختلفة في الماهية والطبيعة فلا ريب أن الفلك جرمه في غاية العظم حتى قالوا إن الرجل الشد العدو إذا رفع رجله ووضعها يكن الفولك قد تحرك ثلاثة آلاف ميل وإذا كان كذلك فن الوقت

بحسب بعض الزيجات درجة معينة حين وجد بحسب زيج آخر غير تلك الدرجة ربما حصل التفاوت بالبرج ولما كان علم الأحكام مبنيًا على مواضع الكواكب ومناسبتها ثم قد تبين أن التفاوت الكبير وقع في قطع الكواكب علم بطلان هذا العلم وفساده . . (الوجه التاسع) أن المعقول من تأثير هذه الكواكب في العالم السفلى هو أنها بحسب مساقط شعاعاتها تسخن هذا العالم أنواعا من السخونة فأما تأثيراتها في حصول الأحوال النفسانية من الذكاء والبلادة والسعادة والشقاوة وحسن الخلق وقبحه والغنى والفقر والحلم والسرور واللذة والألم فلو كان معلوما لكان طريق علمه إما بالخبر الذي لا يجوز عليه الكذب أو الحس الذي يشترك فيه الناس أو ضرورة العقل أو نظره وشمه من هذا كله غير موجود البتة فالقول به باطل ولا يمكن للأحكاميين أن يدعوا واحداً من الثلاثة الأول وغايتهم أن يدعوا أن النظر والتجربة قادم إلى ذلك وأوقعهم عليه ونحن نبين فساد هذا النظر والتجربة بما لا يمكن دفعه من الوجوه التي ذكرناها ونذكر غيرها مما هو مثلها وأقوى منها وكل علم صحيح فله براهين يستند إليها تنتهي إلى الحس أو ضرورة العقل وأما هذا العلم فلا ينتهي إلا إلى جحد وتخمين وظنون لا تغني عن الحق شيئاً وغاية أهله تقليد من لم يقيم دليل على صدقه . . (الوجه العاشر) أنا إذا فرضنا أن رجلين سألوا منجمين في وقت واحد في بلد واحد عن خصمين أيهما الظافر صاحبه فهنا يكون الطالع مشتركا بين كل واحد من ذينك الخصمين فإن دل ذلك الطالع على حال الغالب والمغلوب مع كونه مشتركا بين الخصمين لزم كون كل منهما غالبا لخصمه مغلوبا من جانبه وذلك محال . . فإن قالوا بين حال كل واحد منهما اختلاف بسبب طالع الأصل أو طالع التحويل أو برج الانتهاء . . قلنا هذا تسليم لقول من يقول إن طالع الوقت يدل على شيء أصلا بل لابد من رعاية الأحوال الماضية لكن الأحوال الماضية كثيرة غير مضبوطة فتوقف دلالة طالع الوقت على تلك الأحوال الماضية يقتضي التوقف على شرائط يمكن اعتبارها البتة وقد ساعد أصحاب الأحكام على الاعتراف بأن الاعتداد على طالع الوقت غير مفيد بل لا يتم الأمر إلا عند معرفة طالع الأصل فطالع التحويل وبرج الانتهاء ومعرفة التسميات فعند اعتبار جملة هذه الأمور يتم الاستدلال ومع اعتبار جملة ما وتحريرها بحيث يؤمن بطلانها يكون الاستدلال على سبيل الظن لا على سبيل القطع . . (الوجه الحادي عشر) لو فرضنا جملة مسلوكة وطريقا يمشى فيه الناس ليلا ونهاراً ثم حصل في تلك الجادة آثار متقاربة بحيث لا يقدر سالك ذلك الطريق على سلوكه إلا بتأمل كثير وتفكير شديد حتى يتخلص من الوقوع في تلك الآثار فإن من المعلوم بالضرورة أن سلامة من يمشى في هذه الطريق من عريان لا يكون كسلامة من يمشى من البصراء بل ولا بد أن يكون عطب العميان في

أخذهم في ذلك بحدود الضربين وذلك من أدل الدلائل على فساد هذا العلم . . الرابع أن أقوالهم متناقضة فإن منهم من يقول كون زحل في بيت المال دليل الفقر ومنهم من يقول يدل على وجدان كنز . . الخامس أن هذا العلم مع أنه تقليد محض فليس أيضا تقليدا منتظما لأن لكل قوم فيه مذهبها ولكل طائفة فيه مقالة فللبابليين فيه مذهب وللفرس مذهب آخر وللهند مذهب وللصين مذهب رابع والأقوال إذا تعارضت وتعذر الترجيح كان دليلا على فسادها وبطلانها وسيأتى أن شاء الله بسط هذه الوجوه أكثر من هذا . . (الوجه السابع) مما يدل على بطلان القول بالأحكام أن الطالع عندهم هو الشكل المخصوص الحاصل للفلك عند انفصال الولد من رحم أمه وإذا ثبت هذا . . فنقول الاستدلال بحصول ذلك الشكل على جميع الأحوال السككية التي تحصل لهذا الولد إلى آخر عمره استدلال باطل قطعا ويدل عليه وجوه : أحدها أن ذلك الشكل كما حدث في تلك اللحظة فانه يفنى ويزول ويحدث شكل آخر فذلك الشكل المعين معد في جميع أجزاء عمر هذا الإنسان والمعدوم لا يكون علة للموجود ولا جزء من أجزاء العلة وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بذلك الشكل منهما على الآخر وال التي تحدث في جميع أجزاء العمر . . الثاني أنه لا مشابهة بين ذلك الشكل المخصوص وبين هذا الإنسان الذي انفصل من بطن الأم إلا في أمر واحد وهو أن كل واحد ظهر بعد الخفاء وهو بمجرد ذلك لا يوجب ارتباط ذلك الشكل المخصوص للملك بسائر أحوال هذا الإنسان البتة فدعى ذلك فاسد العقل . والنظر الثالث أنه عند حدوث ذلك الطالع حدثت أنواع من الحيوانات وأنواع من النباتات وأنواع من الحوادث فلو كان ذلك الطالع يوجب آثارا مخصوصة لوجب اشتراك كل الأشياء التي حدثت في عالمنا هذا في ذلك الوقت في تلك الآثار وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن القول بتأثير الطالع باطل الرابع هب أن الطالع له أثر إلا أن الواجب أن يقال الطالع المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة وذلك لأن عند مسقط النطفة يأخذ ذلك الشخص في التكون والتولد فأما عند الولادة فالشخص قد تم تكونه وحدونه ولا حادث في هذا الوقت إلا انتقاله من مكان إلى مكان آخر فثبت أنه لو كان للطالع اعتبار لوجب أن يكون المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة . (الوجه الثامن) أن الأرصاد لا تنفك عن نوع الخلل والزلل وقد صنف أبو علي ابن الهيثم رسالة بليغة في أقسام الخلل الواقع في آلات الرصد وبين أن ذلك الخلل ليس في وسع الإنسان دفعه وإزالته وإذا عرف هذا فقول إذا بعد العهد بتجديد الرصد اجتمعت تلك المساحات القليلة ويحصل بسببها تفاوت عظيم في مواضع السكواكب وكذلك إذا وجد موضع السكواكب

أصحاب الرصد والأحكام عن الإحاطة بما في طباعها وماعبى أن تؤثره مع السيارة عند انفرادها واجتماعها فما الذى يؤمنكم كلكم عند وقوع نجم من تلك النجوم المجهولة على درجة الطالع أن يكون موجبا من الحكم مالا يوجبہ النظر بدونه . . (الوجه الرابع) أن تأثير الكواكب يختلف باختلاف أقدارها فما كان من القدر الأول أثر بوقوعه على الدرجة وإن لم تضبط الدقيقة وما كان من القدر الأخير لم يؤثر إلا بضبط الدقيقة ولا ريب أن الجهالة بتلك الكواكب ومقاديرها يوجب كذب الأحكام النجومية وبطلانها . . (الوجه الخامس) أنها لو كان لها تأثير كما يزعمون لم يخل إما أن تكون فيه مختاره مريدة أو غير مختارة ولا مريدة وكلاهما محال أما الأول فلأنه يوجب جرى الأحكام على وفق اختيارها وإرادتها ولم يتوقف على اتصالها وانفصالها ومفارقتها ومقارنتها وهبوطها بها في حضيتها وارتفاعها في أوجها كما هو المعروف من الفاعل بالاختيار ولا سيما الأجرام العلوية المؤثرة في سائر السفليات ولاختلفت آثارها أيضا عند هذه الأمور بحسب الدواعى والإرادات ولا يمكنها أن تسعد من أراد أنه ينحسه وتنحس من أراد أنه يسعده كما هو شأن الفاعل المختار وإن لم تكن مختارة ومريدة فتأثيرها بحسب الذات والطبع وما كان هكذا لم يختلف أثره إلا باختلاف القوابل والمعدات وعندكم أن في اختلاف تلك القوابل والمعدات مستفاد إلى تأثيرها فأى محال أبلغ من هذا وهل هذا إلا دور يمتنع في بداية العقول . . (الوجه السادس) أن هذا العلم مشتمل على أصول يشهد صريح العقل بفسادها وهى وإن كانت في الكثرة إلى حيث لا يمكن ذكرها فنحن نعد بعضها . . فالأول من المعلوم بالضرورة أنه ليس في السماء حمل ولا ثور ولا حية ولا عقرب ولا كلب ولا ثعلب إلا أن المتقدمين لما قسموا الفلك إلى اثني عشر قسما أرادوا أن يميزوا كل قسم منها بعلامة مخصوصة شبهوا الكواكب المذكورة في تلك القطعة المعينة بصورة حيوان مخصوص تشبيها بعيدا جداً ثم إن هؤلاء الأحكاميين فرعوا على هذه الأسماء تفريعات طويلة فرعوا أن الصور السفلية مطبوعة للصور العلوية فالعقارب مطبوعة لصور العقرب والأفاعى مطبوعة لصور الثنين وكذا القول في الأسد والسنبلة ومن عرف كيف وضعت هذه الأسماء ثم سمع قول هؤلاء الأحكاميين ضحك منهم وتبين له فرط جهلهم وكذبهم . . الثانى أن هؤلاء لما عجزوا عن معرفة طالع القرآن أقاموا طالع السنة مقام القرآن ومعلوم أن هذا في غاية الفساد . . الثالث أنهم اختلفوا اختلافاً شديداً في الواحدة من مسائل هذا العلم فإن أقوالهم في حدود الكواكب كثيرة مختلفة وليس مع أحد منهم شبهة ولا خيال فضلاً عن حجة واستدلال ثم إن كثيراً منهم من غير حجة ولا دليل ربما أخذوا واحداً من تلك الأقوال من غير بصيرة بل بمجرد التشبهى مثل (٩ - مفتاح ٢)

وهمية ولها عندكم آثار قوية . . الوجه الثاني مما يدل على أن معرفة جميع المؤثرات الفلكية غير معلوم أن الكواكب المرئية غير مرصودة بأسرها فإنكم أنتم وغيركم قد قلتم أن المجرة عبارة عن أجرام كوكبية صغيرة جدا مرتكزة في فلك الثوابت على هذا السميت المخصوص ولا ريب أن الوقوف على طبائعها متعذرة . . وثالثها أن جميع الكواكب الثابتة المحسوسة لم يحصل الوقوف التام على طبائعها لأن كلام الأحكاميين قيل الحاصل لا سيما في طبائع الثوابت نعم غاية ما عندهم أنهم ادعوا أنهم كشفوا بعض الثوابت التي في الفلك الأول والثاني فأما البقية فقلنا تكلموا في معرفة طبائعها ورابعها أن بتقدير أنهم عرفوا طبائع هذه الكواكب حال بساطتها لكن لا شبهة أنه لا يمكن الوقوف على طبائعها حال امتزاج بعضها ببعض لأن الامتزاجات الحاصلة من طبائع ألف كوكب أو أكثر بحسب الأجزاء الفلكية يبلغ في الكثرة إلى حيث لا يقدر العقل على ضبطها . . وخامسها آلات الرصد لا تنفي بضبط الثواني والثالث ولا شك أن الثانية الواحدة مثل الأرض كذا كذا ألف مرة أو أقل أو أكثر ومع هذا التفاوت العظيم كيف يمكن الوصول إلى الغرض حيث قيل إن الإنسان الشديد الجري بين رفعه رجله ووضعها الأخرى يتحرك جرم الفلك الأقصى ثلاثة آلاف ميل وإذا كان الأمر كذلك فكيف ضبط هذه المؤثرات . . وسادسها أنا عرفنا تلك الامتزاجات الحاصلة في ذلك الوقت فلا ريب أنه لا يمكننا معرفة الامتزاجات التي كانت حاصلة قبله مع أنا نعلم قطعا أن الأشكال السالفة ربما كانت عاتقة وممانعة عن مقتضيات الأشكال الحاصلة في الحال ولا ريب أنا نشاهد أشخاصا كثيرة من النبات والحيوان والإنسان مقارنة لطالع واحد مع أن كل واحد منها يخالف للآخر في أكثر الأمور وذلك أن الأحوال السالفة في حق كل تكون مخالفة للأحوال السالفة في حق الآخر وذلك يدل أنه لا اعتماد على مقتضى الوقت بل لابد من الإحاطة بالطوالع السالفة وذلك مما لا وقوف عليه أصلا فإنه ربما كانت الطوالع السالفة دافعة مقتضيات هذا الطالع الحاضر وعلى هذا الوجه عول ابن سينا في كتابيه اللذين سماهما الشفا والنجاء في إبطال هذا العلم فثبت بهذا أن الوقوف التام على المؤثرات جميعها ممتنع مستحيل وإذا كان الأمر كذلك كان الاستدلال بالأشخاص الفلكية على الأحوال السفلية باطلا قطعا . . (الوجه الثالث) أن تأثير الكواكب فيما ذكرتم من السعد والنحس إما بالنظر في مفردة وإما بالنظر إلى انضمامه إلى غيره فمضى لم يحط المنجم بهاتين الحالتين لم يصح منه أن يحكم له بتأثير ولم يحصل إلا على تعارض التقدير ومن المعلوم أن في فلك البروج كواكب شذت عن الرصد معرفة أقدارها وأعدادها ولم يعرف الأحكاميون ما يوجبه خواص مجموعاتها وأفرادها نخرج الفريقان

البروج وطبيعة كل برج مخالفة لطبيعة البرج الآخر بل طبيعة كل دقيقة وثانية مخالفة لطبيعة الدقيقة الأخرى والثانية الأخرى ولا يتم علم الأحكام إلا بهذا . . قيل قوالكم بأنه قديم أبدي غير قابل للكون والفساد ولا يقبل الانحلال ولا الحرق ولا الالتئام مع كون طبيعة كل جزء منه صغيراً أو كبيراً مخالفة لطبيعة الجزء الآخر كما صرح به أبو معشر جمع بين النقيضين فإنه إذا كان مركباً من أجزاء مختلفة الماهية لم يتمتع انحلاله وانفطاره وانشقاقه فكيف جعتم بين تكذيب الرسل في الإخبار عن انقطاعه وانشقاقه وانحلاله وبين دعواكم تركبه من ماهيات مختلفة في نفسها غير متمتع على المركب منها الانحلال له والانفطار فلا للرسل صدقكم ولا مع وجوب العقل وقفتم بل أنتم من أهل هذه الآفة (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) . . فان قيل لم لا يجوز أن يقال إن كل برج من البروج الإثني عشر قد ارتسمت فيه كواكب صغيرة بلغت في الصغر إلى حيث لا يمكننا أن نحس بهائم إن الكواكب إذا وقع في مسامته برج خاص امتزج نور ذلك الكوكب بأنوار تلك الكواكب الصغار المرسمة في تلك القطعة في الفلك فيحصل بهذا السبب آثار مخصوصة وإذا كان هذا محتملاً ولم يبطل بالدليل ثبوته تعين المصير إليه . . قيل طبائع تلك الكواكب إن كانت مختلفة بالماهية عاد المحذور المذكور وإن كانت واحدة لم يكن ذلك الامتزاج متشابهاً فلا يتصور صور الآثار المتضادة المختلفة عنه . . (الوجه الثاني في الكلام على بطلان علم الأحكام) إن معرفة جميع المؤثرات الفلكية متمتعة وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بالأحوال الفلكية على حدوث الحوادث السفلية وإنما قلنا أن معرفة جميع المؤثرات الفلكية متمتعة لوجوه . . أحدها أنه لا سبيل إلى معرفة الكواكب بواسطة القوى الباصرة والمرئي إذا كان صغيراً أو في غاية البعد من الراي فإنه يمتنع رؤيته لذلك فإن أصغر الكواكب التي في فلك الثوابت وهو الذي تمتحن به قوة البصر مثل كرة الأرض بضعة عشر مرة وكرة الأرض أعظم من كرة عطاردها كذا مرة فلو قدرنا أنه حصل في الفلك الأعظم كواكب كثيرة يكون حجم كل واحد منها مساوياً لحجم عطاردها فإنه لا شك أن البصر لا يقوى على إدراكه فيثبت أنه لا يلزم من عدم إبصارنا شيئاً من الكواكب في الفلك الأعظم عدم تلك الكواكب وإذا كان كذلك فاحتمال أن في الفلك الأعظم وفي فلك الثوابت وفي سائر الأفلاك كواكب صغيرة وإن كنا لا نحس بها ولا نراها يوجب امتناع معرفة جميع المؤثرات الفلكية . . فان قلتم إنها لما كانت صغيرة وآثارها ضعيفة لم تصل آثارها وقواها إلى هذا العالم . . قيل لكم صغر الجنة لا يوجب ضعف الأثر فإن عطاردها أصغر الأجرام الفلكية جرماً عندهم مع أن آثاره قوية وأيضاً فالرأس والذنب نقطتان ومميتان وأما أنتم فقد أثبتتم لهما آثاراً وأيضاً السهام مثل سهم السهادة وسهم الغيب نقط

بادية عليها فبأى اعتبار نظر إليها العاقل رأى آثار الفقر وشواهد الحدوث وأدلة التسخير
والنصرif فيها فهي خلق من ليس كمثل شئ. وآيات من آياته عبيد مسخرات بأمره ألاله
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . . وأما قولهم إن في اتصالات الكواكب نظر سعود
ونخوس مما أضحكوا به العقلاء عليهم من جميع الأمم ونادوا به على جهلهم وصاروا به
مركزاً لكل كذاب وكل أفاك وكل زنديق وكل مفرط في الجمل بالنبوات وما جاءت به الرسل
بالحقائق العقلية والبراهين اليقينية وسريك طرفاً من جهالاتهم وكذبهم وتناقضهم وبطلان
مقاتلهم ليعرف اللبيب نعمة الله عليه في عقله ودينه ، فيقال لهم المؤثر في هذه السعود والنخوس
هل هو الكوكب وحده والبرج وحده أو الكوكب بشرط حصوله في البرج والكل محال أما
الأول والثاني فأنهما يوجبان دوام الأثر لكون المؤثر دائم الثبوت والثالث أيضاً محال لأنه
لما اختلف أثر الكوكب بسبب اختلاف البرجين لزم أن تكون طبيعة كل برج مخالفة بالماهية
لطبيعة البرج الثاني إذ لو لم يكن كذلك كانت طبائع جميع البروج متساوية في تمام الماهية فوجب
أن يكون أثر الكوكب في جميع البروج أثراً واحداً لأن الأشياء المتساوية في تمام الماهية
يتمتع أن تلزمها لوازم مختلفة ولما كانت آثار كل كوكب واجبة الاختلاف بسبب اختلاف
البروج لزم القطع بكون البروج مختلفة في الطبيعة والماهية وهذا يقتضى كون الفلك مركباً
لابسيطاً . . وقد قلتم أنتم وجميع الفلاسفة أن الفلك بسيط لا تركيب فيه ومن العجب جواب
بعض الأحكاميين عن هذا بأن الكواكب حيوانات ناطقة فاعلة بالقصد والاختيار فلذلك
تصدر عنها الأفعال المختلفة وهذا مكابرة من هؤلاء ظاهرة فإن دلائل التسخير والاضطرار
عليها من لزومها حركة لاسبيل لها إلى الخروج عنها ولزومها موضعاً من الفلك لا تتمكن من
الانتقال عنه وإطراد سيرها على وجه مخصوص لا تفارقه البتة أبين دلائل على أنها مسخرة
مقهوره على حركاتها محركاً بتخريك قاهر لا متحركة بإرادتها واختيارها كما قال تعالى (والشمس
والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) . . ثم يقال
لا ينفك هذا الجواب شيئاً فإن طبائع البروج إن كانت متساوية في تمام الماهية كان اختصاص
كل برج بأثره الخاص ترجيحاً لأحد طرفي الممكن على الآخر بلا مرجح وإن لم تسكن متساوية
لزم تركيب الفلك ومما أضحكتم به العقلاء منكم أنكم جعلتموها أجساماً ناطقة فاعلة بالاختيار
وفقيتم أن يكون فاعلها ومبدعها حياً قيوماً فاعلاً بالاختيار وهذه الحوادث مستندة إلى مشيئته
واختياره جارية على وفق حكمته وعلمه مع كون هذه الكواكب عبيده وخلق مسخر بأمره
ولا تملك لأنفسها ولا لما تحتها ضراً ولا نفعاً ولا سعداً ولا نحساً كما قاله العقلاء من بنى آدم
وانفقت عليه الرسل وأنباهم . . فان قيل لانسلم أن الفلك بسيط بل هو مركب من هذه

آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (فأدخل المؤمنين من الصابئين في أهل السعادة ولم ينالوا ذلك إلا بالإيمان بالرسول ولكن منهم من أنكر النبوات وعبد الكواكب وهم فرق كثيرة ليس هذا موضع ذكرهم . . فأما قولهم إن الموجودات في العالم السفلي مركبة في تأثير الكواكب والروحانيات وفي انصافها صعود ونحوس يوجب أن يكون في آثارها حسن وقبح في الأخلاق والأعمال يدركه كل ذى عقل سليم فلا حاجة لنا إلى من يعرفنا حسنها وقبحها إلى آخر كلامهم فكلهم من هو أجهل الناس وأضلهم وأبعدهم عن الإنسانية وقائل هذه المقالة مناد على نفسه أنه لم يعرف فاطره فاطر السموات والأرض ولا صفاته ولا أفعاله بل ولا عرف نفسه التي بين جنبيه ولا ما يسعدها ويشقيها ولا غايتها ولا لماذا خلقت ولا بماذا تكمل وتصلح وبماذا تفسد وتهلك بل هو أجهل الناس بنفسه وبفاطرها وبارئها وهل يتمكن العقل بعد معرفة النفس ومعرفة فاطرها ومبدعها أن يحدد النبوة أو يحوز على الله وعلى حكمته أن يترك النوع البشرى الذى هو خلاصة المخلوقات سدى ويدعهم هملا معطلا ومخلقهم عبثا باطلا ومن جاوز ذلك على الله سبحانه فما قدره حق قدره بل ولا عرفه ولا آمن به قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) فأخبر تعالى أن من جحد رسالاته فما قدره حق قدره ولا عرفه ولا عظمه ولا نزهه عما لا يليق به تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ثم يقال لهذه الطائفة بماذا عرفتم أن الموجودات بالعالم السفلي كلها مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات وهل هذا إلا كذب بحت وبهت فهب أن بعض الآثار المشاهدة مسبب عن تأثير بعض الكواكب والعلويات كما يشاهد من تأثير الشمس والقمر في الحيوان والنبات وغيرهما فن أين لكم أن جميع أجزاء العالم السفلي صادر عن تأثير الكواكب والروحانيات وهل هذا إلا كذب وجهل فهذا العالم فيه من التغير والاستحالة والكون والفساد ما لا يمكن إضافته إلى كوكب ولا يتصور وقوعه إلا بمشيئة فاعل مختار قادر مؤثر في الكواكب والروحانيات مسخر لها بقدرته مدبر لها بمشيئته ، كما تشهد عليها أحوالها وهيئاتها وتسخيرها وانقيادها أنها مدبرة مربوبة مسخرة بأمر قادر قاهر يصرفها كيف يشاء ويدبرها كما يريد ليس لها من الأمر شيء ولا يمكن أن تتصرف في أنفسها بذرة فضلاً أن تعطى العالم وجوده فلو أرادت حركة غير حركتها أو مكانا غير مكانها أو هيئة أو حالا غير ما هي عليه لم تجد إلى ذلك سبيلا فكيف تكون رباً لكل ماتحتها مع كونها عاجزة مصرفة مقهورة مسخرة آثار الفقر مسطورة في صفحاتها وآيات العبودية والتسخير

وأحد النعمين أحب إليهم من الآخر وآثر عندهم وأقر لعيونهم كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا دخل أهل الجنة نادى مناديا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يديض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وفي حديث غير هذا أنهم إذا نظروا إلى ربهم تبارك وتعالى أنساهم لذة النظر إليه ما هم فيه من النعيم . . . والوجه الثاني أن البدن والأعضاء آلات للنفس ورعية للقلب وخدم له فإذا فقد بعضهم كاله الذي خلق له كان بمنزلة هلاك بعض جند الملك ورعيته وتعطل بعض آلاته وقد لا يلحق الملك من ذلك ضرر أصلاً وأما إذا فقد القلب كاله الذي خلق له وحياته ونعيمه كان بمنزلة هلاك الملك وأسرره وذهاب ملكه من يديه وصيرورته أسيراً في أيدي أعاديه فهو كذا الروح إذا عدمت كآله وصلاحيها في معرفة فاطرها وبارئها وكونه أحب شيء إليها رضاه وابتغاء الوسيلة إليه آثر شيء عندها حتى يكون اهتمامها بمحبته ومرضاها اهتمام المحب التام المحبة بمرضاة محبوبه الذي لا يجد منه عوضاً كانت بمنزلة الملك الذي ذهب منه ملكه وأصبح أسيراً في أيدي أعاديه يسؤمونه سوء العذاب وهذا الألم كامن في النفس لكن يستتره ستر الشهوات ويواريه حجاب الغفلة حتى إذا كشف الغطاء وحيل بين العبد وبين ما يشتهي وجد حقيقة ذلك الألم وذائق طعمه وتجرد ألمه عما يحجب به ويواريه وهذا أمر يدرك بالعيان والتجربة في هذه الدار تكون الأسباب المؤلمة للروح والبدن موجودة مقتضية لآثارها ولكن يقوم للقلب من فرحه بحظ ناله من مال أو جاه أو وصال حبيب ما يوارى عنه شهود الألم وربما لا يشعر به أصلاً فإذا زال المعارض ذاق طعم الألم ووجد مسه ومن اعتبر أحوال نفسه وغيره علم ذلك فإذا كان هذا في هذه الدار فما الظن عند المفارقة والفتام عن الدنيا والانتقال إلى الله والمصير إليه فليتأمل العاقل الفطن الناصح لنفسه هذا الموضع حق التأمل وليشغل به كل أفكاره فان فهمه وعقله واستمر اعراضه .

فما تبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

وإن لم يفهمه لغلظ حجابيه وكثافة طبعه في كفيه الإيمان بما أعد الله تعالى في الجنة لأهلها من نعيم الأكل والشرب والنكاح والمناظر المبهجة وما أعد في النار لأهلها من السلاسل والأغلال والحميم ومقطعات الثياب من النار ونحو ذلك والمقصود بيان أن الحاجة إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ضرورة بل هي في أعلى مراتب الضرورة وليست نظراً لحاجتهم إلى الحاجة وأسبابها بل هي أعظم من ذلك وأما ما ذكر عن الصابئة من الاستغناء عن النبوة فهذا ليس مذهبا لجميعهم بل فيهم سعييد وشقي كما قال تعالى (إن الذين

العقلية ومنهم من يقول أن الغاية المقصودة التي يحصل بها الثواب هي العمل والعلم وسيلة إليه حتى ربما قالوا ذلك في معرفة الله تعالى وإنما وجبت لأنها لطف في أداء الواجبات العملية وهذه الأقوال تصور العاقل اللبيب لها حق التصور كاف في جزمه ببطالانها رافع عنه مؤنة الرد عليها والوجوه الدالة على بطلانها أكثر من أن تذكر ها هنا (الطريق الثالث) طريق الجبرية ومن وافقهم أن الله سبحانه امتحن عباده بذلك وكلفهم بالحكمة ولا لغاية مطلوبة له ولا بسبب من الأسباب فلا لام لتعليل ولا بآء سبب إن هو إلا محض المشيئة وصرف الإرادة كما قالوا في الخلق سواء وهؤلاء قابلو من قبلهم من التقديرية والمعزلة أعظم مقابلة فهما طرفا تقيض لا يلتقيان (والطريق الرابع) طريق أهل العلم والإيمان الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا مراده بما أمرهم ونهاهم عنه وهي أن نفس معرفة الله ومحبة وطاعته والتقرب إليه وابتغاء الوسيلة إليه أمر مقصود لذاته وأن الله سبحانه يستحقه لذاته وهو سبحانه المحبوب لذاته الذي لا تصلح العبادة والمحبة والذل والخضوع والتأله إلا له فهو يستحق ذلك لأنه أهل أن يعبد ولو لم يخلق جنة ولا ناراً ولو لم يضع ثواباً ولا عقاباً كما جاء في بعض الآثار لو لم أخلق جنة ولا ناراً أما كنت أهلاً أن أعبد فهو سبحانه يستحق غاية الحب والطاعة والثناء والمجد والتعظيم لذاته ولما له من أوصاف الكمال ونعوت الجلال وحبه والرضى به وعنه والذل له والخضوع والتعبد هو غاية سعادة النفس وكمالها والنفس إذا فقدت ذلك كانت بمنزلة الجسد الذي فقد روحه وحياته والعين التي فقدت ضوءها وبورها بل أسوأ حالا من ذلك من وجهين : أحدهما أن غاية الجسد إذا فقد روحه أن يصير معطلا ميتاً وكذلك العين تصير معطلة وأما النفس إذا فقدت كمالها المذكور فإنها تبقى معذبة متألماً وكلما اشتد خجابها اشتد عذابها وألمها وشاهد هذا ما يجده المحب الصادق المحبة من العذاب والألم عند احتجاب محبوبه عنه ولا سيما إذا يئس من قربهِ وحظي غيره بحبه ووصله هذا مع إمكان التعوض عنه بمحسوب آخر نظيره أو خير منه فكيف بروح فقدت محبوبها الحق الذي لم تخلق إلا لمحبة ولا كمال لها ولا صلاح أصلاً إلا بأن يكون أحب اليها من كل ما سواه وهو محبوبها الذي لا تعوض منه سواه بوجه ما كما قال القائل :

من كل شيء اذا ضيعته عوض وما من الله ان ضيعته عوض

ولولم يكن احتجابه سبحانه عن عبده أشد أنواع العذاب عليه لم يتوعد به أعداءه كما قال تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالو الجحيم) فأخبر أن لهم عذابين أحدهما عذاب الحجاب عنه والثاني صلي الجحيم وأحد العذابين أشد من الآخر وهذا كما أنه سبحانه ينعم على أوليائه بنعيمين نعيم كشف الحجاب فينظرون إليه ونعيم الجنة وما فيها

المتكلمين حيث قالوا إن الإرادة لا تتعلق إلا بحادث وأما القديم فكيف يكون مراداً وخفى عليهم الفرق بين الإرادة الغائية والإرادة الفاعلية وجعلوا الإرادتين واحدة والمقصود أن هؤلاء الفلاسفة لم يذكروا هذا في كمال النفس وإنما جعلوا كمالها في تعديل الشهوة والغضب والشهوة هي جلب ما ينفع البدن ويبتغي النوع والغضب دفع ما يضر البدن وما تعرضوا لمراد الروح المحبوب لذاته وجعلوا كمالها العلى في مجرد العلم وغلطوا في ذلك من وجوه كثيرة .

منها أن ما ذكروه لا يعطى كمال النفس الذى خلقت له كما بيناه . . ومنها أن ما ذكروه في كمال القوة العملية إنما غايته اصلاح البدن الذى هو آلة النفس ولم يذكروا كمال النفس الإرادى والعمل بالمحبة والخوف والرجاء . . ومنها أن كمال النفس في العلم والإرادة لا في مجرد العلم فإن مجرد العلم ليس بكمال للنفس مالم تسكن مريدة محبة لمن لاسعادة لها إلا بإرادته ومحبه فاعلم المجرد لا يعطى النفس كمالا مالم تقترن به الإرادة والمحبة . . ومنها أن العلم لو كان كمالا بمجرد لم يكن ما عندهم من العلم كمالا للنفس فإن غاية ما عندهم علوم رياضية صحيحة مصلحتها من جنس مصالح الصناعات وربما كانت الصناعات أصاح وأنفع من كثير منها وإما علم طبيعى صحيح غايته معرفة العناصر وبعض خواصها وطبائنها ومعرفة بعض ما يتركب منها وما يستحيل من الموجبات إليها وبعض ما يقع في العالم من الآثار بامتزاجها واختلاطها وأى كمال للنفس في هذا وأى سعادة لها فيه وإما علم إلهى كله باطل لم يوفقوا في الإصاغة الحق فيه مسألة واحدة .

ومنها أن كمال النفس وسعادتها المستفاد عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ليس عندهم اليوم منه حس ولا خبر ولا عين ولا أثر فهم أبعد الناس من كالات النفوس وسعاداتها وإذا عرف ذلك وأنه لا بد للنفس من مراد محبوب لذاته لا يصلح إلا به ولا يكمل إلا بحبه وإيثاره وقطع العلائق عن غيره وإن ذلك هو النهاية وغاية مطلوبها ومرادها الذى إليه ينتهى الطلب فليس ذلك إلا الله الذى لا إله إلا هو قال تعالى (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وليس صلاح الإنسان وحده وسعاداته إلا بذلك بل وكذلك الملائكة والجن وكل حى شاعر لاصلاح له إلا بأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده وغاية مراده وسيمر بك إن شاء الله بسط القول في ذلك وإقامة البراهين على هذا المطلوب الأعظم الذى هو غاية سعادة النفوس وأشرف مطالبها فلنرجع إلى ما كنا فيه من بيان طرق الناس في مقاصد العبادات (الطريق الثانى) طريق من يقول من المعتزلة ومن تابعهم إن الله سبحانه عرضهم بها للثواب واستأجرهم بتلك الأعمال للخير فعاوضهم عليها معاوضة قالوا والإنعام منه في الآخرة غير حسن لما فيه من تكرير مئة العطاء ابتداء ولما فيه من الإخلال بالممدح والثناء والتعظيم الذى لا يستحق إلا بالتكليف ومنهم من يقول إن الواجبات الشرعية لطف في الواجبات

حكمتهم العلمية إيمان بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه وليس في حكمتهم العملية عبادته وحده ولا شريك له واتباع مرضاته واجتناب مساخطه ومعلوم أن النفس لا سعادة لها ولا فلاح إلا بذلك فليس من حكمتهم العلمية والعملية ما تسعده النفوس وتفوز ولهذا لم يكونوا داخلين في الأمم السعداء في الآخرة وهم الأمم الأربعة المذكورون في قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والناصري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

فصل

وهذه الكمالات الأربعة التي ذكرها الفلاسفة للنفس لا بد منها في كمالها وصلاحها ولكن قصرنا غاية التقصير في أنهم لم يبينوا متعلقها ولم يحدوا لها حداً فاصلاً بين ما تحصل به السعادة وما لا تحصل به فإنهم لم يذكروا متعلق العفة ولا عما إذا تكون ولا مقدارها الذي إذا تجاوزه العبد وقع في الفجور وكذلك الحلم لم يذكروا مواقفه ومقداره وأين يحسن وأين يقبح وكذلك الشجاعة وكذلك العلم لم يميزوا العلم الذي تزكو به النفوس وتسعد من غيره بل لم يعرفوا أصلاً وأما الرسل صلاة الله وسلامه عليهم فبينوا ذلك غاية البيان وفصلوه أحسن تفصيل وقد جمع الله ذلك في كتابه في آية واحدة فقال (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذه الأنواع الأربعة التي حرمها تحريماً مطلقاً لم يبيح منها شيئاً لأحد من الخلق ولا في حال من الأحوال بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير فإنها تحرم في حال وتباح في حال وأما هذه الأربعة فهي محرمة فالفواحش متعلقة بالشهوة وتعديل قوة الشهوة باجتنابها والبغى بغير الحق متعلق بالغضب وتعديل القوة الغضبية باجتنابه والشرك بالله ظلم عظيم بل هو الظلم على الإطلاق وهو منافي للعدل والعلم وقوله (وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً متضمن تحريم أصل الظلم في حق الله وذلك يستلزم إيجاب العدل في حقه وهو عبادته وحده لا شريك له فإن النفس لها القوتان العلمية والعملية وعمل الإنسان عمل اختياري تابع لإرادة العبد وكل إرادة فلها مراد وكل هو إما مراد لنفسه وإما مراد لغيره ينتهي إلى المراد لنفسه ولا بد فالقوة العملية تستلزم أن يكون للنفس مراد تستكمل بإرادته فإن كان ذلك المراد مضمحلًا فإنما زالت الإرادة بزواله ولم يكن للنفس مراد غيره فقائماً أعظم سعادتها وفلاحها فيجب إذا أن يكون مرادها الذي تستكمل بإرادته وحبه وإيثاره باقياً لا يفنى ولا يزول وليس ذلك إلا الله وحده وسنذكر إن شاء الله عن قريب معنى تعلق الإرادة به تعالى وكونه مراداً والعبد مرید له فإن هذا مما أشكل على بعض

قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (وقال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام
 ديناً فلن يقبل منه) وقال تعالى (وأسأل من رسلنا من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة
 يعبدون) وقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وأن هذه
 أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) وقال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا
 والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه
 كبر على المشركين) وقال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها
 لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا
 الصلاة ولا تكونوا من المشركين) وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)
 فالأغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بنى آدم وسعادتهم ونجاتهم هي معرفة الله ومحبة وعبادته
 وحده لا شريك له وهي حقيقة قول العبد لا اله إلا الله وبها بعث الرسل ونزلت جميع
 الكتب ولا تصلح النفس ولا تزكو ولا تكمل إلا بذلك قال تعالى (فويل للمشركين الذين لا
 يؤتون الزكاة) أى لا يؤتون ما تزكى به أنفسهم من التوحيد والإيمان ولهذا فسرنا غير واحد
 من السلف بأن قالوا لا يأتون الزكاة لا يقولون لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإن يكون
 الله أحب إلى العبد من كل ما سواه هو أعظم وصية جاءت بها الرسل ودعوا إليها الأمم وسنن
 إن شاء الله عن قريب بالبراهين الشافية أن النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلا بأن
 يكون الله وحده محبوبها ومعبودها لا أحب إليها منه ولا أثر عندها من مرضاته والتقرب إليه
 وإن النفس محتاجة بل مضطرة إليه حيث هو معبودها ومحبوبها وغاية مرادها أعظم من اضطرارها
 إليه من حيث هو ربها وخالقها وفاطرها ولهذا كان من آمن بالله خالقه ورازقه وربّه ومليكه
 ولم يؤمن بأنه لا اله يعبد ويحب ويخشى ويخاف غيره بل أشرك معه في عبادته غيره فهو كافر
 به مشرك شركاً لا يغفره الله له كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) وقال تعالى (ومن
 الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فأخبر أن من أحب شيئاً سوى الله
 مثل ما يحب الله فقد اتخذ من دون الله أنداداً ولهذا يقول أهل النار لمعبوداتهم وهم معهم
 فيها (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) وهذه التسوية إنما
 كانت في الحب والتأله لا في الخلق والقدرة والربوبية وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار
 بقوله (والحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا
 بربهم يعدلون) وأصح القولين أن المعنى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيجعلون له عدلاً
 يحبونه ويعبدونه ويعبدونه كما يحبون الله ويعبدونه فما ذكر الفلاسفة من الحكمة العملية
 والعلمية ليس فيها من العلوم والأعمال ما تستعد به النفوس وتنجو به من العذاب فليس في

الحاصلة من صقل المرأة لتستعد لظهور الصور فيها وهؤلاء يجعلون الشرائع من جنس الأخلاق الفاضلة والسياسات العادلة ولهذا رام فلاسفة الإسلام الجمع بين الشريعة والفلسفة كما فعل ابن سينا والفارابي واضرا بهما وآل بهم إلى أن تكلموا في خوارق العادات والمعجزات على طريق الفلاسفة المثانين وجعلوا لها أسمايا ثلاثة أحدها القوى الفلسفية والثاني القوى النفسية والثالث القوى الطبيعية وجعلوا جنس الخوارق جنساً واحداً وأدخلوا ما للسحرة وأرباب الرياضة والحكمة وغيرهم مع ما للأنبياء والرسول في ذلك وجعلوا سبب ذلك كله واحداً وإن اختلفت بالغايات والنبي قصده الخير والساحر قصده الشر وهذا المذهب من أفسد مذاهب العالم وأخبثها وهو مبنى على انكار الفاعل المختار وأنه تعالى لا يعلم الجزئيات ولا يقدر على تغيير العالم ولا يخلق شيئاً بمشيئته وقدرته وعلى انكار الجن والملائكة ومعاد الأجسام وبالجملة فهو مبنى على الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وليس هذا موضع الرد على هؤلاء وكشف باطلهم وفضائحهم إذ المقصود ذكر طرق الناس في المقصود بالشرائع والعبادات وهذه الفرقة غاية ما عندها في العبادات والأخلاق والحكمة العلمية أنهم رأوا النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية ولها تصور وعلم بقوتها العلمية فقالوا كمال الشهوة في العفة وكمال الغضب في الحكم والشجاعة وكمال القوة النظرية بالعلم والتوسط في جميع ذلك بين طرفي الإفراط والتفريط هو العدل . هذا غاية ما عند القوم من المقصود بالعبادات والشرائع وهو عندهم غاية كمال النفس وهو استكمال قوتها العلمية والعملية فاستكمال قوتها العلمية عندهم بانطباع صور المعلومات في النفس واستكمال قوتها العلمية بالعدل وهذا مع أنه غاية ما عندهم من العلم والعمل وليس فيه بيان خاصية النفس التي لا كمال لها بدونه البتة وهو الذي خلقت له وأريد منها بل ماعرفه القوم لأنه لم يكن عندهم من معرفة متعلقه إلا نزر يسير غير مجد ولا محصل للمقصود وذلك معرفة الله بأسمائه وصفاته ومعرفة ما ينبغي للجلال وما يتعالى ويتقدس عنه ومعرفة أمره ودينه والتمييز بين مواقع رضاه وسخطه واستفراغ الوسع في التقريب إليه وامتلاء القلب بمحبته بحيث يكون سلطان حبه قاهراً لكل محبة ولا سعادة للعبد في دنياه ولا أخراه إلا بذلك ولا كمال للروح بدون ذلك البتة وهذا هو الذي خلق له وأريد منه بل ولأجله خلقت السموات والأرض واتخذت الجنة والنار كما سيأتى تقريره من أكثر من مائة وجه إن شاء الله . ومعلوم أنه ليس عند القوم من هذا خبر بل هم في واد وأهل الشأن في واد وهذا هو الدين الذي أجمعت الأنبياء عليه من أولهم إلى خاتمهم كلهم جاء به وأخبر عن الله أنه دينه الذي رضي له عباده وشرعه لهم وأمرهم به كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (وما أرسلنا

أين له معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته والآية التي تعرف بها الله الى عبادته على ألسنة رسله ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده ومن أين له تفاصيل مواقع محبته ورضاه وسخطه وكرهاته ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه وما أعد لأوليائه وما أعد لأعدائه ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما ودجارتها ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يظهر الله عليه أحداً من خلقه إلا من ارتضاه من رسله إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل وبلغته عن الله وليس في العقل طريق إلى معرفته فكيف يكون معرفة حسن بعض الأفعال وقبحها بالعقل مغنياً عما جاءت به الرسل فظهر أن ما ذكرتموه مجرد تهويل مشحون بالأباطيل والحمد لله . وقد ظهر بهذا قصور الفلاسفة في معرفة النبوات وانهم لا علم عندهم بها إلا كعلم عوام الناس بما عندهم من العقليات بل علمهم بالنبوات وحقيقتها وعظم قدرها وما جاءت به أقل بكثير من علم العامة بمقلياتهم فهم عوام بالنسبة إليها كما أن من لم يعرف علومهم عوام بالنسبة إليهم فلولاً للنبوات لم يكن في العالم . علم نافع البتة ولا عمل صالح ولا صلاح في معيشته ولا قوام للمملكة وللكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التي يعدو بعضها على بعض وكل دين في العالم . فمن آثار النبوة وكل شيء وقع في العالم أو سيقع فسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فالعالم حينئذ روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه ولهذا إذا تم انكساف شمس النبوة من العالم ولم يبق في الأرض شيء من آثارها البتة انشقت سماؤه وانتثرت كواكبه وكورت شمسه وخسف قره ونسفت جباله وزلزلت أرضه وأهلك من عليها فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة ولهذا كان كل موضع ظهرت فيه آثار النبوة فأهله أحسن حالا وأصلح بالا من الموضع الذي يخفى فيه آثارها وبالجملة فحاجة العالم إلى النبوة أعظم من حاجتهم إلى نور الشمس وأعظم من حاجتهم إلى الماء والهواء الذي لأحياء لهم بدونه

فصل

وأما ما ذكره الفلاسفة من مقصود الشرائع وإن ذلك لاستكمال النفس قوى العلم والعمل والشرائع ترد بتهميد ما تقرر في العقل بتعبيره إلى آخره . فهذا مقام يجب الاعتراف بشأنه وأن لا تضرب عنه صفحاً فنقول للناس في المقصود بالشرائع والأوامر والنواهي أربعة طرق : أحدها طريق من يقول من الفلاسفة وأتباعهم من المنتسبين إلى الملل أن المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها لتستعد بذلك لقبول الحكمة العلمية والعملية . . ومنهم من يقول لتستعد بذلك لأن تكون محلاً لانتقاش صور المعقولات فيها ففائدة ذلك عندهم كالفائدة

فيكون للخبر مخبر ثابت في نفسه والأمر والنهي متعلق ثابت في نفسه . . قالوا فعله من الفعل بحسن الحسن وقبح القبيح ثم علمه بأن ما أمرت به الرسل هو الحسن ومأنت عنه هو القبيح طريق الى تصديق الرسل وأنهم جاؤا بالحق من عند الله ولهذا قال بعض الأعراب وقد سئل بماذا عرفت أن محمدا رسول الله فقال ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به أفلا ترى هذا الأعرابي كيف جعل مطابقة الحسن والقبح الذي ركب الله في العقل إدراكه لما جاء به الرسول شاهدا على صحة رسالته وعلمها عليها ولم يقل أن ذلك يقبح طريق الاستغناء عن النبوة بحاكم العقل . قالوا أيضا فهذا إنما يلزم أن لو قيل بأن ما جاءت به الرسل ثابت في العقل إدراكه مفصلا قبل البعثة خيئذ يقال هذا يفتح باب الاستغناء عن الرسالة ومعلوم أن إثبات الحسن والقبح العقليين لا يستلزم هذا ولا يدل عليه بل غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى الشرع بتفضيله أو قبحه فيدركه العقل جملة ويأتي الشرع بتفصيله وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل وأما كون هذا الفعل المعين عدلا أو ظلما فهذا بما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد وكذلك يعجز عن إدراك حسن كل فعل وقبحه وأن تأتي الشرائع بتفصيل ذلك وتبيينه وما أدركه العقل الصريح من ذلك أنت الشرائع بتقريره وما كان حسنا في وقت قبيلها في وقت ولم يهتد العقل لوقت حسنه من وقت قبحه أنت الشرائع بالأمر به في وقت حسنه وبالنهي عنه في وقت قبحه وكذلك الفعل يكون مشتملا على مصلحة ومفسدة ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته فيتوقف العقل في ذلك فتأتي الشرائع ببيان ذلك وتأمر براجح المصلحة وتنهى عن راجح المفسدة وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره والعقل لا يدرك ذلك فتأتي الشرائع ببيانه فتأمر به بمن هو مصلحة له وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في حقه وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدى إليها العقل فلا يعلم الا بالشرع كالجهاد والقتل في الله ويكون في الظاهر مصلحة وفي ضمنه مفسدة عظيمة لا يهتدى إليها العقل فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة والمفسدة الراجعة هذا مع أن ما يعجز العقل عن إدراكه من حسن الأفعال وقبحها ليس بدون ما تدركه من ذلك فالحاجة إلى الرسل ضرورة بل هي فوق كل حاجة فليس العالم إلى شيء أحوج منهم إلى المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ولهذا يذكر سبحانه عباده نعمه عليهم برسوله ويعد ذلك عليهم من أعظم المنن منه لشدة حاجتهم اليه ولتوقف مصالحهم الجزئية والكلية عليه وأنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا قيام الا بالرسول فإذا كان العقل قد أدرك حسن بعض الأفعال وقبحها فن

عن الجواب عنه . . قالوا وأما نحن فإننا سهلنا بذلك الطريق إلى اثبات النبوات بل لا يمكن اثباتها إلا بالاعتراف بهذه المسألة فإنه إذا ثبت أن من الأفعال حسناً ومنها قبيحاً وأن أظهار المعجزة على يد الكاذب قبيح وأن الله تعالى ويتقدس عن فعل القبايح علمنا بذلك صحة نبوة من أظهر الله على يديه الآيات والمعجزات وأما أنتم فأنكم لا يمكنكم العلم بذلك قالوا وكذلك نحن قلنا إن العبد فاعل مختار لفعله وأوامر الشرع ونواهيته متوجهة إلى مجرد فعله الاختياري القائم به وهو متعلق الثواب والعقاب وأما أنتم فلا يمكنكم ذلك لأن تلك الأفعال عندهم هي فعل الله في العبد لاصنع للعبد فيها أصلاً فكيف يتوجه أمر الشرع ونهيهِ إلى غير فاعل بل يؤمر وينهى بما لاقدرة له عليه البتة بل بفعل غيره . . قالوا فليتدبر المنصف هذا المقام فإنه يتبين له أنه سد على نفسه طريق النبوات وفتح باب الاستغناء عنها . . قالوا وأيضاً فإن الله سبحانه فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبيح وركب في عقولهم إدراك ذلك والتمييز بين النوعين كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار والملائم لهم والمنافر وركب في حواسهم إدراك ذلك والتمييز بين أنواعه والفطرة الأولى هي خاصة الإنسان التي تميز بها عن غيره من الحيوانات وأما الفطرة الثانية فمشتركة بين أصناف الحيوان وحجة الله عليه إنما تقوم بواسطة الفطرة الأولى ولهذا اختص من بين سائر الحيوانات بارسال الرسل إليه وبالأمر والنهي والثواب والعقاب فجعل سبحانه في عقله ما يفرق بين الحسن والقبيح وما ينبغي إظهاره وما ينبغي اجتنابه ثم أقام عليه حجته برسالاته بواسطة هذا الحاكم الذي يتمكن به من العلم بالرسالة وحسن الإرسال وحسن ما تضمنته من الأمور وقبح ما نهى عنه فإنه لولا ما ركب في عقله من إدراك ذلك لما أمكنه معرفة حسن الرسالة وحسن المأمور وقبح المحذور ولهذا قلنا إن من أنكر الحسن والقبيح العقلين لزمه إنكار الحسن والقبيح للشريعة وإن زعم أنه مقربه فإن أخبار الشرع عن الفعل بأنه حسن أو قبيح مطابق لكونه في نفسه كذلك فإذا كان في نفسه ليس بحسن ولا قبيح فإن هذا الخبر لا يخبر له إلا مجرد تعلق الفعل أو لا تفعل به وهذا التعليق عندهم جائز أن يكون بخلاف ما هو به وإن يتعلق الطلب بالمنهى عنه والنهي بالمأمور به والتعلق لم يجعله حسناً ولا قبيحاً بل غايته أن جعل الفعل مأموراً منهياً فعاد الحسن والقبيح إلى مجرد كونه مأموراً منهياً ولا فرق عندهم بالنظر إلى ذات الفعل بين النوعين بل ما كان مأموراً يجوز أن يقع منهياً وبالعكس فلم يكشف الأمر والنهي صفة حسن ولا قبح أصلاً فلا حسن ولا قبح إذا عقلاً ولا شرعاً وإنما هو تعلق الطلب بالفعل والترك وهذا مما لا خلاص منه إلا بالقول بأن للأفعال خواص وصفات عليها في أنفسها اقتضت أن يؤمر بحسنها وينهى عن سيئها ويخبر عن حسننها بما هو عليه ويخبر عن غيريها بقبحها بما سيكون عليه

بهذه اللوازم التي ألزمتها المعتزلة وماذا جوابكم عنها إذا وجهناها إليكم . قيل لا ريب أنا نثبت لله ما أثبتته لنفسه وشهدت به الفطر والعقول من الحكمة في خلقه وأمره ونقول إن كل ما خلقه وأمر به فله فيه حكمة بالغة وإوآيات باهرة لأجلها خلقه وأمر به ولكن لا نقول إن الله تعالى في خلقه وأمره كله حكمة مماثلة لما للمخلوق من ذلك ولا مشابهة له بل الفرق بين الحكمتين كالفرق بين الفعلين والفرق بين الوصفين والذاتين فليس كمثله شيء في وصفه ولا في فعله ولا في حكمة مطلوبة له من فعله بل الفرق بين الخالق والمخلوق في ذلك كله أعظم فرق وأبينه وأوضحه عند العقول والفطر وعلى هذا لجميع ما ألزمتهمه لأصحاب الصلاح والأصلح بل وأضعافه وأضعاف أضعافه الله فيه حكمة يختص بها لا يشاركه فيها غيره ولأجلها حسن منه ذلك ويقبح من المخلوق لا تنفاه تلك الحكمة في حقها وهذا كما يحسن منه تعالى مدح نفسه والثناء على نفسه وإن قبح من أكثر خلقه ذلك ويليق بجلاله الكبرياء والعظمة ويقبح من خلقه تعاطيها كما روى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبرياء إزارى والعظمة ردائى فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة وكما يحسن منه إمامة خلقه وابتلاؤهم وامتحانهم بأنواع المحن ويقبح ذلك من خلقه وهذا أعظم من أن نذكر أمثله فليس بين الله وبين خلقه جامع يوجب أن يحسن منه ما حسن منهم ويقبح منه ما قبح منهم وإنما توجه تلك الإلزامات إلى من قاس أفعال الله بأفعال عباده وأما من أثبت له حكمة تختص به لا تشبه ما للمخلوقين من الحكمة فهو عن تلك الإلزامات بمعزل ومنزله منها أبعد منزل ونكتة الفرق أن بطلان الصلاح والأصلح لا يستلزم بطلان الحكمة والتعليل والله الموفق (الوجه الثالث والستون) قواكم أنتم فتحتم بهذه المسئلة طريقاً للاستغناء عن النبوات وسلطتم عليكم بها الفلاسفة والبراهمة والصابئة وكل منكر للنبوات فإن هذه المسئلة باب بيننا وبينهم فانكم إذا زعمتم أن في العقل حاكماً يحسن ويقبح ويوجب ويحرم ويتقاضى الثواب والعقاب لم تكن الحاجة إلى البعثة ضرورية لإمكان الاستغناء عنها فهذا الحاكم إلى آخره . . قال المثبتون هذا كلام هائل وهو عند التحقيق باطل لو أنصف مورده لعلم إنا وهو كما قال الأول: رمتنى بدائها وانسلت . وقد بينا أن النفاة سدوا على أنفسهم طريق إثبات النبوة بإنكارهم هذه المسئلة وقالوا إنه يحسن من الله كل شيء حتى اظهار المعجزة على يد الكاذب ولا فرق بالنسبة إليه بين اظهارها على يد الصادق ويد الكاذب وليس في العقل ما يدل على استحالة هذا وجواز هذا وتوقف معرفته على السمع لا سيما إذا انضم إلى ذلك انكار كون العبد فاعلاً مختاراً البتة فإن ذلك يسد الباب جملة لأن متعلق الأمر والنهى إنما هو أفعال العباد الاختيارية فمن لافعل له ولا اختيار أصلاً فكيف يعقل أن يكون مأموراً منهاياً وقد تقدم حديث الاخام وعجزكم

معافان بطلان قولهم لا يتوقف على نفى الحسن والقبح ونفيهما باطل وخصوصكم من المعتزلة أثبتوا الله شريعة عقلية أو جبوا عليه فيها وحرّموا بمقتضى عقولهم وظنوا أنهم لا يمكنهم إثبات الحسن والقبح إلا بذلك فأخطؤوا في الأمرين معافان الله تعالى كما لا يقاس بعباده في أفعاله لا يقاس بهم في ذاته وصفاته فليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وإثبات الحسن والقبح لا يستلزم هذا الإيجاب والتحرّم العقلين فليتنامل اللبيب هذه الدقائق التي هي مجامع مآخذ الفرق فيها يتبين أن الناس إنما تكلموا في حواشي المسئلة ولم يخوضوا لبحثها ويقتحموا غمرتها والله المستعان وأما الزامكم لخصوصكم من المعتزلة تلك اللوازم فلا ريب أنها مستلزمة لبطلان قولهم مع أضعافها من اللوازم التي تبين فساد مذهبهم ونحن مساعدوكم عليها كما لا يحيدلهم عن الزاماتكم فنحن أنكم سددتم على أنفسكم طريق الاستدلال بالمعجزة على النبوة حيث جوزتم على الله أن يؤيد الكذاب كما يؤيد الصادق وعندكم أن كلا الأمرين بالنسبة إليه تعالى سواء ولم تعتدروا عن هذا الإلزام المقابل لسائر الزاماتكم بعدد صحيح وهذه أعداركم مسطورة في الصحائف ومنها الزام الأخام ونفى المكلف النظر في المعجزة لعدم الوجوب عقلا واعتذاركم عن هذا الإلزام بأن الوجوب ثابت نظر أو لم ينظر اعتذار يبطل أصلكم فإن ثبوت الوجود بدون نظر المكلف لو كان شرعيا لتوقف على الشرع المتوقف في حق المكلف على النظر في المعجزة فلما ثبت الوجوب وإن لم ينظر في المعجزة علم أن الوجوب عقلي لا يتوقف على ثبوت الشرع . . فان قيل هو ثابت في نفس الأمر على تقدير ثبوت الرسالة . قيل فحينئذ يعود الإلزام وهو أنه لا ينظر حتى يجب ولا يجب حتى تثبت الرسالة ولا تثب حتى ينظر ولهذا عدل من عدل إلى مقابلة هذا الإلزام بمثله وقالوا هذا لازم للمعتزلة لأن الوجوب عندهم نظري وهذا لا يغني شيئا ولا يدفع الإلزام المذكور بل غايته مقابلة الفاسد بمثله وهو لا يجدى في دفع الإلزام شيئا وهذا يدل على بطلان المقالتين وأما نحن فلما في دفع هذا الإلزام عشرة مسالك وليس هذا موضع هذه المسئلة وإنما المقصود أن المعتزلة ألزمت نظير ما ألزموه به ومنها إلزام التعطيل للشرائع جملة وقد تقدم بيانه قريبا حيث بينا أن متعلق الأمر والنهي إنما هو فعل العبد الإختياري فإذا بطل أن يكون له فعل إختياري بطل متعلق الأمر والنهي فلزمه بطلان الأمر والنهي لأن وجوده بدون متعلقه محال إلى سائر تلك اللوازم التي أسلفناها قبل فلا تطيل باعاداتها . قالوا أما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه اللوازم من الطرفين فانا لم نسلك واحدا من الطريقين فلا سبيل لأحدى الطائفتين إلى إلزامنا بإلزام واحد باطل والله الحمد فنراهم ذلك فليبدعه . فان قيل فن أصلكم لإثبات التعليل والحكمة في الخلق والأمر فما تصنعون

المعارضة أوران طريقا إلى المناقضة فليبداه فانا من وراء الرد عليه وإهداء عيوب مقالته إليه ونحن نعلم أنه لا يرد علينا مقالتنا إلا باحدى المقالتين اللتين كشفنا عن عوارهما وبيننا فسادهما فليستر عورة مقالته ويصالح فسادها ويرم شعنها ثم ليلق خصومه بها فالمحاكمة إلى النقل الصريح والعقل الصحيح والله المستعان (الوجه الثاني والستون) قولكم الوجوب والتحریم بدون الشرع ممتنع لأنه لو ثبت لقامت الحجة بدون الرسل والله سبحانه إنما أقام حجته برسله إلى آخره فيقال لا ريب أن الوجوب والتحریم اللذين هما متعلق الثواب والعقاب بدون الشرع ممتنع كما قررتموه والحجة إنما قامت على العباد بالرسل ولكن هذا الوجوب والتحریم بمعنى حصول المقتضى للثواب والعقاب وإن تخلف عنه مقتضاه اقيام مانع أو فوات شرط كما تقدم تقريره وقد قال تعالى (ولو أن تصيبيهم مهيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك فدلّت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعا الذين يقولون أن أعمالهم قبل البعثة ليست قيحة لذاتها بل إنما قبحت بالنهي فقط والذين يقولون أنها قيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلا بدون البعثة فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه أنها قيحة في نفسها ولا يستحق العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها ولم تقتض توقف الحسن والقبح بسكل اعتبار عليها وفرق بين الأمرين (الوجه الثالث والستون) قولكم كيف يعلم أنه سبحانه يجب عليه أن يمدح ويذم ويثيب ويعاقب على الفعل بمجرد العقل وهل ذلك إلا غيب عنا فيما يعرف أنه رضى عن فاعل وسخط على فاعل وأنه يثيب هذا ويعاقب هذا ولم يخبر عنه بذلك مخبر صادق ولادل على مواقع رضاه وسخطه عقل ولا أخبر عن معلومه ومحكمومه مخبر فلم يبق إلا قياس أفعاله على أفعال عباده وهو من أفسد القياس فإنه ليس كمثله شيء فيقال هذا لازم للمعتزلة ومن وافقهم حيث يوجبون على الله ويحرمون بالقياس على عباده ولا ريب أن هذا من أفسد القياس وأبطله ولكن من أين ينفي ذلك إثبات صفات أفعال اقتضت حسنها وقبحها عقلا ولم يعلم ترتب الثواب والعقاب عليها إلا بالرسالة كما نصرناه فأتم معاشر النفاة سلبتم الأفعال خواصها وصفاتها التي لا تنفك عنها ولا تعقل مجردة عنها أبدا وظننتم أن قول المعتزلة الباطل في إيجابها وتحريمها على الله لا يتم إلا بهذا النفي فأخطأتم في الأمرين

من عبده وإذا عرف هذا فالظلم والكفر والفسوق والعصيان وأنواع الشرور واقعة في مفعولاته المنفصلة التي لا يتصف بها دون أفعاله القائمة به ومن انكشف له لهذا المقام فهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم والشر ليس إليك فهذا الفرق العظيم يزيل أكثر الشبه التي حارت لها عقول كثير من الناس في هذا الباب وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم فما في مخلوقاته ومفعولاته تعالى من الظلم والشر فهو بالنسبة إلى فاعله المكلف الذي قام به الفعل كما أنه بالنسبة إليه يكون زنا وسرقه وعدوانا وأكلا وشربا ونكاحا فهو الزاني السارق الآكل الناكح والله خالق كل فاعل وفعله وليست نسبة هذه الأفعال إلى خالقها كنسبتها إلى فاعلها الذي قامت به كما أن نسبة صفات المخلوقين إليه كطول وقصره وحسنه وقبحه وشكله ولونه ليست كنسبتها إلى خالقها فيه فتأمل هذا الموضوع واعط الفرق حقه وفرق بين النسبتين فكما أن صفات المخلوق ليست صفات لله بوجه وإن كان هو خالقها فكذلك أفعاله ليست أفعالا لله تعالى ولا إليه وإن كان هو خالقها فلنرجع الآن إلى مانحن بصدده فنقول الأمر الذي كتبه على نفسه مستحق عليه الحمد والثناء ويتعالى ويتقدس عن تركه إذ تركه منافي للثناء والحمد الذي يستحقه عليه متضمن لما يستحق لذاته وهذا بحمد الله بين عند من أوتي العلم والإيمان وهو مستقر في فطرهم لا يفسده منها شبهات المبطلين وهذا الموضوع مما خفي على طائفتي القدريّة والجبريّة فخطبوا في عشواء وخطبوا في ليلة ظلماء والله الموفق الهادي للصواب .

فصل

وقد ظهر بهذا بطلان قول طائفتين معا الذين وضعوا لله شريعة بعقولهم أرجبوا عليه وحرّموا منها ما لم يوجبه على نفسه ولم يحرمه على نفسه وسووا بينه وبين عبادته فيما يحسن منهم وبقيح وبذلك استطال عليهم خصومهم وأبدوا مناقضتهم وكشفوا عوارثهم وبيّنوا فضائحهم وكذلك بطلان قول الطائفة التي جوزت عليه كل شيء وأنكرت حكيمته وجحدت في الحقيقة ما يستحقه من الحمد والثناء على ما يفعله بما يمدح بفعله وعلى ترك ما يتركه مع قدرته عليه بما يمدح بتركه وجعلت النوعين واحدا ولا فرق عندهم بالنسبة إليه تعالى بين فعل ما يمدح بفعله وبين تركه ولا بين ترك ما يمدح بتركه وبين فعله وبهذا تسلط عليهم خصومهم وأبدوا مناقضتهم وبيّنوا فضائحهم قال المتوسطون وأما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه الفضايح والباطيل فإننا نوافق طائفة من الطائفتين على كل ما قالته بل وافقنا كل طائفة فيما أصابت فيه الحق وخالفنا ما خالف فيه الحق فكنا أسعد به من الطائفتين والله المنة والفضل هذا قولنا قد أوضحنا في هذه المسئلة غاية الإيضاح وأضخنا عنه بما أمكننا من الإفصاح فن وجد سبيلا إلى

والتكذيب ولهذا قسم الفقهاء وغيرهم اليقين إلى موجب للحظر والمنع أو التصديق والتكذيب قالوا وإذا كان معقولا من العبد أن يكون طالبا من نفسه فتكون نفسه طالبة منها لقوله تعالى ﴿ أن النفس لأماراة بالسوء ﴾ وقوله ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾ مع كون العبد له أمر ونه فله فوقه فالرب تعالى الذي ليس فوقه أمر ولا نه كيف يمتنع منه أن يكون طالبا من نفسه فيكتب على نفسه ويحق على نفسه ويحرم على نفسه بل ذلك أولى وأحرى في حقه من تصويره في حق العبد وقد أخبر به عن نفسه وأخبر به رسوله . . قالوا وكتابه ما كتبه على نفسه وإحقاقه ما حقه عليها متضمن لإرادته ذلك ومحبه له ورضاه به وأنه لا بد أن يفعله وتحريره ما حرمه على نفسه متضمن لبعضه لذلك وكرهته له وأنه لا يفعله ولا ريب أن محبه لما يريد أن يفعله ورضاه به يوجب وقوعه بمشيئته واختياره وكرهته للفعل وبعضه له يمنع وقوعه منه مع قدرته عليه لو شاء وهذا غير ما يحبه من فعل عبده ويكرهه منه فذاك نوع وهذا نوع ولما لم يميز كثير من الناس بين النوعين وأدخلوهما تحت حكم واحد اضطربت عليهم مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل وبهذا التفصيل سفر لك وجه المسئلة وتبلغ صحتها ففرق بين فعله سبحانه الذي هو فعله وبين فعل عباده الذي هو مفعوله فمحبه تعالى وكرهته للأول توجب وقوعه وامتناعه وأما محبه وكرهته للثاني فلا توجب وقوعه ولا امتناعه فإنه يجب الطاعة والإيمان من عباده كلهم وإن لم تكن محبه موجبة لطاعتهم وإيمانهم جميعا إذ لم يجب فعله الذي هو إعانتهم وتوفيقهم وخلق ذلك لهم ولو أحب ذلك لاستلزم طاعتهم وإيمانهم وبعض معاصيهم وكفرهم وفسوقهم ولم تكن هذه الكراهة والبعض مانعة من وقوع ذلك منهم إذ لم يكره سبحانه خذلانهم وإضلالهم لما له في ذلك من الغايات المحبوبة التي فواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من إيمانهم وطاعتهم وتعقل ذلك مما يقصر عنه عقول أكثر الناس وقد أشرنا إليه فيما تقدم من الكتاب فالرب تعالى يجب من عباده الطاعة والإيمان ويجب مع ذلك من تضرعهم وتذللهم وتوبتهم واستغفارهم ومن توبته ومغفرته وعفوه وصفحه وتجاوزه ما هو ملزوم لمعاصيهم وذنوبهم ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع وإذ عقل هذا في حق المذنبين فيعقل مثله في حق الكفار وإن خلقهم وإضلالهم لازم لأمور محبوبة للرب تعالى لم تكن تحصل إلا بوجود لازمها إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع فكانت تلك الأمور المحبوبة والغايات المحمودة متوقفة على خلقهم وإضلالهم توقف الملزوم على لازمه وهذا فصل معترض لم يكن من غرضنا وإن كان أهم مما سقنا الكلام لأجله ونكتة المسألة الفرق بين ما هو فعل له تستلزم محبه وقوعه منه وبين ما هو مفعول له لا تستلزم محبه وقوعه

المملوكون المربوبون وإنما تصرفت في ملكك من غير أن يكون قام بهم سبب العذاب فإن القوم نفاة الأسباب وعندهم أن كفر الكافرين وشركهم ليس سبباً للعذاب بل العذاب بمجرد المشيئة ومحض الإرادة وكذلك الكلام في مناظرة إياس للقدرية إنما أراد بأن التصرفات الواقعة منه تعالى في ملكه لا تكون ظالماً قط وهذا حق فإن كل ما فعله الرب ويفعله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة فليس في أفعاله ظلم ولا جور ولا سفه وهذا حق لا ريب فيه فأياس بين أنه سبحانه في تصرفه في ملكه غير ظالم فهذه مجامع طرق العالم في هذا المقام ألقى إليك مختصرة بذكر قواعدها وأداتها وترجيح الصواب منها وإبطال الباطل ولعلك لا تجد هذا التفصيل والكلام على هذه المذاهب وأصولها في كتاب من كتب القوم والله تعالى المسئول لتمام نعمته ومزيد العلم والهدى أنه المان بفضله .

فصل

وكذلك الكلام في الإيجاب في حق الله سواء الأقوال فيه كالأقوال في التحريم وقد أخبر سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه وأحق على نفسه قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقال تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) قال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن) وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمعاذ أتدري ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه أن لا يعذبهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في غير حديث من فعل كذا كان على الله أن يفعل به كذا وكذا في الوعد والوعيد ونظير هذا ما أخبر سبحانه من قسمه ليفعلن ما أقسم عليه كقوله (فوربك لنسئلنهم أجمعين . فوربك لنمحسنهم والسياطين . ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً) وقوله (لنهلكن الظالمين) وقوله (لأملاّن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) وقوله (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل وقالوا وقتلوا لا كفرن عنهن سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار) وقوله (فلنسأن الذين أرسل إليهم ولنسأن المرسلين) وقوله فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعزّي وجلال لاقتصن للظلم من الظالم ولو لطمه ولو ضربة بيد إلى أمثال ذلك من صيغ القسم المتضمن معنى إيجاب المقسم على نفسه أو منعه نفسه وهو القسم الطلبي المتضمن المحظر والمنع بخلاف القسم الخبري المتضمن للتصديق

لو عذب أهل سماواته وأرضه لكان ذلك تعذيباً لحقه عليهم وكانوا إذ ذاك مستحقين للعذاب لأن أعمالهم لا تفي بنجاتهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن ينجي أحداً منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منة وفضل فرحمته لهم ليست في مقابلة أعمالهم ولا هي ثمناً لها فإنها خير منها كما قال في الحديث نفسه ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً لهم من أعمالهم أي تجمع بين الأمرين في الحديث أنه لو عذبهم لعذبهم باستحقاقهم ولم يكن ظالماً لهم وأنه لو رحمهم لكان ذلك مجرد فضله وكرمه لا بأعمالهم إذ رحمته خير من أعمالهم فصلوات الله وسلامه على من خرج هذا الكلام أولاً من شفيعه فإنه أعرف الخلق بالله وبحقه وأعلمهم به وبعدله وفضله وحكمته وما يستحقه على عباده وطاعات العبد كلها لا تكون مقابلة لنعم الله عليهم ولا مساوية لها بل ولا لاقليل منها فكيف يستحقون بها على الله النجاة وطاعة المطيع لانسبة لها إلى نعمة من نعم الله عليه فتبقى سائر النعم تقاضاء شكراً والعبد لا يقوم بمقدوره الذي يجب لله عليه لجميع عباده تحت عفوه ورحمته وفضله فإنما نجاة منهم أحد إلا بعفوه ومغفرته ولا فاز بالجنة إلا بفضلته ورحمته وإذا كانت هذه حال العباد فلو عذبهم لعذبهم وهو غير ظالم لهم لا لكونه قادراً عليهم وهم مأسك بل لاستحقاقهم ولو رحمهم لكان ذلك بفضلته لا بأعمالهم . . وأما قوله فإنهم عبادك فليس المراد به أنك قادر عليهم مالك لهم وأي مدح في هذا ولو قلت لشخص أن عذبت فلانا فإنك قادر على ذلك أي مدح يكون في ذلك بل في ضمن ذلك الأخبار بغاية العدل وأنه تعالى إن عذبهم فإنهم عباد الذين أنعم عليهم بإيجادهم وخلقهم ورزقهم وإحسانه إليهم لا بوسيلة منهم ولا في مقابلة بذل بذلوه بل ابتدأهم بنعمه وفضله فإذا عذبهم بعد ذلك وهم عبيده لم يعذبهم إلا بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم فإن من أنعم عليهم ابتداءً بجلال النعم كيف يعذبهم بغير استحقاق أعظم النقم . . وفيه أيضاً أمر آخر ألفت من هذا وهو أن كونهم عباداً يقتضي عبادته وحده وتعظيمه وإجلاله كما يحل العبد سيده ومالكه الذي لا يصل إليه نفع إلا على يده ولا يدفع عنه ضرراً إلا هو فإذا كفروا به أقبح الكفر وأشركوا به أعظم الشرك ونسبوه إلى كل نقيصة مما تكاد السموات يتفطرن منه وتشق الأرض وتخر الجبال هذا كانوا أحق عباداً وأولاهم بالعذاب والمعنى هم عبادك الذين أشركوا بك وعدلوا بك وجحدوا حقك فهم عباد مستحقون للعذاب وفيه أمر آخر أيضاً لعلمه أطف بما قبله وهو إن تعذبهم فإنهم عبادك وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم وإلا فكيف يشقى العبد بسيده وهو مطيع له متبع لمرضاته فتأمل هذه المعاني ووازن بينها وبين قوله من يقول إن تعذبهم فأنت الملك القادر وهم

ولا ينقص منها بذرة ولهذا يسمى تعالى موفيه كقوله (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) وقوله (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) فترك الظلم هو العدل لا فعل كل ممكن وعلى هذا قام الحساب ووضع الموازين القسط ووزنت الحسنات والسيئات وتفاوتت الدرجات العلى بأهلها والدركات السفلى بأهلها وقال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) أى لا يضيع جزاء من أحسن ولو بمشقال ذرة فدل على أن إضاعته وترك المجازاة بها مع عدم ما يبطلها ظلم يتعالى الله عنه ومعلوم أن ترك المجازاة عليها مقدور ينتزه الله عنه اكمال عدله وحكمته ولا تحتل الآية قط غير معناها المفهوم منها وقال تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) أى لا يعاقب العبد بغير إساءة ولا يحرمه ثواب إحسانه ومعلوم أن ذلك مقدور له تعالى وهو نظير قوله (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس الإنسان إلا ماسع) فأخبر أنه ليس على أحد فى وزر غيره شئ . وأنه لا يستحق إلا ماسعاه وأن هذا هو العدل الذى نزه نفسه عن خلافه (وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد) بين أن هذا العقاب لم يكن ظلما من الله للعباد بل لذنوبهم واستحقاقهم ومعلوم أن المحال الذى لا يمكن ولا يكون مقدورا أصلا لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته ولا فعله ولا يحمده على ذلك وإنما يكون المدح بترك الأفعال لمن هو قادر عليها وأن ينتزه عنها اكماله وغناه وحده وعلى هذا يتم قوله إنى حرمت الظلم على نفسى وما شأكله من النصوص فيما أن يكون المعنى إنى حرمت على نفسى مالا حقيقة له وماليس بممكن مثل خلق مثلى ومثل جعل القديم محدثا والمحدث قديما ونحو ذلك من المحالات ويكون المعنى إنى أخبرت عن نفسى بأن مالا يكون مقدورا لا يكون منى فهذا مما يتيقن المنصف أنه ليس مراداً فى اللفظ قطعاً وأنه يجب تنزيه كلام الله ورسوله عن حملة على مثل ذلك . قالوا وأما استدلالكم بتلك النصوص الدالة على أنه سبحانه إن عذبهم فإنهم عبادوه وأنه غير ظالم لهم وأنه لا يسأل عما يفعل وأن قضاءه فيهم عدل بمناظرة إياهم للقدرية فهذه النصوص وأمثالها كلها حق يجب القول بموجبها ولا تحرف معانيها والكل من عند الله وإمكن أى دليل فيها يدل على أنه تعالى يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته وينعم أهل معصيته وأنه يعذب بغير جرم ويحرم المحسن جزاء عمله ونحو ذلك بل كلها متفقة متطابقة دالة على كمال القدرة وكمال العدل والحكمة فالنصوص التى ذكرناها تقتضى كمال عدله وحكمته وغناه ووضع العقوبة والثواب مواضعهما وأنه لا يعدل بهما عن سننهما والنصوص التى ذكرتوها تقتضى كمال قدرته وانفراد بالربوبية والحكم وأنه ليس فوقه أمر ولأنه يتعقب أفعاله بسؤال وأنه

يروا ذلك ظلما وبقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وبقول النبي ﷺ أن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم وبقوله ﷺ في دعاء اللهم والحنن اللهم إني عبدك وابن عبدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك وبما روى عن إياس بن معاوية قال ما ناظرت بعقلي كله أحدا إلا القدريته قلت لهم ما الظلم قالوا أن تأخذ ما ليس لك أو أن تصرف فيما ليس لك قلت فله كل شيء والتزم هؤلاء عن هذا القول لوازم باطلة كقولهم إن الله تعالى يجوز عليه أن يعذب أنبياءه ورسله وملائكته وأوليائه وأهل طاعته ويخلد في العذاب الأليم ويكرم أعداءه من الكفار والمشركين والشياطين ويخصهم بحجته وكرامته وكلاهما عدل وجائز عليه وأنه يعلم أنه لا يفعل ذلك بمجرد خبره فصار متمتعا لإخباره أنه لا يفعله لالمنافاته حكمته ولا فرق بين الأمرين بالنسبة إليه ولكن أراد هذا وأخبر به وأراد الآخر وأخبر به فوجب هذا لإرادته وخبره وامتنع ضده لعدم إرادته واختياره بأن لا يكون والتزموا له أيضا أنه يجوز أن يعذب الأطفال الذين لا ذنب لهم أصلا ويخلد في الجحيم وربما قالوا بوقوع ذلك فأنكر على الطائفتين معا أصحاب التفسير الثمات وقالوا الصواب الذي دلت عليه النصوص أن الظلم الذي حرمه الله على نفسه وتنزه عنه فعلا وإرادة هو ما فصره به سلف الأمة وأئمتها أنه لا يحمل المرء سيئات غيره ولا يعذب بما لم تكسب يداه ولم يكن سعى فيه ولا ينقص من حسناته فلا يجازى بها أو ببعضها إذا قارنها أو طرأ عليها ما يقتضى إبطالها أو اقتصاص المظلومين منها وهذا الظلم الذي نفى الله تعالى خوفه عن العبد بقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) قال السلف والمفسرون لا يخاف أن يحمل عليه من سيئات غيره ولا ينقص من حسناته ما يتحمل فهذا هو العقول من الظلم ومن عدم خوفه وأما الجمع بين النقيضين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما فما يتنزه كلام آحاد العقلاء عن تسميته ظلماً وعن نفى خوفه عن العبد فكيف بكلام رب العالمين وكذلك قوله (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) فنفى أن يكون تعذيبه لهم ظلماً ثم أخبر أنهم هم الظالمون بكفرهم ولو كان الظلم المنفي هو المحال لم يحسن مقابلة قوله وما ظلمناهم بقوله ولكن كانوا هم الظالمين بل يقتضى الكلام أن يقال ما ظلمناهم ولكن تصرفنا في ملكنا وعبيدنا فلما نفي الظلم عن نفسه وأثبتته لهم دل على أن الظلم المنفي أن يعذبهم بغير جرم وأنه إنما عذبهم بجرمهم وظلمهم ولا تحتل الآيات غير هذا ولا يجوز تحريف كلام الله لنصر المقالات وقال تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها) ولا ريب أن هذا المذكور في سياق التحريض على الأعمال الصالحة والاستكثار منها فإن صاحبها يجزى بها

أسمائه وصفاته الذي لا يليق به نسبته إلى ضده لأنه موجب كماله وحكمته وعدله ولم تدخله تحت شريعة وضعتها بعقولها كما فعلت الفرقة الأولى ولم يجوز عليه ما نزه نفسه عنه كما فعلته الفرقة الثانية . . . قالت الفرقة الوسط قد أخبر تعالى أنه حرم الظلم على نفسه كما قال على لسان رسوله يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وقال (ولا يظلم ربك أحداً) وقال (وما ربك بظلام للعبيد) وقال (ولا يظلمون قتيلاً) وقال (وما الله يريد ظلماً للعباد) فأخبر عن تحريمه على نفسه ونفى عن نفسه فعله وإرادته وللناس في تفسير هذا الظلم ثلاثة أقوال بحسب أصولهم وقواعدهم أحدها أن الظلم الذي حرمه وتنزه عن فعله وإرادته هو تظهير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه في الأفعال ما يحسن منهما وما لا يحسن بعباده فحضر بواله من قبل أنفسهم الأمثال وصاروا بذلك مشبهة ممثلة في الأفعال فامتنعوا من إثبات المثل الأعلى الذي أثبتته لنفسه ثم ضربوا له الأمثال ومثلوه في أفعاله بخلقه كما أن الجهمية المعطلة امتنعت من إثبات المثل الأعلى الذي أثبتته لنفسه ثم ضربوا له الأمثال ومثلوه في صفاته بالجمادات الناقصة بل بالمعدومات وأهل السنة نزهوه عن هذا وهذا وأثبتوا له ما أثبتته لنفسه من صفات الكمال ونزهوه فيها عن الشبه والمثال فأثبتوا له المثل الأعلى ولم يضربوا له الأمثال فكانوا أسعد الطوائف بمعرفة وأحقهم بالإيمان به وبولايته ومحبه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ثم التزم أصحاب هذا التفسير عنه من اللوازم الباطلة مالا قبل لهم به . قالوا عن هذا التفسير الباطل أنه تعالى إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع مقدوره تعالى من وجوه الإعانة كان ظالماً له والتزموا لذلك أنه لا يقدر أن يهدي ضالاً كما قالوا أنه لا يقدر أن يضل مهتدياً وقالوا عنه أيضاً أنه إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانتة على فعل المأمور به كان ظالماً وقالوا عنه أيضاً أنه إذا اشترك اثنان في ذنب يوجب العقاب فعاقب به أحدهما وعفى عن الآخر كان ظالماً إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة التي جعلوا لأجلها ترك تسويته بين عباده في فضله وإحسانه ظلماً فعارضهم أصحاب التفسير الثاني وقالوا الظلم المنزه عنه في الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدوراً ولأنه تعالى تركه بمشيئته واختياره وإنما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثاً والمحدث قديماً ونحو ذلك وإلا فشكل ما يقدره الذهن وكان وجوده ممكناً والرب قادر عليه فليس بظلم سواء فعله أولم يقعله وتلقى هذا القول عنهم طوائف من أهل العلم وفسروا الحديث به وأسندوا ذلك وقووه بآيات وآثار زعموا أنها تدل عليه كقوله (إن تعذبهم فإنهم عبادك) يعني لم تصرف في غير ملكك بل إن عذبت عذبت من تملك وعلى هذا فجوزوا تعذيب كل عبده ولو كان محسناً ولم

لإيجاب العقل على الله شيئا البتة كما صرح به كثير من الحنفية والحنابلة كأبى الخطاب وغيره والشافعية كسعد بن على الزنجاني الإمام المشهور وغيره وطولاء في نفى الإيجاب العقلي من المعرفة بالله وثبوت خلافه فالأقوال إذا أربعة لأمزيد عليها . أحدها نفى الحسن والقبح ونفى الإيجاب العقلي في العمليات دون العلميات كالمعرفة وهذا اختيار أبى الخطاب وغيره فعرف أنه لا تلازم بين الحسن والقبح وبين الإيجاب والتحريم العقليين فهذا أحد المقامين . وأما المقام الثاني وهو انتفاء اللازم وثبوت فملئنا فيه ههنا ثلاثة طرق أحدهما التزام ذلك والقول بالوجوب والتحريم العقليين شاهدا وغائبا وهذا قول المعتزلة وهؤلاء يقولون بترتب الوجوب شاهدا وترتيب المدح والذم عليه وأما العقاب فلهم فيه اختلاف وتفصيل ومن أثبتته منهم لم يشبهه على الوجوب الثابت بعد البعثة ولكنهم يقولون أن العذاب الثابت بعد الإيجاب الشرعي نوع آخر غير العذاب الثابت على الإيجاب العقلي وبذلك يجيبون عن النصوص النافية للعذاب قبل البعثة وأما الإيجاب والتحريم العقليان غائبا فلهم مصرحون بهما ويفسرون ذلك باللزم الذي أوجبه حكمته وحرمة وأنه يستحيل عليه خلافه كما يستحيل عليه الحاجة والنوم والتعب والغوب فهذا معنى الوجوب والامتناع في حق الله عندهم فهو وجوب اقتضته ذاته وحكمته وغناه وامتناع يستحيل عليه الاتصاف به لمنافاته كاله وغناه قالوا وهذا في الأفعال نظير ما يقولونه في الصفات أنه يجب له كذا ويمتنع عليه كذا فقولنا نحن في الأفعال نظير قولكم في الصفات ما يجب له منها وما يمتنع عليه فكما أن ذلك وجوب وامتناع ذاتي يستحيل عليه خلافه فكذا ما تقتضيه حكمته وتأباه وجوب وامتناع يستحيل عليه الإخلال به وإن كان مقدورا له لكنه لا يخل به لكمال حكمته وعلمه وغناه والفرقة الثانية منعت ذلك جملة وأحالت القول به وجوزت على الرب تعالى كل شيء يمكن وردت الإحالة والامتناع في أفعاله إلى غير الممكن من المحالات كالجمع بين التقيضين وبابه فقابلوا المعتزلة أشد مقابلة واقتسما طرفي الإفراط والتفريط ورد هؤلاء الوجوب والتحريم الذي جاءت به النصوص إلى مجرد صدق الخير فإخبار بأنه يكون فهو واجب لتصديق العلم لمعلومه والخبر لخبره وقد يفسرون التحريم بالامتناع عقلا كتحریم الظلم على نفسه فإنهم يفسرون الظلم بالمستحيل لذاته كالجمع بين التقيضين وليس عندهم في المقدور شيء هو ظلم يتنزه الله عنه مع قدرته عليه لغناه وحكمته وعدله فهذا قول هؤلاء والفرقة الثالثة هم الوسط بين هاتين الفرقتين فإن الفرقة الأولى أوجبت على الله شريعة بعقولها وحرمت عليه وأوجبت مالم يحرمه على نفسه ولم يوجبه على نفسه والفرقة الثانية جوزت عليه ما يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته حكمته وحمده وكماله والفرقة الوسط أنبتت له ما أنبتت لنفسه من الإيجاب والتحريم الذي هو مقتضى

ولا يصح معنى إلا في شيء ثابت له حقيقة خفية يستنبطها الذهن ويستخرجها فأما الملاحقة لفأنه مجرد ذهنه فلا استنباط فيه بوجه وأى شيء يستنبط منه وإنما هو تقدير وفرض وهذا لا يسمى استنباطا في عقل ولا لغة وحينئذ فيقلب الكلام عليكم ويكون من يقلبه أسعد بالحق منه فقول وليس معنى قولنا أن العقل استنبط من تلك الأفعال أن ذلك مجرد خواطر طارئة وإنما معناه أنها كانت موجودة في الأفعال فاستخرجها العقل باستنباطه كما يستخرج الماء الموجود من الأرض باستنباطه ومعلوم أن هذا هو المعقول المطابق للعقل واللغة وما ذكرتموه نخرج عن العقل واللغة جميعاً فعرف أنه لا يصح معنى الاستنباط إلا لشيء موجود يستخرجه العقل ثم ينسب إليه أنواع تلك الأفعال وأشخاصها فإن كان أولى به حكم له بالافتضاء والتأثير وهذا هو المعقول وهو الذى يعرضه الفقهاء والمتكلمون على مناسبات الشريعة وأوصافها وعللها التى تربط بها الأحكام فلو ذهب هذا من أيديهم لانسد عليهم باب الكلام فى القياس والمناسبات والحكم واستخراج ما تضمنته الشريعة من ذلك وتعليق الأحكام بأوصافها المقتضية لها إذا كان مرد الأمر بزعمكم إلى مجرد خواطر طارئة على العقل ومجرد وضع الذهن وهذا من أبطل الباطل وأبين المحال ولقد أنصفكم خصومكم فى ادعائهم عليكم لازم هذا المذهب وقالوا لو رفع الحسن والقيح من الأفعال الإنسانية إلى مجرد تعلق الخطاب بها لبطلت المعانى العقلية التى تستنبط من الأصول الشرعية فلا يمكن أن يقاس فعل على فعل ولا قول على قول ولا يمكن أن يقال لم كان كذا إذ لا تعليل للذوات ولا صفات للأفعال هى عليها فى نفس الأمر حتى ترتبط بها الأحكام وذلك رفع للشرائع بالكيفية من حيث إثباتها لا سيما والتعلق أمر عدى ولا معنى لحسن الفعل أو قبحه إلا التعلق العدى بينه وبين الخطاب فلا حسن فى الحقيقة ولا قبح لاشعرا ولا عقلا لا سيما إذا انضم إلى ذلك نفي فعل العبد واختياره بالكيفية وأنه مجبور محض فهذا فعله وذلك صفة فعله فلا فعل له ولا وصف لقوله البتة فأى تعطيل ورفع للشرائع أكثر من هذا فهذا إلزامهم لكم كما أنكم ألزمتهم نفي ذلك فى نفي صفة الكلام وأنصفتمهم فى الإلزام (الوجه الحادى والستون) قوالكم لو ثبت الحسن والقيح العقلين لتعلق بهما الإيجاب والتحریم شاهداً وغائباً واللازم محال فالمازوم كذلك إلى آخره فنقول الكلام هاهنا فى مقامين أحدهما فى التلازم المذكور بين الحسن والقيح العقلين وبين الإيجاب والتحریم غائباً والثانى فى انتفاء اللازم وثبوتيه فأما المقام الأول فلم يثبت الحسن والقيح طريقان أحدهما ثبوت التلازم والقول باللازم وهذا القول هو المعروف عن المعتزلة وعليه يناظرون وهو القول الذى نصب خصومهم الخلاف معهم فيه والقول الثانى إثبات الحسن والقيح فإنهم يقولون بإثباته ويصرحون بنفي الإيجاب قبل الشرع على العبد وبنفى

الحركة الواحدة مشتملة على صفات متناقضة وأحوال متنافرة فيقال وما الذى يحيل أن يكون الفعل مشتملاً على صفتين مختلفتين تقتضى كل منهما أثراً غير الأثر الآخر وتكون إحدى الصفتين والأثرين أولى به وتكون مصلحته أرجح فإذا رتب على صفته الأخرى أثرها فانت المصلحة الراجعة المطلوبة شرعاً وعقلاً بل هذا هو الواقع ونحن نجد هذا حساً فى قوى الأغذية والأدوية ونحوها من صفات الأجسام الحسية المدركة بالحس فكيف بصفات الأفعال المدركة بالعقل وأمثلة ذلك فى الشريعة تزيد على الآلاف فهذه الصلاة فى وقت النهى فيها مصلحة تكثير العبادة وتحصيل الأرباح ومزيد الثواب والتقرب إلى رب الأرباب وفيها مفسدة المشابهة بالكفار فى عبادة الشمس وفى تركها مصلحة سد ذريعة الشرك وفطم النفوس عن المشابهة للكفار حتى فى وقت العبادة وكانت هذه المفسدة أولى بالصلاة فى أوقات النهى من مصلحتها فلو شرعت لما فيها من المصلحة لغانت مصلحة الترك وحصلت مفسدة المشابهة التى هى أقوى من مصلحة الصلاة حينئذ ولهذا كانت مصلحة أداء الفرائض فى هذه الأوقات أرجح من مفسدة المشابهة بحيث لما انغمرت هذه المفسدة بالنسبة إلى القرينة لم يمنع منها بخلاف النافلة فإن فى فعلها فى غير هذه الأوقات غنية عن فعلها فيها فلا تفوت مصلحتها فيقع فعلها فى وقت النهى مفسدة راجحة ومن هاهنا جوز كثير من الفقهاء ذوات الأسباب فى وقت النهى لترجح مصلحتها فإنها لا تقضى ولا يمكن تداركها وكانت مفسدة نفويتها أرجح من مفسدة المشابهة المذكورة وليس هذا موضع استقصاء هذه المسئلة فما الذى يحيل اشتغال الحركة الواحدة على صفات مختلفة بهذه المثابة ويكون بعضها أرجح من بعض فيقتضى للراجع عقلاً وشرعاً وعلى هذا المثال مسائل عامة للشريعة ولولا الإطالة لكتبتنا منها ما يبلغ ألف مثال والعالم ينتبه بالجزئيات للقاعدة الكلية ﴿الوجه الستون﴾ قواكم وليس معنى قولنا أن العقل استنبط منها أنها كانت موجودة فى الشيء فاستخرجها العقل بل العقل تردد بين إضافات الأحوال بعضها إلى بعض ونسب الحركات والأشخاص نوعاً إلى نوع وشخصاً إلى شخص فطراً عليه من تلك المعانى ما حكيناه وربما يبلغ مبلغاً يشذ عن الإحصاء فعرف أن المعانى لم ترجع إلى الذات بل إلى مجرد الخواطر وهى متعارضة . . فيقال يا عجباً لعقل يروج عليه مثل هذا الكلام ويبنى عليه هذه القاعدة العظيمة وذلك بناء على شفا جرف هار وقد تقدم ما يكفى فى بطلان هذا الكلام ونزيدها هنا أنه كلام فاسد لفظاً ومعنى فإن الاستنباط هو استخراج الشيء الثابت الخفى الذى لا يعثر عليه كل أحد ومنه استنباط الماء وهو استخراجُه من موضعه ومنه قوله تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى يستخرجون حقيقته وتديره بظنهم وذكائهم وإيمانهم ومعرفتهم بمواطن الأمن والخوف

السمع إلى إدراك الأصوات وكنسبة الذوق إلى إدراك الطعوم والشم إلى إدراك الروائح فهل يسوغ لعاقل أن يدعى أن هذه المدركات من أوضاع الحواس وكذلك العقل إذا أدرك ما اشتمل عليه الكذب والفجور وخراب العالم والظلم وإهلاك الحرث والنسل والزنا بالأمهات وغير ذلك من القبائح وأدرك ما اشتمل عليه الصدق والبر والإحسان والعدل وشكران المنعم والعفة وفعل كل جميل من الحسن لم تكن تلك المعاني التي اشتملت عليها هذه الأفعال مجرد وضع الذهن واستنباط العقل ومدعى ذلك مصاب في عقله فإن المعاني التي اشتملت عليها المنهيات الموجبة لتحريرها أمور ناشئة من الأفعال ليست أوضاعاً ذهنية والمعاني التي اشتملت عليها المأمورات الموجبة لحسنها ليست مجرد أوضاع ذهنية بل أمور حقيقية ناشئة من ذوات الأفعال ترتب آثارها عليها كترتب آثار الأدوية والأغذية عليها وما نظير هذه المقالة إلا مقالة من يزعم أن القوى والآثار المستنبطة من الأغذية والأدوية لاحقيقة لها إنما هي أوضاع ذهنية ومعلوم أن هذا باب من السفسطة فاعرض معاني الشريعة الكلية على عقلك وانظر ارتباطها بأفعالها وتعلقها بها ثم تأمل هل تجدها أموراً حقيقية تنشأ من الأفعال فإذا فعل الفعل نشأ منه أثره أو تجدها أوضاعاً ذهنية لاحقيقة لها وإذا أردت معرفة بطلان المقالة فكرر النظر في أدلتها فأدلتها من أكبر الشواهد على بطلانها بل العاقل يستغنى بأدلة الباطل عن إقامة الدليل على بطلانه بل نفس دليله هو دليل بطلانه (الوجه الثاني) أن استنباط العقول ووضع الأذهان لما لاحقيقة له من باب الخيالات والتقدير التي لا يترتب عليها علم ولا معلوم ولا صلاح ولا فساد إذ هي خيالات مجردة وأوهام مقدرة كوضع الذهن سائر ما يضعه من المقدرات الذهنية ومعلوم أن المعاني المستنبطة من الأحكام هي من أجمل المعلوم ومعلومها من أشرف المعلومات وأنفعها للعباد وهي منشأ مصالحهم في معاشهم ومعادهم وترتب آثارها عليها مشهود في الخارج معقول في الفطر قائم في العقول فكيف يدعى أنه مجرد وضع ذهني لاحقيقة له (الوجه الثالث) أن استنباط الذهن لما يستنبطه من المعاني واعتقاده أن الأفعال مشتملة عليها مع كون الأمر ليس كذلك جهل مركب واعتقاد باطل فإنه إذا اعتقد أن الأفعال مشتملة على تلك المعاني وإنها منشأها وليس كذلك كان اعتقاداً للشيء بخلاف ما هو به وهذا غاية الجهل فكيف يدعى هذا في أشرف العلوم وأزكاها وأنفعها وأعظمها متضمناً لمصالح العباد في المعاش والمعاد وهل هو إلا لب الشريرة ومضمونها فكيف يسوغ أن يدعى فيها هذا الباطل ويرى بهذا البهتان . . . وبالجمله فبطلان هذا القول أظهر من أن يتكاف رده ولم يقل هذا القول من شئ للفقه راحة أصلاً (الوجه التاسع والجنسون) قولكم لو كانت صفات نفسية للفعل لزم من ذلك أن تكون

ماشاء من مال ولده وهو كالمباح في حقه وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وينبنا دلالة القرآن عليها من وجوه متعددة في غير هذا الموضع وهذا المأخذ أحسن من قولهم أن الأب لما كان هو السبب في إيجاد الولد فلا يكون الولد سبباً في إعدامه وفي المسألة مسلك آخر وهو مسلك قوى جداً وهو أن الله سبحانه جعل في قلب الوالد من الشفقة على ولده والحرص على حياته ما يوازي شفقته على نفسه وحرصه على حياة نفسه وربما يزيد على ذلك فقد يؤثر الرجل حياة ولده على حياته وكثيراً ما يحرم الرجل نفسه حظوظها ويؤثر بها ولده وهذا القدر مانع من كونه يريد إعدامه وإهلاكه بل لا يقصد في الغالب إلا تأديبه وعقوبته على إساءته فلا يقع قتله في الأغلب عن قصد وتعمد بل عن خطأ وسبق يد وإذا وقع ذلك غلطاً ألحق بالقتل الذي لم يقصد به إزهاق النفس فأسباب التهمة والعداوة الحاملة على القتل لا تنكاد توجد في الآباء وإن وجدت نادراً فالعبرة بما اطردت عليه عادة الخليفة وهنا للناس طريقتان أحدهما أنا إذا تحققنا التهمة وقصد القتل والإزهاق بأن يضجعه ويذبحه مثلاً أجرينا القصاص بينهما لتحقيق قصد الجنائية وانتفاء المانع من القصاص وهذا قول أهل المدينة (والثاني) أنه لا يجري القصاص بحال وأن تحقق قصد القتل لمسكان الجزئية والبعضية المانعة من الاقتصاص من بعض الأجزاء لبعض وهو قول الأكثرين ولا يرد عليهم قتل الولد لو والده وإن كان بعضه لأن الأب لم يخلق من نطفة الإبن فليس الأب بجزء له حقيقة ولا حكماً بخلاف الولد فإنه جزء حقيقة وليس هذا موضع استقصاء الكلام على هذه المسائل إذ المقصود بيان اشتغالها على الحكم والمصالح التي يدركها العقل وإن لم يستقل بها فجاءت الشريعة بها مقررّة لما استقر في العقل إدراكه ولو من بعض الوجوه . . وبعد النزول عن هذا المقام فأقصى ما فيه أن يقال أن الشريعة جاءت بما يعجز العقل عن إدراكه لا بما يحيله العقل ونحن لا نذكر ذلك ولكن لا يلزم منه نفى الحكم والمصالح التي اشتملت عليها الأفعال في ذواتها والله أعلم ﴿الوجه الثامن والخمسون﴾ قوله لم يظهر بهذا أن المعاني المستنبطة راجعة إلى مجرد استنباط العقل ووضع الذهن من غير أن يكون الفعل مشتملاً عليها كلام في غاية الفساد والبطلان لا يرتضيه أهل العلم والإنصاف وتصوره حق التصور كاف في الجزم ببطلانه من وجوه عديدة أحدها أن العقل والفطرة يشهدان ببطلانه والوجود يكذبه فإن أكثر المعاني المستنبطة من الأحكام ليست من أوضاع الأذهان المجردة عن اشتغال الأفعال عليها ومدعى ذلك في غاية المكابرة التي لا تجدى عليه إلا توهين المقالة وهذه المعاني المستنبطة من الأحكام موجودة مشهودة يعلم العقلاء أنها ليست من أوضاع الذهن بل الذهن أدركها وعلمها وكان نسبة الذهن إلى إدراكها كنسبة البصر إلى إدراك الألوان وغيرها وكنسبة

البرية في أخذ هذه بهذه سيما وقد أباح لأوليائه دماء أعدائه وجعلهم قرا بين لهم وإنما اقتضت حكمته أن يكشفوا عنهم إذا صاروا تحت قهرهم وإذلالهم كالعبيد لهم يؤدون إليهم الجزية التي هي خراج رؤسهم مع بقاء السبب الموجب لإباحة دماهم وهذا الترك والكف لا يقتضى استواء الدمين عقلا ولا شرعا ولا مصلحة ولا ريب أن الدمين قبل القهر والإذلال لم يكونا بمستويين لأجل الكفر فأى موجب لاستوائهما بعد الاستذلال والقهر والكفر قائم بعينه فهل فى الحكمة وقواعد الشريعة وموجبات العقول أن يكون الإذلال والقهر للكافر موجبا لمساواة دمه لدم المسلم هذا مما تأباه الحكمة والمصلحة والعقول وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى وكشف الغطاء وأوضح المشكل بقوله المسلمون تتسكفأ دماؤهم أو قال المؤمنون فعلق المسكافأة بوصف لا يجوز إلغاؤه وإهداره وتعليقها بغيره إذ يكون إبطالا لما اعتبره الشارع واعتبارا لما أبطله فإذا علق المسكافأة بوصف الإيمان كان كتعليقه سائر الأحكام بالأوصاف كتعليق القطع بوصف السرقة والرجم بوصف الزنا والجلد بوصف القذف والشرب ولا فرق بينهما أصلا فكل من علق الأحكام بغير الأوصاف التى علقها به الشارع كان تعليقه منقطعاً منصرماً وهذا بما اتفق أئمة الفقهاء على صحته فقد أدى نظر العقل إلى أن دم عدو الله الكافر لا يساوى دم وليه ولا يكافيه أبداً وجاء الشرع بموجبه فأى معارضة هاهنا وأى حيرة إن هو إلا بصيرة على بصيرة ونور على نور وليس هذا مكان استيعاب الكلام على هذه المسألة وإنما الغرض التنبيه على أن فى صريح العقل الشهادة لما جاء به الشرع فيها .

فصل

وعكس هذا أنهم تشترط المسكافأة فى علم وجهل ولا فى كمال وقبح ولا فى شرف وضعة ولا فى عقل وجنون ولا فى أجنبية وقرابة خلا الوالد والولد وهذا من كمال الحكمة وتام النعمة وهو فى غاية المصلحة إذ لو روعيت هذه الأمور لتعطلت مصالحة القصاص إلا فى النادر البعيد إذ قل أن يستوى شخصان من كل وجه بل لا بد من التفاوت بينهما فى هذه الأوصاف أو فى بعضها فلو أن الشريعة جاءت بأن لا يقتص إلا من مكافئ من كل وجه لفسد العالم وعظم الهرج وانتشر الفساد ولا يجوز على عاقل وضع هذه السياسة الجائرة ووضعها إلى السفه أقرب منه إلى الحكمة فلا جرم أهدت الشرائع إلى اعتبار ذلك . . وأما الولد والوالد فنفع من جريان القصاص بينهما حقيقة البعضية والجزئية التى بينهما فإن الولد جزء من الوالد ولا يقتص لبعض أجزاء الإنسان من بعض وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) وهو قولهم الملائكة بنات الله فدل على أن الولد جزء من الوالد وعلى هذا الأصل امتنعت شهادته له وقطعه بالسرقة من ماله وحده أباه على قذفه وعن هذا الأصل ذهب كثير من السلف ومنهم الإمام أحمد وغيره إلى أن له أن يملك

أمر متحقق وحسن الخاتمة أمر موهوم اعطوا الأعمال جملة وكذلك الأجراء والصناع والملوك والجنود وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر ومن هاهنا قيل أن إنكار هذه المسئلة يستلزم تعطيل الدنيا والآخرة من وجوه متعددة (الوجه السابع والخمسون) قولكم ويعارضه معنى ثالث وراءهما في فكر العقل في أنواع وشروط أخرى وراء مجرد الإنسانية من العقل والبلوغ والعلم والجهل والكمال والنقص والقراءة والأجنبية في تحجير العقل كل التحجير فلا بد إذا من شارع يفصل هذه الخطأ ويعين قانونا يطرد عليه أمر الأمة ويستقيم عليه مصالحهم (فيقال) لا ريب أن الشرائع تأتي بما لا تستقل العقول بإدراكه فإذا جاءت به الشريعة اهتدى العقل حينئذ إلى وجه حسن مأموره وقبح منهيه فسرته الشريعة على وجه الحكمة والمصلحة الباعثين لشرعه فهذا مما لا ينكر وهذا الذي قلنا فيه أن الشرائع تأتي بمجازات العقول لا بمحالات العقول ونحن لم ندع ولا عاقل قط أن العقل يستقل بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة بحيث لو ترك وحده لاهتدى إلى كل ما جاءت به . . إذا عرف هذا فغاية ما ذكرتم أن الشريعة الكاملة اشترطت في وجوب القصاص شروطا لا يهتدى العقل إليها وأى شيء يلزم من هذا وماذا يقبح لكم ومنازعكم يسلمونه لكم وقولكم أن هذا معارض للوصف المقتضى لثبوت القصاص من قيام مصلحة العالم إما غفلة عن الشروط المعارضة وإما اصطلاح طارئ فيه ما لا يهتدى العقل إليه من شروط اقتضاء الوصف لموجبه معارضة . فيالله العجب أى معارضة هاهنا إذا كان العقل والفطرة قد شهدا بحسن القصاص وانتظامه للعالم ونوقفا في اقتضاء هذا الوصف هل يضم إليه شرط آخر غيره أم يكفي بمجردده وفي تعيين تلك الشروط فأدرك العقل ما يستقل بإدراكه وتوقف عما لا يستقل بإدراكه حتى اهتدى إليه بنور الشريعة . . يوضح هذا (الوجه الثامن والخمسون) أن ما وردت به الشريعة في أصل القصاص وشروطه منقسم إلى قسمين أحدهما ما حسنه معلوم بصريح العقل الذي لا يسترىب فيه عاقل وهو أصل القصاص وانتظام مصالح العالم به والثاني ما حسنه معلوم بنظر العقل وفكره وتأمله فلا يهتدى إليه إلا الخواص وهو ما اشترط اقتضاء هذا الوصف أو جعل تابعه له فاشترط له المكافأة في الدين وهذا في غاية المراعاة للحكمة والمصلحة فإن الدين هو الذى فرق بين الناس في العصمة وليس في حكمة الله وحسن شرعه أن يجعل دم وليه وعبد له وأحب خلقه إليه وخير بريته ومن خلفه لنفسه واختصه بكرامته وأهله لجوارده في جنته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه في دار كرامته كعدم عدوه وأمقت خلقه إليه وشر بريته والعدل به عن عبادته إلى عبادة الشيطان الذى خلقه للنار وللطرد عن بابه والإبعاد عن رحمته . . وبالجملة فاشأ حكمة أن يسوى بين دماء خير البرية ودماء شر

إتلاف بأزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فكذلك هو لكن إتلاف حسن هو مصالحة وحكمة ومصلاح للعالم في مقابلة إتلاف هو فساد وسفه وخراب للعالم فأني يستويان أم كيف يعتدلان حتى يتحير العقل بين الإتلاف الحسن وتركه وقولكم لا يحيا الأول بقتل الثاني قلنا يحيا به عدد كثير من الناس إذ لو ترك ولم يؤخذ على يديه لأهلك الناس بعضهم بعضا فإن لم يكن في قتل الثاني حياة الأول ففيه حياة العالم كما قال تعالى (ولاكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) لكن هذا المعنى لا يدركه حق الإدراك إلا أولوا الألباب فأين هذه الشريعة وهذه الحكمة وهذه المصلحة من هذا الهذيان الفاسد وأن يقال قتل الجاني إتلاف بأزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فيكون قبيحا لولا الشرع فوازن بين هذا وبين ما شرعه الله وجعل مصالح عباده منوطة به وقولكم فيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين (فيقال) لو أعطيتكم رتب المصالح والمفاسد حقها لم ترضوا بهذا الكلام الفاسد فإن الشرائع والفطر والعقول متفقة على تقديم المصلحة الراجحة وعلى ذلك قام العالم وما نحن فيه كذلك فإنه احتمال لمفسدة إتلاف الجاني إلى هذه المفسدة العامة فن تحير عقله بين هذين المفسدتين فلفساد فيه والعقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل كقطع الأصبع أو اليد المتأكلة لسلامة سائر البدن ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه كقطع العروق وبطل الخراج ونحوه فلو طرد العقلاء قياسكم هذا الفاسد وقالوا هذا إيلام محقق لدفع إيلام متوهم لفسد الجسد جملة ولا فرق عند العقول بين هذا وبين قياسكم في الفساد (الوجه السادس والخمسون) قولكم أن مصلحة الردع والزجر وإحياء النوع أمر متوهم كلام بين فساده بل هو أمر متحقق وقوعه عادة ويدل عليه ما نشاهده من الفساد العام عند ترك الجناة والمفسدين وإهمالهم وعدم الأخذ على أيديهم والمتوهم من زعم أن ذلك موهوم وهو بمثابة من دهم العدو فقال لا تعرض أنفسنا لمشقة قتالهم فإنه مفسدة متحققة وأما استيلائهم على بلادنا وسبيهم ذرارينا وقتل مقاتلتنا فوهوم (فيأليت) شعري من الواهم المخطيء في وهمه ونظيره أيضا أن الرجل إذا تبخغ به الدم وتضرر إلى إخراجه لا يتعرض لشق جلده وقطع عروقه لأنه ألم محقق لاموهوم ولو أطرده هذا القياس الفاسد لخرب العالم وتعطلت الشرائع والاعتماد في طلب مصالح الدارين ودفع مفاسدهما مبنى على هذا الذي سميتموه أنتم موهوما فالعمال في الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذي أطردت به العادة وإن لم يجزوا به فإن الغالب صدق العادة وأطردها عند قيام أسبابها فالتاجر يحمل مشقة السفر في البر والبحر بناء على أنه يسلم ويغنم فلو طرد هذا القياس الفاسد وقال السفر مشقة متحققة والكسب أمر موهوم لتعطلت أسفار الناس بالكلية وكذلك عمال الآخرة لو قولا تعب العمل ومشقته

العظيم فصدر الآية بقوله لكم المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحساناً إليكم فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضرره ونفعه ثم عقبه بقوله في القصاص إيذاناً بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل وهو أن يفعل به كما فعل والقصاص في اللغة المماثلة وحقيقته راجعة إلى الإتياع ومنه قوله تعالى (وقالت لأخته قصيه) أي اتبعي أثره ومنه قوله (فارتدا على آثارهما قصصاً) أي يقصان الأثر ويتبعانه ومنه قص الحديث واقتصاصه لأنه يتبع بعضه بعضاً في الذكر فسمى جزاء الجاني قصاصاً لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص وقد ذكرنا أدلة المسئلة من الطرفين وترجيح القول الراجح بالنص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن ونكر سبحانه الحياة تعظيماً وتفخيماً لشأنها وليس المراد حياة ما بل المعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل عقل والتشكير كثيراً ما يحى للتعظيم والتفخيم كقوله (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنته) وقوله (ورضوان من الله أكبر) وقوله (إن هو إلا وحى يوحى) ثم خص أولى الأبواب وهم أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته إذ هم المنتفعون بالخطاب ووازن بين هذه الكلمات وبين قولهم القتل أنفى للقتل ليمتد مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته (الوجه الخامس والخمسون) قولكم أن القصاص إنلاف بأزاء إنلاف وعدوان في مقابلة عدوان ولا يحيا الأول بقتل الثاني ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم وفي القصاص استهلاك محقق فيقال هذا الكلام من أفسد الكلام وأبينه بطلاناً فإنه يتضمن التسوية بين القبيح والحسن ونفى حسن القصاص الذي اتفقت العقول والديانات على حسنه وصلاح الوجود به وهل يستوى في عقل أو دين أو فطرة القتل ظلماً وعدواناً بغير حق والقتل قصاصاً وجزاء بحق ونظير هذه التسوية تسوية المشركين بين الربا والبيع لاستوائهما في صورة العقد ومعلوم أن استواء الفاعلين في الصورة لا يوجب استواءهما في الحقيقة ومدعى ذلك في غاية المكابرة وهل يدل استواء السجود لله والسجود للصنم في الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض على أنهما سواء في الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه ويكفي في فساد هذا أطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذي هو ظلم وبغي وعدوان وحسن القتل الذي هو جزاء وقصاص وردع وزجر والفرق بين هذين مثل الفرق بين الزنا والنكاح بل أعظم وأظهر بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح في الأرض والإفساد فيها فما تعارض في عقل صحيح قط هذان الأمران حتى يتحير بينهما أيهما يؤثر ويختاره وقولكم أنه (٧—مفتاح ٢)

هل هو نافع كذا ملائم له أو منافر مؤذ وهل هو حار أو بارد وهل هو رطب أو يابس وهل فيه قوة تصلح لأمر من الأمور أولا قوة فيه ومع هذا فالاختلاف المذكور لا ينفي عند العقلاء ما جعل في الأغذية والأدوية من القوى والمنافع والمضار والكيفيات لأن سبب الاختلاف خفاء تلك الأوصاف على بعض العقلاء ودفعها وبجز الحس والعقل عن تمييزها ومعرفة مقاديرها والنسب الواقعة بين كيفياتها وطبائنها ولم يكن هذا الاختلاف بموجب عند أحد من العقلاء إنكار جملة العلم وجمه ورقواعده ومسائله ودعوى أنه مامن وصف يستنبط من دواء مفرد أو مركب أو من غذاء إلا وفي العقل ما يعارضه في تحير العقل ولو ادعى هذا مدعى لضحك منه العقلاء بما علموه بالضرورة والحس من ملائمة الأوصاف ومنافرتها واقتضاء تلك الذات للنافع والمضار في الغالب ولا يكون اختلاف بعض العقلاء يوجب إنكار ما علم بالضرورة والحس فهم كذا الشرائع (الوجه الرابع والخمسون) أن قولكم إذا قتل إنسان إنسانا عرض للعقل هاهنا آراء متعارضة مختلفة إلى آخره (فيقال) إن أردتم أن العقل يسوى بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه لمصلحة الجاني فبهت للعقل وكذب عليه فإنه لا يستوى عند عاقل قط حسن الاختصاص من الجاني بمثل ما فعل وحسن تركه والإعراض عنه ولا يعلم عقل صحيح يسوى بين الأمرين وكيف يستوى أمران أحدهما يستلزم فساد النوع وخراب العالم وترك الانتصار للمظلوم وتمكين الجناة من البغي والعدوان والثاني يستلزم صلاح النوع وعمارة العالم والانتصار للمظلوم وردع الجناة والبلغاة والمعتدين فكان في القصاص حياة العالم وصلاح الوجود . وقد نبه تعالى على ذلك بقوله (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلمكم تتقون) وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر أن إعدام هذه البنية الشريفة وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول تمكثير لمفسدة القتل فلا تية حكمة صدر هذا بمن وسبغت رحمته كل شيء . وبهرت حكمته العقول فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصا بمن قتله كف عن القتل وارتدع وأثر حب حياته ونفسه فمكان فيه حياة له ولمن أراد قتله (ومن وجه آخر) وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره وتشتد مؤنته فشرع الله تعالى القصاص وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه ولم تكن الحياة في القصاص من حيث أنه قتل بل من حيث كونه قصاصا يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره فتضمن القصاص الحياة في الوجوهين وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلغة والفصاحة والمغنى

وإرادته التي هي مناط الشرائع ومتعلق الأمر والنهي فلا جبري ولا جهمي ولا قدرى وكيف
يختار العاقل آراء ومذاهب هذه بعض لوازمها ولو صابرها إلى آخرها لاستبان له من
من فسادها وبطلانها ما يتعجب معه من قائلها ومنتهجها والله الموفق للصواب (الوجه الثالث
والخمسون) قولكم أنه مامن معنى يستنبط من قول أو فعل ليربط به معنى مناسب له إلا
ومن حيث العقل يعارضه معنى آخر يساويه في الدرجة أو يفضل عليه في المرتبة فيتحير
العقل في الاختيار إلى أن يرد شرع يختار أحدهما أو يرجحه من تلقائه فيجب على العاقل اعتباره
واختياره لترجيح الشرع له لا لرجحانه في نفسه فيقال إن أردتم بهذه المعارضة أنها ثابتة في
جميع الأفعال والأقوال المشتملة على الأوصاف المناسبة التي ربطت بها الأحكام كما يدل
عليه كلامكم فدعوى باطلة بالضرورة وهو ككذب محض وكذلك إن أردتم أنها ثابتة في
أكثرها فأى معارضة في العقل للوصف القبيح في الكذب والفجور والظلم واهلاك الحرث
والنسل والإساءة إلى المحسنين وضرب الوالدين واحتقارهما والمبالغة في إهانتها بلا جرم
وأى معارضة في العقل للأوصاف القبيحة في الشرك بالله ومشيته وكفران نعمه وأى معارضة
في العقل للوصف القبيح في نكاح الأمهات واستفراشهن كاستفراش الأماء والزوجات إلى
أضعاف أضعاف ما ذكرنا مما تشهد العقول بقبحه من غير معارض فيها بل نحن لانسكت أن
يكون داعى الشهوة والهوى وداعى العقل يتعارضان إن أردتم هذا التعارض فسلم ولكن
لا يجدى عليكم إلا عكس مطلوبكم وكذلك أى معارضة في العقول للأوصاف المقتضية
حسن عبادة الله وشكره وتعظيمه وتمجيده والثناء عليه بآلانه وإعانه وصفات جلاله ونعوت
كآله وأفراده بالحب والعبادة والتعظيم وأى معارضة في العقول للأوصاف المقتضية حسن
الصدق والبر والإحسان والعدل والإيثار وكشف الكبريات وقضاء الحاجات وإغاثة اللهفات
والأخذ على أيدى الظالمين وقمع المفسدين ومنع البغاة والمعتدين وحفظ عقول العالمين
وأموالهم ودمائهم وأعراضهم بحسب الإمكان والأمر بما يصلحها ويكملها والنهي عما
يفسدها وينقصها وهذه حال جملة الشرائع وجمهورها إذا تأملها العقل جزم أنه يستحيل
على أحكم الحاكمين أن يشرع خلافها لعباده وأما إن أردتم أن في بعض ما يصدق منها مسائل
تعارض فيها الأوصاف المستنبطة في العقول فيتحير العقل بين المناسب منها وغير المناسب
فهذا وإن كان واقعاً فانها لا تنفي حسنها الذاتي وقبح منهيها الذاتي وكون الوصف خفي المناسبة
والتأثير في بعض المواضع مما لا يدقه وهذه حال كثير من الأمور العقلية المحضة بل الحسية
وهذا الطب مع أنه حسي تجريبي يدرك منافع الأغذية والأدوية وقواها وحرارتها وبرودتها ورطوبتها
ويبوستها فيه بالحس ومع هذا فأتتم ترون إختلاف أهله في كثير من مسائلهم في الشيء الواحد

ولانهى ولا شرع أصلاً إذ ذلك إنما يصح إذا ثبت قيام الكلام بالمرسل الأمر الناهى وقيام الاقتضاء والطلب والحب لما أمر به والبغض لما نهى عنه فأما إذا لم يثبت له كلام ولا إرادة ولا اقتضاء ولا طلب ولا حب ولا بغض قائم به فإنه لا يعقل أصلاً كونه أمراً ولا ناهياً ولا باعثاً للرسول ولا محباً للطاعة باغضاً للمعصية فأصول هذه الطائفة تعطل الصفات عن صفات كماله فإنها تستلزم إبطال الرسالة والنبوة جملة ولا يمكن رب لازم لا يلتزمه صاحب المقالة ويتناقض في القول بملزومه دون القول به ولا ريب أن فساد اللازم مستلزم لفساد الملزوم ولكن يقال لكم معاشر الجبرية لا تكونوا ممن يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع المعترض في عينه فقد ألزمتكم القدرية ما لا يحيد لكم عنه وقالوا من نفى فعل العبد جملة فقد عطل الشرائع والأمر والنهى فإن الأمر والنهى لا يتعلق إلا بالفعل المأمور به فهو الذى يؤمر به وينهى عنه ويثاب عليه ويعاقب فإذا نفيتم فعل العبد فقد رفعتم متعلق الأمر والنهى وفى ذلك إبطال الأمر والنهى فلا فرق بين رفع المأمور به المنهى عنه ورفع المأمور بالمنهى نفسه فإن الأمر يستلزم أمراً ومأموراً به ولا يصح له حقيقة إلا بهذه الثلاث ومعلوم أن أمر الأمر بفعل نفسه ونهيه عن نفسه يبطل التكليف جملة فإن التكليف لا يعقل معناه إلا إذا كان المكلف قد كلف بفعله الذى هو المقدور له التابع لإرادته ومشيتته وأما إذا رفعتم ذلك من البين وقلتم بل هو مكلف بفعل الله حقيقة لا يدخل تحت قدرة العبد لا هو متمكن فى الإتيان به ولا هو واقع بإرادته ومشيتته فقد نفيتم التكليف جملة من حيث أثبتوه وفى ذلك إبطال للشرائع والرسالة جملة قالوا فليتنامل المنصف الفطن لا البليد المتعصب صحة هذا الإلزام فإن تجد عنه محيداً قالوا فأنتم معاشر الجبرية قدرية من حيث نفيتكم الفعل المأمور به فإن كان خصومكم قدرية من حيث نفوا تعلق القدرة القديمة فأنتم أولى أن تكونوا قدرية من حيث نفيتم فعل العبد له وتأثيره فيه وتعلقه بمشيئته فأنتم أثبتتم قدراً على الله وقدراً على العبد أما القدر على الله فحيث زعمتم أنه تعالى يأمر بفعل نفسه وينهى عن فعل نفسه ومعلوم أن ذلك لا يصح أن يكون مأموراً به منهياً عنه فأثبتتم أمراً ولا مأموراً به ونهياً ولا منهياً عنه وهذه قدرية محضة فى حق الرب وأما فى حق العبد فإنكم جعلتموه مأموراً منهياً من غير أن يكون له فعل يأمر به وينهى عنه فأى قدرية أبلغ من هذه فمن الذى تضمن قوله لإبطال الشرائع وتعطيل الأوامر فليتنبه اللبيب لمواقعة هذه المساجلة وسهام هذه المناضلة ثم ليختر منهما إحدى خطتين ولا والله ما فيهما حظ لختار ولا ينجوا من هذه الورطات إلا من أثبت كلام الله القائم به المتضمن لأمره ونهيه ووعدته وعيده وأثبت له ما أثبت لنفسه من صفات كماله ومن الأمور الثبوتية القائمة ثم أثبت مع ذلك فعل العبد واختياره ومشيتته

في هذا وهذا ونعمه بالثواب من غير استحقاق ولا تمن يعاوض عليه بل فضل منه وإحسان فهذا هو الحق فهو المان بهدايته الإيمان وتفسيره الأعمال وإحسانه بالجزاء كل ذلك مجرد منته وفضله قال تعالى (يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا مَعَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الوجه الخمسون) قولكم وإذا تعارض في العقول هذان الأمران فكيف يهتدى العقل إلى اختيار أحدهما (قلنا) قد تبين بحمد الله أنه لا تعارض في العقول بين الأمرين أصلا وإنما يقدر التعارض بين العقل والهوى وأما أن يتعارض في العقول إرشاد العباد إلى سعادتهم في المعاش والمعاد وتركهم هملًا كالأنعام السائمة لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا فلم يتعارض هذان في عقل صحيح أبداً (الوجه الحادي والخمسون) قولكم فكيف يعرفنا العقل وجوبا على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة وعلى الرب بالثواب والعقاب (فيقال) وأي استبعاد في ذلك وما الذي يحمله فقد عرفنا العقل من الواجبات عليه ما يتبع من العبد تركها كما عرفنا وعرف أهل العقول وذوى الفطر التي لم تتواطأ على الأقوال الفاسدة وجوب الإقرار بالله وربوبيته وشكر نعمته ومحبة وعرفنا قبيح الإشراك به والإعراض عنه ونسبته إلى ما لا يليق به وعرفنا قبيح الفواحش والظلم والإساءة والفجور والكذب والبهت والإثم والبغى والعدوان فكيف نستبعد منه أن يعرفنا وجوبا على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالشكر المقدور المستحسن في العقول التي جاءت الشرائع بتفصيل ما أدركه العقل منه جملة وبتقرير ما أدركه تفصيلا وأما الوجوب على الله بالثواب والعقاب فهذا مما تباين فيه الطائفتان أعظم تباين فأثبتت القدرية من المعتزلة عليه تعالى وجوبا عقليا وضعوه شريعة له بهقولهم وحرّموا عليه الخروج عنه وشهوه في ذلك كله بخلقه وبدعهم في ذلك سائر الطوائف وسفّهوا رأيهم فيه وبيّنوا مناقضتهم وألزموهم بالماحيد لهم عنه ونفت الجبرية أن يجب عليه ما أوجبه على نفسه ويحرم عليه ما حرمه على نفسه وجوزوا عليه ما يتعالى ويتنزه عنه وما لا يليق بجلاله مما حرمه على نفسه وجوزوا عليه ترك ما أوجبه على نفسه مما يتعالى ويتنزه عن تركه وفعل ضده فتباين الطائفتان أعظم تباين وهدى الله الذين آمنوا أهل السنة الوسط للطريقة المثلى التي جاء بها رسوله ونزل بها كتابه وهي أن العقول البشرية بل وسائر المخلوقات لا توجب على ربها شيئا ولا تحرمه وأنه يتعالى ويتنزه عن ذلك وأما ما كتبه على نفسه وحرّمه على نفسه فإنه لا يخل به ولا يقع منه خلافه فهو إيجاب منه على نفسه بنفسه وتحريم منه على نفسه بنفسه فليس فوقه تعالى موجب ولا محرم . وسيأتى إن شاء الله بسط ذلك وتقريره (الوجه الثاني والخمسون) قولكم أنه على أصول المعتزلة يستحيل الأمر والنهي والتكليف وتقديركم ذلك فكلام لا مطعن فيه والأمر فيه كما ذكرتم وإن حقيقة قول القوم أنه لا أمر

في مرضاته فأين هذان المسلكان من ذنك المسلكين وإنما أتى القوم من إنكارهم المحبة وذلك الذي حرمهم من العلم والإيمان ما حرمهم وأوجب لهم سلوك تلك الطرق المسدودة والله الفتاح العليم (الوجه التاسع والأربعون) قولكم فلا تكون نعمه تعالى ثوابا بل ابتداء كلام يحتمل حقا وباطلا فإن أردتم به أنه لا يثيبهم على أعمالهم بالجنة ونعيمها ويجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فهو باطل والقرآن أعظم شاهد بطلانه قال تعالى (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لا كفرون عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب) وقال تعالى (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون وقال تعالى (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) وقال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) وقال تعالى (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوينهم من الجنة غرضا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) وهذا في القرآن كثير يبين أن الجنة ثوابهم وجزاؤهم فكيف يقال لا تكون نعمه ثوابا على الإطلاق بل لا تكون نعمه تعالى في مقابلة الأعمال والأعمال ثمنها فإنه إن يدخل أحدا الجنة عمله ولا يدخلها أحد إلا بمجرد فضل الله ورحمته وهذا لا يناقض ما تقدم من النصوص فإنها إنما تدل على أن الأعمال أسباب لا أعواض وأثمان والذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم في الدخول بالعمل هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه فالمثبت بآء السببية والمنفي بآء المعاوضة والمقابلة وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة والقدرية الجبرية تنفي بآء السببية جملة وتكرار تكون الأعمال سببا في النجاة ودخول الجنة وتلك النصوص وأضعافها تبطل قولهم والقدرية النفاة تثبت بآء المعاوضة والمقابلة وتزعم أن الجنة عوض الأعمال وأنها ثمن لها وأن دخولها إنما هو بمحض الأعمال والنصوص النافية لذلك تبطل قولهم والعقل والفطر تبطل قول الطائفتين ولا يصح في النصوص والعقول إلا ما ذكرناه من التفصيل وبه يتبين أن الحق مع الوسط بين الفرق في جميع المسائل لا يستثنى من ذلك شيء فما اختلفت الفرق إلا كان الحق مع الوسط وكل من الطائفتين معه حق وباطل فأصاب الجبرية في نفي المعاوضة وأخطوا في نفي السببية وأصاب المقدرية في إثبات السببية وأخطوا في إثبات المعاوضة فإذا ضمنت أحد نفي الجبرية إلى أحد إثباتي القدرية ونفيت باطلهما كنت أسعد بالحق منهما فإن أردتم بأن نعمه لا تكون ثوابا هذا القدر وأنها لا تكون عوضا بل هو المنعم بالأعمال والثواب وله المنه

ولا لدفع مضرة يتوقعها منهم كما هو عادة المخلوق الذى ينفع غيره ليكافئه بنفع مثله أو ليدفع عنه ضرراً فالرب تعالى لم يحسن إلى عباده ليكافئوه ولا ليدفعوا عنه ضرراً فقال ان تبلغوا نفعى فتنفعوني ولن تبلغوا ضررى فتضرونى أنى لست إذا هديت مستهديكم وأطعمت مستطعمكم وكسوت مستكسيمكم وأرويت مستسقيكم وكفيت مستكفيكم وغفرت لمستغفركم بالذى أطلب منكم أن تنفعوني أو تدفعوا عني ضرراً فإنكم ان تبلغوا ذلك وأنا الغنى الحميد كيف والمخلوق عاجزون عما يقدرون عليه من الأفعال إلا بأقداره وتيسيره وخلقهم فكيف بما لا يقدرُونَ عليه فكيف يبلغون نفع الغنى الصمد الذى يتمتع فى حقه أن يستجلب من غيره نفعاً أو يستدفع منه ضرراً بل ذلك مستحيل فى حقه ثم ذكر بعد هذا قوله يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ولأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ولو أن أولكم وآخركم ولأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً فبين سبحانه أن ما أمرهم به من الطاعات وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن استجلاب نفعهم ولا استدفاع ضررهم كأمر السيد عبده والوالد ولده والإمام رعيته بما ينفع الأمر والمأمور ونهيهم عما يضر الناهى والمنهى فبين تعالى أنه المنزه عن حقوق نفعهم وضررهم به فى إحسانه إليهم بما يفعله بهم وبما يأمرهم به ولهذا لما ذكر الأصلين بعد هذا وأن قواهم وفسادهم الذى هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد فى ملكه شيئاً ولا ينقصه وأن نسبة ما يسألونه كلهم إياه فيعطيههم إلى ما عنده كلاً نسبةً فتضمن ذلك أنه لم يأمرهم ولم يحسن إليهم بإجابة الدعوات وغفران الزلات وتفريج الكربات لاستجلاب منفعة ولا لاستدفاع مضرة وأنهم لو أطاعوه كلهم لم يزيدوا فى ملكه شيئاً ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئاً وأنه الغنى الحميد ومن كان هكذا فإنه لا يزين بطاعة عباده ولا تشينه معاصيهم ولا يكتفى له من الحكم البوالغ فى تكليف عباده وأمرهم ونهيهم ما يقتضيه ملكه التام وحده وحكمته ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التى لا تحصى بحسب قواهم وطاقتهم لا بحسب ما ينبغي له فإنه أعظم وأجل من أن يقدر خلقه عليه ولكنه سبحانه يرضى من عباده بما تسمح به طبايعهم وقواهم فلا شئ أحسن فى العقول والفطر من شكر المنعم ولا أنفع للعبد منه فهذان مسألكان آخران فى حسن التكليف والأمر والنهى . . أحدهما يتعلق بذاته وصفاته وأنه أهل لذلك وإن جماله تعالى وكأله وأسماءه وصفاته تقتضى من عباده غاية الحب والذل والطاعة له . . والثانى متعلق بإحسانه وإنعامه ولا سيما مع غناه عن عباده وأنه إنما يحسن إليهم رحمة منه وجوداً وكرماً لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة وأى المسالكين سلكه العبد أوقفه على محبته وبذل الجهد

ولوعرف القوم صفات الأرواح وأحكامها لعلوا أن طاعة من لا تجب عبادته محال وأن من أتى بصورة الطاعة خوفاً مجرداً عن الحب فليس بمطيع ولا عابد وإنما هو كالملكه أو كالجبر السوء الذى إن أعطى عمل وإن لم يعط كفر وأبق . وسيرد عليك بسط الكلام فى هذا عن قريب إن شاء الله والمقصود أن الطاعة والعبادة الناشئة عن محبة الكمال والجمال أعظم من الطاعة الناشئة عن رؤية الإناعام والإحسان وفرق عظيم بين ما تعلق بالحقى الذى لا يموت وبين ما تعلق بالخلق وإن شمل النوعين اسم المحبة ولكن كم بين من يحبك لذاتك وأوصافك وجمالك وبين من يحبك لخيرك ودراهمك

فصل

والأسماء الحسنى والصفات العلامية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين فلسكل صفة عبودية خاصة هى من موجباتها ومقتضياتها أعنى من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها وهذا مطرد فى جميع أنواع العبودية التى على القلب والجوارح فعمل العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يشمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائفة الأعين وما تخفى الصدور يشمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطناً ويشمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ومعرفة بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجا وثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه ثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة وثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هى موجباتها وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها فخلق سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته فى العالم وآثارها ومقتضاها لأنه لا يتزين من عبادته بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم ونأمل قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى يرويه عن ربه تبارك وتعالى يا عبادى إنكم إن تبغوا ضرى فتضرونى وإن تبغوا نفعى فتتفعرونى ذكر هذا عقب قوله يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم فتضمن ذلك أن ما يفعله تعالى بهم فى غفران ذلالتهم وإجابة دعواتهم وتفريج كرباتهم ليس لطلب منفعة منهم

والنهي والثواب والعقاب استفرغ الوسع واستخلص القلب للمعبود الحق ومن
هذا قول بعض السلف أنه ليستخرج حبه من قلبى ما لا يستخرجه قوله ومنه
قول عمر في صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وقد كان هذا هو الواجب على كل عاقل كما
قال بعضهم

هب البعث لم تأتنا رسلة وجاحة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق طاعة رب الوركى الأكرم

وتد قام رسول الله ﷺ حتى تفتطرت قدماه ففعل له تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من
ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً واقتصر ﷺ من جوابهم على ما تدركه عقولهم
وتناله أفهامهم وإلا فمن المعلوم أن باعته على ذلك الشكر أمر يحل عن الوصف ولا تناله العبادة
ولا الأذهان فأين هذا الشهود من شهود طائفة القدرية والجبرية فليعرض العاقل لليبس ذنبك
المشهورين على هذا المشهد ولينظر ما بين الأمرين من التفاوت فالله سبحانه يعبد ويحمد ويجب
لأنه أهل لذلك ومستحقه بل ما يستحقه سبحانه من عباده أمر لا تناله قدرتهم ولا إرادتهم
ولا تتصوره عقولهم ولا يمكن أحد من خلقه قط أن يعبد حق عبادته ولا يوفيه حقه من
الحبة والحمد ولهذا قال أفضل خلقه وأكملهم وأعرفهم به وأحبهم إليه وأطوعهم له لا أحصى
ثناء عليك وأخبر أن عمله صلى الله عليه وسلم لا يستقل بالنجاة فقال لن ينجى أحداً منكم
عمله قالوا لا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل عليه طلوات
الله وسلامه عدد ما خلق في السماء وعدد ما خلق في الأرض وعدد ما بينهما وعدد ما هو خالق
وفي الحديث المرفوع المشهور أن من الملائكة من هو ساجد لله لا يرفع رأسه منذ خلق ومنهم
راكع لا يرفع رأسه من الركوع منذ خلق إلى يوم القيامة وأنهم يقولون يوم القيامة سبحانه
ما عبدناك حق عبادتك ولما كانت عبادته تعالى تابعة لمحبة وإجلاله وكانت المحبة نوعين محبة
تنشأ عن الإناعام والإحسان فتوجب شكراً وعبودية بحسب كمالها ونقصانها ومحبة تنشأ عن
جمال المحبوب وكاله فتوجب عبودية وطاعة أكمل من الأولى كان الباغت على الطاعة والعبودية
لا يخرج عن هذين النوعين ولما أن تقع الطاعة صادرة عن خوف محض غير مقرون بمحبة
فهذا قد ظنهم كثير من المتكلمين وهي عندهم غاية المعارف بناء على أصلهم الباطل أن الله لا تتعلق
الحبة بذاته وإنما تتعلق بمخلوقاته بما في الجنة من النعيم فهم لا يحبونه لذاته ولا لإحسانه
وينسكرون محبته لذلك وإنما المحبوب عندهم في الحقيقة غيره وهذا من أبطل الباطل . .
وسند كرفي القسم الثاني إن شاء الله في هذا الكتاب بطلان هذا المذهب من أكثر من مائة وجه

و تعظيما وخشية و خضوعا و تذلا و عبادة فهو الإله الحق ولو لم يخلق خلقه وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه فهو المعبود حقاً الإله حقاً المحمود حقاً ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمده ولم يألوه فهو الله الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقههم وبعد أن خلقهم وبعد أن يفهمهم لم يستحدث بخلقه لهم ولا بأمره إياهم استحقاق الإلهية والحمد بل الإلهية وحده ومجده وغناه أو صاف ذاتية له يستحيل مفارقتها له الحياته وجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرتهم أنه أهل أن يعبد وإن لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليه كتابا ولو لم يخلق جنة ولا ناراً علما أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته ولا أقبح من الإعراض عنه وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتمكيله وتفضيله وزيادته حسنا إلى حسنه فاتفقت شريعتهم وفطرتهم وتوافقا وظهر أنهما من مشكاة واحدة فعبدوه وأحبوه ومجده وحمده بداعي الفطرة وداعي الشرع وداعي العقل فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة ودعيتهم إلى وإيهم وإلهم وفطرتهم فأقبلوا إليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريياً وشكاً ولأمره شهوة توجب رغبةا عنه وإبشارها سواء فأجابوا دواعي المحبة والطاعة إذ نادتهم بهم حتى على الفلاح وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولاهم الحق بذل أخى السماح وحمدوا عند الوصول إليه سراهم وإنما يحمده القوم السرى عند البصاح فدينهم دين الحب وهو الدين الذي لا إكراه فيه وسيرهم سير المحبين وهو الذي لا وقفة تعتريه .

إني أدين بدين الحب ويحكم
ومن يكن دينه كرها فليس له
وما استوى سير عبد في محبته
فقل غير أخى الأشواق ويحك قد
نجائب الحب تعلوا بالحب إلى
وأطيب العيش في الدارين قدر غبت
فإن ترد عليه فاقراء ويحك في آيات طه وفي آيات ياسين

ولا ريب أن كمال العبودية تابع لكمال المحبة وكمال المحبة تابع لكمال المحبوب نفسه والله سبحانه له الكمال المطلق التام في كل وجه الذي لا يعتريه توهم نقص أصلا ومن هذا شأنه فإن القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه ما ماتت فطرها وعقولها سليمة وإذا كانت أحب الأشياء إليها فلا محالة أن محبته توجب عبوديته وطاعته وتتبع مرضاته واستفراغ الجهد في التبعده والإناابة إليه وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها حتى لو فرض تجرده عن الأمر

المقال ويشهدون له سبحانه في ذلك بالحكم الباهرة والأسرار العظيمة أكثر مما يشهدونه في مخلوقاته وما تضمنته ومن الأسرار والحكم ويعلمون مع ذلك أنه لانسبة لما أطلعهم سبحانه عليه من ذلك إلى ما طوى عليه عنهم واستأثر به دونهم وأن حكمته في أمره ونهيه وتكليفهم أجل وأعظم مما تطيقه عقول البشر فهم يعبدونه سبحانه بأمره ونهيه لأنه تعالى أهل أن يعبد وأهل أن يكون الحب كله له والعبادة كلها له حتى لو لم يخلق جنة ولا ناراً ولا وضع ثواباً ولا عقاباً لكان أهلاً أن يعبد أقصى ما تناله قدرة خلقه من العبادة وفي بعض الآثار الإلهية لو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أعبد حتى أنه لو قدر أنه لم يرسل رسله ولم ينزل كتبه لكان في الفطرة والعقل ما يقتضى شكره وإفراده بالعبادة كما أن فيهما ما يقتضى المنافع واجتناب المضار ولا فرق بينهما في الفطرة والعقل فإن الله فطر خلقه على محبته والإقبال عليه وابتغاء الوسيلة إليه وأنه لا شيء على الإطلاق أحب إليهما منه وإن فسدت فطر أكثر الخلق بما طرأ عليها مما اقتطعها واجتالها عما خلق فيها كما قال تعالى (فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها) فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو لإخلاص القصد وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه ولكن غيرت الفطر وأفسدت كما قال النبي ﷺ ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ثم يقول أبو هريرة أقرأوا إن شئتم (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منييين إليه واتقوه) ومنييين نصب على الحال من المفعول أى فطرهم منييين إليه والإنيابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده والإعراض عما سواه وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم بما علي في مقامى هذا أنه قال كل مال نخلته عبداً فهو له حلال وإنى خلقت عبداً حنيفاً فأنتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً وحرمت عليهم ما أحللت لهم فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره وهذا من الحق الذى خلقت له وبه قامت السموات والأرض وما بينهما وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه ولأجله هلك القرون التى خرجت عنه وآثرت غيره فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويثنى عليه أمر ثابت له لذاته فلا يكون إلا كذلك كما أن الغنى القادر الحى القيوم السميع البصير فهو سبحانه الإله الحق المبين والإله الذى يستحق أن يوله محبة

هذا الاختيار لا ينافي التكليف ولا يكون إلا به بوجه بل لا يصح التكليف إلا به (الوجه السابع والأربعون) قولكم فقد تعارض الأمران أحدهما أن يكلفهم فيأمر وينهى حتى يطاع ويعصى ثم يثيبهم ويعاقبهم الثاني أن لا يكلفهم إذ لا يترين منهم بطاعة ولا تشيئه معصيتهم وإذا تعارض في المعقول هذان الأمران فكيف يهتدى العقل إلى اختيار أحدهما عقلاً فكيف يعرفنا الوجوب على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة وعلى الرب تعالى بالثواب (فيقال) لكم لم يتعارض بحمد الله الأمران لأن أحدهما قد علم قبجه في المعقول والآخر قد علم حسنه في المعقول فكيف يتعارض في العقل جواز الأمرين وأن يكون نسبتهما إلى الرب تعالى نسبة واحدة وإنما يتعارض الجائزات على كل سواء بحيث لا يرجح بعضها عن بعض فاما الحسن والقبح فلم يتعارض في العقل قط استواءهما وقد قررنا بما لا ممانع له قبح الترك سدى بمنزلة الأنعام السائمة وحسن الأمر والنهي واستصلاحهم في معاشهم ومعادهم فكيف يقال أن هذين الأمرين سواء في العقل بحيث يتعارضان فيه ويقضى باستوائهما بالنسبة إلى أحكم الحاكمين * فإن قيل إنما تعارضاً في المقدورية إذ نسبة القدرة إليهما واحدة * قلنا قد تقدم أنه لا يلزم من كون الشيء مقدوراً أن لا يكون ممتنعاً لمناقضته الحكمة وقد بينا ذلك قريباً فيكون تركهم هملاً وسدى مقدوراً للرب تعالى لا يقتضى معارضته لمقدوره الآخر في تكليفهم وأمرهم ونهيهم (الوجه الثامن والأربعون) قولكم إذ لا يترين منهم بطاعة ولا تشيئه معصيتهم (قلنا) ومن الذي نازع في هذا ولكن حسن التكليف لا ينافي ذلك عن الرب تعالى وأنه إنما يكلفهم تكليف من لا يبلغوا ضره فيضروه ولا يبلغوا نفعه فيمنعوه وأنهم لو كانوا كلهم على أتق قلب رجل واحد منهم مازاد ذلك في ماله شيئاً ولو كانوا على أقر قلب رجل واحد منهم ما نقص ذلك في ماله شيئاً وهما اختلعت الطارق بالناس في علة التكليف وحكمته مع كونه سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ولا تضره معصيتهم فسلكت الجبرية مسلكها المعروف وأن ذلك صادر عن محض المشيئة وصرف الإرادة وأنه لا علة له ولا باعث عليه سوى محض الإرادة وسلكت القدورية مسلكها المعروف وهل ذلك إلا استدجار منه لعيده لينالوا أجرهم بالعمل فيكون ألد من اقتضائهم الثواب بلا عمل لما فيه من تكدير المنة والمسلكان كما ترى وحسبك ما يدل عليه العقل الصريح والنقل الصحيح من بطلانها وفسادها وليس عند الناس غير هذين المسلكين إلا مسلك من هو خارج عن الديانات واتباع الرسل ممن يرى أن الشرائع وضعت نواميس يقوم عليها مصلحة الناس ومعيشتهم فإن فائدتها تكميل قوة النفس والحكمة وهذا مسلك خارج عن مناهج الأنبياء وأئمهم وأما اتباع الرسل الذين هم أهل البصائر فحكمة الله عز وجل في تكليفهم ما كلفهم به أعظم وأجل عندهم مما يخطر بالبال أو يجري به

من هذا ولهذا أنكر الله سبحانه على من جوز عقله مثل هذا ونزه نفسه عنه فقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) قال الشافعى معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقيل لا يثاب ولا يعاقب وقال تعالى (أخسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) ثم نزه نفسه عن هذا الظن الكاذب وأنه لا يلقى به ولا يجوز في العقول نسبة مثله إليه لمنافاته لحكمته وربوبيته وإلهيته وحده فقال (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم وقال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) وفسر الحق بالثواب والعقاب وفسر بالأمر والنهي وهذا تفسير له ببعض معناه والصواب أن الحق هو إلهيته وحكمته المتضمنة للخلق والأمر والثواب والعقاب فصدر ذلك كله الحق وبالحق وجد وبالحق قام وغايته الحق وبه قيامه فمحال أن يكون على غير هذا الوجه فإنه لا يكون باطلا وعبثا فتعالى الله عنه لمنافاته لإلهيته وحكمته وكمال ملكه وخمده وقال تعالى (أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار) ونأمل كيف أخبر سبحانه عنه بنفي الباطلية عن خلقه دون إثبات الحكمة لأن بيان نفي الباطل على سبيل العموم والاستغراق أوغل في المعنى المقصود وأبلغ من إثبات الحكم لأن بيان جميعها لا يفي به أفهام الحقيقة وبيان البعض يؤذن بتناهي الحكمة ونفي البطلان والخلو عن الحكمة والفائدة تفيد أن كل جزء من أجزاء العالم علويه وسفليه متضمن للحكم حجة وآيات باهرة ثم أخبر سبحانه عنهم بتنزيهه عن الخلق باطلا خلوا عن الحكمة ولا معنى لهذا التنزيه عند النفاة فإن الباطل عندهم هو المحال لذاته فعلى قولهم نزهوه عن المحال لذاته الذى ليس بشئ كالجمع بين النقيضين وكون الجسم الواحد لا يكون في مكانين ومعلوم قطعاً أن هذا ليس مراد الرب تعالى بما نزه نفسه عنه وأنه لا يمدح أحد بتنزيهه عن هذا ولا يكون المنزه به مثلياً ولا حامداً ولم يخطر هذا بقلب بشر حتى ينكره الله على من زعمه ونسبه إليه وقال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) فنفي اللعب عن خلقه وأثبت أنه إنما خلقهما بالحق فجمع تعالى بين نفي اللعب الصادر عن غير حكمة وغاية محمودة وإثبات الحق المتضمن للحكم والغايات الحمودة والعواقب المحبوبة والقرآن مملوء من هذا بنفي العبث والباطل واللعب تارة وتنزيه الرب نفسه عنه تارة وإثبات الحكم الباهرة في خلقه تارة كيف يجوز أن يقال أنه لو عطل خلقه وتركهم سدى لم يكن ذلك قبيحا في العقل فإن عنيتم أنه يلحق إليه زمام الاختيار مع أمره ونهييه فهذا حق فإنه جعله مختاراً مأموراً منها وإن كان اختياره مخلوقا له تعالى إذ هو من جملة الحوادث الصادرة عن خلقه ولكن

فإنه تعالى يقدر على مقدورات تمنع بحكمته كقدرته على قيامه الساعة الآن وقدرته على إرسال الرسل بعد النبي ﷺ وقدرته على إبقائهم بين ظهور الأمة إلى يوم القيامة وقدرته على إمامة إبليس وجنوده وإراحة العالم منهم وقد ذكر سبحانه في القرآن قدرته على ما لا يفعله الحكمة في غير موضع كقوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم غداً ما من فوقكم أو من تحت أرجلكم) وقوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإننا على ذهاب به لقادرون) وقوله (أبحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه) أى نجعلها كخف البعير صفحة واحدة وقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها وإن كن حق القول منى) وقوله (لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) وقوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) فهذه وغيرها مقدورات له سبحانه وإنما امتنعت الحكمة ففى التى اقتضت عدم وقوعها فلا يلزم من كون الشيء مقدوراً أن يكون حسناً موافقاً للحكمة وعلى هذا فقد رتبه تبارك وتعالى على ما ذكرتم لا تقتضى حسنه وموافقته لحكمته ونحن إنما نتكلم معهم فى الثانى لا فى الأول فالكلام فى الحكمة يقتضى الحكمة والعناية غير الكلام فى المقدور فتعلق الحكمة شئاً ومتعلق القدرة شئاً وإنما لو يتم من إنكار الحكمة فلا يمكنكم التفريق بين المتعلقين بل قد اعترف سلفكم وأئمتكم بأن الحكمة لا تخرج عن صحة تعلقه بالمقدور ومطابقته لها أو تعلق العلم بالمعلوم ومطابقته له ولما بنيت على هذا الأصل لم يمكنكم الفرق بين موجب الحكمة وموجب القدرة فتوعرت عليكم الطريق وأجأتم أنفسكم إلى أصعب مضيق (الوجه الثالث والأربعون) قولكم أنه تعالى لو ألقى إلى العبد زمام الاختيار وتركه يفعل ما يشاء جرياً على رسوم طبعه المسائل إلى لذيذ الشهوات ثم أجزل له فى العطاء من غير حساب كان أرواحاً للعبد ولم يكن قبيحاً عند العقل (فيقال) لكم ما تعنون بإلقاء زمام الاختيار إليه أتعنون به أنه لا يكلفه ولا يأمره ولا ينهيه بل يجعله كالبهيمة السائمة المهمل أم تعنون به أنه يلقي إليه زمام الاختيار مع تكليفه وأمره ونهيه فإن غنيتكم الأول فهو من أقبح شئ فى العقل وأعظمه نقصاً فى الآدى ولو تركت رسوم طبعه لكأن البهائم أكمل منه ولم يكن مكروماً مفضلاً على كثير من خلق الله تفضيلاً بل كان كثير من المخلوقات أو أكثرها مفضلاً عليه فإنه يكون مصدوداً عن كماله الذى هو مستعد له قابل له وذلك أسوأ حالاً وأعظم نقصاً منع كمالاً ليس قابلاً له . . وتأمل حال الآدى الخلى ورسوم طبعه المتروك ودواعى هواه كيف تجده فى شرار الخليفة وأفسدها للعالم ولولا من يأخذ على يديه لأهلك الحرث والنسل وكان شر من الخنازير والذئاب والحيات فكيف يستوى فى العقل أمره ونهيه بما فيه صلاحه وصلاحه غيره به وتركه وما فيه أعظم فساداً وفساد النوع وغيره به وكيف لا يكون هذا القول قبيحاً وأى قبح أعظم

ولا ينكرون منكرا وينزو بعضهم على بعض نزو السكلاب والحر ويعدو بعضهم على بعض
عدو السباع والسكلاب والذئاب ويأكل قويمهم ضعيفهم لا يعرفون الله ولا يعبدونه ولا
يذكرونه ولا يشكرونه ولا يمجّدونه ولا يدينون بدين بل هم من جنس الأنعام السائمة ومن كابر
عقله في هذا سقط الكلام معه ونادى على نفسه بغاية الوفاة ومفارقة الإنسانية وما نظير
مطالبكم هذه المطالبة من يقول نحن نطالبكم بإظهار وجه المنفعة في خلق الماء والهواء والرياح
والتراب وخلق الأقوات والفواكه والأنعام بل في خلق الأسماع والأبصار والألسن والقوى
والأعضاء التي في العبد فإن هذه أسباب ووسائل ووسائل * وأما أمره وشرعه ودينه فكله غاية
وسعادة في المعاش والمعاد ولا ريب عنه العتلاء أن وجه الحسن فيه أعظم من وجه الحسن
في الأمور الحسية وإن كان الحسن هو الغالب على الناس وإنما غاية أكثرهم إدراك الحسن
والمنفعة في الحسيات وتقديمها وإظهارها على مدارك العقول والبصائر قال تعالى (ولكن أكثر
الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ولو ذهبنا نذكر وجوه
المحاسن المودعة في الشريعة لزادت على الآلاف ولعل الله أن يساعد بمصنف في ذلك مع أن هذه
المسألة بابه وقاعدته التي عليها بناؤه (الوجه الثالث والأربعون) قولكم أنه سبحانه لا يتضرر
بمعصية العبد ولا ينتفع بطاعته ولا تتوقف قدرته في الإحسان على فعل يصدر من العبد بل كما
أنعم عليه ابتداء فهو قادر على أن ينعم عليه بلا توسط (فيقال) هذا حق ولكن لا يلزم فيه
أن لا تكون الشريعة والأمر والنهي معلومة الحسن عقلا ولا شرعا ولا يلزم منه أيضا عدم
حسن التكليف عقلا ولا شرعا فذكركم هذا عديم الفائدة فإنه لم يقل منازعوكم ولا غيرهم أن
الله سبحانه يتضرر بمعاصي العباد ويفتخح بطاعتهم ولا أنه غير قادر على إيصال الإحسان
إليهم بلا واسطة ولكن ترك التكليف وترك العباد هملا كما لا نعام لا يؤمرون ولا ينهون
مناف لحكمته وحده وكمال ملكه والهيته فيجب تنزيهه عنه ومن نسبه إليه فما قدره حق قدره
وحكمته البالغة اقتضت الإيناع عليهم ابتداء وبواسطة الإيمان والواسطة في إيناعه عليهم أيضا
فهو المنعم بالوسيلة والغاية وله الحمد والنعمة في هذا وهذا .. يوضحه (الوجه الرابع والأربعون)
وهو أن إيناعه عليه ابتداء بالايحاد وإعطاء الحياة والعقل والسمع والبصر والنعمة التي سخرها
له إنما فعلها به لأجل عبادته إياه وشكره له كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا
ليعبدون) وقال تعالى (قل ما يعبا بكم ربى لولا دعائكم) وأصح الأقوال في الآية أن معناها
ما يصنع بكم ربى لولا عبادتكم إياه فهو سبحانه لم يخلقكم إلا لعبادته فكيف يقال بعد هذا أن
تكليفه إياهم عبادته غير حسن في العقل لأنه قادر على الإيناع عليهم بالجزاء من غير توسط
العبادة (الوجه الخامس والأربعون) أن قدره سبحانه على الشيء لا تنفى حكمته البالغة من وجوده

السليم لئنه شرع خلافه بل هي متعارضة بين العقل والهووى والعقل يقضى بحسنها ويدعو إليها ويأمر بمتابعتها جملة في بعضها وجملة وتفصيلاً في بعض والهووى والشهوة قد يدعوان غالباً إلى خلافها فالتعارض واقع بين مواجب العقول ومواجب الهوى وما جعل الله في العقل ولا في الفطرة استقباحاً لما أمر به ولا استحساناً لما نهى عنه وأن مال الهوى إلى خلاف أمره ونهيه فالعقل حينئذ يكون مأموراً مع الهوى مقهوراً في قبضته وتحت سلطانه (الوجه الحادى والأربعون) قولكم نطالبكم بإظهار وجه الحسن في أصل التكليف وإيجابه عقلاً وشرعاً (فيقال بالله العجب) أحتاج أمر الله تعالى لعباده بما فيه غاية صلاحهم وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ونهيه لهم عما فيه هلاكهم وشقاؤهم في معاشهم ومعادهم إلى المطالبة بحسنه ثم لا يقتصر على المطالبة بحسنه عقلاً حتى يطالب بحسنه عقلاً وشرعاً فأى حسن لم يأمر الله به ويستحبه لعباده ويندبهم إليه وأى حسن فوق حسن ما أمر به وشرعه وأى قيمه لم ينه عنه ولم يجر عباده من ارتكابه وأى قبح فوق قبح ما نهى عنه وهل في العقل دليل أوضح من علمه بحسن ما أمر الله به من الإيمان والإحسان وتفصيلها من العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وأنواع البر والتقوى وكل معروف تشهد الفطر والعقول به من عبادته وحده لاشريك له على أكمل الوجوه وأتمها والإحسان إلى خلقه بحسب الإمكان فليس في العقل مقدمات هي أوضح من هذا المستدل عليه فيجعل دليلاً له وكذلك ليس في العقل دليل أوضح من قبح ما نهى الله عنه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق والشرك بالله بأن يجعل له عدل من خلقه فيعبد كما يعبد ويحب كما يحب ويعظم كما يعظم ومن الكذب على الله وعلى أنبيائه وعباده المؤمنين الذى فيه خراب العالم وفساد الوجود فأى عقل لم يدرك حسن ذلك وقبح هذا فأحرى أن لا يدرك الدليل على ذلك .

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

فما أبى الله عز وجل حسناً إلا أمر به وشرعاً ولا قبيحاً إلا نهى عنه وحذر منه ثم أنه سبحانه أودع فى الفطر والعقول الإقرار بذلك فأقام عليها الحجة من الوجهين ولكن اقتضت رحمته وحكمته أن لا يعذبها إلا بعد إقامتها عليها برسله وإن كانت قائمة عليها بما أودع فيها واستشهدا عليها من الإقرار به وبوحدانيته واستحقاقه الشكر من عباده بحسب طاقتهم على نعمه وبما نصب عليها من الأدلة المتنوعة المستلزمة لإقرارها بحسن الحسن وقبح القبيح (الوجه الثانى والأربعون) إنا نذكر لكم وجهاً من الوجوه الدالة على وجه الحسن فى أصل التكليف والإيجاب فنقول لا ريب أن إلزام الناس شريعة يأتمرون بأوامرها التى فيها صلاحهم وينتفون عن مآهياها التى فيها فسادهم أحسن عند كل عاقل من تركهم هملاً كالأنعام لا يعرفون معروفها

الھوان وینال أولیائہ وحزبه ماہیہ لهم من الدرجات العلی والنعم المقیم فیکل تسلیط أعدائہ وأعدائهم علیهم عین کرامتهم وعین إھانہ أعدائهم فھذا من بعض حکمہ تعالی فی ذلك ووراء ذلك من الحکم مالا تبلغه العقول والأفهام وكان إغراقه وإھلاکھ وابتلاؤھ محض الحکمۃ والعدل فی حق أعدائہ ومحض الإحسان والفضل والرحمۃ فی حق أولیائہ فلھذا حسن منہ . ولعل الإغراق وتسلیط القتل علیهم أسهل الموتین علیهم مع ما فی ضمنہ من الثواب العظیم فیکون وقد بلغ حسن اختیارہ لهم إلی أن خفف علیهم الموتہ وأعاضهم علیہا أفضل الثواب فإلہ لا یجد الشہید من ألم القتل إلا کس القرصۃ .

ومن لم یمت بالسیف مات بغيرہ تنوعت الأسباب والموت واحد

فلیس إمامۃ أولیائہ شہداء بید أعدائہ إھانۃ لهم ولا غضبا علیهم بل کرامۃ ورحمۃ وإحسانا ولطفاً وكذلك الغرق والحرق والردم والتردی والبطن وغیر ذلك والمخلوق لیس بھذہ المثابۃ فلہذا قبح منہ الإغراق والإھلاک وحسن من اللطیف الخبیر (الوجہ الثامن والثلاثون) قولکم إذا کان لله فی إغراقه وإھلاکھ سبحانہ حکمۃ وسر لا نطلع علیہ نحن فقد رأوا مثله فی ترک إنقاذنا الغرقی کلام نغی رکتہ وفسادہ عن تکلف ردہ وهل یجوز أن یقال إذا کان لله الحکمۃ البالغۃ والأسرار العظیمۃ فی إھلاک من یھلکھ وابتلاء من یتبلیہ ولھذا حسن منہ ذلك فیلزم من هذا أن یقال یجوز أن یکون فی ترکنا انجاء الغرقی ونصر المظلوم وسد الخللہ وستر العورۃ حکماً وأسراً لا یعلمہا العقلاء والمناکدۃ فی البحوث إذا وصلت إلی هذا الحد سمجت ونقلت علی النفوس ومختمت القلوب والاسماع (الوجہ التاسع والثلاثون) قولکم العقلان من حیث الصفات النفسیۃ واحدۃ فیکیف یقبح أحدهما من فاعل ویحسن الآخر بمنزلۃ أن یقال السجود لله والسجود للنصنم واحد من حیث الصفات النفسیۃ فیکیف یقبح أحدهما ویحسن الآخر وهل فی الباطل أبطل من هذا الوهم فاجعل الله ذلك واحداً أصلاً ولیس إمامۃ الله لعبدہ مثل قتل المخلوق لہ ولا إجماعہ وإعراؤہ وابتلاؤہ مساویاً فی الصفات النفسیۃ لفعل المخلوق بالمخلوق ذلك ودعوی التساوی کذب وباطل فلا أعظم من التفاوت بینہما وهل یساوی هذا الفعل والفطرۃ فعل الله وفعل المخلوق (فیما لله) العجب أن یتناولھما اسم الفعل المشترك صاراً سواء فی الصفات النفسیۃ أترى حصل لھما هذا التساوی من جهة الفعلین والذی أوجب هذا الخیال الفاسد اتحاد المحل وتعلق الفعلین بہ وهل یدل هذا علی استواء الفعلین فی الصفات النفسیۃ ولقد وھت أركان مسألۃ بنیت علی هذا الشفا فإنہ شفا جرف ہار والله المستعان (الوجہ الأربعون) قولکم مواجب العقول فی أصل التکلیف معارضة الأصول (فیقال) معاذ الله من تعارضھما بل ہی متفقۃ الأصول مستقر حسنہا فی العقول والفطر مرکز ذلك فیہا فما شرع الله شیئاً فقال العقل (٦ - مفتاح ٢)

وتعالى مع عباده هو غاية الحكمة والإحسان والعدل في إقذارهم وإعطائهم ومنعهم وأمرهم ونهيهم فدعوى المدعى أن هذا نظير تخلية السيد بين عبيده وإمائه يفجر بعضهم ببعض ويسىء بعضهم بعضا أكذب دعوى وأبطلها والفرق بينهما أظهر وأعظم من أن يحتاج إلى ذكره والتنبية عليه والحمد لله الغنى الحميد فغناه التام فارق وحمده وملكه وعزته وحكمته وعلمه وإحسانه وعدله ودينه وشرعه وحكمه وكرمه ومحبه للغفرة والعفو عن الجناة والصفح عن المسيئين ونوبة التائبين وصبر الصابرين وشكر الشاكرين الذين يؤثرونه على غيره ويتطلبون مرضيه ويعبدونه وحده ويسيرون في عبيده بسيرة العدل والإحسان والنصائح ويجاهدون أعداءه فيمذلون دماءهم وأمواهم في محبه ومرضاته فيتميز الخبيث من الطيب ووليّه من عدوه ويخرج طبيبات هؤلاء وخبائث أولئك إلى الخارج فينرتب عليها آثارها المحبوبة للرب تعالى من الثواب والعقاب والحمد لأوليائه والذم لأعدائه وقد نبه تعالى على هذه الحكمة في كتابه في غير موضع كقوله تعالى (ما كان الله ليعذّب المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنه الله يجتبي من رسله من يشاء) هذه الآية من كنوز القرآن نبه فيها على حكمته تعالى المقتضية تميز الخبيث من الطيب وأن ذلك التمييز لا يقع إلا برسله فاجتبي منهم من شاء وأرسله إلى عباده فيتميز برسلاتهم الخبيث من الطيب والولى من العدو ومن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته من لا يصلح إلا للوقود وفى هذا تنبيه على الحكمة فى إرسال الرسل وأنه لا بد منه وان الله تعالى لا يليق به الإخلال به وان من جحد رسالة رسله فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ونسبه إلى ما لا يليق به كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) فتأمل هذا الموضع حق التأمل واعطه حظه من الفكر فلو لم يكن فى هذا الكتاب سواه لكان من أجل ما يستفاد والله الهادى إلى سبيل الرشاد الوجه السابع والثلاثون قوامكم أن الإغراق والإهلاك بنحس منه تعالى وهو أقبح شيء منا فكيف يدعون حسن إنقاذ الغرقى عقلا إلى آخره كلام فاسد جدا فان الإغراق والإهلاك من الرب تعالى لا يخرج قط عن المصلحة والعدل والحكمة فانه إذا أغرق أعداءه وأهلكهم وانتقم منهم كان هذا غاية الحكمة والعدل والمصلحة وإن أغرق أوليائه وأهل طاعته فهو سبب من الأسباب التى نصبها لموتهم وتخليصهم من الدنيا والوصول الى دار كرامته ومحل قربه ولا بد من موت على كل حال فاختر لهم أكمل الموتين وأنفعهما لهم فى معادهم ليوصلهم الى درجات عالية لا تنال الا بتلك الأسباب التى نصبها الله موصلا كإيصال سائر الأسباب الى مسبباتها ولهذا سلط على أنبيائه وأوليائه ما سلط عليهم من القتل وأذى الناس وظلمهم لهم وعدوانهم عليهم وما ذاك لوانهم عليه ولا لكرامة أعدائهم عليه بل ذاك عين كرامتهم وهوان أعدائهم عليه وسقوطهم من عينه لينالوا بذلك ما خلقوا له من مساكنتهم فى دار

ووصلت إليه أفهامهم وعلومهم وردوا علم ما غاب عنهم إلى أحكم الحاكمين ومن هو بكل شيء عليم وتحققوا بما علموه من حكمته التي بهرت عقولهم ان الله في كل ما خلق وأمر وأثاب وعاقب من الحكم البوالغ ما تنقص عقولهم عن إدراكه وأنه تعالى هو الغني الحميد العليم الحكيم فصدر خلقه وأمره وثوابه وعقابه غناه وحده وعلمه وحكمته ليس مصدره مشيئة مجردة وقدرة خالية من الحكمة والرحمة والمصلحة والغايات المحمودة المطلوبة له خلقا وأمرًا وأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل لسكمال حكمته ووقوع أفعاله كلها على أحسن الوجوه وأتمها على الصواب والسداد ومطابقة الحكم والعباد يستلون إذ ليست أفعالهم كذلك ولهذا قال خطيب الأنبياء شعيب صلى الله عليه وسلم (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) فأخبر عن عموم قدرته تعالى وأن الخلق كلهم تحت تسخيرته وقدرته وأنه آخذ بناصيتهم فلا يحيرهم لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم ثم عقب ذلك بالآخبار عن تصرفه فيهم وأنه بالعدل لا بالظلم وبالإحسان لا بالإساءة وبالاصلاح لا بالفساد فهو يأمرهم وينهاهم إحسانا إليهم وحماية وصيانة لهم ولا حاجة إليهم ولا بخلا عليهم بل جودا وكرما وإطفاورا ويثيبهم إحسانا وتفضلا ورحمة للمعاوضة واستحقاق منهم ودين واجب لهم يستحقونه عليه ويعاقبهم عدلا وحكمة لا تشفيا ولا مخافة ولا ظلما كما يعاقب الملوك وغيرهم بل هو على الصراط المستقيم وهو صراط العدل والإحسان في أمره ونهيه وثوابه وعقابه فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعتها من عموم القدرة وكمال الملك ومن تمام الحكمة والعدل والإحسان وما تضمنته من الرد على الطائفتين فإما من كنوز القرآن ولقد كتبت وشفقت لمن فتح عليه بفهمها فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد وتكليفه إياهم ما لا يطيقون وينفي العيب من أفعاله وشرعه ويثبت لها غاية الحكمة والسداد ردا على منكري ذلك وكون كل دابة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها ينفي أن لا يقع في ملكه من أحد المخلوقات شيء بغير مشيئته وقدرته وأن من ناصيته بيد الله وفي قبضته لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحركه ولا يفعل إلا بأقداره ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى ردا على منكري ذلك من القدرية فالطائفتان ما وفوا الآية معناها ولا قدروها حق قدرها فهو سبحانه على صراط مستقيم في عطاءه ومنعه وهدايته وإضلاله وفي نفعه وضره وعافيته وبلائه وإغناؤه وإفقاره وإعزازه وإذلاله وإنعامه وانتقامه وثوابه وعقابه وأحيائه وأماته وأمره ونهيه وتحليله وتحريمه وفي كل ما يخلق وكل ما يأمر به وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم ونظير هذه الآية قوله تعالى (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فالمثل الأول للصنم وعابديه والمثل الثاني ضربه الله تعالى لنفسه وأنه يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فكيف يسوى بينه وبين الصنم الذي له مثل السوء فافعله الرب تبارك

به غايات محمودة محبوبة لله وهي ملزومة لإفادار العباد وتمكينهم من الطاعة والمعصية ووجود الملزوم بدون اللازم محال وقد نهينا على شيء يسير من الحكم المطلوبة والغايات المحمودة فيما سلف من هذا الفصل وفي أول الكتاب فلو أن الرب تعالى خلق خلقه بمنوعين من المعاصي غير قادرين عليها بوجه لم يكن لأرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر والنهي والثواب والعقاب سبب يقتضيه ولا حكمة تستدعيه وفي ذلك تعطل الأمر جملة بل تعطيل الملك والحمد والرب تعالى له الخلق والأمر وله الملك والحمد والغايات المطلوبة والعواقب المحمودة التي لأجلها أنزل كتبه وأرسل رسله وشرع شرائعه وخلق الجنة والنار ووضع الثواب والعقاب وذلك لأ يحصل إلا بأقدار العباد على الخير والشر وتمكينهم من ذلك فأعطاهم الأسباب والآلات التي يتمكنون بها من فعل هذا وهذا فلم نأحسن منه تبارك وتعالى التخلية بين عباده وبين ما هم فاعلوه وقبح من أحدها أن يخلى بين عبده وبين الإفساد وهو قادر على منعهم هذا مع أنه سبحانه لم يخل بينهم بل منعهم منه وحرمه عليهم ونصب لهم العقوبات الدنيوية والأخروية على القبائح وأحل لهم من بأسه وعذابه وانتقامه ما لا يفعله السيد من المخلوقين بعبه لئيمهم ويزجرهم فقولكم أنه خلّى بين عباده وبين إفساد بعضهم بعضاً وظلم بعضهم بعضاً كذب عليه فإنه لم يخل بينهم شرعاً ولا قدراً بل حال بينهم وبين ذلك شرعاً أتم حيولة ومنعهم قدراً بحسب ما تقتضيه حكمته الباهرة وعلمه المحيط وخلق بينهم وبين ذلك بحسب ما تقتضيه حكمته وشرعه ودينه فمنعه سبحانه لهم حيولته بينهم وبين الشر أعظم من تخليته والقدر الذي خلاه بينهم في ذلك هو ملزوم أمره وشرعه ودينه فالذي فعله في الطرفين غاية الحكمة والمصلحة ولا نهاية فوّه لا فتراح عقل ولو خلّى بينهم كما زعمتم لسكانوا بمنزلة الأنعام السائمة بل لو تركهم ودواعي طباعهم لأهلك بعضهم بعضاً وخرب العالم ومن عليه بل ألجمهم لجام العجز والمنع من كل ما يريدون فلو أنه خلّى بينهم وبين ما يريدون لفسدت الخليقة كما ألجمهم بلجام الشرع والأمر ولو منعهم جملة ولم يمكنهم ولم يقدرهم لتعطّل الأمر والشرع جملة وانتقت حكمة البعثة والإرسال والثواب والعقاب فأى حكمة فوق هذه الحكمة وأى أمر أحسن مما فعله بهم ولو أعطى الناس هذا المقام بعض حقه لعلموا أنه مقتضى الحكمة البالغة والقدرة التامة والعلم المحيط وأنه غاية الحكمة ومن فتح له بفهم في القرآن رآه من أوله إلى آخره يذبه العقول على هذا ويرشدها إليه ويدلها عليه وأنه يتعالى ويتنزه أن يكون هذا منه عبثاً أو سدى أو باطلاً أو بغير الحق أو لأمعنى ولا لداع وباعث وإن مصدر ذلك جميعه عن عزّه وحكمته ولهذا كثيراً ما يقرن تعالى بين هذين الاسمين العزيز الحكيم في آيات التشريع والتكوين والجزاء ليدل عباده على أن مصدر ذلك كله عن حكمة بالغة وعزة قاهرة ففهم الموفقون عن الله عز وجل مراده وحكمته وانتهوا إلى ما وقفوا عليه

يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) يعنى إذا كان لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر على شيء وغنى موسع عليه ينفق بما رزقه الله فكيف تجعلون الصنم الذى هو أسوأ حالا من هذا العبد شريكاً لله وكذلك إذا كان لا يستوى عندكم رجلان أحدهما أبكم لا يعقل ولا ينطق وهو مع ذلك عاجز لا يقدر على شيء وآخر على طريق مستقيم فى أقواله وأفعاله وهو أمر بالعدل عامل به لأنه على صراط مستقيم فكيف تسوون بين الله وبين الصنم فى العبادة ونظائر ذلك كثيرة فى القرآن وفى الحديث كقوله فى حديث الحارث الأشعري وإن الله أمركم أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك كشل رجل اشترى عبداً من خالص ماله وقال له اعمل وأد إلى فكان يعمل ويؤدى إلى غيره فأبكم يجب أن يكون عبده كذلك فالله سبحانه لا تضرب الأمثال التى يشترك هو وخلقها فيها لا شمولاً ولا تمثيلاً وإنما يستعمل فى حقه قياس الأولى كما تقدم (الوجه الخامس والثلاثون) إن النفاة إنما ردوا على خصومهم من الجهمية المعتزلة فى إنكار الصفات بقياس الغائب على الشاهد فقالوا العالم شاهدنا من له العلم والمتكلم من قام به الكلام والحى والمريد والقادر من قام به الحياة والإرادة والقدرة ولا يعقل إلا هذا قالوا ولأن شرط إطلاق الاسم شاهداً وجود هذه الصفات ولا يستحق الاسم فى الشاهد إلا من قامت به فكذلك فى الغائب قالوا ولأن شرط العلم والقدرة والإرادة فى الشاهد الحياة فكذلك فى الغائب قالوا ولأن علم كون العالم عالماً شاهداً وجود العلم وقيامه به فكذلك فى الغائب فقالوا بقياس الغائب على الشاهد فى العلة والشرط والاسم والحد فقالوا حد العالم شاهداً من قام به العلم فكذلك غائبا وشرط صحة إطلاق الاسم عليه شاهداً قيام العلم به فكذلك غائبا وعليه كونه عالماً شاهداً قيام العلم به فكذلك غائبا فكيف تنكرون هنا قياس الغائب على الشاهد وتحتجون به فى مواضع أخرى فأى تناقض أكثر من هذا فإن كان قياس الغائب على الشاهد باطلاً بطل احتجاجكم علينا به فى هذه المواضع وإن كان صحيحاً بطل ردكم فى هذا الموضع فأما أن يكون صحيحاً إذا استدللتم به باطلاً إذا استدلل به خصوصكم فهذا أقبح التططيف وقبحه ثابت بالعقل والشرع .

(الوجه السادس والثلاثون) قولكم إن الله خلق بين العباد وظلم بعضهم بعضاً وأن ذلك ليس بقبيح منه فإنه قبيح منافذ لك فاسد على أصل التكليف فإن التكليف إنما يتم بإعطاء القدرة والاختيار والله تعالى قد أقدر عباده على الطاعات والمعاصى والصالح والفساد وهذا الإقدار هو مناط الشرع والأمر والنهى فلولاه لم يكن شرع ولا رسالة ولا ثواب ولا عقاب وكان الناس بمنزلة الجمادات والأشجار والنبات فلو حال سبحانه بين العباد وبين القدرة على المعاصى لارتفع الشرع والرسالة والكليف وانتفت فوائد البعثة ولزم من ذلك أو ازم لا يحجبها الله وتعطلت

لله وشهادتك بالقسط وأن لا يحملك بغض منازعك وخصومك على جحد دينهم وتقبيح محاسنهم وترك العدل فيهم فإن الله لا يعتد بتعب من هذا نشاء ولا يجدى عليه نفعا أحوج ما يكون إليه والله يحب المقسطين ولا يحب الظالمين ﴿الوجه الثالث والثلاثون﴾ قوله كم أن مستند الحكم يقبح الكذب غائبا على الشاهد وهو فاسد ﴿فيقال﴾ الرب تعالى لا يدخل مع خلقه في قياس تمثيل ولا قياس شهود يستوى أفراداه فهذان الفرعان من القياس يستحيل ثبوتهما في حقه وأما قياس الأولى فهو غير مستحيل في حقه بل هو واجب له وهو مستعمل في حقه عقلا ونقلأ أما العقل فكاستدلنا على أن معطى السكال أحق بالسكال فمن جعل غيره سميعاً بصيراً عالماً متكلماً حياً حكماً قادراً مريداً رحيماً محسناً فهو أولى بذلك وأحق منه ويثبت له من هذه الصفات أكملها وأتمها وهذا مقتضى قولهم كمال المعلول مستفاد من كمال علته ولكن نحن ننزه الله عز وجل عن إطلاق هذه العبارة في حقه بل نقول كل كمال ثبت للمخلوق غير مستلزم للنقص بخالفه ومعطيه إياه أحق بالإتصاف به وكل نقص في المخلوق فالخالف أحق بالتنزه عنه كالكذب والظلم والسفه والعيوب بل يجب تنزيه الرب تعالى عن كل النقائص والعيوب مطلقاً وإن لم يتنزه عنها بعض المخلوقين وكذلك إذا استدللنا على حكمته تعالى بهذه الطرائق نحو أن يقال إذا كان الفاعل الحكيم الذي لا يفعل فعلاً إلا للحكمة وغاية مطلوبه له من فعله أكمل ممن يفعل لالغاية ولا للحكمة ولا لأجل عاقبة محمودة وهى مطلوبة من فعله في الشاهد ففي حقه تعالى أولى وأحرى فإذا كان الفعل للحكمة كالآلة فينا فالرب تعالى أولى به وأحق وكذلك إذا كان التنزه عن الظلم والكذب كالآلة في حقنا فالرب تعالى أولى وأحق بالتنزه عنه وبهذا ونحوه ضرب الله الأمثال في القرآن وذكر العقول ونبيها وأرسلها إلى ذلك كقوله (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً) فهذا مثل ضربه يتضمن قياس الأول يعنى إذا كان المملوك فيكم له ملك مشترك فيه وهم متنازعون وملوك آخر له مالك واحد فهل يكون هذا وهذا سواء فإذا كان هذا ليس عندهم كمن له رب واحد ومالك واحد فكيف ترضون أن تجعلوا لأنفسكم آلهة متعددة تجعلونها شركاء لله تحبونها كما يحبونه وتخافونها كما يخافونه وترجونها كما يرجونها وكقوله تعالى (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) يعنى أن أحدهم لا يرضى أن يكون له بنت فكيف تجعلون لله مالا ترضونه لأنفسكم وكقوله (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرا وجهراً هل يستويون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل

(الوجه الثاني والثلاثون) قولكم أن غاية هذا أن يدل على قبح الكذب وحسن الصدق .
شاهداً ولا يلزم منه حسنه وقبحه وغائباً إلا بطريق قياس الغائب على الشاهد وهو باطل
لوضوح الفرق واستنادكم في الفرق إلى ما ذكرتم من تخليه الله بين عباده يوجب بعضهم في
بعض ظلمها وإفساداً وقبح ذلك مشاهد (فيالله العجب) كيف يجوز العقل التزام مذهب ملتزم
معه جواز الكذب على رب العالمين وأصدق الصادقين وأنه لا فرق أصلاً بالنسبة إليه بين
الصدق والكذب بل جواز الكذب عليه سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً كجواز
الصدق وحسنه لحسنه وهل هذا إلا من أعظم الإفك والباطل ونسبته إلى الله تعالى جوازاً
كنسبة ما لا يليق بحلاله إليه من الولد والزوجة والشريك بل لنسبة أنواع الظلم والشر إليه
جوازاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (فمن أصدق من الله حديثاً ومن أصدق من الله
قيلاً) وهل هذا إلا إفك المفترى إلا رافع للوثوق بأخباره ووعده ووعيده وتجويزه عليه
وعلى كلامه ما هو أقبح القبايح التي تنزه عنها بعض عبيده ولا يليق به فضلاً عنه سبحانه فلو
التزم كل إلزام بلزوم مسمى الحسن والقبح العقليين لكان أسهل من التزام هذا الإد التي
تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا ولا نسبة في القبح بين الولد
والشريك والزوجة وبين الكذب ولهذا فطر الله عقول عباده على الازدراء والذم والمقت
للكاذب دون من له زوجة وولد وشريك فتزده أصدق الصادقين عن هذا القبيح كتنزيهه عن
الولد والزوجة والشريك بل لا يعرف أحد من طوائف هذا العالم جواز الكذب على الله
لما فطر الله عقول البشر وغيرهم على قبحه ومقت فاعله وخسته ودناءته . ونسبة طوائف
المشركين الشريك والولد إليه لما لم يكن قبحه عندهم كقبح الكذب وكفى بمذهب بطلانا وفسادا
هذا القول العظيم والإفك المبين لازمه ومع هذا فأهل لا يتحاشون من التزامه فلو التزم القائل
أن يذهب الذم كان خيراً له من هذا ونحن نستغفر الله من التقصير في رد أهل المذهب القبيح
ولكن ظهور قبحه للعقول والفطر أقوى شاهد على رده وإبطاله ولقد كان كافينا من رده
نفس تصويره وعرضه على عقول الناس وفطرهم فليستأمل اللبيب الفاضل ماذا يعود إليه نصر
المقالات والتعصب لها والتزام لوازمها وإحسان الظن بأربابها بحيث يرى مساوئهم محاسن
وإساءة الظن بخصومهم بحيث يرى محاسنهم مساوئهم كم أفسد هذا السلوك من فطرة وصاحبها
من الذين يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ولا يتعجب من هذا فإن مرآة القلب
لا يزال يتنفس فيها حتى يستحکم صداؤها فليس يبدع لها أن ترى الأشياء على خلاف
ما هي عليه فبدأ الهدى والفلاح صقال تلك المرأة ومنع الهوى من التنفس فيها
وفتح عين البصيرة في أقوال من يسى الظن بهم كما يقبحها في أقوال من يحسن الظن به وقيامك

الأعضاء لسان كذب وكف قد أزيلت بالكذب من دول وممالك وخربت به من بلاد واستلبت به من نعم وتعطلت به من معاش وفسدت به مصالح وغرست به عداوات وقطعت به مودات واقترب به غنى وذل به عزيز وهتكت به مصونة ورميت به محصنة وخلت به دور وقصور وعمرت به قبور وأزيل به أنس واستجلبت به وحشة وأفسد به بين الإبن وأبيه وغاض بين الأخ وأخيه وأحال الصديق عدواً مبيناً ورد الغنى العزيز مسكيناً وكف فرق بين الحبيب وحبيبه فأفسد عليه عيشته ونقص عليه حياته وكف جلا عن الأوطان وكف سود من وجوه وطمس من نور وأعمى من بصيرة وأفسد من عقل وغير من فطرة وجلب من معرة وقطعت به السبل وعفت به معالم الهداية ودرست به من آثار النبوة وخفيت به من مصالح العباد في المعاش والمعاد وهذا أضعافه ذرة من مفسده وجناح بعوضة من مضاره ومصالحه إلا فاجلبه من غضب الرحمن وحرمان الجنان وحلول دار الهوان أعظم من ذلك وهل ملئت الجحيم إلا بأهل الكذب الكاذبين على الله وعلى رسوله وعلى دينه وعلى أوليائه المكذبين بالحق حمية وعصبية جاهلية وهل عمرت الجنان إلا بأهل الصدق الصادقين المصدقين بالحق قال تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذا جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين) والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) وإذا كانت هذه حال الكذب والصدق فمن أبطل الباطل دعوى تساويهما وإن العقل إنما يؤثر الصدق لتوهم اقترانه بالثناء وإنما يتجنب الكذب لتوهم اقترانه بالقبح كتوهم اقتران اللسع في الحبل المرقش ورد استقباح هذه المفساد والمقايح التي لا أقبح منها إلى مجرد وهم باطل شبه نفرة الطبع عن الحبل المرقش ونفس العلم بهذه المقالة كاف في الجزم ببطلانها ولو ذهبنا نعدد قبائح الكذب الناشئة من ذاته وصفاته لزادت عن الآلف وما من عاقل إلا وعنده العلم ببعض ذلك علماً ضرورياً مركزاً في فطرته فما سوى الله بينه وبين الصدق أبداً ودعوى استوائهما كدعوى استواء النور والظلمة والكفر والإيمان وخراب العالم وإهلاك الحرث والنسل وعمارتها بل كدعوى استواء الجوع والشرع والري والظما والفرح والغم وأنه لا فرق عند العقل بين علمه بهذا وهذا (الوجه الحادى والثلاثون) قولكم الصدق والكذب متنافيان ومن المحال تساوى المتنافيين في جميع الصفات إلى آخره إقرار منكم بالحق ونقض لما أصلتموه فلمهما إذا كانا متنافيين ذاتاً وصفاتاً لم يرجع الفرق بينهما استحساناً واستقباحاً إلى مجرد العادة والمنشأ والوباء أو مجرد التدين بالشرائع بل يكون مرجع الفرق إلى ذاتهما وأن ذات هذا مقتضية لحسنه وذات هذا مقتضية لقبحه وهذا هو عين العيوب لولا أنكم لا تثبتون علمه وتصريحون بأن الفرق بينهما سببه العادة والتربية والمنشأ والتدين بشرائع الأنبياء حتى لو فرض انتفاء ذلك لم يؤثر الرجل الصدق على الكذب وهل في التناقض أقبح من هذا .

إلى ذلك المكان مع مساواته لجميع الأمكنة عنده وكذلك حنينه إلى وطنه ومحبة له وكذلك حنينه إلى إلفه من الناس وغيرهم فإن هذا لا يقع منه مع تساوى تلك الأماكن والأشخاص عنده بل لظنه اختصاصهما بأمر لا توجد في سواهما فترتب ذلك الحب والميل على هذا الظن ثم له حالان . أحدهما أن يكون كما ظنه بل ذلك المكان أو الشخص مساو لغيره وربما يكون غيره أكمل منه في الأوصاف التي تقتضى حبه والميل إليه فهذا إذا ساطع العقل الحس على سبب ميله وحبه علم أنه مجرد إلف أو عادة أو تذكر أو تخيل وهذا الوهم مستند إلى ما تقرر في العقل من أن اختصاص الحب والميل بالشيء دون غيره لما اختص به من الصفات التي اقتضت ذلك وكذلك تملق النفرة والبغض به ثم تغلب الوهم حتى يتخيل أن تلك الصفات باينة عن المحل وإيست فيه بل يكون المحل مقرونا بتلك الصفات فيحب ويبغض لأجل تلك المقارفة فمقارن المحبوب محبوب ومقارن المكروه مكروه كقوله

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقول الآخر

إذا ذكروا وطنهم ذكرتهم وعهوداً جرت فيها فحنوا لذلالك (١)

(الوجه التاسع والعشرون) قوالكم إن الصبر على السيف في ترك كلمة الكفر لا يستحسنه العقل . لولا الشرع بل ربما استعجوه إنما يستحسن الثواب أو الثناء بالشجاعة وكذلك بالصبر على حفظ السر والوفاء بالعهد لما في ذلك من المصالح فإن فرض حيث لا تنافيه فقد وجد مقرونا بالثناء فيبقى ميل الوهم بالمقرون (فيقال) لكم استحسان الشرع له مطابق لاستحسان العقل لا يخالف وكذلك انتظار الثواب به وهو حسنة في نفسه وكذلك المصالح المترتبة على حفظ السر والوفاء بالعهد هي لما قام بذوات هذه الأفعال من الصفات التي أوجبت المصالح إذ لو ساوت غير هالم تكن باقتضاء المصلحة أولى منها (وقوالكم) أنه إذا وجب فرض حيث لا ثناء ينفي ميل الوهم بالمقارنة فقد تقدم أن هذا الميل تبع للحقيقة وأنه يستحيل وجوده في فعل لا تقتضى ذاته المصلحة والاستحسان . وأن حصول الوهم المقارن تبع للحقيقة الثابتة لاستحالة حصول هذا الوهم في فعل لا تكون ذاته منشأ الأمر الموهوم فيتوهم الذهن حيث تلتقي الحقيقة (الوجه الثلاثون) قوالكم إن من عرضت له حاجة وأمكن قضاءها بالصدق والكذب وأنه إنما يؤثر الصدق لأنه وجد مقرونا بالثناء فهو يؤثر لما يقترن به من الثناء (جوابه) أيضا ما تقدم وأن اقترانه بالثناء لما اختص به من الصفات التي اقتضت الثناء على فاعله كيف والكذب متضمن لفساد نظم العالم ولا يمكن قيام العالم عليه لافي معاشهم ولا في معادهم بل هو متضمن لفساد المعاش والمعاد ومفاسد الكذب اللازمة له معلومة عند خاصة الناس وعامتهم كيف وهو منشأ كل شر وفساد

(١) هكذا في الأصل ولم يكن بيدنا من أول الباب إلا أصلا واحدا فإحرق.

البواعث والدواعى وأسباب الميول التى تحصل لفاعل الإحسان ومنقذ الغريق والحريق وما ينجى الهالك لا ينافى ما عليه هذه الأفعال فى ذاتها من الصفات التى تقتضى حسنها وقبح أضدادها (الوجه الخامس والعشرون) قولاكم أنه يقدر نفسه فى تلك الحال وتقديره غيره معرضان الإنقاذ فيستتبعه منه لمخالفته غرضه فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهم فيقال هذا القبح المتوهم إنما نشأ عن القبح المحقق فى ترك الإحسان إليه مع قدرته عليه وعدم تضرره به فالقبح محقق فى ترك إنقاذه ومتوهم فى تصويره نفسه بتلك الحال وعدم إنقاذه غيره له فلو لا تلك الحقيقة لم يحكم العقل بهذا القبح الموهوم وكون الإنقاذ موافقا للغرض وتركه مخالفا له لا ينبغي أن يكون فى ذاته حسنا وقبيحا ملائما وافق الغرض أو خالفه لما اتصفت به ذاته من الصفات المقتضية لهذه الموافقة والمخالفة (الوجه السادس والعشرون) قولاكم فلو فرض هذا فى بهيمة أو شخص لارفة فيه فيبقى أمر آخر وهو طلب الثناء على إحسانه فيقال طلب الثناء يقتضى أن هذا الفعل مما يتعلق به الثناء وما ذاك إلا لأنه فى نفسه على صفة تقتضى الثناء على فاعله ولو كان هذا الفعل مساويا لضده فى نفس الأمر لم يتعلق الثناء به والذم بضده ، وفعله لتوقع الثناء لا ينفى أن يكون على صفة لأجلها استحق فاعله الثناء بل هو باقتضاء ذلك أولى من نفيه (الوجه السابع والعشرون) قولاكم فإن فرض فى موضع يستحيل أن يعلم فيبقى ميل وترجيح يضاهى نفرة طبع السليم عن الحبل وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بأثناء فيظن أن الثناء مقرون بها بكل حال كما أنه لما رأى الأذى مقرونا بصورة الحبل وطبعه ينفر عن الأذى فينفر عن المقرون به فالمنفرون بالذيذ لذيد والمنفرون بالمكروه مكروه (فيقال يا عجبا) كيف يرد أعظم الإحسان الذى فطر الله عقول عباده وفطرهم على إحسانه حتى لو تصور نطق الحيوان البهيم لشهد باستحسانه إلى مجرد وهم وخيال فاسد يشبه نفرة طبع الرجل السليم عن حبل مر قش • فتأمل كيف يحمل نفرة الآراء المتقلدة وبعض مخالفتها على أمثال هذه الشنع وهل سوى الله سبحانه فى العقول والفطر بين إنقاذ الغريق والحريق وتخليص الأسير من عدوه وإحياء النفوس وبين نفرة طبع السليم عن حبل مر قش لتوهمه أنه حية وقد كان مجرد تصور هذه الشبهة كافيا فى العلم ببطالانها ولما كنا زدنا الأمر إيضاحا وبيانا (الوجه الثامن والعشرون) قولاكم الإنسان إذا جالس من عشقه فى مكان فإذا انتهى إليه أحس فى نفسه تفرقة بين ذلك المكان وغيره واستشهادكم على ذلك بقول الشاعر أمر على الديار ديار ليلي • وقوله • وحبيب الرجال إليهم • (فيقال) لا ريب أن الأمر هكذا ولكن هل يلزم من هذا استواء الصدق والكذب فى نفس الأمر واستواء العدل والظلم والبر والفجور والإحسان والإساءة بل هذا المثل نفسه حجة عليكم فإنه لم يعمل طبعه

كل مسألة فإنه عاقل وقد شهد عقله بها بخلاف قولكم وكفى بهذا فساداً وبطلاناً وكفى برد العقول وسائر العقلاء له والحمد لله رب العالمين .

(الوجه الثالث والعشرون) قولكم ان الملك العظيم اذا رأى مسكيناً مشرفاً على الهلاك استحسن انقاذه والسبب في ذلك دفع الأذى الذى يلحق الإنسان من رقة الجنسية وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه إلى آخره كلام في غاية الفساد فان مضمونه أن هذا الإحسان العظيم والتنزل من مثل هذا الملك القادر إلى الإحسان إلى مجرود مضرور قد مسه الضرر وتقطعت به الأسباب وانقطعت به الحيل ليس فعلاً حسناً في نفسه ولا فرق عند العقل بين ذلك وان يلقي عليه حجراً يغرقه وإنما مال إليه طبعه لرقة الجنسية ولتصويره نفسه في تلك الحال واحتياجه إلى من ينقذه والافلو جردنا النظر إلى ذات الفعل وضرربنا صفحا عن لوازمه وما يقترن به ويبحث عليه لم يقض العقل بحسنه ولم يفرق بينه وبين القاء حجر عليه حتى يغرقه هذا قول يكفى في فساده مجرد تصوره وليس في المقدمات البدئية ماهو أجلي وأوضح من كون مثل هذا الفعل حسناً لذاته حتى يحتج بها عليه فان الاحتجاج إنما يكون بالأوضح على الأخفى فاذا كان المطلوب المستدل عليه أوضح من الدليل كان الاستدلال عناء وكلفة ولكن تصور الدعوى ومقابلتها تصويراً مجرداً يعرضان على العقول التي لم يسبق إليها تقليد الآراء ولم يتواطأ عليها ويتلقاها صاغر عن كبر وولد عن والد حتى نشأت معها بنشئها فهي تسعى بنصرتها بما دب ودرج من الأدلة لاعتقادها أولاً أنها حق في نفسها لإحسانها الظن بآبابها فلو تجردت من حب من ولدته وبغض من خالفته وجردت النظر وصابرت العلم وتابعت المسير في المسئلة إلى آخرها لأوشك أن تعلم الحق من الباطل والعكس * حبك الشيء يعنى ويصم * والناظر بعين البغض يرى المحاسن مساوى هذا في إدراك البصر مع ظهوره ووضوحه فكيف في إدراك البصيرة لاسيما إذا صادف مشكلاً فهذه بلية أكثر العالم .

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فاني لا إخالك ناجياً

(الوجه الرابع والعشرون) أن اقتران هذه الأمور التي ذكرتموها من رقة الجنسية وتصور نفسه بصورة من يريد انقاذه ونحوها هي أمور تقترن بهذا الإحسان فيقوم الباعث على فعله ولا يوجب تجرده عن وصف يقتضى حسنه وإن يكون ذاته مقتضية لحسنه وإن اقترن بفعل هذا الأمور وما مثلكم في ذلك إلا كمثل من قال إن تناول الأطعمة والأغذية والأدوية ليس حسناً لذاته فانه يقترن بمتناولها من لذة المرة لضم المعدة ما يوجب نزوعها إلى طلب الغذاء لقيام البنية وكذلك الأدوية وغيرها ومعلوم ان هذه البواعث والدواعي وأسباب الميول لا ينافي الاقتضاء الذاتي وقيام الصفات التي تقتضى الانتفاع بها فكذلك تلك

الوهم الكاذب وإذا تأمل الطرف محاسن الجميلة البديعة الجمال تبين أن نفرة عنه لفيح اسمها وهم فاسد وإذا سلط العقل الصريح على الميت تبين أن نفرة الرجل عنه لتوهم حركته وثورانه خيال باطل وهم فاسد وهكذا نظائر ذلك . . أفترى يلزم من هذا أنا إذا سلطنا العقل الصريح على الكذب والظلم والفواحش والإساءة إلى الناس وكفران النعم وضرب الوالدين والمبالغة في إهانتهم وسبهم وأمثال ذلك تبين أن حكمه بقبحها وهم منه ليكون نظير ما ذكرتم من الأمثلة وهل في الاعتبار أفسد من اعتباركم هذا فإن الحكم فيما ذكرتم قد تبين بالعقل الصريح والحس أنه حكم وهمي ونحن لا ننزع فيه ولا عاقل لأننا إن سلطنا عليه العقل والحس ظهر أن مستنده الوهم وأما في القضايا التي ركب في العقول والفطر حسننها وقبحها فإننا إذا سلطنا العقل الصريح عليها لم يحكم لها بخلاف ما هي عليه أبداً إلا أن يلبسوا إلى دبوس السارق وهو الصدق المتضمن هلاك والى الكذب المتضمن عصمته وليس معكم ما تصولون به سواء وقد بينا حقيقة الأمر فيه بما فيه كفاية وحق لو كان الأمر فيهما كما ذكرتم قطعاً لم يجوز أن يبطل بهما ماركبه الله في العقول والفطر وألزمها إياه التزاماً لا انفكاك لها عنه من استحسان الحسن واستقباح القبيح والحكم بقبحه والفرقة العقلية التابعة لذواتهما وأوصافهما بينهما وقد أنكر الله سبحانه على العقول التي جوزت أن يجعل الله فاعل القبيح وفاعل الحسن سواء ونزه نفسه عن هذا الظن وعن نسبة هذا الحكم الباطل إليه ولولا أن ذلك قبيح عقلاً لما أنكره على العقول التي جوزته فإن الإنكار إنما كان يتوجه عليهم بمجرد الشرع والخبر لا بافساد ما ظنوه عقلاً . ولا يقال فلو كان هذا الحكم باطلاً قطعاً لما جوزته أو أمك العقلاء لأن هذا احتجاج بعقول أهل الشرك الفاسدة التي عابها الله وشهد عليهم بأنهم لا يعقلون وشهدوا على أنفسهم بأنهم لو كانوا يسمعون أو يعقلون ما كانوا في أصحاب السعير وهل يقال إن استحسان عبادة الأصنام بعقولهم واستحسان التشايت والسجود للقمر وعبادة النار وتعظيم الصليب يدل على حسننها لاستحسان بعض العقلاء لها ؟ فان قيل فهذا حجة عليكم فان عقول هؤلاء قد قضت بحسنها وهي أقبح القبايح ؟ قيل ما مثلنا ومثلكم في ذلك إلا كمثل من قال إذا كان الأحوال يرى القمر اثنين لم يبق لنا وثوق بكون صحيح الفهم إذا ذاق الشيء المر يدوقه عذبا وحلوا وإذا كان صاحب الفهم السقيم يعيب القول الصحيح ويشهد ببطلانه لم يبق لنا وثوق بشهادة صاحب الفهم المستقيم بصحته إلى أمثال ذلك فإذا كانت فطرة أمة من الأمم وشرذمة من الناس وعقولهم قد فسدت فهل يلزم من هذا إبطال شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة . ولو صح الحكم هذا الاعتراض لبطل استدلالكم على كل منازع الحكم في

والعوائد والإلف فما الظن بالأمور السكينة العقلية التي لا تختلف إنما هي نفى وإثبات
 (الوجه الحادى والعشرون) قولكم من منارات الغلط إنما هو مخالف للغرض في
 جميع الأحوال إلا في حالة نادرة بل لا يلتفت الوهم إلى تلك الحالة النادرة بل لا يخطر
 بالبال فيقضى بالقبح مطلقا لاستيلاء قبحه على قلبه وذهاب الحالة النادرة عن ذكره فحكمه
 على الكذب بأنه قبيح مطلقا وعقلية (١) عن الكذب يستفاد به عصمة دم نبى أوولى
 وإذا قضى بالقبح مطلقا واستمر عليه مرة وتكرر ذلك على سمعه ولسانه انغرس في قلبه
 استنباح مستند إلى آخر فضعفوه بعد الأطالة أنه لو كان الكذب قبيحا لذاته لما تخلف
 عليه القبح ولكنه يتخلف إذا تضمن عصمة دم نبى ففى هذه الحالة ونحوها لا يكون قبيحا
 وهى حالة نادرة لا تكاد تخطر بالبال فيقضى العقل بقبح الكذب مطلقا ويغفل عن هذه
 الحالة وهى تنافى حكمه بقبحه مطلقا ثم ترك وينشأ على ذلك الاعتقاد فيظن أن قبحه لذاته
 مطلقا وليس كذلك وهذا بعد تسليمه لا يمنع كونه قبيحا لذاته وإن تخلف القبح عنه
 لمعارض راجح كما أن الاغذاء بالميتة والدم والحلم الخنزير يوجب نباتا خبيثا وإن تخلف
 عنه ذلك عند التخمصة كيف وقد بينا أن القبح لا يتخلف عن الكذب أصلا وأما إذا
 تضمن عصمة ولى فالحسن إنما هو التعريض . والصدق لا يقبح أبداً وإنما القبح الإعلام
 به وفرق بين الخبر والإخبار فالقبح إنما وقع في الإخبار لا في الخبر ولو سلمنا ذلك كله
 لتخلف الحكم العقلى لقيام مانع أو لفوات شرط غير مستنكر فهذه الشبهة من أضعف الشبه
 وحسبك ضعفاً بحكم إنما يستند إليها وإلى أمثالها (الوجه الثانى والعشرون) أن الوهم قد
 سبق إلى العكس كمن يرى شيئا مقرونا بشيء فيظن الشيء لا محالة مقرونا به مطلقا ولا
 يدري أن الأخص أبدأ مقرون بالأعم من غير عكس وتمثيلكم ذلك بنفرة السلام من الحبل
 المرقش ونفور الطبع عن العسل إذا شبه بالعدرة إلى آخر ما ذكرتم من الأمثال كنفرة الطبع
 عن الحسنة ذات الاسم القبيح ونفرة الرجل عن البيت الذى فيه الميت ونفرة كثير من
 الناس عن الأقوال الصحيحة التى تضاف إلى من يسيئون الظن بهم فنحن لا ننكر أن الوهم
 تأثير فى النفوس وفى الحب والبغض بل هو غالب على أكثر النفوس فى كثير من الأحوال
 ولكن إذا سلط عليه العقل الصريح تبين غلطه وأن ما حكم به إنما هو موهوم لا معقول
 كما إذا سلط العقل الصريح والحسن على الحبل المرقش تبين أن نفرة الطبع عنه مستندها
 الوهم الباطل وكذلك إذا سلط الذوق والعقل على العسل تبين أن نفرة الطبع عنه مستندها

(١) هكذا وقع فى الأصل وليجر من مظاهره .

جزئى من أفراد النوع لا يقتضى الحكم على جميع النوع واستلزام الفرد المعين من النوع
 اللازم المعين لا يقتضى استلزام النوع له وثبوت خاصة معينة للفرد الجزئى لا يقتضى ثبوتها
 للنوع السكلى : الوجه الثامن عشر أن غاية ما ذكرتم من خطأ الوهم فى اعتقاده إضافة القبح
 إلى ذات الفعل وحكمه بالاستقباح مطلقا بما قد يعرض فى بعض الأفعال فهل يلزم من ذلك
 أنه حيث قضى بهاتين القضيتين يكون غلطاً بالنسبة إلى كل فعل ونحن إنما علمنا غلطه
 فيما غلط فيه لقيام الدليل العقلى على غلطه فأما إذا كان الدليل العقلى مطابقاً لحكمه من
 أين لكم الحكم بالحكم بغلطه . فإن قلتم إذا ثبت أنه يغلط فى حكم ما لم يكن حكمه مقبولا
 إذ لا ثقة بحكمه قلنا إذا جوزتم أن يكون فى الفطرة حاكم الوهم وحاكم العقل
 ونسبتم حكم العقل إلى حكم الوهم وقلتم فى بعض القضايا التى يجزم العقل بها هى من
 حكم الوهم لم يبق لكم وثوق بالقضايا التى يجزم بها العقل ويحكم بها لاحتمال أن يكون
 مستندها حكم الوهم لا حكم العقل فلا بد لكم من التفريق بينهما ولا بد أن تكون
 قضايا ضرورية ابتداء وانتهاء وإذا جوزتم أن يكون بعض القضايا الضرورية وهمية لم
 يبق لكم طريق إلى التفريق (الوجه التاسع عشر) أن هذا الذى فرضتموه فيمن يستقبح
 شيئاً لمخالفة غرضه ويستحسنه لموافقة غرضه أو بالعكس إنما مورده الحسنات غالباً كالأكل
 والملابس والمساكن والمناكح فإنها بحسب الدواعى والميول والعوائد والمناسبات فهى
 إنما تكون فى الحركات وأما السكليات العقلية فلا تكاد تعارض تلك فلا يكون العدل والصدق
 والإحسان حسناً عند بعض العقول قبيحاً عند بعضها كما يكون اللون أسود مشتهى حسناً
 موافقاً لبعض الناس مبغوضاً مستقبحاً لبعضهم ومن اعتبر هذا بهذا فقد خرج واعتبر الشيء
 بما لا يصح اعتباره به ويؤيد هذا (الوجه العشرون) أن العقل إذا حكم بقبح السكذب
 والظلم والفواحش فإنه لا يختلف حكمه بذلك فى حق نفسه ولا غيره بل يعلم أن كل عقل
 يستقبحها وأن كان يرتكبها لحاجته أو جملة فلها أصاب فى استقباحتها أصاب فى نسبة القبح
 إلى ذاتها وأصاب فى حكمه بقبحها مطلقاً ومن غلطه فى بعض هذه الأحكام فهو الغالط عليه
 وهذا بخلاف ما إذا حكم باستحسان مطعم أو ملبس أو مسكن أو لون فإنه يعلم أن غيره
 يحكم باستحسان غيره وأن هذا مما يختلف باختلاف العوائد والأمم والأشخاص فلا يحكم
 به حكماً كلياً إلا حيث يعلم أنه لا يختلف كما يحكم حكماً كلياً بأن كل ظمآن يستحسن شرب
 الماء مالم يمنع منه مانع وكل مقرر يستحسن لباسه مافيه دقوه مالم يمنع منه مانع وكذلك كل
 جائع يستحسن ما يدفع به سورة الجوع فهذا حكم كلى فى هذه الأمور المستحسنة لا غلط
 فيه مع كون المحسوسات عرضة لاختلاف الناس فى استحسانها واستقباحتها بحسب الأغراض

عن شيء فقال العقل ليته أمر به فلو كان الحسن والقبح لم يكن مركزاً في الفطر والعقول لم يكن ما أمر به الرسول ونهى عنه علماً من أعلام صدقه ومعلوم أن شرعه ودينه عند الخاصة من أكبر أعلام صدقه وشواهد نبوته كما تقدم . الوجه السادس عشر قولكم في مشارات الغلط التي يغلط الوهم فيها أنها ثلاث مشارات الأولى أن الإنسان يطلق اسم القبح على ما يخاف غرضه وإن كان يوافق غرض غيره من حيث أنه لا يلتفت إلى الغير فإن كل طبع مشغوف بنفسه فيقضى بالقبح مطلقاً فقد أصاب في الحكم بالقبح وأخطأ في إضافة القبح إلى ذات الشيء . وغفل عن كونه قبيحاً لمخالفة غرضه وأخطأ في حكمه بالقبح مطلقاً ومنشأه عدم الالتفات إلى غيره خلاصه أمران أحدهما أنه إنما قضى بالحسن والقبح لموافقة غرضه ومخالفته الثاني أن هذه الموافقة والمخالفة ليست عامة في حق كل شخص وزمان ومكان بل ولا في جميع أحوال الشخص هذا حاصل ما طولتم به فيقال لا ريب أن الحسن يوافق الغرض والقبح يخالفه ولكن موافقة هذا ومخالفة هذا لما قام بكل واحد من الصفات التي أوجبت المخالفة والموافقة إذ لو كانا سواء في نفس الأمر وذاتهما لا تقتضي حسناً ولا قبحاً لم يختص أحدهما بالموافقة والآخر بالمخالفة ولم يكن أحدهما بما اختص به أولى من العكس فما لجأتم إليه من موافقة الغرض ومخالفته من أكبر الأدلة على أن ذات الفعل متصفة بما لأجله وافق الغرض وخالفه وهذا كموافقة الغرض ومخالفته في الطعوم والأغذية والروائح فإن مالا من الإنسان ووافقه مخالف بالذات والوصف لما نافره منها وخالفه ولم تكن تلك الملائمة والمنافرة لمجرد العادة بل لما قام بالملائمة والمنافرة من الصفات ففي الحُبز والماء واللحم والفاكهة من الصفات التي اقتضت ملاءمتها الإنسان ما ليس في التراب والحجر والقصب والعصف وغيرها ومن ساوى بين الأمرين فقد كابر حسه وعقله فهكدا مالا من العقول والفطر من الأعمال والأحوال وما خالفها هو لما قام بكل منها من الصفات التي اختصت به فأوجب الملائمة والمنافرة فملاءمة العدل والأحسان والبر للعقول والفطر والحيوان لما اختصت به ذوات هذه الأفعال من أمور ليست في الظلم والاساءة وايست هذه الملائمة والمنافرة لمجرد العادة والتدين بالشرائع بل هي أمور ذاتية لهذه الأفعال وهذا مما لا ينكره العقل بعد تصوره . الوجه السابع عشر انا لا ننكر أن للعادة واختلاف الزمان والمكان والإضافة والحال تأثيراً في الملائمة والمنافرة ولا ننكر أن الإنسان يلائمه ما اعتاده من الأغذية والملابس والمساكن ويتأثر به ما يعتده منها وإن كان أشرف منها وأفضل ومن هذا إلف الأوطان وحب المساكن والحنين إليها ولكن هل يلزم من هذا أن تكون الملائمة والمنافرة كلها ترجع إلى الإلف والعادة المجردة ومعلوم أن هذا مما لا سبيل إليه إذ الحكم على فرد

فان هذا بعينه وارد عليهم في أصل الفعل وأيضا فهذا إنما هو إكمال للصنع لاستكمال بالصنع وأيضا فانه سبحانه فعالة عن كماله فانه كمل ففعل لان كماله عن فعالة فلا يقال فعل ففعل كما قال المخلوق وأيضا فان مصدر الحكمة ومتعلقها وأسبابها عنه سبحانه فهو الخالق وهو الحكيم وهو الغني من كل وجه أكمل الغنى وأتمه وإكمال الغنى والحمد في كمال القدرة والحكمة ومن المحال أن يكون سبحانه وتعالى فقيرا إلى غيره فاما إذا كان كل شيء فهو فقير إليه من كل وجه وهو الغنى المطلق عن كل شيء فأى محذور في اثبات حكمته مع احتياج مجموع العالم وكل ما يقدر معه إليه دون غيره وهل الغنى إلا ذلك والله سبحانه في كل صنع من صنائعه وأمر من شرائعه حكمه باهرة وآية ظاهرة تدل على وحدانيته وحكمته وعلمه وغناه وقيوميته وملكوته لا تنكرها إلا العقول السخيفة ولا تنبو عنها إلا الفطر المنكوسة :

ولله في كل تسكينة وتحريكة أبدا شاهد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وبالجملة فنحن لانكر حكمة الله ولا نساعدكم على جحدها لتسميتكم اياها إعراضا واخراجكم لها في هذا القالب فالحق لا ينكر حكمه لسوء التعبير عنه وهذا اللفظ بدعى لم يرد به كتاب ولا سنة ولا أطلقه أحد من أئمة الإسلام وأتباعهم على الله . وقد قال الإمام أحمد لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين فهل ننكر صفات كماله سبحانه لأجل تسمية الماطلة والجهمية لها إعراضا ولأرباب المقالات أغراض في سوء التعبير عن مقالات خصومهم وتخييرهم لها أقبح الألفاظ وحسن التعبير عن مقالات أصحابهم وتخييرهم لها أحسن الألفاظ وأتباعهم محبوسون في قبور تلك العبارات ليس معهم في الحقيقة سواها بل ليس مع المتبوعين غيرها وصاحب البصيرة لا تهوله تلك العبارات الهائلة بل يجرد المعنى عنها ولا يكسوه عبارة منها ثم يحمله على محل الدليل السالم عن المعارض حينئذ يتبين له الحق من الباطل والحال من العاطل . الوجه الخامس عشر قولكم مستند الاستحسان والاستقباح التدين بالشرائع فيقال لا ريب أن التدين بالشرائع يقتضى الاستحسان والاستقباح ولكن الشرائع إنما جاءت بتكميل الفطر وتقريرها لا بتحويلها وتغييرها فما كان في الفطرة مستحسنا جاءت الشريعة باستحسانه فكسوته حسنا إلى حسنه فصار حسنا من الجهتين وما كان في الفطرة مستقبحا جاءت الشريعة باستقباحه فكسوته قبحا إلى قبحه فصار قبحا من الجهتين وأيضا فهذه القضايا مستحسنة ومستقبحة عند من لم تبلغه الدعوة ولم يقر بذبوة . وأيضا فجىء الرسول بالأمر بحسنها والنهي عن قبيحها دليل على نبوته وعلم على رسالته كما قال بعض الصحابة وقد سئل عما أوجب إسلامه فقال ما أمر بشيء فقال العقل ليتنهى عنه ولا ينهى

مكان وإضافة دون إضافة فقد تقدم أن هذا الاختلاف لا يخرج هذه القبائح والمستحسنات عن كون الحسن والقبیح ناشئاً من ذواتهما وإن الزمان المعين والمكان المخصوص والشخص والقابل والإضافة شروط لهذا الاقتضاء على حد اقتضاء الأغذية والأدوية والمساكن والملابس آثارها فإن اختلافها بالأزمنة والأمكنة والأشخاص والإضافات لا يخرجها عن الاقتضاء الذاق ونحن لانعني بكون الحسن والقبیح ذاتين إلا هذا والمشاحنة في الاصطلاحات لا تنفع طالب الحق ولا تجدى عليه إلا المناكدة والتعنّت فكم يعيدوا ويبعدوا في الذاق وغير الذاق سمو هذا المعنى بما شئتم ثم إن أمكنكم إبطاله فباطلوه . الوجه الرابع عشر قولكم نحن لاننكر اشتها القضايا الحسنة والقبیحة من الخلق وكونها محمودة مشكورة مثني على فاعلها أو مذمومها ولكن سبب ذكرها اما التدين بالشرائع واما الاعراض ونحن انما ننكرها في حق الله عز وجل لا لتفاء الاعراض عنه فهذا معترك القول بين الفرق في هذه المسئلة وغيرها فتهول لكم ما تعنون معاشر النفاة بالأعراض التي نفيتموها عن الله عز وجل ونفيمت لأجلها حسن أو امره الذاتية وقبح نواهيها الذاتية وزعمتم لأجلها أنه لا فرق عنده بين مذمومها ومحمودها وانها بالنسبة إليه سواء فاخبرونا عن مرادكم بهذه اللفظة البديعة المحتملة أتعنون بها الحكم والمصالح والعواقب الحميدة والغايات المحبوبة التي يفعل ويأمر لأجلها أم تعنون بها أمراً ورام ذلك يجب تنزية الرب عنه كما يشعر به لفظ الاعراض من الارادات فإن أردتم المعنى الاول فنفيكم اياه عن أحكم الحاكمين مذهب لكم خالفتم به صريح المنقول وصريح المعقول وأنتم ما لا تقر به العقول من فعل فاعل حكيم مختار للحكمة ولا لمصلحة ولا لغاية محمودة ولا عاقبة مطلوبة بل الفعل وعدمه بالنسبة إليه سيان وقتلتم ما تنكروه الفطر والعقول ويرده التنزيل والاعتبار وقد قررنا من ذكر الحكم الباهرة في الخلق والأمر ما تقر به عين كل طالب للحق وهاهنا من أدلة اثبات الحكم المقصودة بالخلق والأمر أضعاف أضعاف ما ذكرنا بل لانسبة لما ذكرناه إلى ما تركناه وكيف يمكن انكار ذلك والحكمة في خلق العالم وأجزائه ظاهرة لمن تأملها بادية لمن أبصرها وقد رقت ـ طورها على صفحات المخلوقات يقرأها كل عاقل وغير كاتب نصبت شاعدة لله بالوحدانية والربوبية والعلم والحكمة والالطف والخبره :

تأمل سطور الكائنات فانها من الملائ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألاكل شيء ما خلا الله باطل

واما النصوص على ذلك فمن طلبها بهرته كثرتها وتطابقها ولعلها ان تزيد على المئين وما يحيله النفاة لحكمة الله تعالى ان اثباتها يستلزم افتقاراً منه واستكمالاً بغيره فهو وسواس

إلى شرعه وتكليفه متباينان غاية التباين متضادان وأنه يستحيل في حكمته التسوية بينهما وإن يكونا على وتيرة واحدة ومعلوم إن هذا هو المعقول وما ذكرتموه خارج عن المعقول . الوجه التاسع قولكم أن الصدق والكذب على حقيقة ذاتية وإن الحسن والقبح غير داخِلين في صفاتهما الذاتية ولا يلزمهما في الوهم بالبدئية ولا في الوجود ضرورة جوابه انكم أن أردتم أن الحسن والقبح لا يدخل في مسمى الصدق والكذب فسلم ولكن لا يفيدكم شيئاً فإن غايته إنما يدل على تعابير المفهومين فكان ماذا وإن أردتم أن ذات الصدق والكذب لا تقتضى الحسن والقبح ولا تستلزمهما فهل هذا إلا مجرد المذهب ونفس الدعوى وهى مصادرة على المطلوب وخصوصكم يقولون أن معنى كونهما ذاتين للصدق والكذب أن ذات الصدق والكذب تقتضى الحسن والقبح وليس مرادهم أن الحسن والقبح صفة داخلية في مسمى الصدق والكذب وأنتم لم تبطلوا عليهم هذا . الوجه العاشر قولكم ولا يلزمهما في الوهم بالبدئية ولا في الوجود دعوى مجردة كيف وقد علم بطلانها بالبرهان والضرورة . الوجه الحادى عشر قولكم أن من الأخبار التى هى صادقة ما يلام عليه مثل الدلالة على من هرب من ظالم ومن الأخبار التى هى كاذبة ما يثاب عليها مثل إنكار الدلالة عليه فلم يدخل كون الكذب قبيحاً في حد الكذب ولا لزمه في الوهم ولا في الوجود فلا يجوز أن يعد من الصفات الذاتية التى تلزم النفس وجوداً وعدماً . جوابه من وجوه . أحدها أنا لا نسلم أن الصدق يقبح في حال ولأن الكذب يحسن في حال أبدأ ولا تنقلب ذاته وإنما يحسن اللوم على الخبر الصادق من حيث لم يعرض للخبر ولم يور بما يقتضى سلامة النبي أو الولي . الوجه الثانى أنه أخبر بما لا يجوز له الإخبار به لاستلزامه مفسدة راجحة ولا يقتضى هذا كون الصدق قبيحاً بل الإخبار بالصدق هو القبيح وفرق بين النسبة المطابقة التى هى صدق وبين الاعلام بها فالقبح إنما نشأ من الاعلام لا من النسبة الصادقة والاعلام غير ذاتي للخبر ولا داخل في حده إذا الخبر غير الإخبار ولا يلزم من كون الإخبار قبيحاً أن يكون الخبر قبيحاً وهذه الدقيقة غفل عنها الطائفتان كلاهما . الوجه الثالث أن قبح الصدق وحسن الكذب المذكورين في بعض المواضع لمعارضة مصلحة أو مفسدة راجحة لا يقتضى عدم اتصاف ذات كل منهما بحكمه عقلاً فإن العلل العقلية والأوصاف الذاتية المقتضية لأحكامها قد تتخلف عنها لفوات شرط أو قيام مانع ولا يوجب ذلك سلب اقتضاها لأحكامها عند عدم المانع وقيام الشرط وقد تقدم تقرير ذلك . الوجه الثانى عشر قولكم أنه لم يبق للشبثين إلا الاسترواح إلى عادات الناس من تسمية ما يضرهم قبيحاً وما ينفعهم حسناً كلام باطل فإن استرواحهم إلى ماركبه الله تعالى في عقولهم وفطرتهم وبعث رسله بتقريره وتكميله من امتحسان الحسن واستقباح القبيح الوجه الثالث عشر قولكم أنها تختلف بعادة قوم دون قوم وزمان دون زمان ومكان دون

والمحال قد يلزمه محال آخر سلطنا انه ينفي كون الحكم بقبجه ضروريا ابتداء فلم قلتم انه لا يكون ضروريا بعد التأمل والنظر. والضرورى أعم من كونه ضروريا ابتداء بلا واسطة أو ضروريا بوسط ونفى الأخص لا يستلزم نفي الأعم ومن ادعى سلب الوسائط عن الضروريات فقد كابر أو اصطالح مع نفسه على تسمية الضروريات بما لا يتوقف على وسط. الوجه الرابع ان تصور ماهية الكذب يقتضى جزم العقل بقبجه ونسبة الكذب إلى العقل كنسبة المتنافرات الحسية إلى الحس فكما أن ادراك الحواس المتنافرات يقتضى نفرتها عنها فكذلك ادراك العقل للحقيقة الكذب ولا فرق بينهما الا فرق ما بين ادراك الحس وادراك العقل فان جاز القدرح في مدركات العقول وحكمها فيها بالحسن والقبج جاز القدرح في مدركات الحواس. الوجه الخامس انكم فتحت باب السفسطة فان القدرح في معلومات العقول وموجباتها كالقدرح في مدركات الحواس وموجباتها فن لجأ إلى المكابرة في المعقولات فقد فتح باب المكابرة في المحسوسات ولهذا كانت السفسطة تعرض أحيانا في هذا وهذا وليست مذهبا لامة من الناس يعيشون عليه كما يظنه بعض أهل المقالات ولا يمكن أن تعيش أمة ولا أحد على ذلك ولا تتم له مصلحة وانما هى حال عارضة لكثير من الناس وهى تكثر وتقل وما من صاحب مذهب باطل الا هو مرتكب للسفسطة شاء أم أبى وسنذكر ان شاء الله فضلا فيما بعد نبين فيه ان جميع أرباب المذاهب الباطلة سوفسطائية صريحا ولزوما قريبا وبعيدا. الوجه السادس قولكم من حكم بأن هذين الأمرين سيان بالنسبة إلى عقله خرج عن قضايا العقول جوابه انكم ان أردتم بالتسوية كونهما معقولان في الجملة فن أين يخرج عن قضايا العقول من حكم بذلك وهل الخارج في الحقيقة عنها الا من منع هذا الحكم فان أردتم بالتسوية الاستواء في الادراك وان كليهما على رتبة واحدة من الضرورة فلا يلزم من عدم هذا الاستواء ان لا يكون العلم بقبج الكذب عقليا. الوجه السابع قولكم لو تقرر عند المثبت ان الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا ينتفع بصدق كان الأمران في حكم التكليف على وتيرة واحدة كلام لا يرتضيه عاقل فانه من المقرر ان الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا ينتفع بصدق وانما يعود نفع الصدق وضرر الكذب على المكلف ولكن ليست شعري من أين يلزم ان يكون هذان الضدان بالنسبة إلى التكليف على وتيرة واحدة وهل هذا الا مجرد تحكم ودعوى باطلة. الوجه الثامن انه لا يلزم من كون الحكم لا يتضرر بالقبج ولا ينتفع بالحسن ان لا يجب هذا ولا يبعض هذا بل تكون نسبتها إليه نسبة واحدة بل الأمر بالعكس وهو ان حكمته تقتضى بغضه للقبج وان لم يتضرر به ومحبهه للحسن وان لم ينتفع به وحينئذ ينقلب هذا الكلام عليكم ونكون أسعد به منكم فنقول لو تقرر عند النافى أن الله تعالى حكيم عليم يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها العلم ان الأمرين أعنى الصدق والكذب بالنسبة

وأشرك ولا فرق عنده بين هذا وهذا فليعجب العاقل من هذا التقابل والتباعد الذي يزعم كل فريق أن قولهم هو محض العقل وما خالفه باطل بصريح العقل وكذلك القدرية قالت أنه ألقى إلى عباده زمام الاختيار وفوض إليهم المشيئة والإرادة وأنه لم يخص أحداً منهم دون أحد بتوفيق ولا لطف ولا هداية بل ساوى بينهم في مقدوره ولو قدر أن يهدي أحداً ولم يهده كان بخلاً وأنه لا يهدي أحداً ولا يضلّه إلا بمعنى البيان والإرشاد وأما خلق الهدى والضلال فهو إليهم ليس إليه وقالت الجبرية أنه سبحانه أجبر عباده على أفعالهم بل قالوا ان أفعالهم هي نفس أفعاله ولا فعل لهم في الحقيقة ولا قدرة ولا اختيار ولا مشيئة وإنما يعذبهم على ما فعله هو لا على ما فعلوه ونسبة أفعالهم إليه كحركات الأشجار والمياه والجمادات فالقدرية سلبوه قدرته على أفعال العباد ومشيئته لها والجبرية جعلوا أفعال العباد نفس أفعاله وأنهم ليسوا فاعلين لها في الحقيقة ولا قادرين عليها فالقدرية سلبته كمال ملكه والجبرية سلبته كمال حكمته والطائفتان سلبته كمال حمده وأهل السنة الوسط أثبتوا كمال الملك والحمد والحكمة فوصفوه بالقدرة التامة على كل شيء من الأعيان وأفعال العباد وغيرهم وأثبتوا له الحكمة التامة في جميع خلقه وأمره وأثبتوا له الحمد كله في جميع ما خلقه وأمر به ونزهوه عن دخوله تحت شريعة يضعها العباد بأرأئهم كما نزهوه عما نزه نفسه عنه بما لا يليق به فاستولوا على محاسن المذاهب وتجنبوا أرواها ففازوا بالقدح المعلى وغيرهم طاف على أبواب المذاهب ففاز بأخس المطالب والهدى هدى الله يختص به من يشاء من عباده .

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة فالكلام على كلمات النفاة من وجوه : أحدها قولهم لو قدر الإنسان نفسه وقد خلق تام الخلقة تام العقل دفعة من غير تأديب بتأديب الآبوين ولا تعلم من معلم ثم عرض عليه أمران : أحدهما أن الواحد أكثر من الاثنين والآخر أن الكذب قبيح لم يتوقف في الأول ويتوقف في الثاني فهذا تقدير مستحيل ركبتم عليه أمراً غير معلوم الصحة فان تقدير الإنسان كذلك محال . الوجه الثاني سلمنا إمكان التقدير لكن لم قلتم بأنه لا يتوقف في كون الواحد نصف الاثنين ويتوقف في كون الكذب قبيحاً بعد تصور حقيقته فلا نسلم أنه إذا تصور ماهية الكذب توقف في الجزم بقبحه وهل هذا إلا دعوة مجردة . الوجه الثالث سلمنا أنه قد يتوقف في الحكم بقبحه ولكن لا يلزم من ذلك أن لا يكون قبيحاً لذاته وقبحه معلوم للعقل وتوقف الذهن في الحكم العقلي لا يخرج عن كونه عقلياً ولا يجب التساوى في العقليات إذ بعضها أجلى من بعض . فان قلتم فهذا التوقف ينفي أن يكون الحكم بقبحه ضرورياً وهو يبطل قولكم . قلنا هذا إنما لزم من التقدير المستحيل في الواقع

ووضعوا على الله شريعة بمعقولهم قادتهم إلى ما لا قبل لهم به من اللوازم الباطلة وأخطأوا في نفهم عنه إيجاب ما أوجبه على نفسه وتحريم ما حرمه على نفسه بمقتضى حكمته وعدله وعزته وعلمه وأخطأوا أيضا في نفهم حكمته تعالى في خلقه وأمره وأنه لا يفعل شيئا لشيء ولا يأمر بشيء لشيء وفي انكارهم الأسباب والقوى التي أودعها الله في الأعيان والأعمال وجعلهم كل لام دخلت في القرآن لتعليل أفعاله وأوامره لام عاقبة وكل باء دخلت لربط السبب بسببه باء مصاحبة فنفوا الحكم والغايات المطلوبة في أوامره وأفعاله وردوها إلى العلم والقدرة فجعلوا مطابقة المعلوم للعلم ووقوع المقدور على وفق القدرة هو الحكمة ومعلوم أن وقوع المقدور بالقدرة ومطابقة المعلوم للعلم عين الحكمة والغايات المطلوبة من الفعل وتعلق القدرة بمقدورها والعلم بمعلومه أعم من كون المعلوم والمقدور مشتملا على حكمة ومصلحة أو مجردا عن ذلك والأعم لا يشعر بالأخص ولا يستلزمه وهل هذا في الحقيقة الآنفي للحكمة وإثبات الأمر آخر وأخطأوا في تسويتهم بين المحبة والمشية وإن كل ما شاء الله من الأفعال والأعيان فقد أحبه ورضيه ومالم يشأه فقد كرهه وأبغضه فحجته مشيئته وإرادته العامة وكرهاته وبغضه عدم مشيئته وإرادته فلزمهم من ذلك أن يكون إبليس محبوبا له وفرعون وهامان وجميع الشياطين والكفار بل أن يكون الكفر والفسوق والظلم والعدوان الواقعة في العالم محبوبة له مرضية وأن يكون الإيمان والهدى ووفاء العهد والبر التي لم توجد من الناس مكروهة مسخوطة له مكروهة بمقوطة عنده فسووا بين الأفعال التي فاوت الله بينها وسووا بين المشيئة المتعلقة بتكوينها وإيجادها والمحبة المتعلقة بالرضى بها وإختيارها وهذا مما استطال به عليهم خصومهم كما استطالوا هم عليهم حيث أخرجوها عن مشيئة الله وإرادته العامة ونفوا تعلق قدرته وخلقها بها فاستطال كل من الفريقين على الآخر بسبب مامعهم من الباطل وهدى الله أهل السنة الذين هم وسط في المقالات والنحل لما اختلف الفريقان فيه من الحق يأذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . فالقدرة حجروا على الله وألزموه شريعة حرموا عليه الخروج عنها وخصومهم من الجبرية جوزوا عليه كل فعل ممكن يتنزه عنه سبحانه اذ لا يليق بغناه وحده وكاله مانزه نفسه عنه وحمد نفسه بأنه لا يفعله فالطائفتان متقابلتان غاية التقابل والقدرة أثبتوا له حكمة وغاية مطلوبة من أفعاله على حسب ما أنبتوه لخلقهم والجبرية نفوا حكمته اللاتقة به التي لا يشابه فيها أحد والقدرة قالت أنه لا يريد من عباده طاعتهم وإيمانهم وأنه لا يسأل ذلك منهم والجبرية قالت أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان ورضاه من فاعله والقدرة قالت أنه يجب عليه سبحانه أن يفعل بكل شخص ما هو الأصلح له والجبرية قالت أنه يجوز أن يعذب أوليائه وأهل طاعته ومن لم يطعه قط وينعم أعداءه ومن كفر به

والكفر وأنواع الفساد بل يكرها وأنه يحب الإيمان والخير والبر والطاعة ولكن أخطأوا في تفسير هذه المحبة والكرهية بمجرد معان مفهومة من ألفاظ خلقها في الهواء أوفى الشجرة ولم يجعلوها معاني ما يهدى به تعالى على فاسد أصولهم في التعطيل ونفى الصفات فنفوا المحبة والكرهية من حيث أثبتوها وأعادوها إلى مجرد الشرع ولم يثبتوا له حقيقة قائمة بذاته فان شرع الله هو أمره ونهيه ولم يقيم به عندهم أمر ولا نهى لحقيقة قولهم أنه لا شرع ولا محبة ولا كراهة فإن زخرفوا القول وتحيلوا لإثبات ماسدوا على نفوسهم طريق اثباته وأصابوا أيضا في قولهم أن مصلحة المأمور تنشأ من الفعل تارة ومن الأمر تارة أخرى فرب فعل لم يكن منشأ لمصلحة المالك فلبا أمر به صار منشأ لمصلحته بالأمر ولو توسطوا هذا التوسط وسلكوا هذا المسلك وقالوا إن المصلحة تنشأ من الفعل المأمور به تارة ومن الأمر تارة ومنهما تارة ومن العزم المجرد تارة لانتصفوا من خصومهم . فمثال الأول الصدق والعفة والإحسان والعدل فان مصالحها ناشئة منها ومثال الثاني التجرد في الإحرام والتطهر بالتراب والسعي بين الصفا والمروة ورعى الجمار ونحو ذلك فان هذه الأفعال لو تجردت عن الأمر لم تكن منشأ لمصلحة فلما أمر بها نشأت مصلحتها من نفس الأمر ومثال الثالث الصوم والصلاة والحج وإقامة الحدود وأكثر الأحكام الشرعية فإن مصلحتها ناشئة من الفعل والأمر معا فالفعل يتضمن مصلحة والأمر بها يتضمن مصلحة أخرى فالمصلحة فيها من وجهين . ومثال الرابع أمر الله تعالى خليله إبراهيم بذبح ولده فإن المصلحة إنما نشأت من عزمه على المسأور به لا من نفس الفعل وكذلك أمره ﷺ ليلة الإسراء بخمسين صلاة فلما حصرتم المصلحة في الفعل وحده تسلط عليهم خصومكم بأنواع المناقضات والإلزامات قالوا وقد أصاب النفاة حيث قالوا إن الحججة إنما تقوم على العباد بالرسالة وإن الله لا يعذبهم قبل البعثة ولكنهم نقضوا الأصل ولم يطرده حيث جوزوا تعذيب من لم تقم عليه الحججة أصلا من الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة وأخطوا في تسويتهم بين الأفعال التي خالف الله بينها فجعل بعضها حسنا وبعضها قبيحا وركب في العقول والفطر التفرقة بينهما كما ركب في الحواس التفرقة بين الحلوا والحامض والمر والعذب والسخن والبارد والضار والنافع فزعم النفاة أنه لا فرق في نفس الأمر أصلا بين فعل وفعل في الحسن والقبح وإنما يعود الفرق إلى عادة مجردة أو وهم أو خيال أو مجرد الأمر والنهى وسلبوا الأفعال حتى خواصها التي جعلها الله عليها من الحسن والقبح فخالفوا الفطر والعقول وسلطوا عليهم خصومهم بأنواع الإلزامات والمناقضات الشنيعة جداً ولم يجدوا إلى ردها سبيلا إلا بالإنفاء وجحدوا الضرورة وأصابوا في نفهم الإيجاب والتحريم على الله الذي أثبتته القدريّة من المعترلة

حجة بيننا وبينكم أى لا خصومة فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع فإذا ظهر وعانده المخاوف وتركه جحودا وعنادا لم يبق للاحتجاج فائدة فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار فقد وضح الحق واستبان ولم يبق إلا الإفراز به أو العناد والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضى للمحق على المبطل وإليه المصير قالوا وما نحن نتحرى القسط بين الفريقين عما بقوله صلى الله عليه وسلم المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم ما ولوا ويكفي في هذا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله لئن خبير بما تعملون) قالوا قد أصاب أهل الإثبات من المعتزلة في قولهم أن الحسن والقيح صفات ثبوتية الأفعال معلومة بالعقل والشرع وأن الشرع جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين الحسن والأمر به وتقبيح القبيح والنهي عنه وأنه لم يجزى بما يخالف العقل والفطرة وإن جاء بما يعجز العقل عن أحواله والاستقلال به فالشرائع جاءت بمجازات العقول لا محالاتها وفرق بين ما لا تدرك العقول حسنه وبين ما تشهد بقبحه فالأول مما يأتي به الرسل دون الثاني وأخطؤا في ترتيب العقاب على هذا القبيح عقلا كما تقدم وأصابوا في إثبات الحكمة لله تعالى وأنه سبحانه لا يفعل فعلا خاليا عن الحكمة بل كل أفعاله مقصودة لعواقبها الحميدة وغاياتها المحبوبة له وأخطؤا في موضعين أحدهما أنهم أعادوا تلك الحكمة إلى المخلوق ولم يعيدوها إلى الخالق سبحانه على فاسد أصولهم في نفي قيام الصفات به فنفروا الحكمة من حيث أثبتوها وجحدوها من حيث أقروا بها . الموضع الثاني أنهم وضعوا تلك الحكمة شريعة بعقولهم وأوجبوا على الرب تعالى بها وحرموه وشبهوه بخلقه في أفعاله بحيث ما حسن منهم حسن منه وما قبح منهم قبح منه فلزم منهم بذلك اللوازم الشنيعة وضاق عليهم المجال وعجزوا عن التخلص عن تلك الالتزامات ولو أنهم أثبتوا له حكمة تليق به لا يشبه خلقه فيها بل نسبتها إليه كصفة صفاته إلى ذاته فكأنه لا يشبه خلقه في صفاته فكذلك في أفعاله ولا يصح الاستدلال بقبح القبح وحسن الحسن منهم على ثبوت ذلك في حقه تعالى ومن هاهنا استطال عليهم النفاة وصاحوا عليهم من كل قطر وأقاموا عليهم نائرة الشناعة وأصابوا أيضا في قولهم بأن الرب تعالى لا يمتنع في نفسه الوجوب والتحريم وأخطأوا في جعل ذلك تابعا لمقتضى عقولهم وآرائهم بل يجب عليه ما أوجبه على نفسه ويحرم عليه ما حرمه هو على نفسه فهو الذى كتب على نفسه الرحمة وأحق على نفسه نصر المؤمنين وأحق على نفسه ثواب المطيعين وحرم على نفسه الظلم كما جعله محرما بين عباده وأصابوا في قولهم أنه سبحانه لا يحب الشر

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوم إليه الله يحتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم). فأخبر تعالى أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحا والنبیین من بعده وهو دين واحد ونهانا عن التفریق فيه ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا فی الدين الا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق وأن الحامل على ذلك التفرق البغی من بعضهم على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ولقولها دون غيرها وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيت صادرا عن هذا بعينه . ثم أمر سبحانه نبيه أن يدعوا إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه وأن يستقيم كما أمره ربه وحذره من اتباع أهواء المتفرقين وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب وهذه حال الحق أن يؤمن بكل ما جمعه من الحق على لسان أى طائفة كانت ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل بينهم وهذا يعم العدل فى الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى القدر المشترك بينهما من الحق فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به . ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد فما الحامل للتفرق والاختلاف وهو ربنا وربكم والدين واحد والكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره . ثم قال لا حجة بيننا وبينكم والحجة ههنا هى الخصومة أى للخصومة ولا وجه للخصومة بيننا وبينكم بعد ما ظهر الحق وأسفر صبحه وبانت أعلامه وانكشفت الغمة عنه وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول وأن الدين لا احتجاج فيه كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية وأجوبة لمعارضتهم وإفسادا لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وإخبارا عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هى أحسن وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد حجج الخصم وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هى أحسن وقد ناظر النبي ﷺ جميع طوائف الكفرة أتم مناظرة وأقام عليهم ما أظفهم به من الحجج حتى عدل بعضهم إلى محاربتة بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حججه واختار بعضهم مسالمة ومنازكته وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة ولم يجد إلى ردها سبيلا وما خالفه أعداؤه إلا عنادا منهم وميلا إلى المسكارة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع فما قام الدين إلا على ساق الحجة . ف قوله لا

أمرين إما فعل يقتضى جزاء أو مجازاة على فعل فما باله يحتاج في أفعاله وأحواله إلى شخص مثله يحسن أو يقبح فلا العقل يحسن ويقبح ولا الشرع ولكن حسن أفعاله جزاء على حسن أفعال غيره وقبح أفعاله كذلك وربما يظهر حسنها وقبحها صوراً حيوانية روحانية وإنما يصير الحسن والقبح في الحيوانات أفعالا إنسانية وليس بعد هذا العالم عالم آخر يحكم فيه ويحاسب ويثاب ويعاقب وزادت البراهمة على التناسخية بأن قالوا نحن لا نحتاج إلى شريعة وشارع أصلاً فإن ما يأمر به النبي لا يخلو إما أن يكون معقولا أو غير معقول فإن كان معقولا فقد استغنى بالعقل عن النبي وإن لم يكن معقولا لم يكن مقبولا فهذه الطوائف كلها لما جعلت في العقل حاكما بالحسن والقبح أداها إلى هذه الآراء الباطلة والنحل السكافرة . وأنتم يا معاشر المثبتة يصعب عليكم الرد عليهم وقد وافقتموهم على هذا الأصل . وأما نحن فأخذنا عليهم رأس الطريق وسددنا عليهم الأبواب فن طريق لهم الطريق وفتح لهم الأبواب ثم رام مناخزة القوم فقد رام مرتقى صعبا . فهذه مجامع جيوش النفاة قد وافقت بعددها وعديدها وأقبلت إليك بحديدها وحديدتها . فإن كنت من أبناء الطعن والضرب فقد التقى الزحفان . وتقابل الصفان . وإن كنت من أصحاب التلول فالزم مقامك ولا تدن من الوطيس فإنه قد حمى وإن كنت من أهل الأسراب الذين يسألون عن الأنباء ولا يثبتون عند اللقاء

فدع الحروب لأقوام لها خلقوا وما لها من سوى أجسامهم جنن
ولا تلهم على ما فيك من جبن فبئست الخلتان اللؤم والجبن

قال المتوسطون من أهل الإنبيات مامنكم أيها الفريقان إلا من معه حق وباطل ونحن نساعد كل فريق على حقه ونصير إليه . ونبطل مامعه من الباطل ونرده عليه . فنجعل حق الطائفتين مذهبا ثالثا يخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين من غير أن تنسب لى ذى مقالة وطائفة معينة انتسابا يحملنا على قبول جميع أحوالها والانتصار لها بكل غث وسمين ورد جميع أقوال خصومها ومكابريها على ما معها من الحق حتى لو كانت تلك الأقوال منسوبة إلى رئيسها وطائفتها لبالغت في نصرتها وتقريرها وهذه آفة مانحنا منها إلا من أنعم الله عليه وأهله لتابعة الحق أين كان ومع من كان وأما من يرى أن الحق وقف مؤبد على طائفته وأهل مذهبه وحجر محجور على من سواهم ممن لعله أقرب إلى الحق والصواب منه فقد حرم خيرا كثيرا وفاته هدى عظيم وهنا نحن نبجل مجلس الحكومة بين هاتين المقاتلتين فن أدلى بحجته في موضع كان المحكوم له في ذلك الموضع وإن كان المحكوم عليه حيث يدلى خصمه بحجته والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق والعدل بين الطوائف المختلفة . قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن

مرفوض في العقل لذاته والممتزج مطلوب من وجه ومرفوض من وجه وهو بحسب الغالب من جهته ولا يشك العاقل أن العلم بجنسه ونوعه خير ومحمود ومطلوب والجهل بجنسه ونوعه شر في العقل فهو مستقيح عند الجمهور والفطر السليمة داعية إلى تخصيص المستحسن ورفض المستقيح سواء حمله عليه شارع أو لم يحمله . ثم الأخلاق الحميدة والخصال الرشيدة من العفة والجود والسخاء والنجدة مستحسنات فعلية وأضدادها مستبجحات فعلية وكال حال الإنسان أن تستكمل النفس قوى العلم الحق والعمل الخير والشرائع إنما ترد بتمهيد ما تقرر في العقل لا بتغييره لكن العقول الحرونة لما كانت قاصرة عن اكتساب المعقولات بأسرها عاجزة عن الاهتمام إلى المصلحة الكلية الشاملة لنوع الإنسان وجب من حيث الحكمة أن يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يحملهم على الإيمان بالغيب جملة ويهديهم إلى مصالح معاشهم ومعادهم تفصيلا فيكون قد جمع لهم بين حظي العلم والعدل على مقتضى العقل وحملهم على التوجه إلى الخير المحض والإعراض عن الشر المحض استبقاء لنوعهم واستدامة لنظام العالم ثم ذاك الشارع يجب أن يكون مميّزا من بينهم بآيات تدل على أنها من عند ربه سبحانه راجحا عليهم بعقله الرزين ورأيه المتين وحديثه النافذ وخلقه الحسن وسمته وهديه يلين لهم في القول ويشاورهم في الأمر ويكلمهم على قدر عقولهم ويكلفهم بحسب وسعهم وطاقتهم قالوا وقد أخطأت المعتزلة حين ردوا الحسن والقيح إلى الصفات الذاتية الأفعال وكان من حقهم تقرير ذلك في العلم والجهل إذ الأفعال تختلف بالأشخاص والأزمان وسائر الإضافات وليس هي على صفات نفسية لازمة لها بحيث لا تفارقها البتة . ثم زادت الصائبة في ذلك على الفلاسفة وقالوا لما كانت الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات التي هي مدبرات الكواكب وكان في اتصالاتها نظر سعيد ونحس واجب أن يكون في آثارها حسن وقبح في الأخلاق والخلق والأفعال والعقول الإنسانية متساوية في النوع فوجب أن يدركها كل عقل سليم وطبع قويم لا تتوقف معرفة المعقولات على من هو مثل ذلك العاقل في النوع فنحن لانحتاج إلى من يعرفنا حسن الأشياء وقبحها وخيرها وشرها ونفعها وضرها وكأنا نستخرج بالعقول من طبائع الأشياء ومنافعها ومضارها كذلك نستنبط من أفعال نوع الإنسان حسنها وقبيحها فنلابس ما هو أحسن منها بحسب الاستطاعة ونجتنب ما هو قبيح منها بحسب الطاقة فأى حاجة بنا إلى شارع يتحكم على عقولنا . وزادت التناسخية على الصائبة بأن قالوا نوع الإنسان لما كان موصوفا بنوع اختيار في أفعاله مخصوصا بنطق وعقل في علومه وأحواله ارتفع عن الدرجة الحيوانية ارتفاع استخسار لها فان كانت أعماله على مناهج الدرجة الإنسانية ارتفعت إلى الملائكة وإن كانت على مناهج الدرجة الحيوانية انخفضت إليها أو إلى أسفل وهو أبدا في أحد

اتفق سلف الإمة الطيب على تكفيرهم ولا خلاص لهم عن أحد هذين الإلزامين إلا بالترام
 مذهب أهل السنة والجماعة أن أفعال الله تعالى لا تقاس بأفعال عباده ولا تدخل تحت شرائع
 عقولهم الفاصرة بل أفعاله لا تشبه أفعال خلقه ولا صفاته صفاتهم ولا ذاته ذواتهم (ليس
 كمثل شئ وهو السميع البصير) . الإلزام الثالث عشر أنه سبحانه لا يؤلم أحدا من خلقه أبدا
 لعدم المنفعة في ذلك بالنسبة إليه وإلى العبد ولا ينفعكم اعتذاركم بأن الإيلام سبب مضاعفة
 الثواب ونيل الدرجات العلى وأن هذا ينتقض بالحیوان البهيم وينتقض بالأطفال الذين
 لا يستحقون ثوابا ولا عقابا ولا ينفعكم إعتذاركم بأن الطفل ينفع به في الآخرة في زيادة ثوابه
 لا تنقاضه عليكم بالطفل الذى علم الله أنه يبلغ ويختار الكفر والجحود فأى مصلحة له في
 إيلامه وأى معنى ذكرتموه على أصولكم الفاسدة فهو منتقض عليكم بما لا جواب لكم عنه .
 الإلزام الرابع عشر أن من علم الله سبحانه إذا بلغ الأطفال يختاروا الإيمان والعمل الصالح
 فإن الأصلح في حقه أن يحيمه حتى يبلغ ويؤمن فينال بذلك الدرجة العالية وإن لا يحترمه صغيراً
 وهذا بما لا جواب لكم عنه . الإلزام الخامس عشر وهو من أعظم الإلزامات وأصحها الزاماً
 وقد التزمه القدريه وهو أنه ليس في مقدور الله تعالى لطف لو فعله الله تعالى بالكفار
 لآمنوا وقد التزم المعتزلة القدريه هذا اللازم وبنوه على أصلهم الفاسد أنه يجب على الله
 تعالى أن يفعل في حق كل عبدا ما هو الأصلح له فلو كان في مقدوره فعل يؤمن العبد عنده
 لوجب عليه أن يفعله به والقرآن من أوله إلى آخره يرد هذا القول ويكذبه ويخبر تعالى أنه
 لو شاء لهدى الناس جميعا ولو شاء لامن من في الارض كلهم جميعا ولو شاء لآتى كل نفس هداها .
 الإلزام السادس عشر وهو بما التزمه القوم أيضا أن لطفه ونعمته وتوفيقه بالمؤمن كلطفه
 بالكافران ونعمته عليهم ما سوا لم يخص المؤمن بفضل عن الكافر وكفى بالوحي وصریح المعقول
 وفطرة الله والاعتبار الصحيح واجماع الامة ردا لهذا القول وتكذيبا له . الإلزام السابع
 عشر أن ما من أصلح الاوفوقه ما هو أصلح منه والافتصار على رتبة واحدة كالاقتصار على الصلاح
 فلا معنى لقولكم يجب مراعاة الأصلح اذ لانهاية له فلا يمكن في الفعل رعايته . الإلزام الثامن عشر أن
 الايجاب والتحريم يقتضى سؤال الموجب المحرم لمن أوجب عليه وحرم هل فعل مقتضى ذلك أم لا وهذا
 محال في حق من لا يسئل عما يفعل وانما يعقل في حق المخلوقين وأنهم يسألون وبالجملة فتحتم
 بهذه المسئلة طريقا للإستغناء عن الصواب وسلطتم بها الفلاسفة والصائبة والبراهمة وكل منكر
 للنبوات فهذه المسئلة بيننا وبينهم فانكم اذا زعمتم أن في العقل حاكما يحسن ويقبح ويوجب
 ويحرم ويتقاضى الثواب والعقاب لم تكن الحاجة الى البعثة ضرورية لإمكان الاستغناء عنها
 بهذا الحاكم ولهذا قالت الفلاسفة وزادت عليكم حجة وتقريراً قد اشتمل الوجود على خير
 مطلق وشر مطلق وخير وشر متزجين والخير المطلق مطلوب في العقل لذاته والشر المطلق

أنه يكفر عند تكليفه . الإلزام الحادى عشر أنهم قالوا وصدقوا بان الرب تعالى قادر على التفضل بمثل الثواب ابتداء بلا واسطة عمل فأى غرض له فى تعريض العباد للبلوى والمشاق ثم قولوا وكذبوا الغرض فى التكليف أن استيفاء المستحق حقه أهنا له وألذ من قبول التفضل واحتمال المنة وهذا كلام أجهل الخلق بالرب تعالى وبحقه وبعظمته ومساو بينه وبين آحاد الناس وهو من أقبح النسبة وأخبثه تعالى الله عن ضلالهم علواً كبيراً فكيف يستنكف العبد المخلوق المربوب من قبول فضل الله تعالى ومنته وهل المنة فى الحقيقة إلا الله المان بفضله قال تعالى (يمينون عليك أن أسئلوا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم إن هذا كم الإيمان إن كنتم صادقين) وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين) ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بنى وعالة فأغناكم الله بنى فأجابوه بقولهم الله ورسوله أمن وباللهقول التى قد خسف بها أى حق للعبد على الرب حتى يمتنع من قبول منته عليه فبأى حق استحق الانعام عليه بالإيجاد وكال الخلق وحسن الصورة وقوام البنية وإعطائه القوى والمنافع والآلات والأعضاء وتسخير ما فى السموات وما فى الأرض له ومن أقل ماله عليه من النعم التنفس فى الهواء الذى لا يكاد يخطر بباله أنه من الأمم وهو فى اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس فاذا كانت أقل نعمه عليهم ولا أقل منها أربعة وعشرون ألف نعمة كل يوم وليلة فما الظن بما هو أجل منها من النعم فى العقول السخيفة المخسوف بها أى علم لكم وأى سعى يقابل القليل من نعمه الدنيوية حتى لا يبقى لله عليكم منة اذا أنابكم لأنكم استوفيت ديونكم قبله ولا نعمة له عليكم فيها فأى أمة من الأمم بلغ جهلها بالله هذا المبلغ واستنكفت عن قبول منته وزعمت أن لها الحق على ربها وإن تفضله عليها ومنته مكدر لالتذاذها بعطائه ولو أن العبد استعمل هذا الأدب مع ملك من ملوك الدنيا لمقته وأبعده وسقط من عينه مع أنه لا نعمة له عليه فى الحقيقة انما المنعم فى الحقيقة هو الله ولى النعم وموليا ولقد كشف القوم عن أقبح عورة من عورات الجهل بهذا رأى السخيف والمذهب القبيح والحد لله الذى عافانا بما ابتلى به أرباب هذا المذهب المشتكفين من قبول منة الله الزاعمين أن ما أنعم الله به عليهم حقهم عليه وحقهم قبله وأنه لا يستحق الحمد والثناء على أداء ما عليه من الدين والخروج عما عليه من الحق لأن أداء الواجب يقتضى غيره تعالى الله عن أفكهم وكذبهم علواً كبيراً . الإلزام الثانى عشر انه يلزمهم أن يوجبوا على الله عز وجل أن يميته كل من علم من الأطفال انه لو بلغ لكفر وعاند فإن اختراعه هو الأصلى له بلا ريب أو أن يحددوا عليه سبحانه بما سيكون قبل كونه كما التزمه سلفهم الخبيث الذين

واعدا مهم ولم يتضرر سبحانه بذلك . اللازم الرابع أن مافعله الرب تعالى من الإصلاح والأصلح وتركه من الفساد والعبث أو كان واجبا عليه لما استوجب بفعله له حمداً وثناء فإنه في فعله ذلك قد قضى ما وجب عليه وما استوجبه العبد بطاعته من ثوابه فإنه عندكم حقه الواجب له على ربه ومن قضى دينه لم يستوجب بقضائه شيئا آخر . اللازم الخامس أن خلق إبليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع لهم من أن لم يخلق مع أن إقطاعه من العباد من كل ألف تسعانة وتسعة وتسعون . اللازم السادس أنه مع كون خلقه أصلح لهم وأنفع أن يكون أنظاره إلى يوم القيامة أصلح لهم وأنفع من إهلاكه وإماتته . اللازم السابع أن يكون تمكنه من إغوائهم وجريانه منهم مجرى الدم في إبطائهم أنفع لهم وأصلح لهم من أن يحال بينهم وبينه .

اللازم الثامن أن يكون إمامة الرسل أصلح للعباد من بقائهم بين أظهرهم مع هدايتهم لهم وأصلح من أن يحال بينهم وبينها . اللازم التاسع ما ألزمه أبو الحسن الأشعري للجبايى وقد سأله عن ثلاثة إخوة أمات الله أحدهم صغيراً وأحيا الآخرين فاختر أحدهما الإيمان والآخر الكفر فرفع درجة المؤمن البالغ على أخيه الصغير في الجنة لعمله فقال أخوه يارب لم لا تبغى منزلة أخى فقال إنه عاش وعمل أعمالا استحق بها هذه المنزلة فقال يارب فهلا أحييتنى حتى أعمل مثل عمله فقال كان الأصلح لك أن توفيتك صغيراً لأنى علمت أنك إن بلغت اخترت الكفر فكان الأصلح في حقك أن أمتك صغيراً فتأدى أخوهما الثالث من أطباق النار يارب فهلا عملت معى هذا الأصلح واخترتني صغيراً كما عملته مع أخى واخترته صغيراً فأسكت الجبايى ولم يجبه بشئ فإذا علم الله سبحانه أنه لو اخترم العبد قبل البلوغ وكال العقل لكان ناجيا وأو أمهله وسهل له النظر لعاند وكفر وجحد فكيف يقال إن الأصلح في حقه لإبقاؤه حتى يبلغ والمقصود عندكم بالتكليف الاستصلاح والتعويض بأسنى الدرجات التى لا تنال إلا بالأعمال أو ليس الواحد منا إذا علم من حال ولده أنه إذا أعطى ما لا يتجر به فهلك وخسر بسبب ذلك فإنه لا يعرضه لذلك ويقبح منه تعريضه له وهو من رب العالمين حسن غير قبيح وكذلك من علم من حال ولده أنه لو أعطاه سيفاً أو سلاحاً يقاتل به العدو فقتل به نفسه وأعطى السلاح لعدوه فإنه يقبح منه إعطاؤه ذلك السلاح والرب تعالى قد علم من أكثر عباده ذلك ولم يقبح منه سبحانه تمكينهم وإعطائهم الآلات بل هو حسن منه كيف وقد ساعدوا على نفوسهم أن الله سبحانه لو علم أنه لو أرسل رسولا إلى خلقه وكلفه الأداء عنه مع علمه بأنه لا يودى فإن علمه سبحانه بذلك يصرفه عن إرادة الخير والصلاح وهذا بمثابة من أدلى جبلا إلى غريق ليخلص نفسه من الغرق مع علمه بأنه يخلق نفسه به وقد ساعدوا أيضا على نفوسهم بأن الله سبحانه إذا علم أن فى تكليفه عبداً من عباده فساد الجماعة فإنه يقبح تكليفه لأنه استفساد لمن يعلم

معقول على الإطلاق وكيف يعلم أنه سبحانه يجب عليه أن يمدح ويذم ويثيب ويعاقب على الفعل بمجرد العقل وهل ذلك إلا مغيب عنا فمعرفة أنه رضى عن فاعل وسخط على فاعل وأنه يثيب هذا ويعاقب هذا ولم يخبر عنه بذلك مخبر صادق ولا دل على مواقع رضاه وسخطه عقل ولا أخبر عن محكومته ومعلومه مخبر فلم يبق إلا قياس أفعاله على أفعال عباده وهو من أفسد القياس وأعظمه بطلاناً فإنه تعالى كما أنه ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته فكذلك ليس كمثله شيء في أفعاله وكيف يقاس على خلقه في أفعاله فيحسن منه ما يحسن منهم ويقبح منه ما يقبح منهم ونحن نرى كثيراً من الأفعال تقبح منا وهي حسنة منه تعالى كما يلزم الأبطال والحيوان وإهلاك من لو أهلكناه نحن لقبح منامن الأموال والأنفس وهو منه تعالى مستحسن غير مستقبح وقد سئل بعض العلماء عن ذلك فأشدد السائل

ويقبح من سواك الفعل عندى فتفعله فيحسن منك ذاكا

ونحن نرى ترك إتيان الغرقى والهلكى قبيحاً منا وهو سبحانه إذا أغرقهم وأهلكهم لم يكن قبيحاً منه ونرى ترك أحدنا عبده وإمامه يقتل بعضهم بعضاً ويسىء بعضهم بعضاً ويفسد بعضهم بعضاً وهو متمكن من منهم قبيحاً وهو سبحانه قد ترك عباده كذلك وهو قادر على منعهم وهو منه حسن غير قبيح وإذا كان هذا شأنه سبحانه وشأننا فكيف يصح قياس أفعاله على أفعالنا فلا يدرك إذا للوجوب والتحریم عليه وجه كيف والإيجاب والتحریم يقتضى موجباً ومحرمّاً آمراً ناهياً وبينه فرق وبين الذى يجب عليه ويحرم وهذا محال في حق الواحد القهار فالإيجاب والتحریم طلب للفعل والترك على سبيل الاستعلاء فكيف يتصور غائباً قالوا وأيضاً فلهذا الإيجاب والتحریم اللذين زعمتم على الله لوازم فاسدة بدل فسادها على فساد الملزوم . اللزوم الأول إذا أوجبتم على الله تعالى رعاية الصلاح والأصلح في أفعاله فيجب أن توجبوا على العبد رعاية الصلاح والأصلح أيضاً في أفعاله حتى يصح اعتبار الغائب بالشاهد وإذا لم يجب علينا رعائهما بالاتفاق بحسب المقدور بطل ذلك في الغائب ولا يصح تفريقكم بين الغائب والشاهد بالتعب والنصب الذى يلحق الشاهد دون الغائب لأن ذلك لو كان فارقاً في محل الإلزام لكان فارقاً في أصل الصلاح فإن ثبت الفرق في صفته ومقداره ثبت في أصله وإن بطل الفرق ثبت الإلزام المذكور . اللزوم الثانى إن القربات من التوافل صلاح فلو كان الصلاح واجباً وجب وجوب الفرائض . اللزوم الثالث أن خلود أهل النار في النار يجب أن يكون صلاحاً لهم دون أن يردوا فيعتبوا ربهم ويتوبوا إليه ولا ينفعكم اعتذاركم ع هذا الإلزام بأنهم أوردوا لعادوا لما نهوا عنه فإن هذا حق ولكن لو أماتهم وأعدمهم فقط عتابهم كان أصلح لهم ولو غفر لهم ورحمهم وأخرجهم من النار كان أصلح لهم من إمامتهم

وظهر بهذا أن المعاني المستنبطة إذا كانت راجعة إلى مجرد استنباط العقل فيلزم من ذلك أن تكون الحركة الواحدة مشتملة على صفات متناقضة وأحوال متناقضة وليس معنى قولنا أن العقل سائبط منها أنها كانت موجودة في الشيء فاستخرجها العقل بل العقل تردد بين إضافات الاحوال بعضها إلى بعض ونسب الأشخاص والحركات نوعا إلى نوع وشخصا إلى شخص فيطرأ عليه من تلك المعاني ما حكيناه وأحصيناه وربما يبلغ مبلغا يشد عن الإحصاء فمرف بذلك أن المعاني لم ترجع إلى الذات بل إلى مجرد الخواطر الطارئة على الأصل وهي متعارضة . قالوا وأيضا لو ثبت الحسن والقبح العقليان لتعلق بهما الإيجاب والتحریم شاهدا وغائبا على العبد والرب واللازم محال فالملزوم كذلك . أما الملازمة فقد كفاونا أدل الإثبات تقريرها بالانضمام أنه يجب على العبد عقلا بعض الأفعال الحسنة ويحرم عليه القبيح ويستحق الثواب والعقاب على ذلك وأنه يجب على الرب تعالى فعل الحسن ورعاية الصلاح والأصلاح ويحرم عليه فعل القبيح والشر وما لا فائدة فيه كالعبث ووضعوا بعقولهم شريعة أوجبوا بها على الرب تعالى وحرّموا عليه وهذا عندهم ثمرة المسئلة وفائدتها وأما انتفاء اللازم فإن الوجوب والتحریم بدون الشرع ممتنع إذ لو ثبت بدونه لقامت الحججة بدون الرسل والله سبحانه إنما أثبت الحججة بالرسل خاصة . كما قال تعالى (إنما يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأيضا فلو ثبت بدون الشرع لا يستحق الثواب والعقاب عليه وقد نفى الله سبحانه العقاب قبل البعثه . فقال (وما كننا معذبين حتى نبعث رسولا) . وقال تعالى (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كننا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فإنما احتج عليهم بالنذير . وقال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كنتم لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) والحق هاهنا هو ما بعث به المرسلون باتفاق المفسرين . وقال تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير) . وقال تعالى (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) فلا يسألهم تبارك وتعالى عن موجبات عقوبتهم بل عما أجاوبوا به رسله فعليه يقع الثواب والعقاب . وقال تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لعدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) فاحتج عليهم تبارك وتعالى بما عهده إليهم على السنة رسله خاصة فإن عهده هو أمره ونهيه الذي بلغته رسله . وقال تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . فهذا في حكم الوجوب والتحریم على العباد قبل البعثه . وأما انتفاء الوجوب والتحریم على من له الخلق والأمر ولا يسأل عما يفعل فمن وجوه متعددة . أحدها أن الوجوب والتحریم في حقه سبحانه غير

والعقل عندهم إنما يعرفه على هذه الصفة ويستحيل عندهم أن يعرفه بأنه يقتضى ويطلب منه شيئاً أو يأمره وينهاه بشئ كما يعقل الأمر والنهى بالطلب القائم بالأمر والتأهى فاذا لم يقم به طلب استحالة أن يكون أمراً ناهياً فغاية العقل عندهم أن يعرفه على صفة يستحيل عليه الاتصاف بالأمر والنهى فكيف يعرفه على صفة يريد منه طاعة فيستحق عليها ثواباً أو يكره منه معصية يستحق عليها عقاباً وإذ لا أمر ولا نهى يعقل فلا طاعة ولا معصية إذ هما فرع الأمر والنهى فلا ثواب ولا عقاب إذ هما فرع الطاعة والمعصية وغاية ما يقولون إنه يحل في الهواء أو في بحر أفعل أو لا تفعل بشرط أن لا يدل الأمر والنهى المخلوق على صفة ذاتة غير كونه عالماً قادراً ومعلوم أن هذا لا يدل إلا على كون الفاعل قادراً عالماً حياً مريداً لفعله وأما دلالة على حقيقة الأمر والنهى المستلزمة للطاعة والمعصية المستلزمين للثواب والعقاب فلا فتعرف من ذلك أن من نفي قيام الكلام والأمر والنهى بذات الله لم يمكنه إثبات التكليف على العبد أبداً ولا اثبات حكم للفعل بحسن ولا قبح وفي ذلك إبطال الشرائع جملة مع استنادها إلى قول من قامت البراهين على صدقه ودلت المعجزة على نبوته فضلاً عن الأحكام العقلية المتعارضة المستندة إلى عادات الناس المختلفة بالإضافة والنسب والأزمة والامكنة والأقوال وقد عرف بهذا أن من نفي قول الله وكلامه فقد نفي التكليف جملة وصار من أخبث القدرية وشرهم مقالة حيث أثبت تكليفاً وإيجاباً وتحريماً بلا أمر ولا نهى ولا اقتضاء ولا طلب وهذه مقدرته في حق الرب تعالى وأثبت فعلاً وطاعة ومعصية بلا فاعل ولا محدث وهذه مقدرته في حق العبد فليتنبه لهذه الثلاثة . قالوا وأيضاً فما من معنى يستبط من قول أو فعل ليربط به حكم مناسب له إلا ومن جنسه في العقل أمر آخر يعارضه يساويه في الدرجة أو يفضل عليه في المرتبة فيتجهر العقل في الاختيار إلى أن يرد شرع يختار أحدهما ويرجمه من تلقائه فيجب على العاقل اعتباره واختياره لترجيح الشرع له لا لرجحانه في نفسه ونضرب لذلك مثالا فنقول إذا قتل إنسان مثله عرض للعقل الصريح هاهنا آراء متعارضة . مختلفة منها أنه يجب أن يقتل قصاصاً ردعاً للجنة وزجراً للطغاة وحفظاً للحياة وشفاءً للغيظ وتبريداً لحر المصيبة اللاحقة لأولياء القتيل ويعارضه معنى آخر أنه إن تلافى بازاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان ولا يحيا الأول بقتل الثاني ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم وفي القصاص استهلاك محقق فقد تعارض الأمران وربما يعارضه أيضاً معنى ثالث وراهما فيفكر العقل أيراعى شرائط أخر وراء مجرد الإنسانية من العقل والبلوغ والعلم والجهل والكمال والنقص والقراة والأجنبية أولاً فيتجهر العقل كل التحير فلا بد إذا من شارع يفصل هذه الحطة ويقرر قانوناً يطرده عليه أمر الأمة وتستقيم عليه مصالحهم .

يلزم حسنه غائبا إلا بطريق قياس الغائب على الشاهد وهو فاسد لوضوح الفرق المانع من القياس والذي يقطع دابر القياس أن السيد لو رأى عبيده واماءه يمج بعضهم في بعض ويركبون الظلم والفواحش وهو مطلع عليهم قادر على منعهم لقبح ذلك منه والله عز وجل قد فعل ذلك بعباده بل أعانهم وأمدهم ولم يقبح منه سبحانه ولا يصح قولهم أنه سبحانه تركهم لينزجروا بأنفسهم ليستحقوا الثواب لأنه سبحانه قد علم أنهم لا ينزجرون ولم لم يمنهم قهرا فكم ممنوع من الفواحش لهلة وعجز وذلك أحسن من تمكينه مع العلم بأنه لا ينزجر وبالجملة فقياس أفعال الله على أفعال العباد باطل قطعا ومحض التشبيه في الأفعال ولهذا جمعت المعتزلة القدرية بين التعطيل في الصفات والتشبيه في الأفعال فهم معطلة مشبهة لباسهم معلم من الطرفين كيف وأن انقاذ الغريق الذي استدلتهم به حجة عليكم فإن نفس الإغراق والإهلاك يحسن منه سبحانه ولا يقبح وهو أقيح شيء منا فالإنقاذ إن كان حسناً فالإغراق يجب أن يكون قبيحا فإن قلتم لعل في ضمن الإغراق والإهلاك سرا لم نطلع عليه وغرضا لم نصل إليه فقدروا مثله في ترك انقاذنا نحن للغريق بل في إهلاكنا لمن نهلكه والقولان من حيث التكليف والإيجاب مستويان عقلا وشرعا فإنه سبحانه لا يتضرر بمعصية العبد ولا ينتفع بطاعته ولا تتوقف قدرته في الإحسان إلى العبد على فعل يصدر من العبد بل كلما أنعم عليه ابتداء بأجزل المواهب وأفضل العطايا من حسن الصورة وكال الخلقة وقوام البنية واعداد الآلة وإتمام الأداة وتعديل القامة ومامتته به من روح الحياة وفضله به من حياة الأرواح وما أكرمه به من قبول العلم وهداه إلى معرفته التي هي أسنى جوائزه (وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فهو سبحانه أقدر على الإنعام عليه دوما فكيف يوجب على العبيد عبادة شاقة في الحال لارتقاب ثواب في ثانی الحال أليس لو ألقى إليه زمام الاختيار حتى يفعل ما يشاء جريا على سوق طبعه المائل إلى لذیذ الشهوات ثم أجزل له في العطاء من غير حساب كان ذلك أروح للعبد ولم يكن قبيحا عند العقل فقد تعارض الأمران : أحدهما أن يكلفهم فيأمر وينهى حتى بطاع ويعصى ثم يثيبهم ويعاقبهم على فعلهم . الثاني أنه لا يكلفهم بأمر ولا ينهى إذ لا ينتفع سبحانه منهم بطاعة لا يتضرر منهم بمعصية كلا بل لا تكون نعمه ثوابا بل ابتداء وإذا تعارض في العقول هذان الأمران فكيف يهتدى العقل إلى اختيار أحدهما حقاً وقطعا فكيف نعرفنا العقول وجوبا على النفس بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة وعلى الباري سبحانه بالثواب والعقاب . قالوا ولا سيما على أصول المعتزلة القدرية فإن التكليف بالأمر والنهي والإيجاب من الله لا حقيقة له على أصلهم فإنه لا يرجع إلى ذات الرب تعالى صفة يكون بها أمراً ناهيا موجبا مكلفا بالأمر والنهي للخلق ومعلوم أنه لا يرجع إلى ذاته من الخلق صفة

(٤ — مفتاح ٢)

المتوهم فان فرض في بهيمة أو شخص لارقة فيه يفيد تصوره لو تصوره فيبقى أمر آخر وهو طلب الثناء على إحسانه فان فرض بحيث لا يعلم أنه المتقذ فيتوقع أن يعلم فيكون ذلك التوقع باعثاً فان فرض في موضع يستحيل أن يعلم فيبقى ميل وترجيح بضامى نفرة طبع السليم عن الحبل وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فيظن أن الثناء مقرون بها بكل حال كما أنه لما رأى الأذى مقرونا بصورة الحبل فطبعه ينفر عن الأذى فينفر عن المقرون به فالمقرون بالليذ لذيق والمقرون بالمكروه مكروه بل الإنسان إذا جالس من عشقه في مكان فاذا انتهى إليه أحس في نفسه ذلك المكان من غيره قال الشاعر

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومي منها على سبب حب الأوطان

وحب أوطان الرجال إليهم مآرب قضائها الشباب هنالك
إذاذكروا أوطانهم ذكرتهموا عهودا جرت فيها فحنوا لذلك

قالوا وشواهد ذلك مما يكثر وكل ذلك من حكم الوهم قالوا وأما الصبر على السيف في تركه كلمة الكفر مع طمأنينة النفس فلا يستحسنه جميع العقلاء لولا الشرع بل ربما استبحوه فإنما يستحسنه من ينتظر الثواب على الصبر أو من ينتظر الثناء عليه بالشجاعة والصلابة في الدين فكم من شجاع ركب متن الخطر وهجم على عدد وهو يعلم أنه لا يطيقهم ويستحق ما يناله من الألم لما يعتاضه من توهم الثناء والحمد ولو بعد موته وكذلك إخفاء السر وحفظ العهد إنما يتوصى الناس بهما لما فيهما من المصالح ولذلك أكثروا الثناء عليهما فن يحتمل الضرر لانه فأنما يحتمله لأجل الثناء فان فرض من لا يستولى عليه هذا الوهم ولا ينتظر الثناء والثواب فهو يستقبح الشعي في هلاك نفسه بغير فائدة ويستحتمق من يفعل ذلك قطعاً فن يسلم أن مثل ذلك يؤثر الهلاك على الحياة قالوا وهذا هو الجواب عن عرضت له حاجة وأمكن قضاؤها بالصدق والكذب واستويا عنده وإيثاره الصدق على أنا نقول تقدير استواء الصدق والكذب في المقصود مع قطع النظر عن الغير تقدير مستحيل لأن الصدق والكذب متنافيان ومن المحال تساوى المتنافيين في جميع الصفات فلأجل ذلك التقدير المستحيل يستبعد العقل إيثار الكذب ومنع إيثار الصدق قالوا ولا يلزم من استبعاد منع إيثار الصدق على التقدير المستحيل استبعاده في نفس الأمر وإنما يلزم لو كان التقدير المستلزم واقعاً وهو ممنوع قالوا ولئن سلمنا أن ذلك التقدير ممكن فغايتة أن يدل على حسن الصدق شاهداً ولكن لا

أن يكون مقرونا بالأخص ومثاله نفرة نفس الذى نهشته الحمية عن الحبل المرقش اللون لأنه وجد الأذى مقرونا بهذه الصورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى وكذلك ينفر عن العسل إذا شمه بالعذرة لأنه وجد الاستقذار مقرونا بالرطب الأصفر فتوهم أن الرطب الأصفر يقترب به الاستقذار وقد يغلب عليه الوهم حتى يتعذر الأكل وإن كان حكم العقل يكذب الوهم ولكن خلقت قوى النفس مطيعة للأوهام وإن كانت كاذبة حتى إن الطبع ينفر عن حسناء سميت باسم اليهود إذ وجد الاسم مقرونا بالقبح فظن أن القبح أيضا يلزم الاسم ولهذا يورد على بعض العوام مسألة عقلية جلية فيجبها فإذا قلت هذا مذهب الأشعرى أو المعتزلى أو الظاهرى أو غيره نفر عنه إن كان سىء الاعتقاد فيمن نسبته إليه وليس هذا طبع العامى بل طبع أكثر العقلاء المتوسمين بالعلم إلا العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقا وقواهم على إتباعه وأكثر الخلق ترى نفوسهم مطيعة للأوهام الكاذبة مع علمهم بكذبها وأكثر اقدام الخلق وإحجامهم بسبب هذه الأوهام فإن الوهم عظيم الاستيلاء وكذلك ينفر طبع الإنسان عن المبيت في بيت فيه ميت مع قطعه بأنه لا يتحرك ولكنه يتوهم في كل ساعة حركته ونطقه قالوا فإذا انتهت لهذه المشارع عرفت بها سر القضايا التى تستحسنها العقول وسر استحسنائها إياها والقضايا التى تستقبحها العقول وسر استقبحها لها ولنضرب لذلك مثلين وهما مما يحتاج بهما علينا أهمل الإثبات . المثل الأول المملك العظيم المستولى على الأقاليم إذا رأى ضعيفا مشرفا على الهلاك فإنه يميل إلى إنقاذه ويستحسنه وإن كان لا يعتقد أصل الدين لينتظر ثوبا أو مجازاة ولا سيما إذا لم يعرفه المسكين ولم يره بأن كان أعمى أصم لا يسمع الصوت وإن كان لا يوافق ذلك غرضه بل ربما يتعب به بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف إذا أكرهه على كلمة الكفر أو على إفشاء السر ونقض العهد وهو على خلاف غرض الكفرة وعلى الجملة فاستحسن مكارم الأخلاق وإفاضة النعم لا ينكره إلا من عاند المثل الثانى العاقل إذا سئحت له حاجة وأمكن قضاؤها بالصدق كما يمكن بالكذب بحيث تساوى فى حصول الغرض منهما كل التساوى فإنه يؤثر الصدق ويختاره ويميل إليه طبعه وما ذاك إلا حسنه فلو لأن الكذب على صفة يجب عنده الاحراز عنه والامتناع الصدق عنده قالوا وهذا الغرض واضح فى حق من أنكر الشرائع وفى حق من لم تبلغه الدعوة حتى لا يلزمونا كون الترجيع بالتكليف فهذا من حججهم ونحن نجيب عن ذلك فنيين أنه لا يثبت حكم على هذين المثالين فنقول أما قضية إنقاذ المملك وحسنه حتى فى حق من لم تبلغه الدعوة وأنكر الشرائع فسيببه دفع الأذى الذى يلحق الإنسان من رقة القلب وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه وذلك لأن الإنسان يقدر نفسه فى تلك البلية ويقدر غيره معرضا عن الإنقاذ فيستقبحه منه لخالفه غرضه فيعود ويقدر ذلك الاستقباح من المشرف على الهلاك فى حق نفسه فيدفع عن نفسه ذلك القبح

البدهي وإذ لا بدهي فلا مرد له أصلا فلم يبق لهم إلا الاسترواح إلى عادات الناس من تسمية ما يضر بهم قبيحا وما ينفعهم حسنا ونحن لا ننكر أمثال تلك الأسماء على أنها تختلف بعادة قوم وزمان ومكان دون مكان وإضافة دون إضافة وما يختلف بتلك النسب والإضافات للاحقيقة له في الذات فربما يستحسن قوم ذبح الحيوان وربما يستقبحه قوم وربما يكون بالنسبة إلى قوم وزمان حسنا وربما يكون قبيحا لكننا وضعنا الكلام في حكم التكليف بحيث يجب الحسن به وجوبا يثاب عليه قطعا ولا يتطرق إليه لوم أصلا ومثل هذا يتمتع إدراكه عقلا . قالوا فهذه طريقة أهل الحق على أحسن ما تقرر وأحسن ما تحرر . قالوا وأيضا فنحن لا ننكر إشتهار حسن الفضائل التي ذكر ضربهم بها الأمثال وقبحها بين الخلق وكونها محمودة مشكورة مثني على فاعلها أو مذمومة مذمومة فاعلها ولكننا ثبتها إما بالشرائع وإما بالأغراض ونحن إنما نذكرها في حق الله عز وجل لا لتفاء الأغراض عنه فأما إطلاق الناس هذه الألفاظ فيما يدور بينهم فيستمد من الأغراض ولكن قد تبدو الأغراض وتخفى فلا يثبتها إلا المحققون . قالوا ونحن ننبه على مشاركات الغلط فيه وهي ثلاثة مشاركات يغلط الوهم فيها ، الأولى أن الإنسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه وإن كان يوافق غرض غيره من حيث أنه لا يلتفت إلى الغير فإن كل طبع مشغوف بنفسه ومستحققر لغيره فيقضي بالقبح مطلقا وربما يضيف القبح إلى ذات الشيء ويقول هو في نفسه قبيح فقد قضى بثلاثة أمور هو مصيب في واحد منها وهو أصل الاستقبح مخطيء في أمرين أحدهما إضافة القبح إلى ذاته وغفل عن كونه قبيحا لخالفه غرضه والثاني حكمه بالقبح مطلقا ومنشؤه عدم الالتفات إلى غيره بل عن الالتفات إلى بعض أحوال نفسه فإنه قد يستحسن في بعض الأحوال عين ما يستقبحه إذا اختلف الغرض . الغلطة الثانية سببها أن الوهم غالب للعقل في جميع الأحوال إلا في حالة نادرة قد لا يلتفت الوهم إلى تلك الحالة النادرة عند ذكرها كحكمه على الكذب بأنه قبيح مطلقا وغفله عن الكذب الذي يستفاد منه عصمة نبي أو ولي وإذا قضى بالقبح مطلقا واستمر عليه مرة وتكرر ذلك على سمعه ولسانه أنغرس في قلبه استقبحه والنفرة منه فلو وقعت تلك الحالة النادرة وجد في نفسه نفرة عنه لطول نشوه على الاستقبح فانه ألقي إليه منذ الصبا على سبيل التأديب والإرشاد أن الكذب قبيح لا ينبغي أن يقدم عليه أحد ولا يذنبه على حسنه في بعض الأحوال خيفة من أن لا تستحكم نفرة عن الكذب فيقدم عليه وهو قبيح في أكثر الأحوال والسمع في الصغر كالنقش في الحجر وينغرس في النفس ويحد التصديق به مطلقا وهو صدق لكن لا على الإطلاق بل في أكثر الأحوال اعتدقه مطلقاً . الغلطة الثالثة سببها سبق الوهم إلى العكس فان من رأى شيئا مقرونا بشيء يظن أن الشيء لا محالة مقرون به مطلقا ولا يدري أن الأخص أبداً مقرون بالأعم والأعم لا يلزم

هذا فيكونه متعلقاً للثواب والعقاب والمدح والذم عقلي وإن كان وقوع العقاب موقوفاً على شرط وهو ورود السمع وهل يقال أن الاستحقاق ليس بناتٍ لأن ورود السمع شرط فيه هذا فيه طريقان للناس ولعل النزاع لفظي فإن أريد بالاستحقاق الاستحقاق التام فالحق نفيه وأن أريد به قيام السبب والتخلف لفوات شرط أو وجود مانع فالحق إثباته فعادت الأقسام الثلاثة أعنى الكمال والنقصان والملاءمة والمنافرة والمدح والذم إلى عرف واحد وهو كون الفعل محبوباً أو مبغوضاً ويلزم من كونه محبوباً أن يكون كمالاً وأن يستحق عليه المدح والثواب ومن كونه مبغوضاً أن يكون نقصاً يستحق به الذم والعقاب فظهر أن التزام لوازم هذا التفصيل وإعطائه حقه يرفع النزاع ويعيد المسئلة اتفاقية ولكن أصول الطائفتين تأبى التزام ذلك فلا بد لهما من التناقض إذا طردوا أصولهم وأما من كان أصله إثبات الحكمة واتصاف الرب تعالى بها وإثبات الحب والبغض له وأنهما أمر وراء المشيئة العامة فأصول مستلزمة لغروعه وفروعه دالة على أصوله فأصوله وفروعه لا تتناقض وأدلتها لا تتعارض ولا تتعارض. قال الفاعل لو قدر نفسه وقد خلق تام الخلقة كامل العقل دفعة واحدة من أن يتخلق بأخلاق قوم ولا تأدب بتأديب الأيوين ولا تربى في الشرع ولا تعلم من متعلم ثم عرض عليه أمران أحدهما الإثمين أكثر من الواحد والثاني أن الكذب قبيح بمعنى أنه يستحق من الله تعالى لوماً عليه لم نشك أنه لا يتوقف في الأول ويتوقف في الثاني ومن حكم بأن الأمرين سميان بالنسبة إلى عقله خرج عن قضايا العقول وعاند كعناد الفضول كيف وأو تقرر عنده أن الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا يلتفت بصديق وأن القولين في حكم التكليف على وتيرة واحدة لم يمكنه أن يرد أحدهما دون الثاني بمجرد عقله . والذي يوضحه أن الصدق والكذب على حقيقة ذاتية لا تتحقق ذاتهما إلا بأركان تلك الحقيقة مثلاً كما يقال أن الصدق إخبار عن أمر على ما هو عليه والكذب إخبار عن أمر على خلاف ما هو به ونحن نعلم أن من أدرك هذه الحقيقة عرف المحقق ولم يخطر بباله كونه حسناً أو قبيحاً فلم يدخل الحسن والقبح إذا في صفاتهما الذاتية التي تحققت حقيقتهم بها ولوازمها في الوهم بالبدية كما بينا ولا لزمها في الوجود ضرورة فإن من الأخبار التي هي صادقة ما يلام عليه من الدلالة على هرب من ظالم ومن الأخبار التي هي كاذبة ما يثاب عليها مثل انكار الدلالة عليه فلم يدخل كون الكذب قبيحاً في حد الكذب ولا لزمه في الوهم ولا لزمه في الوجود فلا يجوز أن يعد من الصفات الذاتية التي تلزم النفس وجوداً وعدماً عندهم ولا يجوز أن يعد من الصفات التابعة للحدوث فلا يعقل بالبدية ولا بالنظر فإن النظر لا بد أن يرد إلى الضروري أي

بالسكينة وأنسكروها جملة فلا حكمة عندهم ولا تعليل ولا محبة تزيد على المشيئة ولما أنكر الممتزلة رجوع الحكمة إليه تعالى سلطوا عليهم خصومهم فأبدوا تناقضهم وكشفوا عورتهم ولما سلك أهل السنة القول الوسط وتوسطوا بين الفريقين لم يطمع أحد في مناقضتهم ولا في إفساد قولهم وأنت إذا تأملت حجج الطائفتين وما أزمته كل منهما للأخرى علمت أن من سلك القول الوسط لم يلزمه شيء من إزاماتهم ولا تناقضهم والحمد لله رب العالمين هادي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فصل

وقد سلم كثير من النفاة أن كون الفعل حسناً أو قبيحاً بمعنى الملامة والمنافرة والكمال والنقصان عقلي وقال نحن لانازعكم في الحسن والقبح بهذين الاعتبارين وإنما النزاع في إثباته عقلاً بمعنى كونه متعلق المدح والذم عاجلاً والثواب والعقاب آجلاً فعندنا لا مدخل للعقل في ذلك وإنما يعلم بالسمع المجرد قال هؤلاء ، فيطلق الحسن والقبح بمعنى الملامة والمنافرة وهو عقلي وبمعنى الكمال والنقصان وهو عقلي وبمعنى إستلزامه للثواب والعقاب وهو محل النزاع وهذا التفصيل لو أعطى حقه وألزمته لوازمه رفع النزاع وأعاد المسئلة إتفاقية وأن كون الفعل صفة كمال أو نقصان يستلزم إثبات تعلق الملامة والمنافرة لأن الكمال محبوب للعالم والنقص مبغوض له ولا معنى للملامة والمنافرة إلا الحب والبغض فإن الله سبحانه يحب الكمال من الأفعال والأقوال والأعمال ومحبه لذلك بحسب كماله ويبغض الناقص منها ويمقته ومقته له بحسب نقصانه ولهذا أسلفنا أن من أصول المسئلة إثبات صفة الحب والبغض لله فتأمل كيف عادت المسئلة إليه وتوقفت عليه والله سبحانه يحب كل ما أمر به ويبغض كل ما نهى عنه ولا يسمى ذلك ملامة أو منافرة بل يطلق عليه الأسماء التي أطلقها على نفسه وأطلقها عليه رسوله من محبه للفعل الحسن المأمور به وبغضه للفعل القبيح ومقته له وما ذاك إلا الكمال الأول ونقصان الثاني فإذا كان الفعل مستلزماً للكمال والنقصان واستلزامه له عقلي والكمال والنقصان يستلزم الحب والبغض الذي سميتوه ملامة ومنافرة واستلزامه عقلي فيبان كون الفعل حسناً كاملاً محبوباً مرضياً وكونه قبيحاً ناقصاً مسخوطةً مبغوضاً أمر عقلي بقى حديث المدح والذم والثواب والعقاب ومن أحاط علماً بما أسلفناه في ذلك انكشف له المسئلة وأسفرت عن وجهها وزال عنها كل شبهة وإشكال فأما المدح والذم فترتبه على النقصان والكمال والمتصف به وذمهم لمؤثر النقص والمتصف به أمر عقلي فطرى وانكاره يزاحم المسكابة وأما العقاب فقد قررنا أن ترتبه على فعل القبيح مشروط بالسمع وأنه إنما انتفى عند انتفاء السمع انتفاء المشروط لا انتفاء شرطه لا انتفاءه لا انتفاء سببه فإن سببه قائم ومقتضيه موجود إلا أنه لم يتم لتوقفه على شرطه وعلى

وتعالى قيام الصفة به فيرجع إليه حكمها ويشق له إسما أم يرجع إلى المخلوق فقط من غير أن يعود إلى الرب منها حكم أو يشق له منها اسم . الأصل الثالث هل تعلق إرادة الرب تعالى بجميع الأفعال تعلق واحد فما وجد منها فهو مرادله محبوب مرضى طاعة كان أو معصية وما لم يوجد منها فهو مكروه له مبغوض غير مراد طاعة كان أو معصية فهو يجب الأفعال الحسنة التي هي منشأ المصالح وإن لم يشأ تكوينها وإيجادها لأن في مشيئته لإيجادها فوات حكمة أخرى هي أحب إليه منها وببغض الأفعال القبيحة التي هي منشأ المفاسد وبمنعها ويمقت أهلها وإن شاء تكوينها وإيجادها لما تستلزمه من حكمة ومصلحة هي أحب إليه منها . ولا بد من توسط هذه الأفعال في وجودها فهذه الأصول الثلاثة عليها مدار هذه المسئلة ومسائل القدر والشرع . وقد اختلف الناس فيها قديماً وحديثاً إلى اليوم فالجبرية تنفي الأصول الثلاثة وعندهم أن الله لا يفعل لحكمة ولا يأمر لها ولا يدخل في أمره وخلقه لام التعليل بوجه وإنما هي لام العاقبة كما لا يدخل في أفعاله بآء السببية وإنما هي بآء المصاحبة ومنهم من يثبت الأصل الثالث وينفي الأصلين الأولين كما هو أحد القولين للأشعرى وقول كثير من أئمة أصحابه وأحد القولين لأبى المعالى والمشهور من مذهب المعتزلة إثبات الأصل الأول وهو التعليل بالحكم والمصالح ونفى الثاني بناء على قواعدهم الفاسدة في نفي الصفات . فأما الأصل الثالث فهم فيه ضد الجبرية من كل وجه فهما طرفا نقيض فإنهم لا يثبتون لأفعال العباد سوى المحبة لحسنها والبغض لقبحها وأما المشيئة لها فعندهم أن مشيئة الله لا تتعلق بها بناء منهم على نفي خلق أفعال العباد فليست عندهم إرادة الله لها إلا بمعنى محبته لحسنها فقط وأما قبيحها فليس مراداً لله بوجه وأما الجبرية فعندهم أنه لم يتعلق بها سوى المشيئة والإرادة وأما المحبة فعندهم فهي نفس الإرادة والمشيئة فما شاء فقد أحبه ورضيه . وأما أصحاب القول الوسط وهم أهل التحقيق من الأصوليين والفقهاء والمتكلمين فيثبتون الأصول الثلاثة فيثبتون الحكمة المقصودة بالفعل في أفعاله تعالى وأوامره ويعملونها عائدة إليه حكماً ومشتقاً لإسمها فالمعاصي كلها مقوثة مكروهة وإن وقعت بمشيئته وخلقه والطاعات كلها محبوبة له مرضية وإن لم يشأها ممن لم يطعه ومن وجدت منه فقد تعلق بها المشيئة والحب فما لم يوجد من أنواع المعاصي فلم تتعلق به مشيئته ولا محبته وما وجد منها تعلقت به مشيئته دون محبته وما لم يوجد من الطاعات المقدرة تعلق بها محبته دون مشيئته وما وجد منها تعلق به محبته ومشيتته ومن لم يحكم هذه الأصول الثلاثة لم يستقر له في مسائل الحكم والتعليل والتحسين والتقبيح قدم بل لا بد من تناقضه ويتسلط عليه خصومه من جهة نفيه لواحد منها ولهذا لما رأى القدرية والجبرية أنهم لو سلموا للمعتزلة شيئاً من هذه تسلطوا عليهم به سدوا على أنفسهم الباب

الصادقين وإنه لا يقبح منه واستزامه التسوية بين التثليث والتوحيد في العقل وإنه قبل ورود النبوة لا يقبح التثليث ولا عبادة الأصنام ولا مسبة المعبود ولا شيء من أنواع الكفر ولا السعي في الأرض بالفساد ولا تقييح شيء من القبائح أصلاً وقد التزم النفاسة ذلك وقالوا أن هذه الأشياء لم تقبح عقلاً وإنما جمة قبحها السمع فقط وأنه لا فرق قبل السمع بين ذكر الله والثناء عليه وحده وبين ضد ذلك ولا بين شكره بما يقدر عليه العبد وبين ضده ولا بين الصدق والكذب والعفة والفجور والإحسان إلى العالم والاساءة إليهم بوجه ما وإنما التفريق بالشرع بين منائيل من كل وجه وقد كان تصور هذا المذهب على حقيقته كافياً في العلم ببطلانه وأن لا يتكلف رده ولهذا رغب عنه فحول الفقهاء والنظار من الطوائف كلهم فأطبق أصحاب أبي حنيفة على خلافه وحكوه عن أبي حنيفة نصاً واختاره من أصحاب أحمد أبو الخطاب وابن عقيل وأبو يعلى الصغير ولم يقل أحد من متقدميهم بخلافه ولا يمكن أن يتحمل عنهم حرف واحد موافق للنفاة واختاره من أئمة الشافعية الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الكبير وبالغ في إثباته وبني كتابه محاسن الشريعة عليه وأحسن فيه ماشاء وكذلك الإمام سعيد بن علي الزنجاني بالغ في إنكاره على أبي الحسن الأشعري القول بنفي التحسين والتقبيح وأنه لم يسبقه إليه أحد وكذلك أبو القاسم الراغب وكذلك أبو عبد الله الحليمي وخلائق لا يحصون وكل من تكلم في علل الشرع ومحاسنه وما تضمنه من المصالح ودرء المفاسد فلا يمكنه ذلك إلا بتقرير الحسنة والقبح العقليين إذ لو كان حسنة وقبحه بمجرد الأمر والنهي لم يتعرض في إثبات ذلك لغير الأمر والنهي فقط وعلى تصحيح ذلك فالإسلام في القياس وتعليق الأحكام بالأوصاف المناسبة المقترنة لها دون الأوصاف الطردية التي لا مناسبة فيها فيجعل الأول ضابطاً للحكم دون الثاني لا يمكن إلا على إثبات هذا الأصل فلو تساوت الأوصاف في أنفسها لانسد باب القياس والمناسبات والتعليل بالحكم والمصالح ومراعات الأوصاف المؤثرة دون الأوصاف التي لا تأثير لها.

فصل

وإذ قد اتفينا في هذه المسئلة إلى هذا الموضع وهو بحرهما ومعظمهما فلنذكر سرها وغايتها وأصولها التي أثبتت عليها فبذلك تتم الفائدة فإن كثيراً من الأصوليين ذكروها مجردة ولم يتعرضوا سرها وأصلها الذي أثبتت عليه والمسئلة ثلاثة أصول هي أساسها . الأصل الأول هل أفعال الرب تعالى وأوامره معللة بالحكم والغايات وهذه من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر بالشرع والقدر . الأصل الثاني أن تلك الحكم المقصودة فعل يقوم به سبحانه

آخر لا يفيد شيئاً وبعد فهمي شبهة فاسدة من وجوه : أحدها أن يقال ما تعنون بأن تعلق الطلب بالفعل ذاتي له أتعنون به ان التعلق مقوم لماهية الطلب وان تقوم الماهية به كتقومها بجنسها وفصلها أم تعنون به انه لا تعلق ماهية الطلب الا بالتعلق المذكور أم أمراً آخر فإن عنيتم الأول والتعلق نسبة اضافية وهي عدمية عندكم لا وجود لها في الأعيان فكيف تكون النسبة العدمية مقومة للماهية الوجودية وأنتم تقولون انه ليس لتعلق الطلب من الطلب صفة ثبوتية لأن هذا هو الكلام النفسى وليس لتعلق القول فيه صفة ثبوتية وان عنيتم الثانى فلا يلزم من ذلك توقف الطلب على اعتبار زائد على الفعل يكون ذلك الاعتبار شرطاً فى الطلب وان عنيتم أمراً ثالثاً فلا بد من بيانه وعلى تقدير بيانه فإنه لا ينافى توقف التعلق على الشرط المذكور . الثانى ان غاية ما قررتموه ان التعلق ذاتى للطلب والذاتى لا يعمل كما ادعيتموه فى المنطق دعوى مجردة ولم تقرروه ولم تبينوا ما معنى كونه غير معلل حتى ظن بعض المقلدين من المنطقيين ان معناه ثبوتية الذات لنفسه بغير واسطة وهذا فى غاية الفساد لا يقوله من يدري ما يقول وإنما معناه انه لا تحتاج الذات فى اتصافها به الى علة مغايرة لعل وجودها بل علة وجودها هى علة اتصاف الذات فهذا معنى كونه غير معلل بعلة خارجية عن علة الذات بل علة الذات علته وليس هذا موضع استقصاء الكلام على ذلك والمقصود أن كون التعلق ذاتياً للطلب فلا يعمل بغير علة الطلب لا ينافى توقفه على شرط فهب أن صفة الفعل لا تكون علة للتعلق فما المانع أن تكون شرطاً له ويكون تعلق الطلب بالفعل مشروطاً بكونه على الجهة المذكورة فإذا انتفت تلك الجهة انتفى التعلق لانتهاء شرطه وهذا مما لم يتعرضوا لبطلانه أصلاً ولا سبيل لكم إلى ابطاله . الثالث إن قولك الطلب قديم والجهة المذكورة حادثة للفعل ولا يصح توقف القديم على الحادث كلام فى غاية البطلان فإن الفعل المطلوب حادث والطلب متوقف عليه إذ لا تصور ماهية الطلب بدون المطلوب فما كان جوابكم عن توقف الطلب على الفعل الحادث فهو جوابنا عن توقفه على جهة الفعل الحادثة فإن جهته لا تزيد عليه بل هى صفة من صفاته فان قلتم التوقف ها هنا إنما هو لتعلق الطلب بالمطلوب لا لنفس الطلب ولا تجدون محذوراً فى توقف التعلق لأنه حادث . قلنا فهلا قطعتم بهذا الجواب فى صفة الفعل وقلتم التوقف على الجهة المذكورة هو توقف التعاقى لا توقف نفس الطلب فنسبة التعلق إلى جهة الفعل كنسبته إلى ذاته ونسبة الطلب إلى الجهة كنسبته إلى نفس الفعل سواء بسواء فنسبة القديم إلى أحد الحادثين كنسبته إلى الآخر ونسبة تعلقه بأحد الحادثين كنسبة تعلقه بالآخر فتبين فساد الدليل المذكور وحسبك بمذهب فساد استلزامه جواز ظهور المعجزة على يد الكاذب وإنه ليس بقبيح واستلزامه جواز نسبة الكذب إلى أصدق

سببه ومقتضيه وهذا فصل الخطاب في هذا المقام وبه يزول كل إشكال في المسئلة وينقشع غيمها ويسفر صبرها والله الموفق للصواب . واحتج بعضهم أيضا بأن قال لو كان الفعل حسنا لذاته لامتنع الشارع من نسخه قبل إيقاع المكلف له وقبل تمكنه منه لأنه إذا كان حسنا لذاته فهو منشأ للمصلحة الراجحة فكيف ينسخ ولم تحصل منه تلك المصلحة . وأجاب المعتزلة عن هذا بالترامه ومنعوا النسخ قبل وقت الفعل ونازعهم جمهور هذه الأمة في هذا الأصل وجوزوا وقوع النسخ قبل حضور وقت الفعل ثم انقسموا قسمين فنفاة التحسين والتقييح بنوه على أصلهم ومثبتو التحسين والتقييح أجابوا عن ذلك بأن المصلحة كما تنشأ من الفعل فإنها أيضا قد تشأ من العزم عليه وتوطين النفس على الامثال وتكون المصلحة المطلوبة هي العزم وتوطين النفس لا إيقاع الفعل في الخارج فإذا أصر المكلف بأمر فعزم عليه وتبأ له ووطن نفسه على امثاله فحصلت المصلحة المرادة منه لم يمتنع نسخ الفعل وإن لم يوقعه لأنه لا مصلحة له فيه وهذا كما أمر إبراهيم الخليل بذبح ولده فإن المصلحة لم تكن في ذبحه وإنما كانت في استسلام الوالد والولد لأمر الله وعزمهما عليه وتوطينهما أنفسهما على امثاله فلما حصلت هذه المصلحة بقي الذبح مفسدة في حقهما فنسخه الله ورفعوه وهذا هو الجواب الحق الشافي في المسئلة وبه تبين الحكمة الباهرة في اثبات ما أثبتته الله من الأحكام ونسخ ما نسخه منها بعد وقوعه ونسخ ما نسخ منها قبل إيقاعه وإن له في ذلك كله من الحكم البالغة ما تشهد له بأنه أحكم الحاكمين وأنه اللطيف الخبير الذي بهت حكيمته العقول فتبارك الله رب العالمين . وبما احتج به النفاة أيضا أنه لو حسن الفعل أو قبح لغير الطلب لم يكن تعلق الطلب لنفسه لتوقفه على أمر زائد . وتقرير هذه الحجة ان حسن الفعل وقبحه لا يجوز أن يكون لغير نفس الطلب بل لا معنى لحسنه إلا لكونه مطلوباً للشارع إيجابه ولا لقبحه إلا لكونه مطلوباً له لإعدامه لأنه لو حسن وقبح لمعنى غير الطلب الشرعى لم يكن الطلب متعلقاً بالمطلوب لنفسه بل كان التعلق لأجل ذلك المعنى فيتوقف الطلب على حصول الاعتبار الزائد على الفعل وهذا باطل لأن التعلق نسبة بين الطلب والفعل والنسبة بين الأمرين لا تتوقف إلا على حصولهما فإذا حصل الفعل تعلق الطلب به سواء حصل فيه اعتبار زائد على ذاته أولا . فإن قلتم الطلب وإن لم يتوقف إلا على الفعل المطلوب والفاعل المطلوب منه لكن تعلقه بالفعل متوقف على جهة الحسن والقيح المقتضى لتعلق الطلب به . قلنا الطلب قديم والجهة الموجبة للحسن والقيح حادثة ولا يصح توقف القديم على الحادث وسر الدليل أن تعلق الطلب بالفعل ذاتي فلا يجوز أن يكون معللاً بأمر زائد على الفعل إذ لو كان تعلقه به معللاً لم يكن ذاتياً وهذا وجه تقرير هذه الشبهة وإن كان كثير من شراح المختصر لم يفهموا تقريرها على هذا الوجه فقرروها على وجه

يتمتع ثبوته مع المساواة ومع المرجوحية . أما الأول فلاستلزامه الترجيح بلا مرجح . وأما الثاني فلاستلزامه ترجيح المرجوح وهو باطل بصريح العقل فلا يثبت إلا مع المرجح التام وحينئذ فيأوله عدم الاختيار وما يجهلون به عن الإلزام المذكور هو جوابكم بعينه عن شبهتكم التي استدلتكم بها . الخامس أن هذه التهمة الفاسدة مستلزمة لأحد الأمرين ولا بد إما الترجيح بلا مرجح وإما أن لا يكون البارئ تعالى مختاراً كما قررتم وكلاهما باطل . السادس أنها تقتضي أن لا يكون في الوجود قادر مختار إلا من يرجح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وأما من رجح أحد الجانبين بمرجح فلا يكون مختاراً وهذا من أبطال الباطل بل القادر المختار لا يرجح أحد مقدره على الآخر إلا بمرجح وهو معلوم بالضرورة ، واحتج النفاة أيضاً بقوله تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ووجه الاحتجاج بالآية أنه سبحانه نفى التعذيب قبل بعثة الرسل فلو كان حسن الفعل وقبحه ثابتاً له قبل الشرع لكان مرتكب القبح وتارك الحسن فاعلاً للحرام وتاركا للواجب لأن قبحه عقلا يقتضي تحريمه عقلا عندكم وحسنه عقلا يقتضي وجوبه عقلا فإذا فعل المحرم وترك الواجب استحق العذاب عندكم والقرآن نص صريح أن الله لا يعذب بدون بعثة الرسل . فهذا تقرير الاستدلال احتجاجاً والتزاماً ولا ريب أن الآية حجة على تناقض المشبتهين إذا أثبتوا التعذيب قبل البعثة فيلزم تناقضهم وإبطال جمعهم بين هذين الحكمين إثبات الحسن والقبح عقلا وإثبات التعذيب على ذلك بدون البعثة وليس لإبطال القول بمجموع الأمرين موجبا لإبطال كل واحد منهما فلعل الباطل هو قولهم بجواز التعذيب قبل البعثة وهذا هو المتعين لأنه خلاف نص القرآن وخلاف صريح العقل أيضاً فإن الله سبحانه إنما أقام الحجة على العباد برسله قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) فهذا صريح بأن الحجة إنما قامت بالرسل وأنه بعد مجيئهم لا يكون للناس على الله حجة وهذا يدل على أنه لا يعذبهم قبل مجيء الرسل إليهم لأن الحجة حينئذ لم تقم عليهم فالصواب في المسئلة إثبات الحسن والقبح عقلا ونفى التعذيب على ذلك إلا بعد بعثة الرسل فالحسن والقبح العقلي لا يستلزم التعذيب وإنما يستلزمه مخالفة المرسلين ، وأما المعتزلة فقد أجابوا عن ذلك بأن قالوا الحسن والقبح العقلي يقتضي استحقاق العقاب على فعل القبيح وترك الحسن ولا يلزم من استحقاق العقاب وقوعه لجواز العفو عنه قالوا ولا يرد هذا علينا حيث نمنع العفو بعد البعثة إذا أوعد الرب على الفعل لأن العذاب قد صار واجبا بخبره ومستحقا بارتكاب القبيح وهو سبحانه لم يحصل منه إيعاد قبل البعثة فلا يقبح العفو لأنه لا يستلزم خلفا في الخبر وإنما غايته ترك حق له قد وجب قبل البعثة وهذا حسن والتحقيق في هذا أن سبب العقاب قائم قبل البعثة ولكن لا يلزم من وجود سبب العذاب حصوله لأن هذا السبب قد نصب الله تعالى له شرطا وهو بعثة الرسل وانتفاء التعذيب قبل البعثة هو لا انتفاء شرطه لعدم

المستقيمة ولا تنقض طرف بصيرتك عن هذه المسئلة فان شأنها عظيم وخطبها جسيم . وقد احتج بعضهم بدليل أفسد من هذا كله فقالوا لو حسن الفعل أوقبح لذاته أو لصفته لم يكن الباري مختاراً في الحكم لأن الحكم بالمرجوح على خلاف المعقول فيلزم الآخر فلا اختيار وتقرير هذا الاستدلال ببيان الملازمة المذكورة أو لا وبين انقضاء اللازم ثانياً . أما المقام الأول وهو بيان الملازمة فان الفعل لو حسن لذاته أو لصفته لكان راجحاً على الحسن في كونه متعلقاً للوجوب أو الندب ولو قبح لذاته أو لصفته لكان راجحاً على الحسن في كونه متعلقاً للتحريم أو الكراهة فحينئذ إما أن يتعلق الحكم بالراجح مقتضى له أو المرجوح مقتضى لصدقه والثاني باطل قطعاً لاستلزامه ترجيح المرجوح وهو باطل بصريح العقل فتعين الأول ضرورة فاذا كان تعلق الحكم بالراجح لازماً ضرورة لم يكن الباري مختاراً في حكمه فتأمل هذه الشبهة ما أفسدها وأبين بطلانها والعجب ممن يرضى لنفسه أن يحتج بمثلها وحسبك فساد الحجة مضمونها أن الله تعالى لم يشرع السجود له وتعظيمه وشكره ويحرم السجود للصنم وتعظيمه لحسن هذا وقبح هذا مع استوائهما تفريقاً بين المتماثلين فأى برهان أوضح من هذا على فساد هذه الشبهة الباطلة . الثاني أن يقال هذا يوجب أن تكون أفعاله كلها مستلزمة للترجيح بغير مرجح إذ لو ترجح الفعل منها بمرجح لزم عدم الاختيار بعين ما ذكرتم إذا الحكم بالمرجح لازم . فان قيل لا يلزم الاضطرار وترك الاختيار لأن المرجح هو الإرادة والاختيار . قيل فهلا قنعتم بهذا الجواب منا وقتئذ إذا كان اختياره تعالى متعلقاً بالفعل لما فيه من المصلحة الداعية إلى فعله وشرعه وتحريمه له لما فيه من المفسدة الداعية إلى تحريمه والمنع منه فكان الحكم بالراجح في الموضوعين متعلقاً باختياره تعالى وإرادته فانه الحكم في خلقه وأمره فإذا علم في الفعل مصلحة راجحة شرعية وأوجبه شرعه ووضعه وإذا علم فيه مفسدة راجحة كرهه وأبغضه وحرمه هذا في شرعه وكذلك في خلقه لم يفعل شيئاً إلا ومصلحته راجحة وحكمته ظاهرة واشتماله على المصلحة والحكمة التي فعله لأجلها لا ينافي اختياره بل لا يتعلق بالفعل إلا لما فيه من المصلحة والحكمة وكذلك تركه لما فيه من خلاف حكمته فلا يلزم من تعلق الحكم بالراجح أن لا يكون الحكم اختيارياً فإن المختار الذي هو الحكم الحاكمين لا يختار إلا ما يكون على وفق الحكمة والمصلحة . الثالث أن قوله إذا لزم تعلق الحكم بالراجح لم يكن مختاراً تلبس فإنه إنما تعلق بالراجح باختياره وإرادته واختياره وإرادته اقتضت تعلقه بالراجح على وجه اللزوم فكيف لا يكون مختاراً واختياره استلزم تعلق الحكم بالراجح . الرابع إن تعلق حكمه تعالى بالفعل المأمور به أو المنهى عنه إما أن يكون جائز الوجود والعدم أو راجح الوجود أو راجح العدم فان كان جائز الطرفين لم يترجح أحدهما إلا بمرجح وإن كان راجحاً فالتعلق لازم لأن الحكم

قبيحا وان الذى يحسن ويحب إنما هو التورية وهى صدق وقد يطلق عليها الكذب بالنسبة إلى الافهام لا إلى العناية . الطريق الثانى أن تخلف القبح عن الكذب لفوات شرط أو قيام مانع يقتضى مصلحة راجعة على الصدق لاتخرجه عن كونه قبيحا لذاته وتقريره ما تقدم . وقد تقدم أن الله سبحانه حرم الميتة والدم ولحم الخنزير للمفسدة التى فى تناولها وهى ناشئة من ذوات هذه المحرمات وتخاف التحريم عنها عند الضرورة لا يوجب أن تكون ذاتها غير ممتضية للمفسدة التى حرمت لأجلها . فمكذبا الكذب المتضمن نجاة نبي أو مسلم . الوجه الرابع قوله لو كان ذاتيا لاجتماع النقيضان فى صدق من قال لا كذبت غداً إلى آخر ما ذكر . جوابه انه متى يجتمع النقيضان إذا كان الحسن والقبح باعتبار واحد من جهة واحدة أو إذا كانا باعتبارين من جهتين أو أعم من ذلك فان عنيتم الأول فسلم ولكن لانسلم الملازمة فانه لا يلزم من اجتماع الحسن والقبح فى الصورة المذكورة أن يكون لجهة واحدة واعتبار واحد فان اجتماع الحسن والقبح فيهما باعتبارين مختلفين من جهتين متباينتين وهذا ليس بمتنعاً فانه إذا كان كذباً كان قبيحاً بالنظر إلى ذاته وحسناً بالنظر إلى تضمنه صدق الخبر الأول ونظيره أن يقول والله لأشربن الخمر غداً أو والله لأسرقن هذا الثوب غداً ونحوه . وان عنيتم الثانى فهو حق ولكن لانسلم انتفاء اللازم وان عنيتم الثالث منعنا الملازمة أيضاً على التقدير الأول وانتفاء اللازم على التقدير الثانى وهذا واضح جداً . الوجه الخامس قوله القتل والضرب حسن إذا كان حداً أو قصاصاً وقبيح فى غيره فلو كان ذاتيا لاجتماع النقيضان كلام فى غاية الفساد فان القتل والضرب واحد بالنوع والقبيح ما كان ظاهراً وعدواناً والحسن منه ما كان جزاءً على إساءة أما حداً وأما قصاصاً فلم يرجع الحسن والقبح إلى واحد بالعين ونظيره هذا السجود فانه فى غاية الحسن لذاته إذا كان عبودية وخضوعاً للواحد المعبود وفى غاية القبح إذا كان لغيره ولو سلمنا أن القتل والضرب الواحد بالعين إذا كان حداً أو قصاصاً فانه يكون حسناً قبيحاً لم يكن ذلك محالاً لأنه باعتبارين فهو حسن لما تضمنه من الزجر والنكال وعقوبة المستحق وقبيح بالنظر إلى المقتول المضروب فهو قبيح له حسن فى نفسه وهذا كما أنه مكروه مبهوض له وهو محبوب مرضى لفاعله والأمر به فأى محال فى هذا فظهر أن هذا الدليل فاسد والله أعلم

فصل

فهذه أقوى أدلة النفاة باعترافهم بضعف ماسواها فلا حاجة بنا إلى ذكرها وبيان فسادها فقد تبين الصريح لذى عينين وجلبت عليك المسئلة رافلة فى حلال أدلتها الصحيحة وبراهينها

لا يوجب اختلافه بدليل ما ذكرنا من الصور . الثالث انه يجوز اقتضاء الذات الواحدة
لأمرين متنافيين بحسب شرطين متنافيين فيقتضى التبريد مثلاً في محل معين بشرط معين
والسخن في محل آخر بشرط آخر والجسم في حيزه يقتضى السكون فاذا خرج عن حيزه اقتضى
الحركة واللحم يقتضى الصحة بشرط سلامة البدن من الخبي والمريض الممتنع منه الغذاء ويقتضى
المريض بشرط كون الجسم محموا ونحوه ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى . فان قيل محل النزاع
أن الفعل لذاته أو لوصف لازم له يقتضى الحسن والقبح والشرطان متنافيان يمتنع أن يكون
كل واحد منهما وصفا لازما لأن اللازم يمتنع انفكاك الشيء عنه . قيل معنى كونه يقتضى
الحسن والقبح لذاته أو لوصفه اللازم أن الحسن ينشأ من ذاته أو من وصفه بشرط معين
والقبح ينشأ من ذاته أو من وصفه بشرط آخر فاذا عدم شرط الاقتضاء أو وجد مانع يمنع
الاقتضاء زال الأمر المترتب بحسب الذات أو الوصف لزوال شرطه أو لوجود مانعه وهذا
واضح جدا : الثالث أن قولكم يحسن الكذب إذا تضمن عصمة نبي أو مسلم فهذا فيه طريقان .
أحدهما لانسلم أنه يحسن الكذب فضلا عن أن يجب بل لا يكون الكذب الاقيحا وأما الذى
يحسن فالتعريض والتورية كما وردت به السنة النبوية وكما عرض إبراهيم للملك الظالم بقوله هذه
أختي لزوجته وكما قال انى سقيم فعرض بأنه سقيم قلبه من شركهم أو سيسقم يوماً ما وكما فعل
فى قوله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فان الخبر والطلب كلاهما معلق بالشرط
والشرط متصل بهما ومع هذا فسمها صلوات الله ثلاث كذبات وامتنع بها من مقام الشفاعة فكيف
يصح دعواكم أن الكذب يجب إذا تضمن عصمة مسلم مع ذلك ؟ فان قيل كيف سماها إبراهيم
كذبات وهى تورية وتعريض صحيح ؟ قيل لا يلزمنا جواب هذا السؤال إذ الغرض ابطال
استدلالكم وقد حصل فالجواب عنه تبرع منا وتكميل للفائدة ولم أجد فى هذا المقام للناس
جواباً شافياً يسكن القلب إليه وهذا السؤال لا يختص به طائفة معينة بل هو وارد عليكم بعينه
وقد فتح الله الكريم بالجواب عنه فتقول الكلام له نسبتان نسبة إلى المتكلم وقصده وإرادته
ونسبة إلى السامع وافهام المتكلم إياه مضمونه فاذا أخبر المتكلم بخبر مطابق للواقع وقصد
افهام المخاطب فهو صدق من الجهتين وان قصد خلاف الواقع وقصد مع ذلك افهام المخاطب
خلاف ما قصد بل معنى ثالثاً لاهو الواقع ولا هو المراد فهو كذب من الجهتين بالنسبتين معا
وإن قصد معنى مطابقاً صحيحاً وقصد مع ذلك التعمية على المخاطب وافهامه خلاف ما قصده
فهو صدق بالنسبة إلى قصده كذب بالنسبة إلى افهامه ومن هذا الباب التورية والمعاريض
وبهذا أطلق عليها إبراهيم الخليل عليه السلام اسم الكذب مع أنه الصادق فى خبره ولم يخبر إلا
صدقا فتأمل هذا الموضع الذى أشكل على الناس وقد ظهر بهذا أن الكذب لا يكون قط إلا

وحوله ولم يعدمه جملة ومن فهم هذا فهم مسألة المعاد وما جاءت به الرسل فيه فان القرآن والسنة انما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لاجعله عدماً محضاً وإعدامه بالسكلية فدل على تبديل الأرض غير الأرض والسموات وعلى تشقق السماء وانفطارها ونكوير الشمس وانتثار الكواكب وسجر البحار وانزال المطر على أجزاء بنى آدم المختلطة بالتراب فبنيتون كما بنيت النبات وترد تلك الارواح بعينها إلى تلك الأجساد التي أحيلت ثم أشئت نشأة أخرى وكذلك القبور تبعر وكذلك الجبال تسير ثم تنسف وتصير كالهن المنفوش وتبقى الأرض يوم القيامة أفلاذ كبدها أمثال الاسطون من الذهب والفضة وتميد الأرض وتدنو الشمس من رؤس الناس فهذا هو الذى أخبر به القرآن والسنة ولاسييل لاحد من الملاحدة الفلاسفة وغيرهم إلى الاعتراض على هذا المعاد الذى جاء به الرسل بحرف واحد وإنما اعتراضاتهم على المعاد الذى عليه طائفة من المتكلمين أن الرسل جاؤا به وهو ان الله يعدم أجزاء العالم العلوى والسفلى كلها فيجعلها عدماً محضاً ثم يعيد ذلك العدم وجوداً وبليت شعري أين فى القرآن والسنة ان الله يعدم ذرات العالم وأجزائه جملة ثم يقبل ذلك العدم وجوداً وهذا هو المعاد الذى أنكرته الفلاسفة ورمته بأنواع الاعتراضات وضروب الازمات واحتاج المتكلمون إلى تعسف الجواب وتقريره بأنواع من المكابرات وأما المعاد الذى أخبر به الرسل فبرىء من ذلك كله مصون عنه لا مطمع للعقل فى الاعتراض عليه ولا يقدر فيه شبهة واحدة وقد أخبر سبحانه أنه يحى العظام بعد ما صارت رميا وانه قد علم ما تنقص الأرض من لحوم بنى آدم وعظامهم فيرد ذلك اليهم عند النشأة الثانية وأنه ينشئ تلك الأجساد بعينها بعد ما بليت نشأة أخرى ويرد اليها تلك الارواح فلم يدل على أنه يعدم تلك الارواح ويفنيها حتى تصير عدماً محضاً فلم يدل القرآن على انه يعدم تلك الارواح ثم يخلقها خلقاً جديداً ولا دل على انه يفنى الأرض والسموات ويعدمهما عدماً صرفاً ثم يجدد وجودهما وإنما دلت النصوص على تبدلها وتغييرها من حال إلى حال فلو أعطيت النصوص حقها لارتفع أكثر النزاع من العالم ولكن خفيت النصوص وفهم منها خلاف مرادها وانضاف إلى ذلك تسليط الآراء عليها واتباع ما تقضى به فتضاعف البلاء وعظم الجهل واشتدت المحنة وتفاقم الخطب وسبب ذلك كله الجهل بما جاء به الرسول وبالمراد منه فليس للعبد أنفع من سمع ما جاء به الرسول وعقل معناه وأما من لم يسمعه ولم يعقله فهو من الذين قال الله فيهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) فلنرجع إلى الكلام عن الدليل المذكور وهو أن الحسن أو القبح لو كان ذاتيا لما اختلف إلى آخره فتقول قد بينا أن اختلافه بحسب الأزمنة والأمكنة والأحوال والشروط لا يخرج عنه كونه ذاتيا . الثانى انه ليس المعنى من كونه ذاتيا إلا أنه ناشئ من الفعل فالفاعل منشؤه وهذا

وهل ذلك على سبيل الوجوب أو الاستحباب فيه قولان للسلف والخلف وهما في مذهب أحمد
فعلى القول الأول بالاستحباب إذا أوصى للأجانب دونهم وصحت الوصية ولا شيء للأقارب
وعلى القول بالوجوب فهل لهم أن يبطلوا وصية الأجانب ويختصوا هم بالوصية كالورثة أن
يبطلوا وصية الوارث أو يبطلوا ما زاد على ثلث الثلث ويختصوا هم بثلثه كالورثة أن يبطلوا
ما زاد على ثلث المال من الوصية ويكون الثلث في حقهم بمنزلة المال كله في حق الورثة على
وجهين وهذا الثاني أقيس وأفق وأسر أن الثلث لما صار مستحقاً لهم كان بمنزلة جميع المال في
حق الورثة وهم لا يكونوا أقوى من الورثة فكما لا سبيل للورثة إلى إبطال الوصية بالثلث
للأجانب فلا سبيل لهؤلاء إلى إبطال الوصية بثلث الثلث للأجانب وتحقيق هذه المسائل والكلام
على ما أخذناه له موضع آخر والمقصود هنا أن إيجاب الوصية للأقارب وأن نسخ لم يبطل
بالكلية بل بقي منه ما هو منشأ المصلحة كما ذكرناه ونسخ منه ما لا مصلحة فيه بل المصلحة
في خلافه . ومن ذلك نسخ الاعتداد في الوفاة بحول بالاعتداد بأربعة أشهر وعشر على المشهور
من القولين في ذلك فلم تبطل العدة الأولى جملة . ومن ذلك حبس الزانية في البيت حتى تموت
فإنه على أحد القولين لا نسخ فيه لأنه مغياً بالموت أو يجعل الله لمن سبيلاً وقد جعل الله لمن
سبيلاً بالحد وعلى القول الآخر هو منسوخ بالحد وهو عقوبة من جنس عقوبة الحبس فلم
تبطل العقوبة عنها بالكلية بل نقلت من عقوبة إلى عقوبة وكانت العقوبة الأولى أصلح في
وقتها لأنهم كانوا حديثي عهد بالجاهلية وزنا فأمروا بحبس الزانية أولاً ثم لما استوطنت أنفسهم
على عقوبتها وخرجوا عن عوائد الجاهلية وركنوا إلى التحريم والعقوبة نقلوا إلى ما هو أغلظ
من العقوبة الأولى وهو الرجم والجلد فكانت كل عقوبة في وقتها هي المصلحة التي لا يصلحهم
سواها وهذا الذي ذكرناه إنما هو في نسخ الحكم الذي ثبت بشرعه وأمره . وأما ما كان
مستصحباً بالبراءة الأصلية فهذا لا يلزم من رفعه بقاء شيء منه لأنه لم يكن مصلحة لهم وإنما آخر
عنهم تحريمه إلى وقت لضرب من المصلحة في تأخير التحريم ولم يلزم من ذلك أن يكون مصلحة
حين فعلهم إياه وهذا كتحریم الربا والمسكر وغير ذلك من المحرمات التي كانوا يفعلونها
استصحباً لعدم التحريم فانها لم تكن مصلحة في وقت ولهذا لم يشرعها الله تعالى ولهذا كان رفعها
بالخطاب لا يسمى نسخاً إذ لو كان ذلك نسخاً لكانت الشريعة كلها نسخاً وإنما النسخ رفع
الحكم الثابت بالخطاب لا رفع موجب الاستصحاب وهذا متفق عليه .

فصل

وأما ما خلقه سبحانه فإنه أوجده لحكمة في إيجادها فإذا اقتضت حكمته إعدامه جملة أعدمه
وأحدث بدله وإذا اقتضت حكمته تبديله وتغييره وتحويله من صورة إلى صورة بدله وغيره

بالصلوات فقدم البيت الحرام عليه في الاستقبال لأن مصلحته أعظم وأكمل وبقي قصده وشد الرحال إليه والصلاة فيه منشأ للمصلحة فتعنت الأمة المحمدية المصاحتان المتعلقتان بهذين البيتين وهذا نهاية ما يكون من اللطف وتحصيل المصالح وتكميلها لهم فتأمل هذا الموضع . ومن ذلك نسخ التخيير في الصوم بتعيينه فإن له بقاء وبياناً ظاهراً وهو أن الرجل كان إذا أراد أفطر وتصدق فحصلت له مصلحة الصدقة دون مصلحة الصوم وإن شاء صام ولم يفد فحصلت له مصلحة الصوم دون الصدقة فحتم الصوم على المكلف لأن مصلحته أتم وأكمل من مصلحة الفدية ونذب إلى الصدقة في شهر رمضان فإذا صام وتصدق حصلت له المصاحتان معا وهذا أكمل ما يكون من الصوم وهو الذي كان يفعله النبي ﷺ فإنه كان أجود ما يكون في رمضان فلم تبطل المصلحة الأولى جملة بل قدم عليها ما هو أكمل منها وجوباً وشرعاً لجمع بينها وبين الأخرى ندباً واستحباباً ومن ذلك نسخ ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من العدو بثباته الإثنين ولم تبطل الحكمة الأولى من كل وجه بل بقي استحبابه وإن زال وجوبه بل إذا غلب على ظن المسلمين ظفرهم بعدومهم وهم عشرة أمثالهم وجب عليهم الثبات وحرم عليهم الفرار فلم تبطل الحكمة الأولى من كل وجه ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لم يبطل حكمه بالكلية بل نسخ وجوبه وبقي استحبابه والنذب إليه وما علم من تنبيهه وإشارته وهو أنه إذا استجبت الصدقة بين يدي مناجاة المخلوق فاستحبابها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى فكان بعض السلف الصالح يتصدق بين يدي الصلاة والدعاء إذا أمكنه ويتأول هذه الأولوية ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية يفعله ويتحراه ما أمكنه وفاوضته فيه فذكر لي هذا التنبيه والإشارة . ومن ذلك نسخ الصلوات الخمسين التي فرضها الله على رسوله ليلة الإسراء بخمس فانها لم تبطل بالكلية بل أثبتت خمسين في الثواب والأجر خمساً في العمل والوجوب وقد أشار تعالى إلى هذا بعينه حيث يقول على لسان نبيه لا يبدل القول لدى هي خمس وهي خمسون في الأجر فتأمل هذه الحكمة البالغة والنعمة السابغة فانه لما اقتضت المصلحة أن تكون خمسين تكميلاً للثواب وسوقاً لهم بها إلى أعلا المنازل واقتضت أيضاً أن تكون خمساً ليعجز الأمة وضعفهم وعدم احتياهم الخمسين جعلها خمساً من وجه وخمسين من وجه جمعاً بين المصالح وتكميلها لها ولو لم نطالع من حكمته في شرعه وأمره ولطفه بعباده ومراعاة مصالحهم وتخصيلها لهم على أتم الوجوه إلا على هذه الثلاثة وحدها لكفى بها دليلاً على ما راهها فسبحان من له في كل ما خلق وأمر حكمة بالغة شاهدة له بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين ومن ذلك الوصية للوالدين والأقربين فإنها كانت واجبة على من حضره الموت ثم نسخ الله ذلك بآية المواريث وبقيت مشروعة في حق الأقارب الذين لا يرثون (٣ - مفتاح ٢)

الحرام . فهذا معنى كون الحسن والقيح ذاتيا للفعل لا ناشئا من ذاته ولا ريب عند ذوى العقول أن مثل هذا يختلف باختلاف الأزمان والأمكنة والأحوال والأشخاص . وتأمل حكمة الرب تعالى في أمره إبراهيم خليله عليه السلام بذبح ولده لأن الله اتخذ خليله وخلته منزلة تقتضى لإفراد الخليل بالمحبة وأن لا يكون له فيها منازع أصلا بل قد تخللت محبة جميع أجزاء القلب والروح فلم يبق فيها موضع خال من حبه فضلا عن أن يكون محلا لمحبة غيره فلما سأل إبراهيم الولد وأعطيه أخذ شعبة من قلبه كما يأخذ الولد شعبة من قلب والده فغار المحبوب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره فأمره بذبح الولد ليخرج حبه من قلبه ويكون الله أحب إليه وأثر عنده ولا يبقى في القلب سوى محبة فوطن نفسه على ذلك وعزم عليه فخلصت المحبة لوليها ومستحقها فحصلت مصلحة المأمور به من العزم عليه وتوطين النفس على الامتثال فبقى الذبح مفسدة لحصول المصاحبة بدونه فنسخه في حقه لما صار مفسدة وأمره به لما كان عزمه عليه وتوطين نفسه لمصاحبة لهما فأى حكمة فوق هذا وأى لطف وبر وإحسان يزيد على هذا وأى مصاحبة فوق هذه المصاحبة بالنسبة إلى هذا الأمر ونسخة وإذا تأملت الشرائع الناسخة والمنسوخة وجدتها كلها بهذه المنزلة فمنها ما يكون وجه المصاحبة فيه ظاهرا مكشوفاً ومنها ما يكون ذلك فيه خفيا لا يدرك إلا بفضل فطنة وجودة إدراك .

فصل

وهما سر بديع من أسرار الخلق والأمر به يتبين لك حقيقة الأمر وهو أن الله لم يخلق شيئا ولم يأمر بشيء ثم أبطله وأعدمه بالسكينة بل لا بد أن يثبت بوجه ما لا أنه إنما خلقه لحكمة له في خلقه وكذلك أمره به وشرعه لإياه هو لما فيه من المصاحبة ومعلوم أن تلك المصاحبة والحكمة تقتضى إبقائه فإذا عارض تلك المصاحبة مصلحة أخرى أعظم منها كان ما اشتملت عليه أولى بالخلق والأمر ويبقى في الأولى ما شاء من الوجه الذى يتضمن المصلحة ويكون هذا من باب تراحم المصالح والقاعدة فيها شرعا وخلقاً تحصيلها واجتماعها بحسب الإمكان فإن تعذر قدمت المصلحة العظمى وإن فأت الصغرى وإذا تأملت الشريعة والخلق رأيت ذلك ظاهرا وهذا سر قل من تفطن له من الناس فتأمل الأحكام المنسوخة حكما حكما كيف تجد المنسوخ لم يبطل بالسكينة بل له بقاء بوجه فمن ذلك نسخ القبلة وبقاء بيت المقدس معظما محترما تشد إليه الرحال ويقصد بالسفر إليه وحط الأوزار عنده واستقباله مع غيره من الجهات في السفر فلم يبطل تعظيمه واحترامه بالسكينة وإن بطل خصوص استقباله بالصلوات فالقصد إليه ليصلى فيه باق وهو نوع من تعظيمه وتشريفه بالصلة فيه والتوجه إليه قصداً لمفضليته وشرعه له نسبة من التوجه إليه بالاستقبال

ويعلمهم الكتاب والحكمة ثم أخبر عن جهل من رغب عن ملة إبراهيم وسفه ونقصان عقله ثم أكد عليهم أن يكونوا على ملة إبراهيم وأنهم إن خرجوا عنها إلى يهودية أو نصرانية أو غيرها كانوا ضلالا غير مهتدين وهذه كلها مقدمات بين يدي الأمر باستقبال السكبة لمن تأملها وتدبرها وعلم ارتباطها بشأن القبلة فإنه يعلم بذلك عظمة القرآن وجلالته وتنبيهه على كمال دينه وحسنه وجلالته وأنه هو عين المصلحة لعباده لامصاحبه لهم سواء وشوق بذلك النفوس إلى الشهادة له بالحسن والكمال والحكمة التامة فلما قرر ذلك كله أعلمهم بما سيقول للسقهاء من الناس إذا تركوا قبلتهم مثلا يفجأهم من غير علم به فيعظم موقعه عندهم فلما وقع لم يهلمهم ولم يصعب عليهم بل أخبر أن له المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ثم أخبر أنه كما جعلهم أمة وسطا خيارا اختار لهم أوسط جهات الاستقبال وخيرها كما اختار لهم خير الانبياء وشرع لهم خير الأديان وأنزل عليهم خير الكتب وجعلهم شهداء على الناس كلهم لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة وأشرفها لتتكمّل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة ثم نبه سبحانه على حكمته البالغة في أن جعل القبلة أولا هي بيت المقدس ليعلم سبحانه واقعا في الخارج ما كان معلوما له قبل وقوعه من يتبع الرسول في جميع أحواله وينقاد له ولأوامر الرب تعالى ويدين بها كيف كانت وحيث كانت فهذا هو المؤمن حقا الذي أعطى العبودية حقها ومن ينقلب على عقبيه عن لم يرسخ في الإيمان قلبه ولم يستقر عليه قدمه فعارض وأعرض ورجع على حافره وشك في النبوة وخالط قلبه شبهة الكفار الذين قالوا إن كانت القبلة الأولى حقا فقد خرجتم عن الحق وإن كانت باطلا فقد كنتم على باطل وضاق عقله المنكوس عن القسم الثالث الحق وهو أنها كانت حقا ومصاحبة في الوقت الأول ثم صارت مفسدة باطلة الاستقبال في الوقت الثاني ولهذا أخبر سبحانه عن عظم شأن هذا التحويل والنسخ في القبلة فقال (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) ثم أخبر أنه سبحانه لم يكن يضيع ما تقدم لهم من الصلوات إلى القبلة الأولى وأن رأفته ورحمته بهم تأتي إضاعة ذلك عليهم وقد كان طاعة لهم فلما قرر سبحانه ذلك كله وبين حسن هذه الجهة بعظمة البيت وعلو شأنه وجلالته قال (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وأكد ذلك عليهم مرة بعد مرة اعتناء بهذا الشأن وتفخما له وأنه شأن ينبغي الاعتناء به والاحتفال بأمره فندبر هذا الاعتناء وهذا التقرير وبين المصالح الناشئة من هذا الفرع من فروع الشريعة وبين المفاسد الناشئة من خلافه وأن كل جهة في وقتها كان استقبالها هو المصلحة وأن للرب تعالى الحكمة البالغة في شرع القبلة الأولى وتحويل عبادته عنها إلى المسجد

والظفر وعرفوا عواقبه الحميدة أوجبه عليهم حتما فانقادوا له طوعا ورغبة ومحبة فلو أناهم الأمر به مفاجأة على ضعف وقلة لنفروا عنه أشد النفر . وتأمل الحكمة الباهرة في شرع الصلاة أولا إلى بيت المقدس إذ كانت قبلة الأنبياء فبعث بما بعث به الرسل وبما يعرفه أهل الكتاب وكان استقبال بيت المقدس مقررا لنبوته وأنه بعث بما بعث به الأنبياء قبله وإن دعوته هي دعوة الرسل بعينها وليس بدعا من الرسل ولا مخالفا لهم بل مصدقا لهم مؤمنا بهم فلما استقرت أعلام نبوته في القلوب وقامت شواهد صدقه من كل جهة وشهدت القلوب له بأنه رسول الله حقا وإن أنكروا رسالته عنادا وحسدا وبغيا وعلم سبحانه أن المصاحفة له ولأمته أن يستقبلوا الكعبة البيت الحرام أفضل بقاع الأرض وأحبها إلى الله وأعظم البيوت وأشرافها وأقدمها قر قبله أمورا كالمقدمات بين يديه لعظم شأنه فذكر النسخ أولا وأنه إذا نسخ آية أو حكما أتى بخير منه أو مثله وأنه على كل شيء قدير وأن له ملك السموات والأرض ثم حذرهم التعمت على رسوله والإعراض كما فعل أهل الكتاب قبلهم ثم حذرهم من أهل الكتاب وعداوتهم وأنهم يودون لو ردوهم كفارا فلا يسمعون منهم ولا يقبلوا قولهم ثم ذكر تعظيم دين الإسلام وتفضيله على اليهودية والنصرانية وأن أهلهم السعداء الفائزون لأهل الأمانى الباطلة ثم ذكر اختلاف اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء وتحقيق بأهل الإسلام أن لا يقتدوا بهم وأن يخالفوهم في هديهم الباطل ثم ذكر جرم من منع عباده من ذكر اسمه في بيوته ومساجده وأن يعبد فيها وظلمه وأنه بذلك ساعى في خرابها لأن عمارتها إنما هي بذكر اسمه وعبادته فيها ثم بين أن له المشرق والمغرب وأنه سبحانه لعظمته وإحاطته حيث استقبال المصلى فثم وجهه تعالى فلا يظن الظان أنه إذا استقبل البيت الحرام خرج عن كونه مستقبلا له وقبلته فإن الله واسع عليم ثم ذكر عبودية أهل السموات والأرض له وأنهم كل له قانتون ثم نبه على عدم المصاحفة في موافقة أهل الكتاب وأن ذلك لا يعود باستصلاحهم ولا يرجو معه إيمانهم وأنهم إن رضوا عنه حتى يتبع ملتهم وضمن هذا تنبيه لطيف على أن موافقتهم في القبلة لا مصاحفة فيها فسواء وافقتهم فيها أو خالفتهم فإنهم إن رضوا عنك حتى تتبع ملتهم ثم أخبر أن هداة هو الهدى الحق وحذره من اتباع أهوائهم ثم انتقل إلى تعظيم إبراهيم صاحب البيت وبانيه والثناء عليه وذكر أمامته للناس وإنه أحق من اتبع ثم ذكر جلالة البيت وفضله وشرفه وأنه أمن للناس ومثابة لهم يشوبون إلمه ولا يقضون منه وطرا وفي هذا تنبيه على أنه أحق بالاستقبال من غيره ثم أمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ثم ذكر بناء إبراهيم وإسماعيل البيت وتطهيره بعهدته وإذنه ورفعهما قواعده وسؤالهما ربهما القبول منهما وأن يجعلهما مسلمين له ويريهما مناسكهما ويبعث في ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم

وحفظ النوع الإنساني ثم صار قبيحا لما استغنى عنه فخرمه على عباده فأباحه في وقت كان فيه حسنا وحرمه في وقت صار فيه قبيحا وكذلك كل ما نسخ من الشرع بل الشريعة الواحدة كلها لا تخرج عن هذا وإن خفي وجه المصلحة والمفسدة فيه على أكثر الناس وكذلك إباحة الغنائم كان قبيحا في حق من قبلنا لئلا تحملهم إباحتها على القتال لأجلها والعمل لغير الله فتفوت عليهم مصلحة الإخلاص التي هي أعظم المصالح فحصى أحكم الحاكمين جانب هذه المصلحة العظيمة بتحريمها عليهم لئلا يتحضر قتلهم لله لا للدنيا فكانت المصلحة في حقهم تحريمها عليهم ثم لما أوجد هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولا وأرسلهم إيماننا وأعظمهم توحيدا وإخلاصا وأرغبهم في الآخرة وأزهدهم في الدنيا أباح لهم الغنائم وكانت إباحتها حسنة بالنسبة إليهم وإن كانت قبيحة بالنسبة إلى من قبلهم فكانت كإباحة الطيب اللحم للصحيح الذي لا يخشى عليه من مضرته وحميته منه للريض المحموم وهذا الحكم فيما شرع في الشريعة الواحدة في وقت ثم نسخ في وقت آخر كالتمييز في الصوم في أول الإسلام بين الإطعام وبينه لما كان غير مألوف لهم ولا معتاد والطباع تأباه إذ هو هجر مألوفها ومحبوها ولم تدق بعد حلالاته وعواقبه المحمودة وما في طيه من المصالح والمنافع فخير بينه وبين الإطعام وندبت إليه فلما عرفت علته يعني حكمته والفقه وعرفت ما تضمنه من المصالح والفوائد حتم عليها عينا ولم يقبل منها سواء فكان التخيير في وقته مصلحة وتعيين الصوم في وقته مصلحة فاقضت الحكمة البالغة شرع كل حكم في وقته لأن المصلحة فيه في ذلك الوقت وكان فرض الصلاة أولا ركعتين ركعتين لما كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يكونوا معتادين لها ولا ألفتها طباعهم وعقولهم فرضت عليهم بوصف التخفيف فلما ذلت بها جوارحهم وطوعت بها أنفسهم واطمأنت إليها قلوبهم وباشرت نعيمها ولذتها وطيبها وذاقت حلالة عبودية الله فيها ولذة مناجاته زيدت ضعفها وأقرت في السفر على الفرض الأول لحاجة المسافر إلى التخفيف ولمشقة السفر عليه فتأمل كيف جاء كل حكم في وقته مطابقا للمصلحة والحكمة شاهدا لله بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الرحمن الذي بهرت حكمته العقول والألباب وبداعلى صفحاتها بأن ما خالفها هو الباطل وأنها هي عين المصلحة والصواب . ومن هذا أمره سبحانه لهم بالأعراض عن الكافرين وترك آذائهم والصبر عليهم والعفو عنهم لما كان ذلك عين المصلحة لقلّة عدد المسلمين وضعف شوكتهم وغلبة عدوهم فكان هذا في حقهم إذ ذاك عين المصلحة فلما تحيزوا إلى دار وكثر عددهم وقويت شوكتهم وتجرات أنفسهم لمناجزة عدوهم أذن لهم في ذلك أذنا من غير إيجاب عليهم ليديقهم حلالة النصر والظفر وعز الغلبة وكان الجهاد أشق شيء على النفوس فجعله أولا إلى اختيارهم إذنا لاحتمال فلما ذاقوا عز النصر

قال لا كذب غدا فإنه لا يخلو إما أن يكذب في الغد أو يصدق فإن كذب لزم قبحه لكونه كذبا وحسنه لاستلزامه صدق الخبر الأول والمستلزم للحسن حسن فيجتمع في الخبر الثاني الحسن والقبح وهما نقيضان وإن صدق لزم حسن الخبر الثاني من حيث أنه صدق في نفسه وقبحه من حيث أنه مستلزم لكذب الخبر الأول فلزم النقيضان * قالوا وأيضا فلو كان القتل والجلد وقطع الأطراف قبيحا لذاته أو لصفة لازمة للذات لم يكن حسنا في الحدود والقصاص لأن مقتضى الذات لا يتخلف عنها فإذا تخلف فيما ذكرنا من الصور وغيرها دل على أنه ليس ذاتيا فهذا تقرير هذا المسلك وهو من أفسد المسالك لوجوه . أحدها أن كون الفعل حسنا أو قبيحا لذاته أو لصفة لم يعن به أن ذلك يقوم بحقيقة لا ينفك عنها بحال مثل كونه عرضا وكونه مفتقرا إلى محل يقوم به وكون الحركة حركة والسواد لونا ومن هاهنا غلط عايننا المنازعين لنا في المسئلة والزمونا مالا يلزمنا وإنما نعى بكونه حسنا أو قبيحا لذاته أو لصفته أنه في نفسه منشأ للمصلحة والمفسدة وترتبهما عليه كترتب المسببات على أسبابها المقتضية لها وهذا كترتب الرى على الشرب والشبع على الأكل وترتب منافع الأغذية والأدوية ومضارها عليها فحسن الفعل أو قبحه هو من جنس كون الدواء الفلاني حسنا نافعا أو قبيحا ضارا وكذلك الغذاء واللباس والمسكن والجماع والاستفراغ والنوم والرياضة وغيرها فإن ترتب آثارها عليها ترتب المعلومات والمسببات على علمها وأسبابها ومع ذلك فإنها تختلف باختلاف الأزمان والأحوال والأماكن والمحل القابل ووجود المعارض فتختلف الشبع والرى عن الخبز واللحم والماء في حق المريض ومن به علة تمنعه من قبول الغذاء لا تخرجه عن كونه مقتضيا لذلك لذاته حتى يقال لو كان كذلك لذاته لم يتخلف لأن ما بالذات لا يتخلف وكذلك تخلف الانتفاع بالدواء في شدة الحر والبرد وفي وقت تزايد العلة لا يخرجها عن كونه نافعا في ذاته وكذلك تخلف الانتفاع باللباس في زمن الحر مثلا لا يدل على أنه ليس في ذاته نافعا ولا حسنا فهذه قوى الأغذية والأدوية واللباس ومنافع الجماع والنوم تتخلف عنها آثارها زمانا ومكانا وحالا وبحسب القبول والاستعداد فتكون نافعة حسنة في زمان دون زمان ومكان دون مكان وحال دون حال وفي حق طائفة أو شخص دون غيرهم ولم يخرجها ذلك عن كونها مقتضية لآثارها بقواها وصفاتها فهكذا أوامر الرب تبارك وتعالى وشرائعه سواء يكون الأمر منشأ للمصلحة ونافعا للمأمور في وقت دون وقت فيأمره به تبارك وتعالى في الوقت الذي علم أنه مصلحة فيه ثم ينهى عنه في الوقت الذي يكون فعله فيه مفسدة على نحو ما يأمر الطبيب بالدواء والحمية في وقت هو مصلحة للمريض وينهاه عنه في الوقت الذي يكون تناوله مفسدة له بل أحكم الحاكمين الذي هرت حكمته العقول أولى بمراعاة مصالح عباده ومفاسدهم في الأوقات والأحوال والأماكن والأشخاص وهل وضعت الشرائع إلا على هذا فكان نكاح الأخت حسنا في وقته حتى لم يكن بدمنه في التناسل

ودقيق وغلظ وأضعاف أضعاف ذلك مما لا يحصى مما توصف المعاني والأعراض فيه بمعان وأعراض وجودية ومن ادعى أنها عدمية فهو مكابر وهل شك أحد في وصف المعاني بالشدّة والضعف فيقال هم شديد وحب شديد وحزن شديد وألم شديد ومقابلها فوصف المعاني بصفات أمر معلوم عند كل العقلاء . الوجه الثاني أن قوله يلزم منه قيام المعنى بالمعنى غير صحيح بل المعنى يوصف بالمعنى ويقوم به تبعاً لقيامه بالجواهر الذي هو المحل فيكون المعنيان جميعاً قائمين بالمحل وأحدهما تابع للآخر وكلاهما تابع للمحل فما قام العرض بالعرض وإنما قام العرضان جميعاً بالجواهر فالحركة والسرعة قائمتان بالمتحرك والصوت وشجاءه وغلظه ودقته وحسنه وقبحه قائمة بالحامل له والمحال إنما هو قيام المعنى بالمعنى من غير أن يكون لهما حامل فأما إذا كان لهما حامل وأحدهما صفة الآخر وكلاهما قام بالمحل الحامل فليس بمحال وهذا في غاية الوضوح . الوجه الثالث أن حسن الفعل وقبحه شرعاً أمر زائد عليه لأن المفهوم منه زائد على المفهوم من نفس الفعل وهما وجوديان لاعدميان لأن نقيضهما يحمل على العدم فهو عدى فهما إذا وجوديان لأن كونه أحد النقيضين عدمياً يستلزم كون نقيضه وجودياً فلو صح دليلكم المذكور لزم أن لا يوصف بالحسن والقبح شرعاً ولا خلاص عن هذا إلا بالانضمام كون الحسن والقبح الشرعيين عدميين ولا سبيل إليه لأن الثواب والعقاب والمدح والذم مرتب عليهما ترتب الأثر على مؤثره والمقتضى على مقتضيه وما كان كذلك لم يكن عدماً محضاً إذ العدم المحض لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ولا مدح ولا ذم وأيضاً فإنه لا معنى لكون الفعل حسناً وقبيحاً شرعاً إلا أنه يشتمل على صفة لأجلها كان حسناً محبوباً للرب مرضياً له متعلقاً بالمدح والثواب وكون القبيح مشتملاً على صفة لأجلها كان قبيحاً مبعوضاً للرب متعلقة بالذم والعقاب وهذه أمور وجودية ثابتة له في نفسه ومحبة الرب له وأمره به كسأه أمراً وجودياً زاده حسناً إلى حسنه وبعضه له ونهيه عنه كسأه أمراً وجودياً زاده قبيحاً إلى قبحه فجعل ذلك كله عدماً محضاً ونقياً صرفاً لا يرجع إلى أمر ثبوتى في غاية البطلان والإحالة وظهر أن هذا الدليل في غاية البطلان ولم تعرض للوجوه التي قدحوا بها فيه فإنها مع طولها غير شافية ولا مقنعة فمن اكتفى بها فهى موجودة في كتبهم . وأما المسلك الذى اعتمدته كثير منهم كالأقضى وأبى المعالى وأبى عمرو بن الحاجب من المتأخرين فهو أن الحسن والقبح لو كانا ذاتيين لما اختلفا باختلاف الأحوال والمتعلقات والأزمان ولا استحالة ورود النسخ على الفعل لأن ما ثبت للذات فهو باق ببقائها لا يزول وهى باقية ومعلوم أن الكذب يكون حسناً إذا تضمن عصمة دم نبي أو مسلم ولو كان قبحه ذاتياً له لكان قبيحاً أين وجد وكذلك ما نسخ من الشريعة لو كان حسنه لذاته لم يستحل قبيحاً ولو كان قبحه لذاته لم يستحل حسناً بالنسخ . قالوا وأيضاً لو كان ذاتياً لاجتمع النقيضان في صدق من

فساد قولك وأن الفعل الواجب بالاختيار اختياري * الوجه السابع أن صدور الفعل عن المختار بشرط تعلق اختياره به لا ينافي كونه مقدوراً له وإلا كانت إرادته وقدرته غير مشروطة في الفعل وهو محال وإذ لم يناف ذلك كونه مقدوراً فهو اختياري قطعاً * الوجه الثامن قولك إن لم يتوقف على مرجح فهو اتفاق إن عئيت بالمرجح ما يخرج الفعل عن أن يكون اختيارياً ويجعله اضطرارياً فلا يلزم من نفي هذا المرجح كونه اتفاقياً إذ هذا مرجح خاص ولا يلزم من نفي المرجح المعين نفي مطلق المرجح فما المانع من أن يتوقف على مرجح ولا يجعله اضطرارياً غير اختياري وإن عئيت بالمرجح ما هو أعم من ذلك لم يلزم من توقفه على المرجح الأعم أن يكون غير اختياري لأن المرجح هو الاختيار وما ترجح بالاختيار لم يمتنع كونه اختيارياً * الوجه التاسع قولك وإن لم يتوقف على مرجح فهو اتفاق ما تعنى بالاتفاق أن تعنى به ما لا فاعل له أو ما فاعله مرجح باختياره أو معنى ثالثاً فإن عئيت الأول لم يلزم من عدم المرجح الموجب كونه اضطرارياً أن يكون الفعل صادراً من غير فاعل وإن عئيت الثاني لم يلزم منه كونه اضطرارياً وإن عئيت معني ثالثاً فابده * الوجه العاشر أن غاية هذا الدليل أن يكون الفعل لازماً عند وجود سببه وأن لم تقم دليلاً على أن ما كان كذلك يمتنع تحصيله وتقييمه سوى الدعوة المجردة فإن الدليل على أن ما كان لازماً بهذا الاعتبار يمتنع تحصيله وتقييمه ودليلك إنما يدل على أن ما كان غير اختياري من الأفعال امتنع تحصيله وتقييمه فمحل النزاع لم يتناوله الدليل المذكور وما تناوله وصحت مقدماته فهو غير متنازع فيه فدليلك لم يفد شيئاً * الوجه الحادي عشر أن قولك يلزم أن لا يوصف بحسن ولا قبح على المذهبين باطل فال منازعك إنما يمنعون من وصف الفعل بالحسن والقبح إذا لم يكن متعلق القدرة والاختيار أما ماوجب بالقدرة والاختيار فإنهم لا يساعدونك على امتناع وصفه بالحسن والقبح أبداً * الوجه الثاني عشر أن هذا الدليل لو صح لزم بطلان الشرائع والتكاليف جملة لأن التكليف إنما يكون بالأفعال الاختيارية إذ يستحيل أن يكلف المرتعش بحركة يده وإن يكلف المحموم بتسخين جلده والمقرور بقره وإذا كانت الأفعال اضطرارية غير اختيارية لم يتصور تعلق التكليف والامر والنهي بها فلو صح الدليل المذكور لبطلت الشرائع جملة فهذا هو الدليل الذي اعتمده ابن الخطيب وأبطل أدلة غيره وأما الدليل الذي اعتمد عليه الآمدي فهو أن حسن الفعل لو كان أمراً زائداً على ذاته لزم قيام المعنى بالمعنى وهو محال لأن العرض لا يقوم بالعرض وهذا في البطلان من جنس ما قبله فإنه منقوض ما لا يحصى من المعاني التي توصف بالمعاني كما يقال علم ضروري وعلم كسبي وإرادة جازمة وحركة سريعة وحركة بطيئة وحركة مستديرة وحركة مستقيمة ومزاج معتدل ومزاج منحرف وسواد براق وحمرة قانية وخضرة ناصعة ولون مشرق وصوت شج وحس رخيم ورفيع

فلا أنه أن لم يتمكن العبد من فعله وتركه فواضح وإن كان متمكناً من فعله وتركه كان جائزاً
فأما أن يفتقر ترجيح الفاعلية على التاركية إلى مرجح أولاً فإن لم يفتقر كان اتفاقاً
والاتفاق لا يوصف بالحسن والقبح وإن افتقر إلى مرجح فهو مع مرجحه أما إن يكون
لازماً وأما جائزاً فإن كان لازماً فهو اضطرارى وإن كان جائزاً عاد التقسيم فإما أن ينتهى إلى
ما يكون لازماً فيكون ضرورياً أولاً فينتهى إليه فيتمسلسل وهو محال أن يكون اتفاقاً فلا يوصف
بحسن ولا قبح فهذا الدليل هو الذى يصل به ويجول ويثبت به الجبر ويرد به على القدريّة
وينفى به التحسين والتقييح وهو فاسد من وجوه متعددة أحدها أنه يتضمن التسوية
بين الحركة الضرورية والاختيارية وعدم التفريق بينهما وهو باطل بالضرورة والحس
والشرع فالاستدلال على أن فعل العبد غير اختياري استدلال على ما هو معلوم البطلان
ضرورة وحساً وشرعاً فهو بمنزلة الاستدلال على الجمع بين التقيضين وعلى وجود المحال .
الوجه الثانى لو صح الدليل المذكور لزم منه أن يكون الرب تعالى غير مختار فى فعله لأن
التقسيم المذكور والترديد جار فيه بعينه بأن يقال فعله تعالى إما أن يكون لازماً أو جائزاً فإن
كان لازماً كان ضرورياً وإن كان جائزاً فإن احتاج إلى مرجح عاد التقسيم وإلا فهو اتفاق
ويكفى فى بطلان الدليل المذكور أن يستلزم كون الرب غير مختار . الوجه الثالث أن الدليل
المذكور لو صح لزم بطلان الحسن والقبح الشرعيين لأن فعل العبد ضرورى أو اتفاقى
وما كان كذلك فإن الشرع لا يحسنه ولا يقبحه لأنه لا يرد بالتكليف به فضلاً عن أن يجعله
متعلق بالحسن والقبح . الوجه الرابع قوله إما أن يكون الفعل لازماً أو جائزاً . قلنا هو لازم
عند مرجحه التام وكان ماذا قولك يكون ضرورياً أتفى به أنه لا بد منه أو تفى به أنه لا يكون
اختيارياً فإن عنيّت الأول منعنا انتفاء اللازم فانه لا يلزم منه أن يكون غير مختار ويكون
حاصل الدليل إن كان لا بد منه فلا بد منه ولا يلزم من ذلك أن يكون غير اختياري وإن عنيّت
الثانى وهو أنه لا يكون اختياريًا منعنا الملازمة إذ لا يلزم من كونه لا بد منه أن يكون غير
اختياري وأنت لم تذكر على ذلك دليلاً بل هى دعوى معلومة البطلان بالضرورة . الوجه
الخامس أن يقال هو جائز قولك أما أن يتوقف ترجيح الفاعلية على التاركية على مرجح أولاً
قلنا يتوقف على مرجح قولك عند المرجح إما أن يجب أو يبق جائزاً . قلنا هو واجب
بالمرجح جائز بالنظر إلى ذاته والمرجح هو الاختيار وما وجب بالاختيار لا ينافى أن يكون
اختيارياً فلزوم الفعل بالاختيار لا ينافى كونه اختياريًا . الوجه السادس أن هذا الدليل الذى
ذكرته بعينه حجة على أنه اختياري لأنه وجب بالاختيار وما وجب بالاختيار لا يكون إلا
اختيارياً وإلا كان اختياريًا غير اختياري وهو جمع بين التقيضين والدليل المذكور حجة على

برأسك وغسلت رجلك إلى الكعبين اغتسلت من عامة خطاياك فإن أنت وضعت وجهك لله خرجت من خطاياك كيوم ولدتك أمك رواه النسائي والأحاديث في هذا الباب كثيرة فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين ورحمته أن شرع الوضوء على هذه الأعضاء التي هي أكثر الأعضاء مباشرة للمعاصي وهي الأعضاء الظاهرة البارزة للغبار والوسخ أيضا وهي أسهل الأعضاء غسلًا فلا يشق تكرار غسلها في اليوم والليلة فكانت الحكمة الباهرة في شرع الوضوء عليها دون سائر الأعضاء وهذا يدل على أن المضمضة من آكد أعضاء الوضوء ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يداوم عليها ولم ينقل عنه بإسناد قط أنه أدخل بها يوما واحدا وهذا يدل على أنها فرض لا يصح الوضوء بدونها كما هو الصحيح من مذهب أحمد وغيره من السلف فمن سوى بين هذه الأعضاء وغيرها وجعل تعيينها بمجرد الأمر الخالي عن الحكمة والمصلحة فقد ذهب مذهبا فاسدا فكيف إذا زعم مع ذلك أنه لا فرق في نفس الأمر بين التعبد بذلك وبين أن يتعبد بالنجاسة وأنواع الاقذار والأوساخ والانتان والرائحة الكريهة ويجعل ذلك مكان الطهارة والوضوء وأن الأمرين سواء وإنما يحكم بمجرد المشيئة بهذا الأمر دون ضده ولا فرق بينهما في نفس الأمر وهذا قول تصوره كاف في الجزم ببطلانه وجميع مسائل الشريعة كذلك آيات بينات ودلالات واضحات وشواهد ناطقات بأن الذي شرعها له الحكمة البالغة والعلم المحيط والرحمة والعناية بعباده وإرادة الصلاح لهم وسوقهم بها إلى كمالهم وعواقبهم الحميدة وقد نبه سبحانه عبادَه على هذا فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) إلى قوله (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) فأخبر سبحانه أنه لم يأمرهم بذلك حرجا عليهم وتضييقا ومشقة ولكن إرادة تطهيرهم وإتمام نعمته عليهم ليذكروا على ذلك فله الحمد كما هو أهله وكما ينبغي لكم وجهه وعز جلاله . فإن قيل فما جوابكم عن الأدلة التي ذكرها نفاة التحسين والتقييد على كثرتها . قيل قد كفونا بحمد الله مؤنة إبطالها بقدهم فيها وقد أبطلها كلها واعترض عليها فضلاء اتباعها وأصحابها أبو عبد الله ابن الخطيب وأبو الحسين الأمدي واعتمد كل منهم على مسالك من أفسد المسالك واعتمد القاضي على مسالك من جنسهما في المفساد فاعتمد هؤلاء الفضلاء على ثلاث مسالك فاسدة وتعرضوا لإبطال ما سواها والقدح فيه ونحن نذكر مسالكهم التي اعتمدوا عليها ونبين فسادها وبطلانها فما أبو الخطيب فاعتمد على المسالك المشهورة وهو أن فعل العبد غير اختياري وما ليس بفعل اختياري لا يكون حسنا ولا قبيحا عقلا بالاتفاق لأن القائلين بالحسن والقبح العقليين يعترفون بأنه إنما يكون كذلك إذا كان اختياري وقد ثبت أنه اضطراري فلا يوصف بحسن ولا قبح على المذهبين أما بيان كونه غير اختياري

بين المختلفين اللذين يقتضيان أثرين مختلفين وتارة يخير بكال حكمته وعلمه المقتضى أنه لا يفرق بين متماثلين ولا يسوى بين مختلفين وأنه ينزل الأشياء منازلها ويرتبها مراتبها وتارة يستدعى من عباده التفكير والتأمل والتدبر والتعقل لحسن ما بعث به رسوله وشرعه لعباده كما يستدعى منهم التفكير والنظر في مخلوقاته وحكمها وما فيها من المنافع والمصالح وتارة يذكر منافع مخلوقاته منبها بها على ذلك وأنه الله الذى لا إله إلا هو وتارة يختم آيات خلقه وأمره بأسماء وصفات تناسبها وتقتضيها والقرآن مملوء من أوله إلى آخره بذكر حكم الخلق والأمر ومصالحهما ومنافعهما وما تضمنناه من الآيات الشاهدة الدالة عليه ولا يمكن من له أدنى اطلاع على معاني القرآن أنكار ذلك وهل جعل الله سبحانه في فطر العباد استواء العدل والظلم والصدق والكذب والفجور والعفة والإحسان والإساءة والصبر والعفو والاحتفال والطيش والانتقام والحلوة والكرم والسباحة والبذل والبخل والشح والإسقام بل الفطرة على الفرقان بين ذلك كالفطرة على قبول الأغذية النافعة وترك ما لا ينفع ولا يغذى ولا فرق في الفطرة بينهما أصلا. وإذا تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حق التأمل وجدتها من أولها إلى آخرها شاهدة بذلك ناطقة به ووجدت الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة باديا على صفحاتها مناديا عليها يدعو العقول والألباب إليها وأنه لا يجوز على أحكم الحاكمين ولا يليق به أن يشرع لعباده ما يضادها وذلك لأن الذى شرعها علم ما في خلافها من المفساد والقبايح والظلم والسفاهة الذى يتعالى عن أرادته وشرعه وأنه لا يصلح العباد إلا عليها ولا سماعة لهم بدونها البتة فتأمل محاسن الوضوء بين يدي الصلاة وما تضمنته من النظافة والنزاهة ومجانبة الأوساخ والمستقذرات وتأمل كيف وضع على الأعضاء الأربع التي هي آلة البطش والمشى وجمع الحواس التي تعلق أكثر الذنوب والخطايا بها ولهذا خصها النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر في قوله إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك ولا محالة فالعين تزنى وزناها النظر والاذن تزنى وزناها الاستماع واليد تزنى وزناها البطش والرجل تزنى وزناها المشى والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك ويكذبه. فلما كانت هذه الأعضاء هي أكثر الأعضاء مباشرة للمعاصي كان وسخ الذنوب أصحق بها وأعلق من غيرها فشرع أحكم الحاكمين الوضوء عليها ليتضمن نظافتها وطهارتها من الأوساخ الحسية وأوساخ الذنوب والمعاصي وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله إذا توضأ العبد المسلم خرجت خطايا مع الماء أو مع آخر قطرة من الماء حتى يخرج من تحت أظفاره. وقال أبو أمامة يارسول الله كيف الوضوء فقال أما فإنك إذا توضأت فغسلت كفك فألقيتهما خرجت خطاياك من بين أظفارك وأناملك فإذا مضمت واستشقت بمنخريك وغسلت وجهك ويديك إلى المرفقين ومسحت

والميتة والدم وانما الشهوة وقضاء الوطر يشق على الرجل تحمله وكف النفس عنه لضعفه وقلة صبره فرحمه أرحم الراحمين وأباح له أطيب النساء وأحسنهن أربعاً من الحرائر وما شاء من ملك يمينه من الإمام فان عجز عن ذلك أباح له نكاح الأمة رحمة به وتخفيفاً عنه لضعفه ولهذا قال تعالى (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيما نكح من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم) إلى قوله (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً) فأخبر سبحانه أنه شرع لهم هذه الأحكام تخفيفاً عنهم لضعفهم وقلة صبرهم رحمة بهم وإحساناً إليهم فليس هاهنا ضرورة تبيح المحظور وانما هي مصلحة أرجح من مصلحة ومفسدة أقل من مفسدة فاختار لهم أعظم المصلحتين وإن فانت أدناهما ودفع عنهم أعظم المفسدتين وإن فانت أدناهما وهذا شأن الحكيم اللطيف الخبير البر المحسن وإذا تأملت شرائع دينه التي وضعها بين عباده وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان وإن تراخى قدم أهمها وأجلها وإن فانت أدناهما وتعطيل المفساد الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان وإن تراخى عطل أعظمها فساداً باحتمال أدناها وعلى هذا وضع أحكم الحاكمين شرائع دينه دالة عليه شاهدة له بكل علمه وحكمته ولطفه بعباده وإحسانه إليهم وهذه الجملة لا يستريب فيها من له ذوق من الشريعة وارتضاع من نديها وورود من صفو حوضها وكلما كان تضاعفه منها أعظم كان شهوده لمحاسنها ومصالحها أكمل ولا يمكن أحد من الفقهاء أن يتكلم في مآخذ الأحكام وعلمها والأوصاف المؤثرة فيها حقاً وفرقاً إلا على هذه الطريقة وأما طريقة انكار الحكم التعليل ونفى الأوصاف المقتضية لحسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه وتأثيرها واقتضاها للحب والبغض الذي هو مصدر الأمر والنهي بطريقة جدلية كلامية لا يتصور بناء الأحكام عليها ولا يمكن فقيها أن يستعملها في باب واحد من أبواب الفقه كيف والقرآن وسنة رسول الله ﷺ ملوآن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح وتعليل الخلق بهما والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك الأحكام ولأجلها خلق تلك الأعيان ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو مائتين لسبقناها وإسكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة فتارة يذكر لام التعليل الصريحة وتارة يذكر المفعول لأجله الذي هو المقصود بالفعل وتارة يذكر من أجل الصريحة في التعليل وتارة يذكر أداه في وتارة يذكر الفاء وإن وتارة يذكر أداة لعل المتضمنة للتعليل المجردة عن معنى الرجاء المضاف إلى المخلوق وتارة يذنبه على السبب يذكره صريحاً وتارة يذكر الأوصاف المشتقة المناسبة لتلك الأحكام ثم يرتبها عليها ترتيب المسببات على أسبابها وتارة ينكر على من زعم أنه خلق خلقه وشرع دينه عبثاً وسدى وتارة ينكر على من ظن أنه يسوى

وإن كان خبيثا في حال الاختيار قيل هذا موضع دقيق وتحقيقه يستدعى اطلاعا على أسرار الشريعة والطبيعة فلا تستهونه وأعطه حقه من النظر والتأمل وقد اختلف الناس فيه على قولين فكثير منهم أو أكثرهم سلك مسالك الترجيح مع بقاء وصف الخبث فيه وقال مصلحة حفظ النفس أرجح من مفسدة خبث التغذية وهذا قول من لم يحقق النظر ويعين التأمل بل استرسل مع ظاهر الأمور والصواب أن وصف الخبث منتفح حال الاضطراب . وكشف الغطاء عن المسئلة أن وصف الخبث غير مستقل بنفسه في المحل المتغذى به بل هو متولد من القابل والفاعل فهو حاصل من المتغذى والمغتذى به ونظيره تأثير السم في البدن هو موقوف على الفاعل والمحل القابل إذا علم ذلك فتناول هذه الخبايا في حال الاختيار يوجب حصول الأثر المطلوب عدمه فإذا كان المتناول لها مضطرا فان ضرورته تمنع قبول الخبث الذي في المغتذى به فلم تحصل تلك المفسدة لأنها مشروطة بالاختيار الذي به يقبل المحل خبث التغذية فإذا زال الاختيار زال شرط القبول فلم تحصل المفسدة أصلا وإن اعتاص هذا على فهمك فانظر في الأغذية والأشربة الضارة التي لا يتخلف عنها الضرر إذا تناولها المختار الواجد لغيرها فإذا اشتدت ضرورته إليها ولم يجد منها بدا فانها تنفعه ولا يتولد له منها ضرر أصلا لأن قبول طبيعته لها وفاقته إليها وميله منعه من التضرر بها بخلاف حال الاختيار وأمثلة ذلك معلومة مشهودة بالحس فإذا كان هذا في الأوصاف الحسية المؤثرة في محالها بالحس فما الظن بالأوصاف المعنوية التي تأثيرها انما يعلم بالعقل أو بالشرع فلا تظن أن الضرورة أزاله وصف المحل وبدلته فانا لم نقل هذا ولا يقوله عاقل وانما الضرورة منعت تأثير الوصف وأبطلته فهي من باب المانع الذي يمنع تأثير المقتضى لا أنه يزيل قوته ألا ترى أن السيف الحاد إذا صادف حجرافا فإنه يمتنع قطعه وتأثيره لأنه يزيل حدته وتبهاه لقطع القابل ونظير هذا الملابس المحرمة اذا اضطرب إليها فان ضرورته تمنع ترتب المفسدة التي حرمت لأجلها فان قال فهذا ينتقض عليكم بتحريم نكاح الأمة فانه حرم للمفسدة التي تتضمنه من ارقاق ولده ثم أبيع عند الضرورة إليه وهي خوف العنة الذي هو أعظم فسادا من ارقاق الولد ومع هذا فالمفسدة قائمة بعينها ولسكن عارضها مصلحة حفظ الفرج عن الحرام وهي أرجح عند الشارع من رق الولد قيل هذا لا ينتقض بما قرناه فان الله سبحانه لما حرم نكاح الأمة لما فيه من مفسدة رق الولد واشتغال الأمة بخدمة سيدها فلا يحصل لزوجها من السكن إليها والإيواء ودوام المعاشرة ما تقر به عينه وتسكن به نفسه اباحه عند الحاجة إليه بأن لا يقدر على نكاح حرة ويخشى على نفسه واقعة المحذور وكانت المصلحة له في نكاحها في هذه الحال أرجح من تلك المفاسد . وليس هذا حال ضرورة يباح لها المحذور فان الله سبحانه لا يضطر عبده الى الجماع بحيث ان لم يجمع مات بخلاف الطعام والشراب ولهذا لا يباح الزنا بضرورة كما يباح الخنزير

كما لو نام حتى طلعت الشمس والواجب في حقه المبادرة إلى الغسل والصلاة وهذا وقتها في حق أمثاله وعلى هذا القول الصحيح فلا يتعارض هاهنا مصلحة ومفسدة متساويتان بل مصلحة الصلاة بالطهارة أرجح من إيقاعها في الوقت بالتييم وفي المسئلة قول ثان وهو رواية عن مالك أنه يتييم ويصلي في الوقت لأن الشارع له التفات إلى إيقاع الصلاة في الوقت بالتييم أعظم من التفاته إلى إيقاعها بطهارة الماء خارج الوقت والعدم المبيح للتييم هو العدم بالنسبة إلى وقت الصلاة لا مطلقا فانه لا بد أن يجد الماء ولو بعد حين ومع هذا فأوجب عليه الشارع التيمم لأنه عادم للماء بالنسبة إلى وقت الصلاة وهكذا هذا التائم وإن كان واجدا للماء لكنه عادم بالنسبة إلى الوقت وصاحب هذا القول يقول مصلحة إيقاع الصلاة في الوقت بالتييم أرجح في نظر الشارع من إيقاعها خارج الوقت بطهارة الماء فعلى كلا القولين لم تتساو المصلحة والمفسدة فثبت أنه لا وجوب لهذا القسم في الشرع . وأما مسئلة اغتلام البحر فلا يجوزلقاء أحد منهم في البحر بالقرعة ولا غيرها لاستوائهم في العصمة وقتل من لا ذنب وقاية لنفس القاتل به وليس أولى بذلك منه ظلم . نعم لو كان في السفينة مال أو حيوان وجب لقاء المال ثم الحيوان لأن المفسدة في فوات الأموال والحيوانات أولى من المفسدة في فوات أنفس الناس المعصومة وأما سائر الصور التي تساوت مفسادها كآلاف الدرهمين والحيوانين وقتل أحد العدوين فهذا الحكم فيه التخيير بينهما لأنه لا بد من اتلاف أحدهما وقاية لنفسه وكلاهما سواء فيخيير بينهما وكذلك العدوان المتكافئان يخير بين قتلهما كالواجب الخير والولى وأما من تساوت حسناته وسيئاته وتدافع أثرهما فهو حجة عليكم فإن الحكم للحسنات وهى تغلب السيئات فانه لا يدخل النار ولكنه يبقى على الأعراف مدة ثم يصير إلى الجنة فقد تبين غلبة الحسنات لجانب السيئات ومنعها من ترتب أثرها عليها وإن الأثر هو أثر الحسنات فقط فبان أنه لا دليل حكم لكم على وجود هذا القسم أصلا وإن الدليل يدل على امتناعه . فان قيل لكم فما قولكم فيما إذا عارض المفسدة مصلحة أرجح منها وترتب الحكم على الرجح هل يترتب عليه مع بقاء المرجوح من المصلحة والمفسدة لكنه لما كان مغمورا لم يلتفت إليه أو يقولون أن المرجوح زال أثره بالراجح فلم يبق له أثر . ومثال ذلك أن الله تعالى حرم الميتة والدم ولحم الخنزير لما في تناولها من المفسدة الراجحة وهو خبث التغذية والغازى شبيه بالمغتذى فيصير المغتذى بهذه الخبائث خبيث النفس فنحاشا للثمة هذه الخبائث فإن اضطراب اليها وخاف على نفسه الهلاك إن لم يتناولها أبيحت له فهل بإباحتها والحالة هذه مع بقاء وصف الخبث فيها السكن عارضه مصلحة أرجح منه وهى حفظ النفس أو بإباحتها أزال وصف الخبث منها فما أبيح له إلا طيب

على يقين من قتلهم وعلى ظن وتخمين من قتل أصحابه وهلاكهم ولو قدر أنهم تيقنوا ذلك ولم يكن في قتلهم استباحة بيضة الإسلام وغلبة العدو على الديار لم يحز أن يبقى نفوسهم بنفوس الأسرى كما لا يجوز للمكره على قتل المعصوم أن يقتله ويقتل نفسه بل الواجب عليه أن يستسلم للقتل ولا يجعل النفوس المعصومة وقاية لنفسه . وأما إذا ألقى في مركبهم نار فانهم يفعلون ما يرون السلامة فيه وإن شكوا هل السلامة في مقامهم أو في وقوعهم في الماء أو تيقنوا الهلاك في صورتين أو غلب على ظنهم غلبة متساوية لا يرجح أحد طرفيها في الصور الثلاث قولان لأهل العلم وهما روايتان منصوصتان عن أحمد إحداهما أنهم يخيرون بين الأمرين لأنهما موتان قد عرضتا لهم فلمهم أن يختاروا أيسرهما عليهما إذ لا بد من أحدهما وكلاهما بالنسبة إليهم سواء فيخبرون بينهما والقول الثاني أن يازمهم المقام ولا يعينون على أنفسهم لئلا يكون موتهم بسبب من جهتهم وليتمحص موتهم بشهادة بأيدي عدوهم وأما الذي ضاق عليه وقت الوقوف بعرفة والصلاة فإن الواجب في حقه تقوى الله بحسب الإمكان وقد اختلف في تعيين ذلك الواجب على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره أحدها أن الواجب في حقه معينا إيقاع الصلاة في وقتها فإنها قد تضيقت والحج لم يتضيق وقته فإنه إذا فعله في العام القابل لم يكن قد أخرجه عن وقته بخلاف الصلاة والقول الثاني أنه يقدم الحج ويقضى الصلاة بعد الوقت لأن مشقة فواته وتكليفه إنشاء سفر آخر أو إقامة في مكة إلى قابل ضرر عظيم تأباه الحنيفية السمحة فيشتغل بأدراكه ويقضى الصلاة والثالث يقضى الصلاة وهو سائر إلى عرفة فيكون في طريقه مصليا كما يصلى الهارب من سيل أو سبع أو عدو انفاقا أو الطالب لعدو يخشى فواته على أصح القولين وهذا أقيس الأقوال وأقربها إلى قواعد الشرع ومقاصده فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح بحسب الإمكان وأن لا يفوت منها شيء فإن أمكن تحصيلها كلها حصلت وإن تراجعت ولم يمكن تحصيل بعضها إلا بتفويت البعض قدم أكلها وأهمها وأشدّها طلبا للشارع . وقد قال عبدالله بن أبي أنيس بعثني رسول الله ﷺ إلى خالد بن سفيان العنزي وكان نحو عرنة وعرفات فقال اذهب فاقتله فرأيت به وحضرت صلاة العصر فقلت إني أخاف أن يكون بيني وبينه ما إن أؤخر الصلاة فانطلقت أمشي وأنا أصلي أو ميام نحوه فلما دنوت منه قال لي من أنت قلت رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل بخبتك في ذلك قال إني لفي ذلك قال فشيت معه ساعة حتى إذا أمكنتني علوته بسيفي حتى برد رواه أبو داود . وأما مسألة المستيقظ قبل طلوع الشمس جنباً وضيق الوقت عليه بحيث لا يتسع للفعل والصلاة فهذا الواجب في حقه عند جمهور العلماء أن يغتسل وإن طلمعت الشمس ولا تجزيه الصلاة بالتميم لأنه واجد الماء وإن كان غير مفرط في نومه فلا اثم عليه

قصرت به عن دخول النار وسيئاته قصرت به عن دخول الجنة وهذا ثابت عن الصحابة حذيفة ابن اليمان وابن مسعود وغيرها . فالجواب من وجهين بحمل ومفصل . أما المجمل فليس في شيء . بما ذكرتم دليل على محل النزاع فإن مورد النزاع أن تتقابل المصلحة والمفسدة وتساويا فينتدافما ويبطل أثرها وليس في هذه الصور شيء كذلك وهذا يقتين بالجواب التفصيلي عنها صورة صورة فأما من توسط أرضاً مغصوبة فإنه مأثور من حين دخل فيها بالخروج منها حكم الشارع في حقه المبادرة الى الخروج وان استلزم ذلك حركة في الأرض المغصوبة فإنها حركة تتضمن ترك الغصب فهي من باب ما لا خلاص عن الحرام الا به وان قيل انها واجبة فوجوب عقل لزوم لا شرعى مقصود فمفسدة هذه الحركة مغمورة في مصلحة تفرغ الأرض والخروج عن الغصب وإذا قدر تساوى الجواب بالنسبة إليه فالواجب القدر المشترك وهو الخروج من أحدها وعلى كل تقدير فمفسدة هذه الحركة مغمورة جداً في مصلحة ترك الغصب فليس بما نحن فيه بسبيل . وأما مسئلة من توسط بين قتلى لا سبيل له إلى المقام أو النقلة إلا بقتل أحدهم فهذا ليس مكلفاً في هذه الحال بل هو في حكم الملجأ والملجأ ليس مكلفاً اتفاقاً فإنه لا قصد له ولا فعل وهذا ملجأ من حيث أنه لا سبيل له إلى ترك النقلة عن واحد الا إلى الآخر فهو ملجأ إلى لبسه فوق واحد ولا بد ومثل هذا لا يوصف فعله بإباحة ولا تحريم ولا حكم من أحكام التكليف لأن أحكام التكليف منوطة بالاختيار فلا تتعلق بمن لا اختيار له فلو كان بعضهم مسلماً وبعضهم كافراً مع اشتراكهم في العصمة فقد قيل يلزمه الانتقال إلى الكافر أو المقام عليه لأن قتله أخف مفسدة من قتل المسلم ولهذا يجوز قتل من لا يقتله في المعركة إذا تترس بهم الكفار فيرميهم ويقصد الكفار . وأما من طلع عليه الفجر وهو مجامع فالواجب عليه النزاع عينا ويحرم عليه استدامة الجماع واللبث وإنما اختلف في وجوب القضاء والكفارة عليه على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره . أحدها عليه القضاء والكفارة وهذا اختيار القاضي أبي يعلى . والثاني لا شيء عليه وهذا اختيار شيخنا وهو الصحيح . والثالث عليه القضاء دون الكفارة وعلى الأقوال كلها فالحكم في حقه وجوب النزاع والمفسدة التي في حركة النزاع مفسدة مغمورة في مصلحة إقلاعه ونزعه فليست المسئلة من موارد النزاع وأما إذا تترس الكفار بأسرى من المسلمين بعدد المقاتلة فانه لا يجوز رميهم إلا أن يخشى على جيش المسلمين وتكون مصلحة حفظ الجيش أعظم من مصلحة حفظ الأسارى فينبذ يكون رمى الأسارى ويكون من باب دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناها فلو انعكس الأمر وكانت مصلحة الأسرى أعظم من رميهم لم يحز رميهم . فهذا الباب مبني على دفع أعظم المفسدتين بأدناها وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناها فان فرض الشك وتساوى الأمران لم يحز رمى الأسرى لأنه

فيها وعدم تأثيرها معا وهو جمع بين التقيضين لأنها إذا بطلت لم تكن مؤثرة وإذا لم تكن مؤثرة لم تبطل غيرها فتكون كل منهما مؤثرة غير مؤثرة باطلة غير باطلة وهذا محال فثبت أنهما لا بد أن تؤثر إحداهما في الأخرى بقوتها فيكون الحكم لها . فإن قيل فما تقولون فيمن توسط أرضا مغصوبة ثم بداله في التوبة فإن أمرتموه باللبث فهو محال وإن أمرتموه بقطعها والخروج من الجانب الآخر فقد أمرتموه بالحركة والتصرف في ملك الغير وكذلك إن أمرتموه بالرجوع فهو حركة منه وتصرف في أرض الغصب فهذا قد تعارضت فيه المصلحة والمفسدة فما الحكم في هذه الصورة وكذلك من توسط بين فئة مثبتة بالجراح منتظرين للموت وليس له انتقال إلا على أحدهم فإن أقام على من هو فوقه قتله وإن انتقل إلى غيره قتله فقد تعارضت هنا مصلحة النقلة ومفسدتها على السواء وكذلك من طلع عليه الفجر وهو بجامع فإن أقام أفسد صومه وإن نزع فالنزع من الجماع والجماع مركب من الحركتين فها هنا أيضاً قد تضادت العلتان وكذلك أيضاً إذا ترس الكفار بأسرى من المسلمين هم بعدد المقاتلة ودار الأمر بين قتل الترس وبين الكف عنه وقتل الكفار المقاتلة المسلمين فها هنا أيضاً قد تقابلت المصلحة والمفسدة على السواء وكذلك أيضاً إذا ألقى في مركبهم نار وعانوا الهلاك بها فإن أقاموا احترقوا وإن لجؤا إلى الماء هلكوا بالغرق وكذلك الرجل إذا ضاق عليه الوقت ليلة عرفة ولم يبق منه إلا ما يسع قدر صلاة العشاء فإن اشتغل بها فإنه الوقوف وإن اشتغل بالذهاب إلى عرفة فاتته الصلاة فها هنا قد تعارضت المصلحتان والمفسدتان على السواء وكذلك الرجل إذا استيقظ قبل طلوع الشمس وهو جنب ولم يبق من الوقت إلا ما يسع قدر الغسل أو الصلاة بالتيمم فإن اغتسل فاتته مصلحة الصلاة في الوقت وإن صلى بالتيمم فاتته مصلحة الطهارة فقد تقابلت المصلحة والمفسدة وكذلك إذا اغتلم البحر بحيث يعلم ركبان السفينة أنهم لا يخلصون إلا بتفريق شطر الركبان لتخف بهم السفينة فإن ألقوا شطرهم كان فيه مفسدة وإن تركوهم كان فيه مفسدة فقد تقابلت المفسدتان والمصلحتان على السواء وكذلك لو أكره رجل على إفساد درهم من درهمين متساويين أو إتلاف حيوان من حيوانين متساويين أو شرب قدح من قدحين متساويين أو وجد كافرين قوين في حال المبارزة لا يمكنه إلا قتل أحدهما أو قصد المسلمين عدوان متكافئان من كل وجه في القرب والبعد والعدد والعداوة فإنه في هذه الصور كلها تساوت المصالح والمفاسد ولا يمكنكم ترجيح أحد من المصلحتين ولا أحد من المفسدتين ومعلوم أن هذه حوادث لا تخلو من حكم الله فيها وأما ما ذكرتم من امتناع تقابل المصلحة والمفسدة على السواء فكيف عليكم انكاره وأنتم تقولون بالموازنة وإن من الناس من تستوى حسناته وسيئاته فيبقى في الأعراف بين الجنة والنار لتقابل مقتضى الثواب والعقاب في حقه فإن حسناته

عند كل عاقل أن كان الراحة بحسب التعب وكال النعيم بحسب تحمل المشاق في طريقه وإنما تخلص الراحة واللذة والنعيم في دار السلام فاما في هذه الدار فكلما ولما . وبهذا التفصيل يزول النزاع في المسئلة وتعود مسئلة وفاق .

فصل

وأما المسئلة الثانية وهي ما تساوت مصلحته ومفسدته فقد اختلف في وجوده وحكمه فأثبت وجوده قوم ونفاه آخرون . والجواب أن هذا القسم لا وجود له . إن حصره التقسيم بل التفصيل إما أن يسكون حصوله أولى بالفاعل وهو راجح المصلحة وإما أن يسكون عدمه أولى به وهو راجح المفسدة وأما فعل يسكون حصوله أولى لمصلحته وعدمه أولى به لمفسدته وكلاهما متساويان فهذا مما لم يقم دليل على ثبوته بل الدليل يقتضى نفيه فإن المصلحة والمفسدة والمنفعة والمضرة واللذة والألم إذا تقابلا فلا بد أن يغلب أحدهما الآخر فيصير الحكم للأغالب وأما أن يتدافعا ويتصادما بحيث لا يغلب أحدهما الآخر فغير واقع فإنه إما أن يقال يوجد الأثران معاً وهو محال لتصادمهما في المحل الواحد وإما أن يقال يتمتع وجود كل من الأثرين وهو ممتنع لأنه ترجيح لأحد الجائزين من غير مرجح وهذا المحال إنما نشأ من فرض تدافع المؤثرين وتصادمهما فهو محال فلا بد أن يقهر أحدهما صاحبه فيسكون الحكم له . فإن قيل ما المانع من أن يتمتع وجود الأثرين قواكم أنه محال لوجود مقتضيه إن أردتم به المقتضى السالم عن المعارض فغير موجود وإن أردتم المقتضى المقارن لوجود المعارض فتختلف أثره عنه غير ممتنع والمعارض قائم ههنا في كل منهما فلا يتمتع تخلف الأثرين فالجواب أن المعارض إذا كان قد سلب تأثير المقتضى في موجهه مع قوته وشدة اقتضائه لأثره ومع هذا فقد قوى على سلبه قوة التأثير والاقتضاء فلان يقوى على سلبه قوة منعه لتأثيره هو في مقتضاه وموجهه بطريق الأولى ووجه الأولوية أن اقتضاه لأثره أشد من منعه تأثيره فإذا قوى على سلبه للأقوى فسلبه للأضعف أولى وأحرى فإن قيل هذا ينتقض بكل مانع يمنع تأثير العلة في معلولها وهو باطل قطعاً . قيل لا ينتقض بما ذكرتم والنقض مندفع فإن العلة والمانع ههنا لم يتدافعا ويتصادما ولكن المانع أضعف العلة فبطل تأثيرها فهو عائق لها عن الاقتضاء وأما في مسئلتنا فالعلتان متصادمتان متعارضتان كل منهما تقتضى أثرها فلو بطل أثرهما لسكانت كل واحدة مؤثرة غير مؤثرة غالبية مغلوبة مانعة ممنوعة وهذا يتمتع وهو دليل يشبه دليل التمانع وسر الفرق أن العلة الواحدة إذا قارنها مانع منع تأثيرها لم تبق مقتضية له بل المانع عاقها عن اقتضاها وهذا غير ممتنع وأما العلتان المتمانعتان اللتان كل منهما مانعة للأخرى من تأثيرها فإن تمانعهما وتقابلهما يقتضى إبطال كل واحدة منهما للأخرى وتأثيرها

فصل

وتحقيق هذا المقام بالكلام في مقامين أحدهما في الأعمال خصوصاً ومراتبها في الحسن والقبح والثاني في الموجودات عموماً ومراتبها في الخير والشر أما المقام الأول فالأعمال إما أن تشتمل على مصلحة خالصة أو راجحة وأما أن تشتمل على مفسدة خالصة أو راجحة وأما أن تستوى مصلحتها ومفسدتها فهذه أقسام خمسة منها أربعة تأتي بها الشرائع فتأتي بمصلحته خالصة أو راجحة آمرة به مقتضية له وما مفسدته خالصة أو راجحة ناهية عنها فيه النهي عنه وطلب إعدامه فتأتي بتحصيل المصلحة الخالصة وللراجحة أو تكميلها بحسب الإمكان وتعطيل المفسدة الخالصة أو التراجحة أو تقليلها بحسب الإمكان فدار الشرائع والديانات على هذه الأقسام الأربعة . وتنازع الناس هنا في مستلذين . المسئلة الأولى في وجود المصلحة الخالصة والمفسدة الخالصة فمنهم من منعه وقال لا وجود له قال لأن المصلحة هي النعم واللذة وما يفضى إليه والمفسدة هي العذاب والألم وما يفضى إليه قالوا والمأمور به لابد أن يقترن به ما يحتاج معه إلى الصبر على نوع من الألم وإن كان فيه لذة سرور وفرح فلا بد من وقوع أذى لا يمكن لما كان هذا مغموراً بالمصلحة لم يلتفت إليه ولم تعطل المصلحة لأجله . فترك الخير الكثير الغالب لأجل الشر القليل المغلوب شر كثير قالوا وكذلك الشر المنهي عنه إنما يفعله الإنسان لأن له فيه غرضاً ووطراً ما وهذه مصلحة عاجلة له فإذا نهى عنه وتركه فانت عليه مصلحته ولذته العاجلة وإن كانت مفسدته أعظم من مصلحته بل مصلحته مغمورة جداً في جنب مفسدته كما قال تعالى في الخمر والميسر (قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما) فالربا والظلم والفواحش والسحر وشرب الخمر وإن كانت شروراً ومفاسد ففهي مفيدة ولذة لفاعليها ولذلك يؤثرها ويختارها والا فلو تجردت مفسدتها من كل وجه لما آثرها العاقل ولا فعلها أصلاً ولما كانت خاصة العقل النـظر الى العواقب والغايات كان أعقل الناس أتركهم لما ترجحت مفسدته في العاقبة وإن كانت فيه لذة ما ومفيدة يسيرة بالنسبة الى مضرتة . ونازعهم آخرون وقالوا القسمة تقتضى إمكان هذين القسمين والوجود يدل على وقوعهما فإن معرفة الله ومحبهه والايان به خير محض من كل وجه لأمفسدة فيه بوجه ما . قالوا ومعلوم أن الجنة خير محض لا شر فيها أصلاً وأن النار شر محض لا خير فيها أصلاً وإذا كان هذان القسمان موجودان في الآخرة فما الخل بوجودهما في الدنيا . قالوا وأيضاً فالمخلوقات كلها منها ما هو خير محض لا شر فيه أصلاً كالأنبياء والملائكة . ومنها ما هو شر محض لا خير فيه أصلاً كالبليس والشياطين . ومنها ما هو خير وشر وأحدهما غالب على الآخر فمن الناس من يغلب خيره على شره ومنهم من

الاعادات وإن كان انتفاع ضعفاء العقول بالخوارق في الإيمان أعظم من انتفاعهم بنفس الدعوة وما جاء به من الإيمان فطرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده ولطفاً بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم فمنهم من يهتدى بنفس ما جاء به وما دعا إليه من غير أن يطلب منه برهانا خارجاً عن ذلك كحال الكمل من الصحابة كالصديق رضى الله عنه ومنهم من يهتدى بمعرفته بحاله صلى الله عليه وسلم وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال وأن عادة الله أن لا يخزى من قام به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفته به وإنه لا يخزى من كان بهذه المثابة كما قالت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها له صلى الله عليه وسلم إبشر فوالله لن يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضعيف وتعين على نوائب الحق فاستدلت بمعرفتها بالله وحكمته ورحمته على أن من كان كذلك فإن الله لا يخزيه ولا يفضحه بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه ومحبة وتوبته وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق والآيات المشهودة بالحس فآمن كثير منهم عليها وأضعف الناس إيماناً من كان إيمانه صادراً من المظهر ورؤية غلبته صلى الله عليه وسلم للناس فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة على صحة الرسالة فأين بصائر هؤلاء من بصائر من آمن به وأهل الأرض قد نصبوا له العداوة وقد ناله من قومه ضروب الأذى وأصحابه في غابة قلة العدد والخفاة من الناس ومع هذا فقلبه ممتلئ بالإيمان واثق بأنه سيظهر على الأمم وأن دينه سيعلم كل دين وأضعف من هؤلاء إيماناً من إيمانه إيمان العادة والمربا والمنشأ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين وأقارب وجيران وأصحاب كذلك فنشأ كواحد منهم ليس عنده من الرسول والكتاب إلا اسمهما ولا من الدين إلا ما رأى عليه أقاربه وأصحابه فهذا دين العوائد وهو أضعف شيء وصاحبه بحسب من يقرن به فلو قيس له من يخرج عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه والمقصود أن خواص الأمة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكأله وشهدت قبح ما خالفه ونقصه ورداءته خالط الإيمان به ومحبة بشاشة قلوبهم فلو خير بين أن يلقى في النار وبين أن يختار دينها غيره لاختار أن يقذف في النار وتقطع أعضاؤه ولا يختار ديناً غيره وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه وأحقهم بالثبات عليه إلى يوم لقاء الله ولهذا قال هرقل لأبي سفيان أيرتد أحد منهم عن دينه سخطة له قال لا قال فكذلك الإيمان إذ خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد والمقصود أن الداخلين في الإسلام المستدلين على أنه من عند الله لحسنه وكأله وأنه دين الله الذي لا يجوز أن يكون من عند غيره هم خواص الخلق والنفاة سدوا على أنفسهم هذا الطريق فلا يمكنهم سلوكه .

سبيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكاله ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة فلا يليق به أن يجعل البر كالعاجر ولا المحسن كالمسيء ولا المؤمن كالمفسد في الأرض فدل على أن هذا قبيح في نفسه تعالى الله عن فعله . ومن هذا أيضا انكاره سبحانه على من جوز أن يترك عباده سدى فلا يأمرهم ولا ينههم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم وان هذا الحسبان باطل والله متعال عنه لمنافاته لحكمته وكاله كما قال تعالى (أحسب الإنسان أن يترك سدى) قال الشافعي رضي الله عنه أي مهملا لا يؤمر ولا ينهى وقال غيره لا يثاب ولا يعاقب والقولان واحد لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهى فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهى في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة فأنكر سبحانه على من زعم أنه يترك سدى انكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانا وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلى أحكم الحاكمين . ومثله وقوله تعالى (أخسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) فتنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان وأنه يتعالى عنه ولا يليق به لقبه ومنافاته لحكمته ومملكته وإلهيته أفلا ترى كيف ظهر في العقل الشهادة بدينه وشرعه وبشوابه وعقابه وهذا يدل على إثبات المعاد بالعقل كما يدل على إثباته بالسمع وكذلك دينه وأمره وما بعث به رسله هو ثابت في العقول جملة ثم علم بالوحي فقد تطابقت شهادة العقل والوحي على توحيده وشرعه والتصديق بوعده ووعيده وأنه سبحانه دعا عباده على السنة رسله إلى ما وضع في العقول حسنه والتصديق به جملة فجاء الوحي مفصلاً مبيناً ومقررأ ومذكراً لما هو مركز في الفطر والعقول ولهذا سأل هرقل أبا سفيان في جملة ما سألته من أدلة النبوة وشواهدا عما يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال بهم يأمركم قال يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف فجعل ما يأمر به من أدلة نبوته فان أكذب الخلق وأجرهم من أدعى النبوة وهو كاذب فيها على الله وهذا محال أن يأمر إلا بما يليق بكذبه وجفوره وإفترائه فدعوته نليق به وأما الصادق البار الذي هو أصدق الخلق وأبرهم فدعوته لا تكون إلا أكمل دعوة وأشرفها وأجلها وأعظمها فإن العقول والفطر تشهد بحسنتها وصدق القائم بها فلو كانت الأفعال كلها سواء في نفس الأمر لم يكن هناك فرقان بين ما يجوز أن يدعو إليه الرسول وما لا يجوز أن يدعو إليه إذ العرف وضده إنما يعلم بنفس الدعوة والأمر والنهى وكذلك مسألة النجاشي لجعفر وأصحابه مما يدعو إليه الرسول فدل على أنه من المستقر في العقول والفطر انقسام الأفعال إلى قبيح وحسن في نفسه وأن الرسل تدعو إلى حسننها وتنهى عن قبيحها وأن ذلك من آيات صدقهم وبراهين رسالتهم وهو أولى وأعظم عند أولى الألباب والخبى من مجرد خوارق

ما حرم بخلا منه عليهم وهو الجواد الكريم بل أمره ونهيه عين حظهم وسعادتهم العاجلة والآجلة ومصدر أمره ونهيه رحمته الواسعة وبره وجوده وإحسانه وإنعامه فلا يسأل عما يفعل لئلا يحكمه وعنده ووقوع أفعاله على وفق المصلحة والرحمة والحكمة وقال تعالى (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أنيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) فأخبر سبحانه أن الحق لو اتبع أهواء العباد لجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ومعلوم أن عند النفثة يجوز أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبداً وديناً وهذه مخالفة صريحة للقرآن وأنه من المحال أن يتبع الحق أهوائهم وإن أهواؤهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لفجح خلاف ما شرعه الله وأمر به ومناقضاته لصالح العالم علويه وسفليه وإن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه وإن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه ومن يقول الجحيم في نفس الأمر سواء يجوز ورود التعبد بكل شيء سواء كان من مقتضى أهوائهم أو خلافها . ومثل هذا قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش) أى لو كان في السموات والأرض آلهة تعبد غير الله لفسدتا وبطلتا ولم يقل أرباب بل قال آلهة والإله هو المعبود المألوه وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلاً أن يشرع الله عبادة غيره أبداً وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض فقبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول وإن لم يرد النبي عنه شرع بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق وأنه من المحال أن يشرعه الله قط فصالح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود وفساده وهلاكه في أن يعبد معه غيره ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه بل هو المنزه عن ذلك

فصل

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين كالتسوية بين الأبرار والفجار فقال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء بحياهم ومماتهم سواء ما يحيكون) فدل على أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه وأنه حكم

عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقواون على الله مالا تعلمون (فقلوه قل ان الله لا يأمر بالفحشاء داليل على أنها في نفسها فحشاء وان الله لا يأمر بما يكون كذلك وانه يتعالى ويتقدس عنه ولو كان كونه فاحشة انما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال ان الله لا يأمر بما ينهى عنه وهذا كلام يصاب عنه آحاد العقلاء فكيف بكلام رب العالمين ثم أكد سبحانه هذا الانكار بقوله (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) فأخبر انه يتعالى عن الأمر بالفحشاء بل أوامره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر فإنه أمر بالقسط لا بالجور وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا غيره وادعوه وحده مخلصين له الدين لا بالشرك فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسنة وينزه نفسه عن الأمر بضده وأنه لا يليق به تعالى (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً) فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام وانه لاشيء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله وهو لإخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن لا مر تسكب للقبح الذي يكرهه الله بل هو مخلص لربه محسن في عبادته بما يحبه ويرضاه وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر وانه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال وهذا استدلال بغير الأمر المجرد بل هو داليل على أن ما كان كذلك تحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواء ومثل هذا قوله تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) فهذا احتجاج بماركب في العقول والفطر لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول وقال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) فأى شيء أصرح من هذا حيث أخبر سبحانه أنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم وقد أخبر تعالى انه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم فهذا تحريم عقوبة بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل السكل سواء فانه سبحانه أمر عباده بما أمرهم به رحمة منه وإحساناً وإنعاماً عليهم لأن صلاحهم في معاشهم وأبدانهم وأحوالهم وفي معادهم وما لهم إنما هو بفعل ما أمروا به وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا قوام للبدن إلا به بل أعظم وليس مجرد تسكليف وابتلاء كما يظنه كثير من الناس ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة وحماية لهم إذ لا بقاء لصحتهم ولا حفظ لها إلا بهذه الحمية فلم يأمرهم حاجة منه إليهم وهو الغنى الحميد ولا حرم عليهم

سبحانه مثلاً من عقولهم يلهيهم على قبح عبادتهم غيره وإن هذا أمر مستقر قبجه وهجته في كل عقل وإن لم يرد به الشرع وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلفوا ذباباً واحداً وإن يسلبهم الذباب شيئاً لم يقدرُوا على الانتصار منه واستنقاذ ما سلبهم إياه وترك عبادة الخلاق العليم القادر على كل شيء الذي ليس كمثل شيء أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركب في العقول من حسن عبادته وحده وقبح عبادة غيره وقال تعالى (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً رجل هل يستويان مثلاً) هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له ولمن عبد من دونه آلهة فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون فهل يستوي في العقول هذا وهذا وقد أكثر تعالى من هذه الأمثال ونوعها مستدلاً بها على حسن شكره وعبادته وقبح عبادة غيره ولم يحتج عليهم بنفس الأمر بل بما ركب في عقولهم من الإقرار بذلك وهذا كثير في القرآن فمن تتبعه وجدته وقال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) فذكر توحيداً وذكر المناهي التي نهاهم عنها والأوامر التي أمرهم بها ثم ختم الآية بقوله (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) أي مخالفة هذه الأوامر وارتكاب هذه المناهي سيئة مكروهة لله فتأمل قوله سيئة عند ربك مكروهة أي أنه سيء في نفس الأمر عند الله حتى لو لم يرد به تكليف لكان سيئه في نفسه عند الله مكروهاً له وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أن كرهه ولو كان قبجه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروهاً لله إذ لا معنى للكراهة عندهم إلا كونه منهيًا عنه فيعود قوله كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً إلى معنى كل ذلك نهى عنه عند ربك ومعلوم إن هذا غير مراد من الآية وأيضاً فإذا وقع ذلك منهم فهو عند النفاة للحسن والقبح محبوب لله مرضى له لأنه إنما وقع بإرادته والإرادة عندهم هي المحبة لافرق بينهما والقرآن صريح في أن هذا كله قبيح عند الله مكروه مبعوض له وقع أو لم يقع وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سبباً للنهي عنه ولهذا جعله علة وحكمة الأمر فتأمل والعلة غير المعلول وقال تعالى (لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) دل ذلك على أن في نفس الأمر قسطاً وأن الله سبحانه أنزل كتابه وأنزل الميزان وهو العدل ليقوم الناس بالقسط أنزل الكتاب لأجله والميزان فعمل أن في نفس الأمر ما هو قسط وعدل حسن ومخالفته قبيحة وأن الكتاب والميزان نزلاً لأجله ومن ينفي الحسن والقبح يقول ليس في نفس الأمر ما هو عدل حسن وإنما صار قسطاً وعدلاً بالأمر فقط ونحن لا ننكر أن الأمر كسأه حسناً وعدلاً إلى حسنه وعدله في نفسه فهو في نفسه قسط حسن وكسأه الأمر حسناً آخر يضاعف به كونه عدلاً حسناً فصار ذلك ثابتاً له من الوجهين جميعاً . ومن هذا قوله تعالى (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا

قوله ولا الظفر عليه أضلا فانه موافق لكل طائفة على ما معها من الحق مقرر له مخالف لها في باطلها منكر له وليس مع النفاة قط دليل واحد صحيح على نفي الحسن والقبح العقليين وإن الأفعال المتضادة كلها في نفس الأمر سواء لا فرق بينها إلا بالامر والنهي وكل أدلتهم على هذا باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى وليس مع المعتزلة دليل واحد صحيح قط يدل على إثبات العذاب على مجرد القبح العقلي قبل بعثة الرسل وأدلتهم على ذلك كلها باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى وبما يدل على ذلك أيضا أنه سبحانه يحتاج على فساد مذهب من عبده غيره بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول ويجعل ما ركبته في العقول من حسن عبادة الخالق وحده وقبح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا ولولا أنه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره وقبح عبادة غيره وترك شكره لما احتج عليهم بذلك أصلا وإنما كانت الحجة في مجرد الأمر وطريقة القرآن صريحة في هذا كقوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) فذكر سبحانه أمرهم بعبادته وذكر اسم الرب مضافا إليهم لمقتضى عبوديتهم لربهم ومالكهم ثم ذكر ضروب أنعامه عليهم بإيجادهم وإيجاد من قبلهم وجعل الأرض فراشا لهم يمكنهم الاستقرار عليها والبناء والسكنى وجعل السماء بناء وسقفا فذكر أرض العالم وسقفه ثم ذكر إنزال مادة أقواتهم ولباسهم وثمارهم منبها بهذا على استقرار حسن عبادة من هذا شأنه وتشكره الفطر والعقول وقبح الإشراك به وعبادة غيره ومن هذا قوله تعالى حاكيا عن صاحب ياسين أنه قال لقومه محتجا عليهم بما تقر به فطرهم وعقولهم ﴿ وما لي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾ فتأمل هذا الخطاب كيف تجد تحته أشرف معنى وأجله وهو أن كونه سبحانه فاطرا لعباده يقتضى عبادتهم له وأن من كان مفطورا مخلوقا فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه ولا سيما إذا كان مرده إليه فبداه منه ومصيره إليه وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته ثم احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره وإلما أقيح شيء في العقل وأنكره فقال (أأخذ من دونه آلهة إن يردني الرحمن بضر لا تنف عني شفاعتهم شيئا ولا ينفقون إني إذا لفي ضلال مبين) أفلا تراه كيف لم يحتاج عليهم بمجرد الأمر بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة ومن هذا قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) فضرب لهم

التأمل يطلعك على أسرار الشريعة ويشرفك على محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها وأنه من
المتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به وأن الله تعالى يتنزه عن ذلك
كما يتنزه عن سائر مالا يليق به . وبما يدل على ذلك قوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش
ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن
تقولوا على الله مالا تعلمون) وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول
فتعلق التحريم بها لفحشها فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة
المقتضية له وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها فدل على أنه حرمها فواحش
وحرم الخبيث لكونه خبيثا وأمر بالمعروف لكونه معروفا والعلة يجب أن تغاير المعلول
فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهي عنه وكونه خبيثا هو معنى كونه محرما كانت العلة عين
المعلول وهذا محال فتأمله وكذا تحريم الإثم والبغى دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل
التحريم . ومن هذا قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا أنه كان فاحشة ومقما وساء سبيلا) فعمل
النهى في الموضوعين بكون المنهى عنه فاحشة ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهى لكان تعليلا
للشيء بنفسه ولكان بمنزلة أن يقال لا تقربوا الزنا فإنه يقول لكم لا تقربوه أو فإنه منهي عنه
وهذا محال من وجهين أحدهما أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة والثاني أنه تعليل للنهى
بالنهي . ومن ذلك قوله تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا
أرسلت إلينا رسولا ففتبع آياتك ونكون من المؤمنين) فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل
البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه
بأنه لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال
الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت
قيمة بحيث استحقوا أن يصيبوا بها المصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل
وهذا هو فصل الخطاب . وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل في نفسه
وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة وهذه النسكته هي التي فانت المعتزلة
والكلابية كليهما فاستطاعت كل طائفة منهما على الأخرى لعدم جمعها بين هذين الأمرين
فاستطاعت الكلالية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل وترتيبهم العقاب على مجرد
القبح العقلي وأحسنوا في رد ذلك عليهم واستطاعت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح
العقليين جملة وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح واستواء الأفعال
في أنفسها وأحسنوا في رد هذا عليهم فكل طائفة استطاعت على الأخرى بسبب إنكارها
الصواب وأما من سلك هذا المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد

الفرق بينهما الأمر المجرد وأى جحد للضروريات أعظم من هذا وهل هذا إلا بمنزلة من يقول أنه لا فرق بين الرجيع والبول والدم والقيء وبين الخبز واللحم والماء والفاكهة والكل سواء في نفس الأمر وإنما الفرق بالعوائد فأى فرق بين مدعى هذا الباطل وبين مدعى ذلك الباطل وهل هذا إلا بهت للعقل والحس والضرورة والشرع والحكمة وإذا كان لامعنى عندهم للمعروف إلا ما أمر به فصار معروفاً بالأمر ولا للمنكر إلا ما نهى عنه فصار منكراً بنهيه فأى معنى لقوله (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عما ينهاهم عنه وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء فضلاً عن كلام رب العالمين وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذى تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر فأمرهم بما هو معروف فى نفسه عند كل عقل سليم ونهاهم عما هو منكراً فى الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار كما أن ما أمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحسنه كما قال بعض الأعراب وقد سئل بم عرفته أنه رسول الله فقال ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه ولا ينهى عن شيء فقال ليته أمر به فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقيح ما نهى عنه حتى كان فى حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته ولو كان جهة كونه معروفاً ومنكراً هو الأمر المجرد لم يكن فيه دليل بل كان يطلب له الدليل من غيره ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه ومعلوم أن نفس الدين الذى جاء به والملة التى دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته ومن لم يثبت لذلك صفات وجودية أو جبت حسنه وقبول العقول له ولضده صفات أو جبت قبحه ونفور العقل عنه فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة وجعلها مستدلاً عليه فقط .

وبما يدل على صحة ذلك قوله تعالى (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) فهذا صريح فى أن الحلال كان طيباً قبل حله وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريمه ولم يستفد طيب هذا وخبيث هذا من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين أحدهما أن هذا علم من أعلام نبوته التى احتج الله بها على أهل الكتاب . فقال (الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يمجّدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم) فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن فى ذلك دليل فإنه بمنزلة أن يقال يحل لهم ما يحل ويحرم عليهم ما يحرم وهذا أيضاً باطل فإنه لا فائدة فيه وهو الوجه الثانى فثبت أنه أحل ما هو طيب فى نفسه قبل الحل فكسأه بأحلاله طيباً آخر فصار منشأ طيبه من الوجهين معاً فتأمل هذا الموضع حتى

وأما الضحايا والهدايا فقربان إلى الخالق سبحانه تقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للتلف فدية وعوضاً وقرباناً إلى الله وتشبهاً بإمام الحنفاء وإحياء لسنته أن فدى الله ولده بالقربان فجعل ذلك في ذريته باقياً أبداً وأما الإيمان والنذور فعقود يعقدها العبد على نفسه يؤكد بها ما ألزم به نفسه من الأمور بالله ولله فهي تعظيم للخالق ولأسمائه ولحقه وأن تكون العقود بهوله وهذا غاية التعظيم فلا يعقد بغير إسمه ولا لغير القرب لإيمه بل إن حلف فباسمه تعظيماً وتبجيلاً وتوحيداً وإجلالاً وأن نذر فله توحيداً وطاعة ومحبة وعبودية فيكون هو المعبود وحده والمستعان به وحده . وأما المطاعم والمشارب والملابس والمناكح فهي داخلة فيما يقيم الأبدان ويحفظها من الفساد والهلاك وفيما يعود ببقاء النوع الإنساني لئتم بذلك قوام الأجساد وحفظ النوع فيتحمل الأمانة التي عرضت على السموات والأرض ويقوى على حملها وأدائها ويتمكن من شكر مولى الأنعام ومسديده وفرق في هذه الأنواع بين المباح والمحظور والحسن والقيح والضار والنافع والطيب والخبيث فحرم منها القبيح والخبيث والضار وأباح منها الحسن والطيب والنافع كما سيأتى إن شاء الله وتأمل ذلك في المناكح فإن من المستقر في العقول والفطر أن قضاء هذا الوطر في الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات والجندات مستقبح في كل عقل مستبح في كل فطرة ومن المحال أن يكون المباح من ذلك مساوياً للمحظور في نفس الأمر ولا فرق بينهما إلا بمجرد التحريم بالمشيئة سبحانه هذا بهتان عظيم وكيف يكون في نفس الأمر نسكاح الأم واستفراشها مساوياً لنسكاح الأجنبية واستفراشها وإنما فرق بينهما محض الأمر وكذلك من المحال أن يكون الدم والبول والرجيع مساوياً للخبز والماء والفاكهة ونحوها وإنما الشارح فرق بينهما فأباح هذا وحرم هذا مع استواء الكل في نفس الأمر وكذلك أخذ المال بالبيع والهبة والوصية والميراث لا يكون مساوياً لأخذه بالقهر والغلبة والغصب والسرقة والجناية حتى يكون إباحة هذا وتحريم هذا راجعاً إلى محض الأمر والنهي المفرق بين المتأثلين وكذلك الظلم والكذب والزور والفواحش كالزنا واللواط وكشف العورة بين المثلأ ونحو ذلك كيف يسوغ عقل عاقل أنه لا فرق قط في نفس الأمر بين ذلك وبين العدل والإحسان والعفة والصيانة وستر العورة وإنما الشارح يحكم بإيجاب هذا وتحريم هذا . . وهذا مما لو عرض على العقول السليمة التي لم تدخل ولم يمسها ميل للمثالات الفاسدة وتعظيم أهلها وحسن الظن بهم لكانت أشد إنكاراً له وشهادة ببطلانه من كثير من الضروريات وهل ركب الله في فطرة عاقل قط أن الإحسان والإساءة والصدق والكذب والفجور والعفة والعدل والظلم وقتل النفوس وانجاءها بل السجود لله وللصنم سواء في نفس الأمر لا فرق بينهما وإنما

واجتناب محارمه بمثل الصوم فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه إنما شرعه إحساناً إلى عباده ورحمة بهم وإطفاء بهم لا بخلا عليهم برزقه ولا مجرد تكليف وتعذيب خال من المحكمة والمصلحة بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة وإن شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم ورحمته بهم . وأما الحج فشان آخر لا يدركه إلا الخلفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم وشأنه أجل من أن تحيط به العبارة وهو خاصة هذا الدين الحنيف حتى قيل في قوله تعالى (خلفاء الله غير مشركين) أى حجاجاً وجعل الله بيته الحرام قياماً للناس فهو عمود العالم الذى عليه بناؤه فلوترك الناس كلهم الحج سنة لحزت السماء على الأرض هكذا قال ترجمان القرآن ابن عباس فالبيت الحرام قيام العالم فلا يزال قياماً ما زال هذا البيت محجوجاً فالحج هو خاصة الخليفة ومعوذة الصلاة وسر قول العبد لإلهه إلا الله فإنه مؤسس على التوحيد المحض والمحبة الخاصة وهو استزارة المحبوب لأحبابه ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم لبنيك اللهم لبنيك إجابة بمحب لدعوة حبيبه ولهذا كان للتلبية موقع عند الله وكلما أكثر العبد منها كان أحب إلى ربه وأحظى فهو لا يملك نفسه أن يقول لبنيك لبنيك حتى يقطع نفسه . وأما أسرار ما في هذه العبادة من الإحرام واجتنب العوائد وكشف الرأس ونزع الثياب المعتادة والطواف والوقوف بعرفة ورمى الجمار وسائر شعائر الحج فما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة وعلمت بأن الذى شرع هذه لا حكمة فوق حكمته وستعود إن شاء الله إلى الكلام في ذلك في موضعه . وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها وهو المحك والدليل المفرق بين المحب والمدعى فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه متقرباً إليه ببذل أعز ما يحضرته يود لو أن له بكل شعرة نفساً يبذلها في حبه ومرضاته ويود أن لو قتل فيه ثم أحيى ثم قتل ثم أحيى ثم قتل فهو يفدى بنفسه حبيبه وعبدته ورسوله ولسان حاله يقول .

يفديك بالنفس صب لو يكون له أعز من نفسه شيء فذاك به

فهو قد سلم نفسه وماله لمشتريها وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) وإذا كان من المعلوم المستقر عند الخلق أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضات المحبوب فالمحجوب الحق الذى لا تنبغى المحبة إلا له وكل محبة سوى محبته فالمحبة له باطلة أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذى هو غاية ما يتقربون به إلى إلههم وربهم وكانت قرابين من قبلهم من الأمم في ذبائحهم وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في الله مولا هم الحق فأى حسن يزيد على حسن هذه العبادة ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء وأكمل الأمم عقلاً وتوحيداً ومحبة لله .

الأول وهو السجود من قيام فيضع أشرف شيء فيه وهو وجهه على التراب خشوعاً لربه واستكانة وخضوعاً لعظمته وذلاً لعزته قد انكسر له قلبه وذلل له جسمه وخشعت له جوارحه ثم يستوى قاعداً يتضرع له ويتذلل بين يديه ويسأله من فضله ثم يعود إلى حاله من الذل والخشوع والاستكانة فلا يزال هذا دأبه حتى يقضى صلاته فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنياً على ربه مسلماً على نبيه وعلى عباده ثم يصلي على رسوله ثم يسأل ربه من خيره وبره وفضله فأى شيء بعد هذه العبادة من الحسن وأى كمال هذا الكمال وأى عبودية أشرف من هذه العبودية فمن جوز عقله أن ترد الشريعة بضدها من كل وجه في القول والعمل وأنه لا فرق في نفس الأمر بين هذه العبادة وبين ضدها من السخرية والسب والبطر وكشف العورة والبول على الساقين والضحك والصفير وأنواع المجون وأمثال ذلك فليعز عقله ويسأل الله أن يهبه عقلاً سواه . وأما حسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوى الحاجات والمسكنة والخلّة من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم ويخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسهم وما فيها من الرحمة والإحسان والبر والطهارة وإيثار أهل الإيثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل والخروج من سماء أهل الشح والبخل والدناءة فأمر لا يستريب عاقل في حسنه ومصلحته وأن الأمر به أحكم الحاكمين وليس يجوز في العقل ولا في الفطرة البتة أن ترد شريعة من الحكيم العليم بضد ذلك أبداً . وأما الصوم فنأهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها وتخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين فإن النفس إذا خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم فإذا كتفت شهواتها لله ضيقت مجارى الشيطان وصارت قريبة من الله بترك عاداتها وشهواتها محبة له وإيثار المرضاته وتقرباً إليه فيدع الصائم أحب الأشياء إليه وأعظمها لصوقاً بنفسه من الطعام والشراب والجماع من أجل ربه فهو عبادة ولا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله فالصائم يندع طعامه وشرابه وشهواته من أجل ربه وهذا معنى كون الصوم له تبارك وتعالى وبهذا فسر النبي ﷺ هذه الإضافة في الحديث فقال يقول الله تعالى كل عمل ابن آدم بضائع الحسنة بعشرة أمثالها قال الله إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه من أجل حتى أن الصائم ليتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا إلا في تحصيل رضى الله وأى حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة وتقمع النفس وتحبى القلب وتفرحه وتزهد في الدنيا وشهواتها وترغب فيما عند الله وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم وأنهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم فتعطف قلوبهم عليهم ويعلمون ما هم فيه من نعم الله فيزدادوا له شكراً وبالجملة فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده

بسم الرحمن الرحيم

فصل

حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة وأما أهل البدو كلهم وأهل الكفور كلهم وعامة بني آدم فلا يحتاجون إلى طبيب وهم أصح أبداناً وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب ولعل أعمارهم متقاربة وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم وجعل لكل قوم عادة وعرفاً في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء حتى أن كثيراً من أصول الطب إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم وأما الشريعة فبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية فبناها على الوحي المحض والحاجة إلى التنفس فضلاً عن الطعام والشراب لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة هلاك الآبد وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم .

فصل

الشرائع كلها في أصولها وإن تباينت متفقة مركز حسن منها في العقول ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة بل من المحال أن تأتي بخلاف ما أنت به (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) وكيف يجوز ذو العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد ما وردت به فالصلاة قد وضعت على أكمل الوجوه وأحسنها التي تعبد بها الخالق تبارك وتعالى عبادته من تضمنها للتعظيم له بأنواع الجوارح من نطق اللسان وعمل اليدين والرجلين والرأس وحواسه وسائر أجزاء البدن كل يأخذ لحظه من الحكمة في هذه العبادة العظيمة المقدار مع أخذ الحواس الباطنة بحظها منها وقيام القلب بواجب عبوديته فيها فهي مشتملة على الثناء والحمد والتمجيد والتسبيح والتكبير وشهادة الحق والقيام بين يدي الرب مقام العبد الذليل الخاضع المدبر المربوب ثم التذلل له في هذا المقام والتضرع والتقرب إليه بكلامه ثم انحناء الظهر ذلالاً له وخشوعاً واستكانة ثم استواؤه قائماً ليستعد الخضوع أكمل له من الخضوع

مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ

ومنشور ولاية العلم والإرادة

تأليف

الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن
قيم الجوزية قدس الله روحه الزكية

قال صاحب كشف الظنون (مفتاح دار السعادة) للشيخ شمس الدين
محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١
كتاب كبير الحجم . فيه فوائد مرسلّة يقتبس من مجموعها معرفة العلم
وفضله ومعرفة إثبات الصانع ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النبوة ومعرفة
الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة والفال والجزر ومعرفة أصول نافعة جامعة
بما تكمل به النفوس البشرية إلى غير ذلك من الفوائد

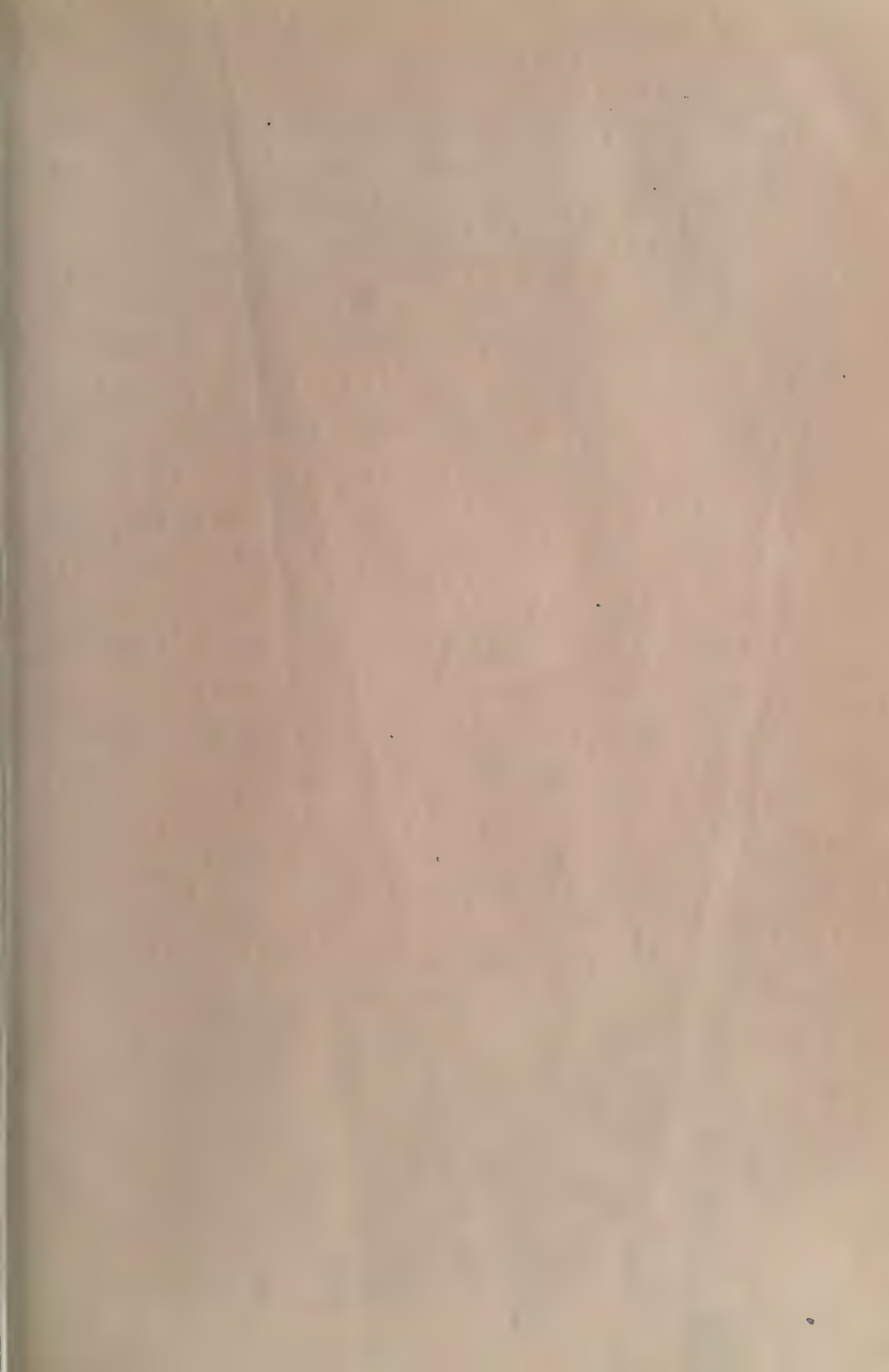
المَجْمُوعُ الثَّانِي

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

صيدان النزهة بمصر

دار النشر الحديث للطباعة
للكتاب صبيح . تليفون ٥٠٨٥٢



- ٢٩٥ فصل ومنها أن الذنب يوجب لصاحبه التيقظ
د ومنها أن القلب يكون ذاهلا عن عدوه
٢٩٥ د ومنها أن مثل هذا يكون كالطبيب
٢٩٦ د ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه
٢٩٧ د ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة
٢٩٧ د ومنها أنه سبحانه إذا أراد بعبده خيرا أنساه رؤية طاعاته
٢٩٨ د ومنها أن شهود العبد ذنوبه يوجب أن لا يرى لنفسه على أحد فضلا
٢٩٨ د ومنها أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس
٢٩٨ د ومنها أنه إذا وقع في الذنب شعر نفسه بغيره من المذنبين
٢٩٩ د ومنها إذا شهد نفسه مع ربه مذنباً الخ
٢٩٩ د فيما في ابتلاء العبد من الحكم والمصالح
٣٠٠ د ثم تأمل في حال التكليم
٣٠١ د في الأمر بالنظر في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام
٣٠١ د في ذكر طرف من محاسن الدين الإسلامى الخفيف
٣٠٣ د وبصائر الناس في هذا تنقسم إلى ثلاثة أقسام
٣٠٤ د في بيان أن الفطرة والعقل يشهدان برب خالق قديم

(تم فهرس الجزء الأول من كتاب المفتاح)

- ٢٦٨ فصل في الكلام على الصوت وبيان ما فيه من الأسرار
- ٢٦٩ د في أن الأعضاء التي يكون بواسطتها الصوت لها منافع آخر غير وجود الصوت
- ٢٧١ د في بيان الحكمة في كثير من أعضاء الحيوان
- ٢٧٣ د في بيان الحكمة في كثرة بكاء الأطفال وما لهم في ذلك من المصالح
- ٢٧٧ تنبيه الفرق بين نظر الطبيب والطبايعي في هذه الأشياء
- ٢٧٧ د ثم تأمل حكمة الله تعالى في الحفظ والنسيان اللذين خص بهما الإنسان
- ٢٧٧ فصل في الكلام على خلق الحياء الذي خص به الإنسان
- ٢٧٨ د في الكلام على نعمتي البيان النطقي والبيان الخطي
- ٢٨٠ د في حكمة إعطاء الإنسان علم ما لا بد له منه وحججه عماله غنى عنه
- ٢٨٢ فصل وكذلك أعظام العلوم المتعلقة بصلاح دنياهم ومعاشهم كالطب ونحوه
- ٢٨٢ د في حكمة حجب الباري جل شأنه عباده عن علم قيام الساعة ومقادير آجالهم
- ٢٨٥ د ومنها أنه سبحانه يحب أن يتفضل على خلقه
- ٢٨٦ د في أنه سبحانه له الأسماء وأن لكل اسم منها أثر من الآثار في الخلق والأمر
- ٢٨٧ د ومنها أنه سبحانه يعرف عباده عزته في قضائه وقدره
- ٢٨٨ د ومنها أنه سبحانه يستجلب من عباده ما هو من أعظم أسباب السعادة
- ٢٩٠ د ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه
- ٢٩٠ د ومنها تعريفه عبده سعة حله
- ٢٩١ د ومنها تعريفه العبد أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه
- ٢٩١ د ومنها تعريفه العبد كرمه بقبوله توبته
- ٢٩١ د ومنها إقامة حجة عدله على عبده
- ٢٩١ د ومنها أن يعامل العبد بنى جنسه في إساءتهم له بما يجب أن يعامله الله به
- ٢٩٢ د ومنها إذا عرف هذا أحسن إلى من أساء إليه
- ٢٩٢ د ومنها أن يخضع صولة الطاعة من قلبه
- ٢٩٣ د ومنها أن لله عز وجل على القلوب أنواعا من العبودية
- ٢٩٣ د ومنها أن يعرف العبد مقدار نعمة معافاته
- ٢٩٤ د ومنها أن التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة
- ٢٩٤ د ومنها أن الله يفرح بتوبة عبده أعظم فرح
- ٢٩٤ د ومنها أنه إذا شهد ذنوبه استكثر القليل من نعم ربه عليه

٢٣٩ فصل في أن الوحوش والبهائم لا يرى إلا القليل منها على أنها أكثر من الإنسان

٢٤٠ د في حكمة خلق وجه الدابة على ما يشاهد منها

٢٤٠ د في شفر الفيل وما فيه من الحكمة والأسرار

٢٤١ د في خلق الزرافة واختلاف أعضائها

٢٤٢ د في خلق النملة وما فيها من الأسرار وشرح طرف من آثارها

٢٤٤ د في عجيب فطنة الثعلب واحتياله في معاشه

٢٤٤ د في جسم الطائر وخلقها وما خلق له من الآلات التي يتمكن بها من الطيران

٢٤٥ د في خلق البيضة

٢٤٥ د في حوصلة الطائر وما فدرت له

٢٤٥ د في الكلام على الألوان والاصباغ والوشى التي ترى في كثير من الحيوانات

٢٤٦ د ثم تأمل هذا الطائر الطويل الساقين واعرف المنفعة في طول ساقيه

٢٤٨ د ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات

٢٤٩ د ومن أعجب أمر النحل ما لا يمتدئ له أكثر الناس ولا يعرفونه

٢٥١ د في حكمة ما يخرج من بطون الأنعام من اللبن

٢٥٢ د في عجائب خلق السمك وكيفية خلقه

٢٥٥ بحث في تنويعه تعالى عقوبات الأمم الخالية وبيان حكمته في ذلك

٢٥٥ فصل فأعد الآن النظر في نفسك مرة ثانية

٢٦٠ د في الكلام على آلات التناسل وما في خلقها من الحكمة

٢٦٠ د فأعد النظر في نفسك وتأمل في وضع هذه الأعضاء مواضعها

٢٦٢ د في بيان تركيب البدن ووضع الأعضاء مواضعها وإعدادها لما أعدت له

٢٦٣ د في بيان ما اختص الله به الإنسان من أنواع البر وصنوف الكرامات

٢٦٤ د في الكلام على الحواس التي في الإنسان

٢٦٤ د في أن الحواس أعينت بمخلوقات مفصلة عنها تعيينها على الإحساس

٢٦٥ د ثم تأمل حال فاقد البصر وما يقع في أموره من الخلل

٢٦٦ د في أن من عدم بيان القلب وبيان اللسان كان كالحیوانات العجماء

٢٦٦ د ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك آحاداً ومثنى وثلاث

٢٦٧ د في أن اختلاف صور الإنسان من أقوى الدلائل على نفي الطبيعة

٢٦٨ د في حكمة اشتراك الرجل والمرأة في العانة وانفرا الرجل باللعبة

حقيقة

- ٢٢١ فصل في حكمة خلق الأرض ذات سهل وجبل وحزن ووعر
 ٢٢١ د في الكلام على الزلازل وشرح أسباب حدوثها
 ٢٢١ د في الكلام على التقدين الذهب والفضة وما فيهما من الأسرار
 ٢٢٢ د في بيان الحكمة في تيسيره تعالى على العباد ما تشهد حاجتهم إليه وتوسيعه
 ٢٢٣ د ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ،
 ٢٢٣ د في المطر وبيان ما فيه من المصالح
 ٢٢٤ د ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله المطر بقدر الحاجة
 ٢٢٤ د في حكمة إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه
 ٢٢٥ د ثم تأمل في تشبيه خلق الأشجار والنبات بالقساط والخيمة
 ٢٢٥ د في حكمة خلق الورق للشجر
 ٢٢٦ د ثم تأمل الحكمة في كونها جعلت زينة للشجر وسترا ولباسا للثمرة
 ٢٢٧ د في إبداع العجم والنوى وما في خلقهما من الأسرار
 ٢٢٧ د في خلق الرمان وما فيه من البدائع
 ٢٢٨ د ثم تأمل هذا الربيع والنماء الذي جعله الله في الزرع
 ٢٢٨ د ثم تأمل الحكمة في الحبوب
 ٢٢٨ د ثم تأمل هذه الحكمة البارعة في هذه الأشجار
 ٢٢٩ د في خلق البطيخ واليقطين والجزر
 ٢٣٠ د في حكمة موافاة أصناف الفواكه في الأوقات المناسبة لها
 ٢٣٠ د في الكلام على خلق النخلة وما فيها من العجائب
 ٢٣٣ د في الكلام على العقاقير والأدوية التي يخرجها الله من الأرض
 ٢٣٤ د في إعطائه سبحانه بهيمة الانعام الاسماع والابصار
 ٢٣٤ د في حكمة خلق آلات البطش في الحيوان من الإنسان وغيره
 ٢٣٥ د في حكمة تفريقه سبحانه خلق الحيوان واعطاء كل نوع منها مالا بدله منه
 ٢٣٦ د ثم تأمل ذوات الأربع من الحيوان
 ٢٣٧ د ثم تأمل الحكمة في قوائم الحيوان
 ٢٣٧ د ثم تأمل الحكمة في جعل ظهور الدواب مبسوطة
 ٢٣٧ د في حكمة خلق فرج البهيمة بارزاً من ورائها
 ٢٣٨ د ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمة هذه الكسوة من الشعر وغيرها

- ١٩٦ فصل فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً وفيه الكلام على الأجرام الفلكية والكواكب وبيان ما فيها من الأسرار والحكم
- ١٩٩ فصل في أن النظر في آيات الله نوعان نظر بالبصر وهذا يشارك فيه الإنسان سائر الحيوان والثاني بالبصيرة وهذا هو الذي ندب الله إليه
- ١٩٩ فصل في الكلام على الأرض وبيان ما في خلقها من الأسرار والحكم
- ٢٠٠ مطلب في الكلام على الهواء وحاجة العالم إليه
- ٢٠٣ فصل في عجائب الليل والنهار وما فيهما من الأسرار
- ٢٠٦ د في الكلام على العالم جملة وار تباط علويه بسفليه وكل جزء منه ببقية الأجزاء
- ٢٠٧ د في عجائب خلق السماء
- ٢٠٧ د في عجائب خلق الشمس والقمر
- ٢٠٨ د ثم تأمل بعد ذلك حال الشمس في ارتفاعها وانخفاضها
- ٢٠٩ د ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من الاضاءة والنور
- ٢٠٩ د في بيان الحكمة في اختلاف مقادير الليل والنهار
- ٢٠٩ د ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار
- ٢١٠ د ثم تأمل لإتارة القمر والكواكب في ظلمة الليل
- ٢١٠ د ثم تأمل حكمته تعالى في هذه النجوم وكثرتها
- ٢١١ د في اختلاف شير الكواكب وما في ذلك من العجائب
- ٢١٢ د ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمس وقمر ونجومه وبروجه
- ٢١٤ د في استنباط دليل من الكون على وجود الصانع القديم
- ٢١٥ د في إمساك السموات والأرض وبيان الإمساك لهما أن تقعا
- ٢١٥ د ثم تأمل الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما
- ٢١٥ د في بيان الحكمة في خلق النار وبيان ما فيها من الأسرار
- ٢١٦ د في بيان حكمة اختصاص الإنسان بالنار دون سائر الحيوان
- ٢١٦ د في الكلام على الهواء وتفصيل ما فيه من المصالح والمرافق
- ٢١٧ د في الكلام على خلق الأرض وأنها ساكنة غير متحركة
- ٢١٨ د ثم تأمل الحكمة في أن جعل مهب الشمال على الأرض أرفع من مهب الجنوب
- ٢١٨ د ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال التي يظن الجاهل أنها فضلة لا حاجة إليها

فهرس

الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة

صفحة	خطبة الكتاب
٢	بحث جليل في أسرار الله تعالى في إهباط آدم إلى الأرض بعد إخراجه من الجنة
٣	مطلب في بيان الجنة التي أسكنها الله آدم ثم أخرجه منها وذكر أقاويل
١٠	العلماء في ذلك وبيان الحق منها
٣٢	فصل في بيان أن آدم أعطى وذريته بعد إخراجه من الجنة أفضل مما منه وهو العهد
٣٧	فصل وهذان الضلالان أعنى الضلال والشقاء يذكرهما سبحانه كثيراً في كلامه ويخبر أنهما حظ أعدائه
٣٧	فصل في بيان من توجه إليه الخطاب في قوله تعالى (فإما يأتينكم مني هدى)
٤٠	فصل في بيان المراد من اتباع هدى الله في قوله (فمن تبع هداي)
٤١	فصل في تعريف القلب السليم الذي ينجو من عذاب الله
٤٢	فصل وهذه المتابعة التي أثنى الله على أهلها في كثير من آي القرآن
٤٢	فصل في بيان الإعراض عن الذكر في قوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى)
٤٣	فصل في تفسير الضنك المذكور في قوله تعالى (فإن له معيشة ضنكا)
٤٤	فصل في تفسير العمى في قوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى)
٤٦	فصل في العلم والإرادة ومكانهما من السعادة
٤٨	الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد عليه
١٢٨	مطلب في أن العلم أفضل من المال من وجوه
١٥٧	بحث في علم المنطق وبيان اختلاف العلماء فيه
١٦٣	فصل وهذا الحديث (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) روى من عدة طرق
١٨٧	فصل وإذا تأملت مادعى الله سبحانه إلى التفكير فيه أو قعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله الخ
١٨٧	مطلب خلق الإنسان وما فيه من الآثار وبديع الصنع والكلام على أعضاء الإنسان عضوا عضوا وبيان ما في كل واحد منها من الحكم

وسياسته لهم دون تفاصيل كل فعل من أفعاله اللهم إلا أن يبايع الأمر في ذلك مبايعاً لا يوجد
لفعله منفذ ومساغ في المصلحة أصلاً خمينئذ يخرج بذلك عن استحقاق اسم الحكيم ولن يجد
أحد في خلق الله ولا في أمره ولا واحداً من هذا الضرب بل غاية ما تخرجه نفس المتعنت
أمر يعجز العقل عن معرفة وجوهها وحكمتها وأما أن ينفي ذلك عنها فهاذ الله إلا أن
يكون ما أخرجه كذب على الخلق الأمر فلم يخلق الله ذلك ولا شرعه. وإذا عرف هذا فقد علم أن
رب العالمين أحكم الحاكمين والعالم بكل شيء والغنى عن كل شيء والقادر على كل شيء ومن
هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة وما يخفى على العباد
من معاني حكمته في صنعه وابداعه وأمره وشرعه فيكشفهم فيه معرفته بالوجه العام أن
تضمنته حكمة بالغة وإن لم يعرفوا تفصيلها وأن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به
فيكشفهم في ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة التي علموا ماخفي منها بما ظهر
لهم هذا وأن الله تعالى بنى أمور عباده على أن عرفهم معاني جلائل خلقه وأمره دون دقائقها
وتفاصيلها وهذا مطرد في الأشياء أصولها وفروعها فأنت إذا رأيت الرجاين مثلاً أحدهما
أكثر شعراً من الآخر أو أشد بياضاً أو أحد ذهناً لا يمكنك أن تعرف من جهة السبب
الذي أجرى الله عليه سنة الخلقية وجه اختصاص كل واحد منهما بما اختص به وهكذا في
اختلاف الصور والأشكال ولكن لو أردت أن تعرف ماذا كان شعر هذا مثلاً يزيد على شعر
الآخر بعدد معين أو المعنى الذي فضله به في القدر الخصوص والتشكيل الخصوص ومعرفة القدر
الذي بينهما من التفاوت وسببه لما أمكن ذلك أصلاً وقس على هذا جميع المخلوقات من الرمال والجبال
والأشجار ومقادير السكواكب وهيئاتها وإذا كان لا سبيل إلى معرفة

فهمكذا في الأمر يعلم أن جميع ما أمر به متضمن

لحكمة بالغة وأما تفاصيل أسرار المأمورات

والمنهيات فلا سبيل إلى علم البشر به

ولكن يطلع الله من شاء من خلقه

على ما شاء منه فاعتصم

بـ هذا الأصل

(تم الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة وبابه الجزء الثاني)

(وأوله فصل حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية)

(٢٠ - مفتاح ١)

وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار) قال ابن عباس أولى القوة في طاعة الله والأبصار في المعرفة في أمر الله وقال قتادة ومجاهد أعطوا قوة في العبادة وبصرا في الدين وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً في العمل وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصى مقادير تفاوتها إلا الله إذا عرف هذا فالقسم الأول لا ينتفع بهذا الباب ولا يزداد به إلا ضلالة والقسم الثاني ينتفع منه بقدر فهمه واستعداده والقسم الثالث وإليهم هذا الحديث يساق وهم أولو الأبواب الذين يخصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد وهم المرادون على الحقيقة بالتذكرة قال تعالى (وما يذكر إلا أولو الأبواب).

فصل

قد شهدت الفطر والعقول بأن للعالم رباً قادراً حليماً عليماً رحيماً كاملاً في ذاته وصفاته لا يكون إلا ما يريد للخير لعباده مجرياً لهم على الشريعة والسنة الفاضلة العائدة باستصلاحهم الموافقة لما ركب في عقولهم من استحسان الحسن واستقباح القبيح وما جبل طباعهم عليه من إثبات النافع لهم المصلح لأشأنهم وترك الضار المفسد لهم وشهدت هذه الشريعة له بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه المحيط بكل شيء علماً وإذا عرف ذلك فإيس من الحكمة الإلهية بل ولا الحكمة في ملوك العالم أنهم يسوون بين من هو تحت تدبيرهم في تعريفهم كلما يعرفه الملوك وإعلامهم جميع ما يعلمونه وإطلاعهم على كل ما يجرون عليه سياساتهم في أنفسهم وفي منازلهم حتى لا يقيموا في بلد فيها إلا أخبروا من تحت أيديهم بالسبب في ذلك والمعنى الذي قصدوه منه ولا يأمررون رعيتهم بأمر ولا يضربون عليهم بعثاً ولا يسوسونهم سياسة إلا أخبروهم بوجه ذلك وسببه وغايته ومدته بل لا تتصرف بهم الأحوال في مطاعهم وملايسهم ومراكبهم إلا أوقفوهم على أغراضهم فيه ولا شك أن هذا مناف للحكمة والمصلحة بين المخلوقين فكيف بشأن رب العالمين وأحكم الحاكمين الذي لا يشاركه في علمه ولا حكمته أحد أبداً فحسب العقول الكاملة أن تستدل بما عرفت من حكمته على ما غاب عنها وتعلم أن له حكمة في كل ما خلقه وأمر به وشرعه وهل تقتضي الحكمة أن يخبر الله تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعله ويوقفهم على وجه تدبيره في كل ما يريده وعلى حكمته في صغير ما ذرأ وبرأ من خليقته وهل في قوى المخلوقات ذلك بل طوى سبحانه كثيراً من صنعه وأمره عن جميع خلقه فلم يطلع على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا والمدير الحكيم من البشر إذا ثبتت حكمته وابتغاه الصلاح لمن تحت تدبيره وسياسته كفا في ذلك تتبع مقاصده فيمن يولى ويعزل وفي جنس ما يأمر به وينهى عنه وفي تدبيره لرعيته

أن يصف به الناظر إلى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها
ولكن قد رضى الله من عباده بالثناء عليه وذكر آلائه وأسماؤه وصفاته وحكمته وجلاله مع
أنه لا يحصى ثناء عليه أبداً بل هو كما أنى على نفسه فلا يبلغ مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى ولا
وصف كتابه ودينه بما ينبغي له بل لا يبلغ أحد من الأمة ثناء على رسوله كما هو أهل أن يثنى
عليه بل هو فوق ما يثنون به عليه ومع هذا أن الله تعالى يحب أن يحمديثنى عليه وعلى كتابه
ودينه ورسوله فهذه مقدمة اعتذار بين يدي القصور والتقصير من ركب هذا البحر الأعظم
والله عليم بمقاصد العباد ودنياهم وهو أولى بالعدر والتجاوز .

فصل

وبصائر الناس في هذا النور الباهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام . أحدها من عدم بصيرة
الإيمان جملة فهو لا يرى من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد والبرق فهو يجعل أصبعيه في أذنه
من الصواعق ويده على عينه من البرق خشية أن يخطف بصره ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك
من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية فهذا القسم هو الذي لم يرفع بهذا الدين رأساً ولم يقبل هدى
الله الذي هدى به عباده ولوجاءته كل آية لأنه ممن سبقت له الشقاوة وحققت عليه الكلمة ففائدة
إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه . القسم الثاني أصحاب البصيرة
الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلى هذا النور كنسبة أبصار الخفاف إلى جرم الشمس
فهم تبع لا بآبائهم وأسلافهم دينهم دين العادة والمنشأ وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن
أبي طالب أو منقاداً للحق لا بصيرة له في إصابة فهو لاهل منقادين لاهل البصائر
لا يتخالفهم شك ولا ريب فهم على سبيل نجاة . القسم الثالث وهو خلاصة الوجود ولباب بني
آدم وهم أولو البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين فكانوا منه على بصيرة ويقين
ومشاهدة لحسنه وكأله بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود وهذا هو الحكم
والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرن بهم كما قال فيهم
على بن أبي طالب أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا
إلى ركن وثيق هذا علامة من عدم البصيرة فإنك تراه يستحسن الشيء وضده ويمدح الشيء
ويذمه بعيثه إذا جاء في قالب لا يعرفه فيعظم طاعة الرسول ويرى عظيماً مخالفته ثم هو
من أشد الناس مخالفة له ونقياً لما أثبتته ومعاداة للقاتلين بسنته وهذا من عدم البصيرة
فهذا القسم الثالث إنما عملهم على البصائر وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل كما قال
بعض السلف وقد ذكر السابقين فقال إنما كانوا يعملون على البصائر وما أوتي أحد أفضل
من بصيرة في دين الله ولو قصر في العمل قال تعالى (واذكر عبادنا إبراهيم وإسماعيل

تنال العبارة كلها ولا يدرك الوصف حسننها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها وحسب العقول الكاملة المتعاضدة أن أدركت حسننها وشهدت بفضلتها وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان ولولم يأت الرسول ببرهان عليها لكني بها برهانا وآية وشاهدا على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكلال العلم وكلال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها وجعلهم من أهلها ومن ارتضاهم لها فلم هذا امتن على عباده بأن هداهم لها قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال معرفا لعباده ومذكر لهم عظيم نعمته عليهم مستدعيا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها (اليوم أكملت لكم دينكم الآية) وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتام إيدانا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتام إيدانا بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار وتأمل حسن اقتران التام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقا وهم قابلوها وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه شيء خصوصا به دون الأمم وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتغال والاحاطة فجاء أتممت في مقابلة أكملت وعليكم في مقابلة لكم ونعمتي في مقابلة دينكم وأكد ذلك وزاده تقريراً وكالا وإتماما للنعمة بقوله (ورضيت لكم الإسلام ديناً) . وكان بعض السلف الصالح يقول ياله من دين لو أن له رجالا وقد ذكرنا فصلا مختصراً في دلالة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنى وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب ثم رأينا أن نتبعه فصلا في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات كماله إذ هذان أشرف العلوم التي يكتسبها العبد في هذه الدار ويدخل بها إلى الدار الآخرة وقد كان الأولى بنا الإمساك عن ذلك لأن ما يصفه الواصفون منه وتنتهى إليه علومهم هو كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها فهو يصف البحر بما يعلق على إصبعه من البلل وأين ذلك من البحر فيظن السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر وإنما هي صفة ما علق بالإصبع منه وإلا فالأمر أجل وأعظم وأوسع من أن تحيط عقول البشر بأدنى جزء منه وماذا عسى

رسول الله ﷺ وربه يحبه على ذلك كله ولا سقط شيء منه من عينه ولا سقطت منزلته عنده بل هو الوجهية عند الله القريب ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بنى إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم الله لم يكن ذلك . ثم تأمل حال المسيح ﷺ وصبره على قومه واحتماله في الله وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق وسلمهم ملكهم وغفرهم إلى آخر الدهر .

فصل

فإذا جمعت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن وإقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أؤذى ولم يحتمل في الله ما احتمله ولم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً وأسمعهم عنده شفاعاً وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته وهى بمازاده الله بها شرفاً وفضلاً وساقه بها إلى أعلا المقامات وهذا حال ورثته من بعده الأئمة فالا مثل كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعتة له ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلافة ونصيبه فيها فهو يأكل منها رغداً ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو في أهله سرور له شأن ولهم شأن وهو في واد وهم في واد همه ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته لزوم من ذلك ما لزوم ورضى من رضى وسخط من سخط وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه وأن تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لا غيره ورسوله المطاع لا سواه قلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تنقصر عقول العالمين عن معرفته وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء . كذا المعالى إذا مارمت تدركها فاعبر إليها على جسر من التعب والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

فصل

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والمثلة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا

شكورا) فوصفه بكمال الصبر والشكر . ثم تأمل حال أينا الثالث إبراهيم عليه السلام إمام الحنفية وشيخ الأنبياء وعمود العالم و خليل رب العالمين من بنى آدم وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذ الله خليلاً لنفسه وأمر رسوله و خليله محمداً عليه السلام أن يتبع ملته . وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن يبارك في نسله وكثره حتى ملأ السهل والجبل فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين فمن ترك لوجهه أمراً أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة و جازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله ووافق عليه الولد أباه رضا منهم وتسليماً وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداه بذبح عظيم وأعطاهما ما أعطاهما من فضله وكان من بعض عطاياه أن يبارك في ذريتهما حتى ملؤا الأرض فإن المقصود بالولد إنما هو التماسل وتكثير الذرية ولهذا قال إبراهيم (رب هب لي من الصالحين) وقال (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتى ملؤا الدنيا وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمداً عليه السلام . وقد ذكر أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل فأمر بإحضارهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم فمكثوا مدة لا يقدر أن على ذلك فأوحى الله إلى داود أن قد علمت أنى وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده فبادر إلى طاعة أمرى أن أبارك له في ذريته حتى يصيروا في عدد النجوم وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم وقد أردت أن يحصى عدداً قدرت أنه لا يحصى وذكر باقى الحديث فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصى عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل هذا سوى ما أكرمه الله به من رفع الذكر والثناء الجليل على ألسنة جميع الأمم وفي السموات بين الملائكة فهذا من بعض ثمره معاملته فتباً لمن عرفه ثم عامل غيره ما أخسر صفته وما أعظم حسرته .

فصل

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلبه الله تكليماً وقربه منه وكتب له التوراة بيده ورفع له إلى أعلى السموات واحتمل له ما لا يحتمل غيره فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت وأخذ بلحية نبي الله هارون ونجره إليه ولطم وجهه ملك الموت فقفاً عيته وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن

فصل

ومنها أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئراً خاطئاً مفرطاً مع فرط إحسان الله إليه في كل طريقة عين وبره به ودفعه عنه وشدة حاجته إلى ربه وعدم استغناؤه عنه نفساً واحداً وهذه حاله معه فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد ولا يعصونه ولا يخلون بحقوقه وهو مع ربه ليس كذلك وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئتهم ويعفو عنه ويسامحه ويفضى عن الاستقصاء في طلب حقه فهذه الآثار ونحوها متى اجتنأها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحيماً في حقه ومن اجتنى منه أضرارها وأوجبت له خلاف ما ذكرناه فهي والله علامة الشقاوة وأنه من هوانه على الله وسقوطه من عينه خلى بينه وبين معاصيه ليقيم عليه حجة عدله فيعاقبه باستحقاقه وتتداعى السيئات في حق مثل هذا وتتألف فيتولد من الذنب الواحد ما شاء الله من المتألف والمعاطب التي يهوى بها في دركات العذاب والمصيبة كل المصيبة الذنب الذي يتولد من الذنب ثم يتولد من الإثنين ثالث ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعاً وهلم جرا ومن لم يكن له فقه نفس في هذا الباب هلك من حيث لا يشعر فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض يتلو بعضها بعضها ويشمر بعضها بعض قال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسنات بعدها وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد والله المستعان .

فصل

وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان وكان ذلك الجسر لكمالهم كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة فصورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة فكلم الله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان . فتأمل حال أدينا آدم وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة ولولا تلك المحنة التي جرت عليه وهي إخراجهم من الجنة وتوابع ذلك لما وصل إلى ما وصل إليه فكلم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته . وتأمل حال أدينا الثاني نوح عليه السلام وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل وأمر رسوله ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يصبر كصبره وأثنى عليه بالشكر فقال (أنه كان عبداً

تقوى عليه آثارها فتدخله النار فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره والله المستعان .

فصل

ومنها أن شهود العبد ذنوبه وخطاياهم موجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلا ولا له على أحد حقاً فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويحرم ما حرم الله ورسوله وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم أياها ويذمهم على ترك القيام بها فإنها عنده أخس قدرأ وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها أوله عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجلها فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه فاستراح هذا في نفسه وأراح الناس من شكائته وغضبه على الوجود وأهله فما أطيب عيشه وما أنعم بالله وما أقر عينه وأين هذا من لا يزال عاتباً على الخلق شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط .

فصل

ومنها أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها فإنه في شغل بعيب نفسه فطوى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامة الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة .

ومنها أنه إذا وقع في الذنب شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين وشهد أن المصيبة واحدة والجميع مشتركون في الحاجة بل في الضرورة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته فكلما يجب أن يستغفر له أخوه المسلم كذلك هو أيضاً ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم فيصير هجيراء رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات وقد كان بعض السلف يستحب لكل أحد أن يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة فيجعل له منه ورداً لا يخل به وسمعت شيخنا يذكره وذكر فيه فضلاً عظيماً لا أحفظه وربما كان من جملة أوراده التي لا يخل بها وسمعت يقول أن جعله بين السجدين جائز فإذا شهد العبد أن أخوانه مصابون بمثل ما أصيب به محتاجون إلى ما هو محتاج إليه لم يمتنع من مساعدتهم إلا لفرط جهل بمغفرة الله وفضله وحقيق بهذا أن لا يساعد فإن الجزاء من جنس العمل وقد قال بعض السلف إن الله لما عتب على الملائكة بسبب قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وامتنح هاروت وماروت بما امتنحهما به جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبي آدم وتدعو الله لهم .

إلى مراجعة قربها من ربها فهي بمن إذا غاب لم يطلب وإذا أبق لم يسترجع وإذا جنى لم يستعقب وهذه هي النفوس التي لم تؤهل لما هنالك وبحسب المعترض هذا الحرمان فإنه يكفيه وذلك ذنب عقابه فيه .

فصل

ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما وبهما وقعت المحنة والابتلاء وعرض لنيل الدرجات العلى واللاحاق بالرفيق الأعلى والهبوط إلى أسفل سافلين فهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى ينيلانه منازل الأبرار أو يضعانه تحت أقدام الأشرار ولن يجعل الله من شهوته مصروقة إلى ما أعد له في دار النعيم وغضبه حمية لله ولرسوله ولدينه كمن جعل شهوته مصروقة في هواه وأمانيه العاجلة وغضبه مقصور على حظه ولو انتهكت محارم الله وحدوده وعطلت شرائعه وسنته بعد أن يكون هو ملحوظا بعين الاحترام والتعظيم والتوقير ونفوذ الحكمة وهذه حال أكثر الرؤساء أعاذنا الله منها فلن يجعله الله هذين الصنفين في دار واحدة فهذا صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين وهذا هوى بهما إلى أسفل سافلين . والمقصود أن تركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة ولا بد أن يقتضى كل واحد من القوتين أثره فلا بد من وقوع الذنب والمخالقات والمعاصي فلا بد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ولو لم يخلقا في الإنسان لم يكن إنسانا بل كان ملكا فالترتب من موجبات الإنسانية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فأما من اكتتفته العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ فهم أقل أفراد النوع الإنساني وهم خلاصته ولبه .

فصل

ومنها أن الله سبحانه إذا أراد بعبد خيرا أنساه رؤيته طاعاته ورفعها من قلبه ولسانه فإذا ابتلى بالذنب جعله نصب عينيه ونسى طاعاته وجعل همه كله بذنبه فلا يزال ذنبه إمامه أن قام أو قعد أو غدا أو راح فيكون هذا عين الرحمة في حقه كما قال بعض السلف أن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار قالوا وكيف ذلك قال يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلها ذكرها بسكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأناب إلى الله وذلك له وانكسر وعمل لها أعمالا فتكون سبب الرحمة في حقه ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه بمن بها وراها ويعتدبها على ربه وعلى الخلق ويتكبر بها ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونهم ويحبلونه عليها فلا تزال هذه الأمور به حتى

ذلك إلى ضده وهو لا يشعر وربما ظن أن كثيراً من أسباب الهلاك والعطب تنفضى به إلى السلامة والأمن والعافية فيكون هلاكه على يدي نفسه وهو لا يشعر وما أكثر هذا الضرب من الناس فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين وعرف أسباب الهلاك على التفصيل كان أحرى أن تدوم له النعمة مالم يؤثر أسباب زوالها على علم وفي مثل هذا قال القائل .

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وهذه حال المؤمن يكون فظنا حاذقا أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس فإذا خالطته وعرفت طويته رأيته من أبر الناس والمقصود أن من بلى بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه والعبد وزوال ذلك الإنس والقرب لمتجن عبده فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطلبه بحالها الأول مع الله بل اطمأنت وسكنت إلى غيره علم أنه لا يصلح فوضعه في مرتبة التي تليق به وإن استغاث استغاثة الملهوف وتقلق تقلق المكروب ودعا دعاء المضطر وعلم أنه قد فاتته حياته حقاً فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ويعيد عليه مالا حياة له بدونه علم أنه موضع لما أهل له فرد عليه أحوج ما هو إليه فعظمت به فرحته وكملت به لذته وتمت به نعمته وانصل به سروره وعلم حينئذ مقداره فعرض عليه بالنواجذ وثنى عليه الخناصر وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الملهكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لاتألفها عقول البشر .

فقل لغليط القلب ويحك ليس ذا بعشك فادرج طالبا عشك البالي

ولا تك بمن مد باعا إلى جننا فقصر عنه قال ذا ليس بالحالي

فالعبد إذا بلى بعد الإنس بالوحشة وبعد القرب بنار البعاد اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة فحنت وأنت وتصدعت وتعرضت لشفحات من ليس لها منه عوض أبدا ولا سيما إذا تذكرت برة ولطفه وحنانه وقربه فإن هذه الذكرى تمنعها القرار وتميج منها البلبال كما قال القائل وقد فاتته طواف الوداع فركب الأخطار ورجع إليه .

ولما تذكرت المنازل بالحى ولم يقض لى تسليمه المتزود

تيقنت أن العيش ليس بنافعى إذا أنا لم أنظر لإليها بموعده

وإن استمر أعراضها ولم تحن إلى معيها الأول ولم تحس بغاقتها الشديدة وضرورتها

ولجأة نقمته ومن جميع سخطة .

فصل

ومنها أن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه ومكائمه ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكانهم ومن أين يخرجون عليه وفي أى وقت يخرجون فهو قد استعد لهم وتأهب وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم فلو أنه مر عليهم على غرة وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به ويحتاحوه جملة .

فصل

ومنها أن القلب يكون ذا هلا عن عدوه معرضا عنه مشتغلا ببعض مهماته فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته وطلب بثاره إن كان قلبه حرا كريما كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء بل تراه هائجا طالبا مقداما والقلب الجبان المبهين إذا جرح كالرجل الضعيف المبهين إذا جرح ولى هاربا والجراحات في أكتافه وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق فلاخير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثاره من أعدى عدوه فما شيء أشقى للقلب من أخذه بثاره من عدوه ولا عدو أعدى له من الشيطان فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جد في أخذ الثأر وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه كما جاء عن بعض السلف أن المؤمن لينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره .

فصل

ومنها أن مثل هذا يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم والطبيب الذى عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذى إنما عرفه وصفا هذا فى أمراض الأبدان وكذلك فى أمراض القلوب وأدوائها وهذا معنى قول بعض الصوفية أعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات وقال عمر بن الخطاب إنما تنقص عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفصيله وأبوابه وطرقه وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهاداً لأعدائه وتكلماً بأعلامه وتحذيراً من خلافه لاسيما عليهم بضده لجأهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة مما كانوا عليه فازدادوا له معرفة وحبا وفيه جهاداً بمعرفتهم بضده وذلك بمنزلة من كان فى حصر شديد وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة فقيض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة وأمن وعافية وغنى وبهجة وسرور فإنه يزداد سروره وغبطته ومحبته بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه وليس حال هذا كمن ولد فى الأمن والعافية والغنى والسرور فإنه لم يشعر بغيره وربما قيصت له أسباب تخرجه عن

فصل

ومنها أن التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرفقة واللطف وشكر الله وحده والرضا عنه عباديات أخر فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته فرتب له على ذلك القبول أنواعاً من النعم لا يهتدى العبد لتفاصيلها بل يزال يتقلب في بركاتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها .

فصل

ومنها أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل فلا ينسى الفرحه التي يظفر بها عند التوبة النصوح وتأمل كيف تجد القلب يرقص فرحاً وأنت لا تدري بسبب ذلك الفرح ماهو وهذا أمر لا يحس به إلا حي القلب وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفرك بالذنب ولا يعرف فرحاً غيره فوازن إذا بين هذين الفرحين وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب فمن يشتري فرحة ساعة بغم الأبداً وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم والنعيم وطيب العيش ووازن بين هذا وهذا ثم اختر ما يليق بك ويناسبك وكل يعمل على شاكلته وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه .

فصل

ومنها أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه في حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه ولا قليل منه لعله أن الواصل إليه فيها كثير على مسمى مثله واستقل الكثير من عمله لعله بأن الذي ينبغي أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما أتى به فهو دائماً مستقل لعله كأنما ما كان مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت وقد تقدم التنبيه على هذا الوجه وهو من أطف الوجوه فعليك بمراعاته فله تأثير عجيب ولو لم يكن في فوائد الذنب إلا هذا السكفي به فإين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان ينبغي أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها وأنه لا يقدر أن يتكلم وكيف يعاند القدر وهو مظلوم مع الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته بل هو مغرى بمعاندته لفضله وكألهو أنه كان ينبغي له أن ينال الثريا ويطأ بأخصه هنالك ولكنه مظلوم مخسوس الحظ وهذا الضرب من أبغض الخلق إلى الله وأشدهم مقتاً عنده وحكمة الله تقتضى أنهم لا يزالون في سفال فهم بين عتب على الخالق وشكوى له وذل لخلقهم وحاجة إليهم وخدمة لهم أشعل الناس قلوباً بأرباب الولايات والمناصب ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوانيهم وأفرغ الناس قلوباً عن معاملته الله والانقطاع إليه والتلذذ بمناجاته والطمانينة بذكره وقررة العين بخشيته والرضاء به فعياذا بالله من زوال نعمته وتحول عافيته

فلما خلقتها ولاكن انزل إلى دار المجاهدة وابذر بذر العبودية فإذا كمل الزرع واستحصد فتعال فاستوفه .

لا يوحشك ذلك العتب أن له لطفاً يريك الرضا في حالة الغضب
فبينما هو لا لبس ثوب الاذلال الذي لا يليق بمثله تداركه ربه برحمته فنزعه عنه وألبسه ثوب
الذل الذي لا يليق بالعبد غيره فما لبس العبد ثوباً أكمل عليه ولا أحسن ولا أبهى من
ثوب العبودية وهو ثوب المذلة الذي لا عزله بغيره .

فصل

ومنها أن لله عز وجل على القلوب أنواعاً من العبودية من الخشية والخوف والإشفاق
وتوابعها من المحبة والآنابة وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها وهذه العبوديات لها أسباب
تهيجها وتبعث عليها فكلما قبضه الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المهيجة له فهو
من أسباب رحمته له ورب ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف والإشفاق والوَجَل والآنابة والمحبة
والإيثار والفرار إلى الله ما لا يهيج له كثير من الطاعات وكَم من ذنب كان سبباً لاستقامة العبد
وفراجه إلى الله وبعده عن طرق الغي وهو بمنزلة من خلط فأحس بسوء مزاجه وكان عنده
أخلاق مزمنة قاتلة وهو لا يشعر بها فشرب دواء أزال تلك الأخلاق العفنة التي لو دامت
لنرمت به إلى الفساد والعطب وأن من تبلغ رحمته ولطفه وبره بعبده هذا المبلغ وما هو أعجب
والأطف منه لحقيق بأن يكون الحب كله له والطاعات كلها له وأن يذكر فلا ينسى ويطاع فلا
يعصى ويشكر فلا يكفر .

فصل

ومنها أنه يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه له وحفظه إياه فانه من تربى في
العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار النعمة فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم
عليهم في الحقيقة وإن الله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم وإن توسدوا التراب ومضغوا
الحصى فهم أهل النعمة المطلقة وإن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه وهان عليه
وإن ذلك ليس من كرامته على ربه وإن وسع الله عليه في الدنيا ومد له من أسبابها فإنهم أهل
الابتلاء على الحقيقة فإذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه في بلية
وضائقة تداركه الله برحمته وابتلاء ببعض الذنوب فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة وأنه لا
نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ فيمتدحكون أكثر أمانيه وآماله العود
إلى حاله وأن يتمتع الله بعافيته .

ولا نفس حال الذى قبضت الملائكة روحه فقبل له هل عملت خيراً هل عملت حسنة قال ما أعلمه قيل تذكر قال كنت أباع الناس فكسنت أنظر الموسر وأنجوز عن المعسر أو قال كنت أمر قتياني أن يتجاوزوا في السكة فقال الله نحن أحق بذلك منك وتجاوز الله عنه فآله عز وجل يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم فإذا عرف العبد ذلك كان في ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ما هو أنفع الأشياء له .

فصل

ومنها أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء إليه ولم يقابل به بإساءته إساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى وأنه سبحانه يقال أساءته وذنوبه بإحسانه كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه والله أوسع فضلاً وأكرم وأجزل عطاء فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان فيقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه فليتأمل هو حاله مع الله كيف هي مع فرط إحسانه إليه وحاجته هو إلى ربه وهو هكذا له فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة . ومنها أنه يقيم معاذير الخلائق وتوسع رحمة لهم ويتفرج بطانه ويزول عنه ذلك الجهر والضيق والانحراف واكل بعضه بعضاً ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوطه منهم وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء فانه حينئذ يرى نفسه واحداً منهم فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم فأين هذا من حاله الأولى وهو ناظر إليهم بعين الاحتقار والأزدراء لا يجد في قلبه رحمة لهم ولا دعوة ولا يرجو لهم نجاة فالذنب في حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمة ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم طاعة لله ورحمة بهم وإحساناً إليهم إذ هو عين مصلحتهم لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة .

فصل

ومنها أن يخلع صولة الطاعة من قلبه وينزع عنه رداء الكبر والعظمة الذى ليس له ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لخيف عليه ما هو من أعظم الآفات كما في الحديث لو لم تذنبوا لخرقت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب أو كما قال صلى الله عليه وسلم فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة وبين آثار الذل والانكسار كما قيل يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب وألبست رداء العبودية يا آدم لا تجزع من قولى لك أخرج منها

بالعظام وأنا كلهم في منازلهم . فأى حلم أعظم من هذا الحلم وأى كرم أوسع من هذا الكرم فلولا حلمه وكرمه ومغفرته لما استقرت السموات والأرض في أماكنها وتأمل قوله تعالى (أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا وإن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) الآية هذه الآية تقتضى الحلم والمغفرة فلولا حلمه ومغفرته لزلت التا عن أماكنهما ومن هذا قوله (لأنكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) .

فصل

ومنها تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته وأنه رهين بحقه فإن لم يتغمد به عفووه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة فليس أحد من خلقه إلا وهو محتاج إلى عفووه ومغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته .

فصل

ومنها تعريفه عبده كرمه سبحانه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته فهو الذى جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألهمه إياها ثم قبلها منه فتاب عليه أولا وآخرأ فتوبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقاً وتوبة ثانية منه عليه قبولاً ورضا فله الفضل في التوبة والكرم أولا وآخرأ لإله إلا هو .

فصل

ومنها إقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد أن الله عليه الحجة البالغة فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقال من أين هذا ولا من أين أتيت ولا بأى ذنب أصبت فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يده وما يعفو الله عنه أكثر وما نزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عياده يكفر بها من خطاياهم فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم ولا يدرى العبد أى النعمتين عليه أعظم نعمته عليه فيما يكره أو نعمته عليه فيما يحب وما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها وإذا كان للذنوب عقوبات ولا بد فكلاما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وأيسر وأسهل بكثير .

فصل

ومنها أن يعامل العبد بنى جنسه في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يجب أن يعامله الله به في إساءته وزلاته وذنوبه فإن الجزاء من جنس العمل فمن عفا عني الله عنه ومن ساء أخاه في إساءته إليه ساءحه الله في سيئاته ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه ومن استقصى استقصى عليه

الموطن ما أعجبها وما أعظم موقعها كيف جاءت فحققت من نفسه الدعاوى والرغبات وأنواع الآماني الباطلة ثم أوجبت له الحياء والخنجل من صالح ما عمل ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه لعله بأن قدره أصغر من ذلك وأنه لا يستحقه واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والمأحيات إلى أعظم من هذا فهو لا يزال محسناً وعند نفسه المسيء المذنب متكسراً ذللاً خاضعاً لا يرتفع له رأس ولا ينقام له صدر وإنما ساقه إلى هذا الذل والذي أورثه إياه مباشرة الذائب فأى شيء أنفع له من هذا الدواء ..

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

ونكتة هذا الوجه أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شخ بأفقه وتعاضمت نفسه وظن أنه وأنه أى عظيماً فإذا ابتلى بالذنب تصاغرت اليه نفسه وذل وخضع وتيقن أنه وأنه أى عبداً ذليلاً .

فصل

ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه وأنها الظالمة وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه إذ الجهل والظلم منبع الشر كله وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربه تعالى هو الذى زكاها به وأعطاه إياه لا منها فإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعي ظلمه وجهله فهو تعالى الذى يزكى من يشاء من النفوس فتزكو وتأتى بأنواع الخير والبر ويترك تزكية من يشاء منها فتأتى بأنواع الشر والخبث ، وكان من دعاء النبي ﷺ : اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وإياها ومولاها . فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف نفسه ونقصها فرتب له على ذلك التعريف حكم ومصالح عديدة . منها أنه يألف من نقصها ويجتهد فى كمالها ومنها أنه يعلم فقرها دائماً إلى من يتولاها ويحفظها . ومنها أنه يستريح ويريح العباد من الرغبات والحماقات التى ادعاها أهل الجهل فى أنفسهم من قدم أو اتصال بالقديم أو اتحاد به أو حلول فيه أو غير ذلك من المحالات فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص أنفسهم وحقيقتهم لم يقعوا فيما وقعوا فيه .

فصل

ومنها تعريفه سبحانه عبده ساعة حله وكرمه فى ستره عليه وأنه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عبادته فلم يطب له معهم عيش أبداً ولكن جلله بستره وغشاه بجله وقبض له من يحفظه وهو فى حاله تلك بل كان شاهداً وهو يبارزه بالمعاصى والآثام وهو مع ذلك يحرسه بعينه التى لا تنام وقد جاء فى بعض الآثار يقول الله تعالى : أنا الجواد الكريم من أعظم منى جوداً وكرماً عبداً يبارزونى

القلب واللسان وعسى أن يجمعك في القسم الثاني من الكتاب ما تقر به عينك ان شاء الله تعالى فكم بين عبادة يدل صاحبها على ربه بعبادته شاخ بأفقه كلما طلب منه أو صاف العبد قامت صور تلك الأعمال في نفسه فحجبته عن معبوده والهه وبين عبادة من قد كسر الذل قلبه كل الكسر وأحرق ما فيه من الرعونات والحقاقت والخيالات فهو لا يرى نفسه إلا مسيئاً كما لا يرى ربه إلا محسناً فهو لا يرضى أن يرى نفسه طرفة عين قد كسر ازدرأوه على نفسه قلبه وذلل لسانه وجوارحه وطأطأ منه ما ارتفع من غيره فقلبه واقف بين يدي ربه وقوف ناكس الرأس خاشع خاضع غاض البصر خاشع الصوت هادى الحركات قد سجد بين يديه سجدة إلى الممات فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكان به حكمة والله المستعان .

فصل

ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل فهو ذليل لعزه وذليل لقهره وذليل لربوبيته فيه وتصرفه وذليل لإحسانه إليه وانعامه عليه فإن من أحسن اليك فقد استعبدك وصار قبلك معبداً وذليلاً تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس في جلب كل ما ينفعه ودفع كل ما يضره . وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد لهما أثر عجيب يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز مالا يقتضيه غيرهما أحدهما ذل المحبة وهذا نوع آخر غير ما تقدم وهو خاصة المحبة ولها بل روحا وقواما وحقيقتها وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب والتودد

والتلق والايثار والرضا والحمد والشكر والصبر والتندم وتحمل العظام مالا يستخرجه الخوف وحده ولا الرجاء وحده كما قال بعض الصحابة إنه ليس يخرج محبته من قلبى من طاعته مالا يستخرجه خوفاً أو كما قال فهذا ذل المحبين . الثاني ذل المعصية فإذا انضاف هذا إلى هذا هناك فثبت الرسوم وتلاشت الأنفس واضمحلت القوى وبطلت الدعاوى جملة ، وذهبت الرعونات وطاحت الشطحات ونحي من القلب واللسان أنا وأنا واستراح المسكين من شكاوى الصدود والإعراض والهجر وتجرد الشهودان فلم يبق إلا الشهود العز والجلال الشهود الذى تفرد به ذوا الجلال والإكرام الذى لا يشاركه أحد من خلقه فى ذرة من ذراته وشهود الذل والفقر المحض من جميع الوجوه بكل اعتبار فيشهد غاية ذله وإنكساره وعزة محبوه وجلاله وعظمته وقدرته وغناه فإذا تجرد له هذان الشهودان ولم يبق ذرة من ذرات الذل والفقر والضرورة إلى ربه إلا شاهدها فيه بالفعل وقد شهد مقابلهما هناك فله أى مقام أقيم فيه هذا القلب إذ ذاك وأى قرب حظى به وأى نعم أدركه وأى روح باشره فتأمل الآن موقع الكسرة التى حصلت له بالمعصية فى هذا

عليه وأموراً يتوب عليه من أجلها ومن يحكم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق
الحلم والعفو فإن هذه الأمور متعلقة بالغير ومعانيها مستازمة لمعلقاتها . وهذا باب أوسع
من أن يدرك واللييب يكتفى منه باليسير وغليظ الحجاب في واد ونحن في واد :

وان كان أثل الواد يجمع بيننا فغير خفي شيجه من خزامه

فتأمل ظهور هذين الإسمين اسم الرزاق واسم الغفار في الخليفة ترى وما يعجب العقول وتأمل
آثارهما حق التأمل في أعظم مجامع الخليفة وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ولولا ذلك لما
كان له من قيام أصلاً فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة فإما متصلاً بنشأته الثانية وإما
مختصاً بهذه النشأة .

فصل

ومنه أنه سبحانه يعرف عباده عزه في قضائه وقدره ونفوذ مشيئته وجريان حكمته وأنه
لا يحصى للعبد عما قضاه عليه ولا مفر له منه بل هو في قبضة ماله وسيده وأنه عبده وابن
عبده وابن أمته ناصيته بيده ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه .

فصل

ومنها أنه يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيائنه وأنه كالوليد الطفل في حاجته
إلى من يحفظه ويصونه فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد وقد مدت
الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله إفساد شأنه كله وإن مولاه وسيده
إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط فهلاكه أدنى إليه من شرار
نعله . فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكل الله العبد إلى نفسه وأجمعوا على أن الخذلان
أن يخلى بينه وبين نفسه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له من استعاذته
واستعانت به من شر نفسه وكيد عدوه ومن أنواع النداء والتضرع والابتهاال والإنابة
والفاقة والحنة والرجاء والخوف وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المائة ومنها ما لا تدركه
العبارة وإنما يدرك بوجوده فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه
الأسباب ويجد العبد من نفسه كأنه ملق على باب مولاه بعد أن كان نائياً عنه وهذا الذي
أمر له أن الله يحب التوابين وهو ثمرة لله أفرح بتوبة عبده وأسرار هذا الوجه يضيق عنها

وتمتع بالحال الأخرى حال اجتناء واصطفاء وهداية فيما بعد ما بينهما ولما كان كماله بالتوبة كان كمال بنيه أيضا بها كما قال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) فكمال الآدمي في هذه الدار بالتوبة النصوح وفي الآخرة بالإنجاة من النار ودخول الجنة وهذا الكمال مرتب على كماله الأول . والمقصود أنه سبحانه لمحبة التوبة وفرحة بها يقتضى على عبده بالذنب ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى اه بالتوبة وإن كان ممن غلبت عليه شقاوته أقام عليه حجة عدله وعاقبة بذنبه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يجب أن يتفضل عليهم ويتم عليهم نعمه ويرهم مواقع بره وكرمه فلمحبته الأفضال والأنعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء ويعفو عن ظلم ويغفر لمن أذنب ويتوب على من تاب إليه ويقبل عذر من اعتذر إليه وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة وهو أولى بها منهم وأحق وكان له في تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهز العقول فسبحانه وبحمده . وحكى بعض العارفين أنه قال طفت في ليله مطيرة شديدة الظلمة وقد خلا الطواف وطابت نفسى فوقفتم عند الملتزم ودعوت الله فقلت اللهم اعصمى حتى لأعصيك فتهتف بى هاتف أنت تسألنى العصمة وكل عبادى يسألونى العصمة فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولئن أغفر قال فبقيت ليلتى إلى الصباح أستغفر الله حياء منه . هذا ولو شاء الله عز وجل أن لا يعصى فى الأرض طرفة عين لم يعص ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته سبحانه فمن أجهل بالله ممن يقول أنه يعصى قسرا بغير اختياره ومشيئته سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

فصل

ومنها أنه سبحانه له الأسماء الحسنى ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار فى الخلق والأمر لا بد من ترتيبه عليه كترتب المارزوق والرزق على الرازق وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم وترتب المرتبات والمسموعات على السميع والبصير ونظائر ذلك فى جميع الأسماء فلو لم يكن فى عباده من يخطئ ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والثواب وما جرى مجراها وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها فى الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها فكأن اسمها الخالق يقتضى مخلوقا والبارئ يقتضى مبروأ والمصور يقتضى مصورا ولا بد فاسماؤه الغفار الثواب تقتضى مغفورا له ما يغفره له وكذلك من يتوب

وهما الخواص الخليفة فتأمل بعد ما بينهما وبين المشهد الأول وهذان المشهدان يطرحان العبد على باب المحبة ويفتحان له من المعارف والعلوم أموراً لا يعبر عنها وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قل من استفتحه من الناس وهو شهود الحكمة البالغة في قضاء السيئات وتقدير المعاصي وإنما استفتح الناس باب الحكمة في الأوامر والنواهي وخاضوا فيها وأتوا بما وصلت إليه علومهم واستفتحوا أيضاً بابها في المخلوقات كما قدمناه وأتوا فيه بما وصلت إليه قواهم وأما هذا الباب فكم رأيت كلامهم فيه فقل أن ترى لأحدهم فيه ما يشفي أو يلم وكيف يطلع على حكمة هذا الباب من عنده أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله ولا داخله تحت مشيئته أصلاً وكيف يتطلب لها حكمة أو يشبها أم كيف يطلع عليها من يقول هي خلق الله ولكن أفعاله غير معللة بالحكم ولا يدخلها لام تعليل أصلاً وإن جاء شيء من ذلك صرف إلى لام العاقبة لا إلى لام العلة والغاية فأما إذا جاءت الباء في أفعاله صرفت إلى باء المصاحبة لا إلى باء السببية وإذا كان المتكلمون عند الناس هم هؤلاء الطائفتان فإنهم لا يرون الحق خارجاً عنهما ثم كثير من الفضلاء يتحير إذا رأى بعض أقوالهم الفاسدة ولا يدرى أين يذهب . ولما عربت كتب الفلاسفة صار كثير من الناس إذا رأى أقوال المتكلمين الضعيفة وقد قالوا إن هذا هو الذي جاء به الرسول قطع القنطرة وعدى إلى ذلك البر وكل ذلك من الجمل القبيح والظن الفاسد أن الحق لا يخرج عن أقوالهم فما أكثر خروج الحق عن أقوالهم وما أكثر ما يذهبون في المسائل التي هي حق وصواب إلى خلاف الصواب والمقصود أن المتكلمين لو أجمعوا على شيء لم يكن إجماعهم حجة عند أحد من العلماء فكيف إذا اختلفوا والمقصود أن مشاهدة حكمة الله في أفضيته وأقداره التي يجربها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هي من أطف ما تكلم فيه الناس وأدقه وأغمضه وفي ذلك حكم لا يعلمها إلا الحكماء العليم سبحانه ونحن نشير إلى بعضها . فمنها أنه سبحانه يحب التوابين حتى أنه من محبته لهم يفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد برحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدرية المملوكة إذا فقدوها وأيس منها وليس في أنواع الفرح أكمل ولا أعظم من هذا الفرح كما سنوضح ذلك ونزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله . ولولا المحبة التامة للتوبة ولأهلها لم يحصل هذا الفرح . ومن المعلوم أن وجود المسبب بدون سببه ممتنع وهل يوجد ملزوم بدون لازمه أو غاية بدون وسيلة . وهذا معنى قول بعض العارفين ولولم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما بتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه فالتوبة هي غاية كمال كل آدمي وإنما كان كمال أبيهم بها فكم بين حاله وقد قيل له إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظلم فيها ولا تضحي وبين قوله ثم اجتهد به فتاب عليه وهدى فالحال الأولى حال أكل وشرب

والطائفة الأولى جمحدت الحكمة والثانية جمحدت القدرة والامة الوسط أثبتت له كمال الحكمة وكال القدرة فالفرقة الأولى تشهد في المعصية مجرد المشيئة والخلق العارى عن الحكمة وربما شهدت الجبر وأن حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار ونحوها * والفرقة الثانية تشهد في المعصية مجرد كونها فاعلة محدثة مختارة هي التي شاءت ذلك بدون مشيئة الله والامة الوسط تشهد عز الربوبية وقهر المشيئة ونفوذها في كل شيء. وتشهد مع ذلك فعلها وكسبها واختيارها وإيثارها شهواتها على مرضات ربها فيوجب الشهود الأول لها سؤال ربها والتذلل والتضرع له أن يوفقها لطاعته ويحول بينها وبين معصيته وأن يثبتها على دينه ويعصمها بطواعيته ويوجب الشهود الثاني لها اعتراضها بالذنب وإقرارها به على نفسها وأنها هي الظالمة المستحقة للعقوبة وتنزيه ربها عن الظلم وأن يعذبها بغير استحقاق منها أو يعذبها على ما لم تعمله فيجتمع لها من الشهود دين شهود التوحيد والشرع والعدل والحكمة * وقد ذكرنا في الفتوحات القدسية مشاهد الخلق في موافقة الذنب وأنها تنتهي إلى ثمانية مشاهد . أحدها المشهد الحيواني الهيمعي الذي شهود صاحبه مقصور على شهوات لذته به فقط وهو في هذا المشهد مشارك لجميع الحيوانات وربما يزيد عليها في اللذة وكثرة التبع . والثاني مشهد الجبر وأن الفاعل فيه سواء والمحرك له غيره ولا ذنب له هو وهذا مشهد المشركين وأعداء الرسل . الثالث مشهد القدر وهو أنه هو الخالق لفعله المحدث له بدون مشيئة الله وخلقته وهذا مشهد القدرية المجوسية . الرابع مشهد أهل العلم والإيمان وهو مشهد القدر والشرع يشهد فعله وقضاء الله وقدره كما تقدم . الخامس مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف وأنه إن لم يعنه الله ويثبته ويوفقه فهو هالك والفرق بين مشهد هذا ومشهد الجبرية ظاهر . السادس مشهد التوحيد وهو الذي يشهد فيه لإنفراد الله عز وجل بالخلق والإبداع ونفوذ المشيئة وأن الخلق أعجز من أن يعصوه بغير مشيئته والفرق بين هذا المشهد وبين المشهد الخامس أن صاحبه شاهد لـ كمال فقره وضعفه وحاجته وهذا شاهد لتفرد الله بالخلق والإبداع وأنه لا حول ولا قوة إلا به . السابع مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله عز وجل في قضائه وتخليته بين العبد والذنب والله في ذلك حكم تعجز العقول عن الإحاطة بها وذكرنا منها في ذلك الكتاب قريباً من أربعين حكمة وقد تقدم في أول هذا الكتاب التنبيه على بعضها . الثامن مشهد الأسماء والصفات وهو أن يشهد ارتباط الخلق والأمر والقضاء والقدر بأسمائه تعالى وصفاته وأن ذلك موجبها ومقتضاها فأسماءه الحسنى اقتضت ما اقتضته من التخليّة بين العبد وبين الذنب فإنه الغفار التواب العفو الحليم وهذه أسماء تطلب آثارها وموجباتها ولا بد فلوم تذبذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون فيغفر لهم وهذا المشهد والذي قبله أجل هذه المشاهد وأشرفها وأرفعها قدراً

العبد حد الكبير وضعفت بصيرته ووهت قواه وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة في غيه وضعفا في إيمانه صارت كالمسكة له بحيث لا يتمكن من تركها فإن كثرة المزاوالت تعطى المسكات فتبقى للنفس هيئة راسخة ومسكة ثابتة في الغي والمعاصي وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثرا زائدا على أثر ما قبله فيقوى الأثران وهلم جرا فيهبهم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانته لم يتطهر للتقدم على الله فآظنه بربه ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والامكان لتبعت توبته وحجبت سيئاته ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ولا شيء أشهى لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة ولكن فرط في أداء الدين حتى نفذ المال ولو أداه وقت الامكان لتقبله بربه وسيعلم المسرف والمفرط أي ديان أدان وأي غريم يتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات فإن فذيت فيحمل السيئات . فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمالهم فلا يزال السكيس يتربح الموت وقد وضعه بين عينيه فينكشف عما يضره في معاده ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم . فإن قلت فما هو مع كونه قد غيب عنه مقدار أجله وهو يتربح الموت في كل ساعة ومع ذلك يقارف الفواحش وينتهك المحارم فأى فائدة وحكمة حصلت بستر أجله عنه . قيل لعمر الله أن الأمر كذلك وهو الموضوع الذي حير الألباب والعقلاء وافترق الناس لأجله فرقا شتى ففرقة أنكرت الحكمة وتعليل أفعال الرب جملة وقالوا بالجبر المحض وسدوا على أنفسهم الباب وقالوا لا تعلل أفعال الرب تعالى ولا هي مقصود بها مصالح العباد وإنما مصدرها محض المشيئة وصرف الإرادة فأنكروا حكمة الله في أمره ونهيه . وفرقة نفت لأجله القدر جملة وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله حتى يطالب لها وجوه الحكمة وإنما هي خلقهم وابداعهم فهي واقعة بحسب جهلهم وظلمهم وضعفهم فلا يقع على السداد والصواب إلا أقل القليل منها فما تان الطائفتان متقابلتان أعظم تقابل فالأولى غلت في الجبر وانكار الحكم المقصودة في أفعال الله . والثانية غلت في القدر وأخرجت كثيرا من الحوادث بل أكثرها عن ملك الرب وقدرته وهدى الله أهل السنة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فأنبتوا لله عز وجل عموم القدرة والمشية وأنه تعالى أن يكون في مسكة مالا يشاء أو يشاء مالا يكون وأن أهل سمواته وأرضه أعجز وأضعف من أن يخلقوا مالا يخلقه الله أو يحدوا مالا يشاء بل ما شاء الله كان ووجد وجوده بمشيئته ومالم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم المشيئة له وأنه لا حول ولا قوة الا به ولا تتحرك في العالم العلوى والسفلى ذرة الا بإذنه ومع ذلك فله في كل ما خلق وقضى وقدر وشرع من الحكم البالغة والعواقب الحميدة ما اقتضاه كمال حكمته وعلمه وهو العليم الحكيم فما خلق شيئا ولا قضاء ولا شرعه الا لحكمة بالغة وان تقاصرت عنها عقول البشر فهو الحكيم القدير فلا تجحد حكمته كالا تجحد قدرته

وضروب المحال وفنون الوسوس والهووى والهوس والخبط وهم يحسبون أنهم على شىء إلا أنهم الكاذبون فالحمد لله الذى من على المؤمنين (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين) .

فصل

ومن حكمته سبحانه ما منعه من العلم علم الساعة ومعرفة آجالهم وفى ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلى نظر فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهمأ بالعيش وكيف يتهمأ به وهو يترقب الموت فى ذلك الوقت فلو لا طول الأمل لخربت الدنيا وانما عمارتها بالأمال وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء فلا يبالى بالانهماك فى الشهوات والمعاصى وأنواع الفساد ويقول إذا قرب الوقت أحدثت توبة وهذا مذهب لا يرتضيه الله تعالى عز وجل من عباده ولا يقبله منهم ولا تصلح عليه أحوال العالم ولا يصلح العالم إلا على هذا الذى اقتضته حكمته وسبق فى علمه فلو أن عبداً من عبيدك عمل على أن يسخرك أعمواً ثم يرضيك ساعة واحدة إذا نيقن أنه صائر إليك لم تقبل منه ولم يفرلديك بما يفوز به من همه ورضاك وكذا سنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا اقلاع قال تعالى (وإيست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) وقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرونا بما كننا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى خلت فى عباده) والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار فى نفسه فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحته وعفوه لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له وأنه يرى كل وقت مالا صبر له عليه فهو إذا واقع الذنب واقع موافقة دليل خاضع لربه خائف محتاج فى صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له فهو يجيب داعى النفس تاره وداعى الإيمان تارات فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفا ولا يدع لله شهوة وهو فرح مسرور يضحك ظهرا لبطن إذ ظفر بالذنب فهذا الذى يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة ولا يوفق لها فإنه من معاصيه وقبائح على نقد عاجل يتقاضاه سلفاً وتعجيلاً ومن توبته وإياه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالباً لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك شديد على النفس صعب عليها أثقل من الجبال ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقداً بنسيئة ولا عاجلاً بآجل كما قال بعض هؤلاء وقد سئل أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدا فقال لا هذا ولا هذا ولكن ربع درهم من أول أمس فخرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله فإذا بلغ

الخير والبر والشجاعة والسباحة والبصيرة والثبات والعزيمة والقوة في الحق واللين لأهله والشدة على أهل الباطل والغلبة عليهم والإصلاح بين الناس والسعي في إصلاح ذات البين وتعظيم من يستحق التعظيم وإهانة من يستحق الإهانة وتنزيل الناس منازلهم وإعطاء كل ذي حق حقه وأخذ ماسهل عليهم وطوعت به أنفسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ولأرشاد ضالهم وتعليم جاهلهم واحتمال جفوتهم واستواء قريتهم وبعيدهم في الحق فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيداً وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان حبيباً قريباً إلى غير ذلك من معرفة العقل الذي وضعه بينهم في المعاملات والمناكحات والجنايات وما أودع في فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك له وإن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقاتهم في شكره والتقرب إليه وإيثاره على ماسواه وأثبت في الفطر عليها بقبيح اضداد ذلك ثم بعث رسله في الأمر بما أثبت في الفطر حسنه وكاله والنهي عما أثبت فيها قبيحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكملة مطابقة التفصيل بجملة وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادى للإيمان حتى على الفلاح وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجي ظلم الإباء كما صدع الليل ضوء الصباح وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان الشاهد غير متمم ولا معرض للجراح .

فصل

وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجاتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والغراس وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الأبنية وصناعة السفن واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها وتركيب الأدوية وصناعة الأطعمة ومعرفة ضروب الخيل في صيد الوحش والطير ودواب الماء والتصرف في وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك مما فيه قيام معاشهم ثم منهم من سبجانه علم ماسوى ذلك بما ليس في شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولانشأتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ما كان وكل ما يكون والعلم بعدد القطر وأمواج البحر وذرات الرمال ومسافات الأوراق وعدد الكواكب ومقاديرها وتلم ما فوق السموات وما تحت الثرى وما في لجج البحار وأقطار العالم وما يكتنه الناس في صدورهم وما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزاد إلى سائر ما عذب عنهم علمه فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد في أكثر أمره ووجرت سنة الله وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع وأقلهم صواباً فترى عند من لا يرفعون به رأساً من الحكم والعلم الحق النافع ما لا يخطر ببالهم أصلاً وذلك من حكمة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم ولا يعرف هذا إلا من اطلع على ما عند القوم من أنواع الخيال

عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ما جحدت فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة فانقادوا طوعاً واختياراً ومحبة وإذعاناً بما جعل من شواهد ذلك في قلوبهم حتى أن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها ومعذرتين (١) ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا نحتج على الله بأنه ما أرشدها ولا هداها فيحق القول عليها بإقامة الحجة فلا يكون سبحانه ظالماً لها بتعذيبها وأشقاها وقد بين ذلك سبحانه في قوله (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد وإثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مثبتة في الفطر ولم يكن ليعرف بها أنها ثابتة في فطرته فلما ذكرته الرسل ونهته رأى ما أخبروه به مستقراً في فطرته شاهداً به عقله بل وجوارحه ولسان حاله وهذا أعظم ما يكون من الإيمان وهو الذي كتبه سبحانه في قلوب أوليائه وخاصته فقال (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) فتدبر هذا الفصل فإنه من السكون في هذا الكتاب وهو حقيق بأن تثني عليه الخناصر والله الحمد والمئة . والمقصود أن الله سبحانه أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها لعظم حاجته في معاشه ومعاذه إليها ثم وضع في العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظله في أرضه وعدله بين عباده ونوره في العالم ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم فكأنوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أن يقترحوا شيئاً أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخلق في معاشها ومعادها فهو أعظم آياته وأوضح بيناته وأظهر حججه على أنه الله الذي لا إله إلا هو وإنه المتصف بكل كمال المنزه عن كل عيب ومثال فضلاً عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد لكثير طرق الهدى وقطع المعذرة وإزاحة العلة والشبهة (إيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم) فأثبت في الفطرة حسن العدل والإنصاف والصدق والبر والإحسان والوفاء بالعهد والنصيحة للخلق ورحمة المسكين ونصر المظلوم ومواساة أهل الحاجة والفاقة وأداء الأمانات ومقابلة الإحسان بالإحسان والإساءة بالعفو والصفح والصبر في مواطن الصبر والبذل في مواطن البذل والانتقام في موضع الانتقام والحلم في موضع الحلم والسكينة والوقار والرفقة والرفق والتؤدة وحسن الأخلاق وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد وستر العورات وإقالة العثرات والإيثار عند الحاجات وإغاثة اللهفات وتفريج الكربات والتعاون على أنواع

اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه غيره . الثالث البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الالفاظ فيكتبين الناظر معانيها كما يكتبين للسامع معاني الالفاظ فهذا بيان للعين وذلك بيان للسمع والاول بيان للقلب وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله (أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) وقوله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله (سمع بكم عسى) وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وقد تقدم بسط هذا الكلام .

(تنبيه) ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان عليه بما فيه صلاح معاشه ومعاده ومنع عنه علم مالا حاجة له به فجهله به لا يضر وعلمه به لا ينتفع به انتفاعاً طائلاً ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم فأعطاها معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها ولا أدل ولا أبين ولا أوضح فكلمها تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك وكلما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجل منها وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ولهذا قالت الرسل لأنهم أنى الله شك فخطبواهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك مافي وجود الله سبحانه ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها ولا يطيق حصرها إلا الله ثم ركز ذلك في الفطرة ووضع في العقل جملة ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى (فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) وقوله (فذكر إن نفعنا الذكرى) وقوله (إنما أنت مذكر) وقوله (فما لهم عن التذكرة معرضين) وهو كثير في القرآن ومفصلين (١) لما في الفطرة والعقل العلم به جملة فانظر كيف وجد الإقرار به وتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية لإثبات رسالة رسله وبجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته مودعاً في الفطرة مركزاً فيها فلو خلعت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحوّلها ويغيرها عما فطرت عليه ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب ولكونها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت

الخلف مذاهب السلف وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودينهم إنما يعترهم من النفس—يان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإنه الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله إياه وزيادة في خلقه وفضله فهو الذي علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم فإن علمه فتعلم كما أنه دله الكلام فتكلم . هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به واللسان الذي يترجم به والبيان الذي يخط به ومن هياً ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه ومن الذي دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد فـكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم فقف وقفة في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جمادى وضعته على القرطاس وهو جمادى فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل فن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيباً معناه أعجب من صورته فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك وترسله إلى الأفقار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك وترجم عنك ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ويجدى عليك ما لا يجدى من ترسله سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطى لهذه المراتب ودل قوله خلق على أنه يعطى الوجود العيني فدلّت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقا وتعلما وذكر خلقين وتعليمين خلقا عاما وخلقا خاصا وتعلما عاما وتعلما خاصا وذكرا من صفاته هاهنا باسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفاته ومنه كل خير فعلا فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعت به إلى ذلك وهو الغنى الحميد وقوله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) دلّت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها فتقوله خلق الإنسان إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني وخص الإنسان بالخلق لما تقدم * وقوله علم القرآن إخبار عن إعطاء الوجود العلوي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما أنه إنما صار إنسانا بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه * ثم قال علمه البيان والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانا . أحدها البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات . الثاني البيان

حقاً ولم يصل له رحماً ولا بر له والدأ فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلمها من الخلق قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخائف أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها . وفي الترمذي وغيره مرفوعاً استحياوا من الله حق الحياء قالوا وما حق الحياء قال أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما عوى وتذكر المقابر والبلى وقال صلى الله عليه وسلم لاذلم تستع فاصنع ما شئت وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى (اعملوا ما شئتم) وقوله (كلوا وتمتعوا قليلاً) وقالت طائفة هو إذن وإباحة والمعنى إنك إذا أردت أن تفعل فعلاً فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح . وعندى أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر وهو في قوة قولهم من لا يستحي صنع ما يشتهى فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو في معنى الخبر . والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستع فإنه يصنع ما شاء وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لنسكتة بديعة جداً وهي أن للإنسان أمرين وزاجرين أمر وزاجر من جهة الحياء فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهى وله أمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع أمر الحياء وزاجره أطاع أمر الهوى والشهوة ولا بد لإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لا يستحي صنع ما يشتهى .

(تنبيه) ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيان النطق والبيان الخطي وقد اعتد بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقه وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن وذكر في هذا الموضوع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقه فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقه ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تقيّد أخبار الماضين للباقيين اللاحقين ولولا الكتابة لا نقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنن وتخبطت الأحكام ولم يعرف

وينشط . فتأمل كيف وكلت هذه القوة بك والقيام بمصالحك فالبدن كمدار للملك فيها حشمه وخدمه قد وكل بتلك الدار أقواماً يقومون بمصالحها فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزونه الى أن يهياً ويصلح وبعضهم يقبضه فيهيؤه ويصلحه ويدفعه الى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجاتهم وبعضهم لمسح الدار وتنظيفها وكنسها من المزابل والأفذار فالملك هو الملك الحق المبين جل جلاله والدار أنت والحشم والخدم الأعضاء والجوارح والقوام عليها هذه القوى التي ذكرناها .

(تنبيه) فرق بين نظر الطبيب والطبايعى فى هذه الأمور فنظرهما فيها مقصور على النظر فى حفظ الصحة ودفع السقم فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خالقها وبارئها وماله فيها من الحكم البالغة والنعمة السابغة والآلاء التي دعا العباد إلى شكرها وذكرها .

(تنبيه) ثم تأمل حكمة الله عز وجل فى الحفظ والنسيان الذى خص به نوع الإنسان وماله فيهما من الحكم والمالعبد فيهما من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التي خص بها لدخل عليه الخلل فى أموره كلها ولم يعرف ماله وما عليه ولا ما أخذ ولا ما أعطى ولا ما سمع ورأى ولا ما قال ولا ما قيل له ولا ذكر من أحسن إليه ولا من أساء إليه ولا من عامله ولا من انتفع فيه قرب منه ولا من ضره فينبأى عنه ثم كان لا يهتدى إلى الطريق الذى سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علماً ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان خليقاً أن ينساخ من الإنسانية أصلاً فتأمل عظيم المنفعة عليهم فى هذه الخلل وموقع الواحدة منها فضلاً عن جميعهن ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئاً ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة عدو ولا نقمة من حاسد فتأمل نعمة الله فى الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادها وجعله فى كل واحد منهما ضرباً من المصلحة .

(تنبيه) ثم تأمل هذا الخلق الذى خص به الإنسان دون جميع الحيوان وهو خلق الحياء الذى هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً بل هو خاصة الإنسانية فمن لحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتها الظاهرة كما أنه ليس معه من الخير شيء ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ولم يوف بالوعد ولم يؤد أمانة ولم يقض لأحد حاجة ولا تحرى الرجل الجميل فأثره والقبيح فتجنبه ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة وكثير من الناس لولا الحياء الذى فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لخلق

به تفصيلا يدل عليه العقل بجملا فإين هذا من مقام من أداء عليه إلى المعارضة بين ما جاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلتها واسكن تلك العقول كادها باريها ووكلاها إلى أنفسها خلعت بها عساكر الخذلان من كل جانب وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا الكتاب والله المحمود المسؤول تمام نعمته فهذه كلمات مختصرة نافعة في مسألة إيلام الأطفال لعلمك لا تظفر بها في أكثر الكتب . فارجع الآن إلى نفسك وفكر في هذه الأفعال الطبيعية التي جعلت في الإنسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها في الطبع المجرد والداعي الذي يقتضيه ويستحقه فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته وبنائه والسكري يقتضى النوم ويستحقه لما فيه من راحة البدن والأعضاء واجام القوى وعودها إلى قوتها جديدة غير كالة والشبق يقتضى الجماع الذي به دوام النسل وقضاء الوطر وتمام اللذة فتجد هذه الدواعي تستحث الإنسان لهذه الأمور وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعى هذه المستحاثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لا يشعر كما إذا احتاج بدنه إلى شيء من الدواء والصالح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحك به الداء أهلكه فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحاثات تؤزه أزا إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه . ثم أنظر إلى ما يعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فأعطى القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضى معلوما من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ثم أعطى القوة الممسكة التي تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبعه وتميؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه . ثم أعطى القوة الهاضمة التي تصرفه في البدن وتهضمه عن المعدة ثم أعطى القوة الدافعة وهي التي تدفع ثقله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهك فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها ومن جعلها خادماً لك ومن أعطاهما أفعاله واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت في شخص واحد ومحل واحد ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضها فمن كان يحول بينه وبين ذلك فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركاً لطلب الغذاء الذي به قوام البدن ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب في الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذي القاتل لو انحسرت يخرج أولاً فثولاً فيستريح البدن فيخفف

أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فيأيلامه
 بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كما يلامه بالجوع والعطش والبرد والحردون ذلك أو فوقه وما خلق
 الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة . قالوا فإن سأل سائل وقال فلم خلق كذلك وهلا
 خلق خلقه غير قابلة للألم فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان من
 مادة ضعيفة فهي عرضة للآفات وركبه تركيباً معرضاً للأنواع من الآلام وجعل فيه الاختلاط
 الأربعة التي لا قوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها وهي لا محالة توجب امتزاجاً واختلاطاً
 وتفاعلاً يبغي بعضها على بعض بكيفية تارة وبكمية تارة وبهما تارة وذلك موجب للآلام
 قطعاً ووجود الملزوم بدون لازمه محال ثم أنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة
 ما يوجب حركته الدائمة وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعينه تارة
 فأحوج النوع بعضه إلى بعض فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض فحدث من
 ذلك الآلام والشورور بنحو ما يحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغى بعضها على بعض
 والآلام لا تتخلف عن هذا الامتزاج أبداً إلا في دار البقاء والنعيم المقيم لاني دار الابتلاء
 والامتحان فمن ظن أن الحكمة في أن تجعل خصائص تلك الدار في هذه فقد ظن
 باطلاً بل الحكمة التامة البالغة لإقضت أن تكون هذه الدار بمنزلة عافيتها ببلاتها وراحتها
 بعنائها ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها وفرحها بغمها فهي دار ابتلاء تدفع بعض آفات بعضها

كما قال القائل :

أصبحت في دار بليات أدفع آفات

ولقد صدق فإنك إذا فكرت في الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر
 ما يستلذ به رأيت أنه يدفع بها ما يقابل من الآلام والبليات أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع
 وبالشرب ألم العطش وباللباس ألم الحر والبرد وكذا سائرهما ومن هنا قال بعض العقلاء
 إن لذاتها لنا هي دفع الآلام لا غير فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر
 غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وأن
 الحكمة التي لإقضت ذلك هي أولى باقتضاء دارين دار خالصة للذات لا يشوبها ألم ما ودار
 خالصة للآلام لا يشوبها لذة ما والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار أفلا ترى كيف ذلك
 ذلك مع ما أنت مجبول عليه في هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ورأيت
 شواهدهما وأدلة وجودهما من نفسك حتى كأنك تعانقهما عياناً وانظر كيف دل العيان
 والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار
 فتأمل كيف قاد النظر في حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وما أخبروا

طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة وكلموا عن شيء أجابوا بلا يسأل عما يفعل وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفي حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وبغاياتها المطلوبة منها وإنما المراد بالآية إفراده بالإلهية والربوبية وإلنه لكمال حكمته لامتقبح حكمته ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لا يفعل شيئاً سدى ولا خلق شيئاً عبثاً وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ألا ترى إلى قوله ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسمبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساويه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله لا يسأل عما يفعل إثبات لحقيقة الإلهية وإفراد له بالربوبية والإلهية وقوله وهم يسألون نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة الإلهية فإنها مسئولة مربية مدبرة فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومقلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله ببغاياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب . وقالت طائفة الحكمة في ابتلائهم وتعويضهم في الآخرة بالثواب التام فقل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلاء فأجابوا بأن توسط الإيلاء في حقهم كتوسط التكليف في حق المكلفين فقل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلاء أطفال الكفار فأجابوا بأننا لا نقول أنهم في النار كما قاله من قاله من الناس والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لا ذنب لهم وكذا الكلام معهم في مسئلة الأطفال والحجاج فيها من الجانبين بما ليس هذا موضعه فأورد عليهم مالا جواب لهم عنه وهو إيلاء أطفالهم الذين قدر بلوغهم وموتهم على الكفر فإن هذا لانعويض فيه قطعاً ولا هو عقوبة على الكفر فإن العقوبة لا تكون سلفاً وتعجيلاً فخاروا في هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل . وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه إلزام مالا يلزم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يتخلق منفسكا عنها فهي كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز فالسؤال عن حكم الحاجة إلى الأكل عند الجوع والحاجة إلى الشرب عند الظم وإلى النوم والراحة عند التعب فإن هذه الآلام هي من لوازم النشأة الإنسانية التي لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان فلو تجرد عنها لم يكن إنساناً بل كان ملكاً أو خلقاً آخر وليس آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين لكان لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم ولم يكن ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة فلو لم يتخلق كذلك لكان خلقاً آخر فيرى

والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعاتهم خفيت عليه فجعل كل ما خفي عليه منها شيء قال هذا لا فائدة فيه وأى حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صنائعهم ويفوقهم فيها فإلا الظن بمن بهرت حكمته العقول الذي لا يشاركه مشارك في حكمته كما لا يشاركه في خلقه فلا شريك له بوجه فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عياراً عليها فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين والله في كل ما خفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لاتدفع ولا تنكر. فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة ما اقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ألا ترى أن العشب ينبت في مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أربط مواضع البدن وهي أقبل لنبات الشعر وأهياً فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعراً ولو حبست في داخل البدن لأضرته وأذت باطنه فخرجها عين مصلحة الحيوان واحتباسها إنما يكون لنقص وافة فيه وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكالها ولهذا يكون احتباسه لفساد في الطبيعة ونقص فيها. ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إنبائه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخنقة ضعيف التركيب فإذا شاهدت ذلك في الشعر الذي عرفت بعض حكمته فإلك لا تعتبره في الشعر الذي خفيت عليك حكمته. ومن جعل الريق يجري دائماً إلى الفم لا ينقطع عنه ليبل الخلق واللهوات ويسهل الكلام ويسمخ الطعام. قال بقراط الرطوبة في الفم مطية الغذاء فتأمل حالك عند ما يحف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التي لا يستغنى عنه.

فصل

ثم تأمل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة فإن الأطباء والطباةعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحياناً عظيمة فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فيقوى أدمغتهم وتصح. وأيضاً فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجارى النفس ويفتح العروق ويصاحبها ويقوى الأعصاب وكما للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصرائه فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذى سببه ورود الألم المؤذى وأنت لا تعرفها ولا تمكّد تخاطر ببالك فهكذا يلام الأطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفي على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام في حكمه اضطراب الأرضية وسلوكوا في هذا الباب مسالك. فقالت (١٨ - مفتاح ١)

ما عساه أن يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقمها من الأرض فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل . ومن جعل ماء العينين ملحاً يحفظها من الذوبان وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخاطبها طعم غيرها . ومن جعل باب الخلاء في الإنسان في أستر موضع كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلي في أستر موضع في الدار وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان في أستر موضع ليس بارزاً من خلفه ولا ناشزاً بين يديه بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متوارياً فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض . ومن جعل الأسنان حداداً لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضاً لرضه وطحنه . ومن سلب الإحساس الحيواني الشعور والأظفار التي في الآدمي لأنها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ما شاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها في إحدى البليتين أما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وأما مقاساة الألم والوجع عند أخذها . ومن جعل باطن السكف غير قابل لإنبات الشعر لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللبس ولشق عليه كثير من الأعمال التي تباشر بالسكف وهذه الحكمة لم يكن هن الرجل قابلاً لإنباته لأنه يمنعه من الجماع . ولما كانت المادة تقتضي إنباته هناك نبت حول هن الرجل والمرأة وهذه الحكمة سلبت عن الشفتين وكذا باطن الفم وكذا أيضاً القدم أخصها وظاهرها لأنها تلاقى التراب والوسخ والطين والشوك فلو كان هناك شعر لآذى الإنسان جداً وحمل من الأرض كل وقت ما يثقل الإنسان وليس هذا الإنسان وحده بل ترى البهائم قد جللمها الشعر كلها وأخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل مصلحة ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العائنون للخلق فيما يطعمون به عابوا الشعور تحت الآباط وشعر العانة وشعر باطن الأنف وشعر الركبتين وقالوا أى حكمة فيها وأى فائدة . وهذا من فرط جهلهم وسخافة عقولهم فإن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها بل لا نسبة لما علموه إلى ما جهلوه فيها لو قيست علوم الخلاق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خفي عنهم منها كانت كسفرة عصفور في البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيماعله بل أعظم وأدق وما مثل هؤلاء الحقى النوكى لإكمال رجل لا علمه بدقائق الصنائع

بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفتر فلو شاهده في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر في خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا فإذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فدعا عباده إلى التفكير في أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم توسع الكلام في هذا الباب ولأطلنا النفس إلى هذه الغاية ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عميد ولا يشعر به والله ما خلق له وهياً له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب فأما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الآليم فلو عقل هذا السلطان ماهياً له لاضن بملكه واسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد ولكنه ضرت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

فصل

ومن جعل في الحلق منفذين * أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة * والآخر للطعام والشراب وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل بينهما حاجزاً يمنع عبور أحدهما في طريق الآخر فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لانتفى ولا تفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك . ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجاً تقبضها لكيلا تجري جرياً دائماً فتفسد على الإنسان عيشه ويمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضاً . ومن جعل المعدة كأشد ما يكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وإنضاجها فلو كانت لحماً غضاً لا تطبخت هي ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التي تحتها . ومن جعل السكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة . ومن حصن المنخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها فلا تفسد ولا تذوب . ومن جعل الدم السيل محبوساً محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الوعاء ليضبط فلا يجري . ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات . ومن جعل داخل الأذن مستوياً كهيئة الكوكب ليترد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكزه وليتعدى على الهواء النفوذ إليه قبل أن يمسك ويمسك

عن الاسترخاء وتشويه الصورة ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخى شفتاه وفي الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذى إليه ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ومنه يبتدى ما يلج فيهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما إذا شاء وهما أيضا جمال وزينة للوجه وفيهما منافع أخرى سوى ذلك وانظر إلى من سقطت شفتاه ما أشوه منظره . وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة في أعمال شتى هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجيب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل قد لف بحجب وأغشية بعضها فورة بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذ وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التي تصل إليه فتلتقاها تلك البيضة بمنزلة الخوذة التي على رأس المحارب ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذى هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبر والأذى وجمالا وزينة له فسل المعطل من الذى حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقديم وجملة خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ما أودعه ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين وصانها أعظم صيانة وجعلها معدن الحواس والادراكات ومن الذى جعل الأجفان على العينين كالغشاء والأسفار كالأشراج والأهداب كالرفوف عليها إذا فتحت ومن الذى ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعة وجعل لكل طبقة منفعة وفائدة فلو اختلفت طبقة منها لاختلف البصر ومن شقها في الوجه أحسن شق وأعظم أحسن شكل وأودع الملاحظة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطلية وحارسا للبدن ورائدا يرسد كالجند في مهماته فلا يتعب ولا يعمى على كثرة ظمئه وطول سفره ومن أودع النور الباصر في قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجمال والشمس والقمر والبحار والعجائن من داخل سبع طبقات وجعلها في أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيعة للبدن ومن حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسى الممالك وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذلها له ففى مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكلب وتسعى في مرضاته فلا تستطيع منه خلاصا ولا خروجا عن أمره فنهأرسوله ومنها يريده ومنها ترجمانه ومنها أعوانه وكل منها على عمل لا يتعداه ولا يتصرف في غير عمله حتى إذا أرا الراحة أوعز إليها بالهدو والسكون لئلا أخذ الملك راحته فإذا استيقظ من منامه قامت جنود

فتسمع لغات مختلفة وكلاما منتظما مؤلفا ولا يدري كل منهم ما يقول الآخر واللسان الذي هو جارية واحدة في الشكل والمنظر وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية في ذلك كالآية في الأرض التي تسقى بماء واحد وتخرج مع ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواع المختلفة المتباينة ولهذا أخبر الله سبحانه في كتابه أن في كل منهما آيات فقال (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) وقال (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد) الآية فانظر الآن في الحنجرة كيف هي كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقيم الحروف التي تخرج منها ومن اللسان ومن سقطت شفته كيف لم يقيم الراء واللام ومن عرضت له آفة في حلقة كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية . وقد شبه أصحاب التشریح مخرج الصوت بالمزمار والرثة بالزق الذي ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه والفضلات التي تقبض على الرثة ليخرج الصوت من الحنجرة بالكف التي تقبض على الزق حتى يخرج الهواء في القصب والشفتين والأسنان التي تصوغ الصوت حروفا ونغما بالأصابع التي تختلف على المزمار فتصوغه ألحانا والمقاطع التي ينتهي إليها الصوت بالأبخاش التي في القصبة حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان فإذا تعجبت من الصناعة التي عملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التي أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويابعد ما بينهما ولكن المؤلف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب فإذا رأت مالا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى وعندها من آياته العجيبة الباهرة ما هو أعظم من ذلك بما لا يدركه القياس ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفة والأسنان فمن الذي ميز بينهما أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم .

فصل

وفي هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام ففي الحنجرة مسلك النسيم البارد الذي يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وفي اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على إساعة الطعام وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه في الحلق وفي الأسنان من المنافع ما هو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم وفيها إسناد الشفتين وامساكهما

معاملتهما وتشدد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق وإذا كان هذا يعرض في التشابه في الأسماء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقي فما الظن لو وضع التشابه في الخلقة والصورة . ولما كان الحيوان البهيم والطير والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها . فتبارك الله أحسن الخالقين الذي وسعت حكمته كل شيء .

فصل

ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا أدركا اشتركا في نبات العانة ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحمية فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قima على المرأة وجعلها كالخول له والعاني في يديه ميزه عليها بما فيه له المهابة والعز والوقار والجلالة لكمالها وحاجته إلى ذلك ومنعتها المرأة لكمال الاستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتركا في سائر الشعور للحكمة والمنفعة التي فيها .

فصل

ثم تأمل هذا الصوت الخارج من الحلق وتهمة آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجدد الحكمة الباهرة في هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك في أنبوبة الخنجرة حتى ينتهي إلى الحلق واللسان والشفيتين والأسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات وأجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجري في قصبة واحدة حتى ينتهي إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كله أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله فمنه المضحك ومنه المبكي ومنه المؤيس ومنه المطمع ومنه المخوف ومنه المرجى والمسلى والحزن والقابض للنفس والجوارح والمندشط لها والذي يسقم الصحيح ويبرىء السقيم ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء وتستمال به القلوب ويؤلف به بين المتباغضين ويوالى به بين المتعادين ومنه ما هو بضد ذلك ومنه الكلمة التي لا يلقي لها صاحبها بالأيهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب والكلمة التي لا يلقي لها بالاصحابها يركض بها في أعلا علمين في جوار رب العالمين فسبحان من أنشأ ذاك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدري ما يراد به ولا أين ينتهي ولا أين مستقره هذا إلى ما في ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التي لا يحصيها إلا الله فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته

أن أعطى من هذا الضرب من الجوارح والأعضاء اثنين اثنين وكذلك أعطى شفتين لأنه لا يتكامل مصلحته إلا بهما وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك وأما الأعضاء الثلاثة فهي جوانب أنفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التي هي تجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحر كتهما وفيهما منافع الساقين وكذلك أجفان العينين فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فاقتضت الحكمة البالغة أن جمعت الأعضاء على ما هي عليه من العدد والشكل والهيئة فلو زادت أو نقصت لكان نقصا في الخلقة ولهذا يوجد في النوع الإنساني من زائد في الخلقة وناقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد في خلقه ما لا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج إليه كما يراه في غيره فهو أجدر أن لم يزداد شكرا وحمداً لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأنه يخلق ما يشاء .

فصل

من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل في النوع الإنسان بين صورهم فقل أن يرى إثنان متشابهان من كل وجه وذلك من أندر ما في العالم بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطيور وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الطباء والثلة من الغنم والذود من الإبل والصوار من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر إلا بعد طول تأمل أو بعلامة ظاهرة والناس مختلفة صورهم وخلقهم فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقها واحدة بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة والحكمة البالغة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعينهم وحلاهم لما يجري بينهم من المعاملات فلو لا الفرق والاختلاف في الصور لفسدت أحوالهم وتشت نظامهم ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رب الدين ولا البائع من المشتري ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ولا هي تعرف بعلمها من غيره وفي ذلك أعظم الفساد والخلل فمن الذي ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تنالها العبارة ولا يدركها الوصف فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل في الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق في النوع وأين قول الطبائعيين أن فعلها متشابه لأنها واحدة في نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وربما وقع في النوع الإنساني تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما فتعظم عليهم المؤنة في

فصل

وأما من عدم البيانين بيان القلب وبيان اللسان فذلك بمنزلة الحيوانات البهيمية بل هي أحسن حالا منه فإن فيها ما خلقت له من المنافع والمصالح التي تستعمل فيها وهذا يحمل كثيرا مما تهدي إليه البهائم ويلقى نفسه فيما تكلف البهائم أنفسها عنه وأن عدم بيان اللسان دون بيان القلب ومن عدم خاصة الإنسان وهي النطق اشتدت المؤنة به وعليه وعظمت حسرته وطال تأسفه على رد الجواب ورجع الخطاب فهو كالمقعد الذي يرى ما هو محتاج إليه ولا تمتد إليه يده ولا رجله فكأن الله على عبده من نعمة سابعة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه فهو لا يلتفت إليها ولا يشكر الله عليها ولو فقد شيئا منها لفتى أنه له بالدنيا وما عليها فهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه وهو عار من شكرها ولو عرضت عليه الدنيا بما فيها بزوال واحدة منها لأبى المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن (إن الإنسان لظلوم كفور).

فصل

ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما في ذلك من الحكم البالغة فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منهما واحدا فقط إذ لا مصلحة في كونه أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أضيف إلى الرأس رأس آخر لانتفلا بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد ثم أن الإنسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقى الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وأبصر وسمع بهما معا كلاما واحدا وسمعا واحدا وبصرا واحدا كان الآخر فضلة لا فائدة فيه وإن اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وإدراكاته وكذلك لو كان له لسانان في فم واحد فإن تكلم بهما كلاما واحدا كان أحدهما ضائعا وإن تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وإن تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأى الكلامين يأخذ وكذلك لو كان له هنوان وفان لكان مع قبح الخلقة أحدهما فضلة لا منفعة فيه وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفقتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والشددين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بيّنة والجمال والزينة عليها بادية فلو كان الإنسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصا وكذلك الحاجبان وأما اليدين والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضروري للإنسان لا تتم مصلحته إلا بذلك ألا ترى من قطعت إحدى يديه أو رجله كيف تبقى حاله وعجزه فلو أن النجار والخياط والحداد والخباز والبناء وأصحاب الصنائع التي لا تنأى إلا باليدين شلت يد أحدهما لتعطلت عليه صنعته فاقتضت الحكمة

من خارج بخلاف غيرها من الحواس بل تدرك الملبوسات بلا واسطة بينها وبينها لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملاسة فلم تحتاج إلى واسطة .

فصل

ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهماً له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحة ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسميع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رآه بأذى ولولا حفظ خاض من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته فإنه بمنزلة لحم على وضم ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحساً وجمع عليه همه فقلبه بمجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف . هذا حكم من ولد أعمى فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المتقلين من العافية إلى البلية فالحننة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المراتى والصور ووجوه الانتفاع ببصره فهذا له حكم آخر . وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاوره ويعدم لذة المذاكرة ونغم الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس في خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب وحى كمت وقريب كبعيد . وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالاً لأموره الضرير أو الأطرش وذكروا في ذلك وجوهاً وهذا مبنى على أصل آخر وهو أى الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق في ذلك فأى الصفتين كانت أكمل فالضرير بعدمها أقوى . والذى يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضرراً وأسألهما ديناً وأحدهما عاقبة وعادم السمع أقلهما ضرراً في دنياه وأجملهما بدنه وأسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التى يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر ولهذا لم يكن فى الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضرأ وقل أن يبتلى الله أوليائه بالطرش ويبتلى كثير منهم بالأعمى . فهذا فصل الخطاب في هذه المسئلة فضررة الطرش في الدين ومضرة الأعمى في الدنيا والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه .

أنا إلا من ربيعة أو مضر * وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب وطوف
في الآفاق حتى رضى من الغنيمة بالإياب فاستلان ما استوعره البطالون وأنس بما استوحش
منه الجاهلون .

فصل

فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك وانظر إلى الحواس التي منها تشرف
على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصباح فوق المنارة لتمكن بها من مطالعة الأشياء
ولم تجعل في الأعضاء التي تتمتع كاليد والرجلين فتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات
ولا جعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبدن والظهر فيعسر عليك التلف والاطلاع على
الأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها
فالرأس صومعة الحواس . ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات
الخمس ليلقى خمسا بخمس كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يقال بحاسة فجعل البصر في مقابلة
المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفة والذوق في
مقابلة السكيفيات المذوقات واللس في مقابلة الملووسات فأى محسوس بقى بلا حاسة ولو كان
في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ولما كان ماعداها إنما يدرك بالباطن
أعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الأخماس التي جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث
يقولون في المفكر المتأمل . ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته
الست وأرادوا بذلك أنه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس
في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره .

فصل

ثم أعين هذه الحواس بمخلوقات آخر منفصلة عنها تكون واسطة في إحساسها فأعينت
حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولا لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع
العين شيئا . وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقها إلى الأذن
فتحويه ثم تقلبه إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا . وأعينت حاسة الشم
بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يودها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا . وأعينت حاسة
الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الزائقة به طعوم الأشياء ولهذا لم يكن له طعم
لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حريف لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به
مقصوده . وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملووسات ولم تنج إلى شيء

من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقه وخبى الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله أحسن الخالقين في قطرة من ماء مهين وما كرر عليك في كتابه مبدأ خلقك وإعادته ودعاك إلى التفكير فيه إلا لما بك من العبرة والمعرفة ولا تستغل هذا الفصل وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة فإن الحاجة إليه ماسة والمنفعة عظيمة فانظر إلى بعض ما خصك به وفضلك به على البهائم المهمة إذ خلقك على هيئة تنصب قائماً وتستوى جالساً وتستقبل الأشياء بيدك وتقبل عليها بجملك فيمكنك العمل والصلاح والتدبير ولو كنت كذوات الأربع المكبوبة على وجهها لم يظهر لك فضيلة تميز واختصاص ولم يتهياً منك ما تهياً من هذه النسبة.

فصل

قال الله تعالى (ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم الآية) فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقدر الممتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن (فتبارك الله أحسن الخالقين) فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وحوادثه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والأفلاك مسخرت منقاداً دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح روائب أوقاته والعالم الجوى مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه والعالم السفلى كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل ما فيه كما قال تعالى (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) إلى قوله كفار فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعاً وأملاً صواعاً من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضياً بعيش بنى جنسه لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحداً منهم يقول لى أسوة بهم وهل

متقن إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه لا يعجزه ولا يؤوده قيل لك فإذا أقررت ويحك بالخلق العظيم الذى لا إله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أو عقلا فمالا أو موجبا بذاته وقل هذا هو الله الخالق البارىء المصور رب العالمين وقيوم السموات والأرضين ورب المشارق والمغارب الذى أحسن كل شئ خلقه وأتقن ما صنع فإلك جحدت أسماؤه وصفاته وذاته وأضفت صنيعه إلى غيره وخلقه إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولا بد والحمد لله رب العالمين على أنك لو تأملت قولك طبيعة ومعنى هذه اللفظة لذلك على الخالق البارىء لفظها كما دل العقول عليه معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة أى مطبوعة ولا يحتمل غير هذا البتة لأنها على بناء الفرائض التى ركبت فى الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة فهى التى طبع عليها الحيوان وطبعت فيه ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال فقد دل لفظ الطبيعة على البارى تعالى كما دل معناها عليه والمسلمون يقولون إن الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب وهى سنته فى خليقته التى أجزاها عليه ثم أنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء فيسلبها تأثيرها إذا أراد ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء ليرى عباده أنه وحده الخالق البارىء المصور وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء (وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وإن الطبيعة التى انتهت نظر الخفافيش إليها إنما هى خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والإبداع عليها ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ما جعلت له حتى يرى عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

فصل

فأعد النظر فى نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير فى تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء مواضعها منه وإعدادها لما أعدت له وإعداد هذه الأوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها لكيلا تنتشر فى البدن فتفسده ثم تأمل الحكمة البالغة فى تميمتك وكثرة أجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ولو أن صائفا أخذ تمثالا من ذهب أو فضة أو نحاس فأراد أن يجعله أكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك إلا بعد أن يكسره ويصوغه صياغة أخرى والرب تعالى ينمى جسم الطفل وأعضائه الظاهرة والباطنة وجميع أجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيمته لا يتزائل ولا ينفك ولا ينقص . وأعجب من هذا كله تصويره فى الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي ولا تصل إليه الآلات فيخرج بشراً سوياً مستوفياً لكل ما فيه مصلحته وقوامه

حظرقا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر وجعل المنازل والابواب لإدخال ما ينفعك وإخراج ما يضرک وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حيوانك فهذه خزائن للطعام وهذه خزائن للحرارة وهذه خزائن للدم وجعل منها خزائن مؤديات لئلا تختلط بالخرائن الأخرى فجعل خزائن للمرة السوداء وأخرى للبرة الصفراء وأخرى للبول وأخرى للبنى فتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسرى منها في البدن فإنه إذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتحيد صناعته ثم تجمعها إلى الكبدة في مجار دقاق وقد جعل بين الكبدة وبين تلك المجارى غشاء رقيقا كالمصفاة الضيقة الأبخاش تصفيه فلا يصل إلى الكبدة منه شيء غليظ خشن فيمككها لأن الكبدة رقيقة لا تحمل الغليظ فإذا قبلته الكبدة أنفذته إلى البدن كله في مجار ميماءة بمنزلة المجارى المعدة للماء ليسلك في الأرض فيجمعها بالسقى ثم يبعث ما بقى من الحثب والفضول إلى مغاير ومصارف قد أعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المارارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة فمن ذا الذى تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير وكأنى بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة وفى الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت أخبرني عن هذه الطبيعة أهى ذات قائمة بنفسها لها علم وقدر على هذه الأفعال العجيبة أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه فإن قالت لك بل هى ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة فقل لها هذا هو الخالق البارئ المصور فلم تسميته طبيعة وطبيعة وبالله من ذكر الطبائع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمي به نفسه على اللسان رسوله ودخلت في جملة العقلاء والسعداء فإن هذا الذى وصفت به الطبيعة صفته تعالى وإن قالت لك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا وقد شوهدها من آثارها ما شوهدها فقل لها هذا ما لا يصدق ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التى تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذا الإدخول في سلك المجانين والمبرسمين ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما أدعيت فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست بخالفة لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربهها ومبدعها وخالقها ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك فهى إذا من أدل الدلائل على بارئها وفطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم وجحدك الصفاته وأفعاله إلا مخالفتك العقل والفطرة ولو حاكمتك إلى الطبيعة لرأيتك أنك خارج عن موجبها فلا أنت مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الإنسانية أصلا وكفى بذلك جهلا وضلالا فإن رجعت إلى العقل وقلت لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولا ندير

مع أنه أبلغ من الشبه والله أعلم وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبايعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث والله أعلم.

فصل

فانظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعاً على وفق الحكمة فجعلت في حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المني إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئاً فهو يمد يده إليه حتى يوصله إليه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف مائه في قعر الرحم وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوف لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من أجزاء الجسد رقيقاً ضعيفاً لا يخلق منه الولد جعل له الأنثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم إنضاجه ليشتد وينعقد ويصير قابلاً لأن يكون مبدأ للتخليق ولم تحتاج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مزج غلظ ماء الرجل وشدته قوى به واستحكم ولو كان الماء آن رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبع الماء وإنضاجه فيها ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله . ومنها أنها لما كانت محلاً للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولما كانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقة كل منهما عليه .

فصل

فارجع الآن إلى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفئك وتأمل أعضائك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهمة لها فالإيدان للعلاج والبطش والأخذ والإعطاء والمحاربة والدفع . والرجلان لحمل البدن والسعي والركوب وانتصاف القامة والعينان للاهتمام والجمال والزينة والملاحة ورؤية مافي السموات والأرض وآياتهما وعجايبهما . والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك . والأنف للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه . واللسان للبيان والترجمة عنك . والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك . واللسان يباع عنك . والمعدة خزانه يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه لإصلاحاً آخر وطبخاً آخر غير الإصلاح والطبخ الذي توليته من خارج فأنت تعانى إنضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن أنه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وإنضاج آخر وطباخه الداخل ومنضجه يعانى من نضجه وطبخه مالا تهتدى إليه ولا تقدر عليه فهو يوقد عليه نيراناً تذيب الحصى وتذيب مالا تذيبه النار وهى فى أطف موضع منك لا تحرقك ولا تلهب وهى أشد حرارة من النار وإلا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جداً حتى يجعلها ماء ذائباً وجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الغذاء وأطفه ثم رتب منها مجارى

ينحدر لهم نور الجنة الذي يأكل من أطرافها قال فما شراهم عليه قال من عين تسمى سلسبيلا قال صدقت وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان قال يتفعلك إن حدثتك قال أسمع بأذني قال جئت أسألك عن الولد قال ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله وإن علا منى المرأة منى الرجل أنثى بإذن الله قال اليهودي لقد صدقت وإنك لنبي ثم انصرف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد سألتني عن هذا الذي سألتني عنه ومالي علم به حتى أتاني الله به والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من المائتين جميعاً فالذكر يقذف مائه في رحم الأنثى وكذلك هي تنزل مائها إلى حيث ينتهي مائه فيلتقي المائتان على أمر قد قدره الله وشاءه فيخلق الولد بينهما جميعاً وأيهما غلب كان الشبه له كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه فقال إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال ما أول أشرط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله فقال رسول الله ﷺ أخبرني بهن آتفاً جبريل فقال عبد الله ذلك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ﷺ أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها مائه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها فقال أشهد أنك رسول الله وذكر الحديث وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت قال نعم إذا رأت الماء الأصفر فضحكت أم سلمة فقالت أو تحتلم المرأة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فبم يشبهها الولد فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يتخلق من المائتين وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد المائتين وقهر الآخر وعلوه عليه وإن الشبه يكون بالسبق فمن سبق مائه إلى الرحم كان الشبه له وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحى وليس في صناعتهم أيضاً ما ينافيها على أن في النفس من حديث ثوبان ما فيها وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواه حفظه كما ينبغي وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبد الله بن سلام ولذلك لم يخرج البخاري وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي بكر عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول يارب نطفة يارب علقة يارب مضغة فإذا أراد أن يخلقها قال يارب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك في بطن أمه أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل ولم يتعرض للملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل ولا ترى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإيناث

وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن أكثر العمل لما كان
برؤس الأصابع وعليها الاعتماد أعينت بالأظافر قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم
وقشط الأذى الذى لا يخرج باللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها ثم جعلك بالشعر على
الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد إذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر
والذكر وثمره العقل تنتهى إليه ثم خص الذكر بأن جعل وجهه باللحمية وتوابعها وقارا
وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا وفرقا بينه وبين الإناث وبقيت الأنثى على
حالتها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون أهيج للرجل
على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع فالما واحد والجوهر واحد والوعاء واحد واللقاح واحد
فن الذى أعطى الذكر الذكورية والأنثى الأنوثة. ولا تلتفت إلى ما يقوله الجهمية من الطباعيين
فى سبب الإذكار والإيناث وحالة ذلك على الأمور الطبيعية التى لا تكاد تصدق فى هذا الموضوع
إلا اتفاقا وكذبها أكثر من صدقها وإيس استناد الإذكار والإيناث إلا إلى محض المرسوم
الإلهى الذى يلقى به إلى ملك التصوير حين يقول يارب ذكر أم أنثى شقى أم سعيد فما الرزق
فما الأجل فيوحى ربك ما يشاء ويكتب الملك فإذا كان للطبيعة تأثير فى الإذكار والإيناث
فلها تأثير فى الرزق والأجل والشقاوة والسعادة وإلا فلا إذ يخرج الجميع ما يوحى به الله إلى
الملك ونحن لا ننكر أن لذلك أسبابا أخر ولكن تلك من الأسباب التى استأثر الله بها دون
البشر قال الله تعالى (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن
يشاء الذكور) إلى قوله قدير . فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال . أحدها من تلد الإناث
فقط . الثانية من تلد الذكور فقط . الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى وهو معنى التزويج
هنا أن يجعل ما يهب له زوجين ذكرا وأنثى . الرابعة العقيم التى لا تلد أصلا . وبما يدل على أن
سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحى ماروى
مسلم فى صحيحه من حديث ثوبان قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء خبر من أخبار
اليهود فقال السلام عليكم يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعنى فقلت ألا تقول
يا رسول الله فقال اليهودى إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم إن اسمى محمد الذى سماني به أهلى قال اليهودى جئت أسألك فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أينفعك شيء إن حدثتك قال أسمع بأذنى فنهكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال سل
فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فقال رسول الله
ﷺ هم فى الظلمة دون الجسر قال فمن أول الناس إجازة قال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما
تحفهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبده حوت ذى النون قال فما غذاؤهم على أثرها قال

الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطفرك منه شيء وأن حياتها تزداد في حياتك فمن الذى وضع ذلك فى قلبها حتى إذا قوى بدنك واتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك واحتجت إلى غذاء أصلب من غذائك ليشدد به عظمك ويقوى عليه لحمك . وضع فى فيك آله القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعتك رحمة بأمك ولطفها بها ثم أعطاكها أيام أكلك رحمة بك وإحسانا إليك ولطفًا بك فلو أنك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضررس كيف كان حال أمك بك ولو أنك منعتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التى لا تسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها وكلما ازدادت قوة وحاجة إلى الأسنان فى أكل المطاعم المختلفة زيد لك فى تلك الآلات حتى تنتهى إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ثم إذا ازدادت قوة زيد لك فيها حتى تنتهى إلى الطواحين التى هى آخر الأضراس . فمن الذى ساعدك بهذه الآلات وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء ؟ ثم أنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئاً بل غيباً لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل والفهم والمعرفة بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئاً فشيئاً فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيراً يسيراً حتى يتكامل فيك . واعتبر ذلك بأن الطفل إذا سبى صغيراً من بلده ومن بين أبويه ولا عقل له فإنه لا يؤلم ذلك وكلما كان أقرب إلى العقل كان أشق عليه وأصعب حتى إذا كان عاقلاً فلا تراه إلا كالواله الحيران ثم لو ولدت عاقلاً فهمياً كحالكم فى كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص وتنكدت أعظم تنكيد لأنك ترى نفسك محمولا رضيعاً معصياً بالخرق مربوطاً بالقمط مسجوناً فى المهد عاجزاً ضعيفاً عما يحاوله الكبير فكيف كان يكون عيشك مع تعلقك التام فى هذه الحالة ثم لم يكن يوجد لك من الخلوة واللطافة والوقع فى القلب والرحمة بك ما يوجد للولود الطفل بل تكون أنك خلق الله وأثقلهم وأعنتهم وأكثرهم فضولاً وكان دخولك هذا العالم وأنت غيب لا تعقل شيئاً ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئاً فشيئاً حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والإلتقان لها . وفى ذلك وجوه آخر من الحكمة غير ما ذكرناه . فمن هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والآراب والآلات فى وقت حاجتك لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ثم أنه أعطاك الأظفار

التدبير وأنت جنين في بطن أمك في موضع لا يد تنالك ولا بصر يدركك ولا حيلة لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضرر فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به في أضييق المواضع وأبعدها من حيلة التمسك والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكمت وقوى أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي والتقلب على الغبراء هاج الطاق بأملك فازعجك إلى الخروج أيما ازعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول والاشتغال حين وضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرود والإخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعجج إلى ربك من ثقلك فمن الذي فتح لك بابه حتى ولجت ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلبج البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه فلو تأملت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تنفس هناك وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليما إلى أن خرجت فريداً وحيداً ضميماً لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتي معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك في بطنها ثم ساقه إلى تينك الخزانتي ألطف سوق على مجار وطرق قد تهيات له فلا يزال واقفاً في طريقه ومجاره حتى تستوفي ما في الخزانة فيجري وينساق إليك فهو بر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها يسوقها إليك في طرق لا يهتدى إليها الطواف ولا يسلكها الرجال فمن رققه لك وصفاه وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخه أعدل إحكام لا بالحار المؤذي ولا بالبارد الردي ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما كان في البطن فوافاك في أشد أوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء حين تولد قد تلبظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالإدواة قد تدلى إليك وأقبل بدره عليك ثم جعل في رأسه تلك الحيلة التي هي بمقدار صغر فك فلا يضيق عنها ولا تتعب بالتقامها ثم نقب لك في رأسها نقباً لطيفاً بحسب احتمالك ولم يوسعه فتختنق باللبن ولم يضيقه فتمصه بكلفة بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون في أنها ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفاس منقاداً إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق

النسخة من وجوههم فلسفت من المتوسمين . وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خزيراً فأكثر من أن تذكر هاهنا وقد أفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسي كتاباً وتأمل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعماراً وأعظم قوى وأعنى على الله وعلى رسوله فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين فكانت الحكمة في كل واحد من الأميين ما اقتضته في وقته وتأمل حكمته تبارك وتعالى في إرسال الرسل في الأمم واحداً بعد واحد كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكمل الأمم عقولاً ومعارف وأصحها أذهاناً وأغزرها علوماً وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه فأغنى الله لأمته بكامل رسوله وبكامل شريعته وبكامل عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده أقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته ووكلمهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر فحزم بوجود المحدثين في الأمم وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط وليس هذا بنقصان في الأمة على من قبلهم بل هذا من كمال أمته على من قبلها فإنها لأكملها وبكامل نبيها وبكامل شريعته لا تحتاج إلى محدث بل إن وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد لا أنه عمدة لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل مقام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث وأما من قبلها فلا حاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون . ولا تظن أن تخصيص عمر رضى الله عنه بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق بل هذا من أقوى مناقب الصديق فإنه لأكمل مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدى الرسالة استغنى بذلك عما تلقاه من تحديث أو غيره فالذى يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذى يتلقاه عمر من التحديث فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من المعرفة وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل خلقه وأكملهم شريعة وإن أمته أكمل الأمم وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه إلى الصواب وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فصل

فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية من الذى دبرك بالظف

القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك فلما شابوا شاب لهم الولاة بحكمة الله تأبى أن يولى علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلا عن مثل أبي بكر وعمر بل ولاتنا على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها ومن له فطنه إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والأمر سواء فأياك أن تظن بظنك الفاسدان شيئا من أفضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة بل جميع أفضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب وليكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار .

خفافيش أعشاها النهار بضوته ولا زما قطع من الليل مظلم

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى ﴿ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ إلى قوله (يظلمون) وتأمل حكمته تعالى في مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتمييز المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة واعتبر هذا بمن مسخوا قرده وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية فاقرأ نسخة القرده من صور أهل المسكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم بل هم أخف الناس عقولا وأعظمهم مكرراً وخداعاً وفسقاً فإن لم تقرأ نسخة القرده من وجوههم فلسست من المتوسمين واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهي تظهر وتختفي بحسب خنزيرية القلب وخبثه فإن الخنزير أخصب الحيوانات وأردوها طباعاً ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقوم الإنسان عن رجيئه فيمادر إليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقاً عليهم فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤا منهم ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشركين والكفار وصرحوا بأنهم خير منهم فأى شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير فإن لم تقرأ هذه

بالغة وآية باهرة حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء. ولعل هذا الفصل الاستطراذى أنفع لمنأمله من كثير من الفصول المتقدمة فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدا والله الموفق ويحكي أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص فأرسل الله عليه سيلا فذهب بالغنم فجعل يعجب فأتى في منامه فقبل له أتعجب من أخذ السيل غنمك أنه تلك القطرات التي شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلا فقس على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك. تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط وأنه قائم على كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم مثقال ذرة. والآثر الإسرائيلي معروف أن رجلا كان يشوب الخبز ويبيعه على أنه خالص فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به فركب البحر ومعه قرده فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب ثم فتحه فجعل يلقى به دبارا في الماء ودبارا في المركب كأنه يقول له بلسان الحال ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك. وتأمل حكمة الله عز وجل في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين كيف جوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم فقال لهم بلسان الحال منعتم الحق فمنعتم الغيث فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم. وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه فصددهم عنه كما صدوا عباده صيدا بصد ومنعاً بمنع. وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس وتحقوها عليهم وأنفقوها بالربا جوزوا إتلافاً باتلاف فقل أن ترى مرابيا إلا وآخريته إلى محق وقلة وحاجة. وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويمهم على ضعيفهم ولم يؤخذ بالظلم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلمهم برعاياهم وضعفائهم سواء وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها. وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمرأهم وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت في صور وولاتهم وملوكهم فإن استقاموا استقامت ملوكهم وإن عدلوا عدلت عليهم وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم وليس في الحكمة الأهلية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم ولما كان الصدر الأول خيار

يغتنى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها في حافات الاجام
جائمة تمسك على الماء الصافي فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاخطفته فلما كانت
السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسمك الكبير تأكله ودواب البر تأكله
وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف اقتضت حكمته أن يكون بهذه السكثرة ولو رأى
العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التي لا يحصىها إلا الله ولا
يعرف الناس منها إلا الشيء القليل الذي لا نسبة له أصلاً إلى ما غاب عنهم لرأى العجب
ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو (وهذا الجراد) نثرة حوت (١) من
حياتان البحر ينثره من منخرية وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة عجيب التركيب فيه
خلق سبع حيوانات فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جنداً لا مرد له ولا يحصى منه
عدد ولا عدة فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك فانظر كيف
ينساب على الأرض كالسيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يسترن نور الشمس بسكثته ويسد
وجه السماء بأجنته ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه فسل الماعط
من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيواناً رام أخذه بلية
على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة فلا يقدر أن يجمعهم على دفعه بل ينظرون
إليه يستبد بأقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق ويذر الأرض قفراً منها وهم لا يستطيعون أن
يردوه ولا يحولوا يفتنه وبينها وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا
مؤنة له على القوي فينتقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك رداً ولا صرفاً
قال الله تعالى (وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين
ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فواحسرتاه
على استقامة مع الله وإيثار لمرضائه في كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى
من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه وليكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل
الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في
حق ظالمه كما أن المسؤول إذا رد السائل فهو في خفارة ذنوبه ولو صدق السائل لما أفاح من رده
وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها ولو أدوا ماله عليهم
فيها لحفظها الله عليهم وهذا أيضاً باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار
التقدير وتسلط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له في كل شيء حكمة

(١) - (قوله نثرة حوت الخ) في هامش الأصل بخط بعض الفضلاء ما نصه ليس كذلك بل المراد من
كونه نثرة حوت اتحاد حكمها في حل أكل ميتتها كما صرح بذلك شراح الحديث اه وهو مقبول اه صححه.

فصل

ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص الساخن الهنيء المرى الخارج من بين الفرث والدم فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دماً بإذن الله وما يسرى في عروقها وأعضائها وشوارها ولحومها فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء فبسه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له إذ به قوام الحيوان ثم ينصب ثقله إلى الكرش فيصير زبلاً ثم ينقلب باقيه لبناً صافياً أبيض سائغاً للشاربين فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلباً خرج الدم مشوباً بحمرة فصنى الله سبحانه الألف من الثفل بالطبخ الأول فانفصل إلى السكبد وصار دماً وكان مخلوطاً بالأخلاق الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خاط منها إلى مقره وخزائنه المهيأة له من المرارة والطحال والسكبية وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة السكبد فينصب من تلك العروق إلى الضرع فيقبله الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث والدم فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير .

فصل

ثم تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذى قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتاج إليه لأنه ينغمس في الماء وخلقته له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة وكسى جلده قشوراً متداخلة كستداخل الجوشن ليقويه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فية تصده وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ثم يرسله ليمتروح به فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري فهما بحران أحدهما أطف من الآخر بحر هواء يسبح فيه حيوان البر وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات فكما يختنق الحيوان البري في الماء يختنق الحيوان البحري في الهواء فسبحان من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد بل أن علموا فيها وجهاً جهلوا منها أوجهاً . فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلاً . ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة (وحكمة ذلك) أن يتسع لما

السكر من طرق عديدة لاتمتنع وبراهين كثيرة لاتدفع ومتى رأيت السكر يحلو بلغمًا ويذيب خلطًا أو يشفي من داء وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيرًا من الناس حتى صاروا يذمون ويخشون غائلته من حرارته وحدته ولا ريب أن كونه شفاء وكون القرآن شفاء والصلاة شفاء وذكر الله والإقبال عليه شفاء أمر لا يعم الطبائع والأنفس فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداء ولا يزيد الظالمين إلا خساراً وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والابانة إليه والفرع إلى الصلاة كم قد شفى به من عليل وكم قد عوفى به من مريض وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريباً من مبالغه في الشفاء وأنت ترى كثيراً من الناس بل أكثرهم لانصيب لهم من الشفاء بذلك أصلاً ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة ومن منافعها في الروح والقلب . وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب أضرب ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر فقال أستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها فإذا قويت عليه قهرته فقال له الطبيب بلى فقال إذا اشتغلت نفسى بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام . والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجهم عن كونه شفاء كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجهم عن كونه شفاء لها وهو شفاء لما في الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة فهو نفسه شفاء استشفى به أولم يستشف به ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاء أن هذا شفاء القلوب من أمراض غيبها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتنا . ولقد أصابني أيام مقامى بمكة أسقام مختلفة ولا طيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفى بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمراً عجيباً وتأمل أخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال عن العسل ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه .

من غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض بل يصيرون يداً واحدة وجنداً واحداً .

فصل

ومن أعجب أمرها ما لا يمتدئ له أكثر الناس ولا يعرفونه وهو التاج الذى يكون لها هل هو على وجه الولادة والنوالد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك أو يظن له وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التى على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهى الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم انها تكبس الأجزاء المتعقدة على وجه الورقة وتعقدتها على رجلها كالعدسة فتعلا بها المسدسات الفارغة من العسل ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئاً منه فينفخ فيه ثم يطوف على تلك البيوت بيتاً بيتاً وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيوراً بإذن الله وتلك إحدى الآيات والعجائب التى قل من يتفطن لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحى الإلهى أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والتناج فسل المعطل من الذى أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل فى طباعها ومن الذى سهل لها سبله ذللاً منقاداً لا تستعصى عليها ولا تستوعرها ولا تفضل عنها على بعدها ومن الذى هداها لشأنها ومن الذى أنزل لها من الطل ما اذا جنته ردتة عسلاً صافياً مختلفاً ألوانه فى غاية الحلاوة واللذابة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته فى المرأة وسمه لى من جاء به وقال هذا أغزر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه فإذا طعمه أذ شئ يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله فى غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور فى كتبهم أصلاً وإنما كان الذى يستعملونه فى الأدوية هو العسل وهو المذكور فى كتب القوم ولعمري الله انه لا نفع من السكر وأجدى وأجلى للاخلاط وأقع لها وأذهب لضررها وأقوى للعدة وأشد نفراً للنفوس وتقوية للأرواح وتنقيتها للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن ولهذا لم يجئ فى شئ من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلاً ولو عدم من العالم لما احتاج اليه ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه ولم يعلوا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة فإذا لم يوافق من يستعمله كسرهما بمقابلها فيصير أنفع له من السكر وسنفرّد إن شاء الله بمقالة نبين فيها فضل العسل على

فاتحة فاما لتبتمه فينباهو يضطرب في حيلة النجاة منها إذ وجد حسكة في العش فحملها فألقاها في فم الحية فلم تزل تلتوى حتى ماتت .

فصل

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات فانظر إليها وإلى اجتهداها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعا فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها كما قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا) إلى قوله (آيات لقوم يتفكرون) فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها اتخذت بيوتها في هذه الامكنة الثلاثة في الجبال الشقفان وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون أى يبنون العروش وهي البيوت فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة . وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت المقدم في الآية ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها وبما يعرش الناس وأقل بيوتها يبنونها يبنونهم حيث يعرشون وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدا وتأمل كيف أداها حسن الامثال إلى أن اتخذت البيوت أولا فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا ثم بالاكل بعد ذلك ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذلة لا يستوعز عليها شيء ثم تعرجى ثم تعود ومن عجيب شأنها أن لها أمير يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة وله عليها تكليف وأمر ونهى وهي رعية له متقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته حتى انها إذا آوت إلى بيوتها وقفت على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه الا واحد واحد ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الاحكام والإتقان فإذا نظرت إلى العامل رأيت من أضعف خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة . ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد ولا يتأمران على جمع واحد بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحدا لا ميرين وقطعوا على الأمير الواحد

الضرب شيء كثير وهذا الضرب من الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس في الطير أضعف منه ولا أجهل وفيما يرى من تهافته في النار وأنت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على ذلك فجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقات منه فإذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ونهارها بمنزلة ليل غيرها ومع ذلك فساق لها الذي تكفل بأرزاق الخلق رزقها وخلقه لها في الجو ولم يدعها بلارزق مع ضعفها وعجزها وهذه إحدى الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض فكأن فيها من رزق لامة تسمح بحمد ربها ولولا ذلك لانتشرت وكثرت حتى أضرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر إلى عجيب تقدير الله وتديره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وأن ذلك الذي تشاهده ليس باتفاق ولا بإهمال من سائر وجوه الأدلة التي لا تتمكن الفطر من جردها أصلاً وإذ قد جرى الكلام إلى الخفاش فهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقه الطيور وذوات الأربع وهو إلى ذوات الأربع أقرب فإنه ذو أذنين ناشرتين وأسنان ودبر وهو يلد ولدا ويرضع ويمشي على أربع وكل هذه صفة ذوات الأربع وله جناحان يطير بهما مع الطيور ولما كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره فإذا غابت الشمس انتشر ومن ذلك سمى ضعيف البصر أخفش والخفش ضعف البصر ولما كان كذلك جعل قوته من هذه الطيور الضعاف التي لا تطير إلا بالليل . وقد زعم بعض من تكلم في الحيوان أنه ليس يطعم شيئاً وإنما غذاؤه من النسيم البارد فقط وهذا كذب عليه وعلى الخلقة لأنه يقول وقد تكلم الفقهاء في بوله هل هو نجس لأنه بول غير مأكول أو نجس معفو عن يسيره لمشقة التحرز منه على قولين هما روايتان عن أحمد وبعض الفقهاء لا ينجس بوله بحال وهذا أقيس الأقوال إذ لا نص فيه ولا يصح قياسه على الأبوال النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق وليس هذا موضع استيفاء الحجج في هذه المسئلة من الجانبين . والمقصود أنه لو كان لا يأكل شيئاً لم يكن له أسنان إذ لا معنى للأسنان في حق من لا يأكل شيئاً ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الأكل لم يعط الأسنان فلما كبر واحتاج للغذاء أعين عليه بالأسنان التي تقطعه والأضرار التي تطحنه وليس في الخلقة شيء مهملة ولا عن الحكمة بمعطى ولا شيء لا معنى له وأما الحكم والمنافع في خلق الخفاش فقد ذكر منها الأطباء في كتبهم ما انتهت إليه معرفتهم حتى أن بوله يدخل في بعض الأحوال فإذا كان بوله الذي لا يخطر بالبال فيه منفعة البتة فما الظن بحملته ولقد أخبر بعض من أشهد بصدقه أنه رأى رجلاً وهو طائر معروف قد عشنش في شجرة فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه

ليتمسكه بصلابته وهو القصبه التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف يشتمل على الهواء فيحمل الطائر فأى طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللفظ ثم لو كان ذلك في الطبيعة كما يقولون اسكانت من أدل الدلائل وأعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشئها وعلمه وحكمته فإنه لم يكن ذلك لها من نفسها بل إنما هو لها بمن خلقها وأبدعها فما كذبه المعطل هو أحد البراهين والآيات التي على مثلها يزداد إيمان المؤمنين وهكذا آيات الله يضل بها من يشاء ويهتدى من يشاء .

فصل

تأمل هذا الطائر الطويل الساقين وأعرف المنفعة في طول ساقيه فإنه يرى أكثر مرعاه في ضحضاح الماء فتراه يركز على ساقيه كأنه دست فوق مركب ويتأمل ما دب في الماء فإذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطوا رفيقا حتى يتناولوه ولو كان قصير القامتين كان إذا خطا نحو الصيد لياً أخذه لصق بطنه بالماء فيشير ويذعر الصيد منه فيفر فخلق له ذلك العمودان ليذكر بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه وكل طائر فله نصيب من طول الساقين والعنق ليتمكنه تناول الطعام من الأرض ولو طال ساقاه وقصرت عنقه لم يتمكن أن يتناول شيئاً من الأرض وربما أعين مع عنقه بطول المناقير ليزداد مطلبه سهولة عليه وامكانا . . ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار كله فلا هى تفقده ولا هى تجده مجموعاً معداً بل تناله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي فسميحان الذى قدره ويسره كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ويفوتها إذا قعدت عنه وجعلها قادرة عليه في كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران والأسطحة والسقوف تناوله بالهويناء من السعى فلا يشاركها فيه غير بنى جنسها من الطير ولو كان ما تقتات به يوجد معداً بمجرعها كله كانت الطير تشاركها فيه وتغلبها عليه وكذلك لو وجدته معداً مجموعاً لا كبت عليه بحرص ورغبة فلا تقلع عنه وإن شبعته حتى تبشم وتهلك وكذلك الناس لو جعل طعامهم معداً لهم بغير سعى ولا تعب أدى ذلك إلى الشره والبطنة ولكثر الفساد وعمت الفواحش والبغى في الأرض فسميحان اللطيف الخبير الذى لم يخلق شيئاً سدى ولا عبثاً (وانظر) في هذه الطير التي لا تخرج إلا بالليل كاللوم والهام والخفاس فان أقواتها هيئت لها في الجو لا من الحب ولا من اللحم بل من البعوض والفراس وأشباههما مما تلقطه من الجو فتأخذ منه بقدر الحاجة ثم تأوى إلى بيوتها فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل وذلك أن هذه الضروب من البعوض والفراس وأشباههما مبسوثة في الجو لا يكاد يخلو منها موضع منه واعتبر ذلك بأن تضع سراجاً بالليل في سطح أو عرصه الدار فيجتمع عليه من هذا

الطيران فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لا نقله وعاقه عن النهوض والطيران . وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعاً أو أسبوعين باختياره قاعداً على بيضه حاضناً له ويحتمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته وبزق فراخه وليس بذى روية ولا فكرة في عاقبة أمره ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العون والرغد وبقاء الذكر . فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعله لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه .

فصل

ثم تأمل خلقة البيضة وما فيها من المخ الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يغتذى منه إلى أن يخرج من البيضة وما في ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشو الفرخ في تلك البشرة المنخفضة التي لا نفاذ فيها للواصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكتفى به إلى خروجه .

فصل

وتأمل الحكمة في حوصلة الطائر وما قدرت له فإن في مسلك الطعام إلى القابضة ضيق لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلاً فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى إلى جوفه لاطال ذلك عليه فمى كان يستوفى طعامه وإنما يختلسه اختلاساً أشد الحذر فجعلت له الحوصلة كالخلعة المعلقة أمامه ليوعى فيها ما ازدرد من الطعام بسرعة ثم ينقل إلى القابضة على مهل وفي الحوصلة أيضاً خصلة أخرى فإن من الطائر ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده الطعام من قرب ليسهل عليه .

فصل

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشى التي تراها في كثير من الطير كالطاووس والدراج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الأقلام ووشيت بالأيدي لم يكن هذا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط والمركب الذي لو اجتمعت الخليفة على أن يحاكيه لتعذر عليهم فتأمل ريش الطاووس كيف هو فإنك تراه كنسج الثوب الرفيع من خيوط رفيع جداً قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط بل الشعرة إلى الشعرة ثم ترى النسج إذا مددته ينفتح قليلاً قليلاً ولا يندشق ليتداخله الهواء فينقل الطائر إذا طار فترى في وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه ذلك الثوب التي كهيئة الشعر

فصل

ومن عجيب الفطنة في الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيداً تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطائر ميتاً فيقع عليه لئلا كل منه فيثب عليه الثعلب فيأخذه . ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب فانك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه يسكن ملياً حتى كأنه موات لا حراك فيه فإذا رأى الذباب قد اطمان وغفل عنه دب ديباً رقيقاً حتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه . ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج تلك الشبكة شركاً للصيد ثم يكمن في جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتنص دمه فهذا يحكي صيد الأشراك والشباك والأول يحكي صيد الكلاب والفهود ولا تزدري العبرة بالشيء الحقيق من الذرة والبعوض فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقير والازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والخنزير فأنزل الله تعالى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) فأغزر الحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها وكمن من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته وحكمته فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سألها من القوة والقدرة فأغناها ما أعطاها من الحيلة عما سألها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير .

فصل

ثم تأمل جسم الطائر وخلقه فإنه حين قدر بأن يكون طائراً في الجو خفف جسمه وأدج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعاً ثم خلق ذا جوف محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض به بالطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يتفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وكان يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضا أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فاستغنى عن المضغ والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحاً وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر . ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضاً ولا يلد ولادة لئلا يشغل عن

اللقوت خرجت من أسرابها طالبة له فإذا ظفرت به أخذت طريقاً من أسرابها إليه وشرعت في نقله فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سرباً ذاهباً ورفقة خارجة من بيوتها إليه لاتخاط تلك في طريقها بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تساعد الفئمة من الناس عليه فإذا كان الذي ظفر به منهم واحدة ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلوا بينهما وبينه وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت . ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد منهم يوماً عجباً . قال رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل قال فرفعت ذلك الشق من الأرض فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئاً فرجعن فوضعتنه ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن فرفعتنه فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئاً فذهبن فوضعتنه فعدت لجماعت بهن فرفعتنه فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئاً تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعنها عضواً عضواً وأنا أنظر . ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرت له لئلا يفت فإن كان مما يفت الفلقتان منه كسرت له أربعاً فإذا أصابه نداء وبلل وخافت عليه الفساد أخرجه للشمس ثم ترده إلى بيوتها ولهذا ترى في بعض الأحيان حبا كثيراً على أبواب مساكنها مكسراً ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ومن فطنها أنها لا تتخذ قريتها إلا على شئ من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل في بطن واد ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه ويكفي في فطنها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها جماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة . النداء . والتنبية . والتسمية . والأمر . والنص . والتحذير . والتخصيص . والتفهم . والتعميم . والاعتذار فاشتملت نصيحته على الاختصار على هذه الأنواع العشرة . ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكاً منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسمي بحمد ربها كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ثم أحرق قرية النمل فأوحى الله إليه . من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسمي فهل نملة واحدة .

العباس بن تيمية قدس الله روحه عن حمار نزا على فرس فأحبلها فهل يكون ابن الفرس حلالاً أو حراماً . فأجاب بأنه حلال ولا حكم للفحل في اللبن في هذا الموضع بخلاف الاناسي لأن ابن الفرس حادث من العلف فهو تابع للحما ولم يسر وطىء الفحل إلى هذا اللبن فإنه لا حرمة هناك تنتشر بخلاف ابن الفحل في الاناسي فإنه تنتشر به حرمة الرضاع ولا حرمة هنا تنتشر من جهة الفحل لا إلى الولد خاصة فإنه يتكون منه ومن الأم فغلب عليه التحريم وأما اللبن فلم يتكون بوطئه وإنما يتكون من العلف فلم يكن حراماً هذا بسط كلامه وتقديره والمقصود ابطال زعم أن هذه الحيوانات المختلفة يلقح بعضها بعضها عند الموارد فتتكون الزرافة وإنه كاذب عليها وعلى الإبداع والذي يدل على كذبه أنه ليس الخارج من بين ما ذكرنا من الفرس والحمار والذئب والضبع والضأن والمهر عضو من كل واحد من أبيه وأمه كما يكون للزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالم توسط بينهما الممتزج منهما كما نشاهده في البغل فإنك ترى رأسه وأذنيه وكفله وحوافره وسطاً بين أعضاء أبيه وأمه مشتقة منهما حتى تجد سجيحه كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا يدل على أن الزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آية ودلالة على قدرته وحكمته التي لا يعجزها شيء . ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء وفي أي لون شاء . فمنها المتشابهة الحلقة المتناسب الأعضاء . ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة كما يرى عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على أنه مخلوق بقدرته ومشيشته تابع لها فمنه ما خلق من غير أب ولا أم وهو أبو النوع الإنساني . ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى وهي أمهم التي خلقت من ضلع آدم . ومنه ما خلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم : ومنه ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الإنساني فيرى عباده آياته ويتعرف اليهم بآلائه وقدرته وأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . وأما طول عنق الزرافة وما لها فيه من المصلحة فلأن منشأها ومرعاها كما ذكر المعتبرون بحالها ومساكنها في غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولاً فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذي هناك وثمارها وهذا ما وصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه .

فصل

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيت من الفطنة والحيلة في جميع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فإنك ترى في ذلك عبراً وآيات فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز

والماء وإيرادهما إلى جوفه ولولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئاً من الأشياء من الأرض لأنه ليست له عنق يمدّها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخراطوم الطويل ليسد مسده وجعل قادراً على سدله ورفعته وثنيه والتصرف به كيف شاء وجعل وعاء أجوف لين الملمس فهو يتناول به حاجته ويحمّله ما أراد إلى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به إذا شاء ويعطى ويتناول إذا أراد فسل المعطل من الذى عوضه ومن أخلف عليه مكان العضو الذى منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الرزوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم وكيف يتأتى ذلك مع الإهال وخلو العالم عن قيمه وبارئته ومبدعه وفاطره لا إله إلا هو العزيز الحكيم (فإن قلت) فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام وما الحكمة و ذلك . قيل والله أعلم بحكمته فى مصنوعانه لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل رأسه ماصقاً بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالعت عنق البعير للحكمة فى ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ويوهن عنقه فسمّحان من فانت حكمه عد العادين وحصر الحاصرين .

فصل

ثم تأمل خلق الزرافة واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان فرأسها رأس فرس وعنقها عنق بعير وأظلافها أظلاف بقرة وجلدها جلد نمر حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وذكروا أن أصنافاً من حيوان البر إذا وردت الماء ينزو بعضها على بعض فتنزو المستوحشة على السائمة فتنتج مثل هذا الشخص الذى هو كالملتقط من أناس شتى وما أرى هذا القائل إلا كاذباً عليها وعلى الخلقة إذ ليس فى الحيوان صنف يلقح صنفاً آخر فلا الجمل يلقح البقر ولا الثور يلقح الناقة ولا الفرس يلقحهما ولا يلقحانه ولا الوحوش يلقح بعضها بعضاً ولا الطيور وإنما يقع هذا نادراً فيما يتقارب كالبقر الوحشى والأهلى والضأن والمعز والفرس والحمار والذئب والضبع فيتولد من ذلك البغل والسمع والعسبار وقول الفقهاء هل تجب الزكاة فى المتولد من الوحشى والأهلى فيه وجهان هذا إنما يتصور فى واحد واثنين وثلاثة يكمل بها النصاب فأما نصاب كله متولد من الوحشى والأهلى فلا وجود لذلك والأحكام المتعلقة بهذه المتولدات تذكر فى الزكاة وجزاء الصيد والأضاحى والأحوط يتغلب فى كل باب . وفى الأضاحى يتغلب عدم الأجزاء وفى الإحرام والحرم يتغلب وجوب الجزاء وفى الأطعمة يتغلب جانب التحريم وفى الزكاة اختلاف مشهور . وسئل شيخنا أبو (١٦ - مفتاح)

أنه جرة بن شهاب وأن داره بالحرقة وأن مسكنه منها ذات اظى قال له أدرك بيتك فقد احترق فكان كما قال . وشواهد هذا الباب أكثر من أن نذكرها هنا وهذا باب لطيف المنزع شديد المناسبة بين الأسماء والمسميات وكثيرا ما أولع الناس قديما وحديثا بنعيق الغراب واستدلوا لهم به على البين والاعتراب وينسبونه إلى الشؤم وينفرون منه وينفر منهم فكان جديرا أن يرسل هذا الطائر إلى القاتل من ابني آدم دون غيره من الطيور فكأنه صورة طائره الذى ألزمه فى عنقه وطار عنه من عمله ولا تظن أن ارسال الغراب وقع اتفاقا خاليا من الحكمة فإنك إذا خفى عليك وجه الحكمة فلا تذكرها واعلم أن خفاءها من لطفها وشرفها والله تعالى فيما يخفى وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحموده .

فصل

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى وجه الدابة كيف هو فانك ترى العينين فيه شاخصتين أمامهما تبصر ما بين يديهما أتم من بصر غيرها لأنها تحرس نفسها وراكبها فتتقى أن تصدم حائطا أو تتردى فى حفرة فجعلت عينها كعينى المنتصب القامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقا فى أسفل الخطم لتتمكن من العض والقبض على العلف إذ لو كان فوقها فى مقدم الخطم كما أنه من الإنسان فى مقدم الذقن لما استطاعت أن تتناول به شيئا من الأرض ألا ترى الإنسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده فلما تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقا من أسفل لتضعه على العلف ثم تقضمه وأعينت بالجحفة وهى لها كالشفة للإنسان لتلتصق بها ما قرب منها وما بعد وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ولم يمتد إليها وفيه منافع عديدة فمنها أنه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها يواريهما ويسترهما ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وضر يجتمع عليه الذباب والبعوض فيؤذى الدابة فجعل أذناها كالمذاب لها والمراوح تطرد به ذلك ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمتدة ويسرة فانه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلها قدماها بحمل البنن عن التصرف والتقلب كان لها فى تحريك الذنب راحة وعسى أن يكون فيها حكم آخر تقصر عنها افهام الخلق ويزدريها السامع إذا عرضت عليه فانه لا يعرف موقعها إلا فى وقت الحاجة فمن ذلك أن الدابة تربض فى الوحل فلا يكون شئ أعون على رفعها من الأخذ بذنبها .

فصل

ثم تأمل شفر الفيل وما فيه من الحكم الباهرة فانه يقوم له مقام اليد فى تناول العلف

ميزه عنه في مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه . ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائه وحر به وسلبه وطقنه وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته فلاكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق إلا بها فلم يجعل كسوته في هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل إلى الاستبدال بها فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان .

فصل

ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثير مما لا يرى منها شيء وليست شيئاً قليلاً فتخفي لقلتها بل قد قيل أنها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه في الصحارى من أسراب الطيأ والبقر والوعول والذئاب والنور وضروب الهوام على اختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضغاف بني آدم لا تكاد ترى منها شيئاً ميتاً لا في كسائه ولا في أوكاره ولا في مساقطه ولا في مراعيه بطرقه وموارده ومناحله ومعاقله ومعاصمه إلا ما عدا عليه عاد إما افتقره سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن احراز جسمه وإخفاء جيفته فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على أنفسها كمنعت حيث لا يوصل إلى أجسامها وقبرت جيفها قبل نزول البين بها ولو لا ذلك لامتلات الصحارى بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها فعد ضرر ذلك بالناس وكان سبباً إلى وقوع الوباء وقد دل على هذا قوله تعالى في قصة ابني آدم (فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخى فأصبح من النادمين) وأما ما جعل عيشه بين الناس كالأنعام والدواب فلقدرة الإنسان على نقله واحتياله في دفع أذيته منعه مما جعل في الوحوش كالسباع فتأمل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به كيف جعل طبعاً في البهائم وكيف تعلوه من الطير . وتأمل الحكمة في إرسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله تعالى وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه وهو من الطيور التي تنفر منها الأنس ومن نعيمها وتستوحش بها فأرسل اليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم له والأستاذ وصار بمنزلة المتعلم والمستند ولا تنكر حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها فقد قال النبي ﷺ إذا بعثتم إلى بريدا فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه وكان يسأل عن اسم الأرض إذا نزلها واسم الرسول إذا جاء اليه ولما جاءهم سهيل ابن عمرو يوم الحديبية قال قد سهل أمركم ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال لم يزل معنى اسمه فيه وفي زريته ولما سأل عمر بن الخطاب الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله فأخبره

ولو جعل في أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذى تجامع به المرأة وقد ذكر فى كتب الحيوان أن فروج الفيلة فى أسفل بطنها فإذا كان وقت الضراب ارتفع ونشز وبرز للفحل فيتمكن من ضرابها فلما جعل فى الفيلة على خلاف ما هو فى سائر البهائم خصص بهذه الخاصية عنها ليتها الأمر الذى به دوام النسل .

فصل

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمى هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف وكسيت الطيور الريش وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو فى غاية الصلابة والقوة كالسلاحفة وبعضها من الريش ما هو كالأسنة كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذى يريد أذاها فإنها لما لم يكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة وآلات الحرب أعيذت بملابس وكسوة لا تفارقها وآلات وأسلحة تدفع بها عن نفسها وأعيذت باطلاف واخفاف وحوافر لما عدت الاحذية والنعال فعبها حذاؤها وسقاؤها وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجري وجعل لها ذلك أيضاً سلاحاً عند انتصافها من خصمها عوضاً عن الصياصى والمخالب والأنياب والبرائن فتأمل هذا اللطف والحكمة فإنها لما كانت بهائم خرساً لا عقول لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع ولا حظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسيج والغزل ولطف الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها ما بقيت لا تحتاج إلى الاستبدال بها وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتمام الحكمة التى أريدت بها ومنها وأما الإنسان فإنه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهى تغزل وتنسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله فى ذلك صلاح من جهات عديدة . منها أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة . ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة للصيف وضروباً للشتاء فإن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف فيتخذ لنفسه فى كل فصل كسوة موافقة . ومنها أنه يجعلها تابعة لشهوته وإرادته . ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره كما جعلت مطاعمه كذلك فهو يكتسى ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة كالحرير والإبريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته بها ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم كما هى فى الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان فدل على أن ذلك أكل وأجل وأبلغ فى النعمة . ومنها إرادة تمييزه عن الحيوان فى ملبسه كما

والحنان رحمة بالفراخ وسلبها إياها عند استغنائها رحمة بالأمهات أفيجوز أن يكون هذا كله بلا تدبير مدبر حكيم ولا عناية ولا لطف منه سبحانه وتعالى لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين إلهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها جحوداً إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جحود كفور (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) وإنما يكون الشك فيما تخفى أدلته وتشكل براهينه فاما من له فى كل شىء محسوس أو معقول آية بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بأنه الله الذى لا اله إلا هو رب العالمين فكيف يكون فيه شك .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة فى قوائم الحيوان كيف اقتضت أن يكون زوجها لا فرداً إما اثنين وإما أربعاً ليهتياً به المشى والسعى وتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فرداً لم يصلح لذلك لأن الماشى ينقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنين ويعتمد على اثنين وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ولكن مشيه نقرأ كنعقر الطائر وذلك مما يؤذيه ويتعبه لنقل بدنه بخلاف الطائر ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلاً أجهدته وشق عليه بخلاف مشية الطيرعى الذى هو له فاقترضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجله وقرار يسرى اليمين ويمنى الرجلين ثم نقل الآخرين كذلك وهذا أسهل ما يكون من المشى وأخفه على الحيوان .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم ليهتياً ركوبها وتستقر الحولة عليها ثم خولف هذا فى الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله والأقباة تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل إن عقد الأقباة إنما أخذ من ظهور الإبل . وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقة ليمتناول المرعى من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه وليكون أيضاً طول عنقه موازناً للحمل على ظهره إذا استقل به كما ترى طول قصبه القبان حتى قيل إن القبان إنما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة .

فصل

ثم تأمل الحكمة فى كون فرج الدابة جعل بارزاً من ورائها ليمكن الفحل من ضرابها

به الرسل وإذا نظر إلى أمره وما تضمنه من الحكمة الباهرة ازداد إيماناً ويقيناً وتسليماً لا كمن حجب بالصنعة عن الصانع وبالكواكب عن مكوكبها فعمى بصره وغلظ عن الله حجابهُ ولو أعطى علمه حقه لكان من أقوى الناس إيماناً لأنه أطلع من حكمة الله وباهر آياته وعجائب صنعته الدالة عليه وعلى علمه وقدرته وحكمته على ما خفي عن غيره ولكن من حكمة الله أيضاً أن سلب كثيراً من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لدناءتها وخسستها وحقرتها وعدم أهليتها لمعرفته ومعركة أسمائه وصفاته وأسرار دينه وشرعه والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ماله نسبة إلى الخافي عنهم منه أبداً بل علم الأولين والآخرين منه كشجرة العصفور من البحر ومع هذا فليس ذلك بموجب للاعراض عنه واليأس منه بل يستدل العاقل بما ظهر له منه على ما وراءه .

فصل

ثم تأمل أولاً ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها فلا تحتاج إلى الحمل والتربية كما يحتاج إليه أولاد الإنس فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من التربية والملاطفة والرفق والآلات المنصلة والمنفصلة أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير كالذجاج والدراج والفتح يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة وما كان منها ضعيف النهوض كفرأخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعم في أفواه الفراخ من حواصلها فتخبأه في أعز مكان فيها ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ولا تزال بها كذلك حتى ينض الفرج ويستقل بنفسه وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائدة فإذا استقل بنفسه وأمكته الطيران لم يزل به الأبوان يعالجانها أتم معالجة وألطفها حتى يطير من وكره ويستترزق لنفسه ويأكل من حيث يأكلان وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط بل يطردانه عن الوكر ولا يدعانه وأقواتهما وبينهما بل يقولان له بلسان يفهمه اتخذ لك وكرأ وقوتا فلا وكر لك عندنا ولا قوت فسل المعطل أهذا كله عن إهمال ومن الذي ألهمها ذلك ومن الذي عطفها على الفراخ وهي صغار أحوج ما كانت إليها ثم سلب ذلك عنها إذا استغنت الفراخ رحمة بالأمهات تسمى في مصالحتها إذ لو دام لها ذلك لاضر بها وشغلها عن معاشها لا سيما مع كثرة ما يحتاج إليه أولادها من الغذاء فوضع فيها الرحمة والإيثار

مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله والحيوان البهيم لما لم يتهياً لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف لطاف مدجة ذوات برائن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله في أكلة اللحم من الحيوان وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها أظلالاً تقمها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى وبعضها حوافر ملبلة مقعرة كأخص القدم لتنتطق على الأرض وتهمياً للركوب والحولة ولم يخلق لها برائن ولا أنياباً لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلقه الحيوان الذي يأكل اللحم من البهائم كيف جعلت له أسنان حداد وبرائن شداد وأشداق مهرونة وأفواه واسعة وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد والأكل ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب كالكلاليب ولهذا حرم النبي ﷺ كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير لضرره وعدوانه وشره والمغتذى شبيهه بالغاذى فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدوانها وشرها ما يشابهها به فحرم على الأمة أكلها ولم يحرم عليهم الضبيع وإن كان ذا ناب فإنه ليس من السباع عند أحد من الأمم والتحریم إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب وأن يكون من السباع ولا يقال هذا ينتقض بالسميع إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبداً فصولات الله وسلامه على من أوتى جوامع الكلم فأوضح الأحكام وبين الحلال والحرام . فانظر حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرعه تجد مصدراً ذلك كله الحكمة البالغة التي لا تختل نظامها ولا ينخرم أبداً ولا تختل أصلاً ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا حكمته فيما أحكمه وشهدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة واحسان ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم وهم في ذلك درجات لا يحصيها إلا الله ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر وهم أكثر الأطباء الذين صرفوا أفسارهم إلى استخراج منافع النبات والحيوان وقواها وما تصاح له مفردة ومركبة وليس لهم نصيب في حكمة الأمر إلا كما للفقهاء من حكمة الخلق بل أقل من ذلك ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق والأمر بحسب استعداد وقوته فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا فاذا نظر إلى خلقه وما فيه من الحكم ازداد إيماناً ومعرفة وتصديقاً بما جاءت

والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة في خلقه وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك فكم لباريه وخالفه فيه من حكمة وآية من طعم لوحش وطيور ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الأرض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كيفياتها ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف اسمة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الاسماع والابصار ليتم تناولها لمصلحتها ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيرها إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مستخرة له فأعطيت من التمييز والادراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذلك له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان واظهر أيضاً فضيلة التمييز والاختصاص ، ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ولم يكن بطيئها لولا تسخيرها قال الله تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) أي مطيقين ضابطين وقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فنها ركوبهم ومنها يأكلون) فترى البعير على عظم خلقته يقوده النصب الصغير ذليلاً منقاداً ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ولفصله عضواً فسل المعطل من الذي ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده فانه لو كان يزاول من الأعمال والاحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصددهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصىها إلا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والامتعة والآلات والآواني والركوب والحرق والمنافع الكثيرة والجمال .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات من الإنسان وغيره فالإنسان لما خلق مهيئاً لمثل هذه الصناعات من البناء والحياطة والكتابة . وغيرها خلق له كف

ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحتهم .

فصل

ثم تأمل أحوال هذه العقاقير والأدوية التي يخرجها الله من الأرض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنفع فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة القائلة أو احتسبت وهذا يستخرج المرة السوداء وهذا يستخرج المرة الصفراء وهذا يحلل الأورام وهذا يسكن الطمجان والقلق وهذا يجلب النوم ويعيده إذا أعوزه الإنسان وهذا يخفف البدن إذا وجد الثقل وهذا يفرح القلب إذا تراكت عليه الغموم وهذا يحلو البلغم ويكشطه وهذا يحد البصر وهذا يطيب النكهة وهذا يسكن هيجان الباءة وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفئها وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الأدوية والأغذية وهذا يقاوم بكيفية كيفية غيره فيعتدلان فيعتدل المزاج بتناولهما وهذا يسكن العطش وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها وهذا يعطى اللون إشرافاً ونضارة وهذا يزيد في أجزاء البدن بالسمن وهذا ينقص منها وهذا يدبغ المعدة وهذا يحلوها ويغسلها إلى أضعاف ذلك مما لا يحصى العباد فسل المعطل من جعل هذه المنافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ومن أعطى كل منها خاصيته ومن هدى العباد بل الحيوان إلى تناول ما ينفع منه ترك ما يضر ومن فطن لها الناس والحيوان البهيم وبأى عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ما خلق له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق لولا انعام الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وهب أن الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فمن الذى فطن لها البهائم فى أشياء كثيرة منها ما لا يهتدى إليها الإنسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ فمن الذى جعله يقصد ذلك النبات دون غيره وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول إذا اعتل شيئاً من النبات فتعود صحته وقد ذكر الأطباء فى مبادئ الطب فى كتبهم من هذا عجائب فسل المعطل من ألهمها ذلك ومن أرشدها إليه ومن دله عليها أفيجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز عليم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته العقول وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بأنه الله الذى لا إله إلا هو الخالق البارئ المصور الذى لا تنبغى العبادة إلا له وإنه أو كان معه فى سمواته وأرضه إله سواه لفست السموات والأرض واختل نظام الملك فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . واعلمك أن تقول ماحكمة هذا النبات الميثوث فى الصحارى

كرما لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن لأن المسكر يتخذ منها والله أعلم (الوجه السادس)
من وجوه التشبيه أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تملها
الرياح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة
فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعه الرياح . السابع أن النخلة كلها منفعة لا يسقط
منها شيء . بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يحمل الأبنية والسقوف وغير ذلك
وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستتر به الفرج والخلل وخصوصا يتخذ منه المكاثر
والزنايل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها وكرها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس
وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها فلما
جاء الى الشوك الذى فى النخلة جعل بإزاءه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور فيكون
عليهم فى الشدة والغلظة بمنزلة الشوك والمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وإيناً أشداء
على الكفار رحماء بينهم) (الثامن) أنها كلما أطال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك
المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله (التاسع) إن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه
وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب . العاشر أنها
لا يتعطل نفعها بالسكينة أبداً بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر حتى لو تعطلت ثمارها
سنة لكان للناس فى سعفها وخصوصا وليفها وكرها منافع وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء
من خصال الخير قط إن أجذب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولاً
وشره مأمولاً . فى الترمذى مرفوعاً الى النبى صلى الله عليه وسلم خيركم من يرجى خيره
ويؤمن شره وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً
للحكمة فى خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه فتأمل خلقه الجذع الذى لها كيف هو تجده
كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى معترضة كاللحمة كمنحو المنسوج باليد وذلك
للتشد وتصلب فلا تقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ولينها فى
السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا
تأملته شبه النسيج ولا تراه مصمتاً كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه داخل بعضاً طويلاً وعرضاً
كمتداخل أجزاء اللحم بعضها فى بعض فان ذلك أمين له وأهياً لما يراد منه فانه لو كان مصمتاً
كالحجارة لم يمكن أن يستعمل فى الآلات والأبواب والأواني والامتعة والأسرة والتوابيت
وما أشبهها ومن بديع الحكمة فى الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لو لا
ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والامتعة وتمخر البحر مقبلة
ومدبرة ولو لا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والامتعة الكثيرة

وفوائده وقال في أثناء كلامه ويكفي في تفضيله انا نشترى بنواه العنب فكيف يفضل عليه
ثم يكون نواه ثمنه له وقال آخر من الجماعة قد فصل النبي ﷺ النزاع في هذه المسئلة وشفى
فيها بنهميه عن تسمية شجر العنب كرماً وقال الكرم قلب المؤمن فأي دليل أبين من هذا
وأخذوا يبالغون في تقرير ذلك . فقلت للأول ما ذكرته من كون نوى التمر ثمناً للعنب
فليس بدليل فان هذا له أسباب . أحدها حاجتكم إلى النوى للعلف فيرغب صاحب العنب فيه
لعلف ناضجه وحولته . الثاني ان نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع . الثالث ان الاعناب
عندكم قليلة جداً والتمر أكثر شيء عندكم فيكثر نواه فيشتري به الشيء اليسير من العنب وأما
في بلاد فيها سلطان العنب فلا يشتري بالنوى منه شيء ولا قيمة لنوى التمر فيها . وقلت لمن
احتج بالحديث هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة
منافعه وخيره فانه يؤكل رطباً ويابساً وحلوا وحامضاً وتجنّى منه أنواع الأشربة والحلوى
والدبس وغير ذلك فسموه كرماً لكثرة خيره فأخبرهم النبي ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه
بهذه التسمية لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة والرحمة واللين والعدل والإحسان
والنصح وسائر أنواع البر والخير التي وضعها الله في قلب المؤمن فهو أحق بأن يسمى كرماً
من شجر العنب ولم يرد النبي ﷺ إبطال ما في شجر العنب من المنافع والفوائد وان تسميته
كرماً كذب وانها لافضة لامعنى تحتها كتسمية الجاهل عالماً والفاجر برأً والبخيل سخياً ألا ترى
أنه لم ينف فوائد شجر العنب وانما أخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائده وأعظم منافعه منها .
هذا الكلام أوقريب منه جرى في ذلك المجلس وأنت إذا تدبرت قول النبي ﷺ الكرم قلب
المؤمن وجدته مطابقاً لقوله في النخلة مثلاً مثل المسلم فشمه النخلة بالمسلم في حديث ابن عمر
وشبه المسلم بالكرم في الحديث الآخر ونهاهم أن يخصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب
المؤمن وقد قال بعض الناس في هذا معنى آخر وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرماً لأنه
يقتنى منه أم الخبائث فيسكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها ويحضهم عليها من باب سد
الذرائع في الألفاظ وهذا لا بأس به لولا أن قوله فان الكرم قلب المؤمن كالتعليل لهذا النهي
والإشارة إلى أنه أولى بهذه التسمية من شجر العنب ورسول الله ﷺ أعلم بما أراد من
كلامه فالذي قصده هو الحق . وبالجملة فالله سبحانه عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات
التخيل والاعتاب فساقتها فيما عدده عليهم من نعمه والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر لإنشاء
الله فان أم الخبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل كما قال تعالى (ومن ثمرات النخيل والاعتاب
تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا) وقال أنس نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الاعتاب
شيء وإنما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر فلو كان نهميه ﷺ عن تسمية شجر العنب

فصل

ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الإلهية موافات أصناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقضى لها فتوافيهم كموافاة الماء للظمآن فتلقاها الطبيعة بانسراح واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف انما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهية واستشقا لا بوروده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف أو ما في خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ. ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته مملولا محلول الطعم ولا يظن أن هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخل بها الحكيم الخبير .

فصل

ثم تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك فانه لما قدر أن يكون فيه اناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان واثانه ولذلك اشد شهيهما من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبي ﷺ وذلك من وجوه كثيرة (أحدها) ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (الثاني) طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره (الثالث) دوام لباسها وزيتها فلا يستقط عنها صيفاً ولا شتاء كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزيتها حتى يوافي ربه تعالى (الرابع) سهولة تناول ثمرتها وتيسره أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقتها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا بالثيم (الخامس) ان ثمرتها من أنفع ثمار العالم فانه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويأبسة يكون قوتا وأدما وفاكهة ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به وبالغلب فوق كل الثمار . وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلدأ فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين . وفصل النزاع في ذلك أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعاً وأجدي على أهله كالمدينة والحجاز والعراق والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعاً وأجدي على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل . وحضرت مرة في مجلس بمسكة فيه من أكابر البلد فحرت هذه المسئلة وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب في تفضيل النخل

تكوين النطف فتعمل المادة في أجوافها عملها وتميئها للعلق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء في أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق ما تتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبان للناس حملها علم حينئذ كرمها وطيبها من لومها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة في بطون أمهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدلت اليك أفنانها كأنما تناولك ثمرة درها فإذا قابلتها رأيت الأفنان كأنها تلقاك بأولادها وتحريك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حتى كأن منا ولا يناولك إياهم بيده ولا سيما قطوف جنات النعيم الدانية التي يتناولها المؤمن قائماً وقاعداً ومضطجعاً وكذلك ترى الرياحين كأنها تحميك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا إكراماً لك وعناية بأمرك وتخصيصاً لك وتفضيلاً على غيرك من الحيوانات أفيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها فكيف إذا استعنت بها على معاصيه وصرفتها في مساخطه فكيف إذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) بخدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها . ما هو ولا شيء خلق ولماذا هيء وأى أمر طلب منه على هذه النعم كما قال تعالى (واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة لأن ذلك لا يزيد إلا محبة لله وحمداً وشكراً وطاعة وشهوداً تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه والله در القائل :

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فارباً بنفسك أن ترعى مع الحمل

فصل

ثم تأمل الحكمة في شجرة اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة أن يكون حمله ثماراً كبيراً جعل نباته منبسطاً على الأرض إذ لو انتصب قائماً كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل ادراكها وانتهائها إلى غاياتها فاقترضت حكمة مبدعها وخالقها أن بسطه ومدّه على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فتري العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطاً على الأرض وثماره مبعثرة حواليه كأنها حيوان قد أكتنفها أجراؤها فهي ترضعهم ولما كان شجر اللوبيا والبادنجان والباقلاء وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته أنبته الله منتصباً قائماً على ساقه إذ لا يلقي من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه .

الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم أنه لف ذلك الحب في تلك الرمانة بتلك اللفائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صواله وحفظاً وبمسكاله باذن الله وقدرته فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولا يمكننا ولا غيرنا استقصاء ذلك ولو طالت الأيام واتسع الفكر ولكن هذا متبہ على ما وراءه والليبي يكتفي ببعض ذلك . وأما من غلبت عليه الشقاوة (وكأين من آية في السموات والأرض يبرون عليها وهم عنها معرضون) غافلون عن موضع الدلالة فيها .

فصل

ثم تأمل هذا الربيع والنماء الذى وضعه الله فى الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعائة حبة ولو أنبتت الحبة حبة واحدة مثلها لا يكون فى الغلة متسع لما يرد فى الأرض من الحب وما يكفى الناس ويقوت الزارع إلى إدراك زرعہ فصار الزرع بربع هذا الربيع ليقى بما يحتاج اليه للقوت والزراعة وكذلك ثمار الأشجار والنخيل وكذلك ما يخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه فى ما ربهم خلفاً فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لأعطى أهله ما يبنونه فيهم وما يقيمهم إلى استواء الزرع فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليمقت الخراج الناس ويدخرون منه ما يزرعون .

فصل

ثم تأمل الحكمة فى الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا فى قشور على رؤسها أمثال الأسنة فلا يتمكن جند الطير من افسادها والعبث فيها فإنه لو صادف الحب بارزا لا صوان عليه ولا وقاية تحول دونه لتمكن منه كل التمكن فافسد وعاب وعاث وأكب عليه أكلا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للإنسان فإنه أولى به لأنه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذى يحتاج اليه أضعاف حاجة الطير .

فصل

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى هذه الأشجار كيف تراها فى كل عام لها حمل ووضع فهى دائما فى حمل وولادة فإذا أذن لها ربها فى الحمل احتبست الحرارة الطبيعية فى داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها فى الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ

على الآخر وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله (يا جبال أوبي معه) وتارة يخبر عنها بالتسليم
الخاص بوقت دون وقت كالعشي والاشراق أفترى دلالتها على صانعها انما يكون في هذين
الوقتين ؟ وبالجمله فبطلان هذا القول أظهر لذوى البصائر من أن يطلبوا دليلا على بطلانه
والحمد لله .

فصل

ثم تأمل حكمته سبحانه في إبداع العجم والنوى في جوف الثمرة وما في ذلك من الحكم
والفوائد التي منها أنه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها
ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولاسرع اليها الفساد فهو بمنزلة العظم والثمره بمنزلة اللحم الذي
يكسوه الله عز وجل العظام . ومنها أن في ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة
أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يغرس فيعود مثلاً . ومنها
ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والأصبغ
وضروب أخر من المصالح التي يتعلمها الناس وما خفي عليهم منها أكثر فتأمل الحكمة في إخراجها
سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لذيذا شهييا يتفكر به ابن آدم ثم تأمل هذه الحكمة
البديعة في أن جعل للشجرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غلافا يحفظها وغشاء
يوارىها كالرمان والجوز واللوز ونحوه وأما مالا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه
غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فاذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى
للشمس والهواء كيطلع النخل وغيره .

فصل

ثم تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فانك ترى داخل
الرمانة كما مثال القلال شحما متراكما في نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا
ومنضودا نضدا لا يمكن الأيدي أن تنضده وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل
قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج وأطفه وأدقه على غير منوال
الاموال (كن فيكون) ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه أحسن
ضم فتأمل هذه الحكمة البديعة في الشحم المودع فيها فان الحب لا يمد بعضه بعضاً إذ لا مد
بعضه بعضاً لا يختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه
أنك ترى أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن
ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق أختها بل يجرى الغذاء في ذلك
العرق مجرى واحدا ثم ينقسم منه في مجارى الحبوب كلها فينبعث منه في كل مجرى غذاء تلك

الممتدة فيها المبشوة فيها ما يهر الناظر . فمنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسيجاً دقيقاً معجباً لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل ولا احتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك ما يملأ الأرض سبهاً وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ان هي إلا ارادته النافذة في كل شيء . وقدرته التي لا يمتنع منها شيء . (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فتأمل الحكمة في تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبشوة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه وتأمل ما في العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومنايتها لئلا تتمزق وتضمحل فهي بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق .

فصل

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجر وسترأ ولباساً للثمرة ووقاية لها من الآفات التي تمتنع كإياها . ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى إذا طفت تلك الجرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسب لباساً جديداً أحسن منه فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا يخرج منها ورقة إلا بإذنه ولا تسقط إلا بعلمه ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمراً آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى (والنجم والشجر يسجدان) فالنجم ما ليس له ساق من النبات والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) ولعلك أن تكون ممن غلط حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهاً قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر . وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحاً وسجوداً وصلاةً وتأويلاً وهبوطاً من خشيته كما ذكر تعالى ذلك في كتابه فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة كقوله تعالى (والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالة عليه وسمى تلك الدلالة صلاةً وتسبيحاً وفرق بينهما وعطف أحدهما

فهل كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الأصباغ الفاتقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر العجيبة فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وإبرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجارى الدقاق. فمن الذى تولى ذلك كله ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فان الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الترى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه في مجارى وطرق قد أحكمت غاية الأحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتاجه فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيد على قدر حاجته. فسل الجاحد من أعطاها هذا ومن هداها إليه ووضعها فيها فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة أو حيلة أو مزاولة؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته كما قيل :

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يحجده الجاحد
ولله في كل تحريك وتسكينة أبدأ شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فصل

ثم تأمل إذا نصبت خيمة أو فسطاطاً كيف تمده من كل جانب بالأطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعرج. هكذا تجدد النبات والشجر له عروق تمتد في الأرض منتشرة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت أعاليه امتدت عروقه وأطنابه من أسفل في الجهات. ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف. وتأمل سبق الخلق الإلهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والقساطيط من خلقه للشجر والنبات لأن عروقه أطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها القساطيط ثم يحاكى بها الشجرة.

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق الورق فانك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق (١٥ - مفتاح ١)

ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقي إلا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها فصاعده سبحانه إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية من اللطف والحكمة التي لا اقتراح بجمع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض.

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان يتابعه عليها بعد ذلك يضرها أفلح عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو والغيم يعتقان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساد فلو توالى الأمطار ، لأهلك ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضراوات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والانهار والأودية وعظم الضرر واحتدم الهواء فبئس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال فاقبضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح .

فصل

ثم تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة فانها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفات المصالح التي ربت على تلاحقها وتتابعها فإن كل فصل وأوان يقتضي من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل في فصله موافق المصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه . ثم أنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع أخر من العصف والخشب والورق والنور والعسف والكرب وغيرها من منافع الغبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الابنية والسفن والرحال والأواني وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذي يشوق الناظرين وحسن مرأى للشجر وخلقتها البديعة المشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف . ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الخطب ثم الورق الأخضر ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعومها وورائحها ومنافعها وما يراود منها ثم تأمل أين كانت مستودعة في تلك الخشب وهانيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم

وبقلوبه سبحانه أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .

فصل

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضائق عن مساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم . فان قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة . فاعلم أن فيها معاش مالا يحصىه إلا الله من الوحوش والدواب وعليها أرزاقهم وفيها مطردهم ومنزلهم كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بئداء سملق صارت قصوراً وجناناً ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها لسكان أهلها كالمحصورين والمحجوسين في أماكنهم لا يجدون عنها انتقالات إذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطرم إلى النقلة منها وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه في الأودية والانهار لضاق عن حاجة الناس اليه وغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان اليه من الطير والوحوش والسباع فاقتضت الحكمة ان كان بهذه الكثرة والسعة في كل وقت وأما النار فقد تقدم أن الحكمة اقتضت كونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهي وان لم تكن ميثوثة في كل مكان فانها عتيدة حاصلة متى احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج اليه منها غير أنها مودعة في أجسام جعلت معادن لها للحكمة التي تقدمت .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلوها ونظراها وآكامها ومنخفضها ومرتعها ولو كان ربه تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر وفي ذلك فساد قاقضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشئ سبحانه السحاب وهي روايا الأرض ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلحق الفحل الانثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الامطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب
شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نديج

وفي الموطأ مرفوعا وهو أحد الاحاديث الاربعة المنطوعة إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشامت فتلک عين غديقة قاله سبحانه ينشئ الماء في السحاب انشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التي

كأسعف والفخار وكانت تعطل المصلحة التي وضعها لاجلها وكانت كثرتها جداً سبب تعطل الانتفاع بهما فإنه لا يبقى لها قيمة ويبطل كونهما قيمياً لفنائس الأموال والمعاملات وأزاق المقاومة ولم يتسخر بعض الناس لبعض إذ يصير الكل أبواب ذهب وفضة فلو أغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتثالها في الصنائع التي لا قوام للعالم إلا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الأحمر الذي لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما في العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصلح عبادته . وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الأنباري قال أخبرني بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا في طلبها إلى بعض نواحي الجبل فانتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصلياً بماء غزير لا يدرك ولا حيلة في عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما همشوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين وهذا أحد ما يدل على بطلان صناعة الكيمياء وانها عند التحقيق زغل وصبغة لا غير وقد ذكرنا بطلانها وبيننا فسادها من أربعين وجهاً في رسالة مفردة والمقصود أن حكمة الله تعالى اقتضت عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحذره الناس من الامتعة كان نفيساً عزيزاً مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فإذا فشى وكثر في أيدي الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه ومن هذا قول القائل نقاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه .

فصل

ونأمل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق في البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده في أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد فتأمل حكمة ربك في أن يسخر له الرياح فإذا تصاعد إلى الجو حالته سبحانه أو ضباباً فأذهبت عن العالم شره وأذاه فسل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك

عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فينذرهما قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتد كدكها من جلال ربها وعظمتها وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لحشمت ولتصدعت من خشية الله فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلتين ولا تخشع ولا تغيث فليس بمستذكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها لئلا تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه فمن لم يلن لله فى هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليمتنع قليلا فان أمامه الملايين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم

فصل

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن يجعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل ليمتفع بكل ذلك فى وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالآم التى تحمل فى بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ماخرج منها وجعلها سبحانه كفائاً فلاحياء ماداموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم فى بطنها فكانت كفائاً لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفى بطنها أمواتاً فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أنقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو النخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتنى وتخرج كنوزها باذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنينا بما عملوا على ظهرها من خير وشر .

فصل

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل فى تجاويها وتحدث فيها الأبخرة وتحقق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها فى الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض أن ربكم يستعيبكم وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم وقال إئن عادت لا أسألكم فيها .

فصل

(ثم تأمل حكمة الله عز وجل) فى عزة هذين النقيدين الذهب والفضة وقصور خيرة العالم عما حاولوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله اياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم فى ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكثوا أن يصنعوا مثل ماخلق الله من ذلك لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة فى الناس حتى صاروا

ولو جعلت مستديرة شكل السكرة لم يتم كنفوا من صعودها ولما حصل لهم بها الارتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها واليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذى نصب عليه ولقد دعانا الله سبحانه فى كتابه إلى النظر فيها وفى كيفية خلقها فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت) تخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدره باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووجدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتحشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخلقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأسفقت من حملها ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كلمته ونجيه : ومنها الجبل الذى تجلى له ربه فساخ وتذكرك . ومنها الجبل الذى حجب الله رسوله وأصحابه الية وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه . ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا فى ذيل أحدهما والمروة فى ذيل الآخر وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم . ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة مغفونها وحاجة مقضية وكرمة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاؤا من كل فج عميق وقوف الربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته شعثاً غبراً حاسرين عن رؤسهم يستقبلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدون منهم ثم يباهى بهم الملائكة فله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالاته وهو فى غاره فهو الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم فانه ليقتخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالاتها مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهى تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه فأحبه وحبيه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول فى الأرض بينهم .

واذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلانى وجبل بنى فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وانما لتعلم أن لها موعداً ويوماً تنسف فيها نفساً وتصير كالعين من هول وعظمه فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له وكانت أم الدرداء رضى الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها أسمعت الجبال ما وعدا ربها فيقال ما أسمعتا فنقول (ويسألونك

فيها ليدوب أولا فأولا فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والأودية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل فلول الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فأنحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك مامرت عليه فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه ولا دفعه لاذيته (ومن منافعها) ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها . ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزربرد والزمرد وأصناف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية . ومن منافعها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها مامرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن . ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاماً فقال (ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام) فالجوارى هي السفن والأعلام الجبال واحدها علم قالت الخنساء .

وأن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . ومن منافعها أيضاً ما ينبت فيها من العقاقير والأودية التي لا تكون في السهول والرمال كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم . ومن منافعها أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن . ومن منافعها ما ذكره الله تعالى في كتابه أن جعلها للأرض أوتادا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن وأعظم بها من منفعة وحكمة هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فانها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسرت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمسكن ولمأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والاكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجببت السيول .

ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترجى من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف يصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله (وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم) وقوله تعالى (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً) وقوله (الله الذى جعل لكم الأرض مهداً) وفى القراءة الأخرى مهادا . وفى جامع الترمذى وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال لما خلق الله الأرض جعلت تميم تخلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة يمينه يخفيها عن شماله ثم تأمل الحكمة البالغة فى ليونة الأرض مع يبسها فانها لو أفرطت فى اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمسكنا من الارتفاع بها ولو أفرطت فى اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها فمقتضت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتبها عليها جميع المصالح .

فصل

ثم تأمل تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تتحد المياه على وجه الأرض فتسقيها وتروىها ثم تفيض فتصب فى البحر فكما أن الباني إذا رفع سطحاً رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبا الماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فافسده كذلك جعل مهب الشمال فى كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقى الماء واقفا على وجه الأرض فنفع الناس من العمل والارتفاع وقطع الطرق والمسالك وأضر بالخلق أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذى أنقن كل شيء .

فصل

ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها وفيها من المنافع مالا يحصى إلا خالقها وناصرها وفى حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبى ﷺ بالذى نصب الجبال وأودع فيها المنافع الله أمرك بسكنا وكذا قال اللهم نعم ، فمن منافعها أن الثلج يستقط عليها فيبقى فى قلوبها حصلا اشرب الناس إلى حين نفاذه وجعل

والعذاب وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر فسخرت له الميثرة أولاً فتشيره بين السماء والأرض ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على منها كالجل الذي يحمل الراوية ثم سخرت له المؤلف فزولف بين كسفه وقطعه ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقاً واحداً ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلحق الأنثى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاماً لأماء فيه ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ مائه هنالك ثم سخرت له بعد اعصاره المفرقة التي تبشبه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعاً ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فيجعله قطراً وكذلك الرياح التي تلحق الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيمًا وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد اضرامها وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها . وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح فانه لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنقذ العالم وفسد ألا ترى إذا ركبت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لآثلب النفوس وأسقم الحيوان وأمراض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو فسيحجان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال النبي ﷺ في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة . وتنبه للطيفة في هذا الهواء وهي إن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله واسكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم أو قلعه عنه فسيبه قرع أو قلع فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبق في الهواء كما يبق الكتاب في القرطاس لامتلا العالم منه وأعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المعلوم بكتابة فان ما يلقى من الكلام في الهواء اضعاف ما يودع في القرطاس فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن يجعل هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يحى بإذن ربه فيمودجديداً نقياً لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت .

فصل

ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها وافقه ساكنة لتسكن مهادا ومستقرا للحيوان والنبات والامعة ويتمكن الحيوان والناس من السعى عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوهم والتمسك من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكيفة لم يستطيعوا على ظهورها قرارا ولا هدوا ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمسكنهم عليها صناعة

والسلامة من الضرر قال تعالى (أفرايتم النار التي تورون) إلى قوله (فسبح باسم ربك العظيم) فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته وشفافنا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فاستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعاً للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هي الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفئ والإنس وغير ذلك .

فصل

ثم تأمل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلاحاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقد لها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ونزبه من مصالح النار على خلقه صغيرة القدر عظمة النفع وهي هذا المصباح الذي يتخذ الناس فيقتضون به من حوائجهم ماشاءوا من ليهم ولو هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفاً في ظلمة الليل الداجي وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضئ ما حوله كله فترى به القريب والبعيد ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفذ ولا يضعف وأما منافع النار في انضاج الأطعمة والأدوية وتخفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولاً المادة تمسكها لذهبت صاعدة كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً فمن أعطى هذا القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم .

فصل

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتغذى به ظاهراً وباطناً وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع فتأتى العبد الرائحة من حيث تهب الرياح وكذلك تأتية الأصوات وهو أيضاً الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات وتأمل منفعة الرياح وما يجري له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة

فصل

ثم تأمل الممسك للسموات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيهما أفترى من الممسك لذلك ومن القيم بأمره ومن المقيم له فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس فجعل عليهم الليل سرمدا من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها فن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم بالليل ولو أن السماء والأرض زالتا فن ذا الذي كان يمسكها من بعده .

فصل

ثم تأمل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهم وفكر في دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ نهايته ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلها وبالنبات كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط في البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك . فان قلت هذا التدريج والمهلة إنما كان لإبطاء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها . قيل لك فما السبب في ذلك الانخفاض والارتفاع فان قلت السبب في ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها قيل لك فما السبب في بعد المسافة ولا تزال المسألة متوجهة عليك كما عينت سببا حتى تفضي بك إلى أحد أمرين إما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك اتفاق من غير مدبر ولا صانع وإما الاعتراف برب العالمين والإقرار بقيوم السموات والأرضين والدخول في زمرة أولى العقل من العالمين وإن تجدد بين القسمين واسطة أبدأ فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدین فانها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين وإذا طلع فجر الهدى وأشرقت النبوة ففساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين والله هم نوره ولو كره الكافرون .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من السكون والظهور فانها لو كانت ظاهرة أبدأ كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ولو كانت كامنة لا تظهر أبدأ لفات المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم أن يجعلها مخزونة في الأجسام يخرجها ويقيها الرجل عند حاجته إليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها فاذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فاسقط المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع

منها هذا حقيقة فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحالة الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده لم يتفكر فيه فإذا عرف هذا فالتفكير يثقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريد فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إشارته وما ينبغي اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكير وثمرته فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره مادام عاقلًا لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة (وإذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عى القلب ويتذكر بها من غفلته فان المضاد للعلم إما عى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر . والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله ولو ذهبنا نتبع ذلك لنفذ الزمان ولم نخط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ولا يكن مالا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكير في آيات الله وبجانب صنعه والاتقال منها إلى تعلق القلب واهمة به دون شيء من مخلوقاته فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الأصلين إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار

فصل

فصل المعطل الجاحد ما نقول في دولا ب دائر على نهر قد أحكمت آلالته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خلا في مادته ولا في صورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها وفي تلك الحديقة من يلم شعنها ويحسن مراعاتها وتعهدا والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ثم يقسم قيمتها عند الجناد على سائر الخراج بحسب حاجاتهم وضروراتهم فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام أترى هذا اتفاقاً بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل اتفق وجود ذلك الدولا ب والحديقة وكل ذلك اتفاقاً من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان وما الذى يفتيك به وما الذى يرشدك إليه ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوباً عمياً لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق أعيناً لا أبصار لها والشمس والقمر والنجوم مستخرات بأمره وهى لا تراها فما ذنبها أن أنكرتها وجحدتها فهى تقول في ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئاً ولقد أحسن القائل وهبى قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء

توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد وهو الماء الذي أنزله من السماء فاخرج به كلما ذكره من الأرض وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة فهذا نوع واحد من آياته . وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل عنه إلى نظر القلب في حكمه ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقتها وكيفياتها فإن إظلام الجو وغروب الشمس والليل الذي يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عسكر الظلام وينشر الحيوان وينكشف ذلك اللباس بجملة آية أخرى ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخرى وفي النجوم آيات أخرى كما قدمناه هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدته الله بسببها آيات أخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم تما قبلها وأدلوأ كبروالأولى كاللآب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطأها حقهأ من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمل . فأما قوله في الآية الثالثة (ان في ذلك لآية لقوم يذكرون) فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيد الأولى سواء فإن ما ذرأ في الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله في محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى في سورة ق (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي أنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فالتبصرة العقل والتذكرة التذكر والفكر باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وآخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل . فإن قلت فما الفرق بين التذكر والتفكير فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكير والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام في التفكير في هذا الوجه أعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه قال الحسن ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار . فاعلم أن التفكير طلب القلب ما ليس بمأصل من العلوم من أمر هو مأصل

والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . فان قلت فما الحكمة في كون بعض النجوم راتباً وبعضها منتقلاً . قيل إنما لو كانت كلها راتبة أبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها لأنه إنما يقاس مسير المنتقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائر في الأرض بالمنازل التي يمرون عليها فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها ولتشبث المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها ومبدعها مختاراً لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته

فصل

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقره ونجومه وبروجه وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به فقال لهم (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعمله وتقر بوجوده فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر . يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار أن في ذلك آيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات) الآية . وقال تعالى (أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات للذين آمنوا وفي خلقكم وما يبث من دابة) إلى قوله (وآياته يؤمنون) وقال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها وأتى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وبث فيها من كل دابة إلى قوله في ضلال مبين) . وقال تعالى (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين والأنعام خلقها لكم فيها دفاً ومنافع ومنها تأكلون) إلى قوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وتأمل كيف وخذ سبحانه الآية من قوله (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب إلى آخرها) وختمها بأصحاب الفكرة فأما

يمكننا رؤيتها مع البعد المفترط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت
ثم تأمل تسخيرها منقاداً بأمر ربها تبارك وتعالى جارية على سنن واحد اقتضت حكمته
وعلمه أن لا يخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثواب والسيارة والكبار والصغار
والمتوسط والابيض الازهر والابيض الاحمر ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه وجعل
منطقة البروج قسمين مرتفعة ومنخفضة وقدر سيرها تقديرأ واحداً ونزل الشمس والقمر
والسيارات منها منازلها فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر ومنها ما يقطعها في عام ومنها
ما يقطعها في عدة أعوام كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسبائاً لما يحدثه سبحانه
في هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها كهم فهم بما يكون مع طلوع
الربا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التي تقارنها وكذلك غيرها من المنازل
والسيارات ثم تأمل جعله سبحانه نبات نعش وما قرب منها ظاهرة لا تغيب لقربها من المركز
ولما في ذلك من الحكمة الالهية وانها بمنزلة الاعلام التي يهتدى بها الناس في الطرق المجهولة في
البر والبحر فهم ينظرون اليها وإلى الجدى والفرقدين كل وقت أرادوا فيهتدون بها
حيث شاؤوا .

فصل

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع
رفقته ولا يفرد عنهم سيره أبداً بل لا يسيرون إلا جميعاً وبعضها يسير سيراً مطلقاً غير مقيد
برفيق ولا صاحب بل إذا اتفق له مصاحبته في منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى فبينما
تراه ورفيقه وقرينه إذ رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط وهذه السيارة لها في
سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف سير عام يسير بها فلـكها وسير خاص تسير هي في فلـكها
كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحي ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين فلانملة في ذلك حركتان
مختلفتان إلى جهتين متباينتين إحداهما بنفسها والأخرى مكرهة عليها تبعاً للرحى تجذبها إلى
غير جهة مقصدها وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ثم يسير فلـكها وبمنزلاتها
إلى جهة الغرب فسل الزنادقة والممظلة أى طبيعة اقتضت هذا وأى فلـك أوجهه وهلا كانت
كلها راتبه أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد وهل
هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ
المصور الذى ليس كمثل شىء أحسن كل شىء خلقه وأنقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذى
خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة
للأفكار إذا سافرت فيها اليه وأنه خلق مسخر مر بوب مدبر (ان ربكم الله الذى خلق السموات

أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبدسه وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبدسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعد لها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفيين وربيعيين .

فصل

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدو الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لاضوء فيه أصلا فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو أشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحرق وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع لجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوءه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره العزيز العليم فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحسانا فسيبحان من أتقن ماصنع وأحسن كل شيء خلقه .

فصل

ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يهتدى بها في طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث

الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره فإذا انتقل اليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ماهو أشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول حكمة بالغة وآية باهرة وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

فصل

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة وكيف جعل لهما بروجاً ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة وتماثل مصالح العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجازات والمعاملات والعدد وغير ذلك فلولاً حلولك الشمس والقمر في تلك المنازل وتعلمها فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .

فصل

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه فانها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر وكان يكون الليل دائماً سرمداً على من لم تطلع عليهم والنهار سرمداً على من هي طاعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قبلها من الأفق الغربي ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتتظم مصالحهم .

فصل

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم واللييلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفانت المصلحة واختلقت الحكمة بذلك بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة وجعلاً يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) وفيه قولان أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار والقول الثاني

سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يا تيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقلوه أفلا تسمعون راجع إلى قوله قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يا تيكم به وقوله أفلا تبصرون راجع إلى قوله قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة وقال تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقهراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) فذكر تعالى خلق الليل والنهار وإنهما خلفه أى يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ولو اجتمع معه لفانت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه بل يقش أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه ثم يجيء الآخر عقيبته فيطلبه حثيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه .

فصل

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفانت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفاً كله لفانت منافع مصالح الشتاء ولو كان شتاء لفانت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتولد مواد الثمار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكشف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والتلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حملته حرارة الصيف من الأبدان وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل وفي الصيف يحد الهواء ويسخن جداً فتفزع الثمار وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد العيون والآبار ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فاذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم وجعله الله بحكمته برزخاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا يتثقل الحيوان وهلة واحدة من

كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدرح صحيح أو يأتوا بأحسن منهما ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر وسنفرد إن شاء الله كتابا مستقلا لادلة التوحيد .

فصل

فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هي عمسوكة بقدره الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بادمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجابة خضره بماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه اضعاف ذلك .

فصل

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم وكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ثم تأمل الحكمة في غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتاً بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل ﴿ قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار

كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه) فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وإدراكه يقال أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والخوصة إلى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهى آيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعموا فينظروا إليها ثم تلى (انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه) ولو أردنا نستوعب مافي آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأن الله الذي لا اله الا هو الذي ليس كمثل شيء وانه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا اللطيف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ولكن مالا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك وهذا حين الشروع في الفصول .

فصل

تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكال علمه وكال حكمته وكال لطفه فانك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلاته ومصلحته وكل ما يحتاج اليه فالسما سقفه المرفوع عليه والأرض مهدا وبساط وفراش ومستقر للساكن والشمس والقمر سرجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمتقل في طرق هذه الدار والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة للمياة كل شيء منها شأنه الذي يصلح له وضروب النبات ميبأ لما ربه وصنوف الحيوان مصروقة لمصلحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والامتنعة والآلات ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مامو مستعد لإهلاكه وأذاه فلو لا ما سلبت عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم وجعل الانسان كالملك المخول في ذلك المحكم فيه المنتصرف بفعله وأمره ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الاله واحد لا اله الا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ولانه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال في أوائل العقول وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا ذهب

التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره .
 بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لاجرائها
 فاذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء قال الله تعالى (ومن آياته
 لجوارى في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك
 لآيات لـكل صبار شكور) وقال الله تعالى (الله الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً
 وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله واعلم بكم
 تشكرون) فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيراً
 وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه وقال الله تعالى
 (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) .

فصل

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه
 وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشى على بطنه ومنه الماشى على رجليه ومنه الماشى على أربع ومنه
 ما جعل سلاحه في رجليه وهو ذو الخالب ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسروالرخم والغراب
 ومنه ما سلاحه الأسنان ومنه ما سلاحه الصياصى وهى القرون يدافع بها عن نفسه من يروم
 أخذه ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فإن سلاحه قوته
 ومنه ما سلاحه في ذرقه وهو نوع من الطير إذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه
 ونحن نذكر هنا فصولاً ممتورة من هذا الباب مختصرة وإن تضمنت بعض التكرار وترك
 الترتيب في هذا المقام الذى هو من أهم فصول الكتاب بل هو لب هذا القسم الأول ولهذا
 يكرر في القرآن ذكر آياته ويعيدها ويبيدها ويأمر عباده بالنظر فيها مرة بعد أخرى فهو
 من أجل مقاصد القرآن قال الله تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وقال تعالى
 (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار) وقال تعالى
 (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت
 وإلى الأرض كيف سطحت) وقال الله تعالى (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض
 وما خلق الله من شيء) وقال تعالى (إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت
 ويخرج الميت من الحى ذاكم الله فأتى توفىكون فائق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس
 والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات
 البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات

ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهذا أيضاً من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ولا يبصرها لمن هو واقف في الماء إلى خلقه وهو يستغيث من العطش وينسكرو وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل .

فصل

ومن آياته وعجائب مضموعاته البحار المكتشفة لأقطار الأرض التي هي خليجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيتته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طمع الماء ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وإن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية التي اقتضت ذلك لعيش الحيوان الأرضي في الأرض وهذا حق ولا كنهه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيتته وعلمه وحكمته وصفات كماله ولا يحصى عنه . وفي مسند الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم . وهذا أحد الأقوال في قوله عز وجل (والبحر المسجور) أنه المحبوس حكاية ابن عطية وغيره . قالوا ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها حتى أن فيها حيواناً أمثال الجبال لا يقوم له شيء وحتى أن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها فيظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يمد لها نظير في البر أصلاً هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فتري اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها وهي الصدفة تكسها وتحفظها ومنه اللؤلؤ المكشون وهو الذي في صدفة لم تمسسه الأيدي وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس

إليهما وهذا يهيج الدم وهذا يسكنه وهذا ينوم وهذا يمنع النوم وهذا يفرح وهذا يحلب الغم إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تسكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الأحاطة بها وتفصيلها . وانظر إلى مجارى الماء فى تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديقك كيف يقوى قسره واجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف فى تلك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتدق إلى غاية لا ينالها البصر . ثم انظر إلى تسكون حمل الشجرة ونقلته من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغييب عن الأبصار ترى العجب العجيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين بينما تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها إذ كساها ربها وخالفها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة وكساها من الورق كسوة هي أثبت من الأولى ثم أطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها فى تلك العروق والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبان أمه ثم رباه ونماها شيئا فشيئا حتى استوت وكملت وتناهى ادراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء . هذا وكلم الله من آية فى كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه تفنى الأعمار دون الأحاطة بها وبجميع تفاصيلها .

فصل

ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما فى القرآن ويبيده كقوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار) وقوله (وهو الذى جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا) وقوله عز وجل (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) وقوله عز وجل (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) وهذا كثير فى القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتهما من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطيور إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعى والتعب حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معاشها وتصرفها جاء فائق الصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره .

المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد (ومن آيته السحاب المستخر بين السماء والأرض) كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسيفا ثم يوالف بينه ويضم بعضه إلى بعض ثم تلقحه الريح وهى التى سماها سبحانه لواقح ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه فإذا علاها واستوى عليها أهراق ماء عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو فى الجوف تذروه وتفرقه لئلا يؤذى ويهدم ما ينزل عليه بجملة حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أفلح عنها وفارقها فهى روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح وفى الترمذى وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى السحاب قال هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التى عليها ميرتهم . وكان الحسن إذا رأى السحاب قال فى هذا والله رزقكم والسكنىكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا فى سحابة إسق حديقة فلان فر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فإذا برجل معه مسحاة يسحى الماء بها فقال ما اسمك يا عبد الله قال فلان الاسم الذى سمعه فى السحابة (وبالجمل) فإذا تأملت السحاب الكشيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جوصاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء وهو مع لينة ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه فى إرسال مامعه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها ولا تدرك القطرة صاحبها فتمزج بها بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عمنت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر فى لحظة واحدة لعجزوا عنه . فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب والطيور والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلانى فى الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلانى فيصل اليه على شدة من الحاجة والعطش فى وقت كذا وكذا . ثم كيف أودعه فى الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات فهذا النبات يغذى وهذا يصلح الغذاء وهذا ينفذه وهذا يضعف وهذا اسم قاتل وهذا شفاء من السم وهذا يمرض وهذا دواء من المرض وهذا يبرد وهذا يستخن وهذا إذا حصل فى المعدة قبح الصفراء من أعماق العروق وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال اليها وهذا يدفع البلاءم والسوداء وهذا يستحيل

وأما وجهه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر فإذا شاء سبحانه وتعالى حركة بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمة ولا قهراً للسحاب يلقيه بحمل الماء كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل . وتسمى رياح الرحمة المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء والواقع ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما في البحر والعقيم والصرص وهما في البر وإن شاء حركة بحركة العذاب فجعله عقيماً وأودعه عذاباً أليماً وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصراً ونحساً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه وهي مختلفة في مهابها فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تشده وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه . ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها . فريح تثير السحاب وريح تلقحه وريح تحملها على متونها وريح تغذي النبات . ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحاً مقابلتها تسكر سورتها وحدتها ويبقى لينها ورحمتها فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فانه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لا هلاك ما ترسل باهلاكه فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتسكر سورتها وتدفع حدتها بل تكون كالجليش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتى عليه . وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في القللك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان) فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحد فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر إذ المقصود في البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء فأفردت هنا وجمعت في البر . ثم أنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويقتتها ويحملها على منته فأنظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلاً وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوى الشديد وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجهه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فانه لا يرسب فيه لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء فتعلق به السفينة المشحونة الموقرة فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق وهذا كالذي يهوى في قلب فيتعلق بذيل رجل قوى شديد يمتنع عن السقوط في القلب فيمنجو بتعلقه به فسبحان من خلق هذا

بهم ووسع أكنافها ودحاها فدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كقفاة للحياء
تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكفناة للأموات تضمهم في بطنها إذا ما توافظرها وطن
للأحياء وبطنها وطن للأموات وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى
النظر إليها والتفكير في خلقها فقال تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون . الله الذي جعل
لكم الأرض قراراً . الذي جعل لكم الأرض فراشا . أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت
وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت . إن في السموات
والأرض آيات للمؤمنين) وهذا كثير في القرآن فانظر إليها وهي مينة هامة خاشعة فإذا
أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج
فأخرجت عجائب النبات في المنظر والخبر بهيج للناظرين كريم للتناولين فأخرجت الأقوات
على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية
ومراعى الدواب والطيور (ثم انظر) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحداً فتنبت
الازواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقاح واحد والأم
واحدة كما قال تعالى (وفي الأرض قطع متجاورات وجزئات من أعناب وزرع ونخيل صنوان
وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الآكل إن في ذلك آيات لقوم يعقلون)
فكيف كانت هذه الاجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم وكيف كان حملها من لقاح واحد
صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده
وهدهم إلى التفكير فيه . قال الله تعالى (وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء
قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) فجعل النظر في هذه الآية
وما قبلها من خلق الجنين دليلاً على هذه النتائج الخمس مستلزماً للعلم بها ثم انظر كيف أحكم
جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها وكيف
رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض لئلا تضمحل على تطاول السنين وترادف الأمطار والرياح
بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ثم هدى الناس
إلى استخراج تلك المعادن منها وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلى والزينة واللباس
والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم شيء منه
ولا قدرة عليه (ومن آياته الباهرة) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك
بحس اللبس عند هبوبه يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجري بين السماء والأرض والطيور
مختلقة فيه ساجدة بأجنحتها في أمواجه كما تسمع حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه

عنه وعن آياته وقال بعضهم إذا تلفظت بقولك لا نعم فبين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ثم أنه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها ونبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها (الله الذي خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسب أن تميز بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين)

(فصل) والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان : نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلاً زرق السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظري يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر الثاني أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوها وبين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها فينزل الأمر بأحياء قوم وإماته آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين وإسعاد قوم وشقاوة آخرين وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريق كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم وهداية حيران وتعليم جاهل وزد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير ومدد لضعيف وإغاثة لماهوف وإعانة عاجز وانتقام من ظالم وكف العدوان فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع شيء منها عن سماع غيره ولا تغلظه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم حينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعته فيأله من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والالباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب

(فصل) وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميز

في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ولا تغير في سيرها بل تجري في منازل قدر ثبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها وانظر إلى كثرت كواكبها واختلاف ألوانها ومقاديرها فبعضها يعميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي (ثم انظر) إلى مسير الشمس في فلسكها في مدة سنة ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعده ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة وكيف قدر لها السميع العليم سفيرين متباعدين أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثاني سفرها هابطة إلى حضنيضها تنقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع فإذا انخفض سبيلها عن وسط السماء برد الهوى وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها (وانظر) إلى القمر وعجائب آياته كيف يبيده الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئاً فشيئاً كل ليلة حتى ينتهي إلى ابداره وكاله وتماه ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعبادتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنين وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبر التي لا يحصيها إلا الله (وبالجملة فما من كوكب من الكواكب) إلا والرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة ثم في مقداره ثم في شكله ولونه ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوتها بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفاً وستين مرة والكواكب التي نراها كثير منها أصغرهما بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي أن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء من كذلك وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلسكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر وذلك بعد لحظة واحدة ، لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلاً ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام والعبد غافل

بأنها رافعها وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيمة وإما استدلالاً
 عنه ربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا اله الا هو وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها
 والثبات أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب
 والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكمن قسم في القرآن بها كقوله
 (والسما ذات البروج . والسما والطارق . والسما وما بناها . والسما ذات الرجوع والشمس
 وضحاها والنجم إذا هوى . والنجم الثاقب، فلا أقسم بالخنس) وهي الكواكب التي تكون
 خنسا عند طلوعها جوار في مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فاقسم بها في أحوالها الثلاثة ولم
 يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم
 بما يقسم به من مخلوقاته انضمامه الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في
 الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظم هذا القسم كقوله (فلا أقسم بمواقع النجوم
 وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فإن اسم
 النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها وأيضاً فإنه لم تجر عاداته سبحانه باستعمال النجوم في
 آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عاداته باستعمال
 النجوم في الكواكب في جميع القرآن وأيضاً فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى
 النجم في قوله (والنجم إذا هوى) وأيضاً فإن هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضاً فإنه سبحانه
 يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده هذه طريقة القرآن قال الله تعالى (ص والقرآن ذي
 الذكر . يس والقرآن الحكيم . ق والقرآن المجيد . حم والكتاب المبين) ونظائره (والمقصود أنه
 سبحانه) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أنشئ سبحانه
 في كتابه على المنفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال (وجعلنا
 السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته
 وشده ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى (وبنيما فوقكم سبعاً شدادا) وقال تعالى
 (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) وقال (وجعلنا السماء سقفا محفوظاً) فانظر
 إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه
 العجائب والآيات وكيف ابتداء خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعريفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليملك
 من هلك عن بينة ويحيي من حي بينة وإن الله لسميع عليم فارجع العصر إلى السماء وانظر فيها وفي
 كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها

ويحفظها فيكون الغذاء داخلا الى المعدة من طرق وبجوار وخارجا منها الى الاعضاء من طرق وبجوار هذا وارد اليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابعة ولما كان الغذاء اذا استحال في المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغها اقتضت حكمته سبحانه وتعالى ان جعل لكل واحد من هذه الاخلاط مصرفا ينصب اليه ويجتمع فيه ولا يذبح الى الاعضاء الشريفة الا أكمله فوضع المرارة مصبا للبرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للبرة السوداء والكبد تمتص أشرف ما في ذلك وهو الدم ثم تبعه الى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل الى كل واحد من الشعور والاعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه ثم اذا نظرت الى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة في أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجيب كقوة سمعه وبصره وشمه وزوقه ولمسه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه وغير ذلك من القوى المتعلقة بالاذراك والإرادة وكذلك القوى المتصرفة في غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافعة له الى الأعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه الى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة .

فصل

فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا بل عظما واحدا من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين فن هذا صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تفك عن حكمة بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض الى عجائب السموات قال الله تعالى (أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) وقال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك آتى تجرى في البحر بما ينفع الناس الى قوله آيات لقوم يعقلون) فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الآيات) وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ماتحت السموات بالإضافة الى السموات كقطرة في بحر ولهذا قل ان تجيء سورة في القرآن الا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمتها وسعتها وإما اقسامها بها وإما دعاء الى النظر فيها وإما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة

في الرأس (فالصواب ان مبداه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقال (أن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب ونازعهم في ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وانكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقة (والصواب المتوسط) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فان وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف الا على قبولها واستعدادها وامداد القلب لا على مجار وأعصاب وهذا يزول الالتباس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب (والمقصود التنبيه) على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان والأمر أضعاف أضعاف ما يخطر بالبال أو يجري فيه المقال وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التي هي كل شيء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط في مدخله ومستقره وخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم باب يدخل منه ثم آلة تقطعه صغارا ثم طاحون يطحنه ثم أعين بما يعينه ثم جعل له مجرى وطريقا إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله إلى المعدة فهي خزائنه وموضع اجتماعه ولها بابان باب أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه ثقله والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحصول والأسفل مصرف للصغار منه والأسفل منطبق دائما ليستقر الطعام في موضعه فاذا انتهى الهضم فان ذلك الباب يفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك والأعلى يسمى فم المعدة والطعام ينزل إلى المعدة متكيما فاذا استقر فيها انماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالخشا وغيره حتى يتركه مائعا فاذا أذابته علاصفوه الى فوق ورسى كدره الى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداد وقبوله فيبعث أشرف ما في ذلك وألطفه وأخفه الى الأرواح فيبعث الى البصر بصرا وإلى السمع سمعا وإلى الشم شمًا وإلى كل حاسة بحسبها فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه الى الدماغ ما يناسبه في الطاقة والاعتدال ثم ينبعث من الباقي الى الأعضاء في تلك المجارى بحسبها وينبعث منه الى العظام والشعر والافطار ما يغذيها

حرارة بل هو منبع الحرارة (وأما الدماغ) وهو المخ فانه جعل بارداً واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ بارداً لتبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيداً عن القلب بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة أو يكون قريباً منه في الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الأولى بعد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لعلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فانها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فانه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الاقذار والكدر خال من الجلجلة والزجل ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركانه وقلة شواغله ومن عجزاته ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلاً في ذلك صالحاً له ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية ونفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية (وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى) وهي أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة) مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به ويده وبين الحواس منافذ وطرق قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الاجسام التي فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) إذا أبصرت شيئاً أدته بالآلة التي فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا أحس صوتاً أداه إلى القلب وكذلك كل حاسة ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا (ان قيل كيف يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمدّه عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقرة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى) وأجابوا عن ذلك (بأن جميع العروق التي في البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة فما من عرق ولا عضو الا وله اتصال بالقلب اتصالاً قريباً أو بعيداً قالوا وينبعث منه في تلك العروق والجاري إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى ولهذا كان الرأي الصحيح أنه أول الأعضاء تكويناً قالوا ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وان كان قد خالف في ذلك آخرون وقالوا بل العقل

يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكَم بين المنظرين (ثم انه سبحانه ربط تلك) الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالآوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهي مختلفة في الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالاتها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وإبصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذا سلك عضو من الأعضاء رباطات هن له كآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم في قطرة ماء مهين فويل للسكندريين وبعدا للجاحدين (ومن عجائب خلقه) أنه جعل في الرأس ثلاث خزائن نافذة بعضها إلى بعض خزانة في مقدمه وخزانة في وسطه وخزانة في آخره وأردع تلك الخزائن من أسرارها ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل (ومن عجائب خلقه) ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع (فاما القلب) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو مخوف بها محشود مخدوم مستقر في الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوانى والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال لجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب فان العين طليعته ورائده الذى يكشف له المراتب فان رأت شيئا أدته إليه ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها ففى مرآته المترجمة للنظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدى للسمع ما فيه ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) وقوله (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) وقوله (صم بكم عمى) وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) وقوله في حق رسوله محمد ﷺ (ما كذب الفؤاد ما رأى) ثم قال مازاغ البصر وما طفى (وكذلك) الاذن هي رسوله المؤدى إليه (وكذلك) اللسان ترجمانه وبالجمل فسائر الأعضاء خدمه وجنوده وقال النبي ﷺ ألا ان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب (وقال أبوهريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وإذا خيب الملك خيبت جنوده وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء

أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزيئ به بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضا باللحية وجعلها كالا ووقارا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفة (وكذلك خلقه سبحانه) لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل والابهام باثنتين ووضع الأصابع الأربعة في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقا واحدا كالصفحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فان بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رؤسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحرك الإنسان بها بدنه عند الحاجة فاظفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكمة لاشتدت حاجته إليه ولم يقدّم مقامه شيء في حرك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحرك حتى تمتد إليه ولوفى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحرك إلا بعد تعب ومشقة ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها في المثانة والصلابة لأنها محمولة (ثم انظر كيف جعل) الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات بجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقنا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها في بعض هي بجميع أضلاعه والتي تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع (وانظر) كيف كسا العظام العريضة كمظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك كمظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما مائتان وثمانية وأربعون مفصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضره على الإنسان

منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنفين في الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين حيز بينهما يحجز يحجز يجرى يجرى تعدد العينين والأذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين (وشق سبحانه) للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يهر العقول عجايبه فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجحانا لملك الأعضاء مبدئا مؤدياً عنه كما جعل الأذن رسولا مؤدياً مبلغاً إليه فهي رسوله وبريده الذي يؤدي إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد (واقضت حكمته سبحانه) أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤدياً منه إلى الخارج جعل له سترًا مصونا لعدم الفائدة في إبرازه لانه لا يأخذ من الخارج إلى القلب (وأيضاً) فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلة منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سراق تستره وتصونه وجعل في ذلك السراق كالقلب في الصدر وأيضاً فانه من أطف الأعضاء وألينها وأشدّها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد (ثم زين سبحانه الفم بما فيه) من الأسنان التي هن جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان تحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهما أنهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له وجعلهما إتماما لخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الخلق بداية له واللسان وما جاوره وسطا ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الوسطة واقضت حكمته أن جعل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخرى أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلقت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشبهه صوتان إلا نادرا ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بصورهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور (وزين سبحانه) الرأس بالشعر وجعله لباسا له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما

أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير بحيث تنقطع فيه صورة السموات مع اتساع أكتافها وتبعد أقطارها وشق له السمع (وخلق) الأذن أحسن خلقه وأبلغها في حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بديب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجها وجعل فيها غضوناً وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتعكس حذته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لإمساكه وفيه أيضاً حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوز الحيوان ولا يقطعه داخلاً إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العينين ملحاً ليحفظها فانها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظاً وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه لئلا لو كان على غير هذه الصفا لأحاطها إلى طبيعته كما ان من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التي ليست بمر كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

(ونصب سبحانه) قسبة الأنف في الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعها وفتح في المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل في داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعله سبحانه مصباً تنحدر إليه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعاً اجتمع فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد في مجراه قليلاً حتى يصل إلى القلب وصولاً لا يضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة فانه لما كان قسبة ويجرى سائراً لما يتحدر فيه من فضلات الرأس ويجرى النفس الصاعد منه جعل في وسطه حاجزاً لئلا يفسد بما يجري فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب فيبقى الآخر للتنفس وإما أن يجري فيها فينقسم فلا يفسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس وأيضاً فانه لما كان عضواً واحداً وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعدده فانه ربما أصيبت إحداها أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تنعط

للمفاذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه (ثم انظر) الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما وبدن وعماداً له وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها في بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فانها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بحملة بدنه وبيعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظماً واحداً بل عظاما متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفي العظم والصق أحده طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الآخر نقرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزء من بدنه لم يتمتع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمسة وخمسون عظماً مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبها سبحانه وتعالى على البدن وجعله عالياً علواً راكباً على مركوبه ولما كان عالياً على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطلليعة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الإبصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقاً عجيباً وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملسكها وتلك الطبقات والاجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين (فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتها ومقدارهما ثم جعلهما بالاجفان غطاء لهما وسترا وحفظاً وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذى والغبار ويكتمانهما من البارد المؤذى والحر المؤذى ثم غرس في أطراف تلك الاجفان الأهداب جمالا وزينة ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرج ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من السكواكب وقد

شيئاً) وقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمى ثم كان علقة
نخاق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وقال تعالى
(ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مسكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعيم القادرون) وقال
(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) وقال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة
من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مسكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة
عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وهذا كثير في
القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقها من أعظم
الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة
الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكير فيه ولو فكر
في نفسه ازجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره قال الله تعالى (قتل الإنسان ما أكره من
أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إنا نأشئه أنشئه) فلم يكرر
سبحانه على أسماءنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقه والمضغة والتراب ولا نتكلم
بها فقط ولا لنجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب واليه جرى
ذلك الحديث (فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقدر
لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير
من بين الصلب والترائب منقاداً لقدرته مطيعة لمشيئته مذلة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف
بجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ويجمعها وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى الحب
بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف
قدر اجتماع ذين الماءين مع بعض كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في
موضع واحد جعل لهما قراراً مسكيناً لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل
إليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمراء تضرب إلى سواد
ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقه في لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسو
عليها مباينة للمضغة في شكلها وهياتها وقدرها وملبسها ولونها (وانظر) كيف قسم تلك
الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليايس واللين وبين
ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه وأبعده عن الانحلال وكيف كساه
لحمأ ركبها عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظاً وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهو
محفوظ به وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر

الذى جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما فى الصدور. وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين. وهو الذى يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التى بها حياة القلب وكما له وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التى بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس ما فى قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا به عن كل ماسواها فإذا قرأه بتفكر حتى مر آية وهو محتاج إليها فى شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة خمسة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهى قوله: **لن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** فقراءة القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب ولهذا قال ابن مسعود لا تهذوا القرآن هذا الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب لا يكن هم أحدكم آخر السورة وروى أبو أيوب عن أبي جرة قال قلت لابن عباس إني سريع القراءة إني أقرأ القرآن فى ثلاث قال لأن أقرأ سورة من القرآن فى ليلة فأتدبرها وأرتها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كما تقرأ (والتفكر فى القرآن نوعان) تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه وتفكر فى معاني مادعا عباده إلى التفكر فيه فالأول تفكر فى الدليل القرآنى والثانى تفكر فى الدليل العيانى الأول ففكر فى آياته المسموعة والثانى تفكر فى آياته المشهودة ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا مجرد تلاوته مع الإعراض عنه قال الحسن البصرى أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً.

فصل

وإذا تأملت مادعى الله سبحانه فى كتابه عباده إلى الفكر فيه أو قعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته وبرحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فهذا تعرف إلى عباده وتدبرهم إلى التفكر فى آياته. ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه فى كتابه ليستدل بها على غيرها (فن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه) إلى التفكر فيه والنظر فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق) وقوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقال تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم

الأصل الأول (أفلا يتدبرون القرآن . أفلم يدبروا القول . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعقلون) وقال في الأصل الثاني (قل انظروا ماذا في السموات والأرض . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض . إن في السموات والأرض لآيات للؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنثرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون إلى قوله ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) . ونوع سبحانه الآيات في هذه السور لجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالة وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال والفاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة فتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يستمعون وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبر به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون فإن هذه أمور مرتبة بالابصار مشاهدة بالحس فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدلل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وامكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل فإن الحس دل على الآية والعقل دل على ما جعلت له آية فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فبإذن

أحدهما فـكرته في جماله وأوصافه . والثانية فـكرته في أفعاله وإحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته وإن تعلق فـكره بنفسه لم يخرج أيضاً عن حالتين . إما أن يفكر في أوصافه المستخوطة التي يبغضها محبوه ويمقتها عليها ويسقطه من عينه فهو دائماً يتوقع بفـكره عليها ليمتجنبها ويبعد منها . والثانية أن يفكر في الصفات والأخلاق والأفعال التي تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها فالفـكرتان الأولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفـكرتان الآخرتان توجب محبة محبوه له وإقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وإثاره على غيره فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة . فالفـكرة الأولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الاله المعبود سبحانه وأفعاله . والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتهما وما يمنع من السير فيها إليه فتفـكره في صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المـكروه له وهذه الفـكرة توجب ثلاثة أمور أحدها أن هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا الثاني هل العبد متصف به أم لا والثالث إذا كان متصفاً به فما طريق دفعه والعافية منه وإن لم يكن متصفاً به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه وكذلك الفـكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور أحدها أن هذه الصفة هل هي محبوبة لله مرضية له أم لا الثاني هل العبد متصف بها أم لا . الثالث أنه إذا كان متصفاً بها فما طريق حفظها ودوامها وإن لم يكن متصفاً بها فما طريق اجتلائها والتخلو بها ثم فـكرته في الأفعال على هذين الوجهين أيضاً سواء ومجاري هذه الأفكار ومواقفها كثيرة جداً لا تكاد تنضب (وإنما يحصرها ستة أجناس) . الطاعات الظاهرة والباطنة والمعاصي الظاهرة والباطنة والصفات والأخلاق الحميدة . والأخلاق والصفات الذميمة (فهذه مجاري) الفـكرة في صفات نفسه وأفعالها وأما الفـكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك والإقرار والتعطيل وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام (ومجاري هذه الفـكرة) تدبر كلامه وما تعرف به سبحانه إلى عبادته على أسننة رسله من أسنانه وصفاته وأفعاله وما نزه نفسه عنه عما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه وتدبر أيامه وأفعاله في أولياته وأعدائه التي قصصها على عبادته وأشهدهم بإياها ليستدلوا بها على أنه ألهم الحق المبين الذي لا ينبغي العبادة إلا له ويستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم وأنه العزيز الحكيم وأنه الفعال لما يريد وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً وإن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة لا يخرج شيء منها عن ذلك وهذه الثمرة لاسبيل إلى تحصيلها إلا تدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله (وإلى هذين الأصلين) تدب عبادته في القرآن فقال في

ينبغي أن يوقع عليه ويجرى فيه فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذى يقع الفكر فيه
والا ففكر بغير متفكر فيه محال (قيل مجرى الفكر) ومتعلقه أربعة أمور (أحدها) غاية
محبوبة مرادة الحصول (الثانى) طريق موصلة إلى تلك الغاية (الثالث) مضرة مطلوبة
الإعدام ومكرهه الحصول (الرابع) الطريق المفضى إليها الموقوع عليها فلا تتجاوز أفكار
العقلاء هذه الأمور الأربعة وأى فكر تخطاها فهو من الأفكار الردية والخيالات والامانى
الباطلة كما يتخيل الفقير المعدم نفسه من أغنى البشر وهو يأخذ ويعطى وينعم ويحرم وكما
يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك وهو يتصرف فى البلاد والرعية ونظير ذلك من أفكار
القلوب الباطولية التى من جنس أفكار السكران والمحموش والضعيف العقل فالأفكار الردية
هى قوت الانفس الخسيسة التى هى فى غاية الدناءة فإنها قد قنعت بالخيال ورضيت بالحال ثم
لا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتزايد حتى توجب لها آثارا ردية ووساوس وأمراضاً بطيئة
الزوال وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التى ذكرناها فله أيضاً محلان
ومنزلان (أحدهما) هذه الدار والآخرة دار القرار فأبناء الدنيا الذين ليس لهم فى الآخرة
من خلاق عمروا ببيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة فى هذه الدار فأثمرت لهم أفكارهم
فيها ما أثمرت وليكن إذا حققت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة تبين الرابع من
المغبون وخسر هنالك المبطلون وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا ببيوت أفكارهم على
تلك الأقسام الأربعة فيها (ونحن نفصل ذلك) بعون الله وفضله فنقول : كل طالب لشيء
فهو محب له مؤثر لقربه ساع فى طريق تحصيله متوصل إليه بجهده وهذا يوجب له تعلق
أفكاره بمحمال محبوبة وكأله وصفاته التى يحب لأجلها وتعلقها بما يتأله به من الخير والفرح
والسرور ففكره فى حال محبوبة دائر بين الجمال والاجمال والحسن والاحسان فكما قويت
محبته ازداد هذا الفكر وقوى وتضاعف حتى يستغرق أجزاء القلب فلا يبقى فيه فضل لغيره
بل يصير بين الناس بقاله وقلبه كله فى حضرة محبوبة فإن كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق
الذى لا تنبغى المحبة إلا له ولا يحب غيره إلا تبعاً لمحبة فهو أسعد المحبين به وقد وضع الحب
موضعه وتهيأت نفسه ليكاملها الذى خلقت له والذى لا يكمل لها بدونه بوجهه وإن كانت ملك المحبة
لغيره من المحبوبات الباطلة المملاشة التى تفتنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها فقد وضع
المحبة فى غير موضعها وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقاءها وألمها
(وإذا عرف هذا عرف) أن تعلق المحبة بغير الإله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه
فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة وهى مضرة عليه فى حياته وبعد موته والحب الذى قد ملك المحبوب
أفكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ثم فكره فى محبوبة لا يخرج عن حالتين

تعالى أفلم يدبروا القول أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وتدبر السلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مره ولهذا جاء على بناء التفعّل كالترحّل والتفهّم والتبّين (وسمى استبصاراً) وهو استفعال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة وكل من التذكر والتفكير له فائدة غير فائدة الآخر فالتذكر يفيد تكرار القلب على ماعله وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحى فيذهب أثره من القلب جملة والتفكير يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب فالتفكير يحصله والتذكر يحفظه ولهذا قال الحسن مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة فالتفكير والتذكر بذار العلم وسقيه مطارحته ومذاكرته تلقّيه كما قال بعض السلف ملاقات الرجال تلقّيح لألبابها فالذاكرة بها لقاح العقل فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكير فانه لا بد من تفكير وعلم يكون نتيجة الفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم فان كل من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه وتلك الحال توجب له إرادة وتلك الإرادة توجب وقوع العمل فها هنا خمسة أمور الفكر وثمرته العلم وثمرتها الحالة التي تحدث للقلب وثمره ذلك الإرادة وثمرتها العمل فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا يكشف لك عن فضل التفكير وشرفه وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له حتى قيل تفكير ساعة خير من عبادة سنة فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن المكروه إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ومن مرض الشهوة والاخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وتلج الصدور (وبالجملة) فأصل كل طاعة إنما هي الفكر وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة فان الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الردية فيتولد منه الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل فإذا صادف أرض القلب مشغولة يبذر الأفكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيما هي له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الآليم لم يجد لبذره موضعاً وهذا كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصاذف قلباً فارغاً فتمكنا

(فان قيل) فقد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تأثيره في الخير والشر فما متعلقه الذي

لم يباشر قلبه اليقين به ولا كلفه حقيقة العلية فإذا ترك العاجلة للآخرة تربيه نفسه بأنه قد ترك معلوماً لمظنون أو متحققاً لموهوم فلسان الحال ينادى عليه لا أدع ذرة منقودة لدرة موعودة وهذه الآفة هي التي منعت النفوس من الاستعداد للآخرة وأن يسعى لها سعيها وهي من ضعف العلم بها وتيقنها وإلا فمع الجزم التام الذي لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ولهذا لو قدم لرجل طعام في غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ثم قيل له إنه مسموم فإنه لا يقدم عليه لعلمه بأن سوء ما تجنى عاقبة تناوله تربو في المضرة على لذة أكله فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون في قلبه بهذه المنزلة ماذا إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب وعدم استقرارها فيه وكذلك إذا كان سائراً في طريق فقيل له إن بها قطاعاً ولصوصاً يقتلون من وجدوه يأخذون متاعه فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين إما أن لا يصدق الخبر وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم وإلا فمع تصديقه للخبر تصديقاً لا يتماهى فيه وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم فإنه لا يسلكها ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إثارة الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك فلم أن إشارته للعاجلة وترك استعدادة للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبداً (الحالة الثانية) أن يتيقن ويجزم جزماً لا شك فيه بأن له داراً غير هذه الدار ومعادلة خلق وإن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد ومنزل من منازل السائرين إليه ويعلم مع ذلك أنها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها فالذي تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة فيشمر له هذا العلم إثارة الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها وأن يسعى لها سعيها وهذا يسعى تفكيراً وتذكراً ونظراً وتأملاً واعتباراً وتدبراً واستبصاراً وهذه معانٍ متقاربة تجتمع في شيء وتفرق في آخر ويسمى تفكيراً لأنه استعمال الفسكرة في ذلك وإحضاره عنده ويسمى تذكراً لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ومنه قوله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ويسمى نظراً لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه ويسمى تأملاً لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه ويسمى اعتباراً وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار ولهذا يسمى عبرة وهي على بناء الحالات كالجلوس والركبة والقتلة أي ذاتاً بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به وقال الله تعالى (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) (ويسمى تدبراً) لأنه نظر في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول وقال

العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذى هو مركبها بل بجرها الذى لا تنفك ساجدة فيه وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة وكذلك إذا فكر فى عواقب الأمور وتجاوز فكره مبادئها وضعها مواضعها وعلم مراتبها فاذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته وفرح النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الألم والحزن الذى لا يقاوم تلك المدة والفرحة ومن فكر فى ذلك فانه لا يكاد يقدم عليه وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها حتى عبر بفكره إلى ما يقرب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التى تغمر تلك الآلام التى فى مبادئها بالنسبة إلى كمال عواقبها وكلما غاص فكره فى ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة وكذلك إذا فكر فى منتهى ما يستعبده من المال والجاه والصور ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره استحى من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك كما قيل :

لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسببه لم يسبه

وكذلك إذا فكر فى آخر الأطعمة المفخرة التى تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام وما يصير أمرها إليه عند خروجها ارتفعت همته عن صرفها إلى الإعتناء بها وجعلها معبود قلبه الذى إليه يتوجه وله يرضى ويغضب ويسعى ويكدر ويوالى ويعادى كما جاء فى المسند عن النبي ﷺ أنه قال إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا وإن قزحه وملحه بأنه يعلم إلى ما يصير أو كما قال ﷺ فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره وكانت نفسه حرة أبية رباً بها أن يجعلها عبداً لما آخره أتن شئ وأخبثه وأفخسه .

فصل

إذا عرف هذا فالفكر هو احضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثال ذلك إذا أحضر فى قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ثم أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين أثر له ذلك علماً ثانياً وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإشارته من العاجلة المنقطعة المنغصة ثم له فى معرفة الآخرة حالتان : إحداهما أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به ولم يفيض قلبه إلى مكائده حقيقة الآخرة وهذا حال أكثر الناس فيتجاذبه داعيان أحدهما داعى العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده لأنه مشاهد له محسوس وداعى الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده لأنه داع عن سماع

ولاعلماً ومن نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعية الله فهذا يلي الغنى الجاهل في المرتبة ويساويه في الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول الذي لم يقدر على غيره فقسّم السعداء قسمين وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما وقسم الأشقياء قسمين وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما فعادت السعادة بحملتها إلى العلم وموجبه والشقاوة بحملتها إلى الجهل وثمرته . (الوجه الثالث والخمسون) ما ثبت عن بعض السلف أنه قال تفكير ساعة خير من عبادة ستين سنة وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته فقالت كان نهاره أجمعه في بادية التفكير وقال الحسن تفكير ساعة خير من قيام ليلة وقال الفضل التفكير مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان كثيراً ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة * ففي كل شيء له عبرة

وقال الحسن في قوله تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال أممهم التفكير فيها وقال بعض العارفين لو طالعنا قلوب المتقين بفكرها إلى ما قدر في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقرر لهم فيها عين وقال الحسن طول الوحدة أتم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة وقال وهب ما طالت فكرة أحد قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكراً أين بلغت قال الصراط وقال بشر لو فكر الناس في عظمة الله ماعصوه وقال ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب وقال أبو سليمان الفكرة في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتجلى القلوب وقال ابن عباس التفكير في الخير يدعو إلى العمل به وقال الحسن أن أهل العلم من الواعيين بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ويناطقون القلوب حتى نطق بالحكمة ومن كلام الشافعي استمعوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة وهذا لأن الفكرة عمل القلب والعبادة عمل الجوارح والقلب أشرف من الجوارح فكان عمله أشرف من عمل الجوارح . وأيضاً فالتفكير يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد فإن التفكير يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها الموصلة إليها وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتميز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه والفرق بين البوهم والخيال المانع لاكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة فيشتغل به دون الأول فما قطع

ومراد لذاتها بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها فإن الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلاً وللجوارح تبعاً وكذلك الأعمال المقصودة بها أولاً صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة وإن كان كثير منها مراداً لأجل المصلحة المترتبة عليه فن أجلها صلاح القلب وزكاه وطهارته واستقامته فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة وإن العلم كذلك وأيضاً فالعلم الذي هو وسيلة إلى العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم ينفع به صاحبه فالعمل أشرف منه . وأما العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه فهذا لا يقال إن العمل المجرد أشرف منه فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التي تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلى الله والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالى وبما تقطع تلك المسافات إلى غير ذلك من علم الإيمان وما يقويه وما يضعفه فكيف يقال إن مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم بل من قام بالأمرين فهو أكمل وإذا كان في أحدهما فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة فإذا كان في العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلى العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلى مجرد العبادة فهذا فصل الخطاب في هذه المسئلة والله أعلم (الوجه الثاني والخسون بعد المائة) مارواه الامام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري قال قال رسول الله ﷺ إنما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل عند الله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤت مالا فهو يقول لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤت مالا فهو يخبط في ماله ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأسوأ المنازل عند الله ورجل لم يؤت مالا ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء حديث صحيح صححه الترمذي والحاكم وغيرهما . فقسم النبي ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام . . خيرهم من أوتي علماً ومالا فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله . . ويليه في المرتبة من أوتي علماً ولم يؤت مالا وإن كان أجراً سواء فذلك إنما كان بالنية وإلا فالمتصدق فوقه بدرجة الانفاق والصدقة والعالم الذي لا مال له إنما سواه في الأجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد . الثالث من أوتي مالا ولم يؤت علماً فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله لأن ماله طريق إلى هلاكه فلو عدمه لكان خيراً له فإنه أعطى ما يتزود به إلى الجنة فجعله ذاداً له إلى النار . الرابع من لم يؤت مالا

ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت فيه النية وقال رجل للمعاني بن عمران أيما أحب الليل أقوم أصلي اليك كله أو أكتب الحديث فقال حديث تكتبه أحب إلى من قيامك من أول الليل إلى آخره وقال أيضاً كتابة حديث واحد أحب إلى من قيام ليلة وقال ابن عباس تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها وفي مسائل اسحاق بن منصور قلت لأحمد بن حنبل قوله تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها أي علم أراد قال هو العلم الذي ينتفع به الناس في أمر دينهم قلت في الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا قال نعم قال اسحاق وقال لي اسحاق بن راهويه هو كما قال أحمد وقال أبو هريرة لأن أجلس ساعة فأتفقه في ديني أحب إلي من إحياء ليلة إلى الصباح وذكر ابن عبد البر من حديث أبي هريرة يرفعه لكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه وما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين الحديث وقد تقدم وقال محمد بن علي الباقر عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد وقال أيضاً رواية الحديث وبه في الناس أفضل من عبادة ألف عابد ولما كان طالب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزله من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الاخلاص والتوكل والمحنة والاناة والحشمة والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة فان قيل فالعلم انما هو وسيلة إلى العمل ومراد له والعمل هو الغاية ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة فكيف تفضل الوسائل على غايتها قيل كل من العلم والعمل ينقسم قسمين منه ما يكون وسيلة ومنه ما يكون غاية فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها فان العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الاطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته قال الله تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهما ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة وقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فالعلم بوحدايته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته وإن كان لا يكتفي به وحده بل لابد معه من عبادته وحده لا شريك له فهما أمران مطلوبان لا تنقسمان أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبه ومقتضاها فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته وأيضاً فان العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره فهو متضمن للغاية والوسيلة (وقولكم) أن العمل غاية أما أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المخصص بالجوارح فقط فان أريد الأول فهو حق وهو يدل على أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم وأن أريد به الثاني وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح فان أعمال القلوب مقصودة

هارون وجره إليه وهو نبي الله وكل هذا لم ينقص من قدرة شيئاً عند ربه وربّه تعالى يكرمه ويحبه فان الأمر الذي قام به موسى والعدو الذي برز له والصبر الذي صبره والأذى الذي أوديه في الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ولا تعير في وجهه ولا تخفض منزلته وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم إن من له ألوف من الحسنات فانه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها حتى أنه لم يحتاج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فافعاله اللاتي سرور كثير

(والله سبحانه) يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فأيهما غلب كان التأثير له فيفعل بأهل الحسنات الكثرة الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم . وأيضاً فان العالم إذا زل فانه يحسن اسراع القيمة وتدارك الفارط ومداداة الجرح فهو كالطبيب الخاذق الصير بالمرض وأسبابه وعلاجه فان زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل . وأيضاً فان معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعدوه وعيده وخشيته منه وازرائه على نفسه بارتكابه وإيمانه بأن الله حرمه وان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ما يغفر الذنب ويضعف اقتضائه ويزيل أثره بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره فانه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية فلا يستوى هذا وهذا . وهذا فصل الخطاب في هذا الموضوع وبه يتبين أن الأمرين حق وانه لا منافاة بينهما وان كل واحد من العالم والجاهل انما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرده خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها ويزيل أثرها فعاد القبح في الموضوعين إلى الجهل وما يستلزمه رقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله وبالله التوفيق .

(الوجه الحادى والخمسون بعد المائة) ان العالم مشغول بالعلم والتعالم لا يزال في عبادة بنفسه تعلمه وتعليمه عبادة قال ابن مسعود لا يزال الفقيه يصلى قالوا وكيف يصلى قال ذكر الله على قلبه ولسانه ذكره ابن عبد البر وفي حديث معاذ مرفوعاً وموقوفاً تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح وقد تقدم والصواب انه موقوف وذكر ابن عبد البر عن معاذ مرفوعاً لأن تغدو فتعلم باباً من أبواب العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة وهذا لا يثبت رفعه وقال ابن وهب كنت عند مالك بن أنس فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وانظر في العلم بين يديه فجمعت كتي وقمت لاركع فقال لى مالك ما هذا فقلت أقوم إلى الصلاة فقال ان هذا لعجب ما الذى قمت إليه أفضل من الذى كنت فيه إذا صحت فيه النية وقال الربيع سمعت الشافعى يقول طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة وقال سفيان الثورى

(١٢ - مفتاح ١)

المعنى بإسناد متصل مرفوع وقد روى حرب الكرماني في مسائله نحوه مرفوعاً وقال إبراهيم بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الأخرى فتشيل حسناته فإذا يثس فظن أنها النار جاء شيء مثل السحاب حتى يقع من حسناته فتشيل سيئاته قال فيقال له أتعرف هذا من عملك فيقول لا فيقال هذا ما علمت الناس من الخير فعمل به من بعدك ﴿فان قيل﴾ فمواعد الشرع تقتضي أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم وأنه يغفر له ما لا يغفر للعالم فان حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من جنى بالإلزام وخص بالفضل والإكرام ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات فارتعها في مراتع الهلاك وتجرأ على انتهاك الحرمات واستخف بالتبعات والسيئات أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس في مرتبته وعلى هذا جاء قوله تعالى (يا نساء النبي من يأت مذكراً بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً) ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد في الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر وما يدل على هذا الحديث المشهور الذي أثبتته أبو نعيم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه . قال بعض السلف يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب وقال بعضهم أيضاً إن الله يعافى الجاهل ما لا يعافى للعلماء (فالجواب إن هذا الذي ذكرتموه) حق لا ريب فيه ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فانه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره فان المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحتمل الخبث بخلاف الماء القليل فانه لا يحتمل أدنى خبث ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم فأخبر ﷺ أنه شهد بدرأ فدل على أن مقتضى عقوبته قائم لكن منع من ترتب أثره عليه ماله من المشهد العظيم ف وقعت تلك السقطة العظيمة مغفورة في جنب ماله من الحسنات ولما حض النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال ما ضر عثمان ما عمل بعدها وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة أوجب طلحة وهذا موسى كلم الرحمن عز وجل ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ألقاها على الأرض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقاها وعاتب ربه ليلة الأسرى في النبي ﷺ وقال شاب بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمي وأخذ بلحمة

بعد المائة) ما في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه مسلم في الصحيح وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته مادام ينتفع به فكأنه حي لم ينقطع عمله مع ماله من حياة الذكر والشاة جريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية وخص النبي ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى الميت لأنه سبب لحصولها والعبد إذا باشر السبب الذي يتعلق به الأمر والنهي يترتب عليه مسببه وإن كان خارجاً عن سعيه وكسبه فلما كان هو السبب في حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه وقد ذكر تعالى هذين الأصلين في كتابه في سورة براءة فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطمئنون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) فهذه الأمور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم وإنما المقدور لهم أسبابها التي باشروها ثم قال (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) فالنفقة وقطع الوادى أفعال مقدورة لهم وقال في القسم الأول كتب لهم به عمل صالح إلا أن المتولد حاصل عن شيئين أفعالهم وغيرها فليست أفعالهم سبباً مستقلاً في حصول المتولد بل هي جزء من أجزاء السبب فيكتب لهم من ذلك ما كان مقابلاً لأفعالهم وأيضاً فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادى فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم حاصل بارادتهم وقدرتهم فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها وبالله التوفيق ﴿ الوجه الخمسون بعد المائة ﴾ ما ذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال إذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالى العلماء عن الحساب فيقول ادخلوا الجنة على ما كان فيكم إنى لم أجعل على فيكم إلا الخير أردته بكم قال ابن عبد البر وزاد غيره في هذا الخبر أن الله يحبس العلماء يوم القيامة في زمرة واحدة حتى يقضى بين الناس ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يدعو العلماء فيقول يا معشر العلماء إنى لم أضع حكمتي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم قد علمت أنكم تخطئون من المعاصي ما يخطئ غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم وإنما كنت أتعبد بفتياكم وتعليمكم عبادى ادخلوا الجنة بغير حساب ثم قال لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى قال وروى نحو هذا

به إليه وفضله وكرمه وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذى ذكره الله به نعمة عليه فقال وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (الوجه السابع والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه أثنى على إبراهيم خليله بقوله تعالى وإن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتياه) فهذه أربع أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة هو القدوة الذى يؤتم به، قال ابن مسعود والأمة المعلم للخير وهى فعلة من الائتنام كقدوة وهو الذى يقتدى به والفرق بين الأمة والإمام من وجهين أحدهما أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصد وشعوره أولا ومنه سعى الطريق إماما كقوله تعالى (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنا لمبالغين مبین) أى بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة. الثانى أن الأمة فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقى فيها فردا وحده فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها وكذلك ضم أوله فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها وأتى بالثناء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقة ومنه الحديث إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ومنه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد. الثانى قوله قانتا لله قال ابن مسعود القانت المطيع والقنوت بفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة. الثالث قوله حنيفا والحنيف المقبل على الله ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه فالميل لازم معنى الحنيف لأنّه موضوعه لغة. الرابع قوله شاكرا لانعمه والشكر للنعمة مبنى على ثلاثة أركان الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها وصرقها فى مرضاته والعمل فيها بما يجب فلا يكون العبد شاكرا إلا بهذه الأشياء الثلاثة والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه (الوجه الثامن والأربعون بعد المائة) قوله سبحانه عن المسيح أنه قال (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت) قال سفيان بن عيينة جعلني مباركا أينما كنت قال معلما للخير وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التى جعلها الله فيه فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه وهذا فى الحقيقة ليس إلا فى العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه ولهذا سعى سبحانه كتابه مباركا كما قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك) ووصف رسوله بأنه مبارك كما فى قول المسيح (وجعلني مباركا أينما كنت فبركة كتابه ورسوله هى سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله). (الوجه التاسع والأربعون

والفجار فهذه عشرة مواضع في القرآن نفى فيها التسوية بين هؤلاء الأصناف وهذا يدل على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة والظل من الحرور والطيب من الخبيث ومنزلة كل واحد من هذه الأصناف مع مقابله وهذا كاف في شرف العلم وأهله بل إذا تأملت هذه الأصناف كلها ووجدت نفى التسوية بينها راجعا إلى العلم وموجبه فيه وقع التفضيل وانتفت المساواة . (الوجه الخامس والأربعون بعد المائة) أن سليمان لما نوهده الهدد بأن يعذبه عذاباً شديداً أو يذبحه إنما نجا منه بالعلم وأقدم عليه في خطابه له بقوله أحطت بما لم تحط به خبراً وهذا الخطاب إنما جراه عليه العلم وإلا فالهدد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه سليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم . ومن هذا الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال لا أعلمها فقال أحد تلامذته أنا أعلم هذه المسألة فغضب الأستاذ وهم به فقال له أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت في العلم ما بلغت ولست أنا أجهل من الهدد وقد قال سليمان أحطت بما لم تحط به فلم يعتب عليه ولم يعنفه . (الوجه السادس والأربعون بعد المائة) إن من نال شيئاً من شرف الدنيا والآخرة فأنما ناله بالعلم وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكين الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه وما حصل ليوسف من التمكن في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقة الحميدة وكال الحال التي توصل إليها بالعلم كما أشار إليها سبحانه في قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ جاء في تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم وقال في إبراهيم عليه السلام ﴿ وولك حجتنا آتيناه إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ فهذه رفعة بعلم الحجة والاول رفعة بعلم السياسة وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تليذة كلم الرحمن له وتلفه معه في السؤال حتى قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً . وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته ولذلك قال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين) وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال (وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحفظنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ما رفعه الله

بأن المراد بمن كان له قلب هو المستغنى بفطرته عن علم المنطق وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة فهو - كمال فطرته مستغن عن مراعات أوضاع المنطق والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته وإصفاؤه إليه أن لا يزيغ في فكره وفسر قوله ادع إلى سبيل ربك بالحكمة أنها القياس البرهاني والموعظة الحسنة القياس الخطابي وجادلهم بالتي هي أحسن القياس الجدلي فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير بل ولا من تفاسير المسلمين وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة والقرآن يرى من ذلك كله منزه عن هذه الآباطيل والهديانات وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التي نحن فيها والآية الأخرى في موضع آخر من وجوه متعددة وبيننا بطلانه عقلا وشرعا ولغة وعرفا وأنه يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك وبالله التوفيق . والمقصود بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة : أحدها ترك السؤال الثاني سوء الإنصات وعدم القاء السمع . الثالث سوء الفهم . الرابع عدم الحفظ . الخامس عدم نشره وتعليمه فان من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاء من جنس عمله وهذا أمر يشهد به الحس والوجود . السادس عدم العمل به فان العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه فاذا أهمل العمل به نسيه . قال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به . وقال بعض السلف أيضاً العلم يهتف بالعمل فان أجابه حل وإلا ارتحل فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته وترك العمل به لإضاعة له فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) وأما قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) فليس من هذا الباب بل هما جملتان مستقلتان طلبية وهي الأمر بالتقوى وخبرية وهي قوله تعالى ويعلمكم الله أى والله يعلمكم ما تتقون وليست جوابا للأمر بالتقوى ولو أريد بها الجزاء لآتى بها مجزومة مجردة عن الواو فكان يقول واتقوا الله ويعلمكم أو إن تتقوه يعلمكم كما قال (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقا) فتدبره . (الوجه الرابع والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه نفي التسوية بين العالم وغيره كما نفي الخبيث والطيب وبين الأعمى والبصير وبين النور والظلمة وبين الظل والحرور وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار وبين الأبرار والعاجز الذي لا يقدر على شيء ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وبين المؤمنين والكفار وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين في الأرض وبين المتقين

وهذا هو من المشاهدة والحضور ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى إذ يصير الكلام إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهداً بما معه في التوراة أو حال كونه شاهداً يوم القيامة ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية . وأيضاً فالآية عامة في كل من له قلب وألقى السمع فكيف يدعى تخصيصها بمؤمن أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبي صلوات الله عليه وآله . وأيضاً فالسورة مكية والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ولا سيما مثل هذا الخطاب الذي علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع فكيف يقال هي في أهل الكتاب ؟ فان قيل المختص بهم قوله وهو شهيد فهذا أفسد وأفسد لأن قوله وهو شهيد يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم وهو من له قلب أو ألقى السمع فكيف يدعى عوده إلى شيء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً ولا دلالة في اللفظ عليه . وأيضاً فان المشهود به محذوف ولا دلالة في اللفظ عليه فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور فانه لا يقتضى مفعولاً مشهوداً به ليعلم الكلام بذكره وحده . وأيضاً فإن الآية تضمنت تقسيماً وترديداً بين قسمين أحدهما من كان له قلب والثاني من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يرغب فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه وهذا والله أعلم سر الإنيان بأو دون الواو لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان . أحدهما ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهذا يته بأدنى تنبيه ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاتة بل قلبه واعزكي قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط لكمال استعداد وصحة فطرته فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوباً فيه فهو قد أدركه بحملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته بحملا وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصديق الأكبر رضى الله عنه . والنوع الثاني من ليس له هذا الاستعداد والقبول فاذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلالة وهذه طريقة أكثر المستجيبين ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج وذكر المعارضات والأجوبة عنها والأولون هم الذين يدعون بالحكمة وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيبين . وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان نوع يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن فان استجابوا وإلا فالمجادلة فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام متناولة لها كلها كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) فهؤلاء المدعون بالكلام وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . وأما من فسر الآية

أمور . أحدها سلامة القلب وصحته وقبوله . الثاني احضاره وجمعه ومنعه من الشرود والفرق . الثالث لقاء السمع وإصغاؤه والاقبال على الذكر فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية . قال ابن عطية القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محل المعنى لمن كان له قلب وواع ينتفع به . قال وقال الشبلي قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين وقوله (أو ألقى السمع وهو شهيد) معناه صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبتته في سمعه فذلك اللقاء له عليها ومنه قوله (وألقيت عليك محبة مني) أي أثبتتها عليك وقوله وهو شهيد قال بعض المتأولين معناه وهو شاهد مقبل على الأمر غير معرض عنه ولا مفسك في غير ما يسمع . قال وقال قتادة هي إشارة إلى أهل الكتاب فسكانه قال ان هذه العبر لتذكرك لمن له فهم فتدبر الأمر أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بني إسرائيل قال فشهد على التأويل الأول من المشاهدة وعلى التأويل الثاني من الشهادة وقال الزجاج معنى من كان له قلب من شرف قلبه إلى التفهم ألا ترى أن قوله صم بكم عمي أنهم لم يسمعوا استماع مستفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر * أصم عما ساءه سميع * ومعنى أو ألقى السمع استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع والعرب تقول ألقى إلى سمعك أي استمع مني وهو شهيد أي قلبه فيما يسمع وجاء في التفسير أنه يعني به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبي ﷺ فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد أشاهد أن صفة النبي ﷺ في كتابه وهذا هو الذي حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيدا فيه بمعنى شاهد أي مخبر . وقال صاحب الكشف لمن كان له قلب وواع لأن من لا يعي قلبه فسكانه لا قلب له وإلقاء السمع الإصغاء وهو شهيد أي حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فسكانه غائب أو هو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من الله وهو بعض الشهداء في قوله لتكونوا شهداء على الناس وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعمته عنده فلم يختلف في أن المراد بالقلب القلب الواعي وأن المراد باللقاء السمع وإصغاؤه وإقباله على المذكر وتفريغ سمعه له . واختلف في الشهيد على أربعة أقوال أحدها أنه من المشاهدة وهي الحضور وهذا أصح الأقوال ولا يليق بالآية غيره . الثاني أنه شهيد من الشهادة وفيه على هذا ثلاثة أقوال . أحدها أنه شاهد على صحة مأمعه من الإيقان . الثاني أنه شاهد من الشهداء على النام يوم القيامة الثالث أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة والصواب القول الأول فان قوله (وهو شهيد) جملة حالية والواو فيها واو الحال أي ألقى السمع في هذه الحال وهذا يقتضي أن يكون حال لقائه السمع شهيدا

نسيانه ونكده الكذب فيه وهجته نشره عند غير أهله . وأنشد ابن الأعرابي :

ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدروا بعدها إذا لم تقدر
فسل الفقيه تكن فقيها مثله من يسع في علم بذل يهر
فتدبر العلم الذي تفق به لاخير في علم بغير تدبر
ولقد يجد المرء وهو مقصر ويخيب جد المرء غير مقصر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم بعضا ليدفع معور عن معور

وللعلم ست مراتب . أولها حسن السؤال . الثانية حسن الانصات والاستماع . الثالثة حسن الفهم . الرابعة الحفظ . الخامسة التعليم . السادسة وهي ثمرته وهي العمل به ومراعاة حدوده فن الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله إما لأنه لايسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها ويدع ما لاغنى له عن معرفته وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين ومن الناس من يحرمه لسوء انصاته فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الانصات وهذه آفة كامة في أكثر النفوس الطالبة للعلم وهي تمنعهم علما كثيرا ولو كان حسن الفهم . ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال من كان حسن الفهم ردى الاستماع لم يقيم خيره بشره وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب العلل له قال كان عروة بن الزبير يحب مارة ابن عباس فكان يخزن علمه عنه وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلف له في السؤال فيعززه بالعلم عزا . وقال ابن جريج لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفق به . وقال بعض السلف إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول وقد قال الله تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فتأمل ماتحت هذه الألفاظ من كنوز العلم وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى وكيف ينخلق باب العلم عنه من اهمالها وعدم مراعاتها فانه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب فان من عدم القلب الواعى عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له فاذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فانه يراها ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه فان كان غائبا عنه مسافرا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به فاذا حضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقى سمعه ويصفى بكيته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه . وهاهنا ثلاثة

حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) ومن هذا قال بعض العلماء تقول الحكمة من التمسنى فلم يجدنى فليعمل باحسن ما يعلم وليترك أقيح ما يعلم فاذا فعل ذلك فانا معه وإن لم يعرفنى (الوجه الثانى والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه جعل العلم للقلوب كالطمر للارض فكما أنه لا حياة للارض إلا بالمطر فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم . وفى الموطأ قال لقمان لابنه يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فان الله تعالى يحى القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحى الارض بوابل المطر ولهذا فإن الارض إنما تحتاج إلى المطر فى بعض الاوقات فاذا تتابع عليها احتاجت إلى انقطاعه وأما العلم فيحتاج اليه بعدد الأنفاس ولا تزيده كثرتة إلا صلاحا ونفعا (الوجه الثالث والأربعون بعد المائة) ان كثيرا من الاخلاق التى لا تحمد فى الشخص بل يذم عليها تحمد فى طلب العلم كالملق وترك الاستحياء والذل والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها . قال ابن قتيبة جاء فى الحديث ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا فى طلب العلم وهذا أثر عن بعض السلف . وقال ابن عباس ذلت طالبا فعززت مطلوباً وقال وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحى من الأنصار إن كنت لأفيل عند باب أحدهم ولو شئت أذن لى ولكن أبغى بذلك طيب نفسه . وقال أبو اسحاق قال على كلمات لو رحلتهم المطى فيهن لأفنيتموهن قبل أن تدركو مثلهن لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد وإذا ذهب البصر ذهب الإيمان . ومن كلام بعض العلماء لا ينال العلم مستحي ولا متكبر هذا يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه كبره وإنما حدثت هذه الأخلاق فى طلب العلم لأنها طريق إلى تحصيله فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله . ومن كلام الحسن من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سرياله فاقطعوا سرايل الحياء فانه من رق وجهه رق علمه وقال الخليل منزلة الجهل بين الحياء والأنفة . ومن كلام على رضى الله تعالى عنه قرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان . وقال ابراهيم المنصور سل مسألة الحق واحفظ حفظ الأكياس وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص فى الرجل وذلة تنافى المروءة إلا فى العلم فانه عين كماله ومروءته وعزه كما قال بعض أهل العلم خير خصال الرجل السؤال عن العلم . وقيل إذا جلست إلى عالم فسل تفقهها لاتعنتا . وقال ربيعة بن العجاج أتيت النسابة البكرى فقال من أنت قلت أنا ابن العجاج قال قصرت وعرفت لعلك كقوم إن سكت لم يسألونى وإن تكلمت لم يعوا عنى قلت أرجو أن لا أكون كذلك قال ما أعداء المروءة قلت تخبرنى قال بنوعم السوء إن رأوا حسنا ستروه وإن رأوا سيئا أذاعوه ثم قال إن للعلم آفة ونسكدا وهجنة فأفته

ضيعت نفسك وضيعت الاسلام وكان بعض خلفاء بنى العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه
 عمه فأذن له وغطى الرقعة فلما جلس قال له ياعم هل قرأت القرآن قال لا قال هل كتبت شيئاً
 من السنة قال لا قال فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس قال لا قال فهل نظرت في العربية
 وأيام الناس قال لا قال فقال الخليفة اكشف الرقعة ثم أتم اللعب وزال احتشامه وحيائه
 منه وقال له ملاعبه يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشم منه قال اسكت فما معنا أحد .
 وهذا لأن الانسان انما تميز عن سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم فاذا عدم
 ذلك لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهى الحيوانية البهيمية ومثل هذا
 لا يستحى منه الناس ولا يمتنعون بحضرة وشهوده بما يستحيا منه من أولى الفضل والعلم (الوجه
 الأربعون بعد المائة) ان كل صاحب بضاعة سوى العلم إذا علم ان غير بضاعته خير منها زهد
 فى بضاعته ورغب فى الأخرى وود أنها له عوض بضاعته إلا صاحب بضاعة العلم فإنه ليس
 يحب أن له بحظه منها حظ أصلاً وكان سفيان الثورى إذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث قال
 لا جزاك الله عن الاسلام خيراً قال أبو جعفر الطحاوى كنت عند أحمد بن أبى عمران فر بنا
 رجل من بنى الدنيا فنظرت اليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة فقال لى كئانى بك قد
 فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا قلت له نعم قال هل أدلك على خلة هل لك أن
 يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول اليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنيا جاهلا ويعيش
 هو عالماً فقيراً فقلت ما أختار أن يحول الله ما عندى من العلم إلى ما عنده فالعلم غنى بلا مال
 وعز بلا عشيرة وسلطان بلا رجال وفى ذلك قيل :

العلم كنز وذخر لا نفاذ له نعم القرن إذا ما صاحب صحبا
 قد يجمع المرء مالا ثم يحرمه عما قليل فيلقى الذل والحربا
 وجامع العلم مغبوط به أبداً ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
 باجامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدان به درأ ولا ذهباً

(الوجه الحادى والأربعون بعد المائة) أن الله سبحانه أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن
 ما كانوا يعملون وأخبر سبحانه أنه يجزى على الاحسان بالهلم وهذا يدل على أنه من أحسن
 الجزاء أما المقام الأول فى قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم
 ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم
 بأحسن الذى كانوا يعملون) وهذا يتناول الجزاءين الدنيوى والأخروى وأما المقام الثانى
 فى قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) قال الحسن من
 أحسن عبادة الله فى شبابه لقاء الله الحكمة عند كبر سنه وذلك قوله (ولما بلغ أشده آتيناها

الله بن داود سمعت سفيان الثوري يقول ان هذا الحديث عز فن أراد به الدنيا وجدها ومن أراد به الآخرة وجدها وقال النضر بن شميل من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عبادته وقال حمزة بن سعيد المصري لما حدث أبو مسلم اللخمي أول يوم حدث قال لابنه كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا قال ثلاثمائة دينار قال فرقاها على أصحاب الحديث والفقراء شكرا ان أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته وفي كتاب الجليس والآنيس لأبي الفرج المعافى بن زكرياء الجريري حدثنا محمد بن الحسين بن دريد حدثنا أبو حاتم عن العتيبي عن أبيه قال ابنتي معاوية بالابطاح مجلسا مجلسا عليه ومعه ابنه قرظة فاذا هو بجماعة على رحال لهم واذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى :

من يساجلني يساجل ما جدا يملأ الدلو الى عقد الكرب

قال من هذا قالوا عبد الله بن جعفر قال خلوا له الطريق ثم إذا هو بجماعة فيهم غلام يتغنى :

بينما يذكرني أبصرني عند قيد المليل يسعى بي الأعر

قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

قال من هذا قالوا عمر بن أبي ربيعة قال خلوا له الطريق فليذهب قال ثم إذا هو بجماعة وإذا

فيهم رجل يسئل فيقال له رميت قبل أن أحلق وحلفت قبل أن أرمى في أشياء أشكلت عليهم

من مناسك الحج فقال من هذا قالوا عبد الله بن عمر فالتفت إلى ابنه قرظة وقال هذا وأبيك

الشرف هذا والله شرف الدنيا والآخرة . وقال سفيان بن عيينة أرفع الناس منزلة عند الله

من كان بين الله وبين عبادته وهم الأنبياء والعلماء وقال سهل التستري من أراد أن ينظر إلى

بجائس الأنبياء فليتنظر إلى مجالس العلماء يحجى الرجل فيقول يا فلان ايش تقول في رجل حلف

على امرأته بكذا وكذا فيقول طلقت امرأته ويحجى آخر فيقول حلفت بكذا وكذا فيقول

ليس يحنث بهذا القول وليس هذا إلا لنبي أو عالم فاعرفوا لهم ذلك (الوجه التاسع والثلاثون

بعد المائة) ان النفوس الجاهلة التي لا علم عندها قد ألبست ثوب الذل والازراء عليها والتمتعص

بها أسرع منه إلى غيرها وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام قال الأعمش اني لأرى الشيخ

لا يروى شيئا من الحديث فاشتبهى أن أطمه وقال معاوية سمعت الأعمش يقول من لم يطلب

الحديث اشتبهى أن أصفه بنعلى وقال هشام بن علي سمعت الأعمش يقول إذا رأيت الشيخ

لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له فانه من شيوخ القمراء قال أبو صالح قلت لأبي

جعفر ما شيوخ القمراء قال شيوخ دهريون يجتمعون في ليالى القمر يتذاكرون أيام الناس

ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة وقال المزني كان الشافعي إذا رأى شيخا سأله عن الحديث

والفقه فإن كان عنده شيء والا قال له لا جزاك الله خيرا عن نفسك ولا عن الاسلام قد

وقال ابراهيم الحربى كان عطاء ابن أبى رباح عبدا أسود لامرأة من مكة وكان أنفه كأنه باقلاة
قال وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلى فلما صلى
انقفل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم ثم قال سليمان لابنيه قوما
فقاما فقال يا بنى لاني في طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود قال الحربى
وكان محمد بن عبد الرحمن إلا وقص عنقه داخل في بدنه وكان منكبا خارجين كأنهما زجان فقالت
أمه يا بنى لا تكون في مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المستخور به فعليك بطلب العلم فانه يرفعك
فولى قضاء مكة عشرين سنة قال وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم قال ومرت
به امرأة وهو يقول اللهم اعتق رقبتى من النار فقالت له يا ابن أخى وأى رقبة لك وقال يحيى
ابن أكرم قال الرشيدى ما أنبل المرانب قلت ما أنت فيه يا أمير المؤمنين قال فتعرف أجل منى
قلت لا قال لكفى أعرفه رجل فى حلقة يقول حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله صلوات الله وسلامه
قلت يا أمير المؤمنين أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله صلوات الله وسلامه وولى عهد المؤمنين قال
نعم وملك هذا خير منى لان اسمه مقترن باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت أبدا ونحن نموت
ونفنى والعلماء باقون ما بقى الدهر وقال خيشمة بن سليمان سمعت أبى الخناجر يقول كنت فى مجلس
ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه فرأى أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس وفى المجلس ألوف
فالتفت إلى أصحابه وقال هذا الملك وفى تاريخ بغداد للخطيب حدثنى أبو النجيب عبد الغفار
ابن عبد الواحد قال سمعت الحسن بن على المقرئ يقول سمعت أبا الحسن بن فارس يقول
سمعت الأستاذ ابن العميد يقول ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة الذم من الرياسة والوزارة التى
أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبرانى وأبى بكر الجعابى بحضرتى فكان
الطبرانى يغلب بكثرة حفظه وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته وزكا أهل بغداد حتى
ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه فقال الجعابى عندى حديث ليس فى الدنيا
إلا عندى فقال هاته فقال حدثنا أبو خليف حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث فقال
الطبرانى أنبأنا سليمان بن أيوب ومنى سمع أبو خليفة فاسمع منى حتى يعلموا إسنادك فإنك تروى
عن أبى خليفة عنى فنجعل الجعابى وغلبه الطبرانى قال ابن العميد فوددت فى مكانى أن الوزارة
والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى وفرحت مشى الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل
الحديث أو كما قال وقال المزنى سمعت الشافعى يقول من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن
نظر فى الفقه نبى مقداره ومن تعلم اللغة رقى طبعه ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن
كتب الحديث قويت حجته ومن لم يصن نفسه لم ينفعه عليه وقد روى هذا الكلام عن
الشافعى من وجوه متعددة وقال سفيان الثورى من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم وقال عبد

عن النبي ﷺ يعني أن المحفوظ من هذا الطريق مرسل لأن إبراهيم هذا لا صحة له . وقال الخلال في كتاب العلال قرأت على زهير بن صالح بن أحمد حدثنا منها قال سألت أحمد عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله ﷺ يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فقلت لأحمد كأنه موضوع قال لا هو صحيح فقلت بمن سمعته أنت فقال من غير واحد قلت من هم قال حدثني به مسكين إلا أنه يقول عن معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن قال أحمد ومعاذ بن رفاعة لا بأس به . ومنها ما رواه أبو صالح حدثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن مسعود قال سمعت النبي ﷺ يقول يرث هذا العلم من كل خلف عدوله . ومنها ما رواه أبو أحمد بن عدى من حديث زريق بن عبد الله الألحاني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي قال قال رسول الله ﷺ رواه عنه بقية . ومنها ما رواه بن عدى أيضاً من طريق مروان الفزارى عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ . ومنها ما رواه تمام في فوائده من حديث الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رواه عنه خالد بن عمرو . ومنها ما رواه القاضي اسماعيل من حديث علي بن مسلم البلوى عن أبي صالح الأشعري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (الوجه السابع والثلاثون بعد المائة) إن بقاء الدين والدنيا في بقاء العلم وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم قال الأوزاعي قال ابن شهاب الزهري الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعاً فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله . وقال ابن وهب أخبرني يزيد عن ابن شهاب قال بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعاً فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله (الوجه الثامن والثلاثون بعد المائة) أن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة ما لا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما فالعلم يزيد الشريف شرفاً ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه بجلاس الملوك كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على أهل مكة فقال له عمر من استخلفت على أهل الوادي قال استخلفت عليهم ابن ابزى فقال من ابن ابزى فقال رجل من مولينا فقال عمر استخلفت عليهم مولى فقال إنه قارىء الكتاب الله عالم بالفرائض فقال عمر أما أن نبئكم ﷺ قد قال إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين قال أبو العالية كنت أتى ابن عباس وهو على سريرته وحوله قرأش فيما أخذ بيدي فيجلسني معه على السرير فتغامن بي قرأش فقطن لهم ابن عباس فقال كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الأسرة

لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً (فلم ينف
الولي نفياً عاماً مطلقاً بل نفى أن يكون له ولي من الذل وأثبت في موضع آخر أن له أولياء
بقوله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله (الله ولي الذين آمنوا)
فهذا موالاته رحمة وإحسان وجبر والموالاته المنفية موالاته حاجة وذلل . يوضح هذا الوجه
السادس والثلاثون بعد المائة) وهو ما روى عن النبي ﷺ من وجوه متعددة أنه قال
يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل
الجاهلين فهذا الحمل المشار إليه في هذا الحديث هو التوكل المذكور في الآية فأخبر ﷺ
أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب وهذا يتضمن تعديله
صلى الله عليه وسلم لحمة العلم الذي بعث به وهو المشار إليه في قوله هذا العلم فكل من
حمل العلم المشار إليه لا بد وأن يكون عدلاً ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارا
لا يقبل شكاً ولا امتراء ولا ريب أن من عدله رسول الله ﷺ لا يسمع فيه جرح فالأئمة
الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ
ولهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة بجرحه والقدح فيه
كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين فانهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم
فما حمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل ولكن قد يغلط في مسمى العدالة فيظن أن المراد بالعدل
من لا ذنب له وليس كذلك بل هو عدل موثوق على الدين وإن كان أمته ما يتوب إلى الله منه
فإن هذا لا ينافي العدالة كما لا ينافي الإيمان والولاية .

فصل

وهذا الحديث له طرق عديدة منها ما رواه ابن عدى عن موسى بن اسمعيل بن موسى بن
جعفر عن أبيه عن جده جعفر بن محمد عن أبيه عن علي عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه
العوام بن حوشب عن شهر بن حوشب عن معاذ عن النبي ﷺ ذكره الخطيب وغيره .
ومنها ما رواه ابن عدى من حديث الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن سالم عن ابن
عمر عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه محمد بن جرير الطبري من حديث ابن أبي كريمة عن معاذ
ابن رفاعة السلمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه
حماد بن زيد عن بقة بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول
الله ﷺ . قال الدارقطني حدثنا أحمد بن الحسن بن زيد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا مشي
ابن بكر ومبشر وغيرهما من أهل العلم كلهم يقولون حدثنا معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن

قبولها وما تحته من تنبيههم على محبته لهم وإثارة إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين وما تحته من احتقارهم وازدراؤهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم وإن كنتم تؤمنوا بها فعبادى المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير كما قال تعالى . (قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا تبلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وإذا كان الملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره فنظر إليهم وقال إن يكفر هؤلاء نعمي ويعصوا أمرى ويضيعوا عهدى فإن لى عبيدا سواهم وهم أنتم تطيعون أمرى وتحفظون عهدى وتدودون حقي فان عبيده المطيعين يجدون فى أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم وهذا أمر يشهد به الحس والعيان . وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها كما يوكل الرجل غيره بالشئ ليقوم به ويتعهد ويحافظ عليه وبها الأولى متعلقة بوكلائها وبها الثانية متعلقة بكافرين والباء فى بكافرين لتأكيد النفي . فان قلت فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء المؤكلين أنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال لى الله . قلت لا يلزم من اطلاق فعل التوكيل المقيد بأمر ما إن يصاغ منه اسم فاعل مطلق كما أنه لا يلزم من اطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال خليفة الله لقوله (ويستخلفكم فى الأرض) . وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لسلك منهم أنه خليفة الله لأنه استخلاف مقيد ولما قيل للصدى يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسى ذلك ولاكن يسوع أن يقال هو وكيل بذلك كما قال تعالى (فقد وكلنا بها قوما) والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملا وجهادا لأعدائها وذبا عنها ونفيا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وأيضا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه فى غيبته لحاجة إليه . ولهذا قال بعض الساف (فقد وكلنا بها قوما) يقول رزقناها قوما فلها لا يقال لمن رزقها ورحم بها أنه وكيل لله وهذا بخلاف اشتقاق لى الله من الموالاة فانها المحبة والقرب فكما يقال عبد الله وحبيبه يقال وليه والله تعالى يوالى عبده إحسانا إليه وجبرا له ورحمة بخلاف المخلوق فانه يوالى المخلوق لتعززه به وتمكثه بموالاته لذل العبد وحاجته وأما العزيز الغنى فلا يوالى أحدا من ذل ولا حاجة . قال تعالى (وكل الحمد لله الذى

بمخاديفه إلى الجهل وموجبه (الوجه الخامس والثلاثون بعد المائة) أن الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة . قال تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) وقد قيل ان هؤلاء القوم هم الأنبياء وقيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مؤمن . هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه كقول من قال هم الأنصار أو المهاجرون والأنصار أو قوم من أبناء فارس وقال آخرون هم الملائكة . قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سباهم في الآيات قبل هذه الآية . قال وذلك ان الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى وفي التي بعدها عنهم ذكر فما يليها بان يكون خبراً عنهم أولى وأحق بان يكون خبراً عن غيرهم فالتأويل فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ولا يكذبون بها ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها . قلت السورة مكية والإشارة بقوله هؤلاء إلى من كفر به من قومه أصلاً ومن عداهم تبعاً فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلاً والمؤمنون بهم تبعاً فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلاً وللمؤمنين بهم تبعاً وأحق من دخل فيها من اتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته فهم الموكلون بها وهذا يذهب في الأقوال التي قيلت في الآية . وأما قول من قال أنهم الملائكة فضعيف جداً لا يدل عليه السياق وتأباه لفظة قوما إذ الغالب في القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببني آدم دون الملائكة . وأما قول إبراهيم لهم قوم منكرون فإنما قاله لما ظنهم من الإنس وأيضاً فلا يقتضيه غمامة المعنى ومقصوده ولهذا لو أظهر ذلك وقيل فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من التسليمية وتحقير شأن الكفرة بها وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها وأهلها والله أعلم حيث يضع هداً ويختص به من يشاء وأيضاً فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويدعون عنها فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئاً فإن لها أهلاً ومستحقاً سواهم فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمصارعة إلى

(١١ — مفتاح)

مباحاته كلها طاعات فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومه وصومه واجتهاده وهو دائماً بين سراء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها فهو سائر الى الله دائماً في نومه ويقتضيه . قال بعض العلماء الاكياس عبادات الحق والحقى عباداتهم عادات وقال بعض السلف حبذا نوم الاكياس وفطرهم يغفنون به سهر الحقى وصومهم فالحب الصادق ان نطق نطق الله وبالله وان سكنت سكنت الله وان تحرك فبأمر الله وان سكن فسكونه استعانة على مرضات الله فهو لله وبالله ومع الله ومع الله صاحب هذا المقام أحوج خلق الله الى العلم فانه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم فليست حاجته الى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ولانه فى نفسه صفة كمال بل حاجته اليه كحاجته الى ما به قوام نفسه وذاته ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريدتهم بالعلم وطلبه وانه من لم يطلب العلم لم يفلح حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة . قال ذو النون وقد سئل من السفلة فقَالَ من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه وقال أبو يزيد لو نظرتم إلى الرجل وقد أعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة . وقال أبو حمزة البزاز من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الا متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله . وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد ذهاب الإسلام على يدى أربعة أصناف من الناس صنف لا يعملون بما يعملون وصنف يعملون بما لا يعملون وصنف لا يعملون ولا يعلمون وصنف يمنعون الناس من التعلم قلت . الصنف الأول من له علم بلا عمل فهو أضر شيء على العامة فانه حجة لهم فى كل تقية ومنحسة . والصنف الثانى العابد الجاهل فان الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف فى قوله احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون فان الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم فاذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة والصنف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة . والصنف الرابع نواب إبليس فى الأرض وهم الذين يشبطون الناس عن طلب العلم والتفقه فى الدين فهو لاء أضر عليهم من شياطين الجن فانهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه فهو لاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهدى وما يلقى العالم الداعى إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمخاربة إلا على أيديهم والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما يستعمل من يحب فى مرضاته إنه بعباده خبير بصير ولا يكشف سر هذه الطوائف وطريقاتهم إلا بالعلم فعاد الخير بخذافيره إلى العلم وموجبه والشر

يطلق القول بأن علم العربية واجب على الإطلاق إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليهما وكذلك أصول الفقه القدر الذي يتوقف فهم الخطاب عليه منه يجب معرفته دون المسائل المقررة والأبحاث التي هي فضلة فكيف يقال أن تعلمها واجب وبالجملة فالمطلوب الواجب من العبد من العلوم والأعمال إذا توقف على شيء منها كان ذلك الشيء واجباً وجوب الوسائل . ومعلوم أن ذلك التوقف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأسئلة والأذهان فليس لذلك حد مقدر والله أعلم (الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة) ما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ قال سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها قال يارب أى عبادك أتقى قال الذى يذكر ولا ينسى قال فأى عبادك أهدى قال الذى يتبع الهدى قال فأى عبادك أحكم قال الذى يحكم للناس ما يحكم لنفسه قال أى عبادك أعلم قال عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه قال فأى عبادك أعز قال الذى إذا قدر عفا قال فأى عبادك أغنى قال الذى يرضى بما أوتى قال فأى عبادك أفقر قال صاحب منقوص فأخبر فى هذا الحديث أن أعلم عباده الذى لا يشبع من العلم فهو يجمع علم الناس إلى علمه لئلا ينهته فى العلم وحرصه عليه ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله وهذا هو الذى حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه بما عليه الله . هذا وهو كليم الرحمن وأكرم الخلق على الله فى زمانه وأعلم الخلق لحمله حرصه ونهمته فى العلم على الرحلة إلى العالم الذى وصف له فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المجهود وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الحضر بما هو بصدد من أمر الأمة وعن مقاساة النصب والتعب فى رحلته وتلطفه للخصم فى قوله (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) فلم ير اتباعه حتى استأذنه فى ذلك وأخبره أنه جاء متعلماً مستفيداً فهذا النبى الكريم كان عالماً بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه (الوجه الرابع والثلاثون بعد المائة) أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبه وإيثار مرضاته المستلزمة لمعرفته ونصب للعباد علماً لا كمال لهم إلا به وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبه ولذلك أرسل رسوله وأنزل كتبه وشرع شرائعه فكمال العبد الذى لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له ولهذا جعل اتباع رسوله دليلاً على محبه . قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فالحب الصادق يرى خيانة منه المحب به أن يتحرك بحركة اختيارية فى غير مرضاته وإذا فعل فعلاً مما أبيع له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب

وخلق لا يحصون كثرة ورأيت استشكلات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الاشكال ومخالفاتها ما كان ينقدح لي كثير منه ورأيت آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الإسلام قدس الله روحه فإنه أتى في كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب وكشف أسرارهم وهتك أستارهم فقلت في ذلك :

واعجبنا لمنطق اليونان كم فيه من إلفك ومن بهتان
مخبط لمجد الأذهان ومفسد لفظة الإنسان
مضطرب الأصول والمباني على شفا هار بناء الباقي
أحوج ما كان إليه العاني يخونه في السر والإعلان
يمشي به اللسان في الميدان مشى مقيد على صفوان
متصل العثار والتواني كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظلم الحيراني فأمره بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمان فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالخبيبة والخسران يقرع من نادى حيران
قد ضاع منه العمر في الأمان وعان الخفة في الميزان

وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة فهو بأن يكون جهلا أولى منه بأن يكون علماً تعلبه
فرض كفاية أو فرض عين وهذا الشافعي وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وسائر أئمة
العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق
وأوضاعه وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا بل هم كانوا أجل قدراً وأعظم عقولاً من أن
يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغير أوضاعه وشوش
قواعده . ومن الناس من يقول أن علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعاني والبيان
ونحوها تعلمها فرض كفاية لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها . ومن الناس من يقول تعلم
أصول الفقه فرض كفاية لأنه العلم الذي يعرف به الدليل ومرتبته وكيفية الاستدلال وهذه
الأقوال وإن كانت أقرب إلى الصواب من القول الأول فليس وجوبها عاماً على كل أحد
ولا في كل وقت وإنما يجيب وجوب الوسائل في بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص بخلاف
الفرض الذي يعم وجوبه كل أحد وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام فهذا هو الواجب
وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به ويكون الواجب
منه القدر الموصل إليه دون المسائل التي هي فضلة لا يفترق معرفة الخطاب وفهمه إليها فلا

إلى ثلاثة أصول اعتقاد وفعل وترك فالواجب في الاعتقاد مطابقة للحق في نفسه والواجب في العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمراً وإباحة والواجب في الترك معرفة موافقة الكيف والسكون لمرضات الله وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب فلا يتحرك في طلبه أو كيف النفس عن فعله على الطريقتين . وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان وأما فرض الكفاية فلا أعلم فيه ضابطاً صحيحاً فإن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضاً فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحداذة والخياطة ونحوها وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين وبناءه على عدم صحة إيمان المقلد وكل هذا هوس وخبط فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله فياسبحان الله هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيباً حاسماً حاسباً مهندساً أو حائكاً أو فلاحاً أو نجاراً أو خياطاً فإن فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم فإنه ليس واحد منها فرضاً على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيته مشتركة بين العموم فيجب على كل أحد أن يكون حاسباً حائكاً خياطاً نجاراً فلاحاً طبيباً مهندساً فإن قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحاً لأن فرض الكفاية يجب على العموم . وأما المنطق فلو كان علماً صحيحاً كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها للذهن أن يزيغ في فكره ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فسادَه وتناقضه ومناقضه كثير منه للعقل الصريح وأخبر بعض من كان قد قرأه وعنى به أنه لم يزل متعجباً من فساد أصوله وقواعده ومبانيها الصريح المعقول وتضمنها لدعوى محضة غير مدلول عليها وتقريظه بين متساويين وجمعه بين مختلفين فيحكم على الشيء بحكم وعلى نظيره بضد ذلك الحكم أو يحكم على الشيء بحكم ثم يحكم على مضاده أو مناقضه به قال إلى أن سألت بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شيء من ذلك فأفكر فيه ثم قال هذا علم قد صدقته الأذهان ومرت عليه من عهد القرون الأوائل أو كما قال فينبغي أن نتسلمه من أهله وكان هذا من أفضل ما رأيت في المنطق . قال إلى أن وقفت على رد متكلمي الإسلام عليه وتبين فسادَه وتناقضه فوقفت على مصنف لأبي سعيد السيرافي النحوي في ذلك وعلى رد كثير من أهل الكلام والعربية عليهم كالقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي عبد الجبار والجبائي وابنه وأبي المعالي وأبي القاسم الأنصاري

وجراءته موقن بأن الرجل يدع له ناقته يفتدى بها من نفسه قالوا وعلى هذا يخرج معنى الحديث نحن أحق بالشك من إبراهيم وفيه أجوبة لكن بين العيان والخير رتبة طلب إبراهيم زوالها بقوله ولكن ليطمئن قلبي فعبّر عن تلك الرتبة بالشك والله أعلم . (الوجه الثاني والثلاثون بعد المائة) ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال طلب العلم فريضة على كل مسلم وهذا وإن كان في مسنده حفص بن سليمان وقد ضعف فمعناه صحيح فإن الإيمان فرض على كل واحد وهو ماهية مركبة من علم وعمل فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل . ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن أدائها إلا بعد معرفتها والعلم بها والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً فطلب العلم فريضة على كل مسلم وهل يمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم وهل ينال العلم إلا بطائه ثم إن العلم المفروض تعلمه ضربان ضرب منه فرض عين لا يسع مسلماً جهله وهو أنواع النوع الأول علم أصول الإيمان الخمسة بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان ولا يستحق اسم المؤمن . قال الله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) وقال (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) . ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال صدقت فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها . النوع الثاني علم شرائع الإسلام واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها . النوع الثالث علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية وهي المذكورة في قوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لاتباح قط ولهذا أتى فيها بانما المفيدة للحصر مطلقاً وغيرها محرم في وقت مباح في غيره كاليمين والدم ولحم الخنزير ونحوه فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق . النوع الرابع علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلف الناس في أسباب العلم الواجب وذلك يرجع

وقال السرى اليقين السكون عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا. قلت هذا إذا لم تكن الحركة مأمورا بها فإذا كانت مأمورا بها فاليقين في بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع. وقيل إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار بالبلاء عنده نعمة والمحنة منحة فالعلم أول درجات اليقين. ولهذا قيل العلم يستعملك واليقين يحملك فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ولا تثبت قدم الرضاء إلا على درجة اليقين. قال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه). قال ابن مسعود هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم فلها لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه قال في الصحاح اليقين العلم وزوال الشك يقال منه يثبت الأمر يقنا واستيقنت وأيقنت وتيقنت كله بمعنى واحد وأنا على يقين منه وإنما صارت الياء واوا في موقن للضمة قبلها وإذا صغرتا رددته إلى الأصل فقلت ميقن وربما عبروا عن الظن باليقين وبالظن عن اليقين قال :

تحسب هواس وأيقن أنى بها مفتد من واحد لا أغامره

يقول تشمم الأسد ناقتى يظن أنى أفندى بها منه واستعجى نفسى فآتركها له ولا اقتحم الممالك لمقاتته. قلت هذا موضع اختلاف فيه أهل اللغة والتفسير هل يستعمل اليقين في موضع الظن والظن في موضع اليقين فرأى ذلك طائفة منهم الجوهري وغيره واحتجوا بسوى ما ذكر بقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) ولو شكوا في ذلك لم يكونوا موقنين فضلا عن أن يمدحوا بهذا المدح وبقوله (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله). وبقوله تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) وبقول الشاعر

فقلت لهم ظنوا بالأنى مقاتل سراتهم في الفارسي المسرد

أى استيقنوا بهذا العدد وأبى ذلك طائفة وقالوا لا يكون اليقين إلا للعلم وأما الظن فمنهم من وافق على أنه يكون الظن في موضع اليقين وأجابوا عما احتج به من جواز ذلك بأن قالوا هذه المواضع التى زعمتهم أن الظن وقع فيها موقع اليقين كلها على بابها فإننا لم نجد ذلك إلا في علم بمغيب ولم نجدهم يقولون لمن رأى الشيء أظنه ولمن ذاقه أظنه وإنما يقال لغائب قد عرف بالسمع والعلم فاذا صار إلى المشاهدة امتنع إلى إطلاق الظن عليه قالوا وبين العيان والخبر مرتبة متوسطة باعتبارها أرفع على العلم بالغائب الظن لفقد الحال التى تحصل المدركة بالمشاهدة وعلى هذا أخرج سائر الأدلة التى ذكرتموها ولا يرد على هذا قوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) لأن الظن إنما وقع على مواقعتها وهى غيب حال الرؤية فاذا واقعوها لم يكن ذلك ظنا بل حق يقين قالوا وأما قول الشاعر : وأيقن أنى بها مفتد . فعلى بابيه لأنه ظن أن الأسد لتيقنه شجاعته

الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها . وقال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) . قال الفراء وجماعة ومن اتبعني معظوف على الضمير في أدعو يعني ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو وهذا قول السكلي قال حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى مادعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة . قال ابن الأنباري ويجوز أن يتم السلام عند قوله إلى الله ثم يتبدى بقوله على بصيرة أنا ومن اتبعني فيكون السلام على قوله جملتين أخبر في أولهما أنه يدعو إلى الله وفي الثانية بانه من أتباعه على بصيرة والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى مادعا إليه وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء . (الوجه الحادي والثلاثون بعد المائة) . أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يشمر اليقين الذي هو أعظم حياة القلب وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ولهذا مدح الله سبحانه أهله في كتابه وأثنى عليهم بقوله (وبالأخرة هم يوقنون) وقوله تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يوقنون) . وقوله في حق خليله إبراهيم (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) وذم من لا يقين عنده فقال (إن الناس كانوا أبايتنا لا يوقنون) . وفي الحديث المرفوع من حديث سفيان الثوري عن سليمان التيمي عن خيشمة عن عبد الله بن مسعود يرفعه لا ترضين أحداً بسخط الله ولا تحمدن أحداً على فضله ولا تذهمن أحداً على مالم يؤنك الله فان رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره وأن الله يعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط فإذا باشر القلب اليقين امتلأ نوراً وانتفى عنه كل ريب وشك وعوفي من أمراضه القائلة وامتلاً شكراً لله وذكر له ومحبة وخوفاً فني عن بئنة واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان وعليهما ينبني وبهما قوامه وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية وعنهما تصدر وبضعفهما يكون ضعف الأعمال وبه قوتها وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تفتح بهما وهما يشمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم . قال شيخ العارفين الجيد اليقين هو استقرار العلم الذي لا يتقلب ولا يتحول ولا يتغير في القلب . وقال سهل حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله وقيل من علاماته الالتفات إلى الله في كل نازلة والرجوع إليه في كل أمر والاستعانة به في كل حال وإرادة وجهه بكل حركة وسكون

الاستخلاف عام في الامة وخلافة الله التي ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق .
 فالجواب أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الاضافة فالاضافة هنا للشريف والتخصيص
 كما يضاف اليه عباده . كقوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان * وعباد الرحمن الذين
 يمشون على الأرض هونا) ونظائرهما . ومعلوم أن كل الخلق عباد له تخلفاء الأرض كالعباد في قوله
 (والله بصير بالعباد . وما الله يريد ظلالا للعباد) وخلفاء الله في قوله (إن عبادى ليس لك
 عليهم سلطان) ونظائره وحقيقة اللفظة أن الخليفة هو الذى يخلف الذاهب أى يجيء بعده
 يقال خلف فلان فلانا وأصلها خليف بغير هاء لأنها فاعيل بمعنى فاعل كالعليم والقدير فدخلت
 التاء للمبالغة في الوصف كراوية وعلامة . ولهذا جمع جمع فاعيل فاعيل خلفاء كشریف وشرفاء
 وكريم وكرماء ومن راعى لفظه بعد دخول التاء عليه جمعه على فعائل فقال خلانف كعقيلة
 وعقائل وظريفة وظرائف وكلاهما ورد به القرآن هذا قول جماعة من النحاة . والصواب
 أن التاء إنما دخلت فيها للعدل عن الوصف إلى الاسم فإن الكلمة صفة في الأصل ثم أجريت
 مجرى الاسماء فألحقت التاء لذلك كما قالوا نعليحة بالتاء فإذا أجروها صفة قالوا شاة نظيح كما
 يقولون كف خضيب وإلا فلا معنى للمبالغة في خليفة حتى تلحقها تاء المبالغة والله أعلم .
 وقوله ودعائه إلى دينه الدعاة جمع داع كقاض وقضاة ورام ورماة وإضافتهم إلى الله
 للاختصاص أى الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته
 وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلام قدرأ * يدل على ذلك (الوجه
 الثلاثون بعد المائة) وهو قوله تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال
 إننى من المسلمين) . قال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب
 الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته فهذا حبيب الله هذا ولى الله فقام الدعوة إلى الله
 أفضل مقامات العبد . قال تعالى (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) .
 وقال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) جعل
 سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل للذكر الذى لا يعاند الحق
 ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة . والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخريدى بالموعظة الحسنة
 وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة . والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن هذا
 هو الصحيح في معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهى
 دعوة الخواص . والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهى دعوة العوام . والمجادلة بالتي هي أحسن
 القياس الجدلى وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلى مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبني على أصول

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا

ومنعت طائفة هذا الاطلاق وقالت لا يقال لاحد أنه خليفة الله فان الخليفة انما يكون عن
 يغيب ويخلفه غيره والله تعالى شاهد غير غائب قريب غير بعيد راء وسامع فحال أن يخلفه
 غيره بل هو سبحانه الذى يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم
 فى حديث الدجال أن يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فامرو حجيجه
 نفسه والله خليفتي على كل مؤمن والحديث فى الصحيح . وفى صحيح مسلم أيضا من حديث
 عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا سافر اللهم أنت الصاحب فى
 السفر والخليفة فى الأهل والحضر الحديث . وفى الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم
 اغفر لابی سلة وارفع درجته فى المهدين واخلفه فى أهله فانه تعالى هو خليفة العبد لأن العبد
 يموت فيحتاج الى من يخلفه فى أهله . قالوا ولهذا أنكر الصديق رضى الله عنه على من قال له
 يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسبى ذلك . قالوا وأما قوله
 تعالى (انى جاعل فى الأرض خليفة) فلا خلاف ان المراد به آدم وذريته وجمهور أهل التفسير
 من السلف والخلف على أنه جملة خليفة عن كان قبله فى الأرض . قيل عن الجن الذين كانوا
 سكانها . وقيل عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن وقصتهم مذكورة فى التفاسير . وأما قوله
 تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) فليس المراد به خلائف عن الله وانما المراد
 به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضا فكلما هلك قرن خلفه قرن الى آخر الدهر . ثم قيل ان هذا
 خطاب لامة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة أى جعلكم خلائف من الامم الماضية فهلكوا
 وورثتم أنتم الأرض من بعدهم ، ولا ريب ان هذا الخطاب للامة والمراد نوع الانسان الذى
 جعل الله أباهم خليفة عن قبله وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضا الى قيام الساعة ولهذا جعل هذا
 آية من آياته كبقوله تعالى (أمن يحيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض)
 وأما قول موسى لقومه (ويستخلفكم فى الأرض) فليس ذلك استخلاف عنه وانما هو استخلاف
 عن فرعون وقومه أهلهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم وكذا قول النبي صلى الله عليه
 وسلم ان الله مستخلفكم فى الأرض أى من الامم التى تهلك وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم .
 قالوا وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة فى غيبة الصديق لا يدرى أبلغت أبا بكر أم لا
 ولو بلغته فلا يعلم انه أقره على هذه اللفظة أم لا . قلت ان أريد بالاضافة الى الله أنه خليفة عنه
 فالصواب قول الطائفة المانعة منها وإن أريد بالاضافة أن الله استخلفه عن غيره من كان قبله
 فهذا لا يمتنع فيه الاضافة وحقيقتها خليفة الله الذى جعله الله خلفا عن غيره وبهذا يخرج
 الجواب عن قول أمير المؤمنين أولئك خلفاء الله فى أرضه . فان قيل هذا لا مدح فيه لان هذا

المؤمن في هذه الدار سبي من الجنة إلى دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام على حنينه إلى داره التي سبي منها وفرق بينه وبين من يحب وجمع بينه وبين عدوه فروحه دائماً معلقة بذلك الوطن وبدنه في الدنيا . ولئى من آيات في ذلك :

وحى إلى جنات عن فاتها منازل الأولى وفيها الخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم
وكذا أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحا وإيلافه وطنه غيره أثبت ذلك
روحه وقلبه كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار أين حل منها فهو في دار غربة . كما قال النبي صلى الله
عليه وسلم كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ولكنها غربة تنقضى ويصير إلى وطنه
ومنزله وإنما الغربة التي لا يرجى انقطاعها فهي غربة في دار الهوان ومفارقة وطنه الذي كان
قد هيى وأعد له وأسر بالنتجهز إليه والقعود عليه فإى إلا اغترابه عنه ومفارقته له فتلك غربة
لا يرجى إيابها ولا يجبر مصابها ولا تبادر إلى انكار كون البدن في الدنيا والروح في الملا
الأعلى فللروح شأن والبدن شأن والنبي صلى الله عليه وسلم كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه
يطعمه ويسقيه فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه . وقال أبو الدرداء إذا نام العبد عرج بروحه
إلى تحت العرش فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود وإن لم يكن طاهراً لم يؤذن لها بالسجود
فهذه والله أعلم هي العلة التي أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم وهذا الصعود إنما كان
لتجرد الروح عن البدن بالنوم فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب
ذلك التجرد وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه في موضع
آخر عند محبوبه وفي هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف . وقوله أولئك خلفاء
الله في أرضه ودعائه إلى دينه هذا حجة أحد القولين في أنه يجوز أن يقال فلان خليفة الله في
أرضه واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى للملائكة (انى جاعل في الأرض خليفة) . واحتجوا
بقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) وهذا خطاب لنوع الانسان بقوله
تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) وبقول موسى
لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) . وبقول
النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يمكن لكم فى الأرض ومستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون
فانقوا الدنيا واتقوا النساء . واحتجوا بقول الراعى يخاطب أبا بكر رضى الله عنه :

خليفة الرحمن انا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

رأى عين فاذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا . قال فقال رسول الله ﷺ لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصاغتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة وساعة وساعة . قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وفي الترمذي أيضاً نحوه من حديث أبي هريرة . والمقصود أن الذي يهجم بالقلب على حقيقة الايمان ويلين له ما يستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواء العلم التام والحب الخالص والحب تبع للعلم يقوى بقوته ويضعف بضعفه والحب لا يستوعر طريقاً توصله إلى محبوبه ولا يستوحش فيها . وقوله صحبوا الدنيا بآبدان أرواحها معلقة بالملا الأعلى وفي رواية بالمحل الأعلى الروح في هذا الجسد بدار غربة ولها وطن غيره فلا تستقر إلا في وطنها وهي جوهر علوى مخلوق من مادة علوية وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكشيف فهي دائماً تطلب وطنها في المحل الأعلى وتحن إليه حنين الطير إلى أو كرها وكل روح ففيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة أخذت إلى الأرض ونسيت معلمها وطنها الذي لا راحة لها في غيره فانه لا راحة للروح من دون لقاء ربه والدنيا سجنه حقاً فلذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا وروحه في المحل الأعلى . وفي الحديث المرفوع إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول انظروا إلى عبدي وروحه في الأرض وروحه عندى رواه تمام وغيره . وهذا معنى قول بعض السلف القلوب جوارح القلب حول الحشر وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش فأعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها في أعماق البدن واشتغالها بما لا يلائمها وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب فإذا صحت من سكرها وأفادت من غمرتها أقبلت عليها جيوش الحشرات من كل جانب حينئذ تنقطع حسرات على ما فاتها من كرامة الله وقربه والانس به والوصول إلى وطنها الذي لا راحة لها الا فيه كما قيل :

صحبك اذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

ولو تنقلت الروح في المواطن كلها والمنازل لم تستقر ولم تطمئن الا في وطنها ومحلها الذي خلقت له كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

واذا كانت الروح تحن أبداً إلى وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه في السكنى وكثيراً ما يكون غير وطنها أحسن وأطيب منه وهي دائماً تحن إليه مع أنه لا يضر عليها ولا عذاب في مفارقتها إلى مثله فكيف يحينها إلى الوطن الذي في فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التي لا تنقضى فالعبد

وأن وصفها صدق في وصفها إذ يقول

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجوع

أراها وإن كانت تحب فانها سحابة صيف عن قليل تقشع

فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما رحلت عن أهلها موليه وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما
أسرعت إلى الخلق مقبلة فامتطوا ظهور العزائم وهجروا لذة المنام وما ليل الحب بنائم علموا
طول الطريق وقلة المقام في منزل التزود فسارعوا في الجهاز وجد بهم السير إلى منازل الأحباب
فقطعوا المراحل وطورا المفاوز . وهذا كله من ثمرات اليقين فان القلب إذا استيقن ما أمامه
من كرامة الله وما أعد لأوليائه بحيث كما أنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ويعلم أنه إذا زال
الحجاب رأى ذلك عيانا زالت عنه الوحشة التي يحدها المتخلفون ولأن لهما استوعره المترفون
وهذه المرتبة هي أول مراتب اليقين وهي علمه وتيقنه وهي انكشاف المعلوم للقلب بحيث
يشاهده ولا يشك فيه كما انكشف المرتضى للبصر . ثم يليها المرتبة الثانية وهي مرتبة عين اليقين ونسبتها
إلى العين كنسبة الأول إلى القلب ثم تليها المرتبة الثالثة وهي حق اليقين وهي مباشرة المعلوم
وإدراكه الإدراك التام فالأولى كعملك بأن في هذا الوادي ماء والثانية كرويته والثالثة كالشرب
منه . ومن هذا ما يروى في حديث حارثة . وقول النبي ﷺ كيف أصبحت يا حارثة قال أصبحت
مؤمنا حقا قال إن لكل قول حقيقة فاحقيقة إيمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها فأسهرت
ليلي وأظلمات نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون
فيها وإلى أهل النار يتعاون فيها . فقال عبد نور الله قلبه فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على
حقيقة الأمر ومن وصل إلى هذا استلان ما يستوعره المترفون وأنس بما يستوحش منه الجاهلون
ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو إيمان ضعيف وعلامة هذا النشراح الصدر لمنازل
الايان وانفساحه وطمأنينة القلب لأمر الله والإنابة إلى ذكر الله ومحبه والفرح بلقائه
والتجاني عن دار الغرور كما في الأثر المشهور إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قيل وما
علامة ذلك قال التجاني عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للبوت قبل نزوله
وهذه هي الحال التي كانت تحصل للصحابه عند النبي ﷺ إذا ذكرهم الجنة والنار كما في الترمذي وغيره
من حديث الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسدي . وكان من كتاب النبي ﷺ أنه
مر بأبي بكر رضي الله عنه وهو يبكي فقال مالك يا حنظلة فقال نافق حنظلة يا أبا بكر نكون
عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كانا رأى عين فاذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة
نسبنا كثير اقال فوالله إنا لسلكنا انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فانطلقنا فلما رآه رسول الله
ﷺ قال مالك يا حنظلة قال نافق حنظلة يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كانا

لا تزال طائفة من أمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم الى قيام الساعة فلا يزال غرس الله الذين غرسهم في دينه يغرسون العلم في قلوب من أهلهم الله لذلك وارتضاهم فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم فلا تنقطع حجج الله والقائم بها من الأرض . وفي الأثر المشهور لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته . وكان من دعاء بعض من تقدم اللهم اجعلني من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك ولهذا ما أقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما عليه من العلم والحكمة أما في قلوب أمثاله وأما في كتب ينتفع بها الناس بعده وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد فان العالم إذا زرع عليه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقي له ذكره وهو عمر ثمان وحياة أخرى وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون ورغب فيه الراغبون . وقوله هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانا ما استوعره المترفون وأنسا مما استوحش منه الجاهلون . الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم قل ساكوها وازاهدكم فيها قلة عليهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم وما هيئوا له وهيء لهم فقل عليهم بذلك واستلانا مركب الشهوة والهوى على مركب الاخلاص والتقوى وتوعرت عليهم الطريق وبعدت عليهم الشقة وصعب عليهم مرتقى عقابها وهبوط أوديتها وسلوك شعابها فأخلدوا الى الدعة والراحة وآثروا العاجل على الآجل وقالوا عيشنا اليوم نقد وموعدنا نسيمة فنظروا الى عاجل الدنيا وأغضوا العيون عن آجائها ووقفوا مع ظاهرها . ولم يتأملوا باطنها وذاقوا حلاوة مبادئها وغاب عنهم مرارة عواقبها ودر لهم نديها فطاب لهم الارتضاع واشتغلوا به عن التفكير في الفطام ومرارة الانقطاع وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثلا في ذلك :

* خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به *

وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه في أمة فانهم لكمال عليهم وقوته نقد بهم الى حقيقة الأمر وهجم بهم عليه فعانوا ببصائرهم ما عشيت عنه بصائر الجاهلين فاطمأننت قلوبهم به وعملوا على الوصول اليه لما باشرها من روح اليقين رفع لهم علم السعادة فشعروا اليه وأسمعهم منادى الايمان النداء فاستبقوا اليه واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهّدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه علموا أن الدنيا دار بمر لا دار مقر ومنزل عبور لا مقعد حبور وأنها خيال طيف أو سحابة صيف وإن من فيها كراكب قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها وتيقنوا أنها أحلام نوم أو كظلم زائل :

* إن اللبيب بمثلها لا يخدع *

وهو من آيات الله الموجودة في العالم . ومنه قول موسى لفرعون وقومه (قد جئتمكم بيينة من ربكم فأرسل معي بنى اسرائيل قال إن كنت جئت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه) وكان القاء العصا وانقلابها حية هو البيينة . وقال قوم هود يا هود ما جئتنا بيينة يريدون آية الاقتراح وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح لا يكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه وهذه هي الآيات التي قال الله تعالى فيها (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) فعدم إجابته سبحانه إليها لإذ طلبها الكسفار رحمة منه وإحسان فانه جرت سنته التي لا تبدل لها انهم إذا طلبوا الآية واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عولجوا بعذاب الاستئصال فلما علم سبحانه أن هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية لم يجهم إلى ما طلبوا فلم يعمهم بعذاب لما أخرج من بينهم وأصلابهم من عبادة المؤمنين وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقترحوها . فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته واحسانه بخلاف الخبيث فانها لم تنزل متتابعة يتلو بعضها بعضا وهي كل يوم في مزيد وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أكثر ما كانت وهي باقية إلى يوم القيامة ، وقوله أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدرا يعنى هذا الصنف من الناس أقل الخلق عدداً وهذا سبب غربتهم فانهم قليلون في الناس والناس على خلاف طريقهم فلهم نبأ وللناس نبأ . قال النبي صلى الله عليه وسلم بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للفرباء فالؤمنون قليل في الناس والعلماء قليل في المؤمنين وهؤلاء قليل في العلماء وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فانهم يقولون لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً والناس على خلافهم . فاعلم أن هؤلاء هم الناس ومن خالفهم فمشبهون بالناس وليسوا بناس فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عدداً . قال ابن مسعود لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس . وقد ذم سبحانه الأكثرين في غير موضع كقوله (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . وقال : (وقليل من عبادى الشكور) وقال : (وإن كثيرا من الخطاء ليمغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) . وقال بعض العارفين انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب .

مت بداء الهوى والاخفاطر واطرق الحى والعيون نواظر

لا تخف وحشة الطريق اذا سر ت وكن في خفارة الحق سائر

وقوله بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها الى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم وهذا لأن الله سبحانه ضمن حفظ حججه وبيئاته وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

دلالة القرآن بطريق الخبر وإلا فدلالته البرهانية العقلية التي يشير إليها يرشد إليها فتكون دليلاً سمعياً عقلياً أمر تميز به القرآن وصار العالم به من الراسخين في العلم وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب وتساكن عنده النفس ويزكو به العقل وتستأنس به البصيرة وتقوى به الحجة ولا سبيل لأحد من العالمين إلى قطع من حاج به بل من خاعم به فاجت حجته وكسر شبهة خصمه وبه فتحت القلوب واستجيب لله ولرسوله ولكن أهل هذا العلم لا تنكاد الأعصار تسمح منهم إلا بالواحد بعد الواحد فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية لا تعترضها الشبهات ولا تتداولها الاحتمالات ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها أبداً وقال بعض المتكلمين أفيت عمرى في السكلام أطلب الدليل وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه وإذا أنا بالدليل حقاً معي وأنا لا أشعر به فقلت والله ما مثلي إلا كما قال القائل :

ومن العجائب والعجائب جمّة قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيش في البقاء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

قال فلما رجعت إلى القرآن إذا هو الحكيم والدليل ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبياناته ما لو جمع كل حق قاله المتكلمون في كتبهم لكانت سورة من سور القرآن وافية بمضمونه مع حسن البيان وفصاحة اللفظ وتطبيق المفصل وحسن الاحتراز والتنبيه على مواقع الشبهة والإرشاد إلى جوابها وإذا هو كما قيل بل فوق ما قيل :

كفى وشفى ما في الفؤاد فلم يدع لذي أرب في القول جداً ولا هزلاً

وجعلت جيوش السكلام بعد ذلك تفد إلى كما كانت وتزاحم في صدرى ولا يأذن لها القلب بالدخول فيه ولا تلقى منه إقبالا ولا قبولا فترجع على ادبارها . والمقصود أن القرآن مملوء بالاحتجاج وفيه جميع أنواع الأدلة والأقضية الصحيحة وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيه بإقامة الحجة والمجادلة . فقال تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) وقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه وهذه مناظرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لخصومهم وإقامة الحجج عليهم لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط في الجهل . والمقصود الفرق بين الحجج والبيانات . فنقول الحجج الأدلة العلمية والبيانات جمع بينة وهي صفة في الأصل يقال آية بينة وحجة بينة والبينة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل على . قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) فالبيانات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم) ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالابصار

تعالى (والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حججهم داحضة عند ربهم) والحجة هي اسم لما يحتاج به من حق وباطل قال تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم) فانهم يحتاجون عليكم بحجة باطلة (فلا تخشوهم واخشوني) وقال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا اتوا بأبائنا إن كنتم صادقين) والحجة المضافة إلى الله هي الحق وقد تكون الحجة بمعنى الخاصمة ومنه قوله تعالى (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم) أى قد وضع الحق واستبان وظهر فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة فان الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق فاذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة والجدال على بصيرة مخاصمة المنكر ومجادلته عناء لا غنى فيه هذا معنى هذه الآية وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها وأن المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يحتاج على خصومه ولا يجادلهم ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقهم وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فان القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيراد والأسئلة وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين . قال أبو حامد في أول الأحياء فان قلت فلم لم تورد في أقسام العلم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو مندوحان فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتى بيانه وأما مشاغبة بالعلق بمنافضات الفرق وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزديها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول ولكن تغير الآن حكمه إذا حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شبهاً ورتبت لها كلاماً مؤلفاً فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه . وقال الرازي في كتابه أقسام الذات لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيته تروى غليلاً ولا تشفى عليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الإثبات (إليه يصعد الكلم الطيب) (الرحمن على العرش استوى) وقرأ في النفي (ليس كمثل شيء) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فتح له من

(١٠ — مفتاح ١)

وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وهذا يدل على أنه لا يزال محمولا في القرون قرنا بعد قرن وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال قال رسول الله ﷺ لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته وغرس الله هم أهل العلم والعمل فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله . ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر وزاد الكذابون في حديث على إما ظاهراً مشهوراً وإما خفياً مستوراً وظنوا أن ذلك دليل لهم على القول بالمنتظر ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذا بيهم والحديث مشهور عن على لم يقل أحد عنه هذه المقالة إلا كذاب وحجج الله لا تقوم بخفي مستور لا يقع العالم له على خبر ولا ينتفعون به في شيء أصلاً فلا جاهل يتعلم منه ولا ضال يهتدى به ولا خائف يأمن به ولا ذليل يتعزز به فأى حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ولا يسمع منه كلمة ولا يعلم له مكان ولا سيما على أصول القائلين به فإن الذي دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا لا بد منه في اللطف بالمكلفين وانقطاع حجبتهم عن الله فيأله العجب أى لطف حصل بهذا المعلوم لا المعصوم وأى حجة أثبتتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل فإن هذا المعلوم إذا لم يكن لهم سبيل قط إلى لقائه والاهتداء به فهل في تكليف ما لا يطاق أبلغ من هذا وهل في العذر والحجة أبلغ من هذا فالذى فررت منه وقعت في شر منه وكنتم في ذلك كما قيل :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تمقص بالصحابة الأخيار وبسادة هذه الأمة وأن يرى الناس غورته ويغريه بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ولقد أحسن القائل :

ما آن للسر داب أن يلد الذي حملتموه بزعمكم ما آنا
فعلى عقولكم العفاء فانكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع فانتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها وهذا تصريح من أمير المؤمنين رضى الله عنه بأن حامل حجج الله في الأرض بحيث يؤدها عن الله ويبلغها إلى عباده مثله رضى الله عنه ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيامة . وقوله لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أى لكيلا تذهب من بين يدي الناس وتبطل من صدورهم وإلا فالبطلان محال عليها لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان . فإن قيل فما الفرق بين الحجج والبيانات . قيل الفرق بينهما أن الحجج هى الأدلة العلمية التى يعقلها القلب وتسمع بالأذن قال تعالى في مناصرة إبراهيم لقومه وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) قال ابن زيد بعلم الحجة وقال تعالى (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى) وقال

الصف الرابع من حرصه وهمته في جمع الأموال وتشميرها وادخارها فقد صارت لذته في ذلك وفقى بها عما سواه فلا يرى شيئاً أطيب له مما هو فيه فمن أين هذا ودرجة العلم هؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ولا من طلبته الصادقين في طلبه ومن تعلق منهم بشيء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله المدعين لوصاله المبتوتين من حباله وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون فإن الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون لسنا خيراً منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم فهم حجة لكل مفتون ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . وقوله أقرب شبيهاً بهم الأنعام السائمة وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى (إنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) فما أقصر سبحانه على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم والسائمة الرعية وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأن همته في سعى الدنيا وحطامها والله تعالى يشبه أهل الجبل والغى تارة بالأنعام وتارة بالجر وهذا تشبيه لمن تعلم علماً ولم يعقله ولم يعمل به فهو كالخمار الذي يحمل أسفاراً وتارة بالكلب وهذا لمن انسلخ عن العلم وأخذ إلى الشهوات والهوى . وقوله كذلك يموت العلم بموت حامله هذا من قول النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمر وعائشة رضي الله عنهم وغيرهما أن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلاً فاستولوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا رواه البخاري في صحيحه فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء . قال ابن مسعود يوم مات عمر رضي الله عنه إني لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب وقد تقدم قول عمر رضي الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقوله اللهم بلى لن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجج الله ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي ﷺ لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . ويدل عليه أيضاً ما رواه الترمذي عن قتيبة حدثنا حماد بن يحيى الأبع عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله ﷺ مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره قال هذا حديث حسن غريب . ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبع وكان يقول هو من شيوخنا وفي الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو فلو لم يكن في أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية . وأيضاً فإن هذه الأمة أكمل الأمم وخير أمة أخرجت للناس ونبيها خاتم النبيين لاني بعده جعل الله العلماء فيها كلها هلك عالم خلقه عالم لثلاث تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه . وكان بنو إسرائيل كلها هلك نبي خلفه نبي فكانت تسوسهم الأنبياء والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل . وأيضاً في الحديث الآخر يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين

تؤثر فيه البداآت ويستفز بأوائل الأمور بخلاف الثابت التام العاقل فانه لا تستفزه البداآت ولا تزججه وتقلقله فان الباطل له دهشة وروعة في أوله فاذا ثبت له القلب رد على عقبيه والله يحب من عنده العلم والاناة فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه فالعجلة والطيش من الشيطان فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وحزم ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته الندامة وعاقبة الأول حمد أمره ولكن الأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهي الفوت فانه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت فاذا اقترنت به العزم والحزم تم أمره . ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي صلى الله عليه وسلم اللهم إني أسألك الثبات في الأمور والعزيمة على الرشد وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما فأتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له أو من باب التهاون والتمات وتضييع الفرصة بعد موافاتها فاذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح والله ولي التوفيق . الصنف الثالث رجل نهيمته في نيل لذته فهو منقاد لداعى الشهوة أين كان ولا ينال درجة ورائة النبوة مع ذلك ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطبيق الراحة قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة الجسم . وقال ابراهيم الحربي أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم ومن آثر الراحة فاتته الراحة فما لصاحب اللذات وما لدرجة ورائة الانبياء

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

فان العلم صناعة القلب وشغله فما لم تنفرغ لصناعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة فاذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوته نفسه لم ينل درجة العلم أبدا فاذا صارت شهوته في العلم ولذته في كل إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة شهوات الآكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان ولذة الشر والظلم والفساد والعلو في الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان فانها تكمل بعد المفارقة لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها فاذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم والمقيم فهو في العلم والإيمان اللذين بهما كمال سعادة الإنسان وأيضا فان تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت هما وغما وألا يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لألمه وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها إليه لكن يحمله عليه مداواة ذلك الغم والهلم فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبة والاقبال عليه والنعيم بذكره فهذه هي اللذة الحقيقية

فانه لا يغتر بذلك بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها فيكشف له حقيقتها ومثال هذا الدرهم الزائف فانه يغتر به الجاهل بالنقد نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة والنقاد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالتحاس الذي تحته وكما قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله . وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر . وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله وكما رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح . وفي مثل هذا قال أئمة السنة منهم الإمام أحمد وغيره لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شغعت فهو لاء الجهمية يسمون إثبات صفات الجبال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيهاً وتجسيماً ومن أثبت ذلك مشبهاً فلا يقهر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر وكل أهل نخلة ومقالة يكسون نخلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرُونَ عليه من الألفاظ ومقالة مخالفهم أقبح ما يقدرُونَ عليه من الألفاظ ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ . كما قيل في هذا المعنى .

تقول هذا جنى النحل تمدحه وإن نشأ قلت ذا قى الزنا بئر
مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

فاذا أردت الاطلاع على كنهه المعنى هل هو حق أو باطل فخرده من لباس العبارة وجرد قلبك عن النفرة والميل ثم أعط النظر حقه ناظراً بعين الانصاف ولا تكن بمن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه ثم ينظر في مقالة خصومه ومن يسيء ظنه به كنظر النمر والملاحظة فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوياً والناظر بعين المحبة عكسه وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا
(وقال آخر)

نظروا بعين عداوة لو أنها عين الرضا الاستحسنوا ما استقبحوها

فاذا كان هذا في نظر العين الذي يدرك الحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها فما الظن بنظر القلب الذي يدرك المعاني التي هي عرضة المكابرة والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ورد الباطل وعدم الاغترار به . وقوله بأول عارض من شبهة هذا دليل ضعف عقله ومعرفة إذ

حقاً يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه فيقدمه ويحكمه ويجمله عياراً على غيره مهمبنا عليه كما جعله الله تعالى كذلك فالمستظهر به موفق سعيد والمستظهر عليه مخذول شقي فمن استظهر على الشيء فقد جعله خلف ظهره مقدماً عليه ما استظهر به وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه واكتفى بغيره منه وقدم غيره وأخره . والصنف الثاني من حملة العلم المنقاد الذي لم يبالغ له صدره ولم يطمئن به قلبه بل هو ضعيف البصيرة فيه لكنه منقاد لأهله وهذه حال اتباع الحق من مقلديهم وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين وإنما هم من مكثرى سواد الجيش لا من أمرائه وفرسانه والمنقاد منفعل من قاده يقوده وهو مطاوع الثلاثي وأصله منقاد كـكتسب ثم أعلت الياء ألفاً لحركتها بعد فتحة فصار منقاد تقول قدته فانقاد أى لم يمتنع والإحناء جميع حنو بوزن علم وهى الجوانب والنواحي والعرب تقول أجزر أحناء طيرك أى أمسك نواحي خفتك وطيشك يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً . قال ليبد فقلت ازدرج أحناء طيرك واعلم بانك ان قدمت رجلك عاثر

والطير هنا الخفة والطيش . وقوله ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة هذا الضعف عليه وقلة بصيرته إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزال يقينه ولا قدحت فيه شكاً لأنه قد رسخ في العلم فلا تستغزه الشبهات بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له فتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه بل يقوى عليه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكاً مرتاباً والقلب يتوارده جيشان من الباطل جيش شهوات الغى وجيش شبهات الباطل فأيا قلب صغاً إليها وركن إليها تشربها وامتلأ بها فيمنضج لسانه وجوارحه بموجها فإن أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والایرادات فيظن الجاهل أن ذلك لسعة عليه وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه . وقال لى شيخ الإسلام رضى الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد لا تجعل قلبك للإیرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضج إلا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفاته ويدفعها بصلابته وإلافاذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرأاً للشبهات أو كما قال فما أعلم أنى انتفعت بوصية فى دفع الشبهات كاتنفاعى بذلك . وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها فانها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها . وأما صاحب العلم واليقين

يوجب أن لا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم وإن غابت عنهم أعيانهم . كما قيل :

ومن عجب أنى أحسن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

﴿ وقال آخر ﴾

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تعيب

قوله آه إن هاهنا علماً وأشار إلى صدره يدل على جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقبض منه ولينتفع به . ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عايم فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليشكر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود وهذا غير من أخبر بذلك ليشكر به عند الناس ويتعظم وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم والاول يشكره في قلوبهم وعيونهم وإنما الأعمال بالنيات وكذلك إذا أتى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلة وشر أو ليستوفي بذلك حقاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله أو ايقطع عنه أطماع السفلة فيه أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله والأحسن في هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعظيم . ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصاحبون لحمله وهم أربعة أحدهم من ليس هو بمأمون عليه وهو الذي أوتي ذكاه وحفظاً واسكن مع ذلك لم يؤت ذكاه فهو يتخذ العلم الذي هو آلة الدين آلة الدنيا يستعملها به ويتوسل بالعالم إليها ويجعل البضاعة التي هي متجر الآخرة متجر الدنيا وهذا غير أمين على ما حمله من العلم ولا يجعله الله إماماً فيه قط فإن الأمين هو الذي لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه وهذا الذي قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجراً للدنيا قد خان الله وخان عباده وخان دينه . فلماذا قال غير مأمون عليه . وقوله يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس وإذا تعلم علماً استظهر به على كتاب الله ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه وهذه حال كثير من يحصل له علم فانه يستغنى به ويستظهر به ويحكمه ويجعل كتاب الله تبعاً له يقال استظهر فلان على كذا بكذا أى ظهر عليه به وتقدم وجعله وراء ظهره وليست هذه حال العلماء فإن العالم

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم وإلا فذكورهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع وهذه هي الحياة حقاً حتى عد ذلك حياة ثانية . كما قال المتنبي .

ذكر الفقي عيشه الثاني وحاجته مافاته وفضول العيش أشغال

قوله وصناعة المال تزول بزواله يعني أن كل صناعة صنعت للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك فإنها إنما هي مراعاة للماله فإذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها حتى إنه ربما لا يسلم عليه من كان يدأب في خدمته ويسعى في مصالحه . وقد أكثر الناس من هذا المعنى في أشعارهم وكلامهم وفي مثل قولهم .
من ودك لأمر ملك عند انقضائه . قال بعض العرب .

ومن هذا ما قيل إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك فإن زوال الكرامة بزوالهما ولكن لم يعجبك إن أكرموك لعلم أو دين وهذا أمر لا ينكر في الناس حتى أنهم ليسكرموا الرجل لثيابه فإذا نزعه لم ير منهم تلك الكرامة وهو هو قال مالك بلغني أن أبا هريرة دعى إلى وليمة فأتى فحجب فرجع فلبس غير تلك الثياب فادخل فلما وضع الطعام أدخل كفه في الطعام فعوتب في ذلك فقال إن هذه الثياب هي التي أدخلت فهي تأكل حكاة ابن مزين الطليطلي في كتابه وهذا بخلاف صناعة العلم فإنها لا تزول أبداً بل كل مآله في زيادة مالم يسلب ذلك العالم علمه وصناعة العلم والدين أعظم من صناعة المال لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح فهي صادرة عن حب وإكرام لأجل ما أودعه الله تعالى إياه من علمه وفضله به على غيره . وأيضاً فصناعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته وصناعة المال تابعة للماله المنفصل عنه . وأيضاً فصناعة المال صناعة معاوضة وصناعة العلم والدين صناعة حب وتقرب وديانة . وأيضاً فصناعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر وأما صناعة العلم والدين فلا تكون إلا مع أهل ذلك وقد يراد من هذا أيضاً معنى آخر وهو أن من اصطنعت عنده صناعة بمالك إذا زال ذلك المال وفارقه عدمت صناعته عنده وأما من اصطنعت لإليه صناعة علم وهدى فإن تلك الصناعة لا تنفرك أبداً بل ترى في كل وقت كأنك أسديتها إليه حينئذ ، قوله مات خزان الأموال وهم أحياء قد تقدم بيانه ، وكذا قوله والعلاء باقون مابق الدهر . وقوله أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة المراد بأمثالهم صورهم العلمية ووجودهم المثالي أي وإن فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم في القلوب لا تنفركها وهذا هو الوجود الذهني العلي لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم

وذلك هو الشقاء والضلال وأيضا فإن الله سبحانه عليم يحب كل عايم وإنما يضع علمه عند من يحبه فمن أحب العالم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك بما يدان به . قوله العالم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الاحدوثة بعد مماته يكسبه ذاك أى يجعله كسبا له ويورثه إياه ويقال كسبه ذلك عزا وطاعة وأكسبه لغتان ومنه حديث خديجة رضى الله عنها إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم روى بفتح التاء وضمها ومعناه تكسب المال والغنى هذا هو الصواب وقالت طائفة من رواه بضمها فذلك من أكسبه مالا وعزاً ومن رواه بفتحها فعناه تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة ومعاذ الله من هذا الفهم وخديجة أجل قدراً من تكلمها بهذا في هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبشر فوالله لا يخزيك الله إنك تكسب الدرهم والدينار وتحسن التجارة ومثل هذه التحريفات إنما تذكر لئلا يغتر بها في تفسير كلام الله ورسوله . والمقصود أن قوله العلم يكسب العالم الطاعة في حياته أى يجعله مطاعاً لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل أحد للولوك فمن دونهم فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وفسر أولى الأمر بالعلماء قال ابن عباس هم الفقهاء والعلماء أهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم أوجب الله تعالى طاعتهم . وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك واحدى الروایتين عن الإمام أحمد وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد وإحدى الروایتين عن ابن عباس وأحمد والآية تتناولها جميعاً فطاعة ولادة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع في أهل الأرض من كل أحد فإذا مات أحياء الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء فالعالم بعد وفاته ميت وهو حى بين الناس والجاهل في حياته حى وهو ميت بين الناس . كما قيل

وفي الجمل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

(وقال الآخر)

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

(وقال آخر)

وما دام ذكر العبد بالفضل باقياً فذلك حى وهو في التراب هالك

ما في الصدور فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التي هي غاية جمع الأموال وطلبها فما الظن بقدر الوسيلة . وأما غنى العلم والإيمان فدائم اللذة متصل الفرحه مقتض لأنواع المسرة والبهجة لا ينزل فيحزن ولا يفارق فيؤلم بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم (لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) . السادس والثلاثون إن غنى المال يبغض الموت وإلقاء الله فانه لحبه لماله يكره مفارقتة ويحب بقاءه ليمتع به كما شهد به الواقع . وأما العلم فانه يحب للعبد لقاء ربه ويزده في هذه الحياة النكد الفانية . السابع والثلاثون إن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم كما قال أمير المؤمنين في هذا الحديث مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر فخزان الأموال أحياء كاموات والعلماء بعد موتهم أموات كاحياء . الثامن والثلاثون إن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن فالروح مية حياتها بالعلم كما أن الجسد ميت حياته بالروح فالغنى بالمال غاية أن يزيد في حياة البدن وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح كما تقدم تقريره . التاسع والثلاثون إن القلب ملك البدن والعلم زينته وعدته وماله وبه قوام ملكه والملك لا بد له من عدد وعدة ومال وزينة فالعلم هو مركبه وعدته وجماله . وأما المال فغاياته أن يكون زينة وجمالا للبدن إذا أنفقه في ذلك فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالا بل نقصاً ووبالا . ومن المعلوم أن زينة الملك به وماله قوام ملكه أجل وأفضل من زينة رعيته وجمالهم فقوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء . الوجه الأربعون أن القدر المقصود من المال هو ما يكفي العبد ويقيم به ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته وكلما ازداد غناه به ازداد تثبطا وتخلفا عن التجيز لما أمامه . وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد في تعبية الزاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به فعدة هذا السفر هو العلم والعمل وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار ومن أراد شيئاً هياً له عدته . قال تعالى (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) . قوله محبة العلم أو العالم دين يدان بها لأن العلم ميراث الأنبياء والعلماء ورثتهم فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم فمحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاوة وهذا كله إنما هو في علم الرسل الذي جاؤا به وورثوه للامة لا في كل ما يسمى علماً . وأيضاً فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك هو الدين وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه

اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذى خلق له العبد ولا كمال له بدونه بل ثم أمر وراء ذلك كله قد هيء له العبد وهو لا يفعل له لغفلته عنه وإعراضه عن التفهيم على طريقه حتى يصل اليه يسوم نفسه مع الانعام السائمة :

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فأربأ نفسك أن ترعى مع الحمل

وموقع هذه الذات من النفس كموقع لذة البراز من رجل احتبس في موضع لا يمكنه القيام إلى الخلاء وصار مضطراً اليه فانه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيماً فاذا تمكن من الذهاب إلى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذى وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ولا لذة هناك إلا راحته من حمل ما يؤذيه حمله . فعمل أن هذه الذات إما أن تكون دفع آلام وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيصة مقترنة بأفات ترى مضرتها عليه وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب وخفقان الفؤاد وضعف القوى البدنية والقلبية وضعف الارواح واستيلاء العفونة على كل البدن واسرع الضعف والخور اليه واستيلاء الاخلاط عليه لضعف القوة عن دفعها وقهرها . . وبما يدل على أن هذه الذات ليسب خيرات وسعادات وكألا أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت هي نهمة وشغله ومصرف همته وإرادته والازراء به وتحقير شأنه والحاقه بالبهائم ولا يقيمون له وزناً ولو كانت خيرات وكألا لكان من صرف اليها همته أكل الناس . وبما يدل على ذلك أن القلب الذى قد وجه قصده وإرادته إلى هذه الذات لا يزال مستغرقاً في الهموم والغموم والاحزان وما يناله من اللذات في جنب هذه الآلام كقطرة في بحر كما قيل سروره وزن حبة وحرزه قطار فإن القلب يجرى بجرى مرآة منصوبة على جدار وذلك الجدار يمر لأنواع المشتميات والمليذات والمكروهات وكلما مر به شيء من ذلك ظهر فيه أثره فإن كان محبوباً مشتهياً مال طبعه إليه فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده وإن قدر على تحصيله تألم في طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له ويتألم حال حصوله خوفاً من فراقه وبعد فراقه خوفاً على ذهابه وإن كان مكروهاً لم يقدر على دفعه تألم بوجوده وإن قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاته مصلحة راجحة الحصول فيتألم لفواتها فعلم أن هذا القلب أبداً مستغرق في بحار الهموم والغموم والاحزان وإن نفسه تضحك عليه وترضيه بوزن ذرة من لذته فيغيب بها عن شهوده القناطر من ألمه وعذابه فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم يبق له إلا سبيل تجرد ذلك الألم وأحاط به واستولى عليه من كل جهاته فقل ما شئت في حال عبد قد غيب عنه سعده وحظوظه وأفراحه وأحضر شقوته وهمومه وغمومه وأحزانه وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء ويرفع الستر وينجلي الغبار ويحصل

سارك حبها من غير بغض ولكن لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجنب الاسود ورود ماء إذا كان السكاب يلغى فيه

وقيل لزاهد ما الذى زهدك فى الدنيا فقال خسة شركائها وقلة وفاتها وكثرة جفائها
وقيل لآخر فى ذلك فقال مامدت يدي إلى شىء منها إلا وجدت غيرى قد سبقنى اليه
فأتركه له . ومنها أن الالتذاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة اليها والتألم بمطالبة النفس لتناولها
وكما كانت شهوة الظفر بالشىء أقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل فلما لم تحصل تلك
الشهوة لم تحصل تلك اللذة فمقدار اللذة الحاصلة فى الحال مساو لمقدار الحاجة والالم والمضرة فى
الماضى وحينئذ يتقابل اللذة الحاصلة والالم المتقدم فيمتساقطان فتصير اللذة كأنها لم توجد وبصير
بمنزلة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالمراهم أو بمنزلة من ضربه عشرة أسواط وأعطاه
عشرة دراهم ولا تخرج لذات الدنيا غالبا عن ذلك ومثل هذا لا يعد لذة ولا سعادة ولا كالا
بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط فان الإنسان يتضرر بثقله فاذا قضى حاجته
استراح منه فاما أن يعد ذلك سعادة وبهجة ولذة مطلوبة فلا . ومنها أن هاتين اللذتين اللتين
هما أثر اللذات عند الناس ولا سبيل إلى نيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة
القاذورات والتألم الحاصل عقيبهما مثال لذة الأكل فان العاقل لو نظر إلى طعامه حال مخالطته
ريقه وبجئته به لنفرت نفسه منه ولو سقت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من اعادتها اليه ثم
إن لذته به إنما تحصل فى مجرى نحو الأربع الأصابع فاذا فصل عن ذلك المجرى زال تلذذه
به فاذا استقر فى معدته وخالطه الشراب وما فى المعدة من الأجزاء الفضلية فانه حينئذ يصير
فى غاية الخسة فان زاد على مقدار الحاجة أورث الادواء المختلفة على تنوعها ولولا أن
بقاء موقوف على تناوله لكان تركه والحالة هذه أليق به كما قال بعضهم :

لولا قضاءه جرى نزهت أنملتي عن أن تلم بما كول ومشروب

وأما لذة الوقاع فقدورها أبين من أن نذكر آفاته ويدل عليه أن أعضاء هذه اللذة هى
عورة الإنسان التى يستحيا من رؤيتها وذكرها وسرها أمر فطر الله عليه عباده ولا تتم
لذة الموافقة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها والتلطف بالربوبات المستقذرة المتولدة منها ثم إن
تمامها إنما يحصل بانفصال النطفة وهى اللذة المقصودة من الوقاع وزمنها يشبه الآن الذى
لا ينقسم فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاول والمراوضة والتعب لأجل لذة لحظة كد
الطرف فأين مقايضة بين هذه اللذة وبين التعب فى طريق تحصيلها . وهذا يدل على أن هذه

هذا ومففعة هذا مضرة ذاك وبالعكس فهو مبتلى بهم فلا بد من وقوع النفرة والتباغض والتعادي بينهم وبينه فان إرضاءهم كلهم محال وهو جمع بين الضدين وإرضاء بعضهم واستخاط غيره سبب الشر والمعاداة وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشر والعداوة وقويت وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الأقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من الأجانب والبعداء وهذه المخالطة انما حصلت من جانب الغنى بالمال أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فانهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته فيستريح من أذى الخلطة والعشرة وهذه الآفات معدودة في الغنى بالعلم . الخامس والثلاثون إن المال لا يراد لذاته وعينه فانه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلاً فانه لا يسمع ولا يروى ولا يدعى ولا يتمتع وإنما يراد لهذه الأشياء فانه لما كان طريقاً إليها أريد إرادة الوسائل . ومعلوم أن الغايات أشرف من الوسائل فهذه الغايات إذا أشرف منه وهي مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دنيئة وقد ذهب كثير من العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها وإنما هي دفع الألم فقط فان لبس الثياب مثلاً انما فائدته دفع التآلم بالحر والبرد والريح وليس فيها لذة زائدة على ذلك وكذلك الأكل إنما فائدته دفع ألم الجوع ولهذا لولم يجد ألم الجوع لم يستطب الأكل وكذلك الشرب مع العطش والراحة مع التعب . ومعلوم أن في مزاولته ذلك وتحصيله ألماً وضراً ولكن ضرره وألمه أقل من ضرر ما يدفع به وألمه فيحتمل الإنسان أخف الضررين دفعا لأعظمهما . وحكى عن بعض العقلاء أنه قيل له وقد تناول قدحاً كريهاً من الدواء كيف حالك معه قال أصبحت في دار بليات أدافع آفات بأفات . وفي الحقيقة فلذات الدنيا من المآكل والمشارب واللبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس واللذة التي يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهي الغاية المطلوبة له من لذة المنكح والمآكل شهوتي البطن والفرج ليس لهما ثالث البتة إلا ما كان وسيلة اليهما وطريقاً إلى تحصيلهما وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة . منها أن تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها . ومنها أنها بمزوجة بالآفات ومعجونة بالآلام محتاطة بالخاوف وفي الغالب لاتنقضي آلامها بطبيعتها كما قيل :

قايسـت بين جماها وفعالها فاذا الملاحـة بالقباحة لاتنقـي

ومنها أن الاراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراهم وعقلاءهم بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة وأخفها فنسبتهم فيها إلى الافاضل كنسبة الحيوانات البهيمية اليهم فشاركة الاراذل وأهل الخسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والاعراض عنها وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق وهذا كثير في أشعار الناس ونثرهم كما قيل

يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم . أما المحروم فيقول كيف جاد على غيري وبخل على وأما المرحوم فانه يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع فيبقى طامعاً مستشرفاً لنظيره على الدوام وهذا قد يتعذر غالباً فيفضي ذلك إلى العداوة الشديدة والمذمة . ولهذا قيل اتق شر من أحسنت إليه وهذه الآفات لا تعرض في غنى العلم فان صاحبه يمكنه بذلك للعالم كلهم واشتراهم فيه والقدر المبذول منه باق لا أخذه لا يزول بل يتجربه فهو كالغنى إذا أعطى الفقير رأس مال يتجربه حتى يصير غنياً مثله . الوجه الثالث والثلاثون إن جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعد مفارقتها . فأما النوع الأول فهو المشاق والآنكاد والآلام التي لا يحصل إلا بها . وأما النوع الثاني فشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به فلا يصبح إلا مهموماً ولا يمسى إلا مغموماً فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه والعيون من كل جانب ترمقه والأسن والقلوب ترشقه فأى عيش ولذة لمن هذه حاله وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم في التفريق بينه وبين معشوقه وإن لم يظفروا هم به دونه ولكن مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم فان فازوا به وإلا استووا في الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفوس ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلب علمه عمدوا إلى جمده وانكاره ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه فان بهر علمه وامتنع عن مكابرة الجحود والانكار رموه بالعظام ونسبوه إلى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ويسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه وهذا شغل السحرة بعينيه فهو لاه سحرة بألسنتهم فان عجزوا له عن شيء من القبائح الظاهرة رموه بالتلبس والتدليس والدوكة والرياء وحب الترفع وطلب الجاه وهذا القدر من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه فلا ينبغي لمن له مسكة عقل أن يتأذى به إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه كما يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف . والنوع الثالث من آفات الغنى ما يحصل للعبد بعد مفارقتها من تعلق قلبه به وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بمحقوقه والمحاسبة على مقبوضه ومصرفه من أين اكتسبه وفيما ذا أنفقه وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور ولكن لا ينال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة . الرابع والثلاثون إن لذة الغنى بالمال مقرونة بمخلطة الناس ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسرايه وأتباعه إذ لو انفرد الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاده به وإذا كان كمال لذته بغناه موقوفاً على اتصاله بالغير فذلك منشأ الآفات والآلام ولو لم يكن إلا اختلاف الناس وطبائعهم وأرادتهم فمقيح هذا حسن ذلك ومصلحة ذلك مفسدة

والمسكارم ولاجل فوت القدرة الحاصلة بسبب إخراجها والحاجة المنافية لكمال الغنى يجب
 إبقاء ماله ويكره السخاء والكرم والجود فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الداعيين يتجاوزانه ويعتوران
 عليه فيبقى القلب في مقام المعارضة بينهما فمن الناس من يترجح عنده جانب البذل والجود
 والكرم فيؤثره على الجانب الآخر . ومنهم من يترجح عنده جانب الإمساك وبقاء القدرة
 والغنى فيؤثره فهذان نظران للعقلاء . ومنهم من يبلغ به الجهل والحماسة إلى حيث يريد الجمع
 بين الوجهين فيعد الناس بالجود والسخاء والمسكارم طمعاً منه في فوزه بالمدح والثناء على ذلك
 وعند حضور الوقت لا يفي بما قال فيستحق الذم ويبذل بلسانه ويمسك بقلبه ويده فيقع في أنواع
 القباح والفصائح . وإذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت أسر هذه البلية
 وهم غالباً يكونون ويشكون . وأما غنى العلم فلا يعرض له شيء من ذلك بل كلما بذله ازداد ببذله
 فرحاً وسروراً وابتهاجاً وإن فاتته لذة أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم فهم أيضاً قد فاتتهم لذة
 أهل العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها فحق صاحب العلم من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى
 وأدوم من لذة الغنى وتعبه في تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب جامع المال فجمعه وألمه
 دون ألمه كما قال تعالى للمؤمنين تسليمة لهم بما ينالهم من الألم والتعب في طاعته ومرضاته
 (ولا تمنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا
 يرجون وكان الله عليماً حكيماً) . الحادى والثلاثون أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي
 حال تجدد فقط . وأما حال دوامه فإذا أن تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص ويدل عليه أن
 الطبع يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه فهو يحاول تحصيل الزيادة دائماً فهو في فقر مستمر
 غير منقضى ولو ملك خزائن الأرض فققره وطالبه وحرصه باق عليه فانه أحد المنهومين
 الذين لا يشبعان فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب . وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان فان لذته
 في حال بقاءه مثلها في حال تجدد بل أزيد وصاحبها وإن كان لا يزال طالباً للزيد حريصاً
 عليه فطلبه وحرصه مستصحب للذة الحاصل ولذة المرجو المطلوب ولذة الطلب وابتهاجه
 وفرحه به . الثانى والثلاثون أن غنى المال يستدعى الإلحاح على الناس والإحسان إليهم فصاحبه
 إما أن يسد على نفسه هذا الباب وإما أن يفتحه عليه فان سده على نفسه اشتهر عند الناس
 بالبعد من الخير والنفع فأبغضوه وذموا واحتقروا وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً
 لديهم كأن وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار في الحطب اليابس ومن السيل في
 منحدره وإذا عرف من الخلق أنهم يمتقونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً تألم قلبه غاية التألم
 وأحضر الهموم والغموم والأحزان . وإن فتح باب الإحسان والعطاء فانه لا يمكنه إيصال
 الخير . والإحسان إلى كل أحد فلا بد من إيصاله إلى البعض وإمساكه عن البعض وهذا

العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه
وخدموه وأكرموا والعشرون إن اللذة الحاصلة من غنى إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية فإن صاحبه التذ
بنفس جمعه وتحصيله فتلذ لذة وهمية خيالية وإن التذ بانفاقه في شهواته فهي لذة بهيمية وأما لذة
العلم فلذة عقلية. روحانية وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها وفرق ما بين اللذتين ، الحادى
والعشرون إن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره في جمع المال الحريص عليه وتنقصه والإضرار
به ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بعين الكمال
الثانى والعشرون أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال المعرض عن جمعه الذى لا يلتفت
إليه ولا يجعل قلبه عبداً له ومطبقون على ذم الزاهد فى العلم الذى لا يلتفت إليه ولا يحرص عليه
لثالث والعشرون أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإخراجه والعلم إنما يمدح بتخليه به واتصافه به
الرابع والعشرون أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن فهو حزين قبل حصوله خائف بعد حصوله
وكما كان أكثر كان الخوف أقوى وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور . الخامس والعشرون
أن الغنى بما له لا بد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب
صاحبه ولا يتألم فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة بعقبها الألم ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة
لا يلحقها ألم . السادس والعشرون إن استلذذ النفس وكماها بالغنى استكمال بعارية مؤداة فتجملها
بالمال تجمل بثوب مستعار لا بد أن يرجع إلى ما أسكه يوماً ما وأما تجملها بالعلم وكماها به
فتجمل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها . السابع والعشرون أن الغنى بالمال هو عين فقر
النفس والغنى بالعلم هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو غناها الحقيقية فغناها بعلمها هو
الغنى وغناها بما لها هو الفقر . الثامن والعشرون أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه
وإكرامه ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزدد الا تقدماً وإكراماً . التاسع والعشرون ان تقديم
الرجل لماله هو عين ذمه فانه نداه عليه بنقصه وانه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخر والإهانة
وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فانه عين كاله اذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر
خارج عن ذاته . الوجه الثلاثون أن طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين فهو طالب
ما لا سبيل له اليه (وبيان ذلك) ان القدرة صفة كمال وصفة الكمال محبوبة بالذات والاستغناء
عن الغير أيضاً صفة كمال محبوبة بالذات فاذا مال الرجل بطبعه الى السخاوة والجود وفعل المكرمات
فهذا كمال مطلوب للعقلاء محبوب للنفوس واذا التفت الى أن ذلك يقتضى خروج المال من
من يده وذلك يوجب نقصه واحتياجه الى الغير وزوال قدرته نفرت نفسه عن السخاء والكرم
والجود واصطناع المعروف وظن أن كاله فى إمساك المال وهذه البالية أمر ثابت لعامة
الخلق لا ينفكون عنها فلاجل ميل الطبع الى حصول المدح والثناء والتعظيم بحب الجود والسخاء

وخلفه غيره . وأما العلم فكالقنبس من النار لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء بل يزداد العلم بالاعتباس منه فهو كالعين التي كلما أخذ منها قوى ينبوعها وجاش معينها وفضل العلم على المال يعلم من وجوه أحدها أن العلم ميراث الأبناء والمال ميراث الملوك والأغنياء والثاني أن العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله . والثالث أن المال تذهب النفقات والعلم يزكو على النفقة . الرابع أن صاحب المال إذا مات فارق ماله والعلم يدخل معه قبره . الخامس أن العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم . السادس أن المال يحصل للؤمن والكافر والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل إلا للؤمن . السابع أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة . الثامن أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال يزكيها ولا يكملها ولا يزيد لها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتميل بجمعها والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها التاسع أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية فالمال يدعوها إلى صفات الملوك والعلم يدعوها إلى صفات العبيد . العاشر أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها والمال حجاب بينها وبينها . الحادي عشر أن غنى العلم أجل من غنى المال فإن غنى المال غنى بأمر خارجي عن حقيقة الإنسان لو ذهب في ليلة أصبح فقيرا معدما وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو في زيادة أبداً فهو الغنى العالی حقيقة كما قيل .

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالی عن الشيء لا به

الثاني عشر أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبداً له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار والدرهم الحديث والعلم يستعبد له ربه وخالقه فهو لا يدعو إلا إلى عبودية الله وحده . الثالث عشر أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة . الرابع عشر أن قيمة الغنى ماله وقيمة العالم علمه فهذا متقوم بماله فاذا عدم ماله عدمت قيمته وبقي بلا قيمة والعالم لا تزول قيمته بل هي في تضاعف وزيادة دائماً . الخامس عشر أن جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح كما قال يونس بن حبيب علمك من روحك ومالك من بدنك والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن . السادس عشر أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً من علمه والغنى العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكاله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع . السابع عشر أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال . الثامن عشر أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله . التاسع عشر أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثير أ فانه معشوق النفوس فاذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع وأما غنى

(٩ - مفتاح)

استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه وهذا الأصلان هما قطب السعادة أعنى العلم والقوة وقد وصف بهما سبحانه المعلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال (إن هو إلا وحي يوحى عليه شديد القوى) . وقال تعالى في سورة التكوين (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين) فوصفه بالعلم والقوة وفيه معنى أحسن من هذا وهو الأشبه بمراد على رضى الله عنه وهو أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاءوا بنور العلم ولا لجئوا إلى عالم مستبصر فقلده ولا متبعين لمستبصر فإن الرجل إما أن يكون بصيراً أو أعمى متمسكاً ببصير يقوده أو أعمى يسير بلا قائد . وقوله رضى الله عنه العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال . يعنى أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب فإن الإنسان لا يلقى نفسه في هلكة إذا كان عقله معه ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلاً بذلك لا علم له به فهو كمن يأكل طعاماً مسموماً فالعالم بالعلم وضرره يحرسه عليه ويمتنع به من أكله والجاهل به يقتله جهله فهذا مثل حراسة العلم للعالم وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير مما يجلب له الأمراض والأسقام وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاظيها يأخذ حذره منها فيحرسه عليه من الهلاك وهكذا العالم بالله وبأمره وبعده ومكائده ومداخله على العبد يحرسه عليه من وساوس الشيطان وخطراته وإلقاء الشك والريب والكفر فى قلبه فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك فعلمه يحرسه من الشيطان فكليهما جاء ليأخذه صاحبه بحرس العلم والإيمان فيرجع خائباً . وأعظم ما يحرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان فهذا السبب الذى من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته فتى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه . قال بعض العارفين أجمع العارفون على أن التوفيق أن لا يلكك الله إلى نفسك وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينك وبين نفسك . وقوله العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة العالم كلما بذل عليه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه فازداد كثرة وقوة وظهوراً فيكتسب بتعليمه حفظ ما عليه ويحصل له به علم مالم يكن عنده وربما تكون المسئلة فى نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضأت وانفتح له منها علوم آخر . وأيضاً فإن الجزء من جنس العمل فكما علم الخلق من جهالتهم جزاء الله بأن علمه من جهالته كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال فى حديث طويل وإن الله قال لى أنفق أنفق عليك وهذا يتناول نفقة العلم إما بلفظه وإما بتدبيره وإشارته وخواه ولزكاء العلم ونحوه طريقان أحدهما تعليمه والثانى العمل به فإن العمل به أيضاً ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه وقوله والمال تنقصه النفقة لا ينافى قول النبي صلى الله عليه وسلم ما نقصت صدقة من مال فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر

عند الله قدراً وهم حطب كل فتنة بهم توقد ويشب ضرامها فلإنها يهتز لها أولو الدين ويتولاها
الهمج الرعاع وسمى داعيهم ناعقا تشديدا لهم بالأنعام التي ينعم بها الراعي فتذهب معه أين
ذهب . قال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم
بكم عى فهم لا يعقلون) وهذا الذى وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم
فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل بل الكل عندهم سواء . وقوله رضى
الله عنه يميلون مع كل ريح وفى رواية مع كل صائح شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف
وشبه الأهوية والآراء بالرياح والغصن يميل مع الريح حيث مالت وعقول هؤلاء تميل مع
كل هوى وكل داع ولو كانت عقولا كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تتلاعب بها الرياح .
وهذا بخلاف المثل الذي ضرب به النبي ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع تفيئهم الريح مرة
وتقيهم أخرى والمنافق كشجرة الأرز التي لا تقطع حتى تستحصد فإن هذا المثل ضرب
للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها فلا يزال بين عافية
وبلاء ومحنة ومنحة وصحة وسقم وأمن وخوف وغير ذلك فيقع مرة ويقوم أخرى ويميل
تارة ويعتدل أخرى فيكفر عنه بالبلاء ويمحص به ويخلص من كدره والكافر كله خبث
ولا يصلح إلا للوقود فليس فى إصابته فى الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما فى إصابة
المؤمن فهذه حال المؤمن فى الابتلاء . وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع
فكما قيل :

نزول الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوى ولا يتغير

وقوله رضى الله عنه لم يستضيئوا بنور العلم ولم ياجتثوا إلى ركن وثيق بين السبب الذى
جعلهم بتلك المثابة وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل . كما قال
تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لکم
نورا تمشون به) . وقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس
كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) . وقوله تعالى (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل
السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور) الآية . وقوله (ولكن جعلناه نورا نهدي به من
نشاء من عبادنا) فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الخيران الذى لا يدرى أين يذهب
فهو لخيره وجهله بطريق مقصوده يوم كل صوت يسمعه ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع
به من دعاء الباطل فإن الحق متى استقر فى القلب قوى به وامتنع بما يضره ويهلكه . ولهذا سمي
الله الحجة العلمية سلطانا وقد تقدم ذلك فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه فإذا

وتخصص به نسب اليه دون سائر من علم علما . قال الواحدى فالربانى على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أى يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى . وقال المبرد الربانى الذى يرب العلم ويرب الناس به أى يعلمهم ويصلحهم . وعلى قوله فالربانى من رب يرب رباً أى يربيه فهو منسوب إلى التربية يربى عليه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه كما يربى صاحب المال ماله ويربى الناس به كما يربى الأطفال أو لياؤهم . وليس هذا من قوله (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) فالربيون هنا الجماعات باجماع المفسرين قيل لأنه من الربة بكسر الراء وهى الجماعة . قال الجوهري الربى واحد الربيين وهم الألوف من الناس . قال تعالى (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم) ولا يوصف العالم بكونه ربانياً حتى يكون عاملاً بعلمه معلماً له فهذا قسم . والقسم الثانى متعلم على سبيل نجاة أى قاصداً بعلمه النجاة وهو المخلص فى تعلمه المتعلم ما ينفعه العامل بما علمه فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة إلا بهذه الأمور الثلاثة فانه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة وإن تعلم ما ينفع به لا للنجاة فكذلك وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيه وليس حرف على وما عمل فيه متعلقاً بمتعلم إلا على وجه التضمن أى مفقش متطلع على سبيل نجاته فهذا فى الدرجة الثانية وليس من تعلمه ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء أو يصرف وجوه الناس اليه فان هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث وثبتته أبو نعيم أيضاً . قوله ^{صلى الله عليه وسلم} من تعلم علماً بما ينفعى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد رائحة الجنة . قال وثبت أيضاً قوله ^{صلى الله عليه وسلم} أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهو لاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة نعوذ بالله من الخذلان . القسم الثالث المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل هممج رعاع والهمج من الناس حمقاؤهم وجهاتهم وأصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها فثبته همج الناس به والهمج أيضاً مصدر قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهمج وإن تجع نأكل عتوداً أو نلج

والهمج هنا مصدر ومعناه سوء التدبير فى أمر المعيشة . وقولهم همج هاج مثل ليل لايل والرعاى من الناس الخلق الذين لا يعتد بهم . وقوله اتباع كل ناعق أى من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال فانهم لاعلم لهم بالذى يدعون اليه أحق هو أم باطل فهم مستجيون لدعوتهم وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان فإنهم الأكثرون عدداً الأقلون

المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة ما فيه من الخير والمنافع وقوله فخيرها أوعاها يراد به -
 أسرعها وعيا وأثبتها وعيا ويراد به أيضا أحسنها وعيا فيكون حسن الوعي الذي هو إيعاء
 لما يقال له في قلبه هو سرعته وكثرته وثباته والوعاء من مادة الوعي فإنه آلة ما يوعى فيه
 كالغطاء والفراس والبساط ونحوها ويوصف بذلك القلب والأذن كقوله تعالى (إنا لما طغى
 الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) . قال قتادة أذن سمعت وعقلت
 عن الله ما سمعت . وقال الفراء لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي بعد فالوعي توصف به
 الأذن كما يوصف به القلب يقال قلب واع وأذن واعية لما بين الأذن والقلب من الارتباط
 فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب فهي بابه والرسول الموصل إليه العلم كما أن اللسان رسوله
 المؤدى عنه ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي وأنها
 إذا وعت وعى القلب . وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم
 ولأمته وقول الملك له اسمع سمعت أذنك وعقل قلبك فلما كان القلب وعاءا والأذن مدخل
 ذلك الوعاء وبابه كان حصول العلم موقوفا على حسن الاستماع وعقل القلب والعقل هو ضبط
 ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلس منه . ومنه عقل البعير والداية والعقال لما يعقل به
 وعقل الإنسان يسمى عقلا لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك ولهذا يسمى حجرا لأنه يمنع
 صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه
 فلا بدعه يذهب كما تعقل الداية التي يخاف شروها . وللدراك مراتب بعضها أقوى من بعض
 فأولها الشعور ثم الفهم ثم المعرفة ثم العلم ثم العقل ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية
 التي ركبها الله في الإنسان فخير القلوب ما كان واعيا للخير صابلا له وليس كالقلب القاسي الذي
 لا يقبله . فهذا قلب حجري ولا كلامنا في الآخرق الذي يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط
 فتفهم الأول كالرسم في الحجر وتفهم الثاني كالرسم على الماء بل خير القلوب ما كان ليينا صلبا
 يقبل بليته ما ينطبع فيه ويحفظ صورته بصلايته فهذا تفهمه كالرسم في الشمع وشبهه . وقوله
 الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع هذا تقسيم خاص للناس وهو
 الواقع فإن العبد إما أن يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أولا فالأول العالم الرباني والثاني
 إما أن تكون نفسه متحركة في طلب ذلك الكمال ساعية في إدراكه أولا والثاني هو المتعلم على
 سبيل النجاة الثالث وهو الهمج الرعاع فالأول هو الواصل والثاني هو الطالب والثالث
 هو المحروم . والعالم الرباني . قال ابن عباس رضي الله عنهما هو المعلم أخذه من التربية أي يربي الناس
 بالعلم ويربهم به كما يربي الطفل أبوه . وقال سعيد بن جبير هو الفقيه العليم الحكيم قال سيبويه
 زادوا ألفا ونونا في الرباني إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى كما قالوا شراني
 ولحياني ومعنى قول سيبويه رحمه الله إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله

المؤمنين للناس في أوله تقسيم في غاية الصحة ونهاية السداد لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل إما أن يكون عالماً أو متعلماً أو مغفلاً للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد وقد دخل في الوصف له بأنه رباني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها . ومعنى الرباني في اللغة الرفيع الدرجة في العلم العالي المنزلة فيه . وعلى ذلك حملوا قوله تعالى (لولا ينهاهم الربانيون) وقوله (كونوا ربانيين) قال ابن عباس حكماً فقهياً . وقال أبو رزين فقهياً علماً . وقال أبو عمر الزاهد سألت ثعلباً عن هذا الحرف وهو الرباني فقال سألت ابن الأعرابي فقال إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له هذا رباني فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له رباني .

قال ابن الأنباري عن النحويين أن الربانيين منسوبون إلى الرب وأن الألف والنون زيدتا للبالغة في النسب كما تقول لحياني وجبهاني إذا كان عظيم اللحية والجمجمة . وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه والقاصد به نجاته من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها والأثقة من مجانسة البهائم . ثم قال وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم . وأما القسم الثالث فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التي هي في الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل التي لا منزلة بعدها في الجهل ولا دونها في السقوط . وما أحسن ما شبههم بالهجم الرعاع وبه يشبه دناءة الناس وأراذلهم والرعاع المتبديد المتفرق وللناعق الصائح وهو في هذا الموضع الراعى يقال نعق الراعى بالغنم ينطق إذا صاح بها . ومنه قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً أصم بكم عى فهم لا يعقلون) . ونحن نشير إلى بعض ما في هذا الحديث من الفوائد . فقوله رضى الله عنه القلوب أوعية يشبه القلب بالوعاء والإباء والوادي لأنه وعاء للخير والشر . وفي بعض الآثار إن لله في أرضه آنية وهي القلوب فخيرها أرقها وأصلها وأصفاها فهي أواني مملوءة من الخير وأواني مملوءة من الشر كما قال بعض السلف قلوب الأبرار تغلي بالبر وقلوب الفجار تغلي بالفجور . وفي مثل هذا قيل في المثل . وكل إناء بالذي فيه ينضح وقال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب في سمعتها وضيقها بالأودية فقلوب كبير واسع يسع علماً كثيراً كوادر كبير واسع يسع ماء كثيراً وقلب صغير ضيق يسع علماً قليلاً كوادر صغير ضيق يسع ماءً قليلاً . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسموا العنب الكرم فإن الكرم قلب المؤمن فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره والكرم كثيرة الخير والمنافع فأخبرهم أن قلب

بعد المائة قوله أيضا العالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناس همج لاخير فهم . الوجه السابع والعشرون بعد المائة مارواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه من حديث أنى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من دخل مسجدا هذا ليتعلم خيراً أو ليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له . الوجه الثامن والعشرون بعد المائة مارواه أيضا في صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في حلقة فأعرض أحدهم واستحى الآخر فجلس خلفهم وجلس الثالث في فرجة في الحلقة فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فاعرض فأعرض الله عنه فلم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلا ، الوجه التاسع والعشرون بعد المائة مارواه كميل بن زياد النعنع قال أخذ علي بن أنى طالب رضى الله عنه بيدي فأخرجني ناحية البجاة فلما أصبح جعل يتنفس ثم قال يا كميل بن زياد القلوب أوعية نخيرها أوعاها احفظ عني ما أقول لك الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم يزكو على الانفاق وفى رواية على العمل والمال تنقصه النفقة العلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العلم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميعه الاحدثة بعد وفاته وصناعة المال نزول بزواله مات خزان الاموال وهم احياء والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة هاه هاه إن ههنا علماً وأشار بيده إلى صدره لو أصبت له حملة بل أصبته لقنأ غير مأهون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له فى أحبائه ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لا ذاولا ذاك أو منهوماً للذات سلس القياد للشهوات أو مغرى بجمع الاموال والإدخار ليسا من دعاة الدين أقرب شها بهم الانعام السائمة لذلك يموت العلم بموت حامله اللهم بك لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لأكيلا تبطل حجج الله وبياناته أولئك الأقولون عدداً الأعظمون عند الله قبيلا بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباهم همج بهم العلم على حقيقة الأمر فامتلائوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان . أرواحها معلقة بالملأ إلا على أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعائه إلى دينه هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم وأستغفر الله لى ولك إذا شئت فقم ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره . قال أبو بكر الخطيب هذا حديث حسن من أحسن الاحاديث معنى وأشرفها لفظاً وتقسيم أمير

لا ازداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا يورك لي في شمس ذلك اليوم وقد رفع هذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه إليه باطل وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين . وفي مثله قال القائل إذا مر بي يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علماً فما ذلك من عمري . الوجه الثامن عشر بعد المائة قال بعض السلف الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم وقد رفع هذا أيضاً ورفعه باطل . الوجه التاسع عشر بعد المائة إنه في بعض الآثار بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضر سبعين سنة وقد رفع هذا أيضاً وفي رفعه نظر . الوجه العشرون بعد المائة مارواه حرب في مسائله مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ثم يقول يا معشر العلماء إن لم أضع علمي فيكم إلا لعلي بكم ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم وهذا وإن كان غريباً فله شواهد حسان ، الوجه الحادي والعشرون بعد المائة . قول ابن المبارك وقد سئل من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذي يأكل بيده . الوجه الثاني والعشرون بعد المائة ان من أدرك العلم لم يضره ما فاته بعد ادراكه اذ هو أفضل الحظوظ والعطايا ومن فاتته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ بل يكون وبالاعليه وسبباً لهلاكه وفي هذا قال بعض السلف أى شىء أدرك من فاته العلم وأى شىء فاته من أدرك العلم الوجه الثالث والعشرون بعد المائة . قال بعض العارفين أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قالوا فكذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت وصدق فان العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه وحياته موقوفة على ذلك فإذا فقد القلب العلم فهو موت ولكن لا يشعر بموته كما أن السكران الذى قد زال عقله والخائف الذى قد انتهى خوفه إلى غايته والمحب والمفكر قد يبطل احساسهم بألم الجراحات في تلك الحال فإذا صحوا وعادوا إلى حال الاعتدال أدركوا آلامها هكذا العبد إذا حط عنه الموت أحمال الدنيا وشواغلها اختص بهلاكه وخسرانه .

ختام لا تصحوا وقد قرب المدى وحتم لا ينجاب عن قلبك السكر

بل سوف تصحون حين ينكشف الغطا . وتذكر قولى حين لا ينفع الذكر

فإذا كشف الغطاء وبرح الخفاء وبليت السرائر وبدت الضمائر وبعث ما في القبور وحصل ما في الصدور فيتمتد يكون الجهل ظلمة على الجاهلين والعلم حسرة على الباطلين . الوجه الرابع والعشرون بعد المائة قال أبو الدرداء من رأى أن العدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله وشاهد هذا قول معاذ وقد تقدم . الوجه الخامس والعشرون بعد المائة قول أبي الدرداء أيضاً لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة . الوجه السادس والعشرون

عشر بعد المائة مارواه يونس بن عبد الأعلى عن ابن أبي فديك حدثني عمرو بن كثير عن أبي العلاء عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فينبهه وبين الأنبياء في الجنة درجة النبوة . وقد روى من حديث علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس عن النبي ﷺ وهذا وإن كان لا يثبت استناده فلا يبعد معناه من الصحة فإن أفضل الدرجات النبوة وبعدها الصديقية وبعدها الشهادة وبعدها الصلاح . وهذه الدرجات الأربع التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) فمن طلب العلم ليحيى به الإسلام فهو من الصديقين ودرجته بعد درجة النبوة . الوجه الثاني عشر بعد المائة قال الحسن في قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) هي العلم والعبادة (وفي الآخرة حسنة) هي الجنة وهذا من أحسن التفسير فإن أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح . الوجه الثالث عشر بعد المائة قال ابن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يرفع ويرفعه هلاك العلماء فوالذي نفسى بيده ليوذن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم وإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم . الوجه الرابع عشر بعد المائة قال ابن عباس وأبو هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها . الوجه الخامس عشر بعد المائة قال عمر رضی الله عنه أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحببه فمن طلب باباً من العلم رداه الله بردائه فإن أذنب ذنباً استعقبه لئلا يسلبه رداه ذلك حتى يموت به . قلت ومعنى استعتاب الله عبده أن يطلب منه أن يعتبه أى يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإجابة فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه فيكون قد أعتب ربه أى أزال عتبه عليه والرب تعالى قد استعقبه أى طلب منه أن يعتبه . ومن هذا قول ابن مسعود وقد وقعت زلزلة بالكوفة إن ربكم يستعقبكم فاعتبوه وهذا هو الاستعتاب الذى نفاه سبحانه فى الآخرة فى قوله (فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) أى لا نطلب منهم إزالة عتبننا عليهم فإن إزالته إنما تكون بالتوبة وهى لا تنفع فى الآخرة وهذا غير استعتاب العبد ربه كما فى قوله تعالى (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فاهم من المعتبين) فهذا معناه أن يطلبوا إزالة عتبننا عليهم والعفو فاهم من المعتبين أى ما هم عن يزال العتب عليهم وهذا الاستعتاب ينفع فى الدنيا دون الآخرة . الوجه السادس عشر بعد المائة ، قال عمر رضی الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه ووجه قول عمر أن هذا العالم يهدم على إبليس كل ما بينه وبينه بعلمه وإرشاده وأما العابد فنفعه مقصور على نفسه . الوجه السابع عشر بعد المائة قول بعض السلف إذا أتى على يوم

الثاني كتب إليه أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لا كثير من ذلك فكتب إليه عمر أن
 أحهم من الديوان فاني أخاف من أن يسرع الناس في القرآن أن يتفقهوا في الدين فيتأولوه
 على غير تأويله . وقال ابن وهب كنت بين يدي مالك بن أنس فوضعت ألوحي وقمت إلى
 الصلاة فقال . ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته . قال شيخنا وهذه الأمور الثلاثة
 التي فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهي الصلاة والعلم والجهاد هي التي قال فيها عمر بن
 الخطاب رضى الله عنه لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها لولا أن أحمل أو أجهز
 جيشا في سبيل الله ولولا مكابدة هذا الليل ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام كما
 ينتقى أطيب الثمر لما أحببت البقاء . فالأول الجهاد . والثاني قيام الليل . والثالث مذاكرة
 العلم فاجتمعت في الصحابة بكاملهم وتفرقت فيمن بعدهم . الوجه التاسع والمائة مذكروا أبو
 نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضل العلم خير من
 نفل العمل وخير دينكم الورع وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة رضى الله عنها وفي
 رفعه نظر وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسئلة فانه إذا كان كل من العلم
 والعمل فرضا فلا بد منهما كالصوم والصلاة فإذا كانا فضلين وهما النفلان المنطوع بهما
 ففضل العلم ونقله خير من فضل العبادة ونقلها لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه والعبادة
 يختص نفعها بصاحبها ولأن العلم تبقى فائدته وعنده بعد موته والعبادة تنقطع عنه ولما مر من
 الوجوه السابقة . الوجه العاشر بعد المائة مارواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن
 جبل رضى الله عنه قال تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث
 عنه جهاد وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة وبذله لأهله قربة به يعرف الله ويعبد به يؤحد وبه يعرف
 الحلال من الحرام وتوصل الأرحام وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلة والدليل على
 السراء والمعين على الضراء والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة
 يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم
 وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلعتهم وبأجنتهم تمشيهم يستغفر لهم كل رطب ويابس
 حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها والعلم حياة القلوب من العمى
 ونور الأبصار من الظلم وقوة للإبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات
 العلى التفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام وهو إمام للعمل والعمل تابعه يلهمه السعداء
 ويحرمه الأشقياء هذا الأثر معروف عن معاذ ورواه أبو نعيم في المعجم من حديث معاذ
 مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يثبت وحسبه أن يصل إلى معاذ . الوجه الحادى

فقط بل الفقه في دينه من أعظم عباداته . الوجه الرابع والمائة قال اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل وقد تقدم الكلام في تفضيل العالم على الشهيد وعكسه . الوجه الخامس والمائة قال سفيان بن عيينة أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الرسل والعلماء الوجه السادس والمائة قال محمد بن شهاب الزهري ما عبد الله بمثل الفقه وهذا الكلام ونحوه يراد به أنه ما يعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه في الدين فيكون نفس التفقه عبادة . كما قال معاذ بن جبل عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة وسيأتي ان شاء الله ذكر كلامه بتمامه وقد يراد به أنه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه في الدين لعلم الفقيه في دينه بمراتب العبادات ومفسداتها وواجباتها وسننها وما يكملها وما ينقصها وكلا المعنيين صحيح . الوجه السابع والمائة قال سهل بن عبد الله التستري من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فليتنظر إلى مجالس العلماء وهذا لأن العلماء خلفاء الرسل في أمهم ووارثهم في علمهم فمجالسهم مجالس خلافة النبوة ، الوجه الثامن والمائة أن كثيراً من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طاب العلم . فقال الشافعي ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم وهذا الذي ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه . وكذلك قال سفيان الثوري وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة . وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات أحدها أنه العلم فإنه قيل له أي شيء أحب إليك أجلس بالليل انسخ أو أصلى تطوعاً قال نسخك تعلم به أمور دينك فهو أحب إلي . . وذكر الخلال عنه في كتاب العلم نصوصاً كثيرة في تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب وقد تقدم والرواية الثانية أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة وبقوله في حديث أبي ذر وقد سأله عن الصلاة فقال خير موضوع وبأنه أوصى من سأله موافقته في الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة . وكذلك قوله في الحديث الآخر عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة والرواية الثالثة أنه الجهاد فإنه قال لا أعدل بالجهاد شيئاً ومن ذا يطيقه . ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد : وأما مالك فقال ابن القاسم سمعت مالكا يقول ان أقواما ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيا فهم ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك . قال مالك وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا فكتب إليه عمر أن أفرض لهم من بيت المال فلما كان في العام

خلق الذكر فان لله سيارات من الملائكة يطلبون خلق الذكر فاذا اتوا عليهم صفوا بهم . قال عطاء مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام كيف يشتري ويبيع وبصوم ويصلى ويتصدق وينكح ويطلق ويحج ذكره الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه وقد تقدم بيانه . الوجه الثاني والتسعون ما رواه الخطيب أيضا عن ابن عمر يرفعه مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة وفي رفعه نظر . الوجه الثالث والتسعون ما رواه أيضا من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه يسير الفقه خير من كثير من العبادة ولا يثبت رفعه . الوجه الرابع والتسعون ما رواه أيضا من حديث أنس يرفعه فقيه أفضل عند الله من ألف عابد وهو في الترمذى من حديث روح ابن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً وفي ثبوتها مرفوعين نظر والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دورهم . الوجه الخامس والتسعون ما رواه أيضاً عن ابن عمر يرفعه أفضل العبادة للفقه . الوجه السادس والتسعون . ما رواه أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين . الوجه السابع والتسعون . ما رواه عن علي أنه قال العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازى في سبيل الله . الوجه الثامن والتسعون . ما رواه المخلص عن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن بزيع حدثنا حجاج بن نصير حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجمعي عن عطاء بن أبي ميمونة عن أبي هريرة وأبي ذرأنهما قالاباب من العلم يتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً وقالسمعنا رسول الله ﷺ يقول إذا جاء الموت طالب العالم وهو على هذه الحال مات شهيداً ورواه ابن أبي داود عن شاذان عن حجاج به . قلت وشاهده مامر من حديث الترمذى عن أنس يرفعه من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع الوجه التاسع والتسعون مارواه الخطيب أيضاً عن أبي هريرة قال لأن أعلم باباً من العلم في أمر أو نهى أحب إلى من سبعين غزوة في سبيل الله وهذا ان صح فعناه أحب إلى من سبعين غزوة بلا علم لأن العمل بلا علم فساده أكثر من صلاحه أو يريد علماً يتعلمه ويعلمه فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة وهذا لا يحصل في الغزو المجرد . الوجه المائة مارواه الخطيب أيضاً عن أبي الدرداء أنه قال مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة . الوجه الحادى والمائة مارواه عن الحسن قال لأن أعلم باباً من العلم فاعلمه مسلماً أحب إلى من أن يكون لى الدنيا في سبيل الله . الوجه الثانى والمائة قال مكحول ما عبد الله بأفضل من الفقه . الوجه الثالث والمائة قال سعيد بن المسيب ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ولكن بالفقه في دينه وهذا الكلام يراد به أمران . أحدهما أنها ليست بالصوم والصلاة الخاليين عن العلم ولكن بالفقه الذى يعلم به كيف الصوم والصلاة . والثانى أنها ليست الصوم والصلاة

القلب والجوارح ونفسه إليهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلى أهله لكي به شرفا وفضلا وقد مدح الله سبحانه العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه والمرأة التي يعرف بها الحسن من القبيح . وقد قيل العقل ملك والبدن روحه وحواسه وحركاته كلها رعية له فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدا وصل الخلل إليها كلها . ولهذا قيل من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه . وروى أنه لما هبط آدم من الجنة أنه جبريل . فقال إن الله أحضرك العقل والدين والحياء لتختار واحدا منها فقال أخذت العقل فقال الدين والحياء أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان فانحاز إليه والعقل عقلان عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واستقام له أمره وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه وإذا انقصد الرجل بنقصان أحدهما ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي . ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب . والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام فإن علمه بالفرص وطرقها يلقى على المبادرة إليها وعقله الغريزي لا يطبق رده عنه فهو غالبا يؤتى من إقدامه والأول من إحجامه فإذا رزق العقل الغريزي عقلا إيمانيا مستفادا من مشكاة النبوة لا عقلا معيشيا نفاقيا يظن أربابه أنهم على شيء ألا إنهم هم السكاذبون فانهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسلموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إثارة للراحة والدعة ومؤنة الأذى في الله والموالة فيه والمعاداة فيه وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك في الآجلة فانه ماذا طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله والله الموفق المعين . وفي حديث مرفوع ذكره ابن عبد البر وغيره أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لفلان العابد أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز فما عملت فيما لي عليك قال وما لك على قال هل واليت في وليا أو عادت في عدوا وذكر أيضا أنه أوحى الله إلى جبريل أن اخسف بقربة كذا وكذا قال يارب ان فيهم فلانا العابد قال به فابدا إنه لم يتمعر وجهه في يوما قط . الوجه الحادى والتسعون حديث ابن عمر عن النبي ﷺ إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة قال

عن الجاهلين والقبول من الناصحين واليقين والتوكل والطمأنينة والسكينة والتواصل والتعاطف والعدل في الأقوال والأفعال والأخلاق والقوة في أمره والبصيرة في دينه والقيام بأداء حقه واستخراجه من المانعين له والدعوة إليه وإلى مرضاته وجنته والتحذير عن سبل أهل الضلال وتبيين طرق الغي وحال سالكيها والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والحض على طعام المسكين وبر الوالدين وصلة الأرحام وبذل السلام لكافة المؤمنين إلى سائر الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية التي أقسم الله سبحانه على عظيمها . فقال تعالى (ر والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم) . قالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن فاكتفى بذلك السائل وقال فهمت أن أقوم ولا أسأل عن شيء بعدها فهذه الأخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم . وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغى والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء والشح والبخل ولهذا قيل في حد البخل جهل مقرون بسوء الظن ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمة والنفاق والكذب وإخلاف الوعد والغلظة على الناس والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وترك القبول من الناصحين وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله وتقديم أمره على أمر الله والتأوت عند حق الله والثوق بما عند حق نفسه والغضب لها والانتصار لها فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر من حقه وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبا لله فلا قوة في أمره ولا بصيرة في دينه ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغى واتباع الهوى وإيثار الشهوات على الطاعات وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وأدبنا وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزي والعار . وبالجملة فالخير بمجموعه ثم يحتج من شجرة العلم والشر بمجموعه شوك يحتج من شجرة الجهل فلو ظهرت صورة العلم الأبصار لزد حسنها على صورة الشمس والقمر ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه . وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل ولولم يكن للعلم أب ومرب وسانس ووزير إلا العقل الذي به عمارة الدارين وهو الذي أرشد إلى طاعة الرسل وسلم

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور

(وقال الآخر)

لا تخذعك اللحاء والصور تسعة أعشار من ترى بقر

في شجر السدر منهم مثل لها رواء وما لها ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) عالمهم كما قيل فيه :

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباقر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أوراخ ما في الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى (كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) . الضرب الثالث من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه . وفي الحديث المرفوع أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ثبت أبو نعيم وغيره فهذا جهله كان خيرا له وأخف لعذابه من علمه فما زاده العلم إلا وبالا وعذابا وهذا لا مطمع في صلاحه فان التائه عن الطريق يرجى له العود إليها إذا أبصرها فإذا عرفها وحاد عنها عمدا فتي ترجى هدايته . قال تعالى (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين . الضرب الرابع من رزق حضا من العزيمة والإرادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما) رزقنا الله من فضله ولا أحرمتنا بسوء أعمالنا انه غفور رحيم . الوجه التسعون ان كل صفة مدح الله بها العبد في القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته فدحه بالإيمان وهو رأس العلم ولبه ومدحه بالعمل الصالح الذي هو ثمرة العلم النافع ومدحه بالشكر والصبر والمسارعة في الخيرات والحب له والخوف منه والرجاء والإجابة والحلم والوقار واللب والعقل والعفة والكرم والإيثار على النفس والنصيحة لعباده والرحمة بهم والرفقة وخفض الجناح والعفو عن مسيئتهم والصفح عن جانيهم وبذل الإحسان لكافتهم ودفع السيئة بالحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في مواطن الصبر والرضا بالقضاء واللين للأولياء والشدة على الأعداء والصدق في الوعد والوفاء بالعهد والإعراض

قالوه ليس بلازم أكثره فان الشجاعة والكرم واضدادها أخلاق وغرائز قد تجمع في الرجل وقد يعطى بعضها دون بعض وقد شاهد الناس من أهل الاقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس وهذا كثير أما يوجد في أمة الترك يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب فالرجل قد يسمح بنفسه ويضن بماله ، ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل فيبدا بنفسه دونه فن الناس من يسمح بنفسه وماله ومنهم من يبخل بنفسه ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه وعكسه والأقسام الأربعة موجودة في الناس ثم ذكر ضلع الدين وغلبة الرجال فان القهر الذي ينال العبد نوعان . أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين . والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال فضلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم واقتبست كنوز العلم والحكمة من الفاظة والمقصود أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة على ذلك بقوة العزيمة على العمل وهذا على أربعة أضرب الأول من رزق علماء وأعين على ذلك آمنوا وعملوا الصالحات) . (وقوله أولى الأيدى والأبصار) . وقوله أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) فبالحياة تنال العزيمة وبالنور ينال العلم وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل الضرب الثاني من حرم هذا وهذا وهم المرصوفون بقوله (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقوله (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلوا سبيلاً) وقوله (إنك لا تسمع الموتي ولا تسمع الصم الدعاء) وقوله (وما أنت بمسمع من في القبور) وهذا الصنف شر البرية يضيقون الديار ويغلون الأسعار وعند أنفسهم أنهم يعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون ويملكون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون ويؤمنون ولكن بالجبن والطاغوت ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ويتفكرون ويبيتون ولكن مالا يرضى من القول يبيتون ويدعون ولكن مع الله إله آخر يدعون ويذكرون ولكن إذا ذكروا لا يذكرون ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون المساعون ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبعثون ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ويقولون إننا نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة وجلهم إذا فكرت فهم حمير أو كلاب أو ذئاب وصدق البحترى في قوله :

الشیطان فإنه وسواس خناس قد التقم قلب الغافل یقرأ علیه أنواع الوسواس والخیالات الباطلة فإذا تذكر وذكر الله انجم و انضم وخنس و تضامل لذكر الله فهو دائماً بین الوسوسة والخنس . وقال عروة بن رويم إن المسيح صلی الله علیه و آله سأل ربه أن یریه موضع الشیطان من ابن آدم فجلی له فإذا رأسه رأس الحیة واضع رأسه علی ثمرة القلب فإذا ذکر العبد ربه خنس وإذا لم یذكر وضع رأسه علی ثمرة قلبه فمناه وحدته . وقد روى فی هذا المعنی حدیث مرفوع فهو دائماً یترب غفلة العبد فیمیز فی قلبه بذر الآمانی والشهوات والخیالات الباطلة فیشمر کل حنظل وکل شوك وکل بلاء ولا یزال یمده بسقیه حتی یغطی القلب ویعمیه . وأما الکسل فیتولد عنه الاضاعة والتفريط والحمران وأشد الندامة وهو مناف للارادة والعزيمة التي هی ثمرة العلم فان من علم أن کماله ونعمیه فی شیء طلبه بجوده وعزم علیه بقلبه کله فان کل أحد یسعی فی تکمیل نفسه ولذته ولسکن أكثرهم أخطأ الطريق لعدم علیه بما ینبغی أن یطلبه فالارادة مسبوقة بالعلم والتصور فتخلفها فی الغالب انما یکون لتخلف العلم والادراک وإلا فح العلم التام بأن سعادة العبد فی هذا المطلب ونجاته وفوزه کیف یلحقه کسل فی النهوض الیه ولهذا استعاذ النبی صلی الله علیه و آله من الکسل . ففی الصحیح عنه انه کان یقول اللهم انی أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والکسل والجبن والبخل وضلع الدین وغلبة الرجال فاستعاذ من ثمانية أشياء کل شیئین منها قرینان والفرق بینهما ان المکروه الوارد علی القلب اما أن یکون علی ماضی أو لما یتقبل . فالأول هو الحزن والثانی الهم . وان شئت قلت الحزن علی المکروه الذی فات ولا یتوقع دفعه والهم علی المکروه المنتظر الذی یتوقع دفعه وتأماله والعجز والکسل قرینان فان تخلف مصاحبة العبد وکاله ولذته وسروره عنه أما أن یکون مصدره عدم القدرة فهو العجز أو یکون قادراً علیه لکن تخلف لعدم إرادته فهو الکسل وصاحبه یلام علیه ما لا یلام علی العجز وقد یکون العجز ثمرة الکسل فیدلام علیه أيضاً فکثیراً ما یکسل المرء عن الشئ الذی هو قادر علیه وتضعف عنه ارادته فیفضی به الی العجز عنه وهذا هو العجز الذی یلوم الله علیه فی قول النبی صلی الله علیه وسلم إن الله یلوم علی العجز والا فالعجز الذی لم تخاق له قدرة علی دفعه ولا یدخل معجوزه تحت القدرة لا یلام علیه . قال بعض الحکماء فی وصیته إیاک والکسل والضجر فان الکسل لا ینھض لمکرمه والضجر إذا نهض الیه لا یصبر علیها والضجر متولد عن الکسل والعجز فلم یفرده فی الحدیث بلفظ ثم ذکر الجبن والبخل فان الاحسان المتوقع من العبد اما بماله وإما ببینه فالبخیل مانع لنفع ماله والجبان مانع لنفع بدنه والمشهور عند الناس ان البخل مستلزم الجبن من غیر عکس لأن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل والشجاعة تستلزم الکرم من غیر عکس لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود وهذا الذی

(٨ — مفتاح)

في القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء ويحشرون من الموقف إلى النار عيماً قاله الفراء وغيره . الوجه الثامن والثمانون ان الله سبحانه بحكمته سلب على العبد عدواً عالمياً بطرق هلاكه وأسباب الشر الذي يلقيه فيه متفنتاً فيها خبيراً بها حريصاً عليها لا يفتقر يقظة ولا مناماً ولا بدله من واحدة من ست ينالها منه . أحدها وهي غاية مراده منه أن يحول بينه وبين العلم والايمان فيلقيه في الكفر فاذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح فان فاتته هذه . وهدى للإسلام حرص على تلو الكفر وهي البدعة وهي أحب اليه من المعصية فان المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها لأن صاحبها يرى أنه على هدى . وفي بعض الآثار يقول ابلس أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله الا الله فلما رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنماً فاذا ظفر منه بهذه صيرهم من رعايته وأمرائه فان أعجزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليرتج عليه الذي بينهما وهي الخامسة فان أعجزه ذلك صار إلى السادسة وهي تسليط حربه عليه يؤذونه ويشتمونه ويهتونه ويرمونه بالعظائم ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والارادة وسائر أعماله فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الامور ولا بعدوه ولا بما يحصنه منه فانه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طريقه التي يأتيه منها وجيشه الذي يستعين به عليه وعرف تداخله ومخارجه وكيفية محاربته وبأى شيء يحاربه وبماذا يداوى جراحته وبأى شيء يستمد القوة لقتاله ودفعه وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم فالجاهل في غفلة وعى عن هذا الامر العظيم والخطب الجسيم . ولهذا جاء ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده في القرآن كثيراً جداً لحاجة النفوس إلى معرفة عدوها وطرق محاربته وبجاهدته فلولاً أن العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه فالعلم هو الذي تحصل به النجاة . الوجه التاسع والثمانون ان أعظم الاسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين ويدخل عليه عدو منها هو الغفلة المضادة للعلم والكسل المضاد للارادة والعزيمة هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء وهما من عدم العلم . أما الغفلة فمضادة للعلم منافية له وقد ذم سبحانه أهلها ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم . قال تعالى (ولا تكن من الغافلين) . وقال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) . وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في وصيته لنساء المؤمنين لا تغفلن فتنسين الرحمة وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل مأوى

الشهوة في قوله (يا نساء النبي استن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) أى لا تلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزناء . قالوا والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الاجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ولا تليته وتسكره فان ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها والقلب أمراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرئاسة والعلو في الأرض وهذا المرض مركب من مرض الشهوة والشهوة فانه لا بد فيه من تخيل فاسد وارادة باطلة كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمتة وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما . وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صاحب الشجرة الذي افتوه بالغسل فمات قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال فجعل العي وهو عي القلب عن العلم واللسان عن النطق به مرضاً وشفاه سؤال العلماء فأمراض القلوب أصعب من أمراض الابدان لأن غاية مرض البدن أن يفضى بصاحبه إلى الموت . وأما مرض القلب فيفضى بصاحبه إلى الشقاء الأبدى ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ولهذا سمي الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور . وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربي فمن أنصت) وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الابدان وما يقال للعلماء أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما وإلا فالأمر أعظم فان كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب . وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الموجود وروحه ولا يستغنى عنهم طرفة عين فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء بل أعظم وبالجلة فالعلم للقلب مثل الماء للسماك إذا فقدته مات فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها وكنسبة سمع الأذن وكنسبة كلام اللسان إليه فاذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الآخرس ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها . قال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) والمراد عي القلب في الدنيا . وقال تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكياً وصماً أو هم جهنم) لأنهم هكذا كانوا في الدنيا والعبد يبعث على ما مات عليه . واختلف في هذا العمى في الآخرة ف قيل هو عي البصيرة بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار وقيل هو عي البصر ورجح هذا بأن الاطلاق ينصرف إليه وبقوله (قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) وهذا عي العين فان الكافر لم يكن بصيراً بحجته . وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار

درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله أمثاله منها فكم بين حاله في أول كونه نظفة وبين حاله والرب
يسلم عليه في داره وينظر إلى وجهه بكرة وعشياً والنبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره
لما جاءه الملك فقال له اقرا فقال ما أنا بقارىء وفي آخره أمره بقول الله له (اليوم أكملت
لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) وبقوله له خاصة (وأنزله عليك الكتاب والحكمة
وعليك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) : وحكى أن جماعة من النصارى
تحدثوا فيما بينهم فقال قائل منهم ما أقل عقول المسلمين يزعمون أن نبيهم كان راعى الغنم
فكيف يصلح راعى الغنم للنبوة . فقال له آخر من بينهم أما هم فوالله أعقل منا فإن الله
بحكمته يسترعى النبي الحيوان البهيمة فإذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان
الناطق حكمة من الله وتدرجاً لعبده ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل
ويشرب ويبول ويبكى فقلنا هذا إلهنا الذى خلق السموات والأرض فأمسك القوم عنه .
فكيف يحسن بذى همة قد أزاح الله عنه غلله وعرفه السعادة والشقاوة أن يرضى بأن يكون
حيواناً وقد أمكنه أن يصير إنساناً وبأن يكون إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملكاً وبأن
يكون ملكاً وقد أمكنه أن يكون ملكاً فى مقعد صدق عند ملك مقدر فتقوم الملائكة فى
خدمته وتدخل عليهم من كل باب سلام عليهم بما صبرتم فنعم عقبي الدار . وهذا السكال
إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه فعاد الأمر إلى العلم وثمرته والله تعالى الموفق . وأعظم
النقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرتة على تفويته . كما قال بعض السلف اذا
كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة . وصدق القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كـنقص القادرين على التمام

فثبت أنه لا شيء أفتح بالإنسان من أن يكون غافلاً عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة
والأعمال الصالحة فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكبدون الماء ويغفلون
الأسعار إن عاش عاش غير حميد وإن مات مات غير فقيد فقد هم راحة للبلاد والعباد ولا
تبكى عليهم السماء ولا تستوحش لهم الغبراء . الوجه السابع والثمانون أن القلب يعترضه
مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هــلاكه وموته وهما مرض الشهوات ومرض
الشبهات هذان أصل داء الخلل إلا من عافاه الله . وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين
فى كتابه . أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأفتلها للقلب فى قوله فى حق المنافقين (فى
قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقوله (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون
ماذا أراد الله بهذا مثلاً) . وقال تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض
والقاسية قلوبهم) فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجمل والشبهة وأما مرض

فلما تلاقينا وعايشت حسنها تيقنت أني إنما كنت ألعب

فالمسكار منوط بالمسكار والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد . قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة الجسم . وقد قيل من طلب الراحة ترك الراحة .

فيواصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الأكرمين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجادلوا عليها بالسيوف ولكن حفت بحجاب من المسكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختص الله لها من يشاء من عباد الله ذو الفضل العظيم ، الوجه السادس والثمانون إن الله تعالى خلق الموجودات وجعل لكل شيء منها كالا يختص به هو غاية شرفه فاذا عدم كاله انتقل إلى الرتبة التي دونه واستعمل فيها فكان استعماله فيها كمال أمثاله فاذا عدم تلك أيضا نقل إلى مادونها ولا تعطل وهكذا أبدا حتى إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذي لا يصلح إلا للوقود فالفرس إذا كانت فيه فروسيته التامة أعد لمراكب الملوك وأكرام أمثاله فاذا نزل عنها قليلا أعد لمن دون الملك فإن ازداد تقصيره فيها أعد لآحاد الأجناد فان تقاصر عنها جملة استعمل استعمال الخمار إما حول المدار وإما لنقل الزبل ونحوه فان عدم ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والاعدام . كما يقال في المثل أن فرسين التقيا أحدهما تحت ملك والآخر تحت الروايا فقال فرس الملك أما أنت صاحبى وكنت أنا وأنت في مكان واحد فما الذي نزل بك إلى هذه المرتبة فقال ما ذاك إلا أنك هملجت قليلا وتكسعت أنا . وهكذا السيف إذا نبا عما هيء له ولم يصلح له ضرب منه فاس أو مفشار ونحوه وهكذا الدور العظام الحسان إذا خربت وتهدمت اتخذت حظائر للغنم أو الإبل وغيرها . وهكذا الآدمي إذا كان صالحا لاصطفاه الله له برسائله ونبوته اتخذته رسولا ونبياً . كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فاذا كان جوهره قاصراً عن هذه الدرجة صالحا لخلافة النبوة وميراثها رشحه لذلك وبلغه إياه فاذا كان قاصراً عن ذلك قابلاً لدرجة الولاية رشح لها وإن كان ممن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة والعلم جعل من أهله حتى ينتهي إلى درجة عموم المؤمنين فان نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير أصلاً استعمل خطباً ووقوداً للنار . وفي أثر اسرائيلي أن موسى سأل ربه عن شأن من يعذبهم من خلقه . فقال يا موسى ازرع زرعاً فزرعه فأوحى إليه أن احصده ثم أوحى إليه أن انسفه وذره ففعل وخلص الحب وحده والعيدان والعصف وحده فأوحى إليه أن لا يجعل في النار من العباد من لا خير فيه بمنزلة العيدان والشوك التي لا يصلح إلا للنار . وهكذا الإنسان يترقى في درجات الكمال درجة بعد

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان (١)
فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه فإن البدن أيضا عارية للروح وآلة
لها ومركب من مراكبها فسماعاتها بصحة وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها .
السعادة الثالثة هى السعادة الحقيقية وهى سعادة نفسانية روحية قلبية وهى سعادة العلم النافع
ثمرته فإنها هى الباقية على قلب الأحوال والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره وفى دوره الثلاثة
أعنى دار الدنيا ودار السبرخ ودار القرار وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال .
أما الأولى فإنها تصحبه فى البقعة التى فيها ماله وجهه . والثانية تعرضه للزوال والتبدل بـكس
الخلق والرد إلى الضعف فلا سعادة فى الحقيقة إلا فى هذه الثالثة التى كلها طال الأمد ازدادت
قوة وعلواً وإذا عدم المال والجاء فهى مال العبد وجهه وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة
الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليتان وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبحث على
طلبها إلا العلم بها فعادت السعادة كلها إلى العلم وما يقتضيه والله يوفق من يشاء لا مانع لما
أعطى ولا معطى لما منع . وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها
وعورة طريقها ومرارة مبادئها وتعب تحصيلها وإنما لا تنال إلا على جدمن التعب فإنها لا تحصل
إلا بالجد المحض بخلاف الأولين فإنهما حظ قد يحوزه غير طالبه وبخت قد يحوزه غير جالبه
من ميراث أو هبة أو غير ذلك . وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع وصدق
الطلب وصحة النية . وقد أحسن القائل فى ذلك :

فقل لمرجى معالى الأمور بغير اجتهد رجوت المحالا

(وقال الآخر)

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

ومن طمحت همته الى الأمور العالية فواجب عليه أن يشد على حبة الطرق الدينية وهى
السعادة وإن كانت فى ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكراهة والتأذى وإنما متى
أكراهت النفس عليها وسيقت طائفة وكراهة إليها وصبرت على لأوائها وشدتها أفضت منها
الى رياض موقنة ومقاعد صدق ومقام كريم تجد كل لذة دونها لعب الصبي بالعصفور بالنسبة
الى لذات الملوك فحينئذ حال صاحبها كما قيل :

وكنت أرى أن قد تنهى فى الهوى الى غاية ما يمدى الى مذهب

(١) هكذا بالأصل والبيت مقتضب من بيتين وهما :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته أنطاب الريح مما فيه خسران
انهض الى الروح واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

ليشكروه . وقال تعالى (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) وقال تعالى (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين وهديناه النجدين) فذكر هنا العينين التي يبصر بهما في علم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل وهو قول أكثر المفسرين وتدل عليه الآية الأخرى (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزوماً وذكر اللسان والشفقتين اللتين هما آلة التعليم فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته و وحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمنصرف فيها والحكمة عليها خصها سبحانه وتعالى بالذكر في السؤال عنها . فقبال (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها . قال ابن عباس يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد والله تعالى أعطى العبد السمع ليمسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده والقلب ليمقلها ويفقهها والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته فالمقصود باعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه . الوجه الخامس والثمانون إن أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة سعادة خارجية عن ذات الإنسان بل هي مستعارة له من غيره نزول باسترداد العارية وهي سعادة المال والحياة فبينما المرء بها سعيداً ملحوظاً بالعناية مرموقاً بالأبصار إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالفخر واجب السعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بحمة ابن عمه والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته فإذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عبادان قرية . ويحكى عن بعض العلماء أنه ركب مع تجار في مركب فأنكسرت بهم السفينة فأصبحو بعد عز الغنى في ذل الفقر ووصل العالم إلى البلد فأكرم وقصد بأنواع التحف والكرامات فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة فقال نعم تقولون لهم إذا اتخذتم مالا لا يفرق إذا أنكسرت السفينة فاتخذوا العلم تجارة . واجتمع رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل ورواء برجل عالم نجس المخاضة فلم ير شيئاً فقالوا كيف رأيته فقال رأيته داراً حسنة مزخرفة ولكن ليس بها ساكن . السعادة الثانية سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة أعضائه فهذه ألصق به من الأولى ولكنه في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه . كما قيل :

الآخر من عينه وهذا كثير في كلام الناس نظمه ونثره وهو أكثر من أن نذكره هنا . ولما كان القلب أشرف الأعضاء كان أشدها ارتباطاً به وأشرف من غيره . قالوا ولهذا يأتى القلب ما لا يأتى السمع عليه بل إذا ارتاب من جهة عرض ما يأتى به على البصر ليزكيه أم يرده فالبصر حاكم عليه مؤتمن عليه . قالوا ومن هذا الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده مرفوعاً ليس المخبر كالمعين . قالوا ولهذا أخبر الله سبحانه موسى أن قومه اقتنوا من بعده وعبدوا العجل فلم يلحقه فى ذلك ما لحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من إلقاء الألواح وكسرها لقوت المعاينة على الخبر . قالوا وهذا إبراهيم خليل الله يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى وقد علم ذلك بنجر الله له ولو لكان طلب أفضل المنازل وهى طمأنينة القلب . قالوا ولليقين ثلاث مراتب أولها للسمع وثانيها للعين (١) وهى المسماة بعين اليقين وهى أفضل من المرتبة الأولى وأكمل . قالوا وأيضاً فالبصر يودى إلى القلب ويودى عنه فان العين مرآة القلب يظهر فيها ما يحبه من المحبة والبغض والموالاتة والمعاداة والسرور والحزن وغيرها . وأما الأذن فلا تودى عن القلب شيئاً البتة وإنما مرتبتها الإيصال إليه حسب فالعين أشد تعلقاً به . والصواب أن كلامهما له خاصية فضل بها الآخر فالمدرّك بالسمع أعم وأشمل والمدرّك بالبصر أتم وأكمل فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكإل الإدراك وأما نعيم أهل الجنة فشيتان . أحدهما النظر إلى الله . والثانى سماع خطابه وكلامه كما رواه عبد الله بن أحمد فى المسند وغيره كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن عز وجل . ومعلوم أن سلامه عليهم وخطابه لهم ومحضرته إياهم كما فى الترمذى وغيره لا يشبهها شئ قط ولا يكون أطيب عندهم منها ولهذا يذكر سبحانه فى وعيد أعدائه أنه لا يكلمهم كما يذكر احتجابه عنهم ولا يرونه فكلامه أعلا نعيم أهل الجنة والله أعلم . الوجه الرابع والثمانون أن الله سبحانه فى القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن اعطاهم آلات العلم فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار ومرة يذكر اللسان الذى يترجم به عن القلب . فقال تعالى فى سورة النعم وهى سورة النحل التى ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها فعدد نعمه فيها على عباده وتعرف بها اليهم واقتضاهم شكرها وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها فأولها فى أصول النعم وآخرها فى مكملاتها . قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم ليعلم لهم ثم اعطاهم السمع والأبصار والأفئدة التى نالوا بها من العلم ما نالوه وأنه فعل بهم ذلك

(١) هكذا فى الأصل بدون أن يذكر المرتبة الثالثة .

وملوكم . كما قال بعض السلف صنفان إذا صلحا صلح سائر الناس وإذا فسدا فسد سائر الناس العلماء والأمراء . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين الا الملو ك وأحبار سوء ورهبانها

ولما كان للسمع والبصر من الادراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء كانا في أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع . واختلف في الأفضل منهما فقالت طائفة منهم أبو المعالي وغيره السمع أفضل قالوا لأن به تنال سعادة الدنيا والآخرة فانها إنما تحصل بمتابعة الرسل وقبول رسالاتهم وبالسمع عرف ذلك فان من لا يسمع له لا يعلم ما جاؤا به . وأيضاً فان السمع يدرك به أجل شيء وأفضله وهو كلام الله تعالى الذي فضله على الكلام كفضل الله على خلقه ، وأيضاً فان العلوم إنما تنال بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع . وأيضاً فان مدركه أعم من مدرك البصر فانه يدرك الكليات والجزئيات والشاهد والغائب والموجود والمعدوم والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات والسمع يسمع كل علم فأين أحدهما من الآخر ولوفرنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرسول ولا يرى شخصه والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لضممه هل كانا سواء . وأيضاً ففارق البصر إنما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريباً وأما فاقد السمع فالذي فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو قريباً . وأيضاً فان ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع في القرآن أكثر من ذمه لم بعدم البصر بل إنما يذمهم بعدم البصر تبعاً لعدم العقل والسمع . وأيضاً فان الذي يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا سامة ولا تعب مع كثرة وعظمه والذي يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص وربما خشي صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته بالنسبة إلى السمع . وقالت طائفة منهم ابن قتيبة بل البصر أفضل فان أعلا النعيم وأفضله وأعظمه لذة هو النظر إلى الله في الدار الآخرة وهذا إنما ينال بالبصر وهذه وحدها كافية في تفضيله . . قالوا وهو مقدمة القلب وطبيعته ورائده فنزلته منه أقرب من منزلة السمع ولهذا كثيراً ما يقرن بينهما في الذكر بقوله (فاعتبروا يا أولى الأبصار) فلا اعتبار بالقلب والبصر بالعين . وقال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) ولم يقل وأسماعهم . وقال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وقال تعالى (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) وقال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) وقال في حق رسوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) ثم قال (ما زاغ البصر وما طغى) وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين القلب والبصر ولهذا يقرأ الإنسان ما في قلب

أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيباً من الكتاب إلا بالذم أيضاً كقوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآية . وقال تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) . وقال (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) فالأقسام أربعة الذين آتيناها الكتاب وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح والذين أوتوا نصيباً من الكتاب لا يكون أقط إلا في معرض الذم والذين أوتوا الكتاب أعجم منه فانه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون قط وبأهل الكتاب يعجم الجنس كله ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر) الآية . وقال في الذم (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) وهذا الفصل ينتفع به جداً في أكبر مسائل أصول الإسلام وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه وقد ذكرنا فيه نكتات حسناً يتضح بها الحق في المسألة والله أعلم . الوجه الثاني والثمانون أن الله سبحانه فاوت بين النوع الإنساني أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين فلا يعرف اثنان من نوع واحد بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرهم والله سبحانه خلق الملائكة عقولا بلا شهوات وخلق الحيوانات ذوات شهوات بلا عقول وخلق الإنسان مركباً من عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته كان خيراً من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله كان شراً من الحيوانات وفاوت سبحانه بينهم في العلم فجعل عالمهم معلم الملائكة ، كما قال تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) وتلك مرتبة لاهوتية فوقها وجعل جاهلهم بحيث لا يرضى الشيطان به ولا يصلح له كما قال الشيطان لجاهلهم الذي أطاعه في الكفر إني برى منك وقال لجاهلهم الذين عصوا رسوله إني برى منكم فله ما أشد هذا التفاوت بين شخصين أحدهما تسجد له الملائكة ويعلمها بما الله عليه والآخر لا يرضى الشيطان به وليا وهذا التفاوت العظيم إنما حصل بالعلم وثمرته ولو لم يكن في العلم إلا القرب من رب العالمين والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملائكة الأعلى لكفى به فضلاً وشرفاً فكيف وعز الدنيا والآخرة منوط به ومشروط بحصوله . الوجه الثالث والثمانون أن أشرف ما في الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره . ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسول الله الذي يأتيه به والعين طبيعته كان ملكاً على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره ويصرفها فتنقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها فلذلك كان ملكها والمطاع فيها وهكذا العالم في الناس كالقلب في الأعضاء . ولما كان صلاح الأعضاء بصلاح ملكها ومطاعها وفسادها بفسادها كانت هذه حال الناس مع علمائهم

الذين أتوا الكتاب مبيناً للمفعول . فالأول كقوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآيات . وكقوله تعالى (أفغير الله أتبغى حكماً وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) فهذا فى سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس فى سياق ذمهم والاخبار بعنادهم وجحودهم كما استشهدهم فى قوله تعالى (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وفى قوله (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) . وقال تعالى (الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) . واختلاف فى الضمير فى يتلونه حق تلاوته فقيل هو ضمير الكتاب الذى أتوه قال ابن مسعود يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويقرؤنه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه قالوا وأنزات فى مؤمنى أهل الكتاب وقيل هذا وصف للمسلمين والضمير فى يتلونه للكتاب الذى هو القرآن وهذا بعيد إذا عرف أن القرآن يأباه ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) بل هذا حجة لنا أيضاً لما ذكرنا فانه أخبر فى الأول عن معرفتهم برسوله صلى الله عليه وسلم ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم استشهاداً بهم على من كفر وثنا عليهم ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه وخص فى آخر الآية بالذم طائفة منهم فدل على أن الأولين غير مذمومين وكونهم دخلوا فى جملة الأولين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال آتيناكم الكتاب عند الاطلاق فانهم دخلوا فى هذا اللفظ ضمناً وتبعاً فلا يلزم تناوله لهم قصداً واختياراً . وقال تعالى فى سورة الانعام (قل أتتكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) قيل الرسول وصدقه وقيل المذكور هو التوحيد والقولان متلازمان إذ ذلك فى معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لافى معرض ذم الذين آتاهم الكتاب فان السورة مكية والحجاج كان فيها مع أهل الشرك والسياق يدل على الاحتجاج لاذم المذكورين من أهل الكتاب . وأما الثانى فكقوله (وأن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون وإن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) فهذا شهادته سبحانه للذين أتوا الكتاب . والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون . وقال تعالى (يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على ادبارها) وقال تعالى (وقل للذين أتوا الكتاب والأمينين أسلمتم) وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم وإلا فلم يؤمر صلى الله عليه وسلم

ينفي سبحانه عنهم السمع تارة ويشبّهه أخرى قال الله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم)
ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن وأمر الرسول باسماعهم إياه . وقال تعالى (وقالوا لو كنا نسمع
أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه والمعنى ولو علم
الله فيهم خيراً لآسمعهم سمعاً ينتفعون به وهو فقهه المعنى وعقله والا فقد سمعوه سمعاً تقوم به
عليهم الحاجة ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكرهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه
والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرت عنه لم يفهم ما يراد به فينزل منزلة من لم يسمعه .
قال تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) نفى عنهم استطاعة السمع مع
صحة حواسهم وسلامتها وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع
أن يسمعه ولا يراه وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة يقولون لا أطيع أنظر إلى فلان
ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرت عنه وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبها على
مذهبهم ولادلالة فيها إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذي تقوم به الحاجة قطعاً وإنما المراد سلب
السمع الذي يترتب عليه فائده وثمرته والقدح حق ولكن الواجب تنزيل القرآن منازلهم ووضع
الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان ومثل هذا إذا لم يحصل لفهم الخطاب لا يعذر بذلك
لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذراً له . ومن
هذا (قولهم قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) يعنون
أنهم في ترك القبول منه ومحبة الاستماع لما جاء به وإيثار الأعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة
من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به فهذا هو الذي يقولون لا خلود في النار
(ولو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ولهذا جعل ذلك مقدوراً لهم وذنباً
اكتسبوه . فقال تعالى (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) والله تعالى ينفي تارة
عن هؤلاء العقل والسمع والبصر فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله وتارة ينفي عنهم
السمع والعقل وتارة ينفي عنهم السمع والبصر وتارة ينفي عنهم العقل والبصر وتارة ينفي عنهم
وحده فنفي الثلاثة نفي لمدارك العلم بطريق المطابقة ونفي بعضها نفي له بالمطابقة والآخر باللزم
فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر بل أصل فسادهما من فسادة وإذا فسد السمع والبصر
فسد القلب فإذا أعرض عن سماع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى
إلى القلب ففسد وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر فكل مدرك من هذه يصبح بصحة
الآخر ويفسد بفساده . فلهاذا يجيء في القرآن نفي ذلك صريحاً ولزوماً . وبهذا التفصيل يعلم
اتفاق الأدلة من الجانبين وفي استدلال الطائفة الثانية بقوله (الذين آتيناهم الكتاب)
يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ونظارها نظر فان الله تعالى حيث قال (الذين آتيناهم الكتاب) لم
يكونوا إلا مدحوحين مؤمنين وإذا أراد ذمهم والاختبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ

بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ليس المراد إعراضه عن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه . قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم من نفسك عن مقابلتهم على سفههم وهذا كثير في كلامهم ومنه الحديث إذا كان صوم أحدكم فلا يصبخ ولا يجمل ومن هذا تسمية المعصية جهلا . قال قتادة أجمع أصحاب محمد أن كل من عصي الله فهو جاهل وليس المراد أنه جاهل بالتحريم إذ لو كان جاهلا لم يكن عاصيا فلا يترتب الحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة على جاهل بالتحريم بل نفس الذنب يسمى جهلا وإن علم مرتكبه بتحريمه إما أنه لا يصدر إلا عن ضعف العلم ونقصانه وذلك جهل فسمى باسم سببه وإما تنزيلا لفاعله منزلة الجاهل به . الثاني أنهم لما ردوا الحق ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم كما قال تعالى عن المنافقين (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) . الثالث أن العلم الذي ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح لم يكن حاصلًا لهم فسلب عنهم حقيقته والشئ قد ينتفي لنفي ثمرته والمراد منه . قال تعالى في ساكن النار (فإن له نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) نبي الحياة لا تنفاه فائتتها والمراد منها ويقولون لا مال إلا ما أنفق ولا علم إلا ما نفع . ولهذا نفي عنه سبحانه عن الكفار الأسماع والأبصار والعقول لما لم ينتفعوا بها . وقال تعالى (وجعلناهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله) وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الخواص كانوا بمنزلة فاقديها . قال تعالى (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق والبسم بل هذه له أصلا وللعين والاذن واللسان تبعاً فاذا عدمها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين أصم ولا آفة بأذنه أبكم وإن كان فصيح اللسان . قال تعالى (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) فلا تنافي بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والغفل على قلوب من لا يعمل بموجب الحجة وينقاد لها . قال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) . فآخبر سبحانه أنه منعمهم فقه كلامه وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه ولم يكن ذلك مانعاً لهم من الإدراك الذي تقوم به الحجة عليهم فانهم لو لم يفقهوه جملة ما ولوا على أدبارهم نفورا عند ذكر توحيد الله فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب وأن الذي غشى قلوبهم كالذي غشى آذانهم . ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة وبصيروا كالأصم . ولذلك

لأن طبع على قلوبهم . ولا ريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدى به المهتدون سبباً لضلal هذا كما قال تعالى . (يضل به كثيراً ويهتدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) فآخبر تعالى أن القرآن سبب لضلal هذا الصنف من الناس وهو هداه الذي هدى به رسوله وعباده المؤمنين ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدى به من اتبع رضوان الله . قال تعالى (وهذا ما أنزلت سورة . فمنهم من يقول أينا أنا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) ولا شيء أعظم فساداً لمحل العلم من صيرورته بحيث يضل بما يهتدى به فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفهم الذي قد استحسنت فيه الماراة إلى الماء العذب كما قيل :

ومن يك ذا فم مريض * يجد مرأبه الماء الزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه وإذا فسد الفهم فسد إدراكه وكذلك إذا فسدت العين وأهل المعرفة من الصيافة يقولون إن من خاف في نقده نسي النقد وسلبه فاشتباه عليه الخالص بالزغل . ومن كلام بعض السلف يهتف العلم بالعمل فإن أجابه حل والارتاح . وقال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب في ذهابه ونسيانه . وأيضا فإن العلم يراد للعمل فانه بمنزلة الدليل للسائر فإذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته فنزل منزلة من لم يعلم شيئاً لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم كما أن من ملك ذهباً وفضة وجاع وعرى ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس فهو بمنزلة الفقير العادم كما قيل :

ومن ترك الإنفاق عمداً احتياجه . مخافة فقر فالذى فعل الفقر (١)

والعرب تسمى الفحش والبذاء جهلاً أما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه وأما لأن الجهل يقال في جانب العلم والعمل قال الشاعر :

ألا لا يحجان أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا (اتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلاً . ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف أنه قال (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) . ومن هذا قوله تعالى (خذ العفو وأمر

(١) هكذا في الأصل والصواب :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

على المقتضى أمر يضعفه في نفسه ويسلبه اقتضاه وقوته أو الاقتضاء بحاله وانما غلب المانع فكان التأثير له . ومثال ذلك في مسئلتنا أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها هل يضعف العلم حتى لا يصير مؤثراً البتة أو العلم بحاله ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له . هذا سر المسألة وفقهها فأما الأول فلا شك فيه ولكن الشأن في القسم الثاني وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه وربما قلبت حقيقته من القلب والقرآن قد دل على هذا . قال تعالى (وإذا قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) فعاقبهم سبحانه بازاعة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء . ونظيره قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ولهذا قيل من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه . ومن هنا قيل لأرأى لصاحب هوى فأنهواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله . قال تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف) أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم (بل طبع الله عليها بكفرهم) حتى صارت غلفاً والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه وكل شيء في غلافه فهو أغلف وجمعه غلف يقال سيف أغلف وقوس غلفاء ورجل أغلف وأقلف إذا لم يفتح ، والمعنى قلوبنا عليها غشاوة وغطاء . فلا تفقه ما تقول يا محمد صلى الله عليه وسلم ولم تع شيئاً من قال أن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أي أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه : أحدها أن غلف جمع أغلف كغلف وأقلف وحر وأحمر وجرى وأجرى وغلب وأغلب ونظائره والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف هذا هو المعروف من اللغة الثاني أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال قلب فلان غلاف لكذا وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه ولا نظيره في القرآن فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه . الثالث أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار . قلوبنا في أكنة مما ندعونا إليه والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها والأكنة كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع ومنه الكناية أغلاف السهام الرابع أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكره ولا يحسن مقابلته بقوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) وانما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها كما قيل لهم لما ادعوا ذلك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) . وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سبباً

(وفي قصيدته اللامية)

فوالله لولا أن تكون مسبة تجر على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حاله من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابتئالا مكذب لدينا ولا يعنى بقول إلا باطل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام
وتضليل العقول فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقنه . السبب التاسع متابعة من
يعاديه من الناس للرسول وسبقه إلى الدخول في دينه وتخصصه وقربه منه وهذا القدر منع
كثيراً من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ويبغض مكانه ولا يحب أرضاً يمشى عليها ويقصد
مخالفته ومناقضته فيراه قد اتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق
وأهله وإن كان لا عداوة بينه وبينهم وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار فانهم كانوا أعدائهم
وكانوا يتواعدونهم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم يتبعونه ويقالونهم معه فلما
بدرهم إليه الإنصار وأسلموا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم . السبب
العاشر مانع الألف والعادة والمنشأ فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ولهذا قيل
هي طبيعة ثانية فيربي الرجل على المقالة وينشأ عليها صغيراً فيتررب قلبه ونفسه عليها كما يتررب
لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ولا يعقل نفسه إلا عليها ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد
إزالتها وإخراجها من قلبه وأن يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ويصعب عليه الزوال
وهذا السبب وإن كان أضغف الأسباب معنى فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل
ليس مع أكثرهم بل جميعهم إلا ما عسى أن يشذوا إعادة ومربي تربي عليه طفلاً لا يعرف
غيرها ولا يحسن به فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس فالانتقال عنه كالانتقال
عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم
وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة ونقلوهم إلى الإيمان
حتى استخذوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة ولا يعلم مشقة هذا
على النفوس إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقاتلته إلى الحق فجزى الله المسلمين
أفضل ما جزى به أحداً من العالمين . إذا عرف أن المتتضي نوعان فالهدى المتتضي وحده
لا يوجب الاهتداء والهدى التام يوجب الاهتداء . فالاول هدى البيان والدلالة والتعليم ولهذا
يقال هدى فما اهتدى . والثاني هدى البيان والدلالة مع إعطاء التوفيق وخلق الإرادة فهذا
الهدى الذي يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه موجه فحق وجد السبب وانتفت الموانع لزم
وجود حكمه . وههنا دقيقة بها يفصل النزاع وهي أنه هل ينهطف من قيام المانع وعدم الشرط

موسى وهرون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبید لهم . ولهذا قيل إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال بينما أنت إله تعبد تصير عبداً تعبد غيرك فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال . السبب الخامس مانع الشهوة والمال وهو الذى منع كثيراً من أهل الكتاب من الإيمان خوفاً من بطلان ما كلهم وأموالهم التى تصير إليهم من قومهم وقد كانت كفار قریش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها فكانوا يقولون لمن يحب الزنا إن محمداً يحرم الزنا ويحرم الخمر وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته فكان آخر ما كلمنى به أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها أمنأً فإذا أسلمت حلتم بينى وبينها وجلدتونى على شربها . وقال آخر منهم بعد أن عرف ماقلت له لى أقارب أرباب أموال وإنى إن أسلمت لم يصل لى منها شىء وأنا أقول أن أرثهم أو كما قال . ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار فتتفق قوة داعى الشهوة والمال وضعف داعى الإيمان فيجيب داعى الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسى عن آبائى وسلفى . السبب السادس محبة الأهل والأقارب والعشيرة يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم . وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهالهم وعشائرهم . السبب السابع محبة الدار والوطن وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه . السبب الثامن تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول إزاراً وطعنأً منه على آباءه وأجداده وذمأً لهم وهذا هو الذى منع أباً طالب وأمثاله عن الإسلام استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك . ولهذا قال أعداء الله لأبى طالب عند الموت أترغب عن ملة عبد المطلب فكان آخر ما كلهم به هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب لعلمهم بتعظيمه أباء عبد المطلب وأنه إنما حاز الفخر والشرف به فكيف يأتى أمراً يلزم منه غاية تنقيته وذمه . ولهذا قال لولا أن تكون مسبة على بنى عبد المطلب لا قررت بها عينك أو كما قال . وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه كقوله :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذلك مبيناً

مقتض لا يتخلف عنه موجب ومقتضاه لقصوره في نفسه بل يستلزمه استلزام العلة التامة لمعلولها ومقتض غير تام يتخلف عنه مقتضاه لقصوره في نفسه عن التمام أو لقوات شرط اقتضائه أو قيام مانع مانع تأثيره فإن أريد بكون العلم مقتضياً للاهتمام والاقتضاء التام الذي لا يتخلف عنه أثره بل يلزمه الاهتمام بالفعل . فالصواب قول الطائفة الثانية وإنه لا يلزم من العلم حصول الاهتمام المطلوب وإن أريد بكونه موجباً أنه صالح للاهتمام مقتض له وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره أو فوات شرط أو قيام مانع . فالصواب قول الطائفة الأولى وتفصيل هذه الجملة أن العلم بكون الشيء سلباً لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة . السبب الأول ضعف معرفته بذلك ، السبب الثاني عدم الأهلية وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطاً بركة المحل وقبوله للتزكية فإذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالأرض الصلدة التي لا يخالطها الماء فإنه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها فإذا كان القلب قاسياً حجرياً لا يقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه كما لا تذهب الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم) وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وهذا في القرآن كثير فإذا كان القلب قاسياً غليظاً جافياً لا يعمل فيه العلم شيئاً وكذلك إذا كان مريضاً مهيناً مائياً لا صلاحية فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم . السبب الثالث قيام مانع وهو إما حسد أو كبر وذلك مانع لإبليس من الانقياد للأمر وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم وهو الذي منع عبد الله بن أبي من الإيمان وبه تخلف الإيمان عن أبي جهل وسائر المشركين فانهم لم يكونوا يرتابون في صدقه وأن الحق معه لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر وبه تخلف الإيمان عن أمية وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ . السبب الرابع مانع الرياسة والملك وإن لم يقيم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيصن بملكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقوا وأقروا بها باطناً وأحبوا الدخول في دينه لكن خافوا على ملكهم وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة وقل من نجا منه إلا من عصم الله وهو داء فرعون وقومه . ولهذا قالوا (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا

فكيف يقال إن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم رباً وخالقاً وهذا بهتان عظيم فالكفر أمر وراء مجرد الجهل بل الكفر الاغلاظ هو ما أنكروه هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر . قالوا والقلب عليه واجبان لا يصيره مؤمناً إلا بهما جميعاً واجب المعرفة والعلم وواجب الحب والانقياد والاستسلام فكما لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفراً وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلاً فإن الجاهل إذا عرف وعلم فهو قريب إلى الانقياد والانبعاث وأما المعاند فلا دواء فيه . قال تعالى (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين) ، قالوا فحب الله ورسوله بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما لا يكون العبد مسلماً إلا به ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم قالوا وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته والسعى في أذاه بكل ممكن مع علمه بفضلته وعلمه وأنه لا شيء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله . ولهذا قيل الحاسد عدو للنعم والمكرم فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضلته وكأله وإنما حمله على ذلك لإفساد قصده وإرادته كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلمهم الرسل ووارثوهم رئاستهم الباطلة فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ظناً أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها وسنة الله في هؤلاء أن يسلمهم رياسة الدنيا والآخرة ويصغرهم في عيون الخلق مقابلة لهم بتقيض قصدهم (وما ربك بظلام للعبيد) فهذا موارد احتجاج الفريقين وموقف أقدام الطائفتين فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة فقد ادلى كل منهما بحججه لا تعارض ولا تنازع وجاء بينات لا ترد ولا تدافع فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين وإلا نقل المظلي وحاديها واعط النفوس باريها :

دع الهوى لأناس يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذى الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق والله الفتاح العليم فنقول وبالله التوفيق .

كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ولا عدلت عن سنن الحق وإنما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ومن إطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانها يزول الاختلاف ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها . وبيان هذا أن المقتضى قسماً

كالنصارى والمشركين ، وهذه الأقوال الثلاثة في مذهب الإمام أحمد وغيره وعلى هذا فاما لم يحكم هؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام لأن مجرد الإقرار والإخبار بصحة رسالته لا يوجب الإسلام إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته والا فلو قال أنا أعلم أنه نبي ولكن لا أتبعه ولا أدين بدينه كان من أكفر الكفار كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة أن الإيمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرد ولا معرفة القلب مع ذلك بل لا بد فيه من عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته ومتابعة رسوله وهذا خلاف من زعم أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب وإقراره وفيما تقدم كفاية في إبطال هذه المقالة ومن قال أن الإيمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وأبغضه وقائله لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين وهذا إلزام لا محيد عنه ولهذا اضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك لما ورد عليهم وأجابوا بما يستحى العاقل من قوله كقول بعضهم إن إبليس كان مستهزئاً ولم يكن يقر بوجود الله ولا بأن الله ربه وخالفه ولم يكن يعرف ذلك وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع في أمثالها ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا ونعوذ بالله من الخذلان . قالوا وقد بين القرآن أن الكفر أقسام : أحدها كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الأسلاف وهو كفر أكثر الانبعاث والعوام . الثاني كفر جمود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار أو رياسة سلطانية أو من له مأكلا وأموال في قومه فيخاف هذا على رياسته وهذا على ماله ومأكله فيؤثر الكفر على الإيمان عمدا . الثالث كفر إعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه بل هو معرض عن متابعته ومعاداة وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونها ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ويجعلون الثاني والثالث كفرا لدلالتهم على الأول لأنه في ذاته كفر فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل . ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء في أنهم دعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه وعلم أن عامة كفر الامم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤا به وهذا القرآن ملؤه من الأخبار عن المشركين عباد الأصنام أنهم كانوا يقولون بالله وأنه هو وحده ربهم وخالقهم وأن الأرض وما فيها له وحده وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم وأنه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر وأنزل المطر وأخرج النبات والقرآن مناد عليهم بذلك محتج بما أقروا به من ذلك على صحة ما دعاهم إليه رسوله

وتقواها) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال (قد أفلح من زكّاه وقد خاب من دساها) فهذا أمرود
 ودينه وثمود هدام فاستحبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليعين سوء عاقبة من آثر الفجور
 على التقوى والتدسية على التزكية والله أعلم بما أراد ، قالوا ويكفي في هذا إخباره تعالى عن
 الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل
 (باليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من
 قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) فإى علم أبين من علم من ورد القيامة
 ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ثم لو ورد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ولم ينفعه
 ما قد عاينه ورآه . وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم
 كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) فهل بعد نزول
 الملائكة عياناً وتكليم الموتى لهم وشهادتهم الرسول بالصدق وحشر كل شيء في الدنيا عليهم
 من بيان وإيضاح للحق وهدى ومع هذا فلا يؤمنون ولا يصدقون للحق ولا يصدقون الرسول
 ومن نظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين
 بصدقه صلى الله عليه وسلم لا يشكون أنه صادق في قوله أنه رسول الله ولكن اختاروا الضلال والكفر
 على الإيمان . قال المسور بن مخزومة رضى الله عنه لأبى جهل وكان خاله أى خال هل كنتم
 تهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها قال أبو جهل لعنه الله تعالى يا ابن أخى
 والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الامين ماجربنا عليه كذباً قط فلما وخطه الشيب
 لم يكن ليكذب على الله قال يا خال فلم لا تتبعونه قال يا ابن أخى تنازعنا نحن وبنو هاشم
 الشرف فاطعموا وأطعمنا وسقوا وسقمنا وأجاروا وأجرنا فلما تجأئنا على الركب وكنا
 كفرسى رهان قالوا منا نبى فتى ندرك هذه وهذا أمية بن أبى الصلت كان ينتظره يوماً بيوم
 وعلمه عنده قبل مبعثه . وقصته مع أبى سفيان لما سافرا معا معروفة وإخباره برسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال لا أومن بنبى من غير ثقيف أبداً وهذا هرقل تيقن أنه رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ولم يشك فيه وآثر الضلال والكفر استبقاء للملكة . ولما سأله اليهود عن التسع آيات
 البينات فاخبرهم بها قبلوا يده وقالوا نشهد أنك نبى قال فما يمنعكم أن تتبعونى قالوا إن داود
 عليه السلام دعا أن لا يزال فى ذريته نبى ولما نخشى أن تتبعناك أن تقتلنا يهود فهو لاء قد
 تحققوا نبوته وشهدوا له بها ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ولم يصيروا مسلمين بهذه
 الشهادة فقيل لا يصير الكافر مسلماً بمجرد شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
 يشهد لله بالوحدانية وقيل يصير بذلك مسلماً وقيل إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود
 صار مسلماً بذلك وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصير مسلماً إلا بالشهادة بالوحدانية

من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون (فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم تقول إذا خاطبت من عصاك عمداً كأنك لم تعلم ما فعلت أو كأنك لم تعلم بنهي إياك ومنه على أحد القولين . قوله تعالى (فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) . قال السدي يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم واختاره الزجاج . فقال يعرفون أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرون ذلك وأول الآية يشهد لهذا القول . وقال تعالى (وانزل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخذل إلى الأرض واتبع هواه فثله كمثل الكلب) . قالوا فهل بعد هذه الآية بيان فان هذا آناه الله آياته فانسلخ منها وآثر الضلال والغى . وقصته معروفة حتى قيل إنه كان أوتي الاسم الاعظم ومع هذا فلم ينفعه علمه وكان من الغاوين فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه في حق هذا . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) وهذا يدل على ان قولهم (ياهود ما جئنا ببينة وبيننا ما نرى بآياتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) إما بهت منهم وجحود وإما نفى لآيات الاقتراح والعنت ولا يجب الايمان بها وقد وصف سبحانه ثمود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ولهذا قال . (وآتيناه ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) يعنى بينة مضيئة . وهذا كقوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة) أى مضيئة وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصراً فهى توجب له البصر فتبصره أى تجعله ذا بصر فهى موضحة مبينة يقال بصر به إذا رآه كقوله تعالى (فبصرت به عن جنب) . وقوله (بصرت بما لم يبصروا به) وأما أبصره فله معنيان . أحدهما جعله باصراً بالشيء أى ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود والثاني بمعنى رآه كقولك أبصرت زيداً وفي حديث أبي شريح العدوى أخذك قولاً قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فسمعته أذنأى ووعاه قلبي وأبصرته عينأى حين تسلمكم به . ومنه قوله تعالى (فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون) قيل المعنى أبصرهم وما يقضى عليهم من الاسر والقتل والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة والمراد تقريب المبصر من المخاطب حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظره ، والمقصود ان الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة والشمس وضحاها لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية وذكر فيها الاصلين القدر والشرع ، فقال (فاهلها فجورها

لها قوله تعالى إخبارا عنه وعن قومه (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين وهو أقوى العلم ظلما منهم وعلوا لا جهلا وقال تعالى لرسوله (قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) يعني أنهم قد عرفوا صدقك وأنت غير كاذب فيما تقول ولكن عاندوا ووجدوا بالمعرفة قاله ابن عباس رضى الله عنهما والمفسرون . قال قتادة يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون . قال تعالى (ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) . وقال تعالى (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) يعني تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق فكفركم كفر عناد ووجود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء . وقال تعالى عن السحرة من اليهود (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) أى علموا من أخذ السحر وقبلة لا نصيب له في الآخرة ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه . وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب في القبة كما في سورة البقرة وفي التوحيد كقولهم في الأنعام (أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وفى الكتاب أنه منزل من عند الله لقوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين) . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوة وإنما كفروا بغيا وحسدا . قال الزجاج أعلم الله عز وجل أنه لاجهة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم لأنهم كفروا بعد البينات ومعنى كيف يهديهم أى أنه لا يهديهم لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمدا فن أين تأتيم الهداية فإن الذى ترجى هدايته من كان ضالا ولا يدرى أنه ضال بل يظن أنه على هدى فاذا عرف الهدى اهتدى وأما من عرف الحق وتيقنه وشهد به قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه فكيف يهدى الله مثل هذا . وقال تعالى عن اليهود (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) . ثم قال (بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) . قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن كفرهم شكاً ولا اشتباهاً ولكن بغيا منهم حيث صارت النبوة في ولد اسماعيل . ثم قال بعد ذلك (ولما جاءهم رسول

نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم والحس شاهد بذلك . ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيمًا) . قال سفيان الثوري كل من عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل كان جاهلاً أو عالماً أن كان عالماً فمن أجهل منه وإن كان لا يعلم فمثل ذلك . وقوله (ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيمًا) . قال قبل الموت . وقال ابن عباس رضى الله عنهما ذنب المؤمن جهل منه . قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة . وقال السدي كل من عصى الله فهو جاهل . قالوا ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد فانه لو رأى صديقاً يتطالع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله اليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبه فلا بد من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه فحينئذ يكون وقومه في المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم والذنب مخوف بجهلين جهل بحقيقة الأسباب الصارقة عنه وجعل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة فاعصى الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة . وقالت الطائفة الأخرى العلم لا يستلزم الهداية وكثيراً ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه بل يؤثر الضلال والكفر وهو عالم بقبضه ومفسدته . قالوا وهذا شيخ الضلال وداعى الكفر وإمام الفجرة إبليس عدو الله قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه بخالفه وعاند الأمر وباء بلعنة الله وعذابه الدائم مع علمه بذلك ومعرفة به وأقسم له بعزته أنه يغوى خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين فكان غير شاك في الله وفي وحدانيته وفي البعث الآخر وفي الجنة والنار ومع ذلك اختار الخلود في النار واحتمل لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس . ولهذا (قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون) وهذا اعتراف منه بالبعث وقرار به وقد علم قسم ربه ليلان جهنم منه ومن اتباعه فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل . وقال تعالى إخباراً عن قوم ثمود (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعنى بينا لهم وعرفناهم فعرّفوا الحق وتيقنوه وآثروا العمى عليه فكان كفر هؤلاء عن جهل . وقال تعالى حاكيماً عن موسى إنه قال لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مشبوراً) أى هالكا على قراءة من فتح التاء وهى قراءة الجمهور وضمها الكسائى وحده وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأغنى معنى وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقيق كفر فرعون وعنده ويشهد

يعقل أمثاله إلا العالمون والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين فهم لا يعقلونها . وقال تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله) . وقال تعالى (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) . وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ولو كان الضلال يجمع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالا من الذين يعلمون والنص بخلافه والقرآن يملأ بسلب العلم والمعرفة عن الكفار فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون وتارة بأنهم لا يعقلون وتارة بأنهم لا يشعرون وتارة بأنهم لا يفقهون وتارة بأنهم لا يسمعون . والمراد بالسمع المنفى سمع الفهم وهو سمع القلب لا إدراك الصوت وتارة بأنهم لا يبصرون فدل ذلك كله على أن الكافر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجمعه ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون . كقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنأعمالنا ولحكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) . وقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبالغ اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون . وفي الصحيحين عنه من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخير في العبد ولا يقال الحديث دل على أن من أراد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا يدل على أن كل من فقهه في الدين فقد أراد به خيراً أو بينهما فرق . ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثاني والحديث لا يقتضيه . لأننا نقول النبي صلى الله عليه وسلم جعل الفقه في الدين دليلاً وعلامة على إرادة الله بصاحبه خيراً والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف عنه فإن المدلول لازمه ووجود الملزوم بدون لازمه محال . وفي الترمذي وغيره عنه صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان في منافق حسن سمع وفقه في الدين فجعل الفقه في الدين منافياً للنفاق بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه الاعلى العلم الذي يصحبه العمل كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفضله أهل المدينة قال أتقاهم وسأل فرقد السنجي الحسن البصري عن شيء . فأجابه فقال إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن ثكلتك أمك فريد وهل رأيت بعينيك فقيهاً إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الذي لا يهمن من فوقه ولا يستخر بمن دونه ولا يبتغي على علم عليه الله تعالى أجراً . وقال بعض السلف إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم مكر الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ماسواه . وقال ابن مسعود رضي الله عنه كني بخشية الله علماً وبالاغترار بالله جهلاً . قالوا فهذا القرآن والسنة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم . قالوا ويدل عليه أن الإنسان مادام عقله معه لا يؤثر هلاك

الجهل وإلا فاعلم التام بأن هذا الطعام مثلاً مسموم من أكله قطع أمعاده في وقت معين لا يقدم على أكله وإن قدر أنه قدم عليه لعلبة جوع أو استعجال وفاة فهو لعله بموافقة أكله لمقصوده الذي هو أحب إليه من العذاب بالجوع أو بغيره . وهنا اختلف في مسئلة عظيمة وهي أن العلم هل يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه الهدى إلا اعدم العلم أو نقصه والافصح المعرفة الجازمة لا يتصور الضلال وأنه لا يستلزم الهدى فقد يكون الرجل عالماً وهو ضال على عمد هذا بما اختلف فيه المتكلمون وأرباب السلوك وغيرهم فمالت فرقة من عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحالة أن لا يهتدى وحيث ضل فلنقصان علمه واحتجوا من النصوص بقوله تعالى (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) فشهد تعالى لسكل راسخ في العلم بالإيمان . وبقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . وبقوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق) . وبقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم) . وبقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) قسم الناس قسمين . أحدهما العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق . والثاني العمى فدل على أنه لا واسطة بينهما . وبقوله تعالى في وصف الكفار (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وبقوله (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) . وبقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) . وهذه مدارك العلم الثلاث قد فسدت عليهم . وكذلك قوله تعالى (أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم) وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) . وقوله (وأضله الله على علم) قال سعيد بن جبير على علمه تعالى فيه . قال الزجاج أى على ما سبق في علمه تعالى أنه ضال قبل أن يخلقه (وختم على سمعه) أى طبع عليه فلم يسمع الهدى (وعلى قلبه) فلم يعقل الهدى (وعلى بصره غشاوة) فلا يبصر أسباب الهدى وهذا في القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم . ومنه قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) فلو كانوا علموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم ماذا قال ولما كان مطبوعاً على قلوبهم . وقال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) . وقال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه . وقال تعالى عن أهل النار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) فدل على أن أهل الضلال لا يسمع لهم ولا عقل وقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) أخبر تعالى أنه لا

ووضع البيت الحرام ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذى هو من توابع محبته والرضا به وعنه ولاجل هذا أمر بالجهاد وضرب أعناق من أباه وآثر غيره عليه وجعل له فى الآخرة دارا لهوان خالداً مخلداً وعلى هذا الأمر العظيم أسست الملة ونصبت القبلة وهو قطب رضى الخلق والامر الذى مدارهما عليه ولاسيما إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم فان محبة الشئ فرع عن الشعور به وأعرف الخلق بالله أشدهم حبا له فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم فالعلم يفتح هذا الباب العظيم الذى هو سر الخلق والامر بكلياته إيمانه إن شاء الله تعالى. الوجه التاسع والسبعون أن اللذة بالمحبوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه فكما كان الحب أقوى كانت اللذة أعظم ولهذا تعظم لذة الظمان بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء وكذلك الجائع وكذلك من أحب شيئاً كانت لذته على قدر حبه إياه والحب تابع للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن فلذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله فإذا العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات وسيأتى تقرير هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى. الوجه الثمانون أن كل ماسوى الله يفتقر إلى العلم لا قوام له بدونه فان الوجود وجودان وجود الخلق ووجود الامر والخلق والامر مصدرهما علم الرب وحكمته فكل ما ضمه الوجود من خلقه وأمره صادر عن علمه وحكمته فما قامت السموات والأرض وما بينهما إلا بالعلم ولا بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا بالعلم ولا عبد الله وحده وحمد وأثنى عليه ومجد إلا بالعلم ولا عرف الخلال من الحرام إلا بالعالم ولا عرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم. واختلف هنا فى مسألة وهى أن العلم صفة فعلية أو انفعالية فقالت طائفة هو صفة فعلية لأنه شرط أو جزء وسبب فى وجود المفعول فان الفعل الاختيارى يستدعى حياة الفاعل وعلمه وقدرته وإرادته ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات. وقالت طائفة هو انفعالى فإنه تابع للمعلوم متعلق به على ما هو عليه فان العالم يدرك المعلوم على ما هو به فادراكه تابع لفه فكيف يكون متقدما عليه. والصواب أن العلم قسمان علم فعلى وهو علم الفاعل المختار بما يريد أن يفعله فانه موقوف على إرادته الموقوفة على تصوره المراد وعلمه به فهذا علم قبل الفعل متقدم عليه مؤثر فيه وعلم انفعالى وهو العلم التابع للمعلوم الذى لا تأثير له فيه كعلمنا بوجود الأنبياء والأمم والملوك وسائر الموجودات فان هذا العلم لا يؤثر فى المعلوم ولا هو شرط فيه فكل من الطائفتين نظرت جزئيا وحكمت كليا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس وكلا القسمين من العلم صفة كمال وعدمه من أعظم النقص يوضحه. الوجه الحادى والثمانون أن فضيلة الشئ تعرف بضده فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تنبئ الأشياء ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد وكل ضرر يلحق العبد فى دنياه وآخره فهو نتيجة

متفاوتة في ذلك أعظم التفاوت وأبينه فليس علم النفوس بفطرها وباريها ومبدعها ومحتبها والتقرب اليه كعملها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحتها وفسادها وحركانها وهذا يتبين . بالوجه السابع والسبعين وهو أن شرف العلم تابع لشرف معلومه لو ثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها ولا ريب أن أجل معلوم وأعظم وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين وقيوم السموات والأرضين الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله . ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين ومقتدر إليه في تحقق ذاته وأنيته وكل علم فهو تابع للعلم به مقتدر في تحقق ذاته إليه فالعلم به أصل كل علم كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده . ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام وكونه سبباً يستلزم العلم بمسببه كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه والمفعول إلى فاعله فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه والعلم به أصل كل علم ومنشؤه فمن عرف الله عرف ما سواه ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل قال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقة ولا مصالحه بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها هداها الذي أعطاها إياه خالقها وأما هذا نخرج عن فطرته التي خلق عليها فنسى ربه فأنساه نفسه وصفاتها وماتكمل به وتزكوه وتسعد به في معاشها ومعادها قال الله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) يغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه فلا التفات له إلى مصالحه وكمال ما تزكوه بنفسه وقلبه بل هو مشتت القلب مضيعه مفرط الأمر حيران لا يهتدى سبيلاً ، والمقصود أن العلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكمال ومصالح دنياه وآخرته والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكوه وتفلح به فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته يزيد له إيضاحاً . الوجه الثامن والسبعون أنه لا شيء أطيب للعبد ولا أذل ولا أهناً ولا أنعم لقلبه وعيشه من حبة فاطره وباريه ودوام ذكره والسعي في مرضاته وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه وله خلق الخلق ولاجله نزل الوحي وأرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ووجدت الجنة والنار ولاجله شرعت الشرائع

(إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) مع قوله (وإنك لنهدي إلى صراط مستقيم) فأثبت هداية الدعوة والبيان ونفى هداية النوفيق والالهام . وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له . وقال تعالى (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) أي من يضل الله لا يهتدي أبداً وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتمام . وأما الثانية فشرط لا موجب فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل . المرتبة الرابعة الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار . قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) . وأما قول أهل الجنة (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم ولو قيل إن كلا الأمرين مراد لهم وإهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلاً مطابقاً لحاله : فقال تعالى (قل أئندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى اننأنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) . الوجه السادس والسبعون أن فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه وتارة من ظهور النقص والشر بفقده وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده لكونه محبوباً ملائماً فادراكه يعقب غاية اللذة وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وافضاله إلى أجل المطالب وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه فإذا كان في نفسه كلاً وشرفاً بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلقاته . ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم فانه أعم شيء نفعاً وأكثره وأدومه والحاجة إليه فوق الحاجة إلى الغذاء بل فوق الحاجة إلى التنفس إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم . وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح فلا غنى للعبد عنه طرفه عين . ولهذا إذا فقد من الشخص كان شراً من الخير بل كان شراً من الدواب عند الله ولا شيء أنقص منه حيثئذ وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده فلا نه كمال في نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفس فان الجهل مرض ونقص وهو في غاية الإيذاء والإيلام والنفس ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه * وما لجرح ميت لإيلام * فصوله للنفس ادراك منها لغاية محبوبها واتصال به وذلك غاية لذتها وفرحتها وهذا بحسب المعلوم في نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه والعلوم والمعلومات

خاصة ثم ان لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له فإن الحكم لا يكفى فيه وجود مقتضيه بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه . ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغنى في قلبه كل منها مانع وصول أثر الهداية اليه فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاما فاجاته إلى هداية الله له مقرونة بأنفسه وهي أعظم حاجة للعبد . وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها فذكر كونه فاطر السموات والأرض والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة وان من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه وهو بمنزلة التوسل إلى الغنى بغناه وسعة كرمه أن يعطى عبده شيئا من ماله والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبغفوه أن يعفو عنه وبرحمته أن يرحمه ونظائر ذلك وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل وهذا أعلم لأن المطلوب هدى يحيا به القلب وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد أما جبريل فهو صاحب الوحي الذى يوحى الله إلى الأنبياء وهو سبب حياة الدنيا والآخرة . وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذى به سبب حياة كل شيء . وأما إسرافيل فهو الذى ينفخ فى الصور فيحى الله الموتى بنفخته فاذا هم قيام لرب العالمين . والهداية لها أربع مراتب وهى المذكورة فى القرآن . المرتبة الأولى الهداية العامة وهى هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التى بها قام أمره قال الله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) فذكر أموراً أربعة : الخلق والتسوية والتقدير والهداية فسوى خلقه وأنقذه وأحكمه ثم قدر له أسباب مصالحه فى معاشه وتغلباته وتصرفاته وهداه إليها والهداية تعليم فذكر أنه الذى خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك فى أول سورة أنزلها على رسوله وقد تقدم ذلك . وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى (فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شى خلقه ثم هدى) وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها . المرتبة الثانية هداية البيان والدلالة التى أقام بها حجته على عباده وهذه لا تستلزم الاهتمام التام . قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعنى بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فأثروا الضلالة والعمى . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) . وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية . وهى هدى التوفيق والإلهام . قال الله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فهدى بالدعوة خلقه وخصى بالهداية من شاء منهم . قال تعالى

وان قدر سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول من فارق الدليل ضد السبيل ولا دليل إلا بما جاء به الرسول . قال الحسن العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصاح فاطلبوا العلم طلباً لا تنضروا بالعبادة واطلبوا العبادة طلباً لا تنضروا بالعلم فان قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيا فيهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدهم على ما فعلوا والفرق بين هذا وبين ما قبله ان العلم مرتبته في الوجه الاول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع أمره ومرتبته في هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية . الوجه الخامس والسبعون أن النبي ﷺ ثبت في الصحيحين عنه أنه كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم . وفي بعض السنن أنه كان يكبر تكبيرة الاحرام في صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء . والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره فالمقتدى هو العامل بالحق المريد له وهي أعظم نعمة لله على العبد ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضى الله في كل حركة عاهرة وباطنة فاذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله ومعلوم ان ما يجعله العبد أضعاف أضعاف ما يعمله وان كل ما يعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته ولو أرادته لعجز عن كثير منه فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستدعيه أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ويعزم على أن لا يعود . وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ . وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليسكون سيره على الطريق . وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطراباً اليها وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد وهي انا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا وهل هذا الا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسماها فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى ثبتنا على الهداية وأدما لنا ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد اليها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له وانه كل وقت محتاج إلى هداية يمتجددة لا سيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية

الأعمال الشاقة بأنفسهم والاستاذ المعلم يجلس يامرهم وينهاهم ويربهم كيفية العمل ويأخذ أضعاف ما يأخذونه . وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال أفضل الأعمال إيمان بالله ثم الجهاد فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها وراجحها من مرجوحها فصاحبها لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولاً ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة . ومعلوم أن فهم من هو أكثر عملاً وحجاً وصوماً وصلوة وقراءة منه . قال أبو بكر بن عياش ماسبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه وهذا موضوع المثل المشهور .

من لي بمثل سيرك المدلل * تمشى رويداً وتجي في الأول

الوجه الثالث والسبعون أن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه . كما قال بعض السلف من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود فالعلم هو الميزان وهو المحك . قال تعالى (هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) قال الفضيل بن عياض هو أخلص العمل وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص أن يكون لله . والصواب أن يكون على السنة . وقد قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله ولا يتمكن العامل من الاتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده فلولاً العلم لما كان عمله مقبولاً فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة . وقد قال الله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) وأحسن ما قيل في تفسير الآية أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره . وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم . الوجه الرابع والسبعون أن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل . ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته

جامعة في مسئلة العلم والشهيد وأيهما أفضل . الوجه السابع والستون أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله فهو رأس الأمر والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها والإيمان لركنئان . أحدهما معرفة ما جاء به الرسول والعلم به والثاني تصديقه بالقول والعمل والتصديق بدون العلم والمعرفة محال فانه فرع العلم بالشئ المصدق به فاذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ولا تقوم شجرة الايمان الا على ساق العلم والمعرفة فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب . الوجه الثامن والستون أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة والإرادة فرع العلم فانها تستلزم الشعور بالمراد فهى مفتقرة إلى العلم في ذاتها وحقيقتها والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة والعلم لا يفتقر في تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما وأما القدرة والإرادة فكل منهما يفتقر في تعلقه بالمراد والمقدور إلى العلم وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته . الوجه التاسع والستون أن العلم أعم الصفات تعلقاً بتعلقه وأوسعها فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم فذات الرب سبحانه وصفاته وأسمائه معلومة له ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العلم الخبير وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص بالتعلق أما القدرة فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب فهى أخص من العلم من هذا الوجه وأعم من الإرادة فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومتعلقه . الوجه السبعون أن الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتهم بهم من بعدهم . فقال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وقال في موضع آخر (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما) أى أئمة يقتدى بنا من بعدنا . فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين وهى أرفع مراتب الصديقين واليقين هو كمال العلم وغايته فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين وهى ولاية آلها العلم يختص الله بهامن يشاء من عباده . الوجه الحادى والسبعون أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء فى اليوم مرة أو مرتين وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحباً لإيمان أو حكمة فإن فارقه الايمان أو حكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة اليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه كل وقت . الوجه الثانى والسبعون أن صاحب العلم أقل تعباً وعملاً وأكثر أجراً واعتبر هذا بالشاهد فإن الصنائع والأجراء يعانون

والأقلام فذلك لا يتأيد بعلم لا يقوم وسيف بلا علم مخراق لاعب وقلم بلا علم حركة عابث والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ولا يحكم شيء من ذلك على العلم وقد اختلف في تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته فإن الحاكم في هذه المسئلة هو العلم فبه واليه وعنده يقع التحاكم والتخاضع والمفضل منهما من حكم له بالفضل . فإن قيل فكيف يقبل حكمه لنفسه . قيل وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه فإن الحاكم إنما لم يسخ أن يحكم لنفسه لأجل مظنة التهمة والعلم لا تلحقه تهمة في حكمه لنفسه فإنه إذا حكم حكم بها تشهد العقول والنظر بصحته وتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه اتهمته فانه إذا حكم بها انعزل عن مرتبته وانحط عن درجته فهو الشاهد المزكى العادل والحاكم الذى لا يجوز ولا يعزل . فان قيل فماذا حكمه في هذه المسئلة التى ذكرتموها . قيل هذه المسئلة كثر فيها الجدال واتسع المجال وأدلى كل منهما بحجته واستعلى بمرتبته والذى يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع الكلام فى أنواع مراتب الكمالات وذكر الأفاضل منهما والنظر فى أى هذين الأمرين أولى به وأقرب اليه . فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب ويقع بها فصل الخطاب . فأما مراتب الكمالات فاربعة النبوة والصدقية والشهادة والولاية وقد ذكرها الله سبحانه فى قوله (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما) وذكر تعالى هؤلاء الأربع فى سورة الحديد فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله ثم ندب المؤمنين إلى أن تخضع قلوبهم لكتابه ووحيه ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم . فقال (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . وذكر المنافقين قبل ذلك فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم . والمقصود أنه ذكر فيها المراتب الأربعة الرسالة والصدقية والشهادة والولاية فأعلا هذه المراتب النبوة والرسالة ويلها الصدقية فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة فان جرى قلم العالم بالصدقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذى لم يلحقه فى رتبة الصدقية وان سال دم الشهيد بالصدقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذى قصر عنها فافضلها صديقها فان استويا فى الصدقية استويا فى المراتبة والله أعلم . والصدقية هى كمال الإيمان بما جاء به الرسول علماً وتصديقاً وقياماً به فهى راجعة إلى نفس العلم فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقاً له كان أتم صدقية فالصدقية شجرة أصولها العلم وفروعها التصديق وثمرتها العمل فهذه كلمات

لأنهمهم والسمع ههنا سمع فهم وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم . قال تعالى (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) . وقال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وسواء كان المعنى ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وإن كان التقدير الثانى أقرب إلى اللفظ وأبلغ فى المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل الأنعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التى يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان والسمع يراد به ادراك الصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به القبول والإجابة والثلاثة فى القرآن فن الأول قوله (قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وهذا أصرح ما يكون فى إثبات صفة السمع ٤ ذكر الماضى والمضارع واسم الفاعل سميع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضى عنها الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا فى جانب البيت وأنه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله (قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها) . والثانى سمع الفهم كقوله (ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم) أى لآفهمهم (ولو آسمعهم لتولوا وهم معرضون) لمبا فى قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق ففهم آفتان إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم وهذا غاية النقص والعيب والثالث سمع القبول والإجابة كقوله تعالى (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولا وضعوا فلكهم يبيعونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) أى قابلون مستجيبون . ومنه قوله (سماعون للكذب) أى قابلون له مستجيبون لأهله . ومنه قول المصلى سمع الله لمن حمده أى أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه . وقول النبي ﷺ إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم أى يجيبكم . والمقصود أن الإنسان اذا لم يكن له علم بما يصلحه فى معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته فى المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل . الوجه السادس والستون إن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شيء فكل شيء يختلف فى وجوده وعدمه وصحته وفساده ومنفعته ومضرته ورجحانه ونقصانه وكاله ونقصه ومدحه وذمه ومرتبته فى الخير وجودته وردائه وقربه وبعده وإفضائه إلى مطلوب كذا وعدمه إفضائه وحصول المقصود به وعدم حصوله إلى سائر جهات المعلومات فان العلم حاكم على ذلك كله فإذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الإلتباع وهو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال

يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتني بها ولهذا لهم المقت والذم عند الأمة وعلى لسان كل عالم من علماء الإسلام والله تعالى أشد بغضاً ومقتاً لهم جزاء وفاقا . الوجه الرابع والستون . أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة فالتة يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عبادته في تبليغ رسالاته وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطه ونوابه وعقابه وخصمهم بوحيه واختصهم بتفضيله وارتضاهم لرسالته إلى عبادته وجعلهم أركي العالمين نفوساً وأشرفهم أخلاقاً وأكملهم علوماً وأعمالاً وأحسنهم خلقة وأعظمهم حجة وقبولاً في قلوب الناس وبرأهم من كل وصم وعيب وكل خلق دنيء وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيايتهم في أمهم فانهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة وارشادهم الضال وتعليمهم الجاهل ونصرهم المظلوم وأخذهم على يد الظالم وأمرهم بالمعروف وفعله ونهيمهم عن المنكر وتركه والدعوة إلى الله بالحكمة المستجيبة والموعظة الحسنة للعرضين الغافلين والجدال بالتي هي أحسن للبعاندين المعارضين . فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين . قال تعالى (قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا ادعوا إلى الله . أو المعنى أدعوا إلى الله على بصيرة والقولان متلازمان فانه لا يكون من أتباعه حقاً إلا من دعا إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل ^{صلى الله عليه وسلم} فهو له خليفة الرسول حقاً وورثتهم دون الناس وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهداية وارشاداً وصبراً وجهاداً وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه . قال الله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً) فذكر مراتب السعداء وهي أربعة وبدأ بأعلام مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه . الوجه الخامس والستون ان الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول أعماراً وإنما يميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه فاذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً منهم كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فهو له هم الجهال (ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم) أي ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلاً للخير (لآسمعهم) أي

يخطو وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن قطر عن أبي الطويل عن علي وهذه الأسانيد وإن لم تكن بمفردها حجة فطلب العلم من أفضل الحسنات والحسنات يذهبن السيئات فجدير أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفر ماضى من السيئات فتدلت النصوص أن اتباع السيئة الحسنة تمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات فالعمدة على ذلك لأعلى حديث أبي داود والله أعلم . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء . الوجه الثانى والستون مارواه ابن ماجه فى سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال خرج رسول الله ﷺ فإذا فى المسجد مجلسان مجلس يتفقون ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال كلا المجلسين إلى خير أما هؤلاء فيدعون الله وأما هؤلاء فيتعلون ويفقهون الجاهل هؤلاء أفضل بالتعليم أرسلت ثم قعد معهم . الوجه الثالث والستون أن الله تبارك وتعالى يباهى ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ويحمدونه على ما من عليهم به منه قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار حدثنا أبو نعام عن أبي عثمان عن أبي سعيد قال خرج معاوية إلى المسجد فقال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال الله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا الله ما أجلسنا إلا ذلك قال أما انى لم استحلقتكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديثاً عنه منى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة من أصحابه قال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ومن علينا بك . قال الله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا الله ما أجلسنا إلا ذلك قال أما انى لم استحلقتكم تهمة لكم أنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأبو نعام السعدى اسمه عمرو بن عيسى وأبو عثمان النهدي اسمه عبد الرحمن بن مل فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه ويثنون عليه بذلك ويذكرون حسن الإسلام ويعترفون لله بالفضل العظيم إذ هداهم له ومن عليهم برسوله . وهذا أشرف علم على الإطلاق ولا يعنى به إلا الراشخون فى العلم فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهى الله بهم الملائكة وقد بشر النبي ﷺ الرجل الذى كان يحب سورة الإخلاص وقال أحبها لأنها صفة الرحمن عز وجل فقال حبك اياها أدخلك الجنة . وفى لفظ آخر أخبروه أن الله يحبه فدل على أن من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة . والجهمية أشد الناس نفرة وتنفيراً عن صفاته ونعوت كماله يعاقبون ويذمون من

بعدة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار
الناس شيئاً رواه الترمذى عنه وقال حديث حسن . قال ومحمد بن عيينة مصيصى شامى وكثير
ابن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزنى وفى حديثه ثلاثة أقوال لأهل الحديث منهم من
يصححه ومنهم من يحسنه وهما للترمذى . ومنهم من يضعفه ولا يراه حجة كالامام أحمد
وغيره ولكن هذا الأصل ثابت من وجوه كحديث من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل
أجر من أتبعه وهو صحيح من وجوه . وحديث من دل على خير فله مثل أجر فاعله وهو
حديث حسن رواه الترمذى وغيره فهذا الأصل محفوظ عن النبي ﷺ فالحديث الضعيف فيه
بمنزلة الشواهد والمتابعات فلا يضر ذكره . الوجه الستون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى
بطلبة العلم خيراً وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه . قال الترمذى حدثنا سفيان بن وكيع
حدثنا أبو داود الحفري عن سفيان عن أبي هرون قال كنا نأتى أبا سعيد فيقول مرحباً
بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النبي ﷺ قال إن الناس لكم تبع وإن رجلاً
يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهم في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً حدثنا قتيبة حدثنا
روح بن قيس عن أبي هرون العبدى عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
يأتىكم رجال من قبل المشرق يتعلمون فإذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيراً فكان أبو سعيد إذا
رآنا قال مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الترمذى هذا حديث لا نعرفه
إلا من حديث أبي هرون العبدى عن أبي سعيد قال أبو بكر العطار قال على ابن
المدنى قال يحيى بن سعيد كان شعبة يضعف أبا هرون العبدى قال يحيى وما زال ابن عوف
يروى عن أبي هرون حتى مات وأبو هرون اسمه عمارة بن جوين . الوجه الحادى
والستون ما رواه الترمذى من حديث أبي داود عن عبد الله بن مسنجر عن مسنجر
النبي صلى الله عليه وسلم قال من طلب العلم كان كفارة لما مضى هذا الأصل لم أجد فيه
إلا هذا الحديث وليس بشئ . فإن أبا داود هو نفيص الاعمى غير ثقة ولكن قد تقدم أن العالم
يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة
فى هذا المعنى . منها ما رواه الثورى عن عبد الكريم عن مجاهد عن ابن عباس أن ملكاً موكلاً
بطالب العلم حتى يردّه من حيث أبداه مغفوراً له . ومنها ما رواه قطر بن خليفة عن أبى الطفيل
عن على ما اتعمل عبد قط ولا تخفف ولا لبس ثوباً ليغدو فى طلب العلم إلا غفرت ذنوبه
حيث يخطو عند باب بيته وقد رواه ابن عدى مرفوعاً . وقال ليس يرويه عن قطر غير اسمعيل
ابن يحيى التميمى . قلت وقد رواه اسمعيل بن يحيى هذا عن الثورى حدثنا محمد بن أيوب الجوزجاني
عن مجالد عن الشعبي عن الأسود عن عائشة مرفوعاً من اتعمل ليتعلم خيراً غفر له قبل أن

حديث غريب لانعرفه الا من هذا الوجه وأبراهيم ابن الفضل المديني الخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه وهذا أيضاً شاهد لما تقدم وله شواهد والحكمة هي العلم فاذا فقد المؤمن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة من نفائسه فاذا وجدها قر قلبه وفرحت نفسه بوجودها كذلك المؤمن إذا وجد ضالة قلبه وروحه التي هو دائماً في طلبها ونشدانها والتفتيش عليها وهذا من أحسن الأمثلة فان قلب المؤمن يطالب العلم حيث وجده أعظم من طلب صاحب الضالة لها . الوجه الثامن والخمسون . قال الترمذي حدثنا أبو كريب حدثنا خلف بن أيوب عن عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان في منافق حسن سميت وفقه في الدين . قال الترمذي هذا حديث غريب ولا يعرف هذا الحديث من حديث عوف الا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري ولم أر أحداً يروى عنه غير أبي كريب محمد بن العلاء ولا أدري كيف هو وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حسن السميت والفقه في الدين فهو مؤمن وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقاً وان كان استناده فيه جهالة فان حسن السميت والفقه في الدين من أخص علامات الايمان ولن يجمعهما الله في منافق فان التناقض بينهما ويتنافيان . الوجه التاسع والخمسون قال الترمذي حدثنا مسلم ابن حاتم الأنصاري حدثنا أبو حاتم البصري حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب . قال قال أنس بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ يا بني ان قدرت ان تصبح وتمسى وليس في قلبك غش لأحد فافعل ثم قال يا بني وذلك من سنن ومن أحميا سنن فقد أحبنى ومن أحبنى كان معي في الجنة وفي الحديث قصة طويلة . قال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ومحمد بن عبد الله الأنصاري صدوق وأبوه ثقة وعلي بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشيء الذي يوقفه غيره سمعت محمد بن بشارة يقول قال أبو الوليد قال شعبة حدثنا علي بن زيد وكان رفاعاً . قال الترمذي ولا يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله وقد روى عباد المنقري هذا الحديث عن علي بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب وذاكرت به محمد بن اسمعيل فلم يعرفه ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره . ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد بن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بستين . قلت ولهذا الحديث شواهد . منها ما رواه الدارمي عبد الله حدثنا محمد بن عيينة عن مروان بن معاوية الفزاري عن كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث اعلم قال ما أعلم يا رسول الله قال اعلم يا لبلال قال ما أعلم يا رسول الله قال انه من أحميا سنة من سنن قد أميت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن ابتدع

العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به ليسكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره وهذا يدل على شرف العلم وفضله وإن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية . الوجه الخامس والخمسون ما ثبت في صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها وهو أشرف قسعى علمه وتعليمه فإن المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها وبين الغايات والوسائل . الوجه السادس والخمسون ما رواه الترمذى وغيره في نسخة عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن يشجع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق أحمد في المسند أكثرها أو كثيرا منها ولهذا الحديث شواهد فجعل النبي صلى الله عليه وسلم النهمة في العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم إلى متى تطلب العلم فيقول إلى الممات . قال نعيم ابن حماد سمعت عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث فقالوا له إلى متى تسمع قال إلى الممات . وقال الحسين بن منصور الجصاص قلت لأحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى متى يكتب الرجل الحديث قال إلى الموت . وقال عبد الله بن محمد البغوى سمعت أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال محمد بن اسماعيل الصائغ كنت أصوغ مع أبي ببيغداد فر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يديه فأخذ ابى بمجامع ثوبه فقال يا أبا عبد الله ألا تستحى إلى متى تعدو مع هؤلاء قال إلى الموت . وقال عبد الله بن بشر الطالقاني أرجو أن يأتينى أمر اى والمجرة بين يدي ولم يفارقنى العلم والمجرة ، وقال حميد بن محمد بن يزيد البصرى جاء ابن بسطام الحافظ يسألنى عن الحديث فقلت له ما أشد حرصك على الحديث فقال أو ما أحب أن أكون في قطار آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لبعض العلماء متى يحسن بالمرء أن يتعلم قال ما حسنت به الحياة وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن أن يطلب العلم قال ان كان يحسن به أن يعيش . الوجه السابع والخمسون ما رواه الترمذى أيضاً من حديث ابراهيم بن الفضل عن المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها . قال الترمذى هذا

عليهم والعيب والذم لهم كنفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم فان قلوبهم ممتلئة غلا وغشاً ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص وأغشهم للأئمة والأمة وأشدهم بعداً عن جماعة المسلمين فهو لا أشد الناس غلا وغشاً بشهادة الرسول والأئمة عليهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك فانهم لا يكونون قط إلا أعواناً وظهراً على أهل الإسلام فأى عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطائه وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم ومن لم يشاهد فقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجى القلوب . وقوله فان دعوتهم تحيط من ورائهم هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأخفمه معنى شبه دعوة المسلمين بالسور والسياح المحيطة بهم المانع من دخول عدوهم عليهم فتلك الدعوة التى هى دعوة الإسلام وهم داخلونها لما كانت سوراً وسياجاً عليهم أخبر أن من أزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التى هى دعوة الإسلام كما أحاطت بهم فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها فمن دخل فى جماعتها أحاطت به وشملته . الوجه الثالث والخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتبليغ العلم عنه فى الصحيحين من حديث عبد الله ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . وقال ليمبلغ الشاهد منكم الغائب روى ذلك أبو بكره ووابصة بن معبد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأسماء بنت يزيد بن السكن وحجير وأبو قريع وسرى بنت نهران ومعاوية بن حيدة القشيري وعم أبي حرة وغيرهم فأمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه لما فى ذلك من حصول الهدى بالتبليغ وله صلى الله عليه وسلم أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب فله من الأجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ماله من أجر عمله المختص به فكل من هدى واهتدى بتبليغه فله أجره لأنه هو الداعي إليه ولو لم يكن فى تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه صلى الله عليه وسلم لكفى به فضلاً . وعلامة المحب الصادق أن يسعى فى حصول محبوب محبوبه وي بذل جهده وطاقته فيها . ومعلوم أنه لاشئ أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة فالمبلغ عنه ساع فى حصول محابه فهو أقرب الناس منه وأحبهم إليه وهو نائبه وخليفته فى أمتة وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم وأهله : الوجه الرابع والخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم بالفصائل العلمية فى أعلا الولايات الدينية وأشرفها وقدم بالعلم بالأفضل على غيره . فروى مسلم فى صحيحه من حديث أبي مسعود البدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فان كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا فى السنة سواء فأقدمهم لإسلاماً أو سنناً وذكر الحديث فقدم فى الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة ، ولما كان

وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب ولهذا كان الوعي والعقل قدراً زائداً على مجرد إدراك المعلوم . المرتبة الثالثة تعامده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب . المرتبة الرابعة تبليغه وبشه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو وبشه في الأمة فهو بمنزلة السكين المدفون في الأرض الذي لا ينفق منه وهو معرض لنهاهه فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب فإذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه ولهذا يجمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة . كما في قوله تعالى (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً فالنضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة في الوجه . كما قال تعالى (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) ، والمقصود أن هذه النضرة في وجهه من سمع سعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعاها وحفظها وبلغها فهي أثر تلك الخلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه . وقوله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه تنبيه على فائدة التبليغ وإن المبلغ قد يكون أفهم من المبلغ فيحصل له في تلك المقالة ما لم يحصل للبليغ أو يكون المعنى أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوها واستنبط فقهها وعلم المراد منها . وقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم إلى آخره أى لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة فإنها تنفي الغل والغش وهو فساد القلب وسخايمه فالخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه وينيله جملة لأنه قد انصرف دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه فلم يبق فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى : (كذلك انصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء فانصرف عنه السوء والفحشاء . ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استشفاهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك فقال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فالإخلاص هو سبيل الخلاص والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان ، وقوله ومناصحة أئمة المسلمين هذا أيضاً منافع للغل والغش فإن النصيحة لا تجامع الغل إذ هي ضده فمن نصح الأئمة والأمة فقد برىء من الغل . وقوله ولزوم جماعتهم هذا أيضاً مما يظهر القلب من الغل والغش فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يجب لهم ما يجب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها ويسوؤه ما يسوؤهم ويسره ما يسرهم وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن

قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون في سبيل الله هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل . قال كعب الأحبار طالب العلم كالغادي الراجح في سبيل الله عز وجل . وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد وقال سفيان بن عيينة من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل . وقال أبو الدرداء من رأى الغدو والروح إلى العالم ليس بجهاد فقد نقص في عقله ورأيه ، الوجه الحادي والخمسون ما رواه الترمذي حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، قال الترمذي هذا حديث حسن قال بعضهم ولم يقل في هذا الحديث صحيح لأنه يقال داس الأعمش في هذا الحديث لأنه رواه بعضهم فقال حدثت عن أبي صالح والحديث رواه مسلم في صحيحه من أوجه عن الأعمش عن أبي صالح قال الحاكم في المستدرک هو صحيح على شرط البخاري ومسلم رواه عن الأعمش جماعة منهم زائدة وأبو معاوية وابن نمير وقد تقدم حديث أبي الدرداء في ذلك والحديث محفوظ وله أصل وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقاً يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقاً يحصل له ذلك . وقد روى من حديث عائشة رواه ابن عدى من حديث محمد بن عبد الملك الانصاري عن الزهري عن عروة عنها مرفوعاً ولفظه أوحى الله إلى أنه من سلك مسلكاً يطلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة . الوجه الثاني الخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه ففي الترمذي وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نضر الله أمراً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يفل عليها قلب مسلم لإخلاص العمل لله ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من وراءهم وروى هذا الأصل عن النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وجبير بن مطعم وأنس بن مالك وزيد بن ثابت والنعمان بن بشير قال الترمذي حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح وحديث زيد بن ثابت حديث حسن وأخرج الحاكم في صحيحه حديث جبير بن مطعم والنعمان بن بشير وقال في حديث جبير على شرط البخاري ومسلم ولولم يكن في فضل العلم الا هذا وحده لكتفى به شرفاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه وهذه هي مراتب العلم . أولها وثانيها سماعه وعقله فاذا سمعه وعاه بقلبه أى عقله واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه

لإقامة ذكره ومفضيا إلى محابه وهو العلم الذى به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويمجده ولهذا خلقها وخلق أهلها . كما قال تعالى (وما خاقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وقال (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلن يتنزل الأمر بينهن) . ألملوا أن الله على كل شيء قدير وإن الله قد أحاط بكل شيء علماً) فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد فهذا المطلوب وما كان طريقاً إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة واللعنة واقعة على ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه وهذا هو متعلق العقاب فى الآخرة فإنه كما كان متعلق اللعنة التى تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضى إليه . وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده . الوجه الخمسون مارواه الترمذى من حديث أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد فقوام الدين بالعلم والجهاد ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير والثانى الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من اتباع الرسل وهو جهاد الآئمة وهو أفضل الجهادين اعظم منفعته وشدة مؤننه وكثرة أعدائه . قال تعالى فى سورة الفرقان وهى مكية (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً فلا أطع الكافرين وجاهدكم به جهاداً كبيراً) فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضاً فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم فى الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا . فقد قال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن . والمقصود أن سبيل الله هى الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به الى الله . ولهذا قال معاذ رضى الله عنه عليكم بطلب العلم فإن تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر . كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) فذكر الكتاب والحديد اذ بهما قوام الدين كما قيل :

فما هو إلا الوحى أوحد مرهف تيميل ظباه أخدعاً كل مايل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة رضى الله عنهم

عابد ولهذا الحديث علة وهو أنه روى من كلام أبي هريرة وهو أشبه رواه همام بن يحيى حدثنا يزيد بن عياض حدثنا صفوان بن سليم عن سليمان عن يسار عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في الدين قال وقال أبو هريرة لأن أفقه ساعة أحب إلى من أن أحي ليلة أصلها حتى أصبح والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد وكل شيء مدعاة ودعامة الدين الفقه . وقد روى بإسناد فيه من لا يحتج به من حديث عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبیش عن عمر بن الخطاب يرفعه أن الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع وألف مجتهد وألف متعب . وقال المزني روى عن ابن عباس أنه قال أن الشياطين قالوا لإبليس يا سيدنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد والعالم لا نصيب منه والعابد نصيب منه قال انطلقوا فانطلقوا إلى عابد فأتوه في عبادته فقالوا إنا نريد أن نسألك فانصرف فقال إبليس هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة فقال لا أدري فقال أترونه كفر في ساعة ثم جاؤا إلى عالم في حلقة يصحك أصحابه ويحذهم فقالوا إنا نريد أن نسألك فقال سل فقال هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة قال نعم قالوا كيف قال يقول كن فيكون فقال أترون ذلك لا يعدو نفسه وهذا يفسد على عالماً كثيراً . وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر وإنهم سألوا العابد فقالوا هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه فقال لا أدري فقال أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله وسألوا عن ذلك فقال هذه المسئلة محال لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقاً فكونه مخلوقاً وهو مثل نفسه مستحيل فإذا كان مخلوقاً لم يكن مثله بل كان عبداً من عبيده وخلقاً من خلقه فقال أترون هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين أو كما قال . وروى عن عبد الله بن عمرو فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيمصرها العالم وينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها وهذا معناه صحيح فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ويهدم ما يبنيه فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهري الأمة ولا شيء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة . وأما العابد فغاياته أن يجاهده ليسلم منه في خاصة نفسه وهيئات له ذلك . الوجه التاسع والأربعون ما روى الترمذي من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم . قال الترمذي هذا حديث حسن . ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تساوي لديه جناح بعوضة كانت وما فيها في غاية البعد منه وهذا هو حقيقة اللعنة وهو سبحانه إنما خلقها مزرعة للأخرة ومعبراً إليها يتزود منها عباده إليه فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمناً

عنهم أخرج ما يكون العامل إلى عمله وهذه هي المصيبة التي لا تجبر عياداً بالله واستعانة به وافتقاراً وتوكلاً عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وقوله موت العالم مصيبة لا تجبر وثلة لا تسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم لما كان صلاح الوجود بالعلماء ولولا هم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالا كان موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له . وأيضاً فإن العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك فموتهم فساد لنظام العالم ولهذا لا يزال الله يغرس في هذا الدين منهم خالفاً عن سالف يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده وتأمل إذا كان في الوجود رجل قد فاق العالم في الغنى والكرم وحاجتهم إلى ما عنده شديدة وهو محسن إليهم بكل ممكن ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثير ومثل هذا يموت بموته أمم وخلائق كما قيل :

تعلم ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد حر يموت بموته بشر كثير

وقال آخر

فما كان قيس هلك هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

والوجه الثامن والأربعون ماروى الترمذى من حديث الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جنيح عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد . قال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم قلت قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي اليقطينى حدثنا عمر بن سعيد بن سنان حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جنيح عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الخطيب والاول هو المحفوظ عن روح مجاهد عن ابن عباس وما أرى الوهم وقع في هذا الحديث إلا من أبي جعفر لأن عمر بن سنان عنده عن هشام بن عمار عن الوليد عن روح عن الزهرى عن سعيد حديث في السماء بيت يقال له البيت المعمور حيال الكعبة وحديث ابن عباس كانا في كتاب ابن سنان عن هشام يتلو أحدهما الآخر فكتب أبو جعفر أسناد حديث أبي هريرة رضى الله عنه ثم عارضه لسهو أوزاع نظره فنزل إلى متن حديث ابن عباس فركب متن هذا على اسناد هذا وكل واحد منهما ثقة مأمون برى من تعمد الغلط وقد رواه أبو أحمد بن عدى عن محمد بن سعيد بن مهران حدثنا شيان أبو الربيع السمان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء دعامة ودعامة الإسلام الفقه في الدين والفقيه أشد على الشيطان من ألف

تصحبهم للامم وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس أن الأنبياء من وجنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملوكهم أخصاهم الله سبحانه وتعالى من ذلك أتم الحماية . ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله وقطع هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيراً من النفوس التي تقول فلعله ان لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده فقال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة فلم تورث الأنبياء دينارا ولا درهما ^{صلى الله عليه وسلم} وإنما ورثوا العلم . وأما قوله تعالى وورث سليمان داود فهو ميراث العلم والنبوة لا غير . وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به . وأيضاً فإن كلام الله يصان عن الأخبار بمثل هذا فإنه بمنزلة أن يقال مات فلان وورثه ابنه . ومن المعلوم ان كل أحد يرثه ابنه وليس في الأخبار بمثل هذا فائدة . وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الورثة وراثته العلم والنبوة لا وراثته المال . قال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود) وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة (ان هذا هو الفضل المبين) . وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام (وإنى خفت المولى من ورأى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً) فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثه ماله فيسأل الله العظيم ولداً يمنهم ميراثه ويكون أحق به منهم وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزهون عنه والحمد لله على توفيقه وهدايته . ويذكر عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه مر بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبيوعاتهم فقال أتم ههنا فيما أتم فيه وميراث رسول الله ﷺ يقسم في مسجده فقاموا سراعاً إلى المسجد فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر وبجاس العلم فقالوا أين ما قلت يا أبا هريرة . فقال هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته وليس بموارثكم ودنياكم أو كما قال . وقوله فن أخذه أخذ بحظ وافر أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له وليس هذا إلا حظه من العلم والدين فهو الحظ الدائم النافع الذي إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الأبدين وذلك لأنه موصول بالحى الذى لا يموت فلذلك لا ينقطع ولا يفوت وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشى متعلقاتها كما قال تعالى (وقدمننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعثها أعمالهم فانقطعت

فكذلك العلماء زينة للأرض . وهى رجوم للشياطين حائلة بينهم وبين استراق السمع لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحي الوارذ إلى الرسل من الله على أيدي ملائكته وكذلك العلماء رجوم لشياطين الانس والجن الذى يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين . ولكن الله سبحانه أقامهم حراساً وحفظة لدينه ورجوماً لأعدائه وأعداء رسله فهذا وجه تشبيههم بالنجوم وأما تشبيههم بالقمر فذلك كان فى مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة وموازنة ما بينهما من الفضل والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا بعلماء كما يفضل القمر سائر الكواكب فكل من التشبيهين لا نرى بموضعه والحمد لله . وقوله أن العلماء ورثة الأنبياء هذا من أعظم المناقب لأهل العلم فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم : ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته اذهم الذين يقومون مقامه من بعده ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم فى تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم ، وفى هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث وهذا كما أنه ثابت فى ميراث الدينار والدرهم فكذلك هو فى ميراث النبوة والله يختص برحمته من يشاء وفيه أيضاً ارشاد وأمر للامة بطاعتهم واحترامهم وتعزيزهم وتوقيرهم واجلالهم فانهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم . وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبعضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو فى موروثهم . قال على كرم الله وجهه ورضى عنه حجة العلماء دين يدان به . وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وورثه الأنبياء سادات أولياء الله عز وجل وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدى الأنبياء وطريقتهم فى التبليغ من الصبر والاحتمال ومقاولة إساءة الناس إليهم بالاحسان والرفق بهم واستجلابهم إلى الله باحسن الطرق وبذل ما يمكن من النصيحة لهم فإنه بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره الجليل خطره . وفيه أيضاً تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج والترقى من صغار العلم إلى كبارهم ونحصيلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل فى إيصال الغذاء إليه فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم بل دون هذه النسبة بكثير ولهذا كل روح لم تربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحه كما قيل .

ومن لا يربيه الرسول ويسقه لباناله قد در من ثدى قدسه
فذاك لقيط ماله نسبة الولا ولا يتعدى طور ابناء جنسه
وقوله أن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما إنما ورثوا العلم هذا من كمال الأنبياء وعظم

للعالم عام في الحيوانات ناطقها وبهيمها طيرها وغيره ويؤكد هذا قوله حتى الحيتان في الماء وحتى النملة في جحرها . فقيم سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وارفقتها بالحيوان والعالم أشفق الناس على الحيوان وأقومهم ببيان ما خلق له وبالجملة فالرحمة والإحسان التي خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لهما حظهما منه إنما يعرف بالعلم فالعالم معرف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم والله أعلم . وقوله وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب تشبيهه مطابق لحال القمر والكواكب فإن القمر يضيء الآفاق ويمتد نوره في أقطار العالم وهذه حال العالم . وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه وهذه حال العابد الذي يضيء نور عبادته عليه دون غيره وإن جاوز نور عبادته غيره فانما يجاوزه غير بعيد كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة ومن هذا الأثر المروى إذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد أدخل الجنة فإنما كانت منفعتك لنفسك ويقال للعالم اشفع تشفع فإنما كانت منفعتك للناس . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقير فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للفقير اشفع تشفع وفي التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو أن الجهل كالليل في ظلمته وحندسه والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة في تلك الظلمة وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب . وأيضا فالدين قوامه وزينته وإضاءته بعلمائه وعباده فاذا ذهب علمؤه وعباده ذهب الدين كما أن السماء إضاءتها وزينتها بقمرها وكواكبها فاذا خسف قمرها وانثرت كواكبها أتاها ما توعد وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب . فان قيل كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهي أعظم نوراً . قيل فيه فائدتان . إحداهما أن نور القمر لما كان مستفاداً من غيره كان تشبيه العالم الذي نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس الثانية أن الشمس لا يختلف حالها في نورها ولا يلحقها محاق ولا تفاوت في الإضاءة . وأما القمر فانه يقل نوره ويكثر ويمتلئ وينتصر كما أن العلماء في العلم على مراتبهم من كثرتهم وقلة فيفضل كل منهم في علمه بحسب كثرتهم وقلة وظهوره وخفائه كما يكون القمر كذلك فعالم كالقدر ليلة تمه وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه وهم درجات عند الله فان قيل تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم كقوله صلى الله عليه وسلم: أصحابي كالنجوم ولهذا هي في تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر . قيل أما تشبيه العلماء بالنجوم فان النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وكذلك العلماء . والنجوم زينة للسماء . (٥ — مفتاح ١)

العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) فإي نصيح للعباد مثل هذا إلا نصيح الأنبياء فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه حتى تضع أجنحتها له وضاً ومحبة وتعظيماً . وقال أبو حاتم الرازي سمعت ابن أبي أويس يقول سمعت مالك بن أنس يقول معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تضع أجنحتها يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلاً من الأبدى وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة له حديثاً زكريا بن عبد الرحمن البصري . قال سمعت أحمد بن شعيب يقول كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث فقال والله لأطرقن غدا نعلي بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ففعل ومشى في النعلين فحفت رجلاه جميعاً ووقعت فيهما الأكلة . وقال الطبراني سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي . قال كنا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين فاسرعنا المشى وكان معنا رجل ماجن منهم في دينه فقال ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ . فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط . وفي السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال . قال قلت يا رسول الله اني جئت أطلب العلم قال مرحباً بطالب العلم إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهما لما يطلب . وذكر حديث المسح علي الخفين . قال أبو عبد الله الحاكم استاده صحيح . وقال ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع ومثله لا يقال بالرأى ففي هذا الحديث حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء وفي الأول وضعها أجنحتها له فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل والحف بالحفاة حفظ وحماية وصيانة فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحباها إياه وحياطته وحفظه فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكان به شرفاً وفضلاً . وقوله صلى الله عليه وسلم إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء فانه لما كان العالم سنياً في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات وكان سعيه مقصوراً على هذا وكانت نجاة العباد على يديه جوضى من جنس عمله وجعل من في السموات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلصتهم . وقد قيل ان من في السموات ومن في الأرض المستغفرين

فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفدا ولم يشتري به ثمنا أولئك يصلى عليهم طير السماء وحياتان البحر ودواب الأرض والكرام البكاتبون ورجل آتاه الله علما ففطن به عن عباده وأخذ به صفدا واشترى به ثمنا فذلك يأتي يوم القيامة يلجم بلجم من نار ذكره ابن عبد البر مرفوعا وفي رفعه نظر . وقوله ان الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير لما كان تعليمه للناس الخير سببا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جازاه الله من جنس عمله بان جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سببا لنجاته وسعادته وفلاحه . وأيضا فان معلم الناس الخير لما كان مظهرا لدين الرب وأحكامه ومعرفا لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه ما يكون تنويها به وتشريفا له وإظهارا للشناء عليه بين أهل السماء والأرض . الوجه السابع والاربعون مارواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر . وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان ابن أيمن عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة وفرشت له الملائكة أكنافها وصلت عليه ملائكة السماء وحياتان البحر وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب والعلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلة لا تسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم وهذا حديث حسن والطريق التي يسلكها إلى الجنة جزاء على سلوكه في الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه ووضع الملائكة أجنحتها له وتواضعا له وتوقيرا وإكراما لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم فمن حبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته ففيه شبه من الملائكة وبينه وبينهم تناسب فإن الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبني آدم وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى . ومن نفعهم لبني آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئتهم ويثنون على مؤمنهم ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ويحرسون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريد العبد ولا يخطر بباله . كما قال بعض التابعين وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد . وقال تعالى (الذين يحملون

الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) الوجه الثالث والأربعون مافي الصحيحين أيضاً من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اعلى رضى الله عنه لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم وهذا يدل على فضل العلم والتعالم وشرف منزلة أهله بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيراً له من حمر النعم وهي خيارها وأشرفها عند أهلها فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف من الناس . الوجه الرابع والأربعون ماروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثم من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً . أخبر صلى الله عليه وسلم أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به . والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به لأن هذا بذل قدرته فى هداية الناس وهذا بذل قدرته فى ضلالتهم فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذكور فى غير هذا الموضع . قال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) وقال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم) وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقاً لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته اليه وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان الوجه الخامس والأربعون ماخرجا فى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . فاخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً يعنى حسد غبطة ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا فى واحدة من هاتين الخصلتين وهى الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله . وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ولا تمنى مثل حاله لقلّة منفعة الناس به . الوجه السادس والأربعون قال الترمذى حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا سلمة بن رجاء حدثنا الوليد بن حميد حدثنا القاسم عن أبى أمامة الباهلى قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضله العالم على العابد كفضلى على أدناكم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر يصلون على معلمى الناس الخير . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب سمعت أبا عمار الحسین ابن حريث الخزاعى . قال سمعت الفضيل بن عياض يقول عالم عامل معلم يدعى كبيراً فى ملكوت السموات وهذا مروي عن الصحابة قال ابن عباس علماء هذه الأمة رجالان فرجل أعطاه الله علماً

الأرض التي هي قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء وهؤلاء هم الأشقياء والقسمان الأولان اشتركا في العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل اليه فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه والقسم الثالث لا علم ولا تعليم فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه وهؤلاء شر من الأنعام وهم وقود النار فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله وذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم وتقسم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد وفيه دلالة على ان حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم وانهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث . قال الإمام أحمد الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج اليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه بعدد الأنفاس وقد قال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل) شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم ثم شبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما كثيرا كواد عظيم يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا . فقال (فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فانه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبدا يعلو فوق الماء وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطففت فلا تستقر فيه بل تجنى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى وذين الحق كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون ثم ضرب سبحانه لذلك مثلا آخر . فقال (وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) يعنى أن ما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقى النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فانه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده وضرب سبحانه مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والاشراق والاحراق فأيات القرآن تحي القلوب كما تحيا الأرض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخاؤها كما تحرق النار ما يلقى فيها وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم . قال الله تعالى (وتلك

أهل العلم ويمدحهم ويثنى عليهم كما تقدم والله المستعان، الوجه الحادى والأربعون مافى الصحيحين من حديث معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وهذا يدل على ان من لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيرا كما أن من أراد به خيرا فقهه فى دينه ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيرا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل وأما ان أريد به مجرد العلم فلا يدل على ان من فقه فى الدين فقد أريد به خيرا فان الفقه حينئذ يكون شرطا لارادة الخير وعلى الأول يكون موجبا والله اعلم . الوجه الثانى والأربعون مافى الصحيحين ايضا من حديث ابى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت السكك والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعمل وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به شبهه صلى الله عليه وسلم العلم والهدى الذى جاء به بالغيث لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فانها بالعلم والمطر وشبهه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركتته وثمرته ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده . أحدها أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه فهو لاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت السكك والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فانه بمنزلة انبات الكلاً والعشب بالماء فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية . القسم الثانى أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقهها فى معانيه ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه وإعرابه ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لإفهاما يؤتیه الله عبدا فى كتابه والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكماين ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين فهو لاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع فهو لاء القسمان هم السعداء والأولون أرفع درجة وأعلى قدرا (وذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) القسم الثالث الذين لا نصيب لهم منه لاحفظاً ولا فهما ولا رواية ولا دراية بل هم بمنزلة

مالا تعلمون) يعنى ما عندكم من حجة بما قلتم ان هو الا قول على الله بلا علم ، وقال تعالى (ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم ، وقال تعالى (أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابتكم ان كنتم صادقين) يعنى حجة واضحة فأتوا بها ان كنتم صادقين فى دعواكم إلا موضعاً واحداً يختلف فيه وهو قوله (ما أغنى عنى مالىة هلك عنى سلطانيه) فقيل المراد به القدرة والملك أى ذهب عنى مالى وملكى فلا مال لى ولا سلطان وقيل هو على بابيه أى انقطعت حجتى وبطلت فلا حجة لى . والمقصود ان الله سبحانه سى علم الحجة سلطاناً لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره فله بها سلطان على الجاهلين بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ولهذا يتقاد الناس للحجة مالا يتقادون لليد فان الحجة تنقاد لها القلوب وأما اليد فانما يتقاد لها البدن فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وان أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها بل سلطان الجاه ان لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والاسود ونحوها قدرة بلا علم ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة فانه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو اما لضعف حجته وسلطانه واما لقهر سلطان اليد والسيوف له والا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له . الوجه الأربعون ان الله تعالى وصف أهل النار بالجهل وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم فقال تعالى حكاية عنهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فأنترفوا بذنبيهم فسحقاً لأصحاب السعير) فآخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال ، وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فآخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهى العقل والسمع والبصر كما قال فى موضع آخر (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقال تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة وتارة بالجنار الذى يحمل الأسفار وتارة جعلهم أضل من الأنعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء وتارة أخبر أنهم فى ظلمات الجهل والضلال وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفى آذانهم قرا وعلى أبصارهم غشاوة وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم كما أنه يحب

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يعنى وبعث فى آخرين منهم لما يلحقوا بهم وقد اختلف فى هذا اللحاق المثنى فقيل هو اللحاق فى الزمان أى يتأخر زمانهم عنهم وقيل هو اللحاق فى الفضل والسبق وعلى التقديرين فامتن عليهم سبحانه بان عليهم بعد الجهل وهداهم بعد الضلالة ويالها من منة عظيمة فانت المن وجلت أن يقدر العباد لها على من . الوجه الثامن والثلاثون أن أول سورة أنزلها الله فى كتابه سورة القلم فذكر فيها ما من به على الانسان من تعليمه ما لم يعلم فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الانسان بما علمه اياه وذلك يدل على شرف التعليم والعلم . فقال تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصاً وعموماً . فقال (الذى خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم) وخص الانسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته وانه لا إله غيره ولا رب سواه وذكر هنا مبدأ خلقه من علق ليكون العلقة مبدأ الأضوار التى انتقلت اليها النطفة فهى مبدأ تعلق التخليق ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فان الخير كله بيديه والخير كله منه والنعم كلها هو مولها والكمال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقاً ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً . فقال الذى علم بالقلم فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ثم ذكر تعليم الانسان خصوصاً . فقال (علم الانسان ما لم يعلم) فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها فان الوجود له مراتب أربعة احداها مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله خلق . المرتبة الثانية الذهنية المدلول عليها بقوله (علم الانسان ما لم يعلم) . المرتبة الثالثة والرابعة اللفظية والخطية فالخطية مصرح بها فى قوله الذى علم بالقلم واللفظية من لوازم التعليم بالقلم فان الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها وانه سبحانه هو معطيها بخلقها وتعليمه فهو الخالق المعلم وكل شئ فى الخارج فيخلقها وجد وكل علم فى الذهن فتعليمه حصل وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان فباقداره وخلقها وتعليمه وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما عليهم اياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه بل من أعظمها وأظهرها وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له . الوجه التاسع والثلاثون انه سبحانه سعى الحجة العلمية سلطاناً ، قال ابن عباس رضى الله عنه كل سلطان فى القرآن فهو حجة وهذا كقوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض ان عندكم من سلطان بهذا أنقولون على الله

وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بخذافيه والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير . الوجه السابع والثلاثون أنه سبحانه ذكر فضله وممته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك) عالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً (وقد تقدمت هذه الآية . وقال في يوسف (ولما بلغ أشده آتياه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) وقال في كلمه موسى (ولما بلغ أشده واستوى آتياه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) ولما كان الذي آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً خصه به على غيره ولا يثبت له إلا الأقباء أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى يعني تم وكملت قوته . وقال في حق المسيح (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به . وقال في حق داود (وآتياه الحكمة وفصل الخطاب) وقال في حق الخضر صاحب موسى وفتاه (فوجدنا عبداً من عبادنا آتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته . وقال تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً) فذكر النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم وخص بفهم القضية أحدهما وقد ذكرت الحكمين الداودى والسليمانى ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا ومن صار إلى هذا وترجيح الحكم السليمانى من عدة وجوه وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد . وقال تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله) يعنى الذى أنزله جعل سبحانه تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلاً على صحة النبوة والرسالة إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء . وهذا من فضل العلم وشرفه وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة والله الموفق للرشاد . وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم

رشد) فلم يحىء متحنوا ولا متعنتوا وإنما جاء متعلما مستزيدا علمه إلى علمه . وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم فإن
 نبى الله وكليمه سافروا وحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ولما سمع به لم يقله
 قرار حتى لقيه وطلب منه متابعتها وتعليمه وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع
 ذكرها . الوجه الخامس والثلاثون قوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر
 من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)
 ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم
 وقد اختلف في الآية فقيل المعنى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي
 أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين فيكون التفجير على
 هذا نفير تعلم والطائفة يقال على الواحد فما زاد قالوا فهو دليل على قبول خبر الواحد وعلى
 هذا حملها الشافعى وجماعة . وقالت طائفة أخرى المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد
 كلهم بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين فإذا جاءت الطائفة التي نفرت
 ففقتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام . وعلى هذا فيكون قوله ليتفقهوا
 ولينذروا للفرقة التي نفرت منها طائفة وهذا قول الأكثرين وعلى هذا فالنفير نفير جهاد
 على أصله فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد . قال الله تعالى (انفروا خفافا وثقالا
 وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) وقال النبى صلى الله عليه وسلم لاهجرة بعد الفتح ولكن
 جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا وهذا هو المعروف من هذه اللفظة . وعلى القولين فهو
 ترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه فإن ذلك يعدل الجهاد بل ربما يكون أفضل منه
 كما سيأتى تقريره في الوجه الثامن والمائة أن شاء الله تعالى . الوجه السادس والثلاثون قوله تعالى
 (والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا
 بالصبر) قال الشافعى رضى الله عنه لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكففتهم (وبيان ذلك)
 أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله . أحداها معرفة الحق . الثانية عمله به
 الثالثة تعليمه من لا يحسنه . الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه فذكر تعالى المراتب
 الأربعة في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين
 آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات
 وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى . وتواصوا بالحق وصى به بعضهم
 بعضاً تعليماً وإرشاداً فهذه مرتبة ثالثة . وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم
 بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال فإن الكمال أن يكون الشخص
 كاملاً في نفسه مكملًا لغيره وكاملة باصلاح قوته العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالإيمان

وهو نور الإيمان على نور القرآن . وفي حديث الثوالب بن سمعان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى كتنى الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوقه (والله يدعو إلى دار السلام ويهذى من يشاء إلى صراط مستقيم) والأبواب التى على كتنى الصراط حدود الله فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف الستر والذى يدعو من فوقه واعظ ربه رواء الترمذى وهذا لفظه . والإمام أحمد ولفظه والداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن فذكر الأصلين وهما داعى القرآن وداعى الإيمان . وقال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعملوا من الإيمان ثم علموا من القرآن . وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب ولا ربح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ربحها طيب وطعمها سر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الخنزيرة طعمها مر ولا ربح لها فجعل الناس أربعة أقسام أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس . الثانى أهل الإيمان الذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء والأشقياء قسمان . أحدهما من أوتى قرآنًا بلا إيمان فهو منافق . والثانى من لا أوتى قرآنًا ولا إيمانًا . والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله فى قلب من يشاء من عباده وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة وعلمهما أجل العلوم وأفضلها بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما (والله يهذى من يشاء إلى صراط مستقيم) الوجه الثالث والثلاثون أن الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلم وهذا أيضاً من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده فدل على شرف العلم وفضله . قال الله تعالى (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله أن الله سريع الحساب) ولولا منزلة العلم والتعالم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء . الوجه الرابع والثلاثون أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذى كتب له التوراة بيده وكله منه إليه أنه رحل إلى رحل عالم يتعلم منه ويزداد علماً إلى علمه فقال (واذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) حرصاً منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه قلباً لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) فبدأه بعد السلام بالاستمذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا بأذنه وقال (على أن تعلمن مما علمت

والفحش وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح والحياة الذى هو المطر الذى به حياة كل شيء . قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) كان ميتاً بالجهل قلبه فأحياه بالعلم وجعل له من الايمان نوراً يمشى به فى الناس . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرول على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لنهتدى إلى صراط مستقيم) فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ونور يحصل به الإضاءة والإشراق تجتمع بين الأصلين الحياة والنور . وقال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير) وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقال تعالى (قد أنزل الله اليكم ذكرآ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) وقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) فضرب سبحانه مثلاً لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن كما قال أبى بن كعب رضى الله عنه مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والايمان الذى أعطاه إياه كما قال فى آخر الآية (نور على نور) يعنى نور الايمان على نور القرآن كما قال بعض السلف يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالآثر فإذا سمع فيها بالآثر كان نوراً على نور وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والايمان فى غير موضع من كتابه كقوله (ما كنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ففضل الله الايمان ورحمته القرآن . وقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقد تقدمت هذه الآيات . وقال فى آية النور (نور على نور)

من صفات السكّال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وإن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير حينئذ قدمه ومكّنه وسلم إليه خزائن الأرض وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكّنه في الأرض فدل على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة . وهذا وجه مستقل في تفضيل العلم مضاف إلى ما تقدم فتم به ثلاثون وجها . الوجه الحادى والثلاثون أنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) وقال (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجاهل بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم . وقال (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) أخبر أن الجاهل شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمر والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب فالجاهل شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجاهل بل أعداؤهم على الحقيقة . وقال تعالى لنبيه وقد أعاده (فلا تكونن من الجاهلين) وقال كلمه موسى عليه الصلاة والسلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) . وقال لأول رسله نوح عليه السلام (انى أعظك أن تسكون من الجاهلين) فهذه حال الجاهلين عنده والاول حال أهل العلم عنده . وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه . فقال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حججا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) وأمر نبيه بالاعراض عنهم فقال (وأعرض عن الجاهلين) وأثنى على عباده بالاعراض عنهم ومناكرتهم كما فى قوله (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) وقال تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه . الوجه الثانى والثلاثون إن العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة والشر كله سببه عدم الحياة والنور والخير كله سببه النور والحياة فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها والحياة هى المصححة لصفات السكّال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب وتصوره حقيقة القبح ونفرتة منه وضده الوقاحة

ابن قتيبة والجمهور الحكمة إصا به الحق والعمل به وهى العلم النافع والعمل الصالح . الوجه السابع والعشرون . أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم . فقال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) . الوجه الثامن والعشرون . أنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها وأن يذكروه على أسدانها لإيهم فقال تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) الوجه التاسع والعشرون . أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة قالوا له أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى ابليس فلعنه وأخرجه من السماء (وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه) أحدها أنه سبحانه رد على الملائكة لما سأله كيف يجعل فى الأرض من هم أطوع له منه فقال (انى أعلم ما لا تعلمون) فأجاب سؤلهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والايان من هو خير من الملائكة وظهر من ابليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما فى خلق آدم واسكانه الأرض من الحكم الباهرة . الثانى انه سبحانه لما أراد اظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم فعلمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . جاء فى التفسير أنهم قالوا لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه . فقالوا (سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال (يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم) أقروا له بالفضل . الثالث أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم (ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظواهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض فتعرف اليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم وعجزهم عما آتاه آدم من العلم وكفى بهذا شرفا للعلم . الرابع أنه سبحانه جعل فى آدم

عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة) فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والرابع الرفعة بالجهد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهد اللذين بهما قوام الدين، الوجه العشرون . أنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار . فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) الوجه الحادي والعشرون أنه سبحانه أخبر أنهم أهل خشية بل خصهم من بين الناس بذلك . فقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) وهذا حصر الخشية في أولى العلم . وقال تعالى (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وقد أخبر أن أهل خشية هم العلماء فدل على أن هذا الجزء المذكور للعلماء بمجموع النصين . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا . الوجه الثاني والعشرون أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول لست من العالمين . الوجه الثالث والعشرون أنه سبحانه ذكر مناصرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحججة فقال تعالى عقيب مناصرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام (وتلك حججتنا آتيناها إبراهيم على قومه ففتح درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) قال زيد بن أسلم رضى الله عنه نرفع درجات من نشاء بعلم الحججة . الوجه الرابع والعشرون أنه سبحانه أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فقال تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن متبئن يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنِ يَوْمَيْنِ لِّتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) فدل على أن علم العباد برهيم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر . الوجه الخامس والعشرون أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس فقال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق وهما أفضل علم وأفضل عمل . الوجه السادس والعشرون . أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيراً كثيراً . فقال تعالى (يوتى الحكمة من يشاء ومن يوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) قال

كنتم لا تعلمون) وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء . الوجه الخامس عشر أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله فقال تعالى (أفغير الله أبغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) . الوجه السادس عشر أنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئا . فقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحت أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم أولا . الوجه السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم . فقال تعالى (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يحجده بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحجده بآياتنا إلا الظالمون) وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين . أحدهما أنه آيات بينات . الثانى أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم . أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أى كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم والقولان متلازمان ليسا بمختلفين . وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمل . الوجه الثامن عشر أنه سبحانه أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم فقال تعالى (فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدنى علما) وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه . الوجه التاسع عشر أنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة . فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع . أحدها هذا . والثانى قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ويؤتوا الزكاة هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) والثالث قوله تعالى (ومن يأتته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) والرابع قوله تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا

فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر فقال للمدعى ألك بيعة قال نعم فلان وفلان قال أما فلان فمن شهودى وأما فلان فليس من شهودى قال فيمرفه القاضى قال نعم قال بماذا قال أعرفه بكتب الحديث قال فكيف تعرفه فى كتبه الحديث قال ما علمت إلا خيراً . قال فان النبى صلى الله عليه وسلم قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بمن عدلته أنت فقال قم فهاته فقد قبلت شهادته . وسيأتى إن شاء الله الكلام على هذا الحديث فى موضعه . الخامس أنه وصفهم بكونهم أولى العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم . السادس أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً . السابع أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم . الثامن أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المتكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده . التاسع أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً . العاشر أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الإقرار به وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلم يمتنع من الأجر مثل أجره وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلم يمتنع من الأجر مثل أجره أيضاً فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية . الحادى عشر فى تفضيل العلم وأهله أنه سبحانه نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم كأنفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار . فقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) كما قال تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم ، الوجه الثانى عشر أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال (أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) فاثم إلا عالم أو أعمى وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمى فى غير موضع من كتابه . الوجه الثالث عشر أنه سبحانه أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقاً وجعل هذا ثناء عليهم واستشهاداً بهم . فقال تعالى (ويرى الذين أتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق) الوجه الرابع عشر أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم وجعل ذلك كالشهادة منهم . فقال (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن) (٤ — مفتاح ١)

ورثة الأنبياء وتطلع يركض في ميدان جهله مع الجاهلين ويبرز عليهم في الجهالة فيظن أنه من السابقين وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل وإذا أنزل الوراثة منازلهم منها فنزلته منها أقصى وأبعد منزل .

نزلوا بمسكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وعياذا بك من جعل الملامة بضاعته والعذل نصيحته فهو دائماً يبدى في الملامة ويعيد . ويكرر على العذل فلا يفيد ولا يستفيد . بل عياذا بك من عدو في صورة ناصح وولي في مَسْلَاح بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذراً وإشفاقاً وتنفيذه وتخذيذه إسعافاً وإرفاقاً وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تفتح والميزان بهم يخف ولا يرجح فإحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزاء من الالتفات ويسافر في طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات وما أحسن ما قال القائل :

وفي الجبل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى الذشور نشور

اللهم فك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك وأنت حسبنا ونعم الوكيل . فلنشرع الآن في المقصود بحول الله وقوته فنقول .

الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه

وبيان عموم الحاجة اليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه

قال الله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه . أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر . والثاني اقتران شهادتهم بشهادته . والثالث اقترانها بشهادة ملائكته . والرابع أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبه رأيت رجلاً قدم رجلاً إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي

فالطرق كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المتقادة إليه عن الله محبوسة مصدودة فحق على من كان في سعادة نفسه ساعيا وكان قلبه حيا عن الله واعيا أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله وأن يصيرهما أخيلته التي إليها مفرعه في حياته وطاء له فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسسا على هاتين القاعدتين ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين ﴿ وسميته مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ﴾ إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها على حين انقطاعي إليه عند بيته وإلقاءي نفسي ببابه مسكينا ذليلا وتعرضي لفتحاته في بيته وحوله بكرة وأصيلا فما خاب من أنزل به حوائجه وعلق به آماله وأصبح ببابه مقبيا وبجماه نزيلا ولما كان العلم أمام الإرادة ومقدما عايبا ومفصلا لها ومرشدا لها قدمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة . ثم تتبعه ان شاء الله بعد الفراغ منه كتابا في الكلام على المحبة وأقسامها وأحكامها وفوائدها وثمراتها وأسبابها وموانعها وما يقويها وما يضعفها والاستدلال بسائر طرق الأدلة من الثقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذوق والوجد على تعلقها بالإله الحق الذي لا إله غيره بل لا ينبغي أن تكون إلالة ومن أجله والرد على من أنكر ذلك وتبيين فساد قوله عقلا ونقلا وفطرة وقياسا وذوقا ووجداف هذا مضمون هذه التحفة وهذه عرائس معانيها الآن تجلي عليك وخود أبقارها البديعة الجمال ترفل في حللها وهي ترف اليك فاما شمس منازلها بسعد الاسعد وأما خود ترف إلى ضرير مقعد فاختر لنفسك إحدى الخطتين وأنزلها فيما شئت من المنزاتين ولا بد لكل نعمة من حاسد وكل حق من جاحد ومعاند هذا وأتما أودع من المعاني والنقائس رهن عند متأمل ومطالع له غنمه وعلى مؤلفه غرمه وله ثمرته ومنفعته ولصاحبه كله ومشقته مع تعرضه لطنع الطاعنين ولا اعتراض المناقشين وهذه بضاعته المزجاة وعقله المكدود يعرض على عقول العالمين وإلقاءه نفسه وعرضه بين مخالب الحاسدين وأنياب البغاة المعتدين فلك أيها القارئ صفوه ومؤلفه كدوره وهو الذي تجشم غراسه وتعبه ولك ثمره وها هو قد استهدف لسهام الراسقين واستعذر إلى الله من الزلل والخطأ ثم إلى عباده المؤمنين . اللهم فعياذا بك ممن قصر في العلم والدين بآءه وطالت في الجهل وآذى عبادك ذراعه فهو لجهله يرى الإحسان اساءة والسنة بدعة والعرف نكرا وظلمه يجزى بالحسنة سيئة كاملة وبالسيئة الواحدة عشرة قد اتخذ بطن الحق وغط الناس سلبا إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه ولا يعرف من المعروف ولا يتذكر من المنكر إلا ما وافق لإرادته أو حالف هواه يستطيل على أولياء الرسول وحزبه باصغريه ويجالس أهل الفئ والجهالة ويزاحمهم بركبته قد ارتوى من ماء آجن وتضلع واستشرف إلى مراتب

وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار . قال تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) .
وقال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار لأنه قد أخبر عنهم أنهم (قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) ثم قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وهذا الحشر الثاني وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني من الموقف إلى النار فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكياً وصماً فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقرآن يصدق بمضه بعضاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

فصل

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنة أعاضهم أفضل منها وهو ما أعطاهم من عهده الذي جملة سببها موصلاً لهم إليه وطريقاً واضحاً بين الدلالة عليه من تمسك به فاز واهتدى ومن أعرض عنه شقى وغوى . ولما كان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل إليه أبداً إلا من باب العلم والإرادة فالإرادة باب الوصول إليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه وكال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين همة ترقيه وعلم يبصره ويهديه فان مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما أما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها أو يكون عالماً بها ولا تنهض همته إليها فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً وقلبه عن كانه الذي خلق له مصدوداً منكوساً قد أسام نفسه مع الأنعام راعياً مع الحمل واستطاب لقيعات الراحة والبطالة واستلان فراش العجز والكسل لا كمن رفع له علم فشمع إليه وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه فدابت غلبات شوقه إلى الهجرة إلى الله ورسوله ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله . ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها وشرف العلم تابع لأشرف معلومه كانت نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها ولا حياة له إلا بها أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت وعزماته همة مسافرة إلى حضرة الحى الذى لا يموت ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والخط الآوفاً إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذى بعثه لذلك داعياً وأقامه على هذا الطريق هادياً وجعله واسطة بينه وبين الأنام وداعياً لهم بإذنه إلى داد السلام وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه أو يقبل من أحد منهم سعياً إلا أن يكون مبتدأ منه ومنتهياً إليه .

في الآخرة كقوله تعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي) وقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون) وقوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا السياق لا يدل إلا عليه لقوله (قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا) وهو لم يكن بصيرا في كفره قط بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق فكيف يقول وقد كنت بصيرا وكيف يحجب بقوله (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم ننسى) بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله فانه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا فجأزه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة وعلى تركه ذكره تركه في العذاب وقال تعالى (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا وصما) . وقد قيل في هذه الآية أيضا أنهم عمى وبكم وصم عن الهدى كما قيل في قوله (ونحشره يوم القيامة أعمى) قالوا لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون ومن نصرانه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم هو عمى وصم وبكم مقيد لا مطلق فهم عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه . ولهذا قد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لا يرون شيئا يسرهم . وقال آخرون هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك ثم أنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد وهذا مروي عن الحسن . وقال آخرون هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا السمع والابصار والنطق حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى (اخسؤا فيها ولا تكلمون) حينئذ ينقطع الرجاء وبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عميا بكما صما لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل والذين قالوا المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمى عنها بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا فإن العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانا ويقر بما كان يجحد في الدنيا فليس هو أعمى عن الحق يومئذ ﴿ وفصل الخطاب ﴾ ان الحشر هو الضم والجمع ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا وكقوله تعالى (وإذا الوحوش حشرت) وكقوله تعالى (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة

عهده أن يحياه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة فقال تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فأخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة وفي الآخرة بأحسن الجزاء وهذا بعكس من له المميشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة وقال سبحانه (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب اعراضه وعشه عن ذكره الذي أنزله على رسوله فكان عقوبة هذا الاعراض أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه وهو يحسب أنه مهتد حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعين هلاكه وافلاسه قال (ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة . فان قيل فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى (ويحسبون أنهم مهتدون) . قيل لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الاعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو ظن أنه مهتد فانه مفرط باعراضه عن اتباع داعي الهدى فاذا ضل فأنما أتى من تفريطه واعراضه وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها فذاك له حكم آخر والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وقال تعالى في أهل النار (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) . وقال تعالى (أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكانت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءك آياتي فكذبته بها واستكبرت وكنت من الكافرين) وهذا كثير في القرآن .

فصل

وقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر والذين قالوا هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) . وقوله (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) . وقوله (ترون الجحيم ثم أترونها عين اليقين) ونظائر هذا مما ثبتت لهم الرواية

عن أن يذكرني بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سند كره . وأحسن من هذا الوجه أن يقال الذكر هنا مضاف لإضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها . والمعنى ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه فإن القرآن يسمى ذكراً قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال تعالى (ذلك تلوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم) وقال تعالى (وما هو إلا ذكر للعالمين) وقال تعالى (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وأنه لكتاب عزيز) وقال تعالى (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن) وعلى هذا فاضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله ونظيره في إضافة اسم الفاعل (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت للآزم وكذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) .

فصل

وقوله تعالى (فإن له معيشة ضنكاً) فسرهما غير واحد من السلف بعذاب القبر وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر ولهذا قال (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى ترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) فهذا في البرزخ (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فهذا في القيامة الكبرى ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) فقول الملائكة اليوم تجزون عذاب الهون المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) فهذه الإذاعة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة فانه معطوف على قوله (يضربون وجوههم وأدبارهم) وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كمنظائره وكلاهما واقع وقت الوفاة . وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضى الله عنه في قوله تعالى (يشبث الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال نزلت في عذاب القبر والأحاديث في عذاب القبر تسكاد تبليغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى فإن له معيشة ضنكاً وتكفل لمن حفظ

ولرسوله تصديقا وطاعة كما تقدم واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره فاسلم لربه انقيادا وخضوعا وذلا وعبودية وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرا وباطنا من مشكاة رسوله وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له وسالم أوليائه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين إلى خلافهما .

فصل

وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) وفي قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) والمعنى يتبعون كتاب الله حق انباعه وقال تعالى (أنزل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة) وقال (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرما وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلا القرآن) حقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة وهي تلاوة اللفظ والمعنى فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة وحقيقة اللفظ إنما هي الإنباع يقال أنزل أثر فلان وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعته خلفه ومنه قوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها ويقال جاء القوم يتلو بعضهم بعضا أي يتبع وتسمى تالي الكلام تاليا لأنه يتبع بعض الحروف بعضها لا يخرجها جملة واحدة بل يتبع بعضها بعضا مرتبة كلها انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى وهذه التلاوة وسيلة وطريقة . والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى وانباعه تصديقا بخبره وانتمارا بأمره وانتهاء بنهيته وانتماء به حيث ما قaddock انقدت معه فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة فانهم أهل تلاوة ومتابعة حقا .

فصل

ثم قال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداة في معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه فقال (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا) أي عن الذكر الذي أنزلته فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل كقيامي وقراءتي لا إلى المفعول وليس المعنى ومن أعرض

لكانت أئمة تدعوا إلى النار وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيان وسواء كان المعنى وخضتم للحزب الذى خاضوا أو كالفريق الذى خاضوا فان الذى يكون للواحد والجمع ونظيره قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) لكن لايجرى على جمع تصحيح فلايجيء المسلمون الذى جاؤا وإنما يجيء غالبا فى اسم الجمع كالحزب والفريق أو حيث لا يذكر الموصوف وان كان جمعا كقول الشاعر :

وان الذى جاءت تقيح دماؤهم ه هم القوم كل القوم يا أم خالد

أو حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به) ثم قال (أولئك هم المتقون) ونظيره الآية التى نحن فيها وهى قوله (وخضتم كالذى خاضوا) أو كان المعنى على القول الآخر وخضتم خوضا كالخوض الذى خاضوا فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك اضرب كالذى ضرب وأحسن كالذى أحسن ونظائره وعلى هذا فيكون العائد منصوبا محذوفا وحذفه فى مثل ذلك قياس مطرد على القولين فقد ذهب سبجانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات واخبر أن من كانت هذه حاله فقد حبط عمله فى الدنيا والآخرة وهو من الخاسرين ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها (قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين) فذكروا الأصليون الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين . وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوى الحاجات فهذان الأصلان هما ما هما والله ولى التوفيق .

فصل

والقلب السليم الذى ينجو من عذاب الله هو القلب الذى قد سلم من هذا وهذا فهو القلب الذى قد سلم لربه وسلم لامره ولم تبق فيه منازعة لامره ولا معارضة لخبره فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد الا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله فآله وحده غايته وأمره وشرعه وسيلته وطريقته لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره لكن لا تمر عليه إلا وهى مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وكل الأقوال التى قيلت فى تفسيره فذلك يتضمنها . وحقيقته أنه القلب الذى قد سلم لعبودية ربه حياء وخوفا وطمعاً ورجاء ففنى بحبه عن حب ماسواه وبخوفه عن خوف ماسواه وبرجائه عن رجاء ماسواه وسلم لامره

فصل

ومتابعة هدى الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدم في تصديقه وامتنال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر ويتبعهما أمران آخران وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق وان لا يخمش بها وجه تصديقه ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتنال فهنا أربعة أمور . أحدها تصديق الخبر . الثاني بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي نوحى بها شياطين الجن والانس في معارضته . الثالث طاعة الأمر والرابع مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة وهذان الأمران أعنى الشبهات والشهوات أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده كما أن الأصلين الأولين وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده وذلك أن العبد له قوتان قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والسلام وقوة الإرادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل فالشبهة تؤثر فسادا في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها والشهوة تؤثر فسادا في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها باخراجها قال الله تعالى في حق نبيه يذكر مامن به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) فما ضل دليل على كمال عليه ومعرفته وانه على الحق المبين وما غوى دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين فهو الكامل في عليه وفي عمله وقد وصف صلى الله عليه وسلم بذلك خلفاءه من بعده وأمر بانبايعهم على سنتهم فقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى رواه الترمذى وغيره فالراشد ضد الغاوى والمهدى ضد الضال وقد قال تعالى (كالذين من قبلكم كانوا أشد منك قوة وأكثر أموالا وأولاداً فاستمتعوا بخلافهم فاستمتعتم بخلافكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلافهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) فذكر تعالى الأصلين وهما داء الأولين والآخرين أحدهما الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر بخلاف المؤمن فانه وان نال من الدنيا وشهواتها فانه لا يستمتع بنصيبه كله ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا بل ينال منها ما ينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده والثاني الخوض بالشبهات الباطلة وهو قوله (وخضتم كالذي خاضوا) وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق الآخرة لاتزال ساعية في نيل شهواتها فاذا نالتها فانما هي في خوض بالباطل الذي لا يجدى عليها إلا الضرر العاجل والآجل . ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلى هذه النفوس بالشقاء والنعب في تحصيل راداتها وشهواتها فلا تتفرغ للخوض بالباطل الا قليلا ولو تفرغت هذه النفوس البطولية

سبحانه بالدعوة وخص بالهداية المفوضية اليها فمن هداها اليها فهو ممن دعاه اليها فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين اليها . الثامن قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضهم ببعض وبلغنا الذي أجلت لنا قال النار مشوا كم خالدين فيها إلا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا) وهذا عام في الجن والانس فأخبرهم تعالى أن لكلهم درجات من عمله فاقضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الانس . التاسع قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) وقوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة . أحدها عموم الاسم الموصول فيها . الثاني ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها وهو قول ربنا الله مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته فاذا كان دخول الجنة مرتباً على الاقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره فمن أتى ذلك استحق الجزاء . الثالث انه قال (فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) فدل على أن كل من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وأنه متناول للفرقيين ودلت هذه الآية على أن من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة . العاشر أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله فدخل الجنة بفضله ورحمته أولى فان رحمته سبقت غضبه والفضل أغلب من العدل ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار . وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيراً قط بل ينشئ لها أقواماً يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه بل بما يصل اليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها اليه بخلاف أهل النار فانه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً . وقد ثبت بنص القرآن واجماع الأمة ان مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون فحسبهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون . لكن قيل أنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده فان ثبتت حجة يجب اتباعها وإلا فهو بما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل والله أعلم .

لـكـال النـعـيم . ولا يقال أن الآيـة إنما تدل على نفى العذاب فقط ولا خلاف أن مؤمنهم لا يعاقبون لأننا نقول لولم تدل الآيـة إلا على أمر عدى فقط لم يكن مدحاً لمؤمنى الانس ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدى وهو عدم الخوف والحزن . ومعلوم أن سياق الآيـة ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدى الله الذى أنزله حصل له غاية النعيم وان دفع عنه غاية الشقاء وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفى الأمور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك فانه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهداً من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء . ومعلوم أنه لا ينتفى ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفى غاية المكروهات أولى . الثانى قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا ياقومنا إنما سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ياقومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرك من عذاب أليم) فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم اخباراً بقوله أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلًا بقوله (ويحرك من عذاب أليم) بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة . الثالث قوله تعالى فى الحور العين (لم يطعمهن إنس قبلهم ولا جان) فهذا يدل على أن مؤمنى الجن والانس يدخلون الجنة وأنه لم يسبق من أحد منهم طمئ لأحد من الحور فدل على أن مؤمنهم يتأق منهم طمئ الحور العين بعد الدخول كما يتأق من الانس ولو كانوا بمن لا يدخل الجنة لما حسن الاخبار عنهم بذلك . الرابع قوله تعالى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأنوا به متشابهًا ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) والجن منهم مؤمن ومنهم كافر كما قال صالحهم (وأنا من المسلمين ومننا القاسطون) فكما دخل كافرهم فى الآيـة الثانية وجب أن يدخل مؤمنهم فى الأولى : الخامس قوله عن صالحهم (فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) والرشد هو الهدى والفلاح وهو الذى يهدى اليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم . السادس قوله تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل فى المبشرين ويستحق البشارة . السابع قوله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) عم

فصل

وهذان الضلالان أعنى الضلال والشقاء يذكرهما سبحانه كثيراً في كلامه ويخبر أنهما حظ أعدائه ويذكر ضدتهما وهما الهدى والفلاح كثيراً ويخبر أنهما حظ أوليائه . أما الأول فكقوله تعالى (ان المجرمين في ضلال وسعر) فالضلال الضلال والسعر هو الشقاء والعذاب وقال تعالى (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) . وأما الثاني فكقوله تعالى في أول البقرة وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وكذلك في أول لقمان . وقال في الأنعام (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة في القرآن وأعرضها قراءة على الأمة وأجمعها لكل ما يحتاج إليه العبد وأعما نفعاً ذكر فيها الأمرين فأمرنا أن نقول (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) فذكر الهداية والنعمة وهما الهدى والفلاح ثم قال (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء والضالين وهم أهل الضلال وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء لكن ذكر الوصفين معاً لتسكون الدلالة على كل منهما بصريح لفظه . وأيضاً فإنه ذكر ما هو أظهر الوصفين في كل طائفة فإن الغضب على اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته والضلال في النصارى أظهر لغلبة الجهل فيهم . وقد صرح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

فصل

وقوله تعالى (فاما يأتينكم مني هدى) هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) ثم قال (فاما يأتينكم مني هدى) وكلا الخطابين لأبوي الثقلين وهو دليل على أن الجن مأمورون منييون داخلون تحت شرائع الأنبياء وهذا بما لاخلاف فيه بين الأمة وأن نبينا بعث اليهم كما بعث إلى الانس كما لاخلاف بيننا أن مسيئتهم مستحق للعقاب . وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور على أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئتهم في النار وقيل بل نوابهم سلامتهم من الجحيم . وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس وإنما هي لبنى آدم وصالحى ذريته خاصة . وحكى هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى . واحتج الأولون بوجوه . أحدها هذه الآية فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى وهذا مستلزم

مسرورا ويقول الآخر مع فقره لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف ويقول الآخر انه لير بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً . وقال بعض العارفين انه لير بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا انهم لفي عيش طيب ومن تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لما نهام عن الوصال فقالوا انك تواصل فقال اني لست كهيتكم إني أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها وما يفيض عليها من أنواع البهجة واللذة والسرور والنعيم الذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الذروة العليا منه وغيره إذا تعلق بغباره رأى ملك الدنيا ونعيمها بالنسبة إليه هباء منثورا بل باطلا وغرورا . وغلط من قال أنه كان يأكل ويشرب طعاما وشرابا يغتذى به بدنه لوجوه . أحدها أنه قال أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى ولو كان أكل وشربا لم يكن وصالا ولا صوما . الثانى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنهم ليسوا كهيتكم فى الوصال فانهم إذا واصلوا تضرروا بذلك وأما هو صلى الله عليه وسلم فانه إذا واصل لا يتضرر بالوصال فلو كان يأكل ويشرب لكان الجواب وأنا أيضاً لا أواصل بل آكل وأشرب كما تأكلون وتشربون فلما قرره على قولهم انك تواصل ولم ينكره عليهم دل على أنه كان مواصلا وانه لم يكن يأكل أكل وشربا يفطر الصائم . الثالث أنه لو كان أكل وشربا يفطر الصائم لم يصح الجواب بالفارق بينهم وبينه فانه حينئذ يكون صلى الله عليه وسلم هو وهم مشتركون فى عدم الوصال فكيف يصح الجواب بقوله لست كهيتكم وهذا أمر يعلمه غالب الناس ان القلب متى حصل له ما يفرحه ويسره من نيل مطلوبه ووصال حبيب له أو ما يغمه ويسوؤه ويحزنه شغل عن الطعام والشراب حتى أن كثيرا من العشاق تمر به الأيام لا يأكل شيئا ولا يطلب نفسه أكل . وقد أفصح القائل فى هذا المعنى :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لهما بوجهك نور تستضى به - ومن حديثك فى أعقابها حادى
إذا اشتكت من كلال السير أو عدها روح القدم فتحميا عند ميعاد

والمقصود أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وطيب الحياة والنعيم العاجل وهو أمر يشهد به الحس والوجد وأما سعادة الآخرة فغيب يعلم بالايمان فذكرها ابن عباس رضى الله عنهما لكونها أهم وهى الغاية المطلوبة وضلال الدنيا أظهر وبالنجاة منه ينجو من كل شر وهو أضل ضلال الآخرة وشقاؤها فلذلك ذكره وحده والله أعلم .

تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ (فاما
يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) والآية نفت مسمى الضلال والشقاء
عن متبع الهدى مطلقاً فاقترنت الآية أنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى ولا يضل في الآخرة ولا يشقى
فيها فان المراتب أربعة هدى وشقاوة في الدنيا وهدى وشقاوة في الآخرة لكن ذكر ابن
عباس رضى الله عنهما في كل دار أظهر مرتبتها فذكر الضلال في الدنيا إذ هو أظهر لنا وأقرب
من ذكر الضلال في الآخرة . وأيضا فضلال الدنيا أضل ضلال في الآخرة وشقاء الآخرة
مستلزم للضلال فيها فنبه بكل مرتبة على الأخرى فنبه بنفى ضلال الدنيا على نفى ضلال الآخرة
فان العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه قال الله تعالى في الآية الأخرى
(ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني
أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نفسى) وقال في الآية
الأخرى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) فأخبر أن من كان في
هذه الدار ضالافهو في الآخرة أضل وأما نفى شقاء الدنيا فقد يقال أنه لما انتفى عنه الضلال
فيها وحصل له الهدى والهدى فيه من برد اليقين وطعم نذرة القلب وذائق طعم الايمان فوجد
حلاوته وفرحة القلب به وسروره والتنعيم به ومصير القلب حيا بالايمان مستنيراً به قويا به
قد نال به غذاءه ورواه وشفاؤه وحياته ونوره وقوته ولذته ونعيمه ماهو من أجل أنواع
النعم وأطيب الطيبات وأعظم اللذات . قال الله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو
مؤمن فله حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فهذا خبر أصدق
الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين بل هو حق اليقين ولا بد لكل من عمل صالحا أن يحياه
الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث
يظنونها النعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرئاسة والمال وقهر
الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات ولاريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم بل قد يكون حظ
كثير من البهائم منها أكثر من حظ الانسان فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها
السباع والدواب والأنعام فذلك بمن ينادى عليه من مكان بعيد ولكن أين هذه اللذة من اللذة
بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والايوان
والمساكن ورضى بتركها كلها والخروج منها رأسا وعرض نفسه لأنواع المكار والمشايق وهو
متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه لا تأخذه في ذلك لومة
لائم حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدرة ويقول فزت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته
حتى يلقى قوته من يده ويقول انها الحياة طويلة ان صبرت حتى آكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحا

وقع هذا الشرط بين علة ومعلول فإن كان الحكم معللاً بعلة صح ذلك وجاز أن يكون الجزاء أعم من الشرط بكونه. ولك إن كان هذا مرتداً فهو حلال الدم فإن حل الدم أعم من حله بالردة . إلا أن يقال أن حكم العلة المعينة ينتفي بانتفائها وإن ثبت الحكم بعلة أخرى فهو حكم آخر وأما حكم العلة المعينة فمحال أن ينفي مع زوالها وحينئذ فيعود التلازم من الطرفين ويلزم من وجود كل واحد من الشرط والجزاء وجود الآخر ومن عدمه عدمه وتام تحقيق هذا في مسألة تعليل الحكم الواحد بعلمتين وللناس فيه نزاع مشهور وفصل الخطاب فيها أن الحكم الواحد إن كان واحداً بالنوع كحل الدم وثبوت الملك ونقض الطهارة جاز تعليله بالعلل المختلفة وإن كان واحداً بالعين كحل الدم بالردة وثبوت الملك بالبيع أو الميراث ونحو ذلك لم يجز تعليله بعلمتين مختلفتين وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذه المسألة والله أعلم . ومن تأمل أدلة الطائفتين وجد كل ما احتج به من رأى تعليل الحكم بعلة مختلفة إنما يدل على تعليل الواحد بالنوع بها وكل من نفى تعليل الحكم بعلمتين إنما يتم دليله على نفي تعليل الواحد بالعين بهما فالقولان عند التحقيق يرجعان إلى شيء واحد . والمقصود أن الله سبحانه جعل اتباع هـداه وعهده الذى عهده إلى آدم سبباً ومقتضياً لعدم الخوف والحزن والضلال والشقاء وهذا الجزاء ثابت بثبوت الشرط متنفذ بانتفائه كما تقدم بيانه ونفى الخوف والحزن عن متبوع الهدى نفي لجميع أنواع الشرور فإن المسكروه الذى ينزل بالعبد متى علم بحصوله فهو خائف منه أن يقع به وإذا وقع به فهو حزين على ما أصابه منه فهو دائماً فى خوف وحزن وكل خائف حزين فكل حزين خائف وكل من الخوف والحزن يكون على فعل المحبوب وحصول المسكروه . فالأقسام أربعة خوف من فوت المحبوب وحصول المسكروه وهذا جماع الشر كله فنفى الله سبحانه ذلك عن متبوع هـداه الذى أنزله على ألسنة رسله وأتى فى نفي الخوف بالاسم الدال على نفي الثبوت وال لزوم فإن أهل الجنة لا بد لهم من الخوف فى الدنيا وفى البرزخ ويوم القيامة حيث يقول آدم وغيره من الأنبياء نفسى نفسى فأخبر سبحانه أنهم وإن خافوا فلا خوف عليهم أى لا يلحقهم الخوف الذى خافوا منه وأتى فى نفي الحزن بالفعل المضارع الدال على نفي التجدد والحدوث أى لا يلحقهم حزن ولا يحدث لهم إذا لم يذكروا ماسلف منهم بل هم فى سرور دائم لا يعرض لهم حزن على ما فات . وأما الخوف فلما كان تعلقه بالمستقبل دون الماضى نفي لحوقه لهم جملة أى الذى خافوا منه لا ينالههم ولا يلزمهم والله أعلم فالحزين إنما يحزن فى المستقبل على ماضى والخائف إنما يخاف فى الحال مما يستقبل فلا خوف عليهم أى لا يلحقهم ما خافوا منه ولا يعرض لهم حزن على ما فات . وقال فى الآية الأخرى (فمن اتبع هـداه فلا يضل ولا يشقى) فنفى عن متبوع هـداه أمرين الضلال والشقاء قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما

فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفى الآية الأخرى قال (اهبطا منها جميعاً
فأما يا أيديكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له مديشة
ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك
آياتنا فأنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فلما كسره سبحانه باهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد
الذى عهده إليهم . فقال تعالى (فأما يا أيديكم منى هدى) وهذه هى أن الشرطية المؤكدة بما
الدالة على استغراق الزمان . والمعنى أى وقت وأى حين أتاكم منى هدى وجعل جواب هذا
الشرط جملة شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) كما تقول إن زرتنى فمن
بشرنى بقدومك فهو حر وجواب الشرط يكون جملة تامة أما خبراً محضاً كقولك إن زرتنى
أكرمك أو خبراً مقروناً بالشرط كهذا أو مؤكداً بالقسم أو بأن واللام كقوله تعالى (ولأن
أطعمهم وأنكم لمشركون) : وأما طلباً كقول النبى ﷺ إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت
فاستعن بالله وقوله وإذا لقيتموهم فاصبروا وقوله تعالى (وإذا حللتم فاصطادوا فإذا انسأخ
الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وأكثر ما يأتى هذا النوع مع إذا التى تفيد
تحقيق وقوع الشرط امر وهو إفادته تحقيق الطلب عند تحقيق الشرط ففى تحقق الشرط فالطلب
متحقق فأتى فإذا الدالة على تحقيق الشرط فلم تحقيق الطلب عندها وقد يأتى مع أن قليلاً كقوله
تعالى (وإن كذبوك فقل لى عملى ولاكم عملكم) وأما جملة انشائية كقوله لعبد الكافر أن
أسلمت فأنت حر ولا مرأته أن فعلت كذا فأنت طالق فهذا انشاء للعق والطلاق عند وجود الشرط
على رأى أو انشاء له حال التعليق ويتأخر نفوذه الى حين وجود الشرط على رأى آخر . وعلى
التقديرين فجواب الشرط جملة انشائية . والمقصود أن جواب الشرط فى الآية المذكورة جملة
شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الشرط يقتضى
ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فيكون الشرط الذى هو
ملزوم علة ومقتضيا للجزاء الذى هو لازم فإن كان بينهما تلازم من الطرفين كان وجود
كل منهما بدون دخول الآخر ممتعاً كدخول الجنة بالإسلام وارتفاع الخوف والحزن
والضلال والشقاء مع متابعة الهوى وهذه هى عامة شروط القرآن والسنة فانها أسباب وعلل
والحكم ينتفى بانتفاء علته وإن كان التلازم بينهما من أحد الطرفين كان الشرط ملزوماً خاصاً
والجزاء لازماً عاماً ففى تحقق الشرط الملزوم الخاص تحقق الجزء اللازم العام ولا يلزم العكس
كما يقال إن كان هذا انساناً فهو حيوان وإن كان البيع صحيحاً فالملك ثابت . وهذا غالب
ما يأتى فى قياس الدلالة حيث يكون الشرط دليلاً على الجزء فيلزم من وجوده وجود الجزء
لأن الجزء لازمه ووجود الملزوم يستلزم وجود اللازم ولا يلزم من عدمه عدم الجزء وإن

خروجه وإخراج بنييه من بستان هذا شأنه ولكن من قال بهذا وإنما كانت جنة لا يلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور أنهارها ولا يجوع ساكنها ولا يظلم ولا يضحي للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها النعب والنصب والشماء ومثل هذه الجنة يحسن لوم الإنسان على التسبب في خروجه منها ، قالوا وأما اعتذار آدم عليه الصلاة والسلام يوم القيامة لأهل الموقف بأن خطيئته هي التي أخرجته من الجنة فلا يحسن أن يستفتحها لهم فهذا لا يستلزم أن تكون هي بعينها التي أخرج منها بل إذا كانت غيرها كان أبلغ في الاعتذار فانه إذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها ثم خرج من غيرها بخطيئة فهذا موقف نظريين ونهاية أقدام الطائفتين فمن كان له فضل علم في هذه المسئلة فيلجد به فهذا وقت الحاجة اليه ومن علم منتهى خطوته ومقدار بضاعته فليكل الأمر إلى عالمه ولا يرضى لنفسه بالتنقيص والازراء عليه وليكن من أهل التلؤل الذين هم نظارة الحرب إذا لم يكن من أهل الكبر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت الأقران وضاق بهم المجال في حابة هذا الميدان .

إذا تلاقي الفحول في اجب ه فكيف حال الغصيص في الوسط

هذه معاهد حجاج الطائفتين بجنازة بياك وإليك تساق وهذه بضائع تجار العلماء ينادى عليها في سوق الكسداد لا في سوق النفاق فمن لم يكن له به شيء من أسباب البيان والتبصرة فلا يعدم من قد استفرغ وسعه وبذل جهده منه التصويب والمعدرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطئين وانحس الخطئين جهل الحق وأسبابه ومعاداة أهله وطلابه وإذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العالم فارحل بهمتك من بين الأموات وعليك بمعلم إبراهيم فقد ذكرنا في هذه المسئلة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعله لا يوجد في شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله سبحانه الاستعداد وعليه التوكل وإليه الاستناد فإنه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض أمره إليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فصل

ولما أهبطه سبحانه من الجنة وعرضه وذريته لأنواع الحزن والبلاء أعطاهم أفضل مما منعهم وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنييه وأخبر أنه من تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته . قال تعالى عقب إخراجهم منها (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى

تلك الجنة لا كل ما يسمى أرضاً وكان مستقرهم الأول في أرض الجنة ثم صار في أرض
الابتلاء والامتحان ثم يصير مستقر المؤمنين يوم الجزاء أرض الجنة أيضاً فلا تدل الآية على
أن جنة آدم هي جنة الخلد . قالوا وهذا هو الجواب بعينه عن استدلالكم بقوله تعالى (قال
فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فإن المراد به الأرض التي أهبطوا إليها وجعلت
مسكناً لهم بدل الجنة . وهذا تفسير المستقر المذكور في البقرة مع تضمنه ذكر الإخراج منها .
قالوا وأما قوله تعالى لإبليس (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) . وقولكم أن هذا
انما هو في الجنة التي في السماء وإلا لجنّة الأرض لم يمنع إبليس من التكبر فيها فهو دليل لنا
في المسئلة فإن جنة الخلد لا سبيل لإبليس إلى دخولها والتكبر فيها أصلاً . وقد أخبر تعالى
أنه وسوس لآدم وزوجه وكذبهما وغرهما وخانهما وتكبر عليهما وحسدهما وهما حينئذ
في الجنة فدل على أنها لم تكن جنة الخلد ومحال أن يصعد إليها بعد اهبطه وإخراجه منها .
قالوا والضمير في قوله اهبطوا منها إما أن يكون عائداً إلى السماء كما هو أحد القولين وعلى
هذا فيكون سبحانه قد أهبطه من السماء عقاب امتناعه من السجود وأخبر أنه ليس له أن يتكبر
ثم تكبر وكذب وخان في الجنة فدل على أنها ليست في السماء أو يكون عائداً إلى الجنة على
القول الآخر ولا يلزم من هذا القول أن تكون الجنة التي كاد فيها آدم وغره وقاسمه كاذبا
في تلك التي أهبط منها بل القرآن يدل على أنها غيرها كما ذكرناه فعلى التقديرين لا تدل الآية
على أن الجنة التي جرى لآدم مع إبليس ما جرى فيها هي جنة الخلد . قالوا وأما قولكم ان
بنى اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على الأرض التي يهبطون وهم كانوا يسيرون ويرحلون
فلذلك قيل لهم اهبطوا فهذا حق لا تنازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فإن الهبوط يدل على أن
تلك الجنة كانت أعلا من الأرض التي أهبطوا إليها وأما كونها جنة الخلد فلا ، قالوا والفرق
بين قوله اهبطوا مصرأً وقوله اهبطوا منها فإن الأول لنهاية الهبوط وغايته واهبطوا منها
متضمن لمبدئه وأوله لا تأثير له فيما نحن فيه فإن هبط من كذا إلى كذا يتضمن معنى الانتقال
من مكان عال إلى مكان سافل فأى تأثير لا ابتداء للغاية ونهايتها في تعيين محل الهبوط بأن جنة
الخلد . قالوا وأما قصة موسى أنه يلوم آدم على إخراجه من الجنة فلا يدل على أنها جنة الخلد
وقولكم لا يظن بموسى أنه يلوم آدم على إخراجه نفسه وذريته من بستان في الأرض تشنيع
لا يفيد شيئاً أفترى كان ذلك بستاناً مثل آحاد هذه البساتين المقطوعة الموهوعة التي هي عرضة
الآفات والتعب والنصب والظمأ والحرق والسقى والتلقيح وسائر وجوه النصب الذي يلحق
هذه البساتين ولا ريب أن موسى عليه الصلاة والسلام أعلم وأجمل من أن يلوم آدم على

عنه وموسى أعظم قدرا من أن يلومه على أن أخرج نفسه وذريته من بستان في الأرض ، قالوا وكذلك قول آدم يوم القيامة لما يرغب اليه الناس أن يستفتح لهم باب الجنة فيقول وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم فان ظهور هذا في كونها جنة الخلد وأنه اعتذر لهم بأنه لا يحسن منه أن يستفتحها وقد أخرج منها بخطيئته من أظهر الأدلة . قال الأولون أما قولكم ان من قال انها جنة في الأرض فهو من المتفلسفة والملاحدين والمعتزلة أو من اخوانهم فقد أوجدناكم من قال بهذا وليس من أحد من هؤلاء . ومشاركة أهل الباطل للبحق في المسئلة لا يدل على بطلانها ولا تكون اضافتها لهم موجبة لبطلانها ما لم يختص بها فان أردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء فليس كذلك وان أردتم أن هؤلاء من جملة القائلين بهذا لم يقدم شيئا . قالوا وأما قولكم وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول فنحن نطالبكم بنقل صحيح عن واحد من الصحابة ومن بعدهم من أئمة السلف فضلا عن اتفاقهم . قالوا ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع تابع خبر يصح موصولا ولا شاذا ولا مشهورا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أسكن آدم جنة الخلد التي هي دار المتقين يوم المعاد . قالوا وهذا القاضى منذر بن سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف أنها ليست جنة الخلد . فقال ونحن نوجدكم أن أبا حنيفة فقيه العراق ومن قال بقوله قد قالوا أن جنة آدم التي خلقها الله ليست جنة الخلد وليسوا عند أحد من العالمين من الشاذين بل من رؤساء المخالفين وهذه الدواوين مشحونة من علومهم . وقد ذكرنا قول ابن عيينة وقد ذكر ابن مزين في تفسيره . قال سألت ابن نافع عن الجنة المخلوقة فقال السكوت عن هذا أفضل . قالوا فلو كان عند ابن نافع أن الجنة التي أسكنها آدم هي جنة الخلد لم يشك انها مخلوقة ولم يتوقف في ذلك . وقال ابن قتيبة في كتابه غريب القرآن في قوله تعالى (وقلنا اهبطوا منها) قال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية أبى صالح هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا ولم يذكر في كتابه غيره فأين اجماع سلف الأمة وأئمتها . قالوا وأما احتجاجكم بقوله تعالى (ولكم في الأرض مستقر) عقيب قوله اهبطوا فهذا لا يدل على أنهم كانوا في جنة الخلد فان أحد الأقوال في المسئلة انها كانت جنة في السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردى في تفسيره وقد تقدم . وأيضا فان قوله (ولكم في الأرض مستقر) يدل على أن لهم مستقرا إلى حين في الأرض المنقطعة عن الجنة ولا بد فان الجنة أيضا لها أرض . قال تعالى عن أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعلم أجر العاملين) فدل على أن قوله (ولكم في الأرض مستقر) المراد به الأرض الحالية من

قال الآخرون بل الجنة التي أسكنها آدم عند سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد ومن قال انها كانت جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملاحدين والمعتزلة أو من اخوانهم المتكلمين المبتدعين فان هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة والسكران يرد هذا القول وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول قال تعالى (واذ قلنا للبلائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابي واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين) فقد أخبر سبحانه أنه أمرهم بالهبوط وان بعضهم لبعض عدو ثم قال (ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين) وهذا بين انهم لم يكونوا في الأرض وانما اهبطوا الى الأرض فانهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا منها الى أرض أخرى كما انتقل قوم موسى من أرض الى أرض كان مستقرهم ومتاعهم الى حين في الأرض قبل الهبوط كما هو بعده وهذا باطل . قالوا وقد قال تعالى في سورة الاعراف لما قال إبليس (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) يبين اختصاص الجنة التي في السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الأرض فان إبليس كان غير ممنوع من التكبر فيها والضمير في قوله منها عائد الى معلوم وان كان غير مذكور في اللفظ لأن العلم به أغنى عن ذكره . قالوا وهذا بخلاف قوله (اهبطوا مصر) فان لكم ما سأتم) فانه لم يذكر هنا ما اهبطوا منه وإنما ذكر ما اهبطوا إليه بخلاف إهباط إبليس فانه ذكر مبدأ هبوطه وهو الجنة والهبوط يكون من علو الى سفلى وبنو اسرائيل كانوا بحبال السراة المشرفة على مصر الذي يهبطون اليه ومن هبط من جبل إلى واد قيل له اهبط . قالوا وأيضا فبنو اسرائيل كانوا يسيرون ويرحلون والذي يسير ويرحل إذا جاء بلدة يقال نزل فيها لأن من عادته أن يركب في مسيره فإذا وصل نزل عن دوابه ويقال نزل العدو بأرض كذا ونزل القفل ونحوه ولفظ النزول كلفظ الهبوط فلا يستعمل نزل وهبط إلا إذا كان من علو الى سفلى وقال تعالى عقب قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فهذا دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون والقرآن صريح في أنهم انما صاروا اليه بعد الالهباط . قالوا ولو لم يكن في هذه إلا قصة آدم وموسى لكانت كافية فان موسى صلى الله عليه وسلم انما لام آدم عليه السلام لما حصل له ولذريته من الخروج من الجنة من التمسك والمشقة فلو كانت بستانا في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض

السموات ليس بمكان للطين الأرضي المتغير الرائحة الذي قد أنتن من تغيره وإنما محله هذا الأرض التي هي محل المتغيرات والفسادات وأما ما كان فوق الأفلاك فلا يلحقه تغير ولا نتن ولا فساد ولا استحالة . قالوا وهذا أمر لا يرتاب فيه العقلاء . قالوا وقد قال تعالى (وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) فأخبر سبحانه أن هذا العطاء في الجنة الخلد غير مقطوع وما أعطيه آدم فقد انقطع فلم تكن تلك الجنة الخلد . قالوا وأيضاً فلا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم في الأرض كما تقدم ولم يذكر في قصته أنه نقله إلى السماء ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لسكان هذا أولى بالذكر لأنه من أعظم أنواع النعم عليه وأكبر أسباب تفضيله وتشريفه وأبلغ في بيان آيات قدرته وربوبيته وحكمته وأبلغ في بيان المقصود من عاقبة المعصية وهو الإهباط من السماء التي نقل إليها كما ذكر ذلك في حق إبليس حيث لم يجيء في القرآن ولا في السنة حرف واحد أنه نقله إلى السماء ورفع له إليها بعد خلقه في الأرض علم أن الجنة التي أدخلها لم تكن هي الجنة الخلد التي فوق السموات قالوا وأيضاً فإنه سبحانه قد أخبر في كتابه أنه لم يخلق عباده عبثاً ولا سدى وأنكر على من زعم ذلك فدل على أن هذا مناف لحكمته ولو كانتا الجنة آدم هي الجنة الخلد لسكانوا قد خلقوا في دار لا يؤمرون فيها ولا ينهون وهذا باطل بقوله (أحسب الإنسان أن يترك سدى) قال الشافعي وغيره معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال (أحسبتم أنا خلقناكم عبثاً) فهو تعالى لم يخلقهم عبثاً ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها . قالوا وأيضاً فإنه خلقها جزاء للعاملين بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) وجزاء للمتقين بقوله (ولنعم دار المتقين) ودار الثواب بقوله (ثواب من عند الله) فلم يكن ليسكنها إلا من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من الحور والولدان . وبالجملة فخيمته تعالى اقتضت أنها لا تنال إلا بعد الابتلاء والامتحان والصبر والجهاد وأنواع الطاعات وإذا كان هذا مقتضى حكمته فإنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مطابق لها . قالوا فإذا جمع ما أخبر الله عز وجل به من أنه خلقه من الأرض وجعله خليفة في الأرض وأن إبليس وسوس له في مكانه الذي أسكنه فيه بعد أن أهبط إبليس من السماء وأنه أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة وأن دار الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم وأن من دخلها لا يخرج منها أبداً وأن من دخلها ينعم لا يبؤس وأنه لا يخاف ولا يحزن وأن الله سبحانه حرّمها على الكافرين وعدو الله إبليس أكفر الكافرين فحال أن يدخلها أصلاً لا دخول عبور ولا دخول قرار وأنها دار نعم لا دار ابتلاء وامتحان إلى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف الجنة الخلد للجنة التي أسكنها آدم إذا جمع ذلك بعضه إلى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصره المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان

أنه هو آدم فلو كان قد أسكنه دار الخلود فوق السماء لم يظهر للملائكة وقوع الخبز ولم يحتاجوا إلى أن يبين لهم فضله وشرفه وعلبه المتضمن رد قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فانهم إنما سألوا هذا السؤال في حق الخليفة المجمعول في الأرض فأما من هو في دار الخلد فوق السماء فلم تتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد في الأرض ولا كان اظهار فضله وشرفه وعلبه وهو فوق السماء رادا لقولهم وجوابا لسؤالهم بل الذي يحصل به جوابهم ضد ما توهموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه وهو في محل خلافته التي خلق لها وتوهمت الملائكة أنه لا يحصل منه هناك إلا ضدها من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تأمله وأما اسم الفاعل وهو جاعل وإن كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى في المستقبل من جعله الخليفة في الأرض وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به وهذا ظاهر في أنه من أول الأمر جعله خليفة في الأرض وأما جعله في السماء أولا ثم جعله خليفة في الأرض ثانياً وإن كان مما لا يتنافى الاستخلاف المذكور فهو مما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل يقتضى ظاهره خلافه فلا يصار إليه إلا بدليل يوجب المصير إليه وحوله ندندن . قالوا وأيضا فمن المعلوم الذي لا يخالف فيه مسلم أن الله سبحانه خلق آدم من تراب وهو تراب هذه الأرض بلا ريب كما روى الترمذى في جامعه من حديث عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وقد رواه الإمام أحمد في مسنده من طرق عدة وقد أخبر سبحانه أنه خلقه من تراب وأخبر أنه خلقه من سلاله من طين وأخبر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون والصلصال قيل فيه هو الطين اليابس الذي له صلصلة مالم يطبخ فاذا طبخ فهو نثار . وقيل فيه هو المتغير الرائحة من قولهم صل إذا أنتن والحما الطين الأسود المتغير والمستنون قيل المصبوب من سنفن الماء إذا صببته وقيل المتفن المسن من قولهم سنفن الحجر على الحجر إذا حككته فاذا سال بينهما شيء فهو سنين ولا يكون إلا منتئا وهذه كلها أطوار التراب الذي هو مبدؤه الأول كما أخبر عن خلق الذرية من نقطة ثم من علقه ثم من مضغة وهذه أحوال النطفة التي هي مبدأ الذرية ولم يخبر سبحانه أنه رفعه من الأرض إلى فوق السموات لا قبل التخليق ولا بعده وإنما أخبر عن اسجد الملائكة له وعن إدخاله الجنة وما جرى له مع إبليس بعد خلقه فأخبر سبحانه بالأمور الثلاثة في نسق واحد مرتبطا بعضها ببعض . قالوا فأين الدليل الدال على اصعاد مادته واصعاده بعد خلقه إلى فوق السموات هذا مما لا دليل لكم عليه أصلا ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به . قالوا ومن المعلوم أن ما فوق

عليكم قالوا وعليك السلام ثم رجع إلى ربه فقال ان هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويدا مقبوضتان اختر أيتهما شئت فقال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته قال أي رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فاذا كل انسان مكتوب عمره بين عينيه فاذا رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال يارب من هذا قال هذا ابنك داود وقد كتبت له عمراً أربعين سنة قال يارب زد في عمره قال ذاك الذي كتبت له قال أي رب فاني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ماشاء الله ثم اهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأناه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت أليس قد كتبت لي ألف سنة قال بلى والله كنتك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسى فنسيت ذريته قال فمن يومئذ أمر بالكتب والشهود هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وروى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قالوا فهذا صريح في أن آدم لم يكن مخلوقاً في دار الخلد التي لا يموت من دخلها وإنما خلق في دار الفناء التي جعل الله لها ولائها أجلاً معلوماً وفيها أسكن . فان قيل فاذا كان آدم قد علم أن له عمراً ينتهي اليه وأنه ليس من الخالدين فكيف لم يكذب ابليس ويعلم بطلان قوله حيث قال له (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) بل جوز ذلك وأكل من الشجرة طمعاً في الخلد . فالجواب ما تقدم من الوجهين اما أن يكون المراد بالخلد المسكت الطويل لا أبداً لا أبداً أو يكون عدوه ابليس لما قاسمه وزوجه وغرهما وأطعمهما بدوامهما في الجنة نسي ما قدر له من عمره . قالوا والمعلول عليه في ذلك قوله تعالى للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) وهذا الخليفة هو آدم باتفاق الناس ولما عجبت الملائكة من ذلك وقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) عرفهم سبحانه أن هذا الخليفة الذي هو جاعله في الأرض ليس حاله كما توهتم من الفساد بل أعلمه من علمي ما لا تعلمونه فأظهر من فضله وشرفه بأن علمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها و (قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) وهذا يدل على أن هذا الخليفة الذي سبق به اخبار الرب تعالى للملائكة وأظهر تعالى فضله وشرفه وأعلمه بما لم تعلمه الملائكة وهو خليفة مجعول في الأرض لافوق السماء . فان قيل قوله تعالى اني جاعل في الأرض خليفة إنما هو بمعنى سأجعل في الأرض فحسب ما له ومصيره وهذا لا ينافي أن يكون في جنة الخلد فوق السماء أولاً ثم يصير إلى الأرض للخلافة التي جعلها الله له واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال ولهذا انتصب عنه المفعول . فالجواب أن الله سبحانه أعلم ملائكته بأنه يخلقه لخلافة الأرض لا لسكنى جنة الخلود وخبره الصدق وقوله الحق وقد علمت الملائكة

التي أخبر بها الرسل لأممهم ووعدوا الرحمن عباده بالغيب فحيث ذكرت انصرف الذهن إليها دون غيرها لأنها قد صارت معلومة في القلوب مستقرة فيها ولا ينصرف الذهن إلى غيرها ولا يتوجه الخطاب إلى سواها وقد جاءت الجنة في القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان في بقعة من الأرض كقوله تعالى (انا بلوناكم كابلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصر منها مصبحين) فهذا لا ينصرف الذهن فيها إلى الجنة الخلد ولا إلى جنة آدم بحال . قالوا وما قولكم انه قد انفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وأنه لم ينازع في ذلك إلا بعض أهل البدع والضلال . واستدلوا بكم على وجود الجنة الآن فحيث لا ننازعكم فيه وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ما ذكرتم ولكن أي تلازم بين أن تكون جنة الخلد مخلوقة وبين أن تكون هي جنة آدم بعينها فكأنكم تزعمون أن كل من قال ان جنة آدم هي جنة في الأرض فلا بد له أن يقول ان الجنة والنار لم يخلقاً بعد وهذا غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تخلق بعد فإنه يقول ان جنة آدم هي في الأرض وكذلك بالعكس ان كل من قال ان جنة آدم في الأرض فيقول ان الجنة لم تخلق فأما الأول فلا ريب فيه وأما الثاني فوهم لا تلازم بينهما لا في المذهب ولا في الدليل فأنتم نصبتهم دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على انكار قولهم ورده وابطاله ولكن لا يلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث وهذا واضح . قالوا وأما قولكم ان جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنة من اللغو والعذاب وسائر الآفات التي وجد بعضها من إبليس عدو الله فهذا إنما يكون بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق . فجوابه من وجهين . أحدهما أن ظاهر الخبر يقتضي نفيه مطلقاً لقوله تعالى (لا لغو فيها ولا تأثيم) ولقوله تعالى (لا تسمع فيها لاغية) فهذا نفى عام لا يجوز تخصيصه إلا بمخصص بين والله سبحانه قد حكم بأنها دار الخلد حكماً مطلقاً فلا يدخلها إلا خالد فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر . الثاني أن ما ذكرتم إنما يصار إليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض المقاوم أنها جنة الخلد بعينها وحينئذ يتعين المصير إلى ما ذكرتم فاما إذا لم يقيم دليل سالم على ذلك ولم تجمع الأمة عليه فلا يسوغ مخالفة ما دلت عليه النصوص البينة بغير موجب والله أعلم . قالوا وما يدل على أنها ليست جنة الخلد التي وعدوا المتقون أن الله سبحانه لما خلق آدم أعلمه أن عمره أجل ينتهي إليه وأنه لم يخلقه للبقاء . ويدل على هذا ما رواه الترمذي في جامعه قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي زياب عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله يارب فقال له ربه يرحمك الله يا آدم إذ ذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملاء منهم جلوس فقل السلام

قوله (فاما يا تينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فكأنه قيل اهبطوا بهذا الشرط مأخوذاً عليكم هذا العهد وهو أنه مهما جاءكم منى هدى فمن اتبعه منكم فلا خوف عليه ولا حزن يلحقه فى الاهباط الأول إيدان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة وفى الاهباط الثانى روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداى ومصيره إلى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسرهم بالاهباط الأول وجبر من اتبع هداى بالاهباط الثانى على عادته سبحانه واطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالإخراج من الجنة وجبره بالكلمات التى تلقاها منه فتاب عليه وهداى ومن تدبر حكمته سبحانه واطفه وبره بعباده وأهل طاعته فى كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب ويذله به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعافية والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبته وعلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وان ذلك الكسر هو نفس رحمته به وبره واطفه وهو أعلم بمصلحة عبده منه ولكن العبد لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربه وصفاته لا يكاد يشعر بذلك ولا ينال رضا المحبوب وقربه والاتهاج والفرح بالدنو منه والزلفى لديه الا على جسر من الذلة والمسكنة وعلى هذا قام أمر المحبة فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك كما قيل :

تذل لمن تهوى لتحظى بقربه فككم عزة قد نالها العبد بالذل
إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن ذليلاً له فاقراً السلام على الوصل

وقال آخر :

اخضع وذل لمن تحب فليس فى شرع الهوى أنف يشال ويقعد

وقال آخر :

وما فرحت بالوصل نفس عزيزة وما العز إلا ذلها وانكسارها

. قالوا وإذا علم أن إبليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإيائه من السجود لآدم ثبت ان وسوسته له ولزوجه كانت فى غير المحل الذى أهبط منه والله أعلم . قالوا وأما قولكم ان الجنة إنما جاءت معرفة باللام وهى تنصرف إلى الجنة التى لا يعهد بنو آدم سواها فلاريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع فى خطاب الله تعالى آدم لسكنها بقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) فهى كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه عنها معرفاً لها بلام التعريف فانصرف العرف بها إلى تلك الجنة المعهودة فى الذهن وهى التى سكنها آدم ثم أخرج منها فمن أين فى هذا ما يدل على محلها وموضعها بنفى أو إثبات . وأما مجيء جنة الخلد معرفة باللام فلانها الجنة

منهم النقاش وغيره أن الهبوط الثاني انما هو من الجنة الى السماء والهبوط الاول الى الأرض وهو آخر الهبوطين في الوقوع وان كان أولهما في الذكر وقالت طائفة أتى به على جهة التخليط والتأكيد كما تقول الرجل اخرج اخرج وهذه الأقوال ضعيفة . فأما القول الأول فيظهر ضعفه من وجوه . أحدها أنه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ولا من خبر يجب المصير اليه وما كان هذا سبيله لا يحمل القرآن عليه . الثاني ان الله سبحانه قد أهبط ابليس لما امتنع من السجود لآدم اهباطاً كونياً قدرياً لا سبيل له الى التخلف عنه فقال تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) وقال في موضع آخر (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين) وفي موضع آخر (اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) وسواء كان الضمير في قوله منها راجعاً الى السماء أو الى الجنة فهذا صريح في اهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد اليها بعد اهباط الله له . وهذا وان كان ممكنًا فهو في غاية البعد عن حكمة الله ولا يقتضيه خبره فلا ينبغي أن يصار اليه . وأما الوجوه الأربعة التي ذكرتموها من صعوده للوسوسة فهي مع أمر الله تعالى بالهبوط مطلقاً وطرده ولعنه ودحوره لا دليل عليها لا من اللفظ ولا من الخبر الذي يجب المصير اليه وما هي إلا احتمالات مجردة وتقديرات لا دليل عليها . الثالث أن سياق قصة اهباط الله تعالى لابليس ظاهرة في أنه اهباط الى الأرض من وجوه . أحدها أنه سبحانه نبه على حكمة اهباطه بما قام به من التكبر المقترض غاية ذله وطرده ومعاملته بنقيض قصده وهو اهباطه من فوق السموات الى قرار الأرض ولا تقتضى الحكمة أن يكون فوق السماء مع كبره ومنافاة حاله لحال الملائكة الأكرمين . الثاني أنه قال (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين) وكونه رجيماً ملعوناً ينفي أن يكون في السماء بين المقربين المطهرين . الثالث أنه قال (اخرج منها مذموماً مدحوراً) وما سكوت السموات لايعلوه المذموم المدحور أبداً . وأما القول الثاني فهو القول الأول بعينه مع زيادة ما لا يدل عليه السياق بحال من تقديم ما هو مؤخر في الواقع وتأخير ما هو مقدم فيه فيرد بما رد به القول الذي قبله . وأما القول الثالث وهو أنه للتأكيد فان أريد التأكيد اللفظي المجرد فهذا لا يقع في القرآن وان أريد به أنه مستلزم للتخليط والتأكيد مع ما يشتمل عليه من الفائدة فصحيح فالصواب أن يقال اعيد الاهباط مرة ثانية لأنه علق عليه حكماً غير المعلق على الاهباط الأول فانه علق على الأول عداوة بعضهم بعضاً فقال (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) وهذه جملة حالية وهي اسمية بالضمير وحده عند الأكثرين . والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثاني حكماًين آخرين أحدهما هبوطهم جميعاً والثاني

في صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها فالله سبحانه فآوت بين بقاع الأرض أعظم تفاوت
وهذا مشهود بالحس فمن أين لكم أن تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الأرض بما
لا يكون إلا فيها ثم أهبطوا منها إلى الأرض التي هي محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان
وهذا بعينه هو الجواب عن استدلالكم بقوله تعالى (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) إلى
آخر ما ذكرتموه مع أن هذا حكم معلق بشرط والشرط لم يحصل فانه سبحانه انما قال ذلك
عقيب قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) وقوله (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) هو صيغة
وعد مرتبطة بما قبلها والمعنى ان اجتنبت الشجرة التي نهيتك عنها ولم تقر بها كان لك هذا الوعد
والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما أكل من الشجرة زال استحقاؤه لهذا الوعد ،
قال وأما قولكم أنه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في قوله هل أدلك على
شجرة الخلد وملك لا يبلى إلى آخره فدعوى لا دليل عليها لأنه لا دليل لكم على أن الله
سبحانه كان قد أعلم آدم حين خلقه أن الدنيا منقضية فانية وان ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير
أن يكون آدم حينئذ قد أعلم ذلك فقول ابليس هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل
على أنه أراد بالخلد مالا يتناهى فان الخلد في لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم قيد خلد
وحبس خلد وقد قال تعالى لثمود (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتخذون مصانع لعلكم
تخلدون) وكذلك قوله (وملك لا يبلى) يراد به الملك الطويل الثابت . وأيضاً فلا وجه
للاعتذار عن قول ابليس مع تحقق كذبه ومقاسمته آدم وحواء على الكذب والله سبحانه
قد أخبر أنه قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على أنهما اغترا بقوله فغرها بأن اطعتهما
في خلد الأبد والملك الذي لا يبلى وبالجملة فلا استدلال بهذا على كون الجنة التي سكنها آدم
هي جنة الخلد التي وعداها المتهقون غير بين ، ثم نقول لو كانت الجنة هي جنة الخلد التي لا يزول
ملكها لكانت جميع أشجارها شجر الخلد فلم يكن لتلك الشجرة اختصاص من بين سائر الشجر
بكونها شجرة الخلد وكان آدم يسخر من ابليس إذ قد علم ان الجنة دار الخلد . فان قلتم لعل
آدم لم يعلم حينئذ ذلك فغره الخبيث وخدعه بأن هذه الشجرة وحدها هي شجرة الخلد . قلنا
فاقنعوا منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في
ذلك لأن قوله كان خداعا وغرورا محضا على كل تقدير فانقلب دليلكم حجة عليكم وبالله
التوفيق ، قالوا ، وأما قولكم ان قصة آدم في البقرة ظاهرة جدا في أن جنة آدم كانت فوق
السماء فتحزن نظالكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم إلى إثباته قواكم أنه كرر فيه ذكر الهبوط
مرتين ولا بد أن يفيد الثاني غير ما أفاد الأول فيكون الهبوط الأول من الجنة والثاني من
السماء فهذا فيه خلاف بين أهل التفسير فقالت طائفة هذا القول الذي ذكرتموه وقالت طائفة

قالوا ونحن لا نقصد هؤلاء ولا نعتمد على ما حكى عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين قالوا وقد ذكرنا على هذا القول ما فيه كفاية * وأما الجواب المفصل فنحن نسلك على ما ذكرتم من الحجة لينكشف وجه الصواب فنقول وبالله التوفيق * أما استدلالكم بحديث أبي هريرة وحذيفة حين يقول الناس لآدم استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم فهذا الحديث لا يدل على أن الجنة التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم هي التي أخرج عنها بعينها فإن الجنة اسم جنس فكل بستان يسمى جنة كما قال تعالى (انا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) وقال تعالى (وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) وقال تعالى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة) وقال تعالى (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) إلى قوله (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) فإن الجنة اسم جنس فهم لما طلبوا من آدم أن يستفتح لهم جنة الخلد أخبرهم بأنه لا يحسن منه أن يقدم على ذلك وقد أخرج نفسه وذريته من الجنة التي أسكنه الله إياها بذنبه وخطيئته هذا الذي دل عليه الحديث . وأما كون الجنة التي أخرج منها هي بعينها التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم فلا يدل الحديث عليه بشيء من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير إلى مدلول الحديث وامتنع القول بمخالفته وهل مدارنا إلا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه . قالوا وأما استدلالكم بالهبوط وأنه نزول من علو إلى سفلى . فجوابه من وجهين : أحدهما أن الهبوط قد استعمل في النقلة من أرض إلى أرض كما يقال هبط فلان بلد كذا وكذا وقال تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) وهذا كثير في نظم العرب ونثرها قال :

إن تهبطين بلاد قـ و م يرتعون من الطلاح

وقد روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا . الثانى أنا لا تنازعكم في أن الهبوط حقيقة ما ذكرتموه ولكن من أين يلزم أن تكون الجنة التي منها الهبوط فوق السموات فإذا كانت في أعلى الأرض أما يصح أن يقال هبط منها كما يهبط الحجر من أعلى الجبل إلى أسفله ونحوه . وأما قوله تعالى (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) فهذا يدل على أن الأرض التي أهبطوا إليها لهم فيها مستقر ومتاع إلى حين ولا يدل على أنهم لم يكونوا في جنة عالية أعلى من الأرض التي أهبطوا إليها بخلاف الأرض

في كتابه . وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطية ذكر القولين في تفسيره في قصة آدم في البقرة . وهذا أبو محمد بن حزم ذكر القولين في كتاب الملل والنحل له . فقال وكان المنذر بن سعيد القاضي يذهب إلى أن الجنة والنار مخلوقتان إلا أنه كان يقول أنها ليست هي التي كان فيها آدم وامراته ومن حكى القولين أيضاً أبو عيسى الرمانى في تفسيره واختار أنها جنة الخلد . ثم قال والمذهب الذى اخترناه قول الحسن وعمر بن واصل وأكثر أصحابنا وهو قول أبي علي وشيخنا أبي بكر وعليه أهل التفسير ومن ذكر القولين أبو القاسم الراغب في تفسيره . فقال واختلف في الجنة التي أسكنها آدم فقال بعض المتكلمين كان بستانا جعله الله له امتحانا ولم يكن جنة المأوى ثم قال ومن قال لم يكن جنة المأوى لأنه لا تكليف في الجنة وآدم كان مكلفا . قال وقد قيل في جوابه أنها لا تكون دار التكليف في الآخرة ولا يتمتع أن تسكون في وقت دار تكليف دون وقت كما أن الانسان يكون في وقت مكلفا دون وقت . ومن ذكر الخلاف في المسئلة أبو عبد الله بن الخطيب الرازى في تفسيره فذكر هذين القولين وقولا ثالثا وهو التوقف قال لا مكان للجميع وعدم الوصول إلى القطع كما سيأتى حكاية كلامه ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول وهو أنها لم تكن جنة الخلد إنما كانت حيث شاء الله من الأرض وقالوا كانت تطلع فيها الشمس والقمر وكان ابليس فيها ثم أخرج قال ولو كانت جنة الخلد لما أخرج منها . ومن ذكر القولين أيضا أبو الحسن الماوردى فقال في تفسيره واختلف في الجنة التي أسكنها على قولين . أحدهما أنها جنة الخلد . الثانى أنها جنة أعداها الله لها وجعلها دار ابتلاء وإيسر جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين . أحدهما أنها في السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن . الثانى أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التي نهى عنها دون غيرها من الثمار وهذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر ابليس بالسجود لآدم والله أعلم بصواب ذلك هذا كلامه وقال ابن الخطيب في تفسيره اختلفوا في أن الجنة المذكورة في هذه الآية هل كانت في الأرض أو في السماء وبتقدير أنها كانت في السماء فهل هي الجنة التي هي دار الثواب وجنة الخلد أو جنة أخرى فقال أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الاصبهاني هذه الجنة في الأرض وحملوا الابهاط على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى اهبطوا مصراً . القول الثانى وهو قول الجبائى أن تلك كانت في السماء السابعة قال والدليل عليه قوله اهبطوا ثم ان الابهاط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى والابهاط الثانى كان من السماء إلى الأرض . والقول الثالث وهو قول جمهور أصحابنا أن هذه الجنة هي دار الثواب والدليل عليه هو أن الآلف واللام في لفظ الجنة لا يفيد العموم لأن سكنى آدم جميع الجنان محال فلا بد من صرفها إلى المعبود السابق والجنة المعبودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب فوجب صرف اللفظ اليها قال : والقول الرابع أن السكل ممكن والادلة العقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع .

يوم القيامة كما يدل عليه سياق الكلام وهذا لا ينبغي أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله عز وجل من الامتحان والابتلاء ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله عز وجل به فلا تنافي بين الأمرين . قالوا وأما قولكم ان الجنة دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله سبحانه آدم فيها بالنهي عن الشجرة . فجوابه من وجهين * أحدهما أنه إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة حينئذ ينقطع التكليف وأما امتناع وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل عليه . الثاني أن التكليف فيها لم يكن بالأعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وإنما كان حجراً عليه في شجرة من جملة أشجارها وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها فإن أردتم بأن الجنة ليست دار تكليف امتناع وقوع مثل هذا فيها في وقت من الأوقات فلا دليل لكم عليه وإن أردتم أن غالب التكليف التي تكون في الدنيا متفتية فيها فهو حق ولكن لا يدل على مطلوبكم . قالوا وهذا كما أنه موجب الأدلة وقول سلف الأمة فلا يعرف بقولكم قائل من أئمة العلم ولا يرجع عليه ولا يلتفت إليه . قال ، الأولون الجواب عما ذكرتم من وجهين بجملة ومفصل . أما الجمل فأنكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير إليه لا من قرآن ولا من سنة ولا أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا التابعين لأمسندا ولا مقطوعاً . ونحن نوجدكم من قال بقولنا . هذا أحد أئمة الإسلام سفيان بن عيينة قال في قوله عز وجل (ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) قال يعنى في الأرض وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال في معارفه بعد أن ذكر خلق الله لآدم وزوجه ان الله سبحانه أخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي منها أخذ وهذا أبى قد حكى الحسن عنه أن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقميتهم الملائكة فقالوا أين تريدون يا بنى آدم قالوا إن أبانا اشتهى قطعاً من قطف الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد كفيتموه فانتهموا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سننكم في موتاكم . وهذا أبو صالح قد نقل عن ابن عباس في قوله اهبطوا منها قال هو كما يقال هبط فلان في أرض كذا وكذا وهذا وهب بن منبه يذكر أن آدم خلق في الأرض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس وأنه كان بعدن وإن سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذي كان في وسط الجنة وهو الذي كان يسقيها ، وهذا منذر بن سعيد البلوطي اختاره في تفسيره ونصره بما حكيناه عنه وحكاه في غير التفسير عن أبي حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله في هذه المسألة . وهذا أبو مسلم الاصبهاني صاحب التفسير وغيره أحد الفضلاء المشهورين قال بهذا وانتصر له واحتج عليه بما هو معروف

فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها الحديث وفي الصحيحين في حديث الاسراء ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا ورقها مثل آذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذا يا جبريل قال أما النهران الظاهران فالنيل والفرات وأما الباطنان فنهران في الجنة . وفيه أيضاً ثم أدخلت الجنة فاذا جناذب اللؤلؤ وإذا ترابها المسك وفي صحيح البخارى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قال قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر . وفي صحيح مسلم في حديث صلاة الكسوف أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل يتقدم ويتأخر في الصلاة ثم أقبل على أصحابه فقال انه عرضت لى الجنة والنار فقربت منى الجنة حتى لو تناولت منها قطفا لأخذته فلو أخذته لا كلمت منه ما بقيت الدنيا . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود في قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شامت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً فقالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث . وفي الصحيح حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ عنا إخواننا أنا في الجنة نرزق لئلا يزهوا في الجهاد ولا يشكوا عند الحرب فقال الله أنا أبلغهم عنكم فانزل الله عز وجل (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله) الآية . وفي الموطأ من حديث كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه وفي البخارى أن إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن له مرضعاً في الجنة . وفي صحيح البخارى عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلمعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلمعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء . والآثار في هذا الباب أكثر من أن تذكر وأما القول بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد . فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزلة ومن قال بقولهم وهم الذين يقولون ان الجنة التى أهبط منها آدم إنما كانت جنة بشرى الأرض وهذه الإحاديث وأمثالها ترد قولهم . قالوا وأما احتجاجكم بسائر الوجوه التى ذكرتموها في الجنة وأنها مفتتحة في الجنة التى أسكنها آدم من الغو والكذب والنصب والعري وغير ذلك فهذا كله حق لا ننكره نحن ولا أحد من أهل الاسلام ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمنون

وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة فعلم أن هذا اقتضاه حكم الزوجية وانها صارت إلى ماصار إليه آدم فكان تجريد العناية إلى ذكر الأبوين اللذين هما أصل الذرية أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الانس وأمهم والله أعلم وبالجملة فقلوه (اهبطوا بعضهم لبعض عدو) ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله اهبطا . قالوا وأما قولكم انه كيف وسوسله بعد اهباطه منها ومحال أن يصعد إليها بعد قوله تعالى اهبط . فجوابه من وجوه * أحدهما أنه أخرج منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها داراً فمن أين لكم أنه منع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدم وزوجه ويكون هذا دخولا عارضا كما يدخل مشرط دار من امروا بابتلائه ومحنته وان لم يكونوا اهلا لسكنى تلك الدار * الثاني انه كان يدنو من السماء فيكلمهم مولا يدخل عليهما دارهما * الثالث انه لعله قام على الباب فتناداهما وقاسمهما ولم يبلغ الجنة الرابع انه قد روى انه اراد الدخول عليهما فممنعه الخزنة فدخل في فم الحية حتى دخلت به عليهما ولا يشعر الخزنة بذلك . قالوا وبما يدل على انها جنة الخلد بعينها انها جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) ولا جنة يعدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الاسم علماً عليها بالغلبة وإن كان في أصل الوضع عبارة عن البستان ذى الثمار والفواكه وهذا كالمدينة لطيبة والنجم للثريا ونظائرها فحيث ورد اللفظ معرقاً بالآلف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين . وأما ان أريد به جنة غيرها فانها تجيء منكراً كقوله (بجنّتين من أعناب) أو مقيدة بالإضافة كقوله (ولولا إذ دخلت جنتك) أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض كقوله (إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) الآيات فهذا السياق والتقييد يدل على أنها بستان في الأرض . قالوا وأيضاً فانه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وقد تواترت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالى لا يدخلنى إلا الجبارون والمتكبرون فقال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابتى أعذب بك من أشاء الحديث وفي السنن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها قال

(٢ — مفتاح ١)

آدم وزوجه فان الله سبحانه أخبر في كتابه أنه خلقها منه ليسكن اليها وقال سبحانه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه وجعل العداوة بين آدم وابلis وذريتهما ويدل عليه أيضاً عود الضمير اليهم بلفظ الجمع . وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وابلis في قولهم فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما فهو لاء ثلاثة آدم وحواء وابلis فلهاذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرتهم لطريق الكلام ولا يعود على جميع المذكور مع أنه وجه الكلام . فان قيل فما تصنعون بقوله في سورة طه : (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) وهذا خطاب لآدم وحواء . وقد أخبر بعداوة بعضهم بعضا قيل اما أن يكون الضمير في قوله اهبطا راجعا إلى آدم وزوجه أو يكون راجعا إلى آدم وابلis ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له وعلى الثاني فالعداوة المذكورة للخطابين بالاهباط وهما آدم وابلis وعلى الأول تكون الآية قد اشتملت على أمرين . أحدهما أمره لآدم وزوجه بالهبوط . والثاني جعله العداوة بين آدم وزوجه وابلis ولا بد أن يكون أبلis داخلا في حكم هذه العداوة قطعاً كما قال تعالى إن هذا عدو لك ولزوجه ، وقال لذريتہ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وتأمل كيف انفقت المواضع التي فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنية . واما ذكر الاهباط فتارة يأتي بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنية وتارة يأتي بلفظ الافراد لا بابلis وحده . كقوله تعالى في سورة الاعراف (قال ما منعك أن لاتسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فهذا الاهباط لا بابلis وحده والضمير في قوله منها قيل أنه عائد إلى الجنة وقيل عائد إلى السماء وحيث أتى بصيغة الجمع كان لآدم وزوجه وابلis إذ مدار القصة عليهم وحيث أتى بلفظ التثنية فاما ان يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الاكل من الشجرة واقدماء على المعصية . واما ان يكون لآدم وابلis إذ هما ابوا الثقلين فذكر حالهما وما آل اليه أمرهما ليسكون عظة وعبرة لأولادهما والقولان محكيان في ذلك وحيث أتى بلفظ الافراد فهو لا بابلis وحده . وأيضاً فالذي يوضح أن الضمير في قوله اهبطا منها جميعاً لآدم وابلis ان الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباها ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً) وهذا يدل على أن المخاطب بالاهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعاً وهذا لأن المقصود اخبار الله تعالى لعباده المكلفين من الجن والإنس بما جرى على أبيهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر لئلا يقتدوا بهما في ذلك فذكر أبو الثقلين أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنس فقط وقد أخبر سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم وأخبر أنه اهبطه

أن يستفتحها لهم قالوا ويدل عليه أن الله سبحانه (قال يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) إلى قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) عقيب قوله اهبطوا فدل على أنهم لم يكونوا أولاً في الأرض وأيضاً فإنه سبحانه وصف الجنة التي أسكنها آدم بصفات لا تكون في الجنة الدنيوية فقال تعالى (إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تظلم فيها ولا تضحى) وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً ولو كان الرجل في أطيب منازلها فلا بد أن يعرض له الجوع والظلم والتعري والضحى للشمس وأيضاً فإنها لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى وأيضاً فإن قصة آدم في البقرة ظاهرة جداً في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما عما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) . فهذا اهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقيل إنه خطاب لهم وللجنة وهذا يحتاج إلى نقل ثابت لإدلال ذكر للجنة في شيء من قصة آدم وإبليس . وقيل خطاب لآدم وحواء وأتى فيه بلفظ الجمع كقوله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) . وقيل لآدم وحواء وذريتهما . وهذه الأقوال ضعيفة غير الأولى لأنها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل ظاهر الخطاب على خلافه فثبت أن إبليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهيئين من الجنة . ثم قال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الاهباط الثانى لابد أن يكون غير الأول وهو اهباطه من السماء إلى الأرض وحينئذ فتكون الجنة التي اهبطوا منها أولاً فوق السماء وهى جنة الخلد وقد ذهبت طائفة منهم الزحشرى إلى أن قوله اهبطوا منها جميعاً خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستبعا عما ذريتهما . قال والدليل عليه قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى) وقال ويدل على ذلك قوله (فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أو أئامك أصحاب النار هم فيها خالدون) وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم ومعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادى والتباغض وتضليل بعضهم لبعض . وهذا الذى اختاره أضعف الأقوال فى الآية فإن العداوة التى ذكرها الله إنما هى بين آدم وإبليس وذريتهما كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) . وأما

ولا دار البقاء وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قائل للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة وكيف أخبر الملائكة أنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة ثم يسكنه دار الخلود ودار الخلود لا يدخلها إلا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالأسماء التي تقدم ذكرنا لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها فاذا قيل للجنة دار الخلد لم يجوز أن ينقص مسمى هذا الاسم بحال فهذا بعض ما احتج به القائلون بهذا المذهب وعلى هذا فاسكان آدم وذريته في هذه الجنة لا ينافي كونهم في دار الابتلاء والامتحان وحينئذ كانت تلك الوجوه والفوائد التي ذكرتموها ممكنة الحصول في الجنة (فالجواب) أن يقال هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين ونبين ثبوت الوجوه التي ذكرناها وأمثالها على كلا القولين ونذكر أولاً قول من قال انها جنة الخلد التي وعدّها الله المتقين وما احتجوا به وما نقضوا به حجج من قال انها غيرها ثم نتبعها بمقالة الآخرين وما احتجوا به وما أجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وابطال الآخر إذ ليس غرضنا ذلك وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لاجراج آدم من الجنة واسكانه في الأرض في دار الابتلاء والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة الله سبحانه تأتي ادخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذي أخرج منها به وأنه أي فائدة في ذلك والرد على أن من أبطل أن يكون له في ذلك حكمة وإنما هو صادر عن محض المشيئة التي لا حكمة وراءها ولما كان المقصود حاصل على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد أو غيرها بنينا الكلام على التقديرين ورأينا أن الرد على هؤلاء بدبوس السلاق (١) لا يحصل غرضاً ولا يزيل مرضاً فسلـكنا هذا السبيل ليكون قولهم مردوداً على كل قول من أقوال الأمة وبالله المستعان وعليه التسلـك ولا حول ولا قوة الا بالله فنقول أما ما ذكرتموه من كون الجنة التي أهبط منها آدم ليست جنة الخلد وإنما هي جنة غيرها فهذا مما قد اختلف فيه الناس والاشهر عند الخاصة والعامة الذي لا يخطر بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التي أعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الاشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة وأبو مالك عن ربيع بن حراش عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الله عز وجل الناس حتى يزلف لهم الجنة فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا أبا ناس استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة الا خطيئة أبيكم آدم وذكر الحديث قالوا فهذا يدل على أن الجنة التي أخرج منها آدم هي بهيئتها التي يطلب منه

ان ابليس لم يصل اليها ولكن وسوسته وصلت . فهذا قول يشبه قائله ويشاكل معتقده وقول الله تعالى حكم بيننا وبينه وقوله تعالى وقاسمهما يردهما قال لأن المقاسمة ليست وسوسة ولكنها مخاطبة ومشافهة ولا تكون إلا من اثنين شاهدين غير غائبين ولا أحدهما وبما يدل على أن وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالى (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فأخبر أنه قال له ودل ذلك على أنه انما وسوس إليه مخاطبة لا أنه أوقع ذلك في نفسه بلا مقابلة فمن ادعى على الظاهر تأويلا ولم يقم عليه دليلا لم يجب قبول قوله وعلى أن الوسوسة قد تكون كلاما مسموعا أو صوتا قال رؤبة :

* وسوس يدعو مخلصا رب الفلق *

وقال الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت * كما استعان بريح عشرق زجل
قالوا وفي قول ابليس لهما ما فيها كما ربكنا عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة
* ولما كان آدم خارجا من الجنة وغير ساكن فيها قال الله (ألم أنهكما عن تلكا الشجرة)
ولم يقل عن هذه الشجرة كما قال له ابليس لأن آدم لم يكن حينئذ في الجنة ولا مشاهدا
للشجرة مع قوله عز وجل (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) فقد أخبر
سبحانه خبرا محكما غير مشتببه أنه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح وهذا بما قدمنا
ذكره أنه لا يبلغ المقدس المطهر إلا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله أن تكون وسوسة ابليس
مقدسة أو طاهرة أو خيرا بل هي شر كلها وظلمة وخبيث ورجس تعالى الله عن ذلك علوا
كبيرا وكما أن أعمال الكافرين لا تلج القدس الطاهر ولا تصل إليه لأنها خبيثة غير طيبة
كذلك لا تصل ولم تصل وسوسة ابليس ولا ولجت القدس قال تعالى (كلا ان كتاب الفجار
لنئى سجين) * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان آدم نام في جنة وجنة الخلد لا نوم
فيها باجماع من المسلمين لأن النوم وفاة وقد نطق به القرآن والوفاة تقلب حال ودار السلام
مسئلة من تقلب الأحوال والنائم ميت أو كلميت قالوا وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم
أنه قال لأم حارثة لما قالت له يا رسول الله ان حارثة قتل معك فان كان ضار إلى الجنة
صبرت واحتسبت وان كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله صلى
الله عليه وسلم أو جنة واحدة هي انما هي جنان كثيرة فأخبر صلى الله عليه وسلم ان لله جنات
كثيرة فلعل آدم أسكنه الله جنة من جناته ليست هي جنة الخلد قالوا وقد جاء في بعض
الأخبار ان جنة آدم كانت بأرض الهند قالوا وهذا وان كان لا يصححه رواية الأخبار
ونقلة الآثار فالذى تقبله الأبواب ويشهد له ظاهر الكتاب أن جنة آدم ليست جنة الخلد

اياه . وقد شرب آدم من شرابها الذى سماه فى كتابه شرابا طهورا أى مطهرا من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يطهر من تلك الآفات . وسماها الله تعالى مقعد صدق وقد كذب ابليس فيها آدم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون لم يكن فيه استحالة قط ولا تبديل ولا يكون باجماع المصلين والجنة فى أعلى عليين والله تعالى انما قال انى جاعل فى الأرض خليفة ولم يقل انى جاعله فى جنة المأوى فقالت الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء والملائكة اتقى الله من أن تقول مالا تعلم وهم القائلون لا علم لنا إلا ما علمتنا . وفى هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بنى آدم سيفسدون فى الأرض والا فكيف كانوا يقولون مالا يعملون والله تعالى يقول وقوله الحق (لا يستبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير . قال الله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) والله تعالى أخبرنا أن ابليس قال لآدم (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فان كان قد أسكن الله جنة الخلد والملك الذى لا يبلى فكيف لم يرد عليه نصيحته ويكذبه فى قوله فيقول وكيف تدلنى على شيء أنا فيه قد أعطيته واخترته بل كيف لم يحث التراب فى وجهه ويسميه لأن ابليس لأن كان يكون بهذا الكلام مغويا له انما كان يكون زاريا عليه لأنه انما وعده على معصية ربه بما كان فيه لا زائدا عليه . ومثل هذا لا يخاطب به إلا الجانين الذين لا يعقلون لأن العوض الذى وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه وهو الخلد والملك الذى لا يبلى ولم يخبر الله آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن إلى قول ابليس ولا قبل نصيحته واسكنه لما كان فى غير دار خلود غره بما أطعمه فيه من الخلد فقبل منه ولو أخبر الله آدم أنه فى دار الخلد ثم شك فى خبر ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا لأن من شك فى خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ما أمره الله به وهو معتقد للتصديق بخبر ربه فهو عاص . وانما سعى الله آدم عاصيا ولم يسمه كافرا . قالوا فان كان آدم أسكن جنة الخلد وهى دار القدس التى لا يدخلها إلا طاهر مقدس فكيف توصل اليها ابليس الرجس الملعون المذموم المدحور حتى فتن فيها آدم وابليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولا يدخلها فاسق البتة انما هى دار المتقين وابليس غير تقى فبعد أن قيل له (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) انفسح له أن يرتقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والابعاد له بالعن والاستكبار هذا مضاد لقوله تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فان كانت مخاطبة آدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبرا فليس تعقل العرب التى أنزل القرآن بلسانها ما التكبر . ولعل من ضعفت رويته وقصر بحشه أن يقول

منزلهم منها بأجنس الحظ وأنقص الثن وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمناً للجنة فريحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم . قال الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة) فهو سبحانه ما أخرج آدم منها إلا وهو يريد أن يعيده اليها أكمل إعادة كما قيل على لسان القدر يا آدم لا تجزع من قولي لك اخرج منها فلك خلقتها فاني أنا الغنى عنها وعن كل شيء . وأنا الجواد الكريم وأنا لا أمتنع فيها فاني أطعم ولا أطعم وأنا الغنى الحميد ولكن انزل إلى دار البذر فاذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه وصار حصيداً حينئذ فتعال فاستوفه أحوج ما أنت اليه الحبة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة فاني أعلم بمصلحتك منك وأنا العلي الحكيم ﴿ فان قيل ما ذكرتموه من هذه الوجوه وأمثالها إنما يتم إذا قيل أن الجنة التي أسكنها آدم وأهبط منها جنة الخلد التي أعدت للبتقين والمؤمنين يوم القيامة وحينئذ يظهر سر اهباطه واخراجه منها ﴾ ولكن قد قالت طائفة منهم أبو مسلم ومنذر بن سعيد البلوطي وغيرهما انها كانت جنة في الأرض في موضع عال منها لا أنها جنة المأوى التي أعدها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة . وذكر منذر بن سعيد هذا القول في تفسيره عن جماعة فقال وأما قوله لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فقالت طائفة أسكن الله تعالى آدم ^{صلى الله عليه وسلم} جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة وقال آخرون هي جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه اياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به لأن الجنة التي تدخل بعد القيامة هي من حيز الآخرة وفي اليوم الآخر تدخل ولم يأت بعد وقد وصفها الله تعالى لنا في كتابه بصفاتها ومحال أن يصف الله شيئاً بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفها به والقول بهذا دافع لما أخبر الله به وقالوا وجدنا الله تبارك وتعالى وصف الجنة التي أعدت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المقامة ولم يقم آدم فيها ووصفها بأنها جنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ووصفها بأنها دار جزاء ولم يقل أنها دار ابتلاء وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بأنها ليس فيها حزن وأن الداخلين اليها يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقد حزن فيها آدم وجدناه سماها دار السلام ولم يسلم فيها آدم من الآفات التي تكون في الدنيا وسماها دار القرار ولم يستقر فيها آدم وقال فيمن يدخلها وما هم منها بمخرجين وقد أخرج منها آدم بمعصيته وقال لا يمسه فيها نصب وقد ند آدم فيها هارباً فاراً عند أصابته المعصية وطلق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب بعينه الذي نفاه الله عنها وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم فيها آدم وأسمع فيها ما هو أكبر من اللغو وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كذب وقد أسمع فيها إبليس السكذب وغره وقاسمه عليه أيضاً بعد أن أسمع

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

فسر هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى سبق في حكمه وحكمته أن الغايات المطلوبة لا تتأل إلا بأسبابها التي جعلها الله أسباباً مفضية إليها ومن تلك الغايات أعلى أنواع النعيم وأفضلها وأجلها فلا تتأل إلا بأسباب نصبها مفضية إليها وإذا كانت الغايات التي هي دون ذلك لا تتأل إلا بأسبابها مع ضعفها وانقطاعها كتحصيل المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه في الدنيا فكيف يتوهم حصول أعلى الغايات وأشرف المقامات بلا سبب يفضي إليه ولم يكن تحصيل تلك الأسباب إلا في دار المجاهدة والحرب فكان اسكان آدم وذريته هذه الدار التي ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من إتمام انعامه عليهم وسرها أيضاً أنه سبحانه جعل الرسالة والنبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ونهايات كمالهم فأنزلهم داراً أخرج منهم الأنبياء وبعث فيها الرسل واتخذ منهم من اتخذ خليلاً وكلم موسى تكليماً واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيداً وخاصة يحبهم ويحبونه وكان إنزالهم إلى الأرض من تمام الانعام والاحسان . وأيضاً أنه أظهر لخلقهم من آثار أسمائه وجريان أحكامها عليهم ما اقتضته حكمته ورحمته وعلمه . وسرها أيضاً أنه تعرف إلى خلقه بأفعاله وأسمائه وصفاته وما أحدثه في أوليائه وأعدائه من كرامته وانعامه على الأولياء وإهانته وإشقيائه للاعداء ومن أجابته دعواتهم وقضائه حوائجهم وتفريج كرباتهم وكشف بلاثهم وتصريفهم تحت أقداره كيف يشاء وتقليبهم في أنواع الخير والشر فكان في ذلك أعظم دليل لهم على أنه ربهم ومليكهم . وأنه الله الذي لا إله إلا هو وأنه العليم الحكيم السميع البصير وأنه الإله الحق وكل ماسواه باطل فتنظرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الأرض وتنوعت وقامت من كل جانب فعرفه الموفقون من عباده وأقروا بتوحيده إيماناً واذعاناً وجحدته الخذلون على خليقته وأشركوا به ظلاماً وكفراناً فهلك من هلك عن بينة وحى من حى بينة والله سميع عليم . ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة في الأرض ورأى آثارها . علم تمام حكمته في اسكان آدم وذريته في هذه الدار إلى أجل معلوم فآله سبحانه إنما خلق الجنة لآدم وذريته وجعل الملائكة فيها خدماً لهم . ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم داراً يتزودون منها إلى الدار التي خلقت لهم وأنهم لا ينالونها إلا بالزاد كما قال تعالى في هذه الدار (وتحمل أنفاسكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم) فهذا شأن الانتقال في الدنيا من بلد إلى بلد فكيف الانتقال من الدنيا إلى دار القرار . وقال تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فباع المغبونون

موجباً بمجردة لدخول الجنة ولا عوضاً لها فإن أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذى يحبه الله ويرضاه فهى لا تقاوم نعمة الله التى أنعم بها عليه فى دار الدنيا ولا تعادلها بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها فى مقابلة اليسير من نعمه وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه فى هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له ولو رحمه لمكانت رحمته خيراً له من عمله كما فى السنن من حديث زيد بن ثابت وحذيفة وغيرهما مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لمكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم والمقصود أن حكمته سبحانه اقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارته بآدم وذريته وإنزالهم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة ، وأيضاً فإنه سبحانه خلق آدم وذريته ليستخلفهم فى الأرض كما أخبر سبحانه فى كتابه بقوله (إني جاعل فى الأرض خليفة) وقوله (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) وقال (ويستخلفكم فى الأرض) فأراد سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه جنة الخلد وعلم سبحانه بسابق عمله أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس فإن النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل وكونه خلق عجولاً فلم سبحانه ما فى طبيعته من الضعف والخور . فاقترض حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعم الذى أعد له عياناً فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلباً فإن محبة الشيء وطلبه والشوق إليه من لوازم تصوره فن باشر طيب شيء ولذته وتذوق به لم يكبد يصبر عنه وهذا لأن النفس ذواقة توافة فاذا ذاقت تاقّت ، ولهذا إذا ذاق العبد طعم حلاوة الإيمان وخالطت بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئاً أبداً ، وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه المرفوع أن الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول ما يسألنى عبادى فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يارب فيقول كيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لمكانوا أشد لها طلباً فاقترض حكمته أن أراها أباهم وأسكنه إياها ثم قص على بنيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت له وسارع إليها فلم يشته عنها العاجلة بل يعد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم الحنين إلى وطنه ولا يقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

ولى من أبيات تلم بهذا المعنى :

وحى على جنات عدن فانها منازلك الأولى وفيها النعيم

أمورا يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل إلا في دار الابتلاء والامتحان فانه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ويحب التواين ويحب المتطهرين ولا ريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها تمتنع كما تمتنع حصول الملزوم بدون لازمه والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة إذا وجدها كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال أرجع إلى المكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زادته وطعامه وشرابه قاله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وسياقته إن شاء الله الكلام على هذا الحديث وذكر سر هذا الفرح بتوبة العبد والمقصود أن هذا الفرح المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب فالتوبة والذنب لازمان لهذا الفرح ولا يوجد الملزوم بدون لازمه وإذا كان هذا الفرح المذكور إنما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب فخصوله في دار النعيم التي لا ذنب فيها ولا مخالفة تمتنع ولما كان هذا الفرح أحب إلى الرب سبحانه من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المفضية إليه ليمرتب عليها المسبب الذي هو محبوب له وأيضا فإن الله سبحانه جعل الجنة دار جزاء ونواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسماؤه وصفاته فإن الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال إن الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وحكمة الرب سبحانه مقضية لعبارة هذه الدرجات كلها وإنما تعمير ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضلهم ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم . وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى (وذلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) وقوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) . قالوا وأما نفي دخولها بالأعمال كما في قوله صلى الله عليه وسلم إن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا فالمراد به نفي أصل الدخول . وأحسن من هذا أن يقال الباء المقضية للدخول غير الباء التي نفي معها الدخول فالمقتضية هي باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقضاء سائر الأسباب لمسبباتها والباء التي نفي بها الدخول هي باء المعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم اشتريت هذا بهذا فأخبر النبي ﷺ أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد وأنه لولا نعم الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وإن تنهاى

وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم) فأخبر سبحانه أن ذلك صادر عن عزته المتضمنة كمال قدرته وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضعه الأشياء مواضعها اللاتقة بها فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولا تبعاعهم ونعمته وإهلاكه لأعدائهم إلا في محلها اللائق بها لكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة ومصير كل منهم إلى ديارهم التي لا يليق بهم غيرها ولا تقتضى حكمته سواها (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) * وأيضا فإنه سبحانه اقتضت حكمته وحده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وابتدئه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف أنه قد حبي بالأنعام وخص دون غيره بالأكرام ولو تساوا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحداً إلا في مثل حاله ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجا له من العبد أن يرى غيره في ضد حاله الذي هو عليها من الكمال والفلاح * وفي الأثر المشهور أن الله سبحانه لما أرى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يارب هلا سويت بين عبادك قال إني أحب أن أشكر فاقضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الأسباب التي يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد * وأيضا فإنه سبحانه لأشياء أحب إليه من العبد من تذلل بين يديه وخضوعه وإفقاره وانكساره وتضرعه إليه * ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التي تتوقف عليها وحصول هذه الأسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يتمتع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين * وأيضا فإنه سبحانه له الخلق والأمر والامر هو شرعه وأمره ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجري عليهم فيها أحكام التكليف ولوازمها وإنما هي دار نعيم ولذرة واقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته إلى دار تجرى عليهم فيها أحكام دينه وأمره ليظهر فيهم مقتضى الأمر ولوازمه فإن الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وند أرشد سبحانه إلى هذا المعنى في غير موضع من كتابه فقال تعالى (أيعسب الإنسان أن يترك سدى) أى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا مناف لكمال حكمته وإن ربوبيته وعزته وحكمته تأبى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الإنكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر في الفطر والعقول وقبح تركه سداً معطلا أيضاً مستقر في الفطر فكيف ينسب إلى الرب ما يقبحه مستقر في فطرته وعقوله كما قال تعالى (أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) نزه نفسه سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يليق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا في القرآن كثيرة * وأيضا فإنه سبحانه يحب من عباده

وأيضا فانه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعى الشهوة والفتنة وداعى العقل والعلم فانه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده ويظهر لعباده عزته فى حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه فى سلطانه وملكوته فاقضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرفه مايجبى عواقب إجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذرا فيها وأشد هروبا وهذا كحال رجل سائر على طريق قد كملت الأعداء فى جنباته وخلفه وأمامه وهو لا يشعر فإذا أصيب منها مرة بمصيبة استعد فى سيره وأخذ أهبة عدوه وأعد له مايدفعه ولولا أنه ذاق ألم اغارة عدوه عليه وتبنيته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العدة فن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا أهبته .. فان قيل كان من الممكن أن لا يسلط عليهم العدو .. قيل قد تقدم أنه سبحانه خلق آدم وذريته على بنية وتركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذين هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق إليهم ولكن لو خلقوا هكذا لكانوا أخلاقا آخر غير بنى آدم فان بنى آدم قد ركبوا على العقل والشهوة * وأيضا فانه لما كانت محبة الله وحده هى غاية كمال العبد وسعادته التى لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلا وكانت المحبة الصادقة إنما تتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق فى طاعة مرضاته فهذا تتحقق المحبة ويعلم ثبوتها فى القلب اقتضت حكمته سبحانه إخراجهم إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحاب النفوس التى بإيثار الحق عليها والإعراض عنها يتحقق حبهم له وإيثارهم إياه على غيره ولذلك يتحمل المشاق الشديدة وركوب الأخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعى الغى والضلال ومجاهدتها بقوى سلطان المحبة وثبت شجرتها فى القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فان المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوارف هى المحبة الحقيقية النافعة وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحب من محبوبه فليست محبة صادقة ولا ثابتة لها عند المعارضات والموانع فان المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ودك لأمر ولى عند انقضائه وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبد الله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء * وأيضا فان الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذى لانهاية بعده وكان ظهور الأسباب التى يحمدها من مقتضى كونه محمودا وهى من لوازم حمده تعالى وهى نوعان فضل وعدل إذ هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلا بد من ظهور أسباب العدل واقضائها لمسمياتها ليترب عليها كمال الحمد الذى هو أهله فبما أنه سبحانه محمود على إحسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه وعقابه إذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا نبه سبحانه على هذا كثيرا كما فى سورة الشعراء حيث يذكر فى آخر كل قصة من قصص الرسل وأممهم (إن فى ذلك لآية

ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنية إلا بموافقة قضاة واتباع أمره وترك إرادات النفس وشهواتها التي يكرها محبوبهم فأنزلهم دارا أمرهم فيها ونهاهم فقاموا بأمره ونهيه فقالوا درجة محبتهم له فأناهم درجة حبه لإياهم وهذا من تمام حكمته وكمال رحمته وهو البر الرحيم * وأيضا فانه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا وسبق في حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته أفضل درجاتهم أعنى العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرارا * وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأشار إليه أن تواضع فقال بل أن أكون عبدا نبيا فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته في مقام الإسماء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال في مقام الإسماء (سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا) ولم يقل برسوله ولا نبيه إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه وقال في مقام الدعوة (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وقال في مقام التحدي (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح صلى الله عليه وسلم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بحجابه وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكرا وأعظم التذادا بما أعطاهم من النعميم فأراهم سبحانه فعله بأعدائه وما أعد لهم من العذاب وأنواع الآلام وأشدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكمل غبطتهم ويعظم فرحهم وتم لذتهم وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم ولم يكن بد في ذلك من إنزالهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم رحمة منه وفضلا وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلا وهو العليم الحكيم ولا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه ومحبوبه الذي هو أحب الأشياء إليه في أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب في أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سرورا وعظمت لذته وكملت نعمته * وأيضا فانه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته وهي الغاية منهم قال تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ومعنوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء إنما يحصل في دار المحنة والابتلاء وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف *

دار يتم عليهم فيها ذلك * وأيضا فانه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب والإيمان بالغيب هو الإيمان النافع وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إلا إيمانها في الدنيا فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه * وأيضا فان الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض والأرض فيها الطيب والخثيث والسهل والحزن والكريم واللتيم فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخثيث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره وجعل الخثيث أهل دار الشقاء دار الخثيث ، قال الله تعالى (ليميز الله الخثيث من الطيب ويجعل الخثيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) فلما علم سبحانه أن في ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم دارا استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التي هم لها أهل حكمة بالغة ومشية نافذة ذلك تقدير العزيز العليم * وأيضا فانه سبحانه لما قال للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أجابهم بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) ثم أظهر سبحانه عليه لعباده وللملائكة بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه ومن يتقرب إليه ويبذل نفسه في محبة ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيترك محبوباته تقربا إلى الله ويترك شهواته ابتغاء مرضاتي ويبذل دمه ونفسه في محبتي وأخضه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدي آناء الليل وأطراف النهار ويعبدني مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعدو إذ تعبدوني أنتم من غير معارض يعارضكم ولا شهوة تعتریکم ولا غدو أساطه عليكم بل عبادتكم لي بمنزلة النفس لأحدهم * وأيضا فاني أريد أن أظهر ما خفي عليكم من شأن عدوى ومحاربة لي وتكبره عن أمرى وسعیه في خلاف مرضاتي وهذا وهذا كانا كامينين مستترين في أبي البشر وأبي الجن فأنزلهم دارا أظهر فيها ما كان الله سبحانه منفردا به لا يعلمه سواه وظهرت حكمته وتم أمره وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون * وأيضا فانه سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ويحب التوايين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبته أعلى أنواع المكramات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنیه دارا يأنون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى المكramات من محبته فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه فحببتهم له هي غاية كمالهم ونهاية شرفهم

فلم يفتح لأحد إلا من طريقه ؛ فشرح له صدره ورفع له ذكره وعلم به من الجمالة وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغى ، وفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما وقلوبا غلفا ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله لا يرده عنه راد ، داعيا إلى الله لا يصدده عنه صاد ، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت القلوب بعد شتاتها وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار ، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار ، فلما أكمل الله به الدين ، وأتم به النعمة على عباده المؤمنين ، استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته ، والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته ، ففارق الأمة وقد تركها على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا من كان من الهاككين ، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، صلاة دائمة بدوام السموات والأرضين مقيمة عليهم أبدا لا تروم انتقالا عنهم ولا تحويلا .

(أما بعد) فإن الله سبحانه لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له في ذلك من الحكمة التي تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها فكان إهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخرة فإن الضد يظهر حسنه الضد ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها * وأيضا فإنه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاهم واختبارهم وليست الجنة دار تكليف فاهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي * وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلا وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه يخفى بينهم وبين أعدائه وامتنع عنهم فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأمواهم في مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون ذلك أصلا فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذي قدره وقضاه من إهباطه إلى الأرض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها * وأيضا فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى فمن أسمائه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرفع المعز المذل المحي المميت الوارث الصبور ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء . . . فاقضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى فيعترف فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وينتقم من يشاء ويعطي ويمنع ويبسط إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته * وأيضا فإنه سبحانه الملك الحق المبين والملك هو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويذل فاقتضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته دارا تجري عليهم فيها أحكام الملك ثم ينقلهم إلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا ، وأوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا ، واتخذهم عبداً له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلًا ، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا ، والحمد لله الذى أقام فى أزمنة الفترات من يكون بينان سنن المرسلين كفيلا ، واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا ، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموتى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قبيلا ، فكلم من قتل لا بليس قد أحيوه ، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه ، ومن مبتدع فى دين الله بشبه الحق قد رموه ، جهاداً فى الله وابتغاء مرضاته ، وبياناً لحججه على العالمين وبياناته ، وطلباً للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته ، خاربوا فى الله من خرج عن دينه القويم وصرطه المستقيم ، الذين عقدوا ألوية البدعة واطلعوا أعنة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلّفوا فى الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بديلا ، * أحمدوه وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه . وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله له سواه ، واستهديه سبيل الذين أنعم عليهم بمن اختاره لقبول الحق وارتضاه ، واشكروه والشكر كفيلا بالمزيد من عطاياه ، واستغفره من الذنوب التى تحول بين القلب وهداه ، وأعوذ بالله من شر نفسى وسيئات عملى استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطايا ، واعتصم به من الأهواء المردية والبسيع المضلة فما خاب من أصبح به معصما وبجماه نزيلا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين ، وأتحملا عن الجاحدين ، وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين ، وأشهد أن الحلال ما حله والحرام ما حرّمه والدين ما شرعه وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، أرسله رحمة للعالمين ، ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين ، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق ، وأوضح السبل ، واقترض على العباد طاعته ، وتعظيمه وتوقيره وتبجيله ، والقيام بحقوقه وسد إليه جميع الطرق

مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ

ومنشور ولاية العلم والإرادة

تأليف

الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن
قيم الجوزية قدس الله روحه الزكية

قال صاحب كشف الظنون (مفتاح دار السعادة) للشيخ شمس الدين
محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١
كتاب كبير الحجم . فيه فوائد مرسله يقتبس من مجموعها معرفة العلم
وفضله ومعرفة إثبات الصانع ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النبوة ومعرفة
الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة والفال والزجر ومعرفة أصول نافعة جامعة
بما تكمل به النفوس البشرية إلى غير ذلك من الفوائد

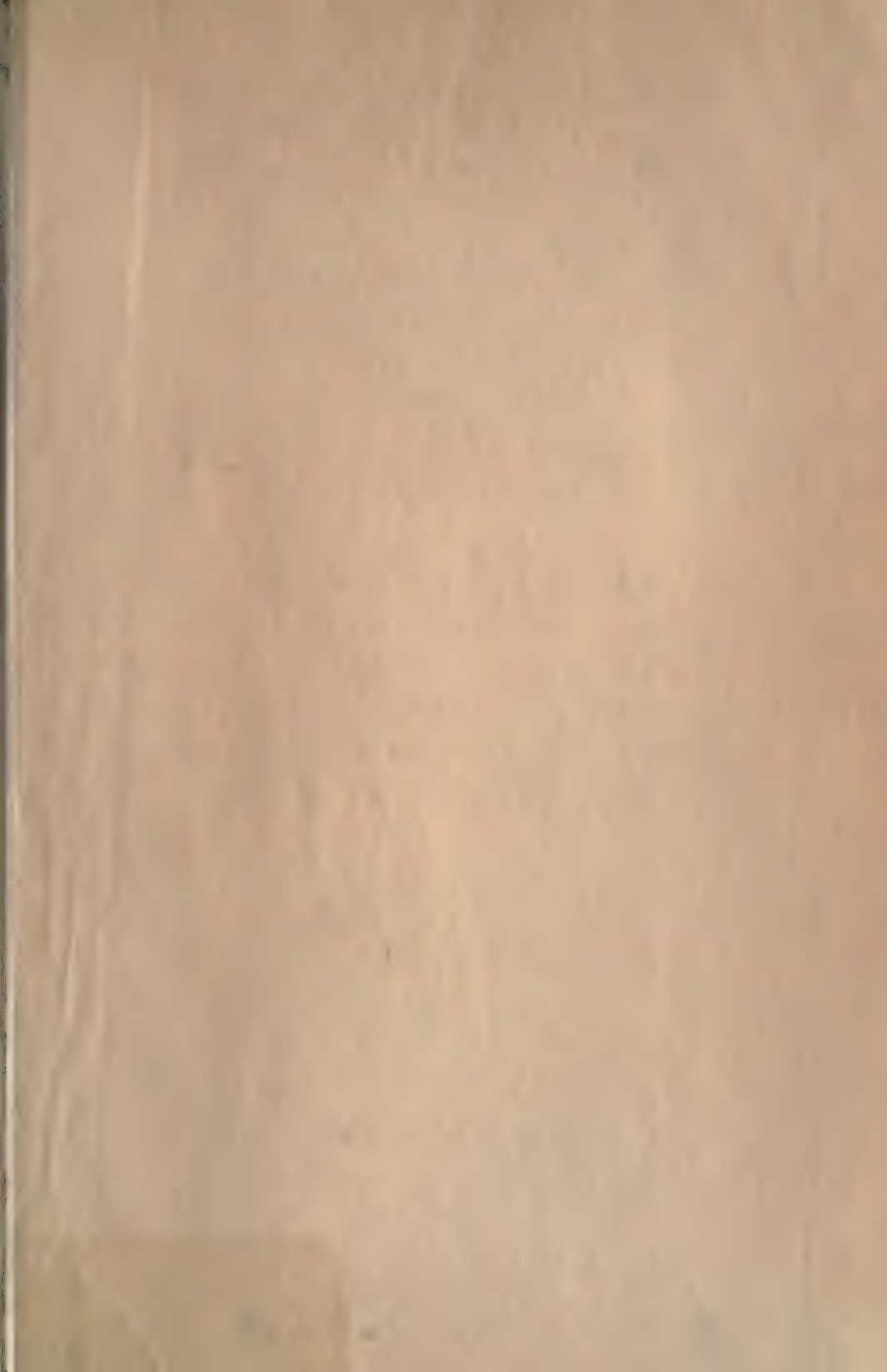
المجلد الأول

يطلب من

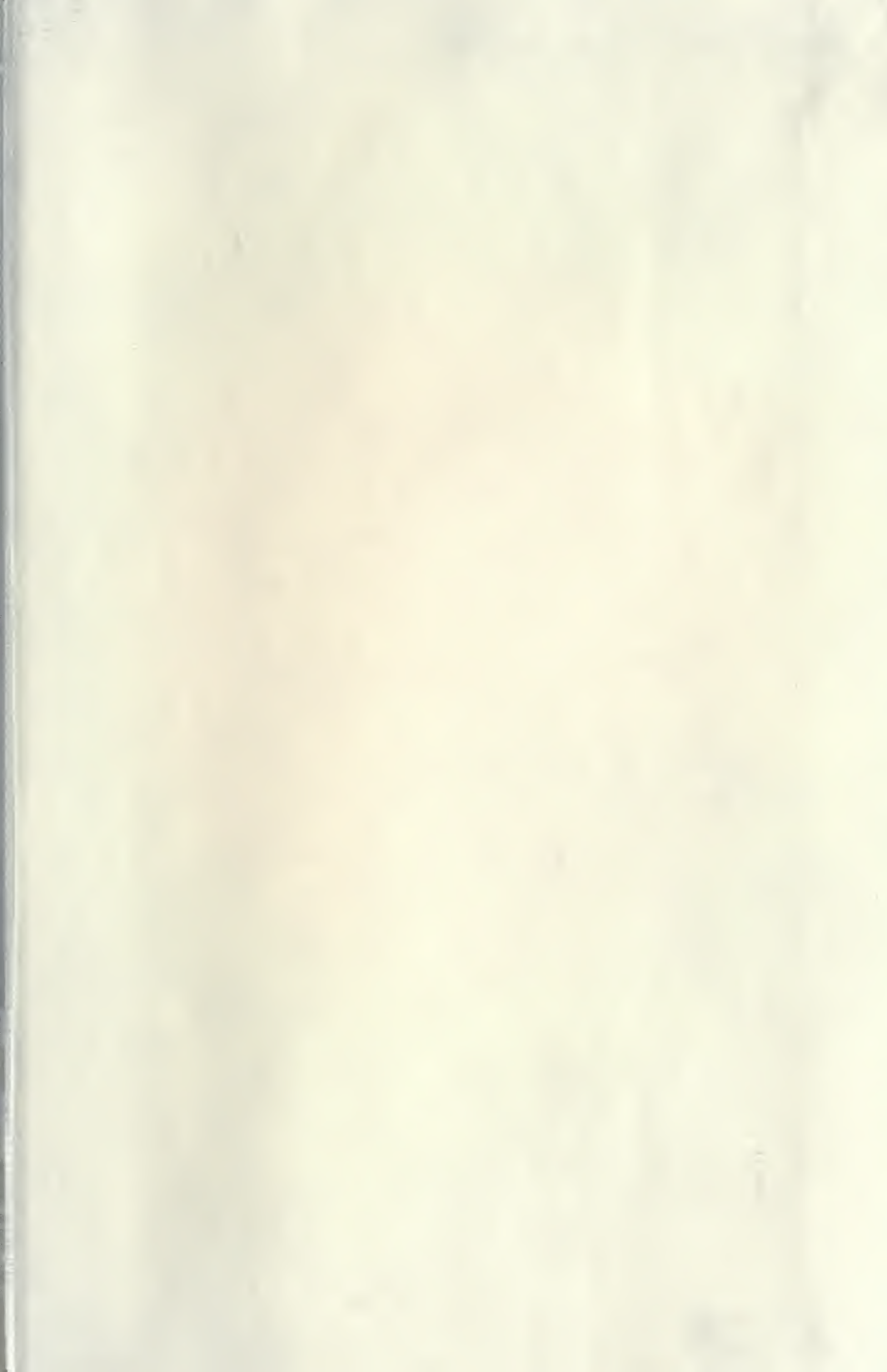
مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بيروت الزاهرة بمصر

دار النشر الحديثة للطباعة
للكتاب صبيح . تليفون ٥٠٨٥٢









READING SECT.

NOV 28 1983

**PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET**

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

(32)

